المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالـي
جامعـة الملك خالـد
عمادة الدراسات العليا

القلب وما في معناه في سياقات القرآن المختلفة

دراسة بلاغية

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في قسـم
اللغـة العربيـة بكليـة التربيـة للبنـات بأبهـا الأقسـام الأدبيـة
جامعـة الملك خالد

إعداد الطالبة
سهير بنت عيسى بن مرعي القحطاني

إشـــراف
الأستاذ الدكتور / علي عبدالحميد عيسى

أستاذ البلاغة المشارك بكلية اللغة العربية بأسيوط ـ جامعة الأزهر

شهر شعبان عام 1428هـ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

شـــــكر وتـــقدير

***

أتقدم بوافر الشكر وعظيم الامتنان لمن فتح لي عقله وأعـــــطاني مــــن وقتـه وجـــهده ، لمن كان لي عوناً في كل لحظة ونبراساً أهتدي به في كل خطوة .

أشكره بكل حرف من كتاب أرشدني إليه وبكل دقيقة جّندها لتوجيهي ونصحي إلى **الأستاذ المشرف على هذه الرسالة سعادة الأستاذ الدكتور : علي عبـــد الحميـــد عيسى** ، خالص الدعوات بأن يجعل ما قدم في موازين حسناته يوم لا ينفـع مـــــال ولا بنون .

ولا يزال الشكر موصولاً لوكالة كليات البنات وعمادة الدراســـات العليـــا والإدارة العامة لكليات البنات بأبها على ما قدمت وتقدم في ســـبيل خدمـــة العلـــم والنهوض به إلى أعلى المستويات ووزارة التربية والتعليم التي أعمل في قطاعها علـــى إتاحة فرصة الدراسة لي.كما أشكر من تكرم بقبول المناقشة وأنفق في سبيل ذلك مـــن وقته .

وأتوجه بالشكر الجزيل لعميدة كـــــلية التربية بأبهــا – الأقـــســـــــام الأدبـــية – الدكتورة : كاملة منصـــــور ،ولوكـــــيلة الدراسات العليا الـــدكتورة مريم الغامدي ، والدكتورة : سلطانة المشيقح وكيلـــة الدراســـات العليـــا ســـابقاً ، ووكيلات الكلية ، ورئيسة قسم اللغة العربية الدكتورة : خديجة الحسين الحفظي على الجهود المبذولة لتيسير دراستنا والالتحاق بكليتهن . وإذا كان من الفـــضل أن ينـــسب الفضل لأهله ، فلابد لي من أن أذكر في هذا المقام أستاذتي **الفاضلة الـــدكتور : إقبـــال هيكل ، وأستاذي الفاضل الأستاذ الدكتور : عادل ضرغام لما أمداني به مـــن كتـــب ومراجـــع** .وأن أذكــــــــر **الأســـــــتاذة الفاضـــلة : صـــــــالحة الـــسويد ، والأســـــــتاذة الفاضـــلة : حصة أبو حمامة ،والأستاذة الفاضلة : نورة مشبب** فكم كانت لهم علي أيادٍ بيضاء لا يمكن أن تنسى فلهم مني أخلص الشكر وأصدق الدعوات .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وحين يتجسد الشكر شخصاً ناطقاً فأكمل ما ينطق به شكر **والدي الــذي مـــا ادخر جهداً لتقديم العون لي ، وشكر والدتي التي مـــا فتئت تدعو لي في كل ســـجدة وقيام .**

كما أشكر أخواتي وجميع إخوتي وأزواجهم فكم كانوا عوناً لي وأخص بالشكر أخي محمد الذي كان حلقة وصل بيني وبين مشرفي .

وشكر الله كل من مد يد العون بإسداء نصح أو تسديد خطأ فجزى الله الجميـــع عني خير الجزاء وأوفاه .

الباحثة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

﴿ الفهرس التفصيلي للمحتويات ﴾

الموضـــــــــــوع	رقم الصفحة
الشكر	أ
الفهرس التفصيلي لمحتويات الرسالة	ب - ج
مقـــــدمة	**9-1**
التمهـــــــــيد	**18-10**
الفصل الأول : بلاغة القرآن الكريم في التعبير عن القلب وما في معناه في سياق القصص	**166-19**
المبحث الأول : سياق قصة موسى عليه السلام	**78-19**
المبحث الثاني : سياق قصة إبراهيم عليه السلام	**94-79**
المبحث الثالث:سياق قصة يوسف وهود،وعيسى وأيوب عليهم السلام	**112-95**
المبحث الرابع : سياق الختام القصصي	**131-113**
المبحث الخامس : سياق اليوم الآخر	**166-132**
الفصل الثاني : بلاغة القرآن الكريم في التعبير عن القلب وما في معناه في سياق أحوال المخاطبين :	**418-167**
المبحث الأول : سياق أحوال المخاطبين الكفار	**318-167**
أولاً : الصفات المشتركة **ثانيا** : الصفات الخاصة	**227-167** **318-228**
المبحث الثاني : سياق أحوال المؤمنين	**392-319**
أولاً : سياق صفات المؤمنين	**351-319**
ثانياً : سياق المن على المؤمنين	**389-352**
ثالثاً : سياق عتاب المؤمنين	**392-390**
المبحث الثالث : سياق أحوال الرسول ﷺ	**418-393**
الفصل الثالث : بلاغة القرآن الكريم في التعبير عن القلب وما في معناه في سياق الاستدلال .	**485-419**

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

رقم الصفحة	الموضـــــــــــــــــــوع
457-419	**المبحث الأول** : الاستدلال على وحدانية الله وقدرته على البعث...
432-419	أولاً : المواضع التي استدل فيها على وحدانية الله وقدرته على البعث بخلق الفلك
447-433	**ثانياً**:المواضع التي استدل فيها على وحدانية الله وقدرته على البعث بخلق النبات وإنزال المطر .
457-448	**ثالثاً** :المواضع التي استدل فيها على وحدانية الله وقدرته على البعث بخلق الإنسان.
485-458	**المبحث الثاني** : الاستدلال على ضلال الكفار وبطلان دعواهم وظهور صدق الرسول ﷺ
524-486	**الفصل الرابع** : بلاغة القرآن الكريم في التعبير عن القلب وما في معناه في سياق التشريع
505-486	**المبحث الأول** : سياق الأوامر
524-506	**المبحث الثاني** : سياق النواهي
554-525	**الفصل الخامس** : القلب وما في معناه في لغة من نزل فيهم القرآن
540-525	**المبحث الأول** : القلب والفؤاد
554-541	**المبحث الثاني** : اللب والأحلام ، والحجر ، والنهى ، والعقل
558-555	**خاتمـــــــة** .
577-559	**الفهـــــارس.**
565-559	**فهرس الآيات القرآنية**
567-566	**فهرس الأحاديث النبوية**
570-568	**فهرس الأشعار**
577-571	**فهرس المصادر والمراجع**

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المقدمة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المقـــــــــدمة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب تبصرة لأولي الألباب ، وأودعه من فنون العلـــوم والحكم العجب العجاب ، وجعله أجل الكتب قدراً وأغزرها علماً وأعذبها نظماً وأبلغها في الخطاب ، قرآناً عربياً غير ذي عوج لا شبهة فيه ولا ارتياب . والصلاة والسلام علـــى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

فقد تعددت وجوه الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم وتنوعت من جوانـــب متعـــددة ووجوه مختلفة ......

وفي كل هذه الوجوه نظر المحققون من العلماء حيث نظروا في تراكيبـــه وأســـاليبه فرأوها على درجة عالية من البلاغة, ونظروا إليه من حيث تناسب آياته وسوره وتنـــاغم الفاتحة مع الخاتمة ، فرأوه كالكلمة الواحدة في تلاحمه وتناسبه , ثم نظروا إليه من حيـــث مفرداته وألفاظه ، فرأوها قد رصفت رصفا محكما من وجوه مختلفة فمادتها إذا أدرت اللغة كلها لا تجد لها بـــدلا ولا عنها حـــــولا . وبناؤها تجـــده منسجما مع التراكيـــب , متناسبا مع غرضه .

كذلك موقعها في التركيب تجده قارا في مكانه, حتى إذا رمت لـــه نقـــلا عنـــه لا تطاوعك البلاغة .

ولهذا عني المحققون باللفظ وعدوه أساس البلاغة , يدلنا على ذلك قول عبد القـــاهر الجرجاني في بيان المقصود من البلاغة :(ومن المعلوم أن لا معنى لهذه العبارات وسائر مـــا يجري مجراها مما يفرد له اللفظ بالنعت والصفة ,وينسب فيه الفـــضل والمزيـــة إليـــه دون المـــعنى ,غير وصف الكلام بحسن الدلالة وتمامها فيما له كانت دلالـــة , ثم تبرجهـــا في صورة هي أبهى وآنق وأعجب وأحق بأن تستولي على هوى النفس ,........ ولا جهـــة لاستعمال هذه الخصال غير أن تأتي المعنى من الجهة التي هي أصـــح لتأديته ,وتختـــار له

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اللـــفظ الذي هو أخـــــص به , وأكشف عنه وأتم له , وأحرى بأن يكسبه نبلا ويظهر فيه مزية) [1] أ_هـــ فنجده حين يقول : (وتختار له اللفظ الذي هو أخص به وأكشف عنه وأتم له ..) يشير إلى أن لكل معنى لفظاً خاصاً به هو أكشف للغرض المـــراد منـــه . وتتفاوت هذه الألفاظ في أدائها للمعنى فمنها ما يقف على إفهامك حد المعنى ومنها مـــا يرقى عن ذلك فيجعلك كأنك ترى المعنى وتحسه .

ولا تقف العناية باللفظ ودقة دلالته على علماء التقعيد البلاغي بل تنبه لذلك وعني به علماء الإعجاز القرآني مثل الخطابي والباقلاني والبقاعي وغيرهم ,فالخطابي يؤكـــد لنا(أن عمود البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه :إما تبـــدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام , وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة) [2] أـــ هـــ

فجعل بذلك العناية باللفظ (عمود البلاغة) وذلك لأن أساس النظم اللفظ فكل لفظة لبنة من لبنات بناء النظم فإذا أحسن اختيارها واختيار جاراتها كـــــمل البناء , وإن كان في اختيارها ضعف سقط البناء وأصبحت ألفاظه مما في الطريق الذي يأخذ منه العامة , أو تغيرت معانيه فتنحرف عن مقصود القائل .

كما أفرد الباقلاني باباً تكلم فيه عن الفصاحة والبلاغة ذكر فيـــه فـــصاحة الـــشعر وبلاغته , ثم ذكر كيف امتاز القرآن ببلاغة فاق بها بلاغة الشعر ونظمه فقال : (ثم قـــال تعالى : " فلمـــــا جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولهـــا وســـبحان الله رب العــــالمين " [3] فـــانظر إلى مـــا أجـــرى لـــه الكـــلام .... وانظـــر إلى

1- دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق : محمود شاكر ، القاهرة مطبـــــــعة المدني ، ط 3 ، 1413 هـــ _ 1992 م : 43 .

2- إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن :الخطابي ، تحقيق :محمد خلف ، القاهرة ، دار المعارف ، ط 4 : 29 .

3- النمل : 8 .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الكلمات المفردة القائمة بأنفسها في الحسن , وفيما تتضمنه من المعـاني الـشريفة .... ثم انظر في آية آية , وكلمة كلمة هـل تجـدها كمـا وصـفنا مـن عجيـب الـنظم وبديع الرصف فكل كلمة لو أفردت كانت في الجمال غاية , وفـي الدلالـة آيـة , فكيف إذا قارنتها أخواتها , وضامتها ذواتها تجـري في الحسن مـجراها , وتأخـذ في معناها) [1] أ ـ هـ .

إذن فالجديد في لغة القرآن أنه في كل شأن يتناوله من شؤون القول يتخير له أشرف المواد , وأمسها رحماً بالمعنى المراد , وأجمعها للشوارد , و أقبلها للامتزاج , ويضع كـل مثقال ذرة في موضعها الذي هو أحـق بها وهي أحـق به ؛ بحيث لا يجد المعنى في لفظه إلا مرآته الناصعة , وصورته الكاملة , ولا يجد اللفظ في معناه إلا وطنه الأمين , وقـراره المكين , لا يوماً أو بعض يوم بل على أن تذهب العصور وتجئ العصور , فلا المكان يريد بساكنيه بدلاً , ولا الساكن يبغي عن مترله حولا , وهذا مطلب له دليله , وإجمـال لـه تفصيله .

ولما رأيت العناية بالكلمة وجوانبها المتعددة ووجوهها المختلفة وعدها عموداً للبلاغة عند المحققين , اتجهت عنايتي إلى تمثل ذلك في ذروة سـنامه , وهـي الكلمـة القرآنيـة واختلاف كل لفظة عما يظن أنه يرادفها في المعنى أو يـعبر عنها, فاخترت لفظة القلـب وما يـعد مرادفاً لها في استعمال القـرآن من اللب , والفؤاد , والعقل , والأحلام , والنهى ، والحجر وفصلت كيف أن لكل لفظة مكانها الأخص الأشكل بها وكان موضوع البحث :

﴿ القلب وما في معناه في سياقات القرآن المختلفة _ دراسة بلاغية ﴾

لتكون رسالة تقدم ضمن متطلبات الحصول على درجة الماجستير في اللغة العربيـة في تخصص البلاغة والنقد .

1- إعجاز القرآن : أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني ، تحقيق : عماد الدين حيدر ، بيروت ، مؤسسة الكـتب الثقـافية ، ط 4 : 203 .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أولاً: أهمية درس هذا الموضوع ترجع إلى :

1ــ نــدرة الدراسات وقلتها في هذا الجانب , وما كان منــها قــام علــى المعــنى العام من غير نظر إلى علائق هذا مــن الــنظم وكيــف تلاقــى كلــه لتحقيــق معنى دقيق .

2ــ كما تعود أهميته إلى وجه آخر وهو تفــرد القــرآن في تخــصيص كــل لفظــة بدلالة لا تجدها مع ما يشاركها في المعنى العــام ,بخــلاف غــيره مــن نظــوم البشر .

وهذا ــ عند تمام نضجه واكتمال النظر فيه ــ يسلمنا إلى وضــع ضــوابط دقيقــة للفروق اللغوية على أسمى نظم وأعلاه .

ثانياً : أسباب اختيار الموضوع :

1ــ اهتمام الدراسات السابقة في بلاغــة القــرآن بــالنظم كــاملا دون تفــصيل في دقة اللفظة المفردة فيه عدا بعض الدراســات الــتي عنيــت بدقــة اللفظــة ولكن دون تفصيل في ذلك ودون ذكر لفضل السياق في هذه الدقة.

2ــ أن بلاغة الكلمة أساس رئيس لبلاغة التركيب والبنــاء , ولــذا كانــت عنــد المحققين من العلماء أصلا يقــاس عليهــا , فالكــشف عــن بلاغــة الكلمــة القرآنية يؤدي إلى بيان بلاغته .

3ــ وضع ضوابط علمية قائمة علــى الاستقــصاء وتحليــل الــنظم المعجــز لمــا يظن فيه الترادف والاتفاق المعنوي .

4ــ أنها تؤسس لمشروع بحثي متكامل بحيــث يــستوعب كــل حقــول الألفــاظ التي تفترق في شيء منها , وبهذا تفتح المجال رحبا أمام الباحثين .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثالثاً : الهدف من الدراسة :

1ـ الكشف عن بلاغة القرآن الكريم في دقة استعمال اللفظة في سياق واستعمال غيرها في سياق آخر .

2ـ التأكيد على أن ظاهرة الترادف اللغوي معدومة في لغة القرآن لأن لكل لفظ قرآني خاصية فريدة , ودلالة دقيقة لا توجد في سواه من الألفاظ المشتركة معه في أصل المعنى .

رابعاً: الدراسات السابقة :

ظهرت دراسات سابقة في بيان بلاغة دقة اللفظ القرآني وهي :

1ـ (دراسات جديدة في إعجاز القرآن) للدكتور:عبد العظيم المطعني والدراسة عنيت بأربعين لفظا من ألفاظ القرآن الكريم ,ولكنها اكتفت بالإشارة إلى استعمال العرب لها واستعمال القرآن , وذكر بعض مواضعها التي وردت فيها دون استكمال جميع المواضع , ودون ذكر السياق وأهميته في تخير اللفظة , أو التعرض لنظم الآية ذاتها والكلمات المجاورة للفظة المذكورة والتي تسهم في بيان دقة الاختيار . كما أنه لم يذكر الألفاظ التي تعرضت لها في البحث ضمن الألفاظ المدروسة .

2ـ (لطائف قرآنية) للدكتور:صلاح الخالدي وقد عنيت الدراسة بموضوعات متفرقة ومن ضمنها الاهتمام بإثبات عدم الترادف في القرآن ,وكان ذلك من خلال المقارنة بين اللفظة ومرادفها في عشرين لفظة فقط , والدراسة كانت أيضا إشارات دون تفصيل أو استقصاء للمواضع ,وأيضا لم يكن من ضمن الألفاظ ما تعرضت له في البحث .

3ـ بحث منشور في كلية اللغة العربية جامعة الأزهر بعنوان (القلب في القرآن الكريم دراسة بلاغية) وقد تعرض للفظة القلب فقط.

ومن هنا كان اتجاه دراستي مخالفا لهذه الدراسات من وجوه تتمثل في:

1ـ الاستقصاء التام مع المقابلة مع جميع ما يتوهم المشاركة في المعنى .

2ـ تتبع السياق الكلي والجزئي للنظم .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

3ـــ الربط بين اللفظة موضع الدراسة وما جاورها في النظم .

4ـــ المقارنة بين موضع الدراسة وما يمكن أن يأتي عليه من احتمالات .

فالدراسات السابقة فضلا عن أنها لم تتعرض لهذه الألفاظ بالبحث والتحليل فقد اختلفت أيضا في منهج الدراسة واتجاهها .

إحصائية للآيات المدروسة في البحث :

1ـــ لفظة القلب وردت في مئة واثنين وثلاثين موضعا .

2ـــ لفظة الفؤاد وردت في ستة عشر موضعا .

3ـــ لفظة اللب وردت في ستة عشر موضعا .

4ـــ لفظة العقل وردت في تسعة وأربعين موضعا .

5ـــ لفظة النهى وردت في موضعين .

6ـــ لفظة الأحلام وردت في موضع واحد .

7ـــ لفظة الحجر وردت في موضع واحد .

جملة الآيات : مئتان وسبع عشرة آية .

خامساً : المنهج المتبع في الدراسة :

المنهج المتبع في الدراسة منهج استقرائي تحليلي .

1ـــ استقرائي : لكل المواضع التي وردت فيها الألفاظ السبعة في القرآن الكريم بحيث تجمع في سياقات كلية ,ثم لكل سياق كلي سياقات جزئية حسب وقوعها ,أو أهميتها,أو كثرة ورودها ، وهذا المنهج يعين على إدراك بلاغة التعبير القرآني في تلك المواضع عن طريق الاستغراق الحقيقي لها من غير أن يند شيء منها .

2ـــ تحليلي :

أ ـــ بالنظر في المادة نفسها ومقارنتها بما يماثلها .

ب ـــ النظر في بنيتها وموقعها معرفة أو منكرة ,نوع التعريف , ثم الجمع والإفراد , نوعها :اسم أم فعل وهكذا .

ج ـــ النظر إلى مناسبتها لجاراتها من الكلمات وكيف تلاقت معها .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

د ـــ النظر إلى توطئة النظم لها من قبل مجيئها في النظم ومن ثم يكون لكل مادة وبنـــاء توطئـــة تمهـــد لـــه وتجعلـــه قـــارا في موضـــعه ,لأن اللفـــظ يدق في موضعه عن طريق التمهيد له .

هـــ ـــ المقارنة بين المواضـــع المتـــشابهة في البنـــاء والتركيـــب في اللفـــظ الواحـــد أو ما ظاهره تكرار محض, وبيان الفروق المعنوية فيها .

و ـــ النظـــر إلى لواحـــق المـــادة ومـــا فيهـــا مـــن اخـــتلاف تبعـــا لاخـــتلاف المادة ،ومبنى هذا هو أن النظم كله لحمة واحدة ونسيج متداخل ومن ثم فإن التغيير في كلمة واحدة يستلزم تغييرا في النظم كله .

ز _ الاستعانة بالقاعدة البلاغية لفهم بنـــاء الجملـــة وموضـــع الكلمـــة فيهـــا مـــن غير أن تكون القاعدة مسيطرة على الـــنص ، أو أن تكـــون حاكمـــة علـــى الأدوات الأخرى . وبهذا تتجه الدراســـة إلى دراســـة الألفـــاظ مـــن خـــلال التراكيب واستنباط الدلالات الخاصة بكل موضع .

ج _ ضم النظير إلى نظيره ومن ذلك جمع الصفات المشـــــــــــتركة بين الطوائف المختلفة ، والمقارنة بينهم ، أو جمع لفظة من ألـــــــــــفاظ البحث مع أخري لاتفاق في السياق .

ط _ ترتيب السياقات الكلية حسب كثرة الورود ، ومن ثم ترتيب ألفـــــاظ البحث في كل سياق حسب كثرة ورودها.

ى _ ترتيب كل لفظه في سياقاتها الجزئية حسب اتفاق الســـــياق أو اتفاق المخاطب .

كـ_ المقارنة بين استعمال القرآن للألفاظ الواردة في البحث واستعمال العرب لها مـــن خلال استقصاء استعمال الرسول ﷺ لها_ اعتمادا على الأحاديث الصحيحة_ واستقصاء شعر الشعراء المخضرمين لبيان تفوق بلاغة القرآن على بلاغة العرب في أكمل صورها.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سادساً : **خطة البحث** :

أما خطة البحـــث فتشتمل على :مقدمة ,وتمهيد ,وخـــــمسة فصول في مباحث , ثم الخاتمة والفهارس على النحو الآتي :

ــ المقدمة : تشمل الحديث عن : أهمية الموضوع ,وأسباب اختياره , والهدف من الدراسة , والدراسات السابقة ,ومنهج البحث فيه ,والخطة التي يسير وفقها .

ـ التمهيد : وفيه مبحثان:

الأول : الفروق اللغوية الدقيقة للألفاظ السبعة الواردة في البحث.

الثاني : السياق وأثره في انتقاء الألفاظ السابقة .

ـ الفصل الأول :

بلاغة القرآن في التعبير عن القلب وما في معناه في سياق القصص وفيه خمسة مباحث :

الأول : سياق قصة موسي عليه السلام.

الثاني :سياق قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام .

الثالث : سياق قصة يوسف ، وهود ، وعيسى ، وأيوب عليهم السلام .

الرابع : سياق الختام القصصي .

الخامس : سياق اليوم الآخر .

ـ الفصل الثاني :

بلاغة القرآن في التعبير عن القلب وما في معناه في أحوال المخاطبين وصفاتهم وفيه ثلاثة مباحث :

الأول : سياق أحوال المخاطبين الكفار .

الثاني : سياق أحوال المؤمنين .

الثالث : أحوال الرسول ﷺ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ **الفصل الثالث :**

بلاغة القرآن في التعبير عن القلب وما في معناه في سياق الاستدلال والجدل وفيه مبحثان:

الأول :الاستدلال على وحدانية الله وقدرته على البعث.

الثاني : الاستدلال على ضلال الكفار وبطلان دعاواهم وظهور صدق ﷺ .

ـ **الفصل الرابع :**

بلاغة القرآن في التعبير عن القلب وما في معناه في سياق التشريع وفيه مبحثان:

الأول : سياق الأوامر .

الثاني : سياق النواهي .

ـ **الفصل الخامس :**

القلب وما في معناه في كلام من نزل فيهم القرآن وفيه مبحثان :

الأول : القلب والفؤاد .

الثاني : الألباب ، والأحلام ، والعقول ، والنهى .

ـــ الخاتمة : وتشمل أهم نتائج البحث ,والتوصيات .

ـــ الفهارس :

ـ فهرس الآيات القرآنية.

ـ فهرس الأحاديث النبوية .

ـ فهرس الأشعار.

ـ فهرس المصادر والمراجع.

ـ فهرس الموضوعات .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التمهيد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تمهيد

المبحث الأول : الفروق اللغوية الدقيقة للألفاظ السبعة الواردة في البحث:

أولاً : القلب والفؤاد :

القاف واللام والباء (قلب)أصلان صحيحان : أحدهما يدل على خالص الشيء وشريفه ، والآخر على رد الشيء من جهة إلى جهة فالأول القلب : قلب الإنسان وغيره ، سمي لأنه أخلص شيء فيه وأرفعه وخالص كل شيء وأشرفه قلبه[1]يقال هو عربي قلب : أي خالص ، وقلب النخلة لبها [2].

والقلب اسم للجارحة وسمي بذلك لأنه وضع في موضعه من الجوف مقلوباً ، وقيل سمي به لكثرة تقلبه[3].

واستعمال القرآن اطرد على الأصل الأول فلشرف القلب وخلوصه عبر به القرآن عن التمكن والثبات وجعله محل المنة والعقاب - كما سيظهر من خلال البحث - .

و لم يستعمله القرآن على الأصل الثاني إلا حين تغير السياق من الدنيا إلى الآخرة . وحين يستدعي السياق في الدنيا الأصل الثاني لا يستعمل القرآن لفظة القلب بل يستعمل لفظة الفؤاد : والفاء والألف والدال(فأد) أصل صحيح يدل على حمى وشدة حرارة ومما هو من قياس هذا الباب الفؤاد سمي بذلك لحرارته[4] .

---

1 - معجم مقاييس اللغة : أبو الحسن أحمد ابن فار س الرازي ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ط 1 ، 1420 هـ _ 1999م : 366/2

2 - الصحاح : الجوهري ، ت : د. إمـيل يعقوب ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ط 1 ، 1420هـ 1999م : 309/1

3 - الفروق اللغوية : أبو هلال العسكري ، بيروت ، دار الكتب العليمة ، ط 3 ، 2005م _1426هـ : 182/181

4 - معجم مقاييس اللغة : 338/2

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقيل الفؤاد من التفؤد والتوقد ، وقيل الفؤاد غشاء القلب ، والقلب حبته وسويداؤه[1] . وهذا دليل على اضطراب الفؤاد وضعفه وهذا المعنى الذي اطرد عليه استعمال القرآن للفؤاد .

وهنا تكمن دقة استعمال القرآن وتفوقه على استعمال البشر الذين استعملوا القلب على الأصلين من غير تفرقة بين السياقات وبالتالي تخير اللفظ الأخص والأشكل بكل سياق. ورد في" اللسان" :(القلوب والأفئدة قريبان من السواء)وقال الأزهري : (ولم أر العرب يفرقون بينهما)[2]يؤكد ذلك قول الثعالبي :(وفي الجوف الفؤاد وهو القلب ,ويسمى الجنان أيضاً)[3] .

1 – لسان العرب : ابن منظور ، ت : عبد الله الكبير ، محمد حسب الله ، هاشم الشاذلي ، دار المعارف : 5/ 334 .

2 – السابق : 5 / 3714.

3 - فقه اللغة وسر العربية : أبو منصور الثعالبي : 373 .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثانياً: اللب والأحلام والحجر والنهى والعقل:

اللب : اللام والباء(لب) أصل صحيح يدل على لزوم وثبات وعلى خلوص وجودة[1]، ألبّ بالمكان: أي أقام به ولزمه ، ورجل لبُ : أي لازم للأمر . ولب النخل : قلبها وخالص كل شيء لبه والحب اللباب : الخالص ، ومنه سميت المرأة لبابة[2].

فاللب يفيد أنه من خالص صفات الموصوف به[3] ، ولذا سمي العقل الخالص من الشوائب لباً ، وسمي بذلك لكونه خالص ما في الإنسان .

وقيل :هو ما زكى من العقل فكل لب عقل وليس كل عقل لباً ، ولهذا علق الله الأحكام التي لا يدركها إلا العقول الزكية بأولي الألباب نحو قوله : " وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا " إلى قوله : " أُولُو الأَلْبَابِ " [4] .

وقد ورد استعمال القرآن الكريم للب بهذين المعنيين الدقيقين : الخلوص فلم يصف به إلا خواص الخواص , والثبات واللزوم :حيث اطرد في القرآن الكريم إضافته لأولي . وسيظهر ذلك في البحث إن شاء الله .

أما **الأحلام** : فهي مادة مكونة من الحاء واللام والميم (حلم)ولها أصول ثلاثة والذي يعنينا - هنا - وعليه استعمال القرآن : ترك العجلة وخلاف الطيش [5] .

فالحلم ضبط النفس والطبع عند هيجان الغضب ، وقيل معناه عقولهم وليس الحلم في الحقيقة هو العقل لكن فسروه بذلك لكونه من مسببات العقل[6] ، وكأنه من الحلم والأناة والتثبت في الأمور ، وذلك من شعار العقلاء[7] . واستعمل العقل لكون البلوغ وكمال العقل يلازم حال تلذذ الشخص في نومه[8]

1- ينظر : معجم مقاييس اللغة : 454/2
2- ينظر : الصحاح : 1/ 326 ، 327.
3- ينظر : الفروق الغوية: 98
4- ينظر : المفردات في غريب القرآن : الراغب الأصفهاني ، دار المعرفة ، ط 3 ، 1422هـ _ 2001 م: 449.والآية:البقرة:269
5- ينظر معجم مقايس اللغة : 1/ 3132
6- ينظر المفردات في غرب القرآن : 136.
7- ينظر لسان العرب : 2/ 980.
8- ينظر الكليات : أبو البقاء الكفوي ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ط 1 ، 1412هـ _ 1992: 404

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال أبو هلال : (وقال بعضهم ، ضد الحلم السفه ، وهو جيد لأن السفه خفة وعجلة ، وفي الحلم أناة وإمهال) . وقال الفضل : (السفه في الأصل قلة المعرفة بوضع الأمور وهو ضعف الرأي) .

قال أبو هلال :(وهذا يوجب أنه ضد الحلم لأن الحلم من الحكمة ، والحكمة وجود العقل على جهة الصواب)[1].

وعلى هذا المعنى الدقيق استعمل القرآن الأحلام يدلنا على ذلك مقابلة الأحلام بالطغيان " أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ " [2] .

أما الحجر والنهى والعقل فيجمعها معنى عام رئيس وهو: الحبس والمنع مع اختلاف نوع المنع في كل منها .

فالحجر : الحاء والجيم والراء(حجر) أصل واحد مطرد ، وهو المنع والإحاطة على الشيء ، ويسمى العقل حجراً لأنه يمنع من إتيان ما لا ينبغي[3] وأصل الحجر الستر ومنه قيل للحرام حجر أي أنه مستور ممنوع،وقالوا حجرت عليه وكل هذا إمساك[4] .

وقال صاحب المفردات : (وتصور من الحجر معنى المنع لما يحصل فيه فقيل للعقل حجر لكون الإنسان في منع منه مما تدعوا إليه نفسه) [5] ويعد تعريفه أدق تعريف للحجر حيث صرح بأنه منع مما تدعو إليه النفس ، وهذا المعنى الذي استعمل فيه القرآن الحجر حيث استعمله في المنع عن الهوى كما سنرى خلال البحث .

والنهى :أصل صحيح يدل على غاية وبلوغ .والنهية العقل لأنه ينهى عن قبيح الفعل[6] .

---

1 – الفروق اللغوية : 226 .

2- الطور : 32

3 - ينظر معجم مقاييس اللغة : 336،337/1

4_ ينظر المخصص :أبو الحسين علي إسماعيل النحوي_ابن سيده_القاهرة , دار الكتاب الإسلامي : 17،18/1

5_ نظر : المفردات في غريب القرآن: 116

6_ ينظر : مقاييس اللغة :528/2

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال صاحب الفروق : (هو النهاية في المعارف التي لا يحتاج إليهـا في مفارقـة الأطفال ومن يجري مجراهم ويجوز أن يقال إنها تفيد أن الموصوف بها يصلح أن ينتهي إلى رأيه) [1] .

فالنهى بذلك فيه عموم للأمور المعنوية وعلى هذا المعنى جاء استعمالها في القـرآن وقد ظهر لي أنها تستعمل حين يظهر العناد في السياق فكأن في استعمالها تعريض بمـن لم تنههم عقولهم عن القبيح ، لذا وردت في استعمال القرآن في خطاب سيدنا موسى_ عليه السلام_ لفرعون وقد علم عناده والموضع الثاني بعد سياق الهلاك [2] .

والعقل : أصل العقل يدل على حبسه في الشيء أو ما يقارب الحبسة ومن ذلك العقـل وهو الحابس عن ذميم القول والفعل .

وقيل العقل : نقيض الجهل[3] والصواب أنه ضد الحمق كما قال صاحب الفروق وصاحب المخصص ، لأن العقل إدراك أوائل العلوم[4] ، والعقل هو التمييز الذي يتميـز الإنسان به عن سائر الحيوان[5]، وليس دون ذلك إلا الحمق وبـذلك يعـد العقـل أول درجات الإدراك فهو للأمور الظاهرة وقد أكد هذا المعنى صاحب الكليات حيث قـال : (سراج العقل إنما يظهر نوره إذا استعمل في المطالب الحقيرة كالحسيات والهندسيات) .

وقال : (ولا يحتاج إلى الحواس الباطنة حتى يدرك الجزيئات)[6] . وعلى هذا المعنى الدقيق اطرد استعمال العقل في القرآن الكريم فلم يرد البتة في الأمور الخفية الدقيقـة بـل كان ذلك للب أماالعقل فقد اختص بالظاهر من الأمور .

1- ينظر الفروق اللغوية: 98

2_ ينظر البحث ص :73

3_ ينظر مقاييس اللغة:138/2

4_الفروق اللغوية : 98 ، المخصص : 17،18/1

5_ لسان العرب :3046/4

6_ الكليات : 62

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المبحث الثاني : **السياق وأثره في انتقاء الألفاظ السابقة**:

السياق :

السياق في اللغة : ورد لفظ السياق في اللغة العربية من مادة (س وق) التي يراد بها حدو الشيء ، ساقه يسوقه سوقاً وسياقاً في معنى حداه أي دفعه أمامه[1].

وقد انساقت الإبل وتساوقت إذا تتابعت . والمساوقة . المتابعة كأن بعضها يسوق بعضاً[2] .

وقد نقل المعجميون السياق من التتابع الحسي إلى التتابع المعنوي وصرح بذلك الزمخشري في قوله : (وهذا الكلام سياقه كذا) [3] .

وحين نلاحظ استعمال القرآن لمادة سوق " وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا "[4] ،" وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا " [5] ، " وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا " [6] .

نجد فيه دلالة التتابع ، كما أن فيه دلالة على أن المسوق من جنس واحد إلى جهة واحدة فموضع مريم المسوق واحد هم المجرمون ، والجهة واحدة " إِلَى جَهَنَّمَ " وكذلك في موضعي الزمر المسوق " الذين كفروا " والجهة " إِلَى جَهَنَّمَ " والتتابع مصرح به " زُمَرًا " وكذلك " الَّذِينَ اتَّقَوْا " المسوق واحد ، والجهة واحدة " إِلَى الْجَنَّةِ " والتتابع أيضاً مصرح به " زُمَرًا " .

وفي استعمال الرسول ﷺ قوله " لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه" [7] ذات الدلالة للسياق .

1_ معجم مقاييس اللغة : 578/1
2_ لسان العرب : 2154/3
3_أساس البلاغة :219
4_مريم :86
5_الزمر : 71
6-الزمر : 73
7_ صحيح مسلم :مسلم بن الحجاج النيسابوري, ت:محمد فؤاد عبد الباقي ,دار إحياء التراث : 2232/4 ، ح 291

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وعلق صاحب اللسان على الحديث بقوله (هو كناية عن استقامة الناس وانقيادهم إليه ، واتفاقهم عليه)[1]إذن استعمال الرسول ﷺ فيه دلالة التتابع وكون المسوق واحد وهم الناس ، والاتجاه واحد أيضاً .

وهذا ما دل عليه السياق البلاغي فهو يعني أن يكون الكلام من جنس واحد في معناه ، ومن جنس واحد في ألفاظه وتراكيبه .

والتعريف الدقيق كان عند عبد القاهر الجرجاني حين تكلم عن مزايا النظم وجعل المزية (بحسب موقع بعضها من بعض واستعمال بعضها مع بعض)[2] وهذا هو السياق .

ويمكن فهم السياق من خلال كلام عبد القاهر الجرجاني بأنه: مراعاة التراكيب – أي أجزاء الكلام – بعضها مع بعض ، ودقة ملاءمة اللفظة لما يجاورها من الألفاظ .

وقد طبق ذلك الزمخشري إذ فرق بين ورود العطف وعدم وروده راداً ذلك للسياق حين فسر قوله تعالى : " إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ "[3] قال : (فإن قلت : لم قطعت قصة الكفار عن قصة المؤمنين و لم تعطف ، كنحو قوله : " إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ - وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ"[4] وغيره من الآي الكثيرة ؟ قلت : ليس وزان هاتين القصتين وزان ما ذكرت ، لأن الأولى فيما نحن فيه مسوقه لذكر الكتاب ، وأنه هدى للمتقين ، وسيقت الثانية ، لأن الكفار من صفتهم كيت وكيت ، فبين الجملتين تباين في الغرض والأسلوب ، وهما على حد لا مجال فيه للعاطف)[5] .

1_ لسان العرب : 2154/3

2_ دلائل الإعجاز : 87

3_ البقرة :6

4_ الانفطار : 13

5_ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل : الزمخشري , ت :عادل عبد الموجود ,علي معوض ,الرياض ,مكتبة العبيكان , ط1, 1418هـ -1998م :1 /162

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ودلائل اعتماد السياق كعمود لتوجيه الكلام وبيان بلاغته كثيرة في كـــلام العلمـــاء كالطبري[1]، والفخر الرازي[2] ، وأبي السعود [3] ، والآلوسي[4] . وخص هؤلاء بالذكر على سبيل المثال لا على سبيل الحصر .

- أثر السياق في انتقاء الألفاظ المنوط بها البحث :

أولاً : السياق الكلي :

للسياق الكلي أثر رئيس في ورود لفظة في استعمال القرآن الكريم من دون غيرها ســـواء كان هذا السياق سياق السورة العام ، أو سياق عام لفئة من دون أخرى ، وأعرض لذلك مثالاً بسورة الزمر فالسياق العام للسورة يدور حول معنى رئيس وهو الإخـــلاص فكـــان ورود الألفاظ ملائماً لهذا العمود حيث لم يخاطب فيها العقل أو الفـــؤاد لا بـــل خـــص بالخطاب " أولو الألباب " حيث اكتملت عقولهم فوصلوا إلى الكمال فحازوا الإخلاص ، وخصت تبعاً لذلك بالوصف قلوبهم من دون غيرها، وغير ذلك كثير .وهذا مفـــصل في البحث في هذا الموضع وفي غيره من المواضع .

كما إن السياق العام لمخاطب معين وفئة معينة يقتضي ورود لفظة من دون غيرها ليس ذاك فحسب بل يستلزم تركيباً من دون تركيب ,ومن ذلك ورود لفظة القلب مـــع المنافقين والمؤمنين دون الفؤاد لمـــا لكل منهما مــــــن ثبات على اعتقاده . كما اطـــرد خص قذف الرعب في قلوب اليهود في حين ورد الإلقاء مع الكفار لاختلاف حال كـــل منهما . ومثل ذلك كثير تفصيله في خلال البحث .

1_ ينظر تفسير الطبري :محمد جرير الطبري ,بيروت ,دار الفكر ,1405هـ: 99/2، 137/3 ، 344/3 ، 208/4، 60/5 ، 160/5، 23/6

2_ ينظر التفسير الكبير :الفخر الرازي ,بيروت ,دار الإحياء : 188/14

3_ ينظر تفسير أبو السعود : محمد الحنفي , بيروت ,دار الكتب العلمية ,ط1, 1419هـ-1999م : 55/6 ، 35/6 ، 49/6

4_ ينظر روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني :أبو الفضل شهاب الدين الآلوسي,بيروت , دار الكتب العلمية ,ط1 , 1422هـ- 2001م :5/12 ، 181/14 ، 148/16 ، 66/20 ، 28/22

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثانياً : أثر السياق الجزئي :

للسياق الجزئي أثر في انتقاء اللفظة فقد يقتضي السياق الجزئي لفظة من دون غيرها ومثال ذلك سياق أحوال الرسول ﷺ ورد في سياق من سياقاته الجزئية القلب وورد في آخر الفؤاد على الرغم من أن السياق العام واحد, ولكن حين كان السياق في تسلية وإرادة تثبيت ومواساة للرسول ﷺ كي لا يحزن من تكذيب قومه ورد (الفؤاد).

وحين كان السياق في تكليف وإنزال الذكر عليه ورد القلب ، وما ذلك إلا لتطلب السياق لكل من اللفظتين لوضعها في موضعها الأخص الأشكل بها .وإنك لتعجب حين ترى السياق الجزئي يتغير في الآية الواحدة قال تعالى في شأن أم موسى_ عليه السلام_ : " وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ "(1) حيث دل أولها على الاضطراب والوجل فورد الفؤاد أولاً, وحين أدركتها العناية اطمأنت وسكنت فورد القلب آخراً .

وكما إن لتغير السياق أثر في ورود لفظة من دون أخرى ، كذلك له أثر في تغيير دلالة اللفظة الواحدة ومثال ذلك اطراد ورود القلب في استعمال القرآن للتمكن والثبات في سياق الحياة الدنيا ولكن حين تغير السياق وكان في أحوال الآخرة تغير مدلول القلب من الثبات إلى الاضطراب والتقلب .

فالسياق إذن هو البلاغة ، والبلاغة هي السياق ، لذا تخيرت السياق أساساً لتقسيم بحثي لكي تظهر بلاغة استعمال القرآن جلية ، ومترابطة دون فصل يشتت فهم القارئ.

---

1 - القصص : 10

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفصل الأول

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفصـل الأول

بلاغة القرآن في التعبير عن القلب وما في معناه في سياق القصص ، وفيه خمسة مباحث :

المبحث الأول : سياق قصة موسى عليه السلام .

المبحث الثاني : سياق قصة إبراهيم عليه السلام .

المبحث الثالث : سياق قصة يوسف , وهود , وعيسى وأيوب عليهم السلام .

المبحث الرابع : سياق الختام القصصي .

المبحث الخامس : سياق اليوم الآخر .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المبحث الأول : قصة موسى عليه السلام

الآيات الواردة في قصة موسى عليه السلام :

1- ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ البقرة:74

2- ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ المائدة:13

3- ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ البقرة:93

4- ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ ﴾ البقرة:88

5- ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ النساء:155

6- ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ الصف:5

7- ﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ يونس: 88

8- ﴿الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ﴾ غافر : 35 .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

9- ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ القصص:10

10- ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً ﴾ الكهف:14

11- ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ البقرة:44

12- ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ البقرة:**76**

13- ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ الأعراف:169

14- ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ البقرة:73

15- ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ البقرة:75

16- ﴿ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ الشعراء:28

17- ﴿ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِأُولِي النُّهَى ﴾ طـه:54

18- ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِأُولِي النُّهَى ﴾ طـه:128

19- ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرائيلَ الْكِتَابَ ، هُدىً وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ غافر: 53ـ54

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تعد قصة سيدنا موسى - عليه السلام -أكثر القصص وروداً في القرآن الكريم ؛ لذا نلحظ استعمال القرآن لأغلب الألفاظ _ ألفاظ البحث _ فيها عدا الأحلام والحجر , بما يدق فيه كل لفظ من سياق ونظم بحيث لو أبدل به غيره لتغير المعنى أو سقطت البلاغة .

ففي سياق إخبار الله عن حال اليهود في ثباتهم على أنواع الكفر رغم النعم الكثيرة المتوالية عليهم جاء التعبير بالقلب في مواضع ثلاثة هي :

1- **﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾** (1)

2- **﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾** (2)

3- **﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾** (3)

ونلاحظ أن المواضع الثلاثة قد سبقت بنعم تترى يلين معها القلب ولكنهم فعلوا عكس ونقيض ما هو متوقع من سابقه .فالموضع الأول : جاء في سياق تعداد النعم عليهم قال تعالى : **﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾** (4)

فالآية وردت في شأن اليهود في زمن موسى - عليه السلام - ولا يمنع ذلك أن يكون اللفظ خاصاً باليهود في زمن موسى والسبب عام فيخاطب به اليهود في كل زمن ومن ذلك زمن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

1- البقرة : 74
2- المائدة : 13
3- البقرة : 93
4- البقرة : 7

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وسياق الآية في إخبار الله عز وجل عن حال اليهود بعد أن سبقت لهم الكثير من العبر والآيات والنعم المتواليات , ومع ذلك فقد قست قلوبهم و لم تعتبر , وقد أورد هنا القلب من دون الفؤاد ؛ لأن فيه معنى ثبات الوصف لهم وهو قسوة قلوبهم وتحجرها , ومن ثم فلا ينفع فيها الوعظ والتذكير , ومن ثم فلا طمع في إيمانهم ؛ لأن سبب ذلك غير موجود فيهم , كما إن القلب له سلطان على بقية الجوارح ومن ثم تأتي أفعالها موافقة لفعله بخلاف الفؤاد , ففيه تحول في المشاعر لأنه انفعال وقتي لحدث ما ومن ثم لا يدوم وقته , ومن ثم عدم الثبات عليها .

وهذا ملائم للسياق القبلي والبعدي , فالسياق القبلي يخبر عن النعم التي سبقت عليهم من الله وقد اطرد الإخبار عنها في الآيات (بإذ) التي تدل على ما مضى من الزمان , والتي تومئ إلى إرادة التذكير بتلك النعم , ولذا يقدر بعدها : " اذكر " على ما عليه جمهور العلماء (وإذ نجيناكم.., وإذ فرقنا بكم البحر.., وإذ واعدنا..)

وفي هذا دليل على أن النعم قد سبقت لهم من الله وبالتالي فهي معلومة يقيناً لديهم ومع ذلك تقسوا قلوبهم عن ذكر الله , ويلاحظ أن القرآن في ذلك كله قد جاء بضمير الخطاب مع أن النعم على أسلافهم ليدل على أنهم قد انتفعوا بها , ثم ذكرت الآيات عدم اتعاظهم بالأمور الظاهرة : إذ رأوا معجزة إحياء الميت و لم ينتفعوا بها بل أنهم بدءاً لم ينصاعوا لأمر الله حين أمرهم بذبح البقرة مباشرة بل أخذوا يسألون ما هي ؟ "قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ " (1) ، "قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا " (2) , "إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا " (3) والله يجيبهم ثم بعد أن تحدث المعجزة ويحي الله الميت بضربهم له بجزء من البقرة "فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ" (4) تقسوا قلوبهم ويعرضوا , فكل ذلك يدل على تمكن القسوة من قلوبهم وهذا ملائم للقلب ؛ لأن فيه معنى التمكن والثبات على الوصف .

1- البقرة : 68
2- البقرة : 69
3- البقرة : 70
4_البقرة : 73

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي السياق البعدي ما يؤكد أيضاً على تمكن هذه القسوة من قلوبهم حيث يخبر تعالى عن آثار هذه القسوة المتمكنة منهم في إنكاره على المؤمنين طمعهم في إيمان هؤلاء بعد أن تحجرت قلوبهم وقست تلك القسوة العجيبة ﴿**أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾ حيث بين أفعال اليهود التي فعلوها بعد كل هذه النعم وبعد هذه المعجزة فهم يسمعون كلام الله و يحرفونه وينافقون المؤمنين "وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ" ويكتبون الكتاب بأيديهم "فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ" ويدعون أن النار لن تمسهم "وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً" وينقضون الميثاق ويقتلون أنفسهم "وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ" ، "ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ" وكل هذه الأفعال لا يفعلها إلا من ثبتت القسوة فيه وأصبحت طبعاً لا ينفك عنه وهذا ملائم للفظة القلب لا الفؤاد . وقد تلاءمت بنية الكلام مع غرض بيان ثبات هؤلاء على قسوة القلب وتمكن ذلك منهم , ودارت حوله سواء في " قست قلوبهم " فوصف القلوب بالقسوة : وأولت القسوة في اللغة بمعنى غلظت ويبست وصلبت , والقسوة في القلب ذهاب اللين والرحمة والخضوع والخشوع منه (1). ووصف القلوب بالقسوة والغلظ مثل لنبوها عن الاعتبار وأن المواعظ لا تؤثر فيها (2). وقد وردت "قست" دون غلظت ويبست وصلبت , لأن اليبس يكون بعد اللين فيابس النبات ما كان فيه رطوبة فذهبت واليبس المكان يكون فيه ماء فيذهب (3) , وقلوب اليهود لم تلن و لم تكن لينة أصلاً بل هي قاسية لم يعترها لين البتة , والغلظة تكون في الطبع والفعل وتكون أيضاً في الخلق (4) , أما القسوة فتكون غالباً في الأشياء فهي أشد من الغلظة إذن , قال صاحب الفروق : (القسوة تستعمل فيما لا يقبل العلاج , ولهذا يوصف بها القلب وإن لم يكن صلباً) (5). وهذا أدخل في ذم اليهود .

1-معاني القرآن وإعرابه:أبو إسحاق السري,ت : عبد الجليل شلبي,بيروت,عالم الكتب,ط1, 1408هـ-1988م:155/1.

2- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل :286/1

3-المفردات في غريب القرآن : 551

4- لسان العرب : 3282/5

5- الفروق اللغوية : 125

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ونجد أن استعمال لفظة قست في القرآن الكريم مع القلوب في كل المواضع الـــتي وردت فيها قد سبقها في السياق عبر وآيات تكون المظنة فيها لين القلوب لا قـــسوتها , وهـــذا أدخل في المذمة والتوبيخ , إذ قد جاء الشر حيث يتوقع الخير, واطرد السياق بذلك سواء كان في سورة الأنعام ﴿**فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَـــسَتْ قُلُـــوبُهُمْ**﴾ (1) , وموضع سورة الحديد ﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَـــسَتْ قُلُـــوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ**﴾ (2) وموضع سورة الزمر ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَـــاءً فَسَلَكَهُ**﴾ (3) ثم قال تعالى:(**أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْـــلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ**﴾ (4) ' وموضع سورة الحج ﴿**لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ**﴾ (5), وسياق المائدة ﴿**فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَـــاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً**﴾(6), وقد زاد موضع سورة البقرة " ثم قست قلـــوبكم " عن تلك المواضع جميعها في الترقي في القسوة حيث وردت (ثم) التي تدل على التـــراخي الرتبي ؛ للدلالة على أن الثاني أبعد رتبة مما قبله , فكأنه قد جعل إعراضهم السابق كلـــه هيناً بجانب ما سيأتي من قسوة القلوب , ثم ترقى في الدلالة على القسوة بدلالة التشبيه ثم تفضيل المشبه به على المشبه , حيث جعل قلوب اليهود أشد قسوة من الحجارة, وذلـــك لأن حال اليهود يغاير حال غيرهم في شدة قسوة قلوبهم , ولأنه أول موضع في الحـــديث عنهم , كما إن سياق البقرة في بيان انهمار النعم عليهم مع عدم تأثرهم بها كما تقدم

1- الأنعام : 43
2-الحديد : 16
3- الزمر : 21
4- السابق : 22
5-المائدة :13
6- الحج :53

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فكل السياقات تدل على عدم اعتبارهم على الرغم من العبر المشاهدة أمامهم فقست قلوبهم عنها و لم تلن , والفعل الماضي (قست) يدل على أن الصفة عرضت لهم فتمكنت منهم , حيث صادفت فيهم قبولاً واستعداداً , إذ إن القلب من شأنه _ كما ذهب الفخر _ أن يتأثر عند مطالعة الدلائل والآيات والعبر وتأثره عبارة عن ترك التمرد والعتو , فإذا عرض للقلب عارض أخرجه عن هذه الصفة صار في عدم التأثر شبيهاً بالحجر فيقال : قسا القلب وغلظ[1]. ويتضح لي أن هذا أولى من قول الزمخشري والذي وافقه عليه صاحب البحر المحيط :(إن قلوب اليهود صلبة لا تخلفها الخوارق كما إن الحجر خلق صلباً إشارة إلى أن اعتياض قلوبهم ليس لعارض,بل خلق ذلك فيها خلقاً أولياً)[2] , وذلك لأن الآيات تقول (ثم قست قلوبكم) بمعنى أن القسوة حادثة وليست أصلية , وفي موضع آخر قال تعالى : (وجعلنا قلوبهم قاسية) بمعنى صيرناها لا خلقناها , وذلك لأنه سبقها سبب أدى إلى تحويلها , وفي السنة قال صلى الله عليه وسلم : "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ألم تروا إلى البهيمة تنتج البهيمة فما ترون فيها من جدعاء"[3] , كما إن المذمة والتوبيخ المقصودين من النظم إنما يكونان عند التحول إلى هذا الوصف ثم الثبات عليه , بخلاف ما إذا كان ذلك الوصف قد خلق فيها خلقاً أولياً فلا ذنب لهم في ذلك .

واستعمال القلب في هذا الموضع دون الفؤاد ملائم للسياق لأن القلب محل الاعتقاد الجازم والغرض هنا بيان ثبات هؤلاء على القسوة وتمكن ذلك منهم .

وقد تلاءمت بنية الكلام مع هذا الغرض المراد ودارت حوله سواء في بناء النظم على الخبر ؛ كأنه يحكي لغيرهم أمرهم زيادة في توبيخهم وذمهم , أو خلو الخبر عن التأكيد للإيماء إلى شهرة ذلك منهم ومعرفته عندهم , أو في استعمال اللفظة ـــ قلوبكم ـــ جمعاً وذلك لأن الأغلب والأعم في اليهود مخالف وعات عن أمر الله , ومضافة إليهم ليخصص هذه القلوب بهم حيث إن هذه القسوة في قلوب اليهود خاصة دون قلوب

1- التفسير الكبير : 555/1.

2-الكشاف:286/1 .

3-الحديث :في الجامع الصحيح المختصر:البخاري,ت:مصطفى البقا,اليمامة,دار ابن كثير,ط1, 1407هـ :457/1رقم الحديث 1293 .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

غيرهم . وفي قوله تعالى "من بعد ذلك" زيادة "من" للدلالة على تمكن القسوة من قلوبهم وشدتها , ومن ثم زيادة توبيخهم وذمهم لأن "من بعد ذلك" يغاير "بعد ذلك" إذ يدل الأول على أن القسوة كانت بعد أن شاهدوا الآيات بروية وتمهل , واستيقنوها في أنفسهم , ثم جحدوها ألا ترى إلى قوله تعالى في النمل ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً**﴾[1] وذلك مطرد في سياق القرآن قال تعالى:﴿ **أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ**﴾[2], قال: (من بعد), ولم يقل: بعد , وذلك لأنهم سمعوا كلام الله وعقلوه بروية ثم بعد ذلك حرفوه , وقوله تعالى:﴿ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾[3] , وقوله في شأن يوسف عليه السلام ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾[4] فالسياق يدل على نظر وروية قبل التصرف ومن ثم فهم علموا براءته ومع هذا سجنوه .

ولننظر إلى قوله تعالى في سورة المائدة ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ﴾[5] وذلك لأن الكفر بعد الرؤية والمشاهدة الحاكمة بصدقه عليه السلام , أدل على العناد والكفر , فلذا كان العذاب أقسى وأشد , فحذف (من) هنا يشير بعدم إعمال العقل في الآية وتدبرها بعد رؤيتها , ومن ثم رفضها والكفر بها لذاتها , ولأن الكلام على المائدة وهي مشاهد محسوسة مؤقتة بزمن نزولها , وليس في هذا بعد زمني .

وكذلك قوله تعالى:﴿ **وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾[6] بمعنى مباشرة دون روية إذا تذكر فلا يقعد مع الظالمين بعكس (من بعد) التي توحي بتراخٍ زمني .

كذلك لا تصلح (من) في (بعد الذكرى) لأنه لو قال له (من بعد الذكرى) لأوهم أنه -ﷺ-مكث فترة تروى فيها وانتظر , وهذا لا يليق بحاله -ﷺ- لأنه يسارع إلى الامتثال عقب التذكر .

1- النمل : 14 — 2-البقرة : 75
3-النساء : 153 — 4- يوسف : 35
5-المائدة : 115 — 6-الأنعام : 68

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إذن فمدار حذف (من) في النظم القرآني على المسارعة إلى الفعل أو الكف عن ذلك على حسب الغرض الدقيق , من مدح أو ذم .

وهنا ذكر (من) يؤيد ذم اليهود الذين تمكنوا من التفكر لكن قلوبهم عازمة على الكفر والعتو . وقوله تعالى : (فهي كالحجارة) استعمل الجملة الاسمية والتي تدل على الثبات والدوام وهكذا كانت قلوبهم . ثم شبهها بالحجارة واستعمل في التشبيه الكاف و لم يستعمل مثل أو كأن وذلك لأنه يريد أنها تشبهها في صفتها لا ذاتها و لم يستعمل كأن لأن هناك فروقاً على الرغم من وجود الشبه بين قلوب اليهود والحجارة وضحها تعالى من خلال الآية , وقال تعالى:(كالحجارة) بالجمع وذلك لأن قلوبهم متفاوتة في القسوة كما أن الحجارة متفاوتة في الصلابة , فلو قيل كالحجر , لأفهم ذلك عدم التفاوت إذ يتوهم فيه من حيث الإفراد ذلك [1] . ويحتمل أن يراد بالجمع معنى آخر , وهو المبالغة في قسوة قلوبهم , حتى كأنها كالحجارة مجتمعة ؛ لأن الجمع أدل على ذلك ؛ إذ الحجر الواحد قد يلين , فإذا اجتمعت كانت أقسى .ثم قال تعالى : " أو أشد قسوة " قال الزمخشري هنا (أو) للعطف والمعنى أن من عرف حالها شبهها بالحجارة أو بجوهر أقسى منها [2]. وقال الرازي : إن الغرض ليس التردد بين الوصفين بل نفي غيرهما [3] .

وقد تدل (أو) هنا على ثبات الوصف الأول وعدم الشك فيه , فهم على أقل تقدير في القسوة كالحجارة وهذا ملائم للسياق . وقيل: (أو) كلمة تدل على بهم الأمر وخفيته فيقع الإبهام والإيهام , وهذا الإبهام بالنسبة إلى الرائين لهم من الآدميين , وأما الله تعالى فهو العالم بكل شيء قبل خلقه كعلمه به بعد خلقه[4] .

1- البحر المحيط : أبو حيان الأندلسي,ت:عادل عبد الموجود,علي معوض,بيروت,در الكتب العلمية ,ط1, 1422هـ-2001م: 428/1

2- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل : 286/1

3- التفسير الكبير : 556/1

4- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور:إبراهيم البقاعي,بيروت,دار الكتب العلمية,ط1, 1415هـ-1995م : 174/1

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وليس ذلك للإبهام بمعنى الإبهام وإنما للترقي بالمخيلة أن تتخيل هذه القسوة حيث يظهر لي أن ما يناسب السياق أن (أو) هنا للترقي في التشبيه والترقي هنا متساوق مع النظم حيث بين أولاً قسوة قلوبهم وشبهها بالحجارة , ثم قال بأنها أشد قسوة فأتى بالتفضيل من القسوة بوساطة (أشد) مع أن الفعل : (قسا) مما يؤتى بـ (أفعل) التفضيل منه مباشرة , فيقال : (أقسى) والسبب في ذلك ـ والله أعلم ـ أن الإتيان بـ(أشد) أبين, وأدل على فرط القسوة , ولأنه لا يريد معنى (الأقسى), ولكن قصد وصف القسوة بالشدة , كأنه قيل : اشتدت قسوة الحجارة , وقلوبهم أشد قسوة [1] ,

وقال ابن المنير: إن سياق هذه الأقاصيص قصد فيه الإسهاب لزيادة التقريع ، ولا شك في أن قوله:(أو أشد قسوة) أدخل في الإسهاب من قول القائل:(أو أقسى)[2]. فتحويل النظم هنا للمبالغة في القسوة وهو ما يتلاقى مع الترقي , ثم ترقى في السياق بأن قال: (وإن من الحجارة ..) فأتى بالجملة مؤكدة بإن ، وقال (من الحجارة) وذلك لأن الحجارة أنواع متفاوتة في الصلابة , ومع ذلك فهي ألين من قلوب اليهود فمنها ما يتفجر منه الأنهار , وقال يتفجر دلالة على الماء الكثير, وقال(الأنهار)ولم يقل الماء تأكيداً على كثرة الخير والماء فيها , ثم قال (وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء) (يشقق) على وزن يتفعل للدلالة على استمرار هذا التشقق وبالتالي استمرار خروج الماء , والتشقق يكون للشيء اللين ولكنه استعمله مع الحجارة ليفضلها على قلوب اليهود . وقال تعالى:(وإن منها لما يهبط من خشية الله) فقال مؤكداً أيضاً (وإن من الحجارة) لما يهبط ، ولم يقل ينزل دلالة على الإقامة في الهبوط , فالحجارة مستمرة على خضوعها وخشوعها لله وهذا ما لم يكن في قلوب اليهود .

1-نظرات لغوية في القرآن الكريم : د.صالح العايد , الرياض,كنوز إشبيليا , ط3, 1425هـ-2004م: 81 , 82

2-الانتصاف حاشية ابن المنير على الكشاف ,الرياض,مكتبة العبيكان , ط1, 1418هـ-1998م : 286/1

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فترى الترقي في التشبيه ووصف قلوب اليهود فهي كالحجارة ثم إن قوله الحجارة منها ما هو كذا ومنها ما هو كذا دالٌ على المبالغة في القسوة . وكأنه عز وجل يفتح أمام القارئ المخيلة كي يتخيل قسوة قلوب هؤلاء اليهود وفي كل ذلك من الإخبار عن قسوة قلوبهم , وقوله من بعد , وتشبيه قلوبهم بالحجارة , وتفضيل الحجارة على قلوبهم , وتأكيد ذلك (بإن) دلالة على تمكن القسوة فيهم وذلك ملائم للقلب الذي يدل على التمكن في الوصف والثبات عليه .

والموضع الثاني في سياق الإخبار عن حال اليهود وصفاتهم في قوله تعالى: ﴿**فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾ (1)

فمن البين أن الآية في شأن اليهود والسياق إخبار الله عنهم ، فالسياق يدور حول محورين تتابع نعم ثم إعراض وتكذيب , فالنعم بعث الله منهم اثني عشر نقيباً وأخبرهم بمعيته , وأوصاهم بما يوصلهم إلى النصر , ووعد الله لهم بتكفير ذنوبهم والتفضل عليهم بدخول الجنة , أما الإعراض : نقض الميثاق ومخالفة الله , وهذا الإعراض بعد النعم دال على ثبات وتمكن القسوة منهم لذا وردت القلب دون غيرها .

ويذكر السياق البعدي مخالفتهم لموسى — عليه السلام — مع تفضل الله عليهم, وجعل منهم أنبياء وملوكاً ومع ذلك يتراجعون عن القتال مع رسولهم , ثم يمتد بهم العتو في السياق البعدي فهم سماعون للكذب أكالون للسحت لا يحكمون بما أنزل إليهم في التوراة ويستهزئون بالمؤمنين ويتجرأون على الله وهم أشد الناس عداوة للذين آمنوا وهذا كله يؤيد ملاءمة السياق للفظة القلب حيث دل على ثبات صفة القسوة في قلوبهم .

ويلاحظ أن نظم الجملة قد جاء سبباً عن سابقه , حيث قال: (فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية ..) فالباء في (فبما) سببية , وفي بناء (ما) المزيدة ما

1- المائدة: 13

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يوافق استعمالها المتسع فإن مدة الألف المتسعة في آخرها تشاكل الاتـــساع في معناهـــا[1] حيث تدل على تطاول ذلك منهم وتنوع المواثيق التي نقــضوها , وأن الله لم يعاجلـــهم بالعقوبة (لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية) إذ هو سبحانه كريم لا يؤاخذ من أول مرة , بـــل أخرهم وأمهلهم فـــــلم يزدادوا إلا نقـــــضاً بخــــــلاف ما لو قـــال: (فبنقـــضهم) . وقال: (ميثاقهم)ولم يقل عهدهم وذلك لأن الميثاق موثق أكثر من العهد وأضافه إلـــيهم فهو ميثاق يعرفونه ويعلمونه ورضوا به , ومع ذلك ينقضونه, ولذا كان جزاؤهم (لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية) قال (جعلنا) ولم يقل طبعنا على الرغم من أن الأفعـــال المـــذكورة والذنوب الواردة في الآية كثيرة ولكنه استعمل (جعلنا) فليس المقصود أن الجعل هنا كان ليناً بل لأن في معنى جعل تغيير الشيء على حالة دون حالة وهذا التغيير بإيجاد الأثر فيـــه كما إن الجعل يدل على الاتصال[2] , وهذا ما يلائم السياق فقد تغيرت حـــال قلـــوبهم بالقسوة واتصلت هذه القسوة في قلوبهم وقلوب من جاء بعدهم ويدلنا على ذلك أفعالهم التي وردت على مـــر الزمان ســـواء كان في زمن مـــوسى ـ عليه السلام ـ إلى زمن محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعنى التحويل يلائم تقدم السبب الذي أدى إلى هذا التحويل .

1-بدائع الفوائد : ابن قيم الجوزية , بيروت دار الكتاب العربي : 131/1
2-الفروق اللغوية : 154

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهذه الدلالة على الاتصال والاستمرار في جعلنا وإضافتها إلى (نا) التي تدل على شدة غضب الله عليهم وتناهى ذلك يلائم القلب ولذلك قال (قلوبهم) , ولم يقل (أفئدتهم) لأن صفة القسوة فيهم ثابتة متصلة لا تغير لها , ولذا ترتب عليها أفعال لازمة لها (يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به) ولا قسوة أشد من الافتراء على الله وتغيير وحيه وتركهم نصيباً جزيلاً وقسطاً وافياً من التوراة حيث فسدت قلوبهم فحرفوا التوراة وزالت عنهم أشياء من حفظهم, وعن ابن مسعود رضي الله عنه:(قد ينسى المرء بعض العلم بالمعصية وتلا هذه الآية)[1] .

ونلاحظ أن النظم أخر في الجزاء (جعلنا قلوبهم قاسية) عن (لعناهم) وقد يكون ذلك لأنه أشد وأبعد في الجزاء ، وقد يكون لأنه ألصق ما بما يأتي بعده من أفعالهم من تحريف ونسيان الكتاب فيكون شبيهاً به ومن جنسه وهذا عندي أقوى لأن النظم لا يمنع أن يكون تقدم اللعن -وهو الطرد من رحمة الله - فكان ألصق به جعل قلوبهم قاسية فالبعد عن الله يورث القسوة ثم أورثت القسوة في قلوبهم الأفعال التي صدرت منهم بعد ذلك .

وقال تعالى : " يحرفون " والتحريف يكون غالباً بسوء التأويل إتباعاً للهوى ، ويكون بكتمان أحكام كثيرة مجاراة لأهواء العامة[2] . إذن فتبديلهم ليس أي تبديل ولكنه تبديل بالسيء ، وقال (عن مواضعه) دلالة على أنهم عرفوا الأحكام ومواضعها ومع ذلك يحرفونها ، وقال (ونسوا حظاً) بالتنكير في (حظاً) وقيل : إنه للتعظيم أو للتكثير ، ويظهر لي أن التعظيم أولى وذلك لأنه استعمل كلمة (حظاً) ولم يقل نصيباً والحظ يكون للشيء العظيم ولأن أصل الحظ هو ما يخطه الله تعالى للعبد من الخير ويقال أيضاً : لما يرتفع به المحظوظ ، وهذا أدخل في ذمهم حيث كان من نتاج قسوة قلوبهم ، ولعن الله لهم وإبعادهم عنه أن نسوا ما منحهم الله وذكرهم به لسموا بهم إلا أنهم نسوه نتيجة لقسوة قلوبهم ، ولم يقل نصيباً لأن النصيب قد يدخل في المكروه وقد يكون فيما لايرفع الشأن لكن هم نسوا ما يرفعهم يقيناً دون شك وهذا يلائم سياق الآية في عقابهم فعكسهم استخدام النعمة التي أنعم عليهم بها أدخل في ذمهم وأليق بوصفهم بالقسوة ، ثم قال تعالى: (ولا تزال تطلع على خائنة منهم) انتقل من ذكر نقضهم لعهد الله إلى خيانتهم

1-الكشاف عن حقائق غوامض التتريل وعيون الأقاويل : 216/2

2- الفروق اللغوية : 186

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لعهدهم مع رسول الله- ﷺ- ، وفعل (لا تزال) يدل على استمرار (وتطلع) فيه تضعيف : يدل - مع التدرج في الشيء والتكلف والعمل المتكرر- على قوة المعنى المحدث به قال ابن جني : " فلما كانت الأفعال دليلة المعاني كرروا أقواها , وجعلوه دليلاً على قوة المعنى المحدث به [1] , وذلك يدل على أنهم أتقنوا الخيانة وصارت صناعتهم حتى إن الرسول -ﷺ_ يطلع عليها بكلفة وتمهل , فكيف بغيره ؟ فلا يغتر بهم مهما كانت ظواهرهم . (على خائنة) الفعلة خائنة , والنية خائنة , والكلمة خائنة , والنظرة خائنة , يجملها النص بحذف الموصوف وإثبات الصفة " خائنة " لتبقى الخيانة وحدة مجردة تملأ الجو , وتلقي ظلالها وحدها على القوم , فهذا هو جوهر حيلتهم , وهذا هو جوهر موقفهم , مع الرسول _ﷺ_ ومع الجماعة المسلمة [2] .

فإذن كان استعمال القلب هنا أدق لأن فيه الثبات والقرار على الاعتقاد وإن كان فاسداً وتمكن الوصف من القلب ورد في الآيات ما يؤكد تمكن القسوة من قلوبهم وثباتهم على اعتقادهم الباطل . ولذلك نجد أن الله لم يصف النصارى في الآية التالية " بالقلوب القاسية " وذلك لأنهم ادعوا أنهم أنصار الله , و لم يروَ عنهم في الآية من الذنوب التي فعلها اليهود والتي تجعل قلوبهم قاسية كقلوب اليهود حيث إن اليهود عرفوا الحق يقيناً وخالفوه , أما النصارى فقد ضلوا عن الحق بجهلهم وفرق كبير بين الموقفين لذلك قال تعالى في ختام الآية " وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون " , حتى لا يعاقبهم إلا بعد علمهم بذنوبهم وذلك لأن جهلهم إهمال منهم , ونسيانهم العلم بسبب معاصيهم .

ثم إن السياق العام للمائدة في تفضيل النصارى على اليهود ، إذ جاء بعد ذلك ما يدل على هذا ﴿**لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصار**﴾ فلا يمكن أن يقول في حقهم قست قلوبهم ، وقاسية ، ثم يأتي بعد ذلك ما يدل على اللين :﴿ **وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ**﴾[3]

1-الخصائص:ابن جني,ت:عبد الحميد هنداوي.بيروت,دار الكتب العلمية,ط2, 2002م-1424هـ: 507/1

2- في ظلال القرآن:سيد قطب,القاهرة,دار الشروق,ط1,1425هـ-2004م: 859/2   3-المائدة : 83

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي موضعي البقرة والمائدة وصف قلوب اليهود بالقسوة سوى أنه أخبر بالفعـــل في موضع البقرة وباسم الفاعل في المائدة وذلك لأنه كما ذكرت أراد أن يبين في سورة المائدة ثباتهم على هذه القسوة ، فسياق السورة كاملاً يدلل على بعدهم عن رحمة الله حيث ذكر من الأفعال ما لا يتأتى معه رحمتهم أو حتى لين قلوبهم ، كما أن السياق في المائـــدة أراد بيان السبب في الجزاء وأنه من جنسه ، فكما كان النقض بالاسم كانت القسوة كذلك .
وفي سورة البقرة يبين لنا وصف هذه القلوب وشبهها بالحجارة لأنه ورد في الآيات قبلها من الآيات المشاهدة عياناً ما يلين القلوب لكن اليهود خالفوا فكانوا أســوأ حــالاً مــن الحجارة ، ولا يخفى علينا توافق الأثر الناتج عن قسوة القلوب ، ففي سورة البقرة تحريف لكلام الله وخيانة للمؤمنين : " وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم " [1] ، وخيانة لميثاقهم : "فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله " [2].

وفي سورة المائدة كذلك : "يحرفون الكلم من بعد مواضــعه" [3] ، " ولا تــزال تطلع على خائنة منهم ". وفي البقرة جاء النظم مبنياً على فاعلية : القلــوب : "قــست قلوبكم" ، لكن في المائدة وقعت مفعولاً : "جعلنا قلوبهم قاسية" ، وذلك لأن الــنظم في البقرة على أفعالهم هم وصفاقم هم أولاً ، لكن في المائدة على عقاب الله لهــم وجزائــه إياهم ابتداءً ، ولذا نجد السطوة الظاهرة في المائدة أظهر وأبين ، وصوت الألوهية القــادر في المائدة جلياً واضحاً ، فلذا بني النظم على الجزاء والعقاب ، كما إن النظم في البقــرة على الخطاب سواء حملنا ذلك على تغليب الحاضر على الغائب فالمخــاطبون في عهــد الرسول – ﷺ– ساروا على خطى من كانوا قبلهم بل أنهم أسوأ لأنهم كــذبوا محمــداً ــ ﷺـــ وصفته واسمه موجودة لديهم ، أو على الالتفات وفي ذلــك تربيــة للمهابــة والخوف في قلوب اليهود بخلاف موضع المائدة فهو على الغيبة ، وذلك يتلاءم مع اللعن وما فيه عن الإبعاد والطرد .

---

1 -البقرة : 76
2 _ البقرة : 79
3- المائدة : 41

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولا ريب أن الغيبة باللعن أشبه لما فيها مـــــــــن البعد ، ولذا ترى النظم في الآية السابقة – عندما كان الحديث فيه قرب – ورد الخطاب ، قال الله : "إني معكــــــــم لئن أقمـــتم الصلاة " (1) . فنلاحظ دقة القلب في سياقها ونظمها ـــ على اختلاف طريقة النظم تبعاً للسياق ـــ ولا يمكن أن يؤدي معناها غيرها .

والموضع الثالث : في الإخبار عن ثبات اليهود على حب العجـــل ودوام حـــالهم عليه، وذلك في قوله تعالى : ﴿ **وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّـــورَ خُـــذُوا مَـــا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُـــلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** ﴾ (2) ، وذلك لأن حب العجل تغلغـــل إلى كل ذرة من كيانهم , ولما كان للقلب سلطان على بقية الجوارح فتتأثر به وتنفعل له كان ما أشربه القلب مشرباً أيضاً لكل عضو آخر على سبيل الأولى , إذ هو موضع التأثير , ثم إن فيه إيماء إلى سريان ذلك إلى ذراريهم من بعدهم لأنه صار في أنسجتهم , يتوارثونه من بعدهم كما يتوارث أبناء الدم الواحد واللحمة الواحدة , وهذا لا يتأتى مع لفظ آخـــر كالفؤاد مثلاً أو الذات , لأنه يدل على التنقل و الاضطراب وعدم الثبات , وهذا ما يثبت علمياً ففي ملخص لبحث علمي نشر في انجلترا بعد زراعة قلب من إنسان لآخر , صـــار للثاني الصفات نفسها التي كانت للأول وصار كأنه هو , إذن فالقلب هـــو مـــستودع الصفات و الأخلاق , وليس أي موضع آخر في الجسد , ولذا لم يقل القرآن " وأشـــربوا العجل " مثلاً مع أن الذات أو الجسد أدل على التغلغل إلى كل ذرة من كيـــانهم ولكـــن النظم أراد معنيين آخرين هما :

أ- الانفعال والتأثر , والقلب موضع التأثر من الإنسان .

ب- بقاء هذا الوصف في ذريهم , فهم يتوارثونه .

1-المائدة : 12

2-لبقرة : 93

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي السياق القبلي ما يدل على تغلغل هذا الشرك في قلوبهم فهم يكفرون بأنعم الله وينكـــروها وينقـــضون الميثاق بعـــــد أخـــذه منـــهم ويخـــونـــــون المؤمـــــنين , ويـــكتــــبون الكتاب بأيديهم ويقتلون أنفسهم ويـــشترون الحيـــــاة الـــدنيا بـــالآخرة ويقتلـــون الرســـل ويكذبوهم ويكفرون بما عرفوا ويقتلون أنفـــــــــسهم بعدما عرفوا من الكتاب .

ويدل السياق البعدي على ادعائهم أن الآخرة لهم وحرصهم على الـــدنيا وعـــداوتهم لجبريل - عليه السلام - ونقض عهدهم وكتابهم وحرصهم على رد المؤمنين عن إيمانهم .

والسياق العام للسورة يبين كفرهم بعد أن أنعم الله عليهم وكل ذلك يدل علـــى تغلغل العجل في قلوبهم ولذا نجد النظم قد نبه إلى التولي بعد الإنعام توطئة وتمهيداً لما يأتي بعد من بيان تغلغل العجل في قلوبهم , " وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا ..." فأظهرخطابهم في مظهر العظمة , تصويراً لمزيد جرأتهم على من كان عظيماً ـــ سبحانه ـــ ثم أمرهم العظيم أن يأخذوا ما آتاهم الله بقوة فلا يخالفون ما فيه بل يعزمون على تطبيق ما فيه , ثم أمرهم الله بالسماع خاصة , لأن فائدة السماع القبول , ومن سمع فلم يقبل كان كمن لم يسمع , فكان الأولى بهم السمع والطاعة خاصة بعد النعم التي أنعمها الله عليهم والبراهين الـــتي أرسلها الله لهم ولكنهم " قالوا سمعنا وعصينا " وقد وردت الآية بالالتفات حيث كانـــت بالخطاب لهم فأمرهم في بداية الآية , فلما عصوا أعرض وجه الخطاب عنهم [1] , فهـــم ليسوا أهلاً للخطاب فأورد الكلام عنهم بالغيبة وذلك للدلالة على بعـــدهم بـــل علـــى إبعادهم بعد كفرهم وعصيانهم وهذا الإبعاد يلائم ردهم " سمعنا وعصينا " بالمـــــضي و (نا) الفاعلين الدالة على أنهم وعوا ما آتاهم الله ولكنـــهم لم يتمثـــــلوه بـــل قـــــالوا " وعصينا "بعتو وكبر , وقد أوردها الله بالتعظيم وكأنهم يفخرون بفعلهم فزادهم علـــى كفرهم وتبجحهم بهذا الكـــفر والاعتـــــزاز به بأن جعـــــله متغلغـــــلاً فيهـــــــم وســـارٍ إلى ذراريهم بأن أشربهم في قلوبهم العجل بسبب كفرهم وعتوهم بمعنى تداخلهم

1-نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : 198/1

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حب العجل والحرص على عبادته كما يتداخل الثوب الصبغ وقوله : في "قلوبهم " بيـــان لمكان الإشراب , كقوله : " إنما يأكلون في بطوهم ناراً " [1] وقال صاحب التحريـــر و التنوير : وليس هذا مثل ما هنا لأن الأكل متمحض لكونه منحصراً في الـــبطن بخـــلاف الإشراب فلا اختصاص له بالقلوب [2] . ويظهر لي أن رأي صاحب التحرير و التنـــوير أظهر وأليق حيث نفى الاتحـــاد التام بين التعبيرين فالإسناد في الأول على الحقيقـــة لأن البطن محل طبعي للأكل بخلاف الإسناد في الثاني فليس على الحقيقة لأن القلب ليس مكاناً طبعياً لإشراب العجل وفي ذلك مبالغة تؤكد تأبيد هذا الحال في قلوبهم , كما إن القلـــب أرقى من البطن ولكنه انحط بعبادته للعجل وهذا النظم أدخل في عقابهم ومذمتهم , فهـــو أدل على عقابهم لتأثرهم بذلك وسريانه في ذراريهم لثباته في قلوبهم , وأدل على مذمتهم بأن جعلت قلوبهم مجرد وعاء يملأ كما يملأ البطن لأنه فقد السمع المدرك ففقـــد بالتـــالي الإدراك بالقلب ومن عادة العرب إذا أرادوا التعبير عن مخامرة حب أو بغض استعاروا لـــه اسم الشراب إذ هو أبلغ إنجاعاً في البدن ولذلك قال الشاعر :

تغلغل حيث لم يبلغ شراب SS ولا حزن ولم يبلغ سرور [3]

ولو قيـــل حب العجل لم تكن هذه المبالغـــة فإن في ذكر العجل تنبيـــهاً أنـــه لفـــرط شغفهم به صارت صورة العجل في قلوبهم لا تنمحي . ثم إنه لو قال " حـــب العجـــل " لانحصر ذلك في المضاف فقط " حب " دون غيره ,وهذا غير مراد , بل المراد الإطلاق في الوصف ليشمل كل صفة يمكن أن تكون فيهم ناتجة عن عبادة العجـــل , ومـــن ذلـــك حرصهم على أي حياة، فهذه بهيمية في التفكير ناتجة عن عبادتهم للعجـــل , واســـتبدالهم الأدنى بالذي هو خير , وأتى بالفعل لم يسمَ فاعله إذ في البناء للمفعول دلالة على قـــوة الفعل حيث يسلط الضوء على الحدث فقط وهذا بيان لقوته , كما إنه لا يليق إسناده إليه سبحانه وتعالى لعدم توهم غير المراد فمـــن أسباب بناء الفعل لمـــا لم يسم فاعله تعظيم

1-التفسير الكبير : 604/1

2-التحرير والتنوير : محمدا لطاهر بن عاشور,بيروت,مؤسسة التاريخ,ط1, 1420هـــ-2000م:594/1

3- قائل البيت : أبو عبدا لله عبيد الله الهذلي ت 102 بالمدينة وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان :ابن خلكان,بيروت,دار إحياء التراث العربي,ط1, 1417هـــ-1997م : 56/2

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفاعل فيصون اسمه عن مقارنة اسم المفعول , فالله أشربهم حب العجل بسبب كفرهم وعصيانهم فهو لا يرضى أن يشرك به ولا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك ولكنهم آثروا عبادة العجل على عبادة الله واعتزوا بذلك فعاقبهم بفعلهم وأوكلهم إلى ما اعتزوا بعبادته , كما إن هذا يلائم نظم " البقرة " والذي ينحوا إلى بيان فعالهم هم وصفاقم هم وليس إلى فعل الله بهم وعقابه إياهم وهذا يلائم البدء بخطابهم " وإذا أخذنا ميثاقكم .. ". في الآية . وقدم " في قلوبهم " لأنه مناط التأثر والفائدة فإن ملأه العجل فلا فائدة فيه , وبالتالي لا تأثير حسن له على سائر الأعضاء , وجمع القلوب حيث الجمع مطرد مع هؤلاء للإيماء إلى الاستغراق بحيث لم يشذ عنهم أحد , ولم يسمه باسمه " أبيس "[1] كما هو معلوم زيادة في توبيخهم وذمهم وبيان جهلهم المفرط , ثم فيه إشارة وتنبيه إلى سريان الوثنية إلى عقيدتهم بما يشابه وثنية الأمم المجاورة قال تعالى : "ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين" . وفيه ملاءمة لنظم القصص القرآني في إبهام أسماء الحيوانات , لأن العبرة في ذلك أنه حيوان أياً كان فلا يرقى عن ذلك بأن يكون معبوداً ومع ذلك عبدوه ! فهذا أدل على ذمهم " قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين" .

فنرى أن لفظة القلب هنا دقيقة غاية الدقة فلا يتغلغل مثل هذا الاعتقاد ويتمكن إلا في القلب الدال على الثبات على الصفة وذلك لأن هذا الاعتقاد لازمهم ولازم ذرياتهم بعدهم فكان القلب أدق من الفؤاد الذي فيه التغير والتبدل .

وفي سياق إخبارهم عن حقيقة أنفسهم على لسانهم , نجد القرآن يورد القلب في موضعين وذلك في قوله تعالى : ﴿ **وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ** ﴾ [2] , وقوله : ﴿ **فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً** ﴾ [3] فقد أورد القرآن كلمة القلب دون غيرها وذلك لأنهم هنا يؤكدون اعتقادهم الجازم. بما هم عليه وركونهم إليه إذ موضع التأثير فيهم (غلف) فلا أمل في تغيرهم وهم يقولون ذلك

1-اسم العجل 2- البقرة : 88 3- النساء : 155

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إما تيئيساً للرسول ــ ﷺ ــ من إيمانهم واستجابتهم , وإما استهزاء بتوجيه الدعوة إليهم وتبجحاً بالتكذيب وعدم الإصغاء وإما هذا وذاك معاً [1]. و(غلف) أي أوعية للعلم فنحن اليهود مستغنون بما عندنا عن غيره[2], أو أن مقصودهم بأنها مغلقة فبينها وبين سماع الحق حجاب يمنعها عنه وهذا أولى لأنها قد جاءت في سياق إعراضهم وتوليهم ولذا جاءت لفظة القلب ملائمة للنظم والسياق حيث إن تمكن الإعراض منهم وثباتهم على الكفر وعدم استعدادهم لتغيير ذلك يلائم ثبات القلب وقراره , وملائم أيضاً للعقاب الذي عاقبهم الله به ــ اللعن والطبع ــ وذلك حسب سياق كل آية.

فالسياق العام القبلي للآيتين يكاد يكون واحداً حيث تقدم الآيتين إعراض اليهود وعدم اعتبارهم بنعم الله عليهم ونقضهم مواثيقهم وقتلهم الأنبياء وسؤال أنبيائهم ما لا ينبغي ، ولكن الاختلاف في السياق القريب :

فالسياق القبلي القريب في آية البقرة يبدأ من قوله تعالى : ﴿ **ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون** ﴾ فهذا يدل على أن ما جاءبه - عليه السلام - من البينات وما أيده الله به من روح القدس لم يك كافياً لإقناع هؤلاء بالإيمان بل كذبوا وقتلوا فريقاً من الأنبياء وكذبوا فريقاً آخر لأن ما عندهم ــ هكذا يزعمون ــ كافٍ لهم فلذا قالوا : (قلوبنا غلف) بإضافة قلوب إلى (نا) ليدلل الله على فخرهم بهذه القلوب التي عدوها أوعية للعلم في حين أنها خراب وبالجمع لأن ذلك عام فيهم وقال (غلف) ولم يقل تعالى في أكنة , أو عليها غشاوة , وذلك لأن الأكنة أغطية تحيط بالقلب ولا تكون منه وكذلك الغشاوة فيمكن أن تزول ولكن حين وصفت القلوب على سبيل المجاز العقلي لعلاقة المصدرية (بالغلف) فالصفة ملازمة لها لا انفكاك لها البتة وهذا يناسب استعمال القلب الدال على الاعتقاد الجازم الذي لا يتغير.

1- في ظلال القرآن : 801/2

2- معاني القرآن وإعرابه : 169/1

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ونجد أنهم لم يشبهوها بأنها كالغلف أو في غلف بل هي ذاتها غلف وهذا أدل على إعراضهم وتمكن الصفة منهم في كل مكان وزمان قالت الخنساء :

ترتع ما رتعت حتى إذا ادكرت SSS فإنما هي إقبال وإدبار [1] .

تجوزت الخنساء في أن جعلت الناقة لكثرة ماتقبل وتدبر ولغلبة ذاك عليها واتصاله منـــها وأنه لم يكن لها حال غيرهما , كأنهما قد تجسمت من الإقـــبال والإدبـــار [2].

وكذلك قلوب اليهود فلكثرة إعراضهم , وغلبة ذلك عليهم واتصاله منهم وأنه لم يكـــن لقلوبهم حال غيرها كأنها قد تجسمت من الغلف . فأخبر الله أن الأمر ليس كما ادعوا بل لأن الله لعنهم بسبب كفرهم وكان عقابهم هنا اللعن بمعنى الإبعاد عن رحمة الله لأنه تقدم في الآية قبلها " أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم ...." فهناك " هوى " مـــؤثر في الكفر ومضاد لمراد الله وهذا أليق باللعن , لأن القرب من الله والبعد عنـــه بمقـــدار أن يكون هوى النفس تابعاً لمراد الله , فكلمـــا كان كذلك كان أقرب و إلا كان بعيداً عن الله وهو معنى اللعن , ولذا قال لعنهم الله, بالتصريح بلفظ الجلالة لأن المقام مقام عبـــادة وتوحيد لله ولكنهم كفروا .

أما في سياق سورة النساء ﴿ **فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَـــاتِ اللَّـــهِ وَقَـــتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً** ﴾ فتعداد للجرائم التي ارتكبوها بما يدل على الإصرار عليها حيث عبر عنـــها بالمـــصدر وفي ذلك دلالة على استمرارهم على هذا الحال وثبوتهم عليه فنقـــضهم للمواثيـــق دائـــم , وكفرهم دائم , وكذلك قتلهم للأنبياء حتى صارت صفة لهم وطبعاً , وهذا لا يكون إلا ممن طبع على قلبه . حيث يدور معنى الطبع في اللغة على معنيين وكلاهما يدل على الثبات الملائم للقلب فإما أن يكون من طَبْع ومعناه طبع السكة والدراهم وصـــنع الـــسيوف أو الطبيعة هي السجية فإن ذلك هو نقش النفس بصورة إما من حيث الخلقة وإما من حيث العادة , وضرب الدراهم والطبع عليها وعلى السيوف لا يزول وكذلك طبع الإنسان أو أن يكون من طَبَع بفتح الباء وأصله الصـــــدأ يكثر عــــــلى السيف وغيره بمعنى فساده

1-ديوان الخنساء : بيروت,دار المعرفة,ط2, 1425هـ-2004م :46

2-دلائل الإعجاز : 301

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لأن القلوب المطبوع عليها صارت فاسدة كما يفسد الحديد [1] , وكذلك قلوب اليهود فاسدة وفسادها لازم لها ثابت فيها . ويؤكد لنا هذا الإصرار أن الميثاق (ميثـــاقهم) أي ميثاق أخذ عليهم ورضوا به وموثق عليهم ومع ذلك ينقضونه . " وكفرهم بآيات الله " ولم يقل آية فإذن الآيات كثيرة التي أرسلت إليهم ومع ذلك أيضاً يكفرون , وقـــــال (الأنبياء) دلالـــة أيضـــاً على كثرة ما قتلوا من الأنبياء وقال (بغير حق) بتنكير حـــق فلاحق لهم أصلاً ولو متوهماً في قتلهم فقد كانوا يقتلونهم من غير أن يقع منهم ما يوجب عليه القتل عندهم وفي دينهم فلو كان الحق معلوماً لعبر عنه بلفظ المعرفـــة ولكنــه ورد بالتنكير للدلالة على عدم معرفة هذا الحق وإنما قتلوهم ظلماً وعدواناً[2].

وختم الله كلاً من الآيتين بما يناسب سياقها ومقامها فقال في سياق ســورة البقـــرة "فقليلا ما يؤمنون" فإيماناً قليلاً يؤمنون و(ما) مزيدة دالة على استبعاد إيمانهم ويجـــوز أن تكون القلة بمعنى العدم [3] , والعدم أولى لأن الله قسمهم في السياق إلى فريـــق مكـــذب وآخر قاتل للأنبياء و لم يكن لهم قسم ثالث مصدق . وفي سياق ســـورة النـــساء " فـــلا يؤمنون إلا قليلا " فعدد المؤمنين منهم خاصة بعد ذكر الآثام التي ارتكبوها قليل ولكـــن السياق البعدي دل على وجود مؤمنين منهم حيث قال تعالى:" لكن الراسخون في العلـــم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك "[4] إذن كان منهم مؤمنون لكنهم قلة حيث أثبت عز وجل لبعضهم حسن إيمان وحسن جزاء ولكن جعلهم بعضاً (منهم) .

فلفظة القلب إذن ملائمة لسياقها الدال على ثباتهم على كفرهم ولنظمها حيث تلاءمـــت مع الطبع واللعن وفي دلالة قلة الإيمان وانعدامه في قلوب اليهود وتمكن ذلك منهم .

1- المفردات في غريب القرآن : 304

2- درة التنزيل وغرة التأويل : الخطيب الإسكافي:بيروت ,دار المعرفة,ط1, 1422هـ-2002م:14

3- الكشاف عن حقائق غوامض للتنزيل وعيون الأقاويل : 296/1

4- النساء : 162

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أما في سياق نهي موسى عليه السلام قومه عن تكذيب الحق مع سابق العلم به فقد وردت أيضاً لفظة القلب حيث قال تعالى : ﴿ **وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ** ﴾ [1] .

فالقلب هنا ملائم لحال اليهود الذين عرف عنهم تمكن الزيغ من قلوبهم وثباتهم على إعراضهم عن الحق ، كما إنها ـــ القلب ـــ ملائمة للسياق دون الفؤاد ، فالسياق في النهي عن التذبذب والنصح بالثبات على الحق فكأن في ذلك المقطع من ذكر زيغ هؤلاء ومن ثم تثبيتهم على باطلهم ، تناسقاً مع هذا السياق كما إن بداية السورة بـ"سبح" وقد اطرد في كل موضع كانت البداية فيه بـ"سبح" إيماء إلى بشرى يكون الغاية منها زيادة المخاطبين تثبيتاً ، وهذا بين هنا في قوله تعالى: " والله متم نوره ولو كره الكافرون" ، فإذن النظم كله يوحي بالثبات ، وهذا ملائم للقلب .

لذا حين خاطب موسى قومه حذرهم مما ثبتت عليه قلوبهم ونظم الآية يدل على ثبات زيغهم حيث قال : " لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله " ، مستعملاً في فعل الإيذاء المضارعة فإذن الإيذاء منهم متجدد لرسولهم عليه السلام ، وهذا يدل على تمكن زيغهم ومخالفتهم ونجد أن الأفعال في السورة اطرد ورودها بالمضارعة الدالة على تجدد الفعل تجدداً يوحي بثباته في فعلهم "كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون" ، "تؤذونني" ، "تعلمون" ، "يدعي" ، "يريدون" ، "يطفئوا" .. وهكذا .

ومما يؤكد ثباتهم على هذا الفعل ثباتاً يلائم أن يكون منبعه اعتقاداً راسخاً في قلوبهم أن النظم قيد الإيذاء بـ"وقد تعلمون أني رسول الله إليكم" ، فالحال أنهم يعلمون أنه رسول الله علماً يقيناً وقضية علمهم بذلك موجبة تعظيمه وتوقيره لا إيذائه والاستهانة به ، لأن من عرف الله وعظمته عظم رسوله[2] . وقد قال تعالى "قد تعلمون" مُقدماً قد على مادة العلم فهي للتحقيق إذن والتحقيق هنا أدل على فساد القلوب وثباتها على ذلك .

هذا جانب ، ومن جانب آخر التحقيق أدل على إقامة

1- الصف : 5

2- ينظر الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل : 104/6

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الحجة عليهم كما هو مقتضى الاستفهام ومن ثم الذم والتوبيخ علـــى فعلـــهم ذلـــك . والمضارعة هنا للدلالة على أن علمهم بذلك متجدد بتجدد الآيات والوحي وذلك أجدى بدوام امتثاله لأنه لو جيء بفعل المضي ما دل على أكثر من حصول ذلك العلم فيما مضى ولعله قد طرأ عليه ما يبطله[1] .وهذا كالمضارع في قولـــه : " قـــد يعلـــم الله المعـــوقين منكم ".[2]

" فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم" ، الجملة شرطية بـــ "لما" وتقتضي جملتين وجدت ثانيتهما لوجود أولهما , ويقال فيها : حرف وجود لوجود ، وبعضهم يقول : حـــرف وجـــوب لوجوب[3]. والثاني أدق بلاغة ، فهم بدأوا بالزيغ عن الحق فوجبت معاقبـــة الله لهم بأن أزاغ الله قلوبهم ، والمعنى فلما زاغوا : أي تحقق زيغهم ، ونلاحـــظ أن الـــنظم حـــذف الموصوف في فعلهم فلم يرد النظم بقوله "زاغت قلوبهم" بل قال "زاغـــوا" ، وفي ذلـــك تركيز الوصف على كل شيء فيهم ، فكل شيء في اليهود زائغ الفعل منهم والاعتقـــاد وكل شيء ، وحين أورد العقاب أورده بقوله " أزاغ " أي بالمجازاة والتي لا ترد في النظم الحكيم ، واقعة من الله إلا بصيغة الفعل وذلك لأنها حادثة نظراً لفعل الأول فلـــم يـــزغ قلوبهم إلا بعد أن تقدم الزيغ منهم فجازاهم من جنس عملهم ، وقد ورد الفعـــل بـــــ "أزاغ" بهمزة التعدية لبيان شدة العقاب وتمكنه منهم لذا يلائم هذا أن يكون على القلب . والزيغ الميل عن الحق وهو اسم لكل ميل مكروه[4] ، ونلاحظ أن النظم جمع "قلـــوبهم" دلالة على أنه لم يثبت منهم إلا قليل بل ربما العدم[5] ، ثم في قوله : "والله لا يهدي القوم الفاسقين" اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبله من الإزاغة ، ومؤذن بعلته أي لا يهـــدي القوم الخارجين عن الطاعة ومنهاج الحق المصرين على الغواية هداية موصلة إلى البغية[6] ، وذكر وصف الفاسقين جارياً على لفظ القوم للإيماء إلى الفسوق الذي دخل في مقومات

1- التحرير والتنوير : 160/28 .
2- الأحزاب : 18 .
3 – مغني اللبيب : 294/1
4- الفروق اللغوية : 239 .
5- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : 547/7 .
6- تفسير أبي السعود : 243/6 .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوميتهم فالمعنى : الذين كان الفسوق عن الحق سجية لهم لا يلطف الله بهم ولا يعتني بهم عناية خاصة تسوقهم إلى الهدى[1]، فكون الفسق من مقومات قوميتهم دليل على تمكنه منهم وثباته فيهم ، وهذا أيضاً ملائم لاستعمال القلب فيهم .

وحين نقارن فعلهم بفعل النصارى بعدهم في قوله : "فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين" نرى أن فعلهم أشد من فعل النصارى حيث آذوا نبيهم وأعرضوا مع علمهم بأنه الحق ، أما النصارى فجهلوا الحق ، لذا قالوا بأنه "سحر مبين" ، وقال في شأن اليهود " تؤذونني" بالمضارعة ، أما النصارى فقال في شأنهم "قالوا" بالمضي دليل على استمرار فعل اليهود الدال على إصرارهم ، أما النصارى فورد الفعل بالمضي الدال على الحدوث فقط ، لذا وصف اليهود "بالفسق" ، أما النصارى فوصفهم "بالظلم" "والله لا يهدي القوم الظالمين" . والظلم أخف من الفسق ، ونظم القرآن يدل على ذلك فالفسق لا يستعمل إلا مع الكفر ولا يكون إلا في معصية عظيمة بعكس الظلم الذي يقع في الشرك فما دونه. وكل ذلك يؤكد قرار لفظة القلب ومناسبتها لحال من تحدثت عنهم الآية ولسياقها ونظمها .

كذلك ورد التعبير بالقلب في سياق التعقيب على عتو فرعون وتجبره على سيدنا موسى -عليه السلام- فقال تعالى : ﴿ **الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار** ﴾[2] .

فالآية هنا في سياق وصف فرعون بالعتو والبعد عن الحق وقد وردت على لسان الرجل المؤمن من آل فرعون الذي أراد أن يحذر قومه من التكبر عن الحق فوردت الآية "كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار" باستعمال "القلب" وذلك لأن في الآيات دلالة واضحة على تمكن الكبر والعتو من قبل فرعون وملائه يدلنا على ذلك السياق القبلي الذي ورد فيه تكذيب فرعون وملائه لموسى ـ عليه السلام ـ واتهامه بالسحر وقتلهم أبناء الذين آمنوا واستحيائهم نسائهم ، وتجرؤ فرعون على الرغبة في قتل موسى -عليه السلام- : "وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه".

1- التحرير والتنوير : 106/28

2- غافر : 35 .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فكل ذلك يدل على تمكن الكبر والتجبر في قلب فرعون وملائه ، ولذا عبر هنا بالقلب دون الفؤاد .

وقد تلاءمت لفظة القلب مع جاراتها في الآية حيث قال :" الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان" حيث أخبر الله أن هؤلاء كانوا "يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم "استعارة للدلالة على الظهور فهم لم يكن لديهم حجة ظاهرة وقد صرح في قوله "في آيات الله" بلفظ الجلالة وكرره في قوله "يطبع الله" لتربية المهابة في قلوبهم فالذين يجادلون في آيات الله ، الله قادر على الطبع على قلوبهم ، وتعجب من عظيم فعلهم حيث علم قبح هذه المجادلة عند الله وظهر قبحه عند الناس ومع ذلك لا يزالون يجادلون فهذه دلالة على تمكن ذلك من قلوبهم ، واستمرارهم عليه ، فهددهم بطبع الله على قلوبهم " كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار " فالطبع يلائم القلب لأنه يجعل الإعراض وعدم القبول للحق سمة لهم لا تنفك عنهم أبداً . وعبر بالفعل المضارع دلالة لاستمرار هذا الطبع وكذلك ملاءمة "كذلك" للدلالة على حدوثه في كل من يشابه ذلك في المستقبل فمن تكبر وتجبر على الحق كان حقه الطبع على قلبه ولا يعجز الله شيئاً ، وورود كذلك للتشبيه هنا يدل على وجود طبع أول حمل عليه وشبه به طبع ثانٍ وهذا يدخل تحت التشبيه الذي ذكره الرماني بقوله : ومنها إخراج ما لم تجربه عادة إلى ما جرت به عادة [1] . وما عرف وجرت به العادة الطبع على قلب فرعون وملائه ــ وهو معلوم ــ حيث ظهرت آثاره في شدة عتوهم وعدم إجابتهم بل تجرؤهم على محاولة قتل موسى- عليه السلام-، وما حمل عليه الطبع العام على قلب كل من تكبر وتجبر وهذا غير معلوم ولكن مثلما طبع على قلب فرعون وملائه لتكبرهم كذلك يفعل بمن سار على نهجهم ، غير أننا نجد أن الآية لم تصرح بأن الطبع هنا على فرعون وملائه بل جاء مطوياً في العموم أو التشبيه وذلك لأن الآية وردت على لسان الرجل المؤمن من آل فرعون وقد كان يكتم إيمانه "وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه .." ، لذا لم يصرح بفرعون وملائه لوجوه:

1- النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن : 81

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أولها : أنه كان يكتم إيمانه فـلاءم هذا الكتمان عدم التصريـح بفرعـون ومـلائه ، **وثانيها** : الخوف من فرعون أن يقتله إن علم إيمانه ، ثالثهما: أنه من قوم فرعون فكأنه لا يريد التصريح بالطبع على قلوبهم ، كما نجد أن المبالغة كانت غالبة على الآية "على كـل قلب" ، "متكبر جبار" ، والمبالغة هنا تلائم الطبع وتناسبه من وجوه مختلفة سواء في شدة الوصف أو السببية ومناسبة المبالغة لشدة الوصف أن الطبع شديد وثابت ولا يمكـن أن ينفك والقدرة قاهرة جعلته يستعلي "على كل قلب متكبر جبار" فلاءمت بذلك المبالغـة الموجودة في "متكبر ، وجبار" قوة وصف العقاب "الطبع" ، كما لاءمت أيضاً سبب الطبع فلا يمكن أن يطبع على قلوب إلا بسبب عظيم وجرم أعظم والآيـة وردت في شـأن فرعون الذي ادعى أنه إله ، ولذلك ورد النظم بقوله "على كل قلب" ولم يقل : يطبـع الله على قلـوب المتكبرين الجبارين مثلاً ، لأن تقديم (كل)نص في استغراق أفراد القلوب ممن اتصف بهذا الوصف ، ومن المقطوع به أن آحاد القلوب موزعة على آحاد الأشخاص لأنه لا يكون لشخص أكثر من قلب بخلاف ما إذا قدم القلب فإنه قد يدعي أن الشخص واحد ، فيكون المعنى : على قلب شخص جامع لكل فرد من أفراد التكبر والتجـبر [1] . وفي هذا مبالغة وقوة في التعبير تلائم قوة جبروت فرعون كأنه يريد أن لكل قلب طبـع خاص به فلذلك أفرد كلمة "قلب" ، ولم يقل "قلوب" كي لا يكون الطبع مرة واحـدة على قلوبهم جميعاً ، بل طبع خاص لكل قلب متكبر جبار .

ويؤكد قرار "القلب" في نظمها اطراد النظم في القرآن كله في إسناد الطبع على القلوب إلى الله دون أي صفة من صفاته وذلك لأن الطبع يستلزم العلم بمستقبل أحوالهم ولا يعلم ذلك إلا الله ،وكذلك العلم بأسباب الطبع من أحوالهم وأفعالهم ،كما إن القلب لا سلطان لأحد عليه إلا الله ، فالطبع عليه خاص بالله كاختصاصه بالخلق وذلك لأن الطبع يـصبح كالخلقة لهم والسمة الثابتة لهم،وقد ورد لفظ الجلالة "الله" دون غيره من صفات الجلال أو الجمال، لأن في ذلك دلالة أعظم على القدرة والقهر وتربية المهابة لدى المعرضين.

1-نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : 514/6 .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كما إن الفعل "طبع" عُدي بـ "على" مع إمكان تعديه بنفسه وفي ذلك أيضاً ملائمة للقلب وأرى أن ذلك لوجوه عدة ، أولها : أنها لو وردت "طبعها" لأشعر النظم بأنها طبعت من أول ما خلقت على ذلك فلا يكون لفعلهم وكفرهم دخل أو سبب في هذا الطبع في حين أن السياق يؤكد أن سبب الطبع استمرارهم على المعاصي ، وفي عدم التعدية بـ "على" احتمال تغيير هذا الطبع الذي فطروا عليه "ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه ... الحديث"(1) ، إذن فالعوامل الخارجية قد تغير الطبع عما كان عليه ولكن في آيات الطبع الواردة في عقاب هؤلاء لا تحتمل أبداً تغيير هذا الطبع لأنه عقاب ـ كما سبق ـ لذلك عدي بـ "على" ، فالطبع حادث على قلوبهم مستمر عليها .

ويؤكد لنا هذا التجبر الذي لم يفعله أحد قبل فرعون السياق البعدي حيث قال : " وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب أسباب السماوات فأطلع إلى إله موسى " ، فقد طلب ما لم يطلبه غيره وفي ذلك ملاءمة للطبع على القلب ، ودلالة على تمكن التجبر والكبر في قلبه ، وقد آثر القلب في الموضع الأول في المجادلة للطبع عليه في قوله : " الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع على كل قلب متكبر جبار " ، وآثر الصدر في الموضع الثاني في قوله : " إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير " ، وذلك لأن الموضع الأول في شأن فرعون وقد كان كبره أعمق وأقوى وأشد من كبر وكفر مشركي قريش فكان الملائم له القلب لا الصدر ، كما إن ما قاله وما فعله فرعون كان يعتقده فعلاً فقوله " أنا ربكم الأعلى " وقوله في موسى عليه السلام "وإني لأظنه كاذباً" . هذا كله كان ثابتاً ويقينياً في قرارة نفسه لذ لاءم القلب ، أما مشركو قريش فعلى تكذيبهم برسول الله ﷺ إلا أنهم في داخل نفوسهم والمتمكن منها أنه صادق ولكن يمنعهم الجحود ، ومن ذلك

1- صحيح مسلم : 2047/4 ، ح 2658

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

شهادة بعضهم للقرآن أنه ليس بكلام البشر فإذن المجادلة كانت من ظاهر صدورهم لا من عمق قلوبهم ، كما إن الآية التي ذكر فيها الصدر كانت في إيناس الرسول ﷺ، فكأن النظم كان أرفق به من أن يذكر أن الكبر في قلوبهم فيقطع الأمل في رجوعهم إلى الحق بل جعله في صدورهم لأن ما في الصدر يمكن أن يترع ويتغير لكن ما في القلب لا ويدل على ذلك ختام الآية بقوله تعالى : "فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير " .

وفي سياق دعاء موسى ـ عليه السلام ـ على فرعون وملائه يأتي (القلب) في النظم دون غيره ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ **وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ** ﴾ (1) .

ففي الآية دعاء موسى عليه السلام على فرعون وملائه وخاصة بعد أن أورد لهم الكثير من الآيات فلم يزدادوا إلا كبراً ونفوراً فدعا عليهم بأن يشد الله على قلوبهم ، فاستعمل القلب وذلك لأنه محل الاعتقاد ، والشد عليه يدل على ثباته على صفة لا يغايرها البتة وهذا الثبات يلائم القلب .

وهذا الدعاء بالشد على قلوبهم فلا يؤمنوا نتيجة لما أورده السياق قبلاً من إعراضهم فهم حين وجهت لهم الدعوة للإيمان " فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين " استكبروا عن الإجابة بل وأجرموا في حق من آمن ، وقالوا : " إن هذا لسحر مبين " وعلوا في الأرض "إن فرعون لعالٍ في الأرض وإنه لمن المسرفين " فظاهر فعالهم يدل على عدم إمكانية إيمانهم وثباتهم على باطلهم ، ولذا كان دعاء موسى عليه السلام عليهم " ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا " ، فدعا موسى بقوله : " ربنا " تذللاً وتذكيراً بنعم الله التي أسبغها على فرعون وملائه ولكنهم " ليضلوا عن سبيلك " ، فاللام هنا للعاقبة حيث ضلوا بهذا المال والزينة وأضلوا عن سبيل الله فكان دعاء موسى مناسباً لجرمهم . فقال "اطمس" أي غيرها والطمس إزالة الأثر بالمحو(2) ، وجعل ذلك مقابلاً لـ"أموالاً" لتذهب فائدتها .

1-يونس : 88   2-المفردات في غريب القرآن : 310

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فكما غيروا هم طريق شكر النعم غير عليهم هذه النعم "واشدد علـــى قلـــوبهم" أي استوثق منها حتى لا يدخلها الإيمان[1] . فقد كانوا في رخاء لم يرعوا حقه فعاقبهم بعكس ما كانوا فيه ، والشد هنا في مقابلة "زينة" لذا لم يرد الطبع أو الختم ، لأن المراد هنا هـــو الغلظة والقوة حتى تمحي أثر الزينة ، لأن من شأن الزينة أن يلين معها القلب أو أن تسره وتبهجه وتسري عنه وتفرحه فكان الدعاء عليهم بضد ذلك من الشد والغلظة ، ولـــيس مراده الطبع أو الختم بحال ، كما إن الدعاء كان من موسى ـــ عليه السلام ـــ وهو بشر في حين اطرد الطبع في القرآن أن يكون من الله عقاباً و لم يدع به أحد ، وذلك لأن في الطبـــــع معنى التأبيد والدوام وهذا لا يكون إلا لمن أحاط بكل شيء علماً ، ولهذا لم يأت في كل نظم القرآن مع غيره . كما نلاحظ أن الدعاء من سيدنا موسى عليه السلام بـــ "اشدد" قد ورد منه في موضـــع آخر : "اشدد به أزري" [2] وإن كان مخالفاً في سياقه إلا أن له دلالة على ملاءمته للقلب حيث استعمل موسى -عليه السلام - هذا التعبير حـــين أراد الثبـــات والقـــوة المعنوية في مقابلة فرعون وإلا فالقوة الجسدية لم تكن تنقص موسى - عليه السلام- كما عرف عنه وإنما طلب شد أزره بمعنى التثبيت وهذا التثبيت يلائم القلب ، لذا ورد في الدعاء مع القلب لكي يكون دائماً وثابتاً عليهم .. والشد في استعمال موســـى -عليه السلام -كـــان في القوة المعنوية وهذا ملائم للقلب ، وفي كلا الموضعين وردت القوة المعنوية والحسية فبعـــد الآيات الحسية من المعجزات مع موسى -عليه السلام -طلب شد الأزر بأخيه فتكمل له القـــوة المعنوية والحسية .. وكذلك هنا في دعائه على فرعون وملائه جمع بين الحسية " اطمـــس على أموالهم " وكمل عليهم العقاب بالمعنوية " اشدد على قلوبهم " واستعمل الشد هنـــا و لم يستعمل "الربط" وذلك لأن السياق هنا في سياق الذم والشد فيه غلظة وعقوبة ، أما "الربط" فلم يستعمل في القرآن إلا في مقام الفضل والنبل ، وفي كل مواضـــعها تكـــون مصحوبة بهالة من صفات الكمال والشرف وكـــــــريم الخصال [3] ، كمـــا إنه يـــأتي في مـــقـــام الخـــوف وهـــذا مطـــرد فيـــه ، ولـــــيس الـــــسياق ســـيـــــاقه

1-الكشاف عن حقائق غوامض التتريل وعيون الأقاويل : 167/3

2- طه : 31

3-دراسات جديدة في إعجاز القرآن:عبدا لعظيم المطعني, القاهرة,مكتبة وهبة,ط1, 1427هـــ-1996م : 188/186

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولا المقام مقامه، فالسياق في الدعاء على فرعون وقومه ، والمقام مقام مخالفة وإعراض وتكبر .

وقال "على" لإفادة العلو والقهر والغلبة تهويناً من أمر فرعون الذي علا وتسلط في الأرض بأنه مقهور لحكمه ـ سبحانه ـ فلا ينفك خاضعاً وصاغراً أمام مراده سبحانه ، ويدلنا على ثبات هذا الشد وتمكنه الملائم للقلب خاتمة الآية "فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم "حيث شد الله على قلوبهم فلم يتمكنوا من الإيمان حتى رأوا العذاب أمام أعينهم مشاهداً ولذا قال فرعون بعد أن أدركه الغرق ورأى أن الهلاك حاصل " آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنوا إسرائيل وأنا من المسلمين " فكان الرد " آلن وقد عصيت وكنت من المفسدين " .

وحين نلاحظ كيف تحققت الإجابة والطريقة التي تمت بها نرى وجه دقة دعاء موسى وملاءمة الإجابة له حيث طمس عليهم باليم ، وشد على قلوبهم بالخوف حيث رأوا بأعينهم هلاكهم في اليم فشد عليهم بعد الرخاء ، يدلنا على ذلك قوله : " حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنوا إسرائيل .."

فيلاحظ أنه في كل سياق قصة موسى- عليه السلام - استعمل القرآن الكريم لفظة (القلب) ، لأن السياق كان إما إخباراً عن تمكن قسوة اليهود وإعراضهم عن الحق ، وإما إخباراً عن تمكن جبروت وكبر فرعون وملائه .

و لم ترد لفظة الفؤاد إلا في موضع واحد وهو في شأن أم موسى - عليه السلام - ، فقد وردت "الفؤاد" حين تكلم الله عز وجل عن حزنها على فقد وليدها ثم ذكر لفظة القلب حين ربط الله على قلبها وثبتها على الإيمان، فقال تعالى:﴿ **وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ (1) ، فلم ترد لفظة الفؤاد إلا مرة واحدة وكذلك لفظة اللب لم ترد إلا مرة واحدة فالقلب ورد أكثر من غيره من اللب والفؤاد لأن حالهم كان حال ثبات على الاعتقاد حتى نهاية الأمر وتمامه ، ولأن ذلك يتساوق مع الغرض المراد وهو أن إيراد القصة في أكثر مواضعها كان للذم

1- القصص : 10

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والتوبيخ وهذا يتلاءم مع بقائهم على وصفهم هذا . وكذلك لم تأتِ اللب إلا مع الهدى والذكرى وقل ذلك منهم وندر ، فلذا لم تأتي إلا مرة واحدة ، أما موضع الفـــؤاد ففـــي سورة القصص وإذا وقفنا على آية سورة القصص وسياقها لوجدنا أن لفظـــة الفـــؤاد في الموضع الأول ملائمة للسياق وكذلك لفظة القلب في الموضع الثاني ملائمة أيضاً .

فالسياق القبلي يحكي عن تجبر فرعون واستضعافه لبني إســرائيل وتــذبيح أبنـــائهم واستحياء نسائهم ، فحين ولدت أم موسى وليدها خافت على وليـــدها مـــن الـــذبح وأشفقت عليه من هول البحر حين ألقته فيه ، فاجتمع عندها خوفان :
خوف عليه من فرعون ، وخوف عليه ـــ أكبر ـــ من اليم والغرق فيه ، وهذا الخـــوف اضطراب وتأثر وتوقد يلائم الفؤاد "وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً" ولكن حين طمأنها الله وربط على قلبها ثبت هذا القلب ، ولذا قال : " لولا أن ربطنا على قلبها " حيث يـــدل السياق على هذا الثبات فلم تبد و لم تظهر شأن ابنها وبدأت تتصرف بحكمة فأرســلت أخته لتعلم أين يصل وكيف تتصرف ، وزاد الله تثبيتها بأن رد لها وليدها وقرت عينـــها بهذا الولد .

وبدأت الآية بقوله تعالى : " وأصبح " لأن الصبح زمن الخوف فكأنها قد قامت مـــن النوم فزعة عليه ، وإن لم يرد من الصبح حقيقته ، ولكنها بعد أن ألقته في اليم في الليـــل بعد فترة فرغ فؤادها وقال " فارغاً " أي صفراً من العقل والمعنى أنها حين سمعت وقوعه في يد فرعون طار عقلها لما دهمها من فرط الجزع والدهش ، ونحوه قوله تعالى : " وأفئـــدتهم هواء " أي جوف لا عقول فيها ، ومنه بيت حسان :

ألا أبلغ أبا سفيان عني SS فأنت مجوف نخب هواء [1] .

وقوله " فارغاً" ملائم للفؤاد , فالفؤاد حين يضطرب ويتأثر يفرغ من الإدراك والتـــدبير ويكون ذلك في المواقف العصيبة فنجد أنه يعبر عن فراغ الفؤاد المضطرب في ساعة الخوف الشديد " وأفئدتهم هواء " [2] , فالخوف شديد والاضطراب لا مجال فيه لإدراك .

1- ديوان حسان :بيروت, دار الأنصار :20 2- إبراهيم : 43

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

"يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت" [1] , وفي ساعة الحزن الشديد " وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً "حيث ألقته في اليم ووقع في يد عدوهم وليس هناك أعظم من حرص الأم على وليدها , ولذلك ضرب به المثل الرسول -ﷺ- في الرحمة : "عن عمر بن الخطاب قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبي فإذا امرأة من السبي تبتغي إذا وجدت صبياً من السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته فقال لنا رسول الله: أترون هذه المرأة طارحـــة ولدهــــا في النار قلنــــا: لا والله وهي تقـــدر علــــى أن لا تطرحه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ــــ :الله أرحم بعباده من هــــذه بولدها"[2], ولذا قال تعالى " أم موسى " و لم يسمها باسمها للإيماء إلى الشعور الطبعي من أم على ابنها وهو ملائم للفـــؤاد حيـــث يدلنا دلالة واضحة على شدة خوفها وحزنها واضطرابها , و لم يضفه إلى ضميرها فلم يقل " أمه " ليبين أنها بالرغم من كونها أم نبي لكن فرغ فؤادها وهذا تأكيد على هول الحدث وذلك ملائم لاضطراب الفؤاد , و لم يقل " أم هارون " بالرغم أنه هو الأكبر ولكن قـــال " أم موسى " لأن السياق في شأن قصة موسى عليه السلام والحزن عليـــه هـــو , ولأن السياق في مقام تشريف وخاتمة الآية تدل على ذلك " لتكون من المؤمنين" فالتصريح بأنها أم نبي فيه تشريف لها وبيان لعلة خصها بالربط وأضاف إليها الفؤاد و لم يقل " الفؤاد من أم موسى " لكي لا يكون هذا الفؤاد جزءاً منفصلاً عنها بل فؤادها الذي يؤثر في كـــل جزء منها وتأثره واضطرابه اضطراب لها . ويؤكد هذا الاضطراب الملائم للفؤاد قوله : " وإن كادت لتبدي به " حيث أوشكت أن تبدي به , واستعمل كاد دون غيره من أفعال المقاربة لمقاربته على سبيل الوجود والحصول تقول , كادت الشمس تغرب تريد أن قربها من الغروب قد حصل ففيه دلالة على شدة القرب على سبيل الحقيقة وليس المبالغة[3] فهي لشدة حزنها كانت ستبدي به لولا أن ثبتها الله . وقال " تبدي به " و لم يقل تخبر به , أو تظهر أمره مثلاً لأن البدو ما يكون بغـــــير قصد[4] , وهذا ما يؤكد أن فـــؤادها كان

1- الحج : 2

2- الحـــديث : صـــحيح المـــسلم , 3109/4,ح 2754

3- شرح المفصل : موفق الدين ابن يعيش,بيروت,عالم الكتب : 124/7

4- الفروق اللغوية : 306

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فارغاً من الإدراك حيث كادت تبدي بشأن ابنها على غير قصد منها أو مــعرفة.بما تفعل "لولا أن ربطنا على قلبها" وهذا المعنى مترابط مع الخوف والهلع الشديد .

لأن تثبيت قلبها وطمأنتها لا يمكن أن يكون من غير الله , لأنها قد وصلت إلى درجــة من الخوف لا يستطيع أحد أن يثبت قلبها إلا الله ولذا اسند الفعــل إلى نفــسه فقــال : (ربطنا) واستعمل الفعل (ربط) و لم يقل (ثبتنا) وذلك لأن الربط على توثيــق مــا هــو مضطرب بحيث يكون هذا الربط سبباً في ثباته .

والربط يأتي دائماً في سياق الخوف الشديد الذي يعقبه أمن وثبات , لذا اســتعمل في شأن أهل الكهف وهم فتية في مقتبل العمر ومع خوفهم الشديد من الجبار أو قيــانوس , إلا أنهم ثبتوا أمامه وقالوا كلمة الحق وقد آثر معهم القلب أيضاً لملاءمة الــسياق للــنظم وذلك في قوله تعالى : ﴿ **وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَــالُوا رَبُّنَــا رَبُّ الــسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً** ﴾ [1]. حيث يدل السياق على ثباتهم على الحق فقال تعالى عنهم في السياق القبلي "إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنــا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشداً " فهم إذن فتية في أشد قوتهم الجسدية , ثم زاد عليها الله القوة المعنوية فهم متوكلون على الله يسألونه تعالى أن يخصهم برحمة " من لدنك " و لم يقولوا من عندك لما في " لدن " من قرب المكان واختصاصه أكثر مــن عنــد [2] . وبهذا تكــون الرحمــة أعظم ويسألونه الرشد والصواب في أمرهم , ثم هم " فتية آمنــوا بربــهم وزدناهم وهدى " فقد آمنوا بالله -جلا وعلا - وزادهم إيمانهم زيــادة عظيمــة "زدناهم" من الهدى واليقين . وكل ذلك يؤكد على ثباتهم وقوة إيمانهم الملائمة للقلــب ولاستحقاقه أن يربط الله على قلوبهم ويثبتهم على الحق . و نلاحظ أن النظم ورد واحداً في كلا النظميين كانت النتيجة دالة على ثبات وقوة ملائمة للقلب فأم موسى " لتكــون من المؤمنين " فقد عــبر عــن الربط بــالماضي لدلالــة الحــدوث والحــصول.

1- الكهف:14

2-معاني النحو :د. فاضل السامرائي,عمان,دار الفكر العربي,ط2, 2003م-1424هــ: 187/2

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وعبر عن أثره بالمضارع " لتكون من المؤمنين " لاستمرار أثر هذا الربط فتكون مؤمنة بالله مستمرة على ثباتها وهذا ما دل عليه السياق حيث وثقت بعهد الله ووعده و لم تبد بشأن ابنها بل تصرفت بحكمة وثبات . أما أصحاب الكهف " إذ قاموا فقالوا .." فقاموا مباشرة في وجـــه ملكـــهم " فقالوا " عطف بالفاء الدالة على التثبيت في هذا القول وأنه نـــاتج عن الربط على القلوب وذلك لأن دلالة الفاء التعقيب بلا مهلة , قال ابن جني " ولما كان هذا حال الفاء في أن ما بعدها يقع عقيب ما قبلها جاز أن يقع ما قبلها علة وســـبباً لمـــا بعدها , وذلك أن العلة سبب في كون المعلول وموجبته وذلك قولك : الـــذي أكـــرمني فشكرته زيد , فإنما اخترت الفاء هنا من بين حروف العطف لأن الإكرام علـــة لوقـــوع الشكر فعطفت بالفاء لأن المعلول ينبغي أن يقع ثاني العلة بلا مهلة [(1)]

وكان قولهم بتوحيد الله و إقرارهم أنه ربهم دون سواه وتركهم لكل إله سواه فالـــشرك شطط وزيغ عن الحق بعد إذ تبين لهم . ثم يمضي السياق البعدي يذكر لنا آثار هذا الثبات بعد أن ربط الله على قلوبهم فيطلبوا بكل قوة ممن يعبدون غير الله البينة وهم يعلمون أنه لا بنية لهم ولكن على سبيل التعجيز والسخرية منهم ثم يعتزلونهم ويلجأون إلى الكـــــهف فراراً بدينهم , فيرحمهم الله , ويؤمنهم بالنوم سنين عديدة ويجعل كلبهم حارساً عليهم , وهو نائم ولكن قدرة الله أرادت ذلك . فكل ذلك الثبات على الحق وتمكـــن الإيمـــان في قلوب هؤلاء الفتية دال على أن " القلب " دقيق وملائم لما ورد في الآية من ذكر الـــربط والنتيجة السريعة لهذا الربط – التي تدل على ثبات القلب وقوته .

1- سر صناعة الإعراب : ابن جني ,ت:د.حسن هنداوي, ط 2 , 1412هـ-1993م: 252/1

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكما وردت لفظة القلب والفؤاد في قصة سيدنا موسى ــ عليه السلام ــ سواء في شأن بني إسرائيل أو في شأن فرعون وملائه أو في شأن أمه , فقـــد وردت أيضاً لفظة العقل في عدة مواضع في شأن بني إسرائيل وموضع في شأن فرعون وملائه , وسنرى مـــن خـــلال عرض هذه المواضع لم ورد "العقل" دون غيره وكيف لاءمه السياق والنظم .

أما المواضع التي وردت في شأن بني إسرائيل فهي :

قوله تعالى:﴿**أَتَأْمُـــرُونَ النَّاسَ بِالْبِـــرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُـــونَ الْكِتَـــابَ أَفَـــلا تَعْقِلُونَ**﴾ (1).

وقوله: ﴿**وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ**﴾ (2) .

وقوله: ﴿**فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُـــونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ**﴾ (3).

وقوله: ﴿**فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَـــوْتَى وَيُـــرِيكُمْ آيَاتِـــهِ لَعَلَّكُـــمْ تَعْقِلُونَ**﴾(4) .

وقوله: ﴿**أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾ (5) .

وأما الموضع الذي ورد في شأن فرعون وملائه فقولـــه تعـــالى: ﴿**قَـــالَ رَبُّ الْمَـــشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ (6) .

وقد جمع المواضع الثلاثة الأولى أن اللفظة وردت فاصلة وبنظم واحدة وهو الاستفهام " أفلا تعقلون " وذلك لأن ما ورد قبلها غير مناسب لمقتضى العقل قال صاحب البرهان : (وهذه الفاصلة لا تقع إلا في سياق لإنكار فعل غير مناسب في العقل ، لأن فاعـــل غـــير المناسب ليس بعاقل)(7) فأنكر عليهم ذلك وسنرى ذلك من خلال دراسة هذه المواضع .

1- البقرة : 44   2 – البقرة : 76   3 _ الأعراف : 169
4- البقرة : 73   5 _ البقرة : 75   6 _ الشعراء : 28
7- البرهان في علوم القرآن :الزركشي , ت:محمد إبراهيم ,دار الفكر :84/1.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال تعالى في الموضع الأول : ﴿**أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ**﴾ , فالخطاب في هذه الآية موجه لليهود وينكر عليهم هنا التناقض بين أمرهم بالمعروف لغيرهم ونسيان أنفسهم من ذلك وهذا مخالف لمقتضى العقل ولذلك ختم بقوله : (أفلا تعقلون) .

وحين ننظر للسياق المتقدم على هذه الآية نجد فيه ذكراً للنعم التي أنعم الله بها على بني إسرائيل "يابني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم .. " كما نجد فيها أوامراً لهم "وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم" , "وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم " حيث أنزل في القرآن الكريم مايوافق ما عرفوه في التوراة ودرسوه فمقتضى العقل أن يؤمنوا ويصدقوا به.

كما نهاهم عن لبس الحق بالباطل , وكتمان الحق وهم يعرفونه , وأمرهم بالصلاة والركوع مع الراكعين فحين فعلوا خلاف ذلك و لم يلتزموا وردت الآية منكرة عليهم مخالفتهم وعدم إعمالهم عقولهم فلو أعملوها لأطاعوا .

قال تعالى : "أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ" و لم يقل تحضون أو تحثون الناس على البر وذلك لأن الأمر فيه علو فهو أقوى , ويكون من منبع قوة وثبات وسلطة وعلم وهذا ملائم لما ذكر سابقاً من تفضيله إياهم على العالمين , إذ ذلك يقتضي العلو في المكانة والدرجة , فكيف يخالفون بعد ذلك ما يأمرون به , فهذا آكد وأدخل في توبيخهم , وقال (بالبر) والبر اسم جامع لكل خير وصلاح و لم يحدد معروفاً بعينه , ثم قال : (وتنسون أنفسكم) والنسيان : ترك الإنسان ضبط ما استودع إما لضعف قلبه وإما عن غفلة , وإما عن قصد حتى ينحذف عن القلب ذكره , وكل نسيان من الإنسان ذمه الله تعالى به فهو ما كان أصله عن تعمد [1]. وهذا ملائم أن تكون الفاصلة (أفلا تعقلون) فهو لم يقل وتتركون أنفسكم أو تهملونها بل قال: (تنسون) وذلك لأن النسيان يكون لشيء معروف معلوم , فعبر بالنسيان زيادة في التنفير عن هذا الأمر الفظيع الذي دل العقل دلالة بينة على فحشه لأن المقصود من أمر الغير بالبر النصيحة أو الشفقة . وليس من العقل

1-المفردات في غريب القرآن : 493

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أن يشفق الإنسان على غيره أو ينصح غيره وينسى نفسه (وأنتم تتلون الكتاب) فقال (تتلون) و لم يقل تقرأون وذلك لأن التلاوة لا تكون إلا لكلمتين فصاعداً , والقراءة تكون للكلمة الواحدة [1] , ثم إن التلاوة فيها معنى التكرار والإعادة , فهم على ذكر دائم لما وصوا به ومع هذا فهم في هذا التناقض العجيب المنبئ عن فقد العقل , فهم لم يقرأوا كلمة واحدة من الكتاب وقفوا عليها و لم يفهموا ما في الكتاب بل تلوه كلمات متتاليات دالة على معان تجعل العقل يأتمر بما يأمر به ولا يفعل خلافه , كما إن في التلاوة معنى الاتباع والاقتداء والعمل بموجب ما يتلو[2] فلا يخالف ذلك إلا من لا عقل له وهذا ملائم للتوبيخ والإنكار في (أفلا تعقلون) والمعنى أفلا تفطنون لقبح ما أقدمتم عليه حتى يعيدكم استقباحه عن ارتكابه , وكأنكم في ذلك مسلوبوا العقول ؛ لأن العقول تأباه وتدفعه [3] .

وقال الفخر الرازي : وسبب التعجيب أن المقصود من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إرشاد الغير إلى تحصيل المصلحة وتحذيره عما يوقعه في المفسدة , والإحسان إلى النفس أولى من الإحسان إلى الغير وذلك معلوم بشواهد العقل والنقل فمن وعظ و لم يتعظ فكأنه أتى بفعل متناقض لا يقبله العقل فلهذا قال (أفلا تعقلون) كما إن من وعظ الناس وأظهر علمه للخلق ثم لم يتعظ صار ذلك الوعظ سبباً لرغبة الناس في المعصية , وهذا لا يليق بأمثال العقلاء [4] .ويظهر لي أن التعجب هنا معنى ثانوي وإنما المقصود الرئيسي هو الإنكار والتوبيخ وهذا المعنى يتلاقى مع الاستفهام في صدر الآية (أتأمرون) الذي أنكر عليهم ووبخهم على أمرهم بالمعروف دون العمل به .

والإنكار في هذا الاستفهام متوجه إلى عدم العقل بعد تحقق ما يوجبه فالمبالغة من حيث الكيف , أو ألا تتأملون فلا تعقلون فالمبالغة من حيث الكم ويظهر لي أنها من حيث كلا الأمرين الكم والكيف , فكيف يخالفون بعد أن تحقق ما يوجب الموافقة وكيف يخالفون وقد مر عليهم الكثير من العبر مما لو تأملوه لعقلوا ولكن:﴿**فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾[5].

1- الفروق اللغوية : 75
2- المفردات في غريب القرآن : 82
3- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل : 260/1
4 - التفسير الكبير : 488/1
5- الحج : 46

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال في الموضع الثاني: **﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾** [1].

ونلاحظ أن الفاصلة وقعت بقوله تعالى " أفلا تعقلون " وقد كـــان للعـــــلماء آراء في السياق :

الأول :يرى بأن السياق في خطاب المؤمنين وجوز أن يكون الاستفهام في (أفلا تعقلون) متصلاً بقوله: (أفتطمعون) على أن خطاب للمسلمين , والمعنى : أفلا تعقلون حالهم وأنه لا مطمع لكم في إيمانهم [2].

والثاني: أن قوله (أفلا تعقلون) من تمام التوبيخ والعتاب ويكون الخطاب متصلاً بقوله : (قالوا آمنا...) على أنه في خطاب اليهود , والفاء ــ حينئذ ــ للعطــف علــى مقــدر ينسحب عليه الكلام , أي : ألا تلاحظون فلا تعقلون هذا الخطأ , أو شيئاً من الأشـــياء التي من جملتها هذا فالمنكر عدم التعقل ابتداءً , أو أ فتعلمون ذلك فلا تعقلون بطلانه مع وضوحه حتى تحتاجون إلى التنبيه عليه : فالمنكر حينئذ عدم التعقل بعد الفعل[3] , ويظهر لي أن يكون المنكر عدم التعقل بعد الفعل أدخل في التوبيخ والإنكار كما أن نظم الآيــة يدل على علمهم حيث (قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم) فهم يخافون من محاجة المؤمنين لهم والمحاجة تكون بدليل وهذا أدخل في توبيخهم بعدم العقــل حيث يعلمون الحق ويفعلون ضده .. وقال صاحب التحرير :(إنه من بقية مقولهم لقومهم ولا يصح جعله خطاباً من الله للمسلمين) [4] .

والرأي الثاني في أن المخاطب هم اليهود أرجح عندي؛ وذلـــــك لأن ورود " أفـــلا تعقلون " في النظم المعجز لم يرد ولا مرة في خطاب المؤمنين بل تجدها بجرسها وإيقاعها , فضلاً عن التوبيخ قد اختصت بخطاب المشركين أو اليهود . وإذا كانـــت قـــد دارت في الذكر الحكيم في خطاب المشركين وأهل الكتاب ولا سيما اليهود , فإن انسلاخها ــ هنا ــ عن مماثلها في النظم المعجز خروج عن مقتضى الظاهر مــن غــير داع أو مقتــضى , كذلك فإن : (أفلا تعقلون) أشبه بسابقه من حيث إنه كـــالدليل والحـــجة عــــــليه

1- البقرة : 76 — 2- حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي :تركيا,المكتبة الإسلامية: 189/2

3- تفسير أبي السعود : 152/1 , 153 — 4- التحرير والتنوير : 554/1

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فضلاً عن تجانسه معه في مفاد الاستفهاميين ، لأن الأول إنكار وتوبيخ ولوم , وكذا يحمل الفاء من التوبيخ والإنكار قدراً , فهو كالختام لنصيحة غالية مركزة .. فارتفاع نبرة التوبيخ فيه يمنع من عده متصلاً بـ(أفتطمعون) ، كذلك فإن قوله: (أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ) وكونه في اليهود مانع من عد ذلك تذييلاً , فإنه لو كان كذلك لجاء: (أفلا تعقلون) بعد الانتهاء , من: (أولا يعلمون) حتى يكون بعد الفراغ من حديث اليهود وظنهم ومكرهم , حتى يكون تعقيباً على كل ذلك فإن موقع التذييل إنما يأتي في الخاتمة [1].

كما إن المؤمنين أكرم وأعز على الله من أن يوبخهم بما يوبخ به الضالين. واستعمال النظم للعقل في الفاصلة ملائم للسياق ولمعنى الإنكار والتوبيخ في الاستفهام , فالسياق القبلي والبعدي العبر فيهما ظاهرة من نعمه التي أنعمها على بني إسرائيل ومعجزة إحياء الميت بضربه بجزء من بقرة ميتة , ويذكر السياق البعدي كتابتهم للكتاب بأيديهم وادعائهم أنه من عند الله وهم يعلمون أنه ليس من عند الله ولكن ليشتروا به ثمناً قليلاً ولا يفعل ذلك إلا من لا عقل له , وادعوا أنهم لن تمسهم النار وإخلافهم لمواثيقهم , وغير ذلك من أفعالهم التي تدل على عدم إعمال عقولهم .

والتوبيخ والإنكار في الاستفهام من الله لهم يلائم انعدام عقولهم في تنبيههم وإرشادهم لبعضهم البعض في قوله "أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم"وكأنهم لا يعلمون أن الله يعلم كل شيء حتى وإن لم يخبروا المؤمنين بذلك أو يحاجوهم به يوم القيامة وهذا يتلاقى مع قوله تعالى في الآية بعدها: "أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون" ويكون النظم على سبيل الالتفات فقد خاطبهم في (أفلا تعقلون) وحين زاد جهلهم أعرض عنهم إهمالاً لهم وتحقيراً لشأنهم .

وبيان النظم لجهلهم وحمقهم بنفي العقل عنهم بلا وصيغة المضارعة في "تعقلون" دليل على تأبيد ذلك عليهم وأنهم لا يتجدد لهم عقل البتة أياً كانت العبر وأياً كان ظهورها ودلالتها , وهذا يلائم انعدام العقل الظاهر لديهم ..

1- اعتراضات الشيخ محمد الطاهر بين عاشور. البلاغية في التحرير والتنوير عرض وتأصيل ودراسة : د.علي عبد الحميد عيسى,رسالة دكتوراة : 1120

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والموضع الثالث في سياق تناقض اليهود بين فعلهم وطمعهم في الغفران فورد العقل أيضاً فقال: ﴿**فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾[1] .

وكانت الفاصلة في الآية قوله (أفلا تعقلون) فوردت لفظة العقل دون غيرها من الألفاظ وذلك لأن ما صدر في الآية من فعل اليهود مخالف لمقتضى العقل حيث استبدلوا الأدنى بالذي هو خير بالرغم أن ما يلزمهم بفعل ما يقتضيه العقل موجود حيث أخذ عليهم الميثاق أن لا يقولوا على الله إلا الحق , وقد درسوا ما في الكتاب فعلموا ذلك , ومع ذلك يفرطون ويتصرفون بأهوائهم ويشترون بذلك ثمناً قليلاً , ولذلك وبخهم الله تعالى على هذا الفعل المخالف للعقل فقال: (أفلا تعقلون) أي أفلا تكون لكم عقول توازن بين ما ينبغي إيثاره , وما ينبغي الإيثار عليه , وما هو أولى بالسعي إليه , والتقديم له على غيره , فخاصية العقل النظر للعواقب[2].

وفي نظم الآية دلالة على فعلهم المخالف للعقل حيث قال : " فخلف من بعدهم خلف " فقال خلف والخلف الرديء والمتأخر , وفي هذا دلالة على أن فعلهم سيكون رديئاً منافياً للعقل , وفي قوله: (ورثوا الكتاب) دلالة على أنهم علموا ما فيه ومع هذا فهم يأخذون عرض هذا الأدنى , وقوله (سيغفر لنا) دلالة على علمهم أن فعلهم ذنب لا بد من التوبة منه , ومع ذلك لا يتوبون . فلاءم أن يوبخهم بشدة على عدم فعل مقتضى العقل , وقد توفرت له كل مقوماته, فكيف لا يتروون ويتفكرون ويجددون التفكر ويستمرون فيه , وكل ما يدعو إليه قائم ثابت لديهم وحين نزلوا في تخيرهم عرض الدنيا بمنزلة من لا عقول لهم , فخوطبوا بـ(أفلا تعقلون) بالاستفهام الإنكاري وقد قرئت بتاء الخطاب[3] على الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ليكون أوقع في توجيه التوبيخ إليهم

1- الأعراف : 169

2- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : 111

3- القراءات العشر المتواترة من طريقي الشاطبية والدرة : علوي محمد بلفقيه .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مواجهة وهي قراءة نافع , وابن عامر , وابن ذكوان, وحفص, ويعقوب , وأبي جعفر, وقرأ البقية بياء الغيبة . والقراءتان متواترتان ومن ثم فهما مكملتان للمعنى المراد من وجوه :فالخطاب والمواجهة يتلاقى مع التوبيخ المستفاد من الاستفهام عن طريق الالتفات لمخاطبة اليهود في زمن الرسول -ﷺ- وذلك فيه تشديد عليهم وزيادة توبيخ لهم ففعلهم مطابق لفعل سابقيهم و لم يتعظوا بما حصل لأسلافهم ، والغيبة تتلاقى مع إهمالهم وحكاية أمرهم لغيرهم ليكون أدعى لبيان مثالبهم لغيرهم , كما في الغيبة احتقار لهم وهذا ملائم لتوبيخهم بانعدام عقولهم .

وكما وردت لفظة العقل فاصلة بنظم الاستفهام فقد وردت أيضاً فاصلة على نظم الترجي وذلك في قوله تعالى: ﴿**فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾(1) .

وذلك في سياق مخالفة اليهود وكفرهم بما أنزل عليهم مع كثرة الآيات والعبر والنعم التي حضوا بها ، وفي هذا دلالة على مخالفتهم لمقتضى العقل بهذا الكفر والإعراض ـ فآثر تعالى لفظة العقل في جعلها فاصلة في قوله تعالى: ﴿**فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ ، في هذه المخالفة و لم يرد فيما سبقها من المخالفات وذلك لأن ما سبقها من المخالفات كانت في أوامر غيبية , وهي تحتاج إلى الإيمان بها من طائفة خاصة حيث كان الخطاب سابقاً لمن يتلون الكتاب منهم "أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب". وذلك لأن اليهود فريقان منهم الأحبار والرهبان ومنهم (أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني) ـ والأمور الغيبية تكون خافية إلا على الخاصة كالإيمان بالله وبما ورد في الكتاب والفرقان وذكر النعمة ومعرفة فضل السجود والخضوع لله والحفاظ على الميثاق وغير ذلك من الأمور المعنوية التي تخفى على العامة .

ولكن في هذه الآية , الآية محسوسة وقد شاركوا فيها بأنفسهم وهي ملائمة لطبيعة اليهود القاضية بالمرئي وتصديق المشاهد , وتعقل المحسوس , ولذلك جاء معها

1-البقرة : 73

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(ويريكم آياته) وجاءت خاتمة القصة (لعلكم تعقلون) فالله -جل وعلا- أتاهم بآية تلائم طبيعتهم محسوسة ظاهرة لعقولهم ولكنهم لم يؤمنوا بالغيب , و لم يعقلوا المشاهد المحسوس , أي قلّب الله لهم دلائل الإيمان على وجوهها المختلفة لذا قال بعد هـــذا : (ثم قـــست قلوبكم) أي لا رجاء فيهم ولا طمع في إيمانهم , ومن ثم قال : "أفتطمعون أن يؤمنوا لكم .. " فإيمانهم بعد ذلك مستحيل . وفي قوله تعالى: "فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحـــي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون"ختم بقوله (لعلكم تعقلون) ولعل هنا مستأنفة وهـــي للترجي , وتأويلها بالتعليل يفوت كثيراً من خصوصيات الكلام فإذا نظرنا للسياق (لعلكم تعقلون) نجده في سياق المن عليهم بإظهار ما كان خافياً عليهم من الحقيقة ثم بعد ذلـــك نرى ما يقابلها عندهم من قسوة قلوبهم وعدم لينها وتعقلها لما أراهم الله عيانـــاً , وهـــذا ينافي الرجاء بكي المفيدة للتحقيق[1] وينافي الإطماع لأنه تفرع عنه القول بأنها بمعنى كـــي وينافي كون لعل من المجاز المرسل عن طريق التعبير عن السبب بلفظ المسبب وذلـــك لأن القصد من الترجي الإعداد والتهيئة للشيء , وهو يستلزم التحقيق , كما لا يتلاقى السياق هنا مع قول سيبوية في تعلق الرجاء والإشفاق بالمخاطبية لأنهم هنا اليهود وهذا لا يـــتلاءم مع حال اليهود . ولكن الترجي هنا هو الملائم لأنه يؤميء إلى احتمال تخلف ذلك منـــهم بعد أن رأوا من النعم التي تستلزم ذلك وفي هذا إيغال في ذمهم[2], حيث قدم هذا الرجاء بأن يعملوا بقضية عقولهم أموراً معللة منطقية تدعوهم لا محالة إلى إعمالها حيث ســـبق في الآية أن أراهم عياناً كيف يحي الموتى فحري بهم أن يؤمنوا بالبعث لأن المثـــال أصـــبح مشاهد أمامهم فلا يحتاج بالتالي إلى طول إعمال تفكير وتدبير . والقصة الراجح أن فيهـــا تقديماً وتأخيراً فقتلهم القتيل مقدم على أمرهم بذبح البقرة , وذلك لوجوه منـــــها : أن ذبح البقرة بدون ســـبب عبوديـــة محضة لا يتلاقى مع حال اليهود وقد ترددوا في فعـــل الأوامر المعللة والظاهر نفعها فكيف بما هو خفـــي؟ .. كمـــا إن في التقـــديم والتـــأخير

1- ينظر اعتراضات الشيخ محمد الطاهر بن عاشور البلاغية في التحرير والتنوير دراسة وتأصيل : 777

2- السابق : 778

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إيغال في ذمهم حيث كان الأمر لنفعهم ومع ذلك (ما كادوا يفعلون) . وفي الإتيان بالفاء (فقلنا) دلالة على تمام النعمة على بني إسرائيل حيث أرشدهم مباشرة إلى فعل ما يظهر لهم الحقيقة الخفية عنهم , وفيه دلالة أيضاً على السرعة وذلك لأنه عرف عن اليهود المماطلة والتي ظهرت جلية في هذه الآيات فكان الأمر بتنفيذ ما أمروا به بالعطف بالفاء أولى لكي لا يتهاونوا ويتراجعوا في فعل الأمر.

ومقام التوبيخ في المخالفة بعد الإنعام مباشرة دلالة على لؤمهم . والخطاب في الآية إما أن يكون خطاباً للذين حضروا حياة القتيل بمعنى (وقلنا لهم) ؛ (كذلك يحي الله الموتى) يوم القيامة (ويريكم آياته) ودلائله على أنه قادر على كل شيء (لعلكم تعقلون) وتعملون على قضية عقولكم , وأن من قدر على إحياء نفس واحدة قدر على إحياء الأنفس كلها لعدم الاختصاص حتى لا تنكروا البعث,وإما أن يكون خطاباً للمنكرين في زمن الرسولﷺ[1] والراجح لدي أنها للمخاطبين في زمن موسى عليه السلام بدليل (فقلنا اضربوه ببعضها) صراحة الأمر لهم وأنهم شاركوا فيه بأنفسهم , (يريكم آياته) والرؤية هنا بصرية لأن هذا يلائم حال اليهود وطبيعتهم في الإيمان بالمشهود المحسوس ويلائم ربط ذلك برجاء العقل منهم لأن الرؤية بالبصر تلائم العقل لأنه شيء ظاهر محسوس لا يمكن أن يغيب عن عقل عاقل .

ولكونها مخاطبة لما في عهد الرسول ﷺ وجه ذلك لأنهم صدر منهم كما صدر من آبائهم من قتل حين قتل اليهود الجارية في أوضاح لها فقيل لها من فعل بك هذا ؟ أفلان بن فلان ؟ فحين ذكر اليهودي أو مات برأسها[2].وحين أنطق الله جنب النعجة المسمومة التي قدمت للرسول بأنها مسمومة (والله مخرج ما كنتم تكتمون) وهذا يوافق من وجه قول الزمخشري:(إن القسوة خلقت خلقاً في قلوب اليهود).والحقيقة أنها لم تخلق حقيقة خلقاً بدليل (كل مولود يولد على الفطرة)[3]ولكن بالنظر إلى أن أفعالهم تتكرر وخياناتهم ثابتة كالسمة لهم فكأنهم توارثوا ذلك حتى جرى في دمائهم وهنا تكون الرؤية علمية لا بصرية .فكأن الزمن يعيد نفسه فما حصل من أجدادهم حصل منهم والله قادر على إظهار

1- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل : 284/1

2- التفسير العظيم :ابن كثير,بيروت,دار الجيل ,ط2, 1410هـ-1990م : 108/1

3- الحديث سبق تخريجه : ينظر البحث:25

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الحق في الحاضر كما أظهره سابقاً .

ولعل في تخصيص لحم البقرة بهذا الأمر ــ ملاءمة للفظة العقل ــ حيث فيه إيقاظ لهم من رقدهم وتنبيههم من غفلتهم عن عظيم قدرة الله تعالى ليترع من قلوبهم التعجب من خوار العجل الذي عبدوه[1] . ولعل في ذلك بيان لانتكاس عقولهم وتبلد نفوسهم حيث استهانوا بتلك النفس البشرية وتواطأوا على إهدار دمها و لم يروا بأساً للتلبس بتلك الجريمة وكتمانها ! واستعظموا الأمر بذبح البقرة حين أمروا به , وتلكأوا فيه وما رضوا أن يمتثلوا لهذا الأمر إلا كرهاً وبضيق النفس , كأن دم الحيوان كان أعلى عندهم من دم الإنسان ! وفي هذا الانتكاس ملاءمة لرجاء أن يتعقلوا ويعودوا عما هم عليه من مخالفة مقتضى العقل . وفي أمرهم (اضربوه ببعضها) تأكيد للعقل فهذا الأمر يجعلهم يقومون هم بأنفسهم بهذه التجربة وهذا الفعل حتى يكون ظاهراً , ومحسوساً , ومن ثم لا مجال إلى إنكاره أو النكوص كما فعلوا سابقاً عندما جاءهم الأمر غبياً أو على يد نبيهم سيدنا موسى -عليه السلام- وفي قوله (كذلك يحي الله الموتى) أي كذلك الإحياء فالتشبيه في التحقيق وإن كانت كيفية المشبه أقوى وأعظم لأنها حياة من عدم بخلاف هذه فالمقصد من التشبيه إمكان المشبه [2] كقول المتنبي :

فإن تفق الأنام وأنت منهم SS فإن المسك بعض دم الغزال [3] .

والغاية من التشبيه في البلاغة عموماً تقريب المعاني للأذهان فتكون بالتالي ظاهرة لتعقل وهذا ملائم أن يختم الله تعالى بقوله (لعلكم تعقلون) بعد أن سبقها بمسبب للعقل وهو التشبيه .

وفي جمعه (آياته) , دلالة على كون العقل ملائم لنظمه حيث إن كثرة الآيات فيها تحريك للعقل فهي كلما كثرت ظهرت للعيان وأدركها كل عاقل وفي قوله

1- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : 171/1

2- التحرير والتنوير : 544/1

3- ديوان المتنبي :بيروت,در الكتب العلمية,ط1, 1418هــ-1997م : 22/3

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(ويريكم) كما سبق دلالة على ملاءمة العقل لنظمه فالرؤية لا تكون إلا مع العلم بالمرئي والعلم به يساعد على فهمه وإدراكه والرؤية تكون للمحسوس والمشاهد وهذا ما يجعل رجاء العقل مسبب بالرؤية وسواء كانت الواو عاطفة فالآيات في إحياء الميت كانت كثيرة ومنها إثبات وجود الله , وصدق موسى عليه السلام . وبراءة ساحة من لم يكن قاتلاً أو كانت استئنافية فالسورة مليئة بالآيات والعبر والأولى أنها للعطف ؛ لأن هذه القصة خصوصاً قد اتسمت بالمشاهدة الحية للآيات والمشاركة في صنعها وإبرازها . وهذا لا يمنع أن نعتبر العموم ـــ أيضاً باعتبار أن هذه الآية أعلاها وأسماها ـــ في الغرض المراد منها ـــ وهو التوصل إلى العقل .

ونلاحظ أن لفظة العقل في سياق قصة موسى -عليه السلام- اطرد وقوعها فاصلة سواء كانت استفهاماً أو رجاءً سوى في موضع واحد فقط وردت في معرض النظم و لم ترد كفاصلة في قوله تعالى: ﴿**أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾ (1) , في شأن التعجب من طمع المؤمنين في إيمان اليهود وحالهم ظاهر في الإعراض والمخالفة للدين وخص القرآن لفظة العقل بعد الإخبار بتحريف اليهود لكلام الله وذلك لأنهم لم يحرفوه عن جهل بل (من بعد ما عقلوه) وللفظة دلالات تدل على أنهم كانت لديهم قوة متهيئة لقبول العلم وقد سبق لهذه القوة ـــ العقل ـــ أن أمدها الله بآلات إدراك "يسمعون" ، ولكن فطرهم المنكوسة تجعلهم ينحدرون بما علموا لا يرتقون , كما أنها تدل على أنهم تثبتوا أمر ما ورد فيه وعرفوا حلاله وحرامه ولكنهم لا يريدون الامتثال فحرفوه , كما أن اللفظة تدل على العلم الذي استفادوه بتلك القوة ـــ العقل ـــ وكل آلات العقل تدل على المباينة بين ما عرفوا من الحق وبين ما فعلوه من تحريف للحق بالرغم أنه كان ظاهراً لهم غير خافٍ .

وناسب استعمال هذه اللفظة دون غيرها السياق القبلي والبعدي في السورة

1-البقرة : 75

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والذي يفصل كيف أن العبر والآيات والنعم كانت تدعو اليهود إلى الإيـــمان ومع ذلك يخالفون ما هـــو ظاهر, ليس ذاك فحسب بل لا تردهم إلى عقولهم كثرة تلـــك العـــبر و الآيات . وقد سبق تفصيلها في موضع (فقلنا اضربوه ببعضها) وكيف أنهم قد نكسوا بعد ما جربوا بأنفسهم وشاركوا في معجزة إحياء الميت وناسبت اللفظة نظمها أيضاً حيـــث سبق هذه اللفظة ما يؤكد على فهمهم وإدراكهم لكلام الله مما يؤكد أنهم عقلوه حيـــث قال تعالى: "وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله" فإذن هم سمعوا كلام الله وليس ذلك مرة واحدة بل تكراراً ومراراً ولذا عبر تعالى بـــ(يسمعون) و لم يقل سمعوه وفي المـــضارع دلالة على التكرار وتجدد الحدث آنا بعد آن , وهذا يؤكد أنهم فهموه وأدركوه وفي نسبة الكلام لله "كلام الله" الذي من شأنه أن يؤثر في المتلقي ويغير من حاله إلى الخير والصلاح ـــ ومع هذا يحرفونه ـــ دلالة على معرفتهم أن هذا الكلام كلام الله , وفيه دلالة علـــى وضوح وإعجاز هذا الكلام مما لا يخفى على عاقل أنه كلام الله لا غيره فكيف تجرأوا على تحريفه ؛ وفي عطفه "بثم" وقوله (من بعد ما) دلالة على تراخٍ رتبي يؤكد على انتكـــاس فطرهم وعملهم بخلاف ما يقتضي العقل على الرغم من وضوحه ومن توفر السماع لهـــم فتحريفهم لم يكن في محل إشكال لكونه مدركاً بالبديهـــة[1]. ويدلنا على دقـــة البعـــد الرتبي هنا أنه أوفق لبيان المقارنة بين ما يوجبه سماع كلام الله من التأثر والإيمان . وبـــين فعلهم هم المخالف لمقتضى ذلك "يحرفونه" وفي ذلك زيادة في توبيخهم .والتراخي الرتبي ملائم لقوله : "من بعد ما عقلوه" وخاصة أن الآيات تتكلم عن فريقين من اليهود وهـــم علماؤهم "فريق يسمعون كلام الله" والأميون منهم "ومنهم أميون لا يعلمون الكتـــاب" وهذه الآية عن العلماء فقد سمعوا كلام الله ثم ارتقوا بعد ذلك لأنهم "عقلوه" وقد كان لهم باع في هذا العقل حيث قـــال "من بعد ما" وفي ذلك دلالة على الإيـــغال في فهمـــه وحصره وحفظه والتثبيت فيه وكانت لهم قوة في الفهم ولذا حرفوه وأتقنوا تغـــييره بمـــا يناسبهم ويلائم فطرهم المنكوسة . وهذا يلائم سياق الآيات السابقة حيث بدأ الله لهـــم بالأمور الغيبية فلم يؤمنوا فأتى بالأظهر منها علهم يؤمنون فكانت قصة إحيـــاء الميـــت

1- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : 176/1

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والتي شاركوا في أحداثها بأنفسهم وحدثت المعجزة بضرب أيديهم فالترتيب أن يؤمنوا ويرقوا ولكنهم "قست قلوبكم" بعد ذلك "فهي كالحجارة أو أشد قسوة" ولذا أنكر الله على المؤمنين وتعجب من طمعهم في إيمان مثل هؤلاء ثم أخبرهم بحال العلماء منهم "فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه" حيث انتقل من العامة إلى الأرقى ثم عاد إلى الأميين منهم .. فالرتب عند هؤلاء انحدار لا ارتقاء وفي التقييد بالحال "يسمعون" دلالة واضحة على فهمهم فحالهم أنهم "يسمعون" فأداة الإدراك متوفرة لديهم فلا خلل في إدراكهم ولكن الخلل في عدم إعمال العقول على مقتضاها حيث خالفوا بتحريفهم لكلام الله لأن التحريف تغير الكلام على غير وجه الحق ولا يكون إلا بالباطل[1]. "وهم يعلمون" أي والحال أنهم مع العقل حاملون للعلم فاهمون له غير غافلين بل متعمدون . وهذا تأكيد على مخالفتهم مقتضى العقل والجملة حال من فريق وهي قيد في القيد "يسمعون" يعني يسمعونه ثم يعقلونه ثم يحرفونه وهم يعلمون أنهم يحرفونه , لذا ورد النظم "من بعد ما عقلوه وهم يعلمون" و لم يرد "من بعد ما علموه وهم يعقلون" لأن النظم في توبيخهم وذمهم لأنهم عقلوه ظاهراً و لم يتعمق في قلوبهم فحرفوه وهم يعلمون أنهم على خطأ في ذلك لكن لو كان النظم "من بعد ما عملوه وهم يعقلون" لأشعر بمدحهم وأن لهم حق في تحريفه حيث إن العلم يقين فيكون كأنهم أيقنوه فحرفوه "وهم يعقلون" أي مقتضى العقل أن يقع هذا التحريف و ليس ذاك .. بل إن المراد ذمهم لا مدحهم وبيان جرمهم وتجرؤهم على كلام الله المتره عن كل خطأ وزيغ فحرفوه من بعد ما عقلوا أنه الصواب وهم يعلمون خطأهم ولكن فعلوا ذلك ظلماً وعلواً في الأرض ... والله أعلم .

وفي السياق البعدي دلالة على أنهم عقلوا ولكنهم لكفرهم يعملون بما يخالف مقتضى العقل لديهم ومن ذلك نفاقهم مع المؤمنين وسترهم ما يعلمونه من صفة الرسول وصدقه وهم يعلمون أنه حق ، وتحريفهم الكتاب , وغير ذلك مما سبق ذكره من مخالفات اليهود وخروجهم عن ظاهر العقل فالعقل هنا ملائم لسياقه ولنظمه حيث إن الأمور ظاهرة تدرك بالعقل ,كما أن إدراكهم لكلام الله لم يتجاوز عقلهم له دون أن يقر في قلوبهم فيرقى بهم.

1- المفردات في غريب القرآن : 121

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كل ما سبق من المواضع التي وردت فيها لفظة العقل كانت في شأن اليهود أما في قوله تعالى: **﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾** [1]. فاللفظة واردة في شأن فرعون وملائه وقد رشحها السياق والنظم ..

حيث إن الآية واردة في سياق ذكر دلائل لألوهية الله تعالى وربوبيته في مجادلة موسى ــ عليه السلام ــ لفرعون وموارد الاحتجاج هنا ظاهرة جلية , محسوسة لا تنكر و في السياق عموماً إشارات لخطاب العقل من الرسل لمن أرسلوا إليهم فبالإضافة إلى ما ورد من محاجة فرعون لموسى ــ عليه السلام ــ التي سأعرض لها تفصيلاً ــ حاج إبراهيم ــ عليه السلام ــ في السورة قومه بمقتضى العقل في عدم نفع آلهتهم "هل يسمعونكم" "ينفعونكم أو يضرون" , وهود ــ عليه السلام ــ في محاجة قومه "واتقوا الذي أمدكم بما تعملون" من الأنعام والبنين والجنان والعيون فكل ذلك يدرك بالعقل به من هو رب العالمين ، وفي قول شعيب ــ عليه السلام ــ لقومه "واتقوا الذي خلقكم والجبلة الأولين" وكل الأمم لا تنكر أن الله هو الخالق , ولكنهم يستكبرون عن الإقرار بذلك فإذن خطاب العقل للأمم درج عليه الأنبياء من أولهم إلى خاتم المرسلين عليهم صلوات الله وسلامه .

وحين نعرض لقصة موسى ــ عليه السلام ــ والتي وردت فيها لفظة العقل نقف على محاجة قامت أساساً على إعمال مقتضى العقل في الاستدلال على من رب العالمين ؟ وسؤال فرعون "ما رب العالمين" كان استكباراً , ولا يسأل هذا السؤال عاقل حيث سأل عن ماهية رب العالمين ــ سبحانه ــ "لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار" [2] فكان جواب موسى عليه السلام جواب العاقل المؤمن بأن استدل بدلائل لا ينكرها عقل على وجود إله ورب لهذا العالم غير فرعون .

وقد تدرج ــ عليه السلام ــ في الاستدلال بهذه الدلائل من الظاهر إلى الأظهر

1- الشعراء : 28 2- الأنعام : 103

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فبدأ بالرد بقوله تعالى: "قال رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم مؤقنين" وجعل الفاصلة الإيقان وذلك لأن العبر في السماوات والأرض كثيرة وقد تخفى على الرغم من ظهورها لعدم تفكرهم فيها , فلما زادت المحاجة ذكر أموراً أظهر دلالة على ربوبية الله لهذا الكون "ربكم ورب آبائكم الأولين" حيث قرب لهم دليل القدرة وخصص من العام ـ للبيان ـ أنفسهم وآباءهم لأن أقرب المنظور فيه من العاقل نفسه ومن ولد منه "وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ" (1) ولكن الغافل لا يدرك ما في نفسه وما يملكه من دليل على ربوبية الله فترقى إلى أعلى من هذه الدلالة في الظهور فقال "رب المشرق والمغرب وما بينهما" ولأنها الأظهر ختم بقوله: "إن كنتم تعقلون" وذلك لما في الشروق والغروب من دلائل ظاهرة على قدرة الله جل وعلا وتفرده وكذلك فضله فيما يدل على قدرته وبالتالي على ألوهيته كيفية هذا الشروق والغروب وقد وردت في القرآن بالإفراد مشرق ومغرب , وردت بالتثنية, ووردت أخرى بالجمع وقد أشار إلى ذلك ابن القيم حيث ذكر أن المقصود بالجمع أيام السنة وبالإفراد أفقي المشرق والمغرب وبالتثنية صعود الشمس وهبوطها في المشرق والمغرب(2) .. وقد وصفها د . زغلول النجار في قالب علمي حيث ذكر أن الأرض منبعجة والشمس حين تشرق تقع على أكثر نقطة انبساطاً فهذا مشرق واحد , كما إنها تتدرج في الشروق على أماكن مختلفة بعد ذلك وهذه مشارق وكذلك في المغارب(3). وهذا دليل لا يخفى على عاقل أنه لا يستطيعه إلا الله وحده وبالتالي فهو أحق بالألوهية .

أما دلائل فضله التي تدل على ربوبيته ـ سبحانه ـ للخلق منها ما يلي :

تأثير مشارق الشمس ومغاربها في اختلاف أحوال النبات والحيوان وهو أمر مشهور , وتبدل الأحوال من البرد والحر وما في ذلك من فوائد من أمطار وثلوج وغير ذلك وهذه كلها أمور مشاهدة بالعين محسوسة لكل ذي عقل , ولذا ورد

1- الذاريات : 21

2- بدائع الفوائد : 121/1

3- من آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم : د.زغلول النجار,مكتبة الشروق الدولية, ط2, 1426هـ2005م :57/2

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

القسم بها في سياق سعة ربوبية الله وإحاطة قدرته[1] ﴿**فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ**﴾[2]. وكل ما ذكرت مرشح لاستعمال العقل دون سواه .

وفي اتهام فرعون لموسى ـ عليه السلام ـ بالجنون مخالفة سافرة لمقتضى العقل فالعاقل يعرف أن الإجابة إجابة عاقل , فالله سبحانه لا يمكن معرفة ماهيته ـ تعالى الله عما يصفون ـ ولكن هناك دلائل أوضحها موسى تدل على وجوده سبحانه وأنه للكون خالقاً ورباً . لذا ختم بـ "إن كنتم تعقلون" فلاين أولاً فلما رأى منهم شد الشكيمة في العناد وقلة الإصغاء إلى عرض الحجج خاشن وعارض "إن رسولكم لمجنون" بقوله: "إن كنتم تعقلون" [3]. أي فأنتم تعلمون ذلك ؛ فخيرهم بين الإقرار بالجنون أو العقل , بما أشار إليه من الأدلة في مقابلة ما نسبوه إليه من الجنون بسكوتهم وقول عظيمهم بغير شبهة , رداً لهم عن الضلالة , وإنقاذاً من واضح الجهالة , فكان قوله أنكأ مع أنه ألطف , وأوضح مع أنه أستر وأشرف[4] .

ونلاحظ أنه تعالى قال : "إن كنتم تعقلون" و لم يقل "لعلكم تعقلون" وذلك لأن في "إن كنتم تعقلون" تعريضا بانتقاص فرعون وطعنه في دعواه الألوهية بطريقة عرضه لقدرة الله , وإثارة غيظه كما إن فيه استبعادا لأن يكون لهم عقل وهذا أدخل في ذمهم حيث وردت الجملة شرطية والشرط فيها بإن وتقيدها بالشرط بإن فيه شك أن يكون لهم عقل يدركون به الحجج التي أوردها موسى عليه السلام وقد لا يكون لهم البتة . وهذا ما كان ففرعون ومن في مجلسه لم ينبههم عقلهم إلى إدراك الحق , وفي هذا الشرط إيذان بغاية وضوح الأمر بحيث لا يشتبه على من له عقل و في الجملة وتلويح بأنهم بمعزل من دائرة العقل وأنهم المتصفون بما رموه ـ عليه السلام ـ به من الجنون [5] . وأرى بالإضافة إلى ما سبق أن هناك لطيفة أخرى لورود لفظة العقل وهي مقابلة قول فرعون "إن رسولكم لمجنون" بـ "إن كنتم تعقلون" لأن الجنون يقابله العقل .

1- بدائع الفوائد : 122/1 2- المعارج : 40 ، 41

3- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل : 186/4

4- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : 356/5

5- تفسير أبي السعود : 38/5

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فلكل ما سبق نجد أن لفظة العقل أنسب من غيرها من الألفاظ , فلم يكن فرعون وقومه من الألباء الذين يدركون حقائق الأمور ويفقهونها ولا من "أولى النـــهى" الـــذين تنهاهم عقولهم عن القبيح وتردهم إلى الحسن , و لم يكونوا على الأقل حتى من أصـــحاب العقول الذين يدركون ظاهر الأمور وهذا أدخل في ذمهم وإقامة الحجة عليهم .

أما لفظة النهى فقد وردت في موضعين فقط ـــ في قصة سيدنا موسى عليه السلام و لم ترد في غيرها ـــ في سورة واحدة (طه) الموضع الأول في سياق إثبات وحدانيـــة الله وربوبيته التي ينكرها فرعون في قوله تعالى: ﴿**كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَـــاتٍ لِأُولِي النُّهَى**﴾ [1] ، والموضع الثاني في الإنكار على من لم يتعظ بما حلَّ بـــالقرون الأولى الرغم من وضوح العبرة في قوله تعالى: ﴿**أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُـــرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى**﴾ [2] . حيث وردت "أولي النهى" دون العقل أو الحجر أو الألباب لأن فيها زيادة فضل على مجرد العقل والحجر أما إيثارها على الأحلام فبين , ولكن لَمَ لم تكن "أولي الألباب" ؟

بعد استقراء المواضع التي وردت فيها "أولوا الألباب" تبين أنها لم ترد إلا في سياق مدح لمن وصف بها كما أن من وصف بها لم يسبق منه إنكار أو إعراض كما هـــو الحـــال في سياق "أولي النهى" كما أنه في جميع مواضعها تتقدمها عبرة , أو ذكرى , أو أمر بالتقوى , فاللب هو الخالص من العقل والذي يعمل لصالح من تحلى به نهياً أو أمراً , فهو إذن أعم من النهي , فالنهى يقصد به النهي عن القبائح ويدخل به في المحاسن[3] كما إن ما يتقـــدم اللب ـــ كما سبق أن ظهر من خلال السياقات ـــ يحتاج إلى عمق في الفكر والتذكر لذا وردت معها ذكرى. ووردت معها صيغة تذكر "خاصة" , أما ما يتقـــدم النـــهى فهـــي علامات واضحة ولكن لا يعمل العقل فيها وذلك لأنها وردت في سياق منكرين لما ورد .

1- طه : 54

2- طه : 128

3- معاني القرآن وإعرابه : 359/3

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

و لم يتقدم في نظم ـ أولي الألباب ـ أنها آيات سوى في موضع واحد في سـورة آل عمران : "إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليـل والنـهار لآيـات لأولي الألباب" والنظم مختلف عما ورد في نظم "أولي النهى" اختلافاً ظاهراً نبع من المعنى الدقيق لكل منهما , حيث وردت الآيات مجملة ـ أي في خلق السماوات والأرض واخـتلاف لليل والنهار وهذا لكي نصل إلى العبرة لا بد من التفكير الطويل وهذا يلائـم الألبـاب لأنهما أعم و أعمق وأتم من النهى , كما إن التوكيد ذكر فيها بـدءاً "إن في خلـق ..." فالسياق سياق مدح و أولوا الألباب متفكرين , وليس ذلك في السياق الذي وردت فيـه "أولي النهى" فالسياق مختلف ففيه إنكار معاندين حيث فصلت الآيات أولاً ثم ورد النظم "إن في ذلـك لآيـات لأولي النهى" فالسياق فيه تلبيس بالقبيح ومن ثم ففـي خـصها بالذكر مزيد تقريع للمخاطب لعدم انتهائه عنه ؛ ولذا نلمح التقريع بيناً , كما أنها ترد في معرض أمور تعالج من قبل المخاطبين , ومن ثم فهي أدخل في الانتهاء حيث وردت بعـد قوله: "كلوا وارعوا أنعامكم" وفي الموضع الثاني بعد قوله "في مساكنهم" وهـي أفعـال تتكرر ويفعلها المخاطب و يشارك فيها بنفسه فكيف لم ينهه عقله بعد ذلك عن إنكـار نعمة الله والكفر بوحدانيته ؟

كما إن التأكيد في "أولي النهى" ورد في إسنادين وذلك لأن سياق إنكار المعاندين فيه ذم غير مصرح به , وفيه تعريض بمن وجه إليه الخطاب بأنه ليس ممن تنهاهم عقولهم عـن فعل القبيح أو الإعراض عن الله .. فكـانت لفظـة " النهى " أدل في معناها وفي صيغتها على مقصودها في السياق ويؤكد لنا هذا الفهم نظم الآية ذاتها , بالإضـافة إلى الـسياق القبلي ففي قوله تعالى في الموضع الأول : "كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهى" وصف لفرعون الذي وجه الأسئلة فيما بعد لموسى وأخيه هـارون ـ عليهمـا السلام "إنه طغى" وفي هذا تنبيه لحقيقة من ستوجه إليه الدعوة وذم له ملائم لصيغة النهى فالطغيان مجاوزة الحد في الكفر والخروج عن الحق ومن كانت هذه صفته فلا يلائمه إلا أن يوبخ بعدم انتهائه عن ذلك وكون عقله لم ينهه عن مجاوزة الحد , ثم الترجي في الجملـة المستأنفة "لعله يتذكر أو يخشى" والذي يعرف تحققه أو عدمه من السياق , وقد ظهر عياناً هنا عدم تحققه وإنما هو تأكيد على ذمه , كما أن موسى ـ عليه السلام ـ حين بـدأ دعوتـه بدأها بالتهديد والقوة في الخطاب ملائمة لوصف فرعون بـ "إنه طغى" , "إنا قد أوحي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إلينا أن العذاب على من كذب وتولى" , ثم في أسئلة فرعون التي تدل صراحة علـــى أن عقله لم ينهه عن تجبره وتكبره , ثم لننظر : إلى الأشياء التي ذكرها موسى - عليه السلام -وهي مما تقضي بداية العقول أن فرعون وكل بشر بعيد عنها لأنه لو قال : هو الرازق القـــادر المريد العالم ونحوه من العبارات لأمكن فرعون أن يغالط ويقول : أنا أفعل هذا كله , فإنما أتاه موسى عليه السلام بصفات لا يمكن فرعون أن يقول : إن ذلك له[1] , فلـــم يـــذكر موسى فقط الخلق بل تجاوزه لأنه مسلم أن الخالق الله تعداه إلى آية أعظم في الانتهاء مـــن الإنكار والإعراض "أعطى كل شيء خلقه ثم هدى" فذكر الخلق وهدايته وهذا لا يكون إلا لله , أما القرون الأولى وما كان منها فأمرها لله : "في كتاب لا يضل ربي ولا ينـــسى" وهذا تعريض بفرعون الذي صفاته مخالفة لصفات الإله الحق وهو تعريض يلائم التقريـــع بـــ"أولي النهى" أي الذين لست منهم . فالإله لا يضل ولا ينسى , أما فرعون فهو في أقل حالاته إن لم يضل فلا بد وأن ينسى وليس الإله كذلك. ثم فصل فيما لا ينكره عاقل من القدرة وما يأطره أطراً على إتباع الحق فضلاً عن نهيه عن التكذيب والإعـــراض "جعـــل الأرض مهداً" , "سلك فيها سبلاً" , "أنزل من السماء" , "أخرجنا به أزواجـــاً" , "مـــن نبات" , "شتى" وفي قوله "أخرجنا به" تخصيص بأنا نحن نقدر على فعل هذا ولا يـــدخل تحت قدرة أحد[2] . وأرى أن في الآيات تدرجا في قوة اللهجة الملائمة لحال فرعـــون .. فالمتحدث كان موسى عليه السلام , ثم بعد أن زاد التعنت زاد الرد وضـــوحاً بقـــدرة لا يمكن أن تكون إلا لله قال "أخرجنا" , فانتقل الكلام من البشر في البرهان إلى رب البـــشر سبحانه ليس ذاك فقط بل بنون العظمة , المؤكدة لعظمة القدرة وظهورها حتى حكاها الله ـــ جل وعلا ـــ عن نفسه ففي وجود الأزواج في كل شيء إثبات أن الله وحده هو الواحد الأحد الحقيقة التي ينكرها فرعون و لم يهده عقله للانتهاء عن هذا الإنكار .. وهذه القوة كما سبق ملائمة "لأولي النهى" .

1- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز:ابن عطية,القاهرة,دار الفكر العربي ,ط2 : 39/10 , 40

2- الكشاف عن حقائق غوامض التتريل وعيون الأقاويل : 87/4

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

في السياق البعدي : أيضا بيان لحال من لا نهى له ينهاه عن الكفر .. ونلاحظ أن الأمور المذكورة بعد ذلك أموراً كان من العقل الانتهاء عنها والآيات والدلائل قصدت إلى أن ينتهي عنها ولكن لم يكن ذلك من فرعون حيث "أريناه آياتنا كلها" , "فكذب وأبى" , وواعده موسى بثقة من أرسله الله , فلم ينته فرعون بل "جمع كيده ثم أتى" حذره موسى عليه السلام من الافتراء على الله فقال : "فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفاً" ثم آمن السحرة وكان ينبغي أن ينتهي عن صلفة كما انتهوا عن سحرهم ولكنه "قال آمنتم له قبل أن آذن لكم" ففر منه موسى - عليه السلام - فانفلق له البحر وفرعون يرى ومع ذلك "فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم" فكل ما ورد صريح الدلالة على أن من كان من أولي النهى , ينتهي عنه ولكن فرعون لم يكن كذلك .

وفي نظم الآية دلالة على قوة لهجة "أولي النهى" وأنها تتضمن معنى التوبيخ والنهي عن الكفر بعد ظهور الآيات حيث وردت الآية بـ "كلوا وارعوا أنعامكم" بالأمر و لم ترد بعد بيان الفضل في خلق الأرض وإنزال المطر وإنبات النبات بأن ذلك علة لتأكلوا وترعوا أنعامكم مثلاً بل وردت بالأمر الذي فيه هز للنفس(1) وتنبيه لها على التفضل عليها بما تحتاجه من ضرورات وذلك يلائم السياق الذي فيه إنكار هذا الفضل والنعمة من فرعون و ملائه وإلا فالأكل ورعي الأنعام ضرورة يفعلها الإنسان دون اضطرار لأن يؤمر بذلك ولكن للتنبيه أن النعمة ظاهرة و لم تنههم عن غيهم , كما إن في قوله بالتوكيد "إن في ذلك لآيات" إشارة إلى ما ذكر من شؤونه تعالى وأفضاله , وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو رتبته وبعد منزلته في الكمال , والتنكير في قوله "لآيات" للتفخيم كما وكيفاً

1-المحرر الوجيز : 40/10

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أي لآيات كثيرة جليلة واضحة الدلالة على شؤون الله تعالى في ذاتــه وصــفاته وأفعاله وعلى صحة نبوة موسى وهارون عليهما السلام [1] وفي إقران النهى "بأولي" دلالة على أن هذه "النهى" كانت في خدمة وصالح أصحابها وهذا ما لم يكن لفرعون وملائــه فلم تنههم عقولهم عن الغي , ومن عمي عن ذلك فلا عقل له أصلاً لأن عقله لم ينفعه وما لا ينفع في حكم العدم[2] وتخـــصيص كـــونها آيات لهم مـــــع أنهـــا آيـــات للعالمين باعتبار أنهم المنتفعون بها[3] .

وهذا يؤكد أن سياق السورة في معرض أمور تعالج من قبل المخاطبين , ومن ثم فهـــي أدخل في الانتهاء وآكد على قـــرار النهى في نظمـــها.

وفي قوله تعالى: "أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مـــساكنهم إن في ذلك لآيات لأولي النهى" , أيضاً ورد النظم بالإنكار على من لم يتعظ بحال الأمـــم السابقة و لم ينته عن فعل القبائح على الرغم من كثرة الآيات والدلائل , كما أن الزجـــر عن مخالفة أمر الله واضح لذا آثر "أولي النهى" ونجد أن في السياق القبلي ما يدل على قرار لفظة النهى في نظمها وسياقها , حيث قال تعالى: "وكذلك نجزي من أسرف و لم يـــؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى".

فالإسراف هنا مجاوزة الحد في المعصية , وكيف يكون منهم إسراف بعد ما ورد مـــن الآيات لذا ذكر بعد ذلك "و لم يؤمن بآيات ربه" وقال "ربه" إشـــــارة إلى الـــنعم وإذا توالت النعم كان الأولى الإيمان لا الجحود فمن كفر بعد ذلك فليس مـــن "أولي النـــهى" الذين تنهاهم عقولهم عن مقابلة النعم بالكفر ..

وفي السياق البعدي تحذير "لولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً وأجـــل مـــسمى" وتحذير من النظر إلى ما في أيدي الآخرين فهو فتنة , والتهديد بقوله: (قُلْ كُلٌّ مُتَـــرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى) فاللهجة قوية وفيها نهـــي عما ينبغي الانتهاء عنه .

وفي نظم الآية ما يدل على دقة استعمال "أولي النهى" حيث بدأت الآيـــة بــــــ

1- تفسير أبي السعود : 287/4
2-نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : 24/5
3- تفسير أبي السعود : 287/4

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

"أفلم يهد لهم" باستفهام إنكاري وخص النظم بالذكر "لم" التي فيها معنى الجزم والنفي والقلب وهي أقوى في الدلالة على الإنكار كما إن في زيادة الفاء التي توحي بإطالة التوبيخ ملائمة أيضاً "للنهى" وقد وردت ألم يهد في مواضع أخرى فلم خص هذا الموضع "بأولي النهى" أرى أن لذلك سببين :

أولهما : لفظي ففي أولي النهى الثانية مشاكلة لفظية لأولي النهى التي وردت في الموضع الأول .

ثانياً : السياق لا يزال فيه تقريع وتلبيس بالقبيح يستدعي "أولي النهى" كما في نظم الآية أيضاً أمور تعالج من المخاطبين بأنفسهم كما في الموضع الأول "يمشون في مساكنهم" . وحين نلاحظ نجد أن سياق سورة طه ومسار القصة عموماً فيها تتلاقى مع "النهى" حيث يوجد وضوح في عرض قصة موسى - عليه السلام - . يجعل الاعتبار بالحق ظاهراً وهذا الوضوح لم يرد في موضع بهذا القدر كما ورد هنا فكيف لم يكن لهم عقول تنهاهم عن فعلهم القبيح .. وقد قرئت "يهد" بالياء[1] فكأن آية الإهلاك وبقايا المساكن من شدة وضوحها هي بذاتها هادية لهم للاعتبار بها. وقرئت بالنون "نهد" أي نعينهم على الاهتداء بما تركنا لهم من الآثار وفي كل الهداية بعون الله .

وفي قوله "لهم" تأكيد على أنها وضعت خاصة لصالحهم وذلك لأنها تنهاهم عما يهلكهم "يمشون في مساكنهم" وهذا أدعى للاتعاظ والاعتبار والانتهاء عن فعل من سبقهم فهم يتجدد لهم سير في مساكن المهلكين وخص المشي دون السير ملائم "للنهى" حيث فيه تعريض بهم فالمشي تحول في المكان بإرادة المشي ذاته , ولكن السير فيه معنى التفكر حيث يلازم السير تأمل وتفكر وليس ذلك في المشي فلاءم أن يرد مع "أولي النهى" حيث عرض بهم وأنكر عليهم عدم الاستفادة من هذا المشي وعدم إعمال العقل في الانتهاء كما فعل السابقون . وقوله "في" دليل على أنهم لم يمروا عليها أو بجانبها ولكن تغلغلوا فيها ومع ذلك لم يعتبروا , لذا قال "في مساكنهم" ولم يقل "قراهم" أو "بلادهم" بل جعل المشي أدخل من أن يكون في القرية بل في المسكن ذاته وهذا أدعى للاعتبار .

1- إعراب القرآن :أبو جعفر أحمد النحاس,ت:د.زهير غازي,مطبعة العاني : 361/3

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن وجه آخر "المسكن" فيه دلالة على السكون والأمان فهل أمن هؤلاء بإعراضهم ؟ بل إن مساكنهم كانت مخاوفاً لهم لا سكناً فألا ينهى ذلك غيرهم من الإعراض ثم ختم بـــــ "إن في ذلك لآيات" خاصة "لأولي النهى" الذين يكون عامل النهي لديهم والنفس اللوامة قوية ظاهرة الأثر لكي لا يقعوا فيما وقع فيه غيرهم . ففي "إن في ذلك" تعليل للإنكـــار وتقرير للهداية مع عدم اهتدائهم "أفلم يهد .." وذلك إشارة إلى مضمون قولـــه "كـــم أهلكنا .." وما فيه من معنى البعد للاشعار ببعد مترلته وعلو شأنه في بابه "الآيات" بالجمع لأنها كثيرة عظيمة واضحات الهداية ظاهرات الدلالة على الحق[1]. ولكن حـــين عـــدم الانتفاع بالانتهاء عن الباطل عدمت "النهى" .

أما الموضـــع الذي ورد فيه "اللب" فـــي سياق قصة موسى عليه السلام ففـــي قوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرائيلَ الْكِتَابَ ، هُدىً وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ**﴾ [2] وهو الموضع الوحيد في قصة موسى - عليه السلام- فورود لفظة " اللب " هنا في هذا الموضع على غيرها ملائم للسياق القبلي والبعدي ولنظم الآية ذاتها وذلك لما في السياق القبلي من دعوة إلى السير في الأرض و الاتعاظ من عاقبة الأولين وذلك لا يكون إلا لأولي الألباب أي أصحاب العقول و خالصها ولبها , وفي السياق قصة الرجل المؤمن من آل فرعون و لم يخرج عن قومه ويؤمن دونهم إلا لأن له عقل خاص وخالص دون قومه الذين كذبوا , وفيه أيضاً الوعـــد بنصر الرســـل والذين آمنوا وذلك لأنهـــم خلّـــصهم وأخلصهم الذين هدتهم ألبابهم بفضل الله للإيمان ,ثم إن السياق القريب في بيـــان فائـــدة الهدى الذي أوتيه سيدنا موسى - عليه السلام- والكتاب الذي ورثه بنوا إسرائيل وهذه الفائدة لا يحصل عليها إلا من هم من خاصة الخاصة في التفكير وإعمال العقل وهـــــم أولـــوا الألباب .

1- تفسير أبي السعود : 316/4

2-غافر:54

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي السياق البعدي الأمر بالصبر والوعد أن النصر قريب , والأمـر بالاسـتغفار والتسبيح بحمد الرب ــ سبحانه ــ بالعشي و الإبكار , وهذا الفعل فعل الخواص لاعوام الناس . ثم فرق الله بين الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات والذين أسـاءوا استعمال فهمهم فلا يستوون أبداً , وذكرت الآيات أن القليل الذين يتذكرون فقليل هم أولو الألباب الذين يتعظون بما في الكتاب " ولكن أكثر الناس لا يعلمون " " قلـيلاً مـا تتذكرون " ثم ورد جعل الليل للسكن والنهار مبصراً و لايعرف ذلك إلا من تفكر ثم كرر " أفلم يسيروا في الأرض " وكل ذلك لمن كان له لب يفهم به ويعتبر بـذلك . ولـذلك كان الكتاب الذي أنزل على موسى -عليه السلام-" هدى وذكرى لأولي الألبـاب " . قـال تعالى : " ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني إسرائيل الكتاب " فذكر ايتاء موسى عليه السلام الثمرة وذكر إيراثهم السبب إشارة إلى أن منهم من جنى الثمرة فاهتدى ومنهم من ضل وذلك تحذير للأتباع وتشريف للأنبياء بما نالوه من مراتب الارتفاع[1] وقـد وردت الجملة الثانية " هدى وذكرى لأولي الألباب " تعليل للأولى فأنزل الكتاب لموسى عليـه السلام ثم أورث لبني إسرائيل ليكون هدى وذكرى لأولي الألباب خاصة . واللب يفيد أنه من خالص صفات الموصوف به [2] لذلك نرى اطراد الأسلوب القرآني يجعل اللب مـع الذكرى وما يقاربها وذلك لأن الذكرى تشتمل على استنباط الأحكـام مـن نـصوص الكتاب وهو الذي يختص بالعلماء منهم من أنبيائهم وفقهائهم وأحبـارهم فيكـون " لأولي الألباب " متعلقـاً بـ " ذكرى " فأولوا الألباب : أولوا العقول الراجحة القـادرة على الاستنباط [3] . وتأتي دائماً مـضافة إلى أولي لأن أولي فيهـا معـنى التـشريف والاختصاص بالفضل وذلك يلائم الاختصاص بخالص العقول ولبها , كما إن أولي فيهـا ثبات في الملازمة أكثر من أصحاب فأولي الألباب كأن الألباب أصبحت ذاتهم لا يمكن أن تفترق عنهم ففيها دوام ملازمة ولذلك تلائم " ذكرى " لأن فيها دوام تـذكر واعتبـار وذكر د.المطعني أن هناك أصالة في العلاقة بين أولي والألباب لكون ما يضاف إليها

1- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : 524/6 2- الفروق اللغوية:86

3 - التحرير والتنوير : 217/24, 218

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

جزء لا ينفك عنها أبداً بل هو جزء من المضاف [1] . وفي تعريفها (بأل) ملاءمة لكمال الوصف في " الألباب " فلما كانت ألبابهم خالصة دوماً وثابتة لهم فتذكرهم دائم فاستحقوا بأن يكون وصفهم كاملاً , وفي جميع سياقات القرآن وردت " أولو " في سياق التشريف بعكس أصحاب التي وردت في التشريف والذم " أصحاب الجنة " ," أصحاب الجحيم" .كما إنها أتت مجموعة ونجدها في جميع نظم القرآن تأتي مجموعة لا كما قيل لأن مفردها فيه ثقل على اللسان عند النطق بل لأن المقصود أن هذه الأقسام الخاصة مختلفة النظرة في فهمها كما أنها مختلفة القدر , كما إن الإنسان من تمامه ألا ينفرد برأيه بل لابد أن يتكامل مع غيره لأنه إذا انفرد لا بد أن ينقص عقله ؛ لذا أوردها النظم الحكيم بالجمع .

فلفظة " الألباب " أتت ملائمة للسياق الذي يدعو إلى التفكير والاعتبار وصرح بتفضيل هؤلاء الخواص على غيرهم حيث لا يعمل الفكر للعبرة والاتعاظ إلا هم , كما لاءمت النظم الذي أكد أن الكتاب فيه هدى وذكرى لأولي الألباب فلا يهتدي ولا يعمل عقله في آيات الكتاب وأحكامه إلا من كان له عقل خالص نقي من الشوائب ولذلك تأتي (الذكرى) بالمصدر لأن فيها الاتصال والدوام والثبات على التذكر فهي أقوى من التذكر بالفعل وذلك لأن أصحاب العقول الخالصة دائمي التفكير حتى فيما ينساه الناس فهم يعتبرون بما يرونه مشاهداً أمامهم ولهم ذكرى ماثلة أمامهم لما مضى وفات ونسيه غيرهم ممن لا لب له . فهي ملائمة ولا يمكن أن يؤدي مؤداها (العقل) لأن ليس كل عقل يعمل في آيات . ولا النهى : لأن التفكر في آيات الله يتطلب لبا خالصاً ولكنه لا يشترط أن يكون لديه منتهى العلم والفكر ولا الحجر , لأنه لا يحمل خصوصية اللب . فالألباب هنا ملائمة لسياقها ونظمها وجاراتها .

---

1 _ دراسات جديدة في إعجاز القرآن : 40

***

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المبحث الثاني : سياق قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام

الآيات الواردة في المبحث :

1- ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ البقرة:260

2- ﴿ يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ الشعراء:89 .

3- ﴿ وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ _ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ الصافات:84 .

4- ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ إبراهيم:37 .

5-﴿ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ الأنبياء:67 .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي سياق قصة إبراهيم –عليه السلام– وردت لفظة القلب في ثلاثة مواضع في حـين وردت لفظة الفؤاد في موضع واحد فقط , وكذلك لفظة العقل . أما المواضع التي وردت فيهـا لفظة القلب فهي :

قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَـى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَـلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (1).

وقوله : ﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ - إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (2).

وقوله : ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ - إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (3) .

فالموضع الأول : في مقام علم اليقين في هذه القصة , وإرادة الانتقـال إلى عـين اليقين وهذا ملائم للقلب واطمئنانه , فالقلب ملائم هنا من حيث الـسياق ؛ فالـسياق استدلال على قدرة الله جل وعلا – ليصل به إلى عين اليقين , وللتأكيد على تمكُّن إيمانـه – عليه الصلاة والسلام – واطمئنانه بالإيمان . لذا أورد القرآن لفظة القلـب والـسياق القبلي يدلنا على تمكُّن الإيمان من قلب إبراهيم – عليه السلام – حيـث حاجّـه النمـرود في مقدرته على الإحياء والإماته فأفحمه إبراهيم – عليه السلام – بأن يأتي بالشمس من المغـرب في وقت الشروق فالله يأتي بها من المشرق فليعكس اتجاه خروجها إن كان يستطيع حقاً أن يكون نداً لله – سبحانه – في خصائصه " فَبُهت الذي كفر " ووقوف إبراهيم أمام هـذا السلطان الجائر ومجادلته يدل على ثبات إيمانه ويقينه بقدرة الله عز وجل التي لا تكون إلا له وحده . ثم يذكر السياق بعد ذلك قصة الذي مرَّ على القرية وقال " أنَّى يحي هذه الله " فرد عليه الله بالبرهان القاطع حيث أماته مئة عام ثم بعثه , وأعاد خلق حماره أمام ناظريـه حتى أقرَّ بقدرة الله ـــ جل وعلا ـــ .

وحين ذكره القرآن قال " أو كالذي مرَّ على قرية .." ولكن حين ذكر مسألة

1- البقرة : 260

2- الشعراء : 89

3- الصافات : 84

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إبراهيم – عليه السلام – قال : " وإذ قال إبراهيم .." مصرحاً باسمه وذلك لأن إبراهيم – عليه السلام – حفظ الأدب مع الله في مسألته , و لم يكن ذلك من الذي مرَّ على القرية , وفي التصريح باسمه دلالة على ثبات إيمانه حيث أحسن المسألة لأنه ليس لديه شك ولكنه يريد الترقي في الإيمان واليقين .

فتلاحظ إذن أن كلمة القلب لاءمت السياق دون غيرها من الألفاظ هذا أمر , ومن الأمور المؤكدة على قرار لفظة القلب ودقتها في سياقها ونظمها وورود "رب" في النداء بما يدل على الإقرار والتذلل في المسألة و لا يكون ذلك إلا من قلب مطمئن بالإيمان .

كذلك في قوله : " أرني " والرؤيا هي إدراك المرئي , فهو إذن يعلم مقدرة الله على إحياء الموتى ولكنه يريد إدراكها بالمشاهدة حيث إن الرؤية هنا بصرية وليست علمية فهو يعلم مقدرة الله ولكن للمشاهدة نقل له إلى عين اليقين .

كما إن في سؤاله دلالة رغبة أكيدة في زيادة الإيمان " كيف تحي الموتى " فالسؤال عن الكيفية وليس عن القدرة أو غيرها بما يدل على ثبات إيمانه . قال " أو لم تؤمن " استفهام تقريري فأبدى الله خطاب تقريره لخليله – صلى الله عليه وسلم – على تحقيق الإيمان ليصح الترقي منه إلى رتبة الإيقان [1] وللتنبيه ولدفع توهم غير المراد وهو شك إبراهيم عليه السلام لأنه لو لم يذكر هذا الاستفهام لما أجاب بما أجاب من نفي الريب , ولكان توهم الاتهام قائما [2] . فإيمانه أكيد ويدلنا على ذلك السياق الذي سبق في محاجة إبراهيم – عليه السلام – وفي جوابه بـ " بلى " مؤكداً بها إيمانه حيث إن بلى تُوجب وتُثبت ما سُئل عنه بالنفي [3]. (ولكن) مستدركاً سبب سؤاله " ليطمئن قلبي " معللاً باللام التي تفيد سبب حدوث الفعل [4]. فالسؤال عن كيفية إحياء الموتى وإرادة تحصيل العلة, الاطمئنان " ليطمئن " وطمأن الشيء : سكنه : والطمأنينة السكون [5] .

1- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : 510/1 .   2 _ التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم :د.عبد العظيم المطعني , القاهرة,مكتبة وهبة,ط1, 1420هـ-1999م: 149/1 .

3- رصف المباني في شرح حروف المعاني :حمد المالقي,ت:أحمد الخراط,دمشق,مجمع اللغة العربية : 158 .

4- السابق :223 .

5- لسان العرب :4 / 2707

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي ورود الاطمئنان دون السكون أو الاستقرار إظهار للأثر النفسي النابع عـــن الهدوء بالإيمان ففي الاطمئنان معنى زائد عن مجرد السكون أو الاستقرار ، فالقرار سكون الأطراف وقلة الحركة في المجلس ويقع أيضاً على مفارقة الطيش عند الغضب ، وإبراهيم لم يكن يريد قرار الظاهر بل أراد قرار الباطن ـــ القلب ـــ كما أنه عليه السلام مـــتره عـــن الطيش . وأما السكون فهو مفارقة الاضطراب عند الغضب والخوف وأكثر ما جـــاء في الخوف و لم يكن إبراهيم عليه السلام ـــ عند سؤاله خائفاً ولا غاضباً وإنما أراد زيادة ثبات ويقين فكانت الاطمئنان أنسب من غيرها للنظم ولحال إبراهيم عليه السلام .

والمعنى ليزول عن قلبي الفكر في كيفية الحياة لأني إذا شاهدتها سكن قلبي عن الجولان في الكيفيات المتخيلة , وتيقنت عندي بالتصوير المشاهد وجاءت الآية مطابقة لـــسؤاله , لأنه شاهد صورة حياة الموتى خاصة . فالمراد أن يزول عنه الخواطر التي تعرض للمستدل و إلا فاليقين حاصل على كلتا الحالتين [1] فأمره الله ليحصل على الترقي في اليقين بقوله " "فخذ" بالفاء التي للتعقيب تحقيقاً لمقاله وتصديقاً فيما تحقـــق مـــن إيمـــانه وإبـــداء لاستحقاقـــه اليقين والطمـــأنينة بتقريـــر إيمـــانه [2]. " أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً " أرشد الله هنا نبيه أن يأخذ أربعة من الطير و لم يقل طيراً واحداً , وذلك ليكون الدليل آكد وأقدر علـــى تثبيـــت الإيمـــان والترقي به أمره بأن يصرهن إليه لكي يعرف أشكالها وحين يجمعها الله تتبين له القـــدرة حيث كان قد تأكد من أشكالها وهذا أثبت لليقين , ثم يفرقها على الجبال وفي كل ذلك تأكيد على قدرة الله تثبت اليقين في قلب سيدنا إبراهيم – عليه السلام– ثم تكون القـــدرة في إحياء هذه الطيور بدعوة فقط قال تعالى : " يَأْتِينَكَ سَعْياً " و لم يقل " ثم يأتينك ســـعياً " كما قال سابقاً ﴿**فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُـــمَّ ادْعُهُـــنَّ**﴾(ثم اجعل)،(ثم ادعهن)

1- التفسير الكبير : 34/3

2- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : 511/1

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لأن فعل إبراهيم – عليه السلام – يأخذ وقتاً ولكن قدرة الله في كاف ونون فقال : " يأتينك " بلا عطف وفي هذا دلالة على سرعة الاستجابة فبمجرد الدعوة تأتيه ، وهذا كفيل باطمئنان قلب إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ وزيادة يقينه . وبعد ذلك اليقين يعلم إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ " أن الله عزيز حكيم " وتوكيد الخبر في " أن الله عزيز حكيم " لملاءمة مادة العلم " اعلم " ؛ إذ العلم الذي هو معرفة الشيء على سبيل اليقين يحتاج إلى تأكيد وتثبيت لإقراره ، وهذا مطرد في القرآن كله بعد الأمر بالعلم " اعلم " لا بد أن يؤكد مفعوله سواء كان هناك سؤال أم لا كقوله تعالى : "فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ " [1] في خطابه ـــ ﷺ ـــ وقوله : ﴿ **وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ..** ﴾ [2] . وختام الآية بـ " اعلم " متناسق مع اليقين في " يطمئن قلبي " حيث إن العلم كما سبق معرفة الشيء على سبيل اليقين واليقين هو سبيل الاطمئنان وذلك لايحصل إلا في القلب . كما لاءم الموضعان " عزيز حكيم " ـــ في الفاصلة ـــ الجو العام للقصة والقدرة الظاهرة في الآية فالله عزيز قادر على كل شيء كما ظهر في الآيات من التحكم بشروق الشمس وغروبها وبإحياء الموتى وغير ذلك . وحكيم حيث أرشد سبحانه خلقه إلى ما يثّبت إيمانهم بالدليل والبرهان المشاهد الملموس .

والموضع الثاني في قوله تعالى : ﴿ **يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ - إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** ﴾ [3] . فالآية واردة في سلامة القلب وقراره على التوحيد وهذه ركيزة وأساس يُبني عليها ما سوى ذلك من الأعمال , ولذلك تشارَك في هذه الصفة الأنبياء والمؤمنون فإن لم تكن موجودة – أي ركيزة التوحيد وسلامة القلب من الشرك – فلا يعد المرء مؤمناً أصلاً , فكيف يصل إلى التفاضل بالأعمال الصالحة ؟! فقد جعلها إبراهيم – عليه السلام – في نصحه لقومه أساس النجاة حيث قال تعالى على لسانه ﴿**يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ - إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** ﴾ .

1- محمد : 19

2 - الحجر : 97

3 – الشعراء : 89

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد وردت " القلب " دون غيرها وذلك لأن الشرط في هذه الـــسلامة لتكـــون سبيلاً للنجاة أن تكون ثابتة متمكنة حتى يلاقي الإنسان ربه وهذا لا يكون إلا في القلب .

وقد لاءمت السياق الذي قدَّم قدوة في الثبات على السلامة سيدنا إبراهيم –عليه السلام– وقبله في السياق موسى – عليه السلام – حيث ثبت موسى أمام الطاغية فرعون وجادلـــه بالتوحيد دون تزعزع , وكذلك سيدنا إبراهيم - عليه السلام-, والذي ورد على لسانه شرط النجاة فكان خير قدوة لما أوصى به . حيث سأل قومه " ما تعبدون " وغاير النظم هنا ما ورد في الصافات " ماذا تعبدون " حيث استعمل هناك اسم الإشارة و لم يستعملها هنـــا ؛ وذلك لأن سياق الصافات في مرحلة متأخرة في الدعوة ليست كالشعراء فالنعمـــة فيهـــا أعلى وأقوى في الخطاب و (ماذا) أدلُ على عنف الجدال وحدتـــه , وقـــوة التـــهكم والسخرية , لذلك انتظر في الشعراء ردهم , وهناك أجاب عنهم " أئفكاً آلهـــة دون الله تريدون " ووجَّه السؤال هنا لقومه لأنه سياق ينذر فيه قومهم ويحـــذرهم – بـــــطريقة ألطف – حيث يعلمون من إجابتهم أن من يدعون لا ينفعهم ولا يضرهم وأنه لن يـــدفع عنهم العذاب وإنْ كان آباؤهم فعلوا ذلك . أما في الصافات فقد وجَّه السؤال للأصـــنام فقد أنذر قومه و لم يسمعوا فتوجه إلى الأصنام , ونلاحظ أنه في الشعراء صرح بعداوتـــه باللفظ - أي بالقول – لأنه لا يزال في مرحلة مبكرة من إنذار قومه , أما في الـــصافات فصرح بعداوته بالفعل وهذا أقوى وأدل على كون السياق في مرحلة متأخرة من الـــدعوة وهذه القوة في الدلالة أدل على سلامته ودفع توهم السُقم عنه – صلى الله عليه وسلم -

وتساوق النظم مع السياق حيث قال بعد أن توجـــه بالـــدعاء لله بـــأن يلحقـــه بالصالحين ويجعل له: " لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ " و لا تكون لسان الصدق إلا لمن سلم قلبه وثبت على هذه السلامة وسأل الجنة ولا يرثها إلا من سلم من الشرك وأخلص لله , وأن يغفر لأبيه لأنه يخاف عليه من العذاب ويعلم أنه لا ينجو إلا من يُسلم لله جل وعلا , وألا يخزيه يوم البعث , ووصف هذا اليوم أنه لا ينفع فيه مال ولا بنون , فما الذي ينفع ؟ "إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ " .

وذلك لأن القلب إذا أسلم سلمت جميع الأعضاء لله جل وعلا فيسلِّمها الله من العذاب , وقال " من" للعاقل المدرِك حقيقة هول ذلك اليوم "بقلب سليم" المستعد له بسلامة القلب وقال(من) و لم يقل (الذي) وذلك لأنه لا يعرف من يأتي ذلك اليوم بقلب سليم فكـــل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

زمان فيه مخلصون. وقال " أتى " و لم يقل " جاء " كما في الصافات , وذلــك لملاءمــة السياق فالمجيء غالباً ما يكون في سياق فيه مشقة وتعب , وهذا ملائم لرحلته في تلــك الحياة حتى وصل إلى الله . كذلك هو ملائم لسياق الآيات وما فيها من كد وتعــب في الحياة , أما الشعراء فلا مشقة ولا تعب مخصوص في السياق .كما هو الحال في الصافات.

وقال تعالى :" الله " دون " ربه " كما في الصافات , لأن الكلام عن الآخــرة . وجاء عقبها الحديث عن النار وأهلها وإشباع الكلام فيها وأهوال ذلك اليوم تدل علــى عظمة الإله وقوته فكان الملائم لها لفظ الجلالة الذي يربي المهابة , أما الصافات فــوردت (الرب) ليوميء من أول الأمر إلى الإنعام وإن كان الظاهر ابتلاء وتمحيص .

" بقلب سليم " خص بالذكر القلب لدلالته على الثبات على صفة السلامة فضلاً عن أن المراد الاستدلال على السلامة بطريقة الأولى فإذا سلم قلبــه ســلم كــل شــيء فيه.ونكره تعظيماً وتشريفاً لهذا القلب السليم الصادق , ويحتمل النوعية ؛ ذلك لمغايرة من كان الحديث عنهم وهناك فرق بين أن يأتي النظم بــ " سلم قلبه " وأن يــأتي "بقلــب سليم" لأنه أراد الدوام على الوصف فلا ينفعك عنه أبداً . وكل ذلك ملائم للقلب دون سواه .

وموضع سورة الصافات : ﴿ **وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ - إِذْ جَــاءَ رَبَّــهُ بِقَلْــبٍ سَلِيمٍ**﴾[1]النظم واحد " بقلب سليم " وإن كان السياق مختلف عن سياق الشعراء إلا أنه مؤكد أيضاً لاستعمال القلب فالسياق العام لسورة الصافات ينحو إلى تقسيم النــاس إلى قسمين :

الأول : عبــاد الله المخلــصين والأنبيــاء – علــيهم الــسلام - أولهــم.

والثاني : الذين ظلموا أو عتوا عن قبول الحق .وكلاهما قد ثبت على وصفه ورضــي به ؛ لذا فالتعــبير بالقلــب في هذا أنسب.

1- الصافات:84

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فقال تعالى في وصف سيدنا إبراهيم – عليه السلام – وخلوص قلبه لله جل وعلا.

" إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ " . وقد أبد السياق هذه السلامة التي تمكنّت من قلب إبـــراهيم فوُصِف بها , حيث تصدى لأبيه وقومه وسفَّه أحلامهم لسؤاله لهم عن مـــاذا يعبـــدون , وهو

- عليه السلام - يعلم ولذلك تولى الرد عنهم ونبههم وحـــذرهم من ذلك " فَمَا ظَنُّكُمْ بِـــرَبِّ الْعَالَمِينَ " وتخلَّف عن يوم عيدهم فهو لا يرضى ما فيه وكان له غاية أخرى تؤكد سلامة قلبه , حيث راغ بخفية وخفة إلى آلهتهم , ولشدة غضبه عليها أخذ يحادثها للتنفيس عـــن غضبه " فقال ألا تأكلون " , " مالكم لا تنطقون " وهو يعلم أنها لا تأكـــل و لا تنطـــق ولكن ربما ليشفى من سقمه الذي ذكره سابقاً وهو سقم نفسه من كفر قومه وعبـــادتهم لمن لا يأكل ولا ينطق فحطّمها , وحين أراد قومه به سوءاً لم يتراجع بل ثبت وأكد لهـــم أنّ ما يعبدون من صنع أيديهم , وأن الله هو الخالق المستحق للعبودية , ثم توجه إلى الله " وقال إني ذاهب إلى رب سيهدين", وهذا يؤكد ثبات سلامة قلبه وقوة يقينه بالله . كما إنه ثبت حين صدَّق الرؤيا وهذا الثبات ملائم للقلب السليم المخلِص لله -جل وعلا-

وقد خصه الله بوصفه " بقلب سليم " هنا دون غيره من القصص الوارد عن الأنبيـــاء لأنه ذكر في الآيات الواردة في شأنه من المحاجة والمجادلة لأهل الباطل والثبات في وجوههم , والبداية بالإنكار على أبيه قبل قومه ما يدل على سلامة قلبه وثباته . ولأن هذه السورة اختصت بقصة الذبيح وتسليم سيدنا إبراهيم – عليه السلام – لأمر الله وسلامة قلبه مـــن الشك , و إلا فإن الأجزاء الباقية تكاد تكون متفقة مع الأنبياء -عليهم السلام -.

وقد بدأ تعالى بهذا الوصف تأكيداً على سلامة قلبه من كل آفة – صلى الله عليه وسلم - حيث تلى ذلك قوله : " فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ- فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ " فكان وصف قلبه بالـــسلامة رافعاً لما يوهم ذلك من اختلال السلامة , فكان هذا التمهيد كالاحتراز عن تـــوهم غـــير المراد فنظرته في النجوم أي في علومها ومعانيها لا أنه نظر بعينه إليها , وكان النظر لأجل أن يتعرف أحوال هذه الكواكب هل هي قديمة أو مُحدثة (1) .

1- االتفسير الكبير : 342/9

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وإن كان نظر لها بعينه فكان لخداعهم والتورية عليهم لا أنه يؤمن بأنها تضر وتنفع أو أنها تنبئ بالغيب فسلامة قلبه – ﷺ– أكيدة فقد وصفه الله في أكثر من موضع " وما كان من المشركين " ومعنى سلامة قلبه أي من جميع آفات القلوب وقد أخلص لله قلبه وعرف ذلك منه فضرب المجيء مثلاً لذلك [1] .

أما السقم الذي ذكره فهو سقم القلب من شرك قومه وقد أوهمهم أنه مريض الجسد وأراد أنه مريض القلب بسبب آلهتهم مقسم الفكر في أمرهم لأنه يريد أمراً عظيماً وهو كسرها , ومادة سقم بتقاليبها الخمسة , سقم , سمق , قسم , قمس , مقس تدور على القسم . فهو مقسم الفكر ليس عليلا ولكنهم فهموا ظاهر قوله [2] . فإيمانه وإخلاصه لله سليم , فقلبه خالص لله , وفكره وتصرفه سليم , وما وقوفه أمام قومه وتكسير أصنامهم إلا من جملة آثار تلك السلامة لأنه بذلك يدعو إلى التوحيد وقد ورد نظم الآية مؤكد لهذه السلامة , وهذا الثبات فقال تعالى : " إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ " فهو يقصده قصداً بمجيئه " بقلب " ولذا خص بالذكر . وكل ذلك ملائم للسياق وللنظم كما تقدم وملائم للقلب فما القصد إلى الله في الدنيا " إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ " إلا إخلاصاً منه , ولذا عاد لله مخلصاً وكل ذلك دلالة على ثبات قلبه ويقينه بالحق والوحدانية وسلامته من كل شرك -عليه صلوات الله وسلامه -

وقد جاء التعبير بالفؤاد في قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام في سياق دعائه لذريته في قوله تعالى : ﴿ **رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ** ﴾ [3] . فقال تعالى : " أفئدة " و لم يقل " قلوباً " وذلك لأن السياق وحالة سيدنا إبراهيم ترشح لفظة الفؤاد فسيدنا إبراهيم في خوف وتحرق على بنيه سواء من الضياع في الصحراء من دون أنيس , أو الخوف من أن يتخطفهم أحد " اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً " أو من إضلال الأصنام لهم " وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ - رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ" كما إن المكان الذي وضعهم فيه لا ماء ولا كلأ فيه , كما أن حال

1- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل : 216,217/5

2- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : 323/6 بتصرف يسير

3- إبراهيم : 37

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الناس في مسيرهم إليهم في هذا المكان حال يستدعي ورود الفؤاد ؛ لأنه يدل على شوق ومحبة وخوف ووجل.

ودلالات المفردات في النظم تؤكد دقة الفؤاد وأنها في موضعها الأخص بها فقد دلت على لواعج وكوامن نفس سيدنا إبراهيم – عليه السلام – فضلاً عن دواخل نفوس الناس في مسيرها إليهم حيث بدأ بدعاء الله متحنناً إليه " ربنا " فهو ربه وهو أرحم به وببنيه مالكنا ومالك هذا البلد المتصرف فيها وفينا " إني أسكنت " بالتوكيد والله يعلم ذلك فهو من أمره – سبحانه وتعالى – ولكن التوكيد هنا فيه دلالة على صعوبة ذلك على نفس إبراهيم عليه السلام ولكنه أطاع ربه " أسكنت " بالمضي فقد نفَّذ الأمر بنفسه , وأسكنهم هو بذاته و لم يوكِّل أحداً بذلك وهذا أدعى أن يؤثر في نفسه حيث رأى كيف أودعهم وذهب , وقال " أسكنت " على وزن " أفعلت " و لم يقل " سكنتهم " لأن هذا الإسكان جبر لهم حيث لم يعلموا بأن الله أمره به , وهذا أدعى أن يتحرّق الفؤاد عليهم ويحزن . " من ذريتي " وليس هناك أعز على ابن آدم من ذريته , " بوادٍ غير ذي زرع " بتنكير هذا الوادي فكأنه غير معروف ؛ لأنه لا ساكن فيه ولكن له وصف وهذا الوصف أيضاً مما يُحزِن حيث إنه " غير ذي زرع " و لم يقل ليس فيه زرع ؛ وذلك ليدل أنه لا يصلح للنبت لأنه حجارة [1] . " عند بيتك المحرم " والله - جل وعلا - يعلم وصف هذا الوادي , ويعلم مكانه ولكن إبراهيم – عليه السلام – لتخوفه وتحرقه على بنيه – وهذا يؤيد أفئدة – ذكر ذلك للمبالغة في طلب إجابة دعوته واستعطاف الله والتذلل له بالافتقار إليه بذكر كل هذه الصفات . ثم ذكر الغاية " ليقيموا الصلاة " وهذه علة يتقرب بها الله ليجيب دعاءه فقد أسكن ذريته هذا الوادي ليقيموا الصلاة ويقيموا العبادة لله على وجهها الصحيح دون شرك بالله , وهذا حسن طلب وحسن تذلل من إبراهيم – عليه السلام – لربه . " فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ " اجعل بمعنى أوجد لهم أفئدة تهوي إليهم , وقد ذكرت سابقاً أن في معنى الجَعْل الاتصال والاستمرار وهذا يدل على أن قصد

1- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل : 389/1.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إبراهيم – عليه السلام – أن يكون هذا الجعل مستمراً في القدوم على ذريته وبمحبة , " أفئدة من الناس " و لم يقل " قلوباً " وذلك لأنه يريد أفئدة رقيقة محبة لهم " من الناس "

قال صاحب الكشاف : من للتبعيض ؛ ويدل عليه ما رُوي عن مجاهد : لو قال أفئدة الناس لزحمتكم عليه فارس والروم [1] . وقال صاحب التحرير و التنوير : (إنها بيانية حيث قال : والمراد فاجعل أناساً يهوون إليهم فأورد لفظة الأفئدة لإرادة أن يكون سير الناس إليهم عن شوق ومحبة حتى كأن السائر هو الفؤاد لا الجسد فلما ذكر " أفئدة " لهذه النكتة حسن بيانه بأنهم " من الناس " فمن بيانية لا تبعيضية , والمعنى : فاجعل أناساً يقصدونهم بحبات قلوبهم [2] . ويظهرلي أن الراجح أن تكون للتبعيض , لأن السياق المتقدم يرشح ذلك حيث دل على إضلال الأصنام لكثير من الناس , فهل هؤلاء يأتون إليهم ؟ لا . إذن فالمقصود خص بعضهم بالمجيء وكما خصص من يأتي " بالبعض " خصص كيفية محبتهم بقوله " تهوي " . وذلك لأنه ذكر خصوصية المجيء بقوله " تهوي " فهو – صلى الله عليه وسلم – يريد مجيئاً مخصوصاً ولذلك قال " تهوي " أي تسرع إليهم وتطير نحوهم شوقاً [3] . وفي هذه الكلمة دلالة على المحبة من " هوى " أي أحب فهي تأتي لمحبة وشوق . ويحوي معنى السرعة أيضاً , و لا يسرع إليك إلا من يشتاق لك . واستعمال الفعل المضارع للدلالة على تجدد هذا المجيء وعدّاه " بإلى " فزاد المعنى وضوحاً وأكده بحرف الغاية الدال على البعد لأن الشيء كلما بعد مدى مرماه اشتد وقعه . وكذلك ليكون متنهى الغاية عندهم والقصد إليهم دون غيرهم والداعي محبتهم لا أغراض أخرى كتجارة وغيرها .

فخوف إبراهيم عليه السلام , وكون من يدعو لهم بنية , وتلطفه بتكرار النداء " ربنا " الدال على التضرع واللجوء إلى الله , والتحقيق بوصف الوادي وذكر غاية إسكان ذريته الوادي ,وصفة الأفئدة التي يريدها أن تهوي إلى ذريته كل ذلك مؤثر للفظة الفؤاد ومساهم في دقتها ودلالتها في النظم والسياق .

1- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل : 385/1

2- التحرير والتنوير : 264/12

3- ينظر نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : 191/4

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي سياق مجادلة إبراهيم عليه السلام لقومه في عبادتهم غير الله وتسفيه مذهبهم في ذلك جاء التعبير بالعقل , فقال تعالى : "أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ " [1] . فذكر " أفلا تعقلون " باستعمال لفظة العقل وذلك لملاءمتها للسياق الذي ينكر فيه إبراهيم -عليه السلام -عبادة قومه لغير الله وجاء لهم بمقتضى العقل في ذلك فبين لهم . أولاً: أن ما يعبدونه مجرد تماثيل من صنعهم فليست حية أصلاً ولا قدرة لها ولا سلطان بل هي مصنوعة من قبلهم فهل العاقل المتدبر المتفكر يرضى بعبادة مثل هذه التماثيل ؟ ثم مضى بعد ذلك وحطَّمها ليدلل على ضعفها وعجزها , وحين سُئل عنها أحال الإجابة إليها " قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ " وفي كلامه سؤال لعقولهم إن كان لا يزال فيها تفكير وترو فإن كانت كذلك فستعلم أن أصنامهم لا تنطق"فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ " فحين ثابت إليهم عقولهم علموا أنهم ضالون في عبادتها , وأقرَّوا على أنفسهم بالظلم والشرك.ولكنهم لظلمهم وجحودهم رجعوا لكفرهم . فعاد لمخاطبة عقولهم " قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلا يَضُرُّكُمْ " فتضمن الكلام استفهاماً ينكر عليهم فيه عبادتهم لغير الله وهذا الاستفهام فيه موطن العظة ومجال التفكير فكيف يعبد ما لا ينفع و لا يضر ؟ وحين يضيق بقصر عقولهم وجحودها يتأفف من هذه العقول التي أمامها ما يقتضي عبادة الله وبطلان ما هم عليه من الشرك ومع ذلك لا تعقل و لا تفكر " أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ " فقال " أفٍ " وأصل الأُفّ كل مستحقر من وسخ وقلامة ظفر[2], وما يجري مجراهما ويقال ذلك لكل مُستَخَف استقذاراً له . فإبراهيم -عليه السلام- استقذر ما عبدوه من تماثيل وفي هذا دلالة على أن العقل السليم يستقذر ويستأنف من أن يعبد تمثالاً لا يملك نفعاً ولا ضراً وبدأ بالتأفف منهم " لكم " لأنهم هم من فقدوا عقولهم وعبدوا التماثيل ثم مما عبدوه " ولما تعبدون " ولشدة الاستقذار أعاد حرف الجر(ولما) , وذلك ليدلل على أن الاستقذار موجه للعابد والمعبود على حد سواء,

---

1- الأنبياء : 67 2- المفردات في غريب القرآن : 28

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومقتضى العقل ألا يعبد ما يستقذر و لا يمكن أن يساوى بالله جــلَّ في عــلاه و" أف " صوت : إذا صوت به علم أن صاحبه متضجر مما رأى من ثباتهم على عبادتها بعد انقطاع عذرهم , وبعد وضوح الحق وزهوق الباطل (1) , ثم نبههم على ما به يــدرك حقــائق الأشياء وهو العقل فقال " أفلا تعقلون " وهذا الاستفهام يــستلزم الــسخرية والتــهكم والإنكار من فقدهم عقولهم , وعدم معرفة ما هو ظاهر أمامهم.

والعقل مرتبط بالنظم قبله الذي يدل على ظهور الأمور لهم ــ ومــع ذلــك لا يعقلون ــ من وجهين :

أولهما : أن الفاصلة " أفلا تعقلون " بإنكارها عليهم عدم عقلهم وسخريتها منهم مرتبطة بظهور عدم صلاحية ما يعبدونه لأن يكون إلهاً يُعبد من وجوه متعددة وهي وجوه ظاهرة ومكشوفة , وعدم إدراكها فقدان للعقل منها تكسير إبراهيم عليه السلام لها دون أن تدفع عن نفسها الضر , وكونها لا تنطق فالضعف فيها ظاهرة فما هي إلا تماثيل , فكيف تعبد ؟!

وثانيها : ارتباط عدم العقل بانتكاسهم عن مقتضى فطرة الإنسان وهذا يظهر من قولــه تعالى : " ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنْطِقُونَ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِــنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلا يَضُرُّكُمْ " فالفطرة السليمة تقتضي ألا يُعبد إلا الكامل وهؤلاء فيهم نقص فهم " لا ينطقون " وذلك متأبد فيهم . و لم يجهل هــؤلاء ذلــك بــل هــم متحققون من ذلك ؛ لذا عُبِّر بــ (قد) وأتى بعدها بمادة العلم " علمت " وهذا يدل على تحققهم من عدم النطق فكيف يعبدونها وهي حتى لا تنطق ؟ثم ترقى في بيــان انتكــاس فطرهم وأخبرهم أنهم يعبدون " مَا لا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلا يَضُرُّكُمْ " والإنسان لا يعبد إلا من يملك ضره ونفعه فإن عدم ذلك فكيف يكون إلهاً ؟ ولذا ذُكِر في المقابل صراحة لفظــة الجلالة " الله " بإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لمزيد استقباح ما فعلوا (2) .

1- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل : 154/4

2-تفسير أبي السعود:346/4

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي سياق محاجة أهل الكتاب ورد دعواهم عبر بالعقل أيضاً لظهور كذبهم فقال : ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْأِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ** ﴾ (1) . حيث زعم كل فريق من اليهود والنصارى أن إبراهيم كان منهم . وجادلوا رسول الله والمؤمنين فيه , فقيل لهم إن اليهودية والنصرانية كانت بعده - صلى الله عليه وسلم - , وبين إبراهيم وموسى ألف سنة , وبينه وبين عيسى ألفان , فكيف يكون إبراهيم على دين لم يحدث إلا من بعد عهده بأزمنة متطاولة ؟ " أفلا تعقلون " حتى تجادلوا مثل هذا الجدال المحال (2) . ولذلك وردت الفاصلة فيها " أفلا تعقلون " وكانت ملائمة لما قبلها من النظم والسياق حيث ورد في السياق القبلي دعوة اليهود إلى الاتفاق على ما ورد في دينهم ودين محمد صلى الله عليه وسلم , فاتُفق على عبادة الله وحده وعدم الإشراك به وعدم أخذ بعضهم البعض أرباباً من دون الله . ثم وردفي نظم الآية الإنكار عليهم في محاجتهم في شأن إبراهيم عليه السلام " لم تحاجون في إبراهيم " وذلك لأن المحاجة في إبراهيم هل هو على دين اليهود أو على دين النصارى هراء لا طائل تحته , وليس لهم الحق أصلاً في هذه المحاجة ؛ فلم تنص كتبهم على اتفاق بين دينهم ودين إبراهيم عليه السلام , وأيضاً لم تنزل التوراة والإنجيل إلا من بعده فيمكن أن يتبعوه لأنهم اللاحقون , ولكن كيف يتبعهم وهو السابق ؟ ولظهور فساد هذه الدعوى قال " أفلا تعقلون " أي هذا كلام من لا يعقل إذ العقل يمنع من ذلك , ولا يتناسب أن يكون إبراهيم عليه السلام موافقا لهم في العقائد ولا في الأحكام , أما في العقائد فعبادتهم عيسى وإدعاؤهم أنه الله أو ابن الله أو ثالث ثلاثة , وإدعاء اليهود أن عزيرا ابن الله, مخالف لعقيدة إبراهيم عليه السلام , وأما الأحكام فإن التوراة والإنجيل فيها أحكام مخالفة للأحكام التي كانت عليها شريعة إبراهيم – عليه السلام – ومن ذلك قوله : " فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ " وفي قوله " أفلا تعقلون " توبيخ على استحالة مقالتهم وتنبيه على ما يظهر به غلطهم ومكابرتهم (3) .

1- آل عمران: 65
2- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل : 568/1
3- البحر المحيط : 9/1

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد بدأ النظم بمناداة اليهود والنصارى بقوله : " يا أهل الكتاب " أي أصحابه , وعبَّر بالأهل للدلالة على القرب من هذا الكتاب وهذا القرب يدعوهم إلى العلم بما فيه والعلم بما فيه والعلم بمافيه يقتضي أن يعلموا يقيناً بطلان زعمهم كما إن في مناداهم بـ " أهل الكتاب " كالمعلل لتبكيتهم ؛ لأن الزلة من العالم أشنع , ولما كان الدليل العقلي واضحاً في ذلك ختم الآية بقوله منكراً عليهم " أفلا تعقلون " أي هب أنكم نسيتم وادعيتم أن ذلك في كتابكم زوراً وبهتاناً , وظننتم أن ذلك يخفى على من لا إلمام له بكتابكم , فكيف غفلتم عن البرهان العقلي [1] . ومن الملاحظ أن " أفلا تعقلون " فاصلة ومن ثم فهي تذييل لما قرّره في صدر الآية , ولذا فهناك رابط وثيق بين النظم في التذييل وبينه في الصدر من وجوه :

أولاً : نداؤهم بـ " أهل الكتاب " فيه بيان لكذبهم واستدلال على ذلك ؛ إذ إن كتابهم يشهد بكذب دعواهم , وهذا يتلاقى مع قوله : " أفلا تعقلون " .

ثانياً : خص " تحاجون " والمحاجة تكون بدليل واضح وقوي وهو ما يُفقد هنا ومن ثم يكون كلامهم خالياً منه , وهو ما يتنافى مع العقل , ولذا قال : " أفلا تعقلون ".

ثالثاً : الجملة الحالية " وما أنزلت التوراة .." تناكد دعواهم وتنفيها من أساسها ومن ثم فعدم تدبرهم لهذا الأمر الظاهر الواضح فقدان للعقل .

وفي قوله " من بعده " دون " بعده " دلالة على أن الفترة الزمنية الفاصلة بين زمن اليهود والنصارى وزمن إبراهيم – عليه السلام – فترة لا يغفل عنها من له عقل يفكر به فكيف إذا كان هذا الغافل عالماً بذلك على اليقين فهو متغافل إذن لا غافل , ولذلك خاطبهم الله بالتوبيخ والإنكار عليهم واستفهم عن عدم إعمال عقولهم في حين أنهم قادرون على ذلك ولذلك ورد التوبيخ لهم بلهجة شديدة تناسب حالهم حيث إن موطن العظة والعبرة واضح لهم عياناً ثم استأنف تبكيتاً آخر فقال منبهاً لهم مكرراً التنبيه إشارة إلى طول رقادهم , أو شدة عتادهم " ها أنتم هؤلاء " أي الأشخاص الحمقى.

1- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : 2/110, 111

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

﴿ **حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ** ﴾أصلاً لكونه لا ذكر له في كتابكم مع مخالفته لصريح العقل [1] .

وقوله " ها أنتم هؤلاء " زيادة في التنبيه كأنه يوقظهم من غفلة ترتبت على عدم تعقلهم ؛ ولذا جمع في النظم بين اسم الإشارة و هاء التنبيه , ثم كذبهم بأبلغ نظم في قوله " ما كان إبراهيم يهودياً " وهو نفي الكون الذي يتلاقى مع نفي العقل ففيه نفي للانبغاء والـذي يدل على أن ما بعد الكون يناقض ما قبل الكون وهذا أقوى في نفي كون إبراهيم يهودياً و لا نصرانياً و لا ينبغي له ذلك أصلا. فالآية– هنا – وردت بوضع النفي موضع النهي لما في هذا العدول من فائدة في المعنى لا توجد في غيره وذلك لأن النهي الـوارد في صـورة النفي دل على أبدية الحكم كما إن النهي عنه أزلي الحكم , فلم يتغير في الأزمنة الماضـية على طولها لأنه من الفطرة [2] . وهذا يلائم أن تكون الفاصلة بـ " أفلا تعقلون " ففطرة إبراهيم – عليه السلام – على التوحيد وهذا معلوم فكيف يدَّعون أنـه نـصراني أو يهودي ؟ فهذا أدل إذن على فقدانهم العقل .

1- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : 111/2

2- وضع النفي موضع النهي صورة وسياقاته في الذكر الحكيم : د. علي عبد الحميد عيسى :بحث منشور في مجلة اللغـة العربيـة- الأزهر,العدد19,1420هـ-200م : 186

***

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المبحث الثالث : سياق قصة يوسف , وهود , وعيسى , وأيوب عليهم السلام .

الآيات الواردة في المبحث :

1- ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ يوسف:2 .

2- ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ يوسف:109.

3- ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يوسف:111.

4- ﴿يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ هود:51.

5- ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ الأحقاف:26 .

6- ﴿ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ المائدة:113 .

7- ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْأِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ الحديد:27 .

8- ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ صّ:43 .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال تعالى في سورة يوسف تمهيداً للقصص الواردة بعدها : " إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنــاً عَرَبِيّــاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ " [1] . ثم قال في ختام القصة في سياق بيان ظهور آثار الســـــابقين – لكثرتها – وعدم الاتعاظ بها : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ** ﴾[1] . فوردت لفظة " العقــل " دون غيرهــا في كــلا الموضعين في معرض إنزال القرآن في الموضع الأول لأن سياق السورة ومناسبتها للــسورة السابقة ونظم الآيات يقتضي استعمال هذه اللفظة حيث سبقها في خاتمة سورة هــود " وَكُلّاً نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ " حيث كان السياق في تثبيــت فؤاد رسول الله – ﷺ – بعد أن اتهم بافتراء القرآن وكُذِّب , فسار السياق مثِّبتاً لفؤاده بــالرد على الكافرين وسوق قصص الأنبياء ذاكراً أظهر ما فيها من عوامل التثبيت لفؤاده صــلى الله عليه وسلم , ثم بدأ السورة هنا بوصف الكتاب بالمبين و الإشارة لآياته بإشارة فيهــا تعظيم " تلك " وهذا أدعى للتثبيت , كما في تكريمه بإنزال القرآن بلغته ولغة قومه ثبات له , وكونه بلغة العرب أدعى لأن يُدرك بالعقل وإن أُدرك كان أدعى للثبات –أيــضاً- فلذا الفاتحة هنا ملائمة لخاتمة سابقتها هذا من وجه , ومن وجه آخر فإن في خاتمة ســورة هود إشارة إلى أن الله حكم بالنصرة لعابديه فلا بد أن يكون ما أراد لأنه إليه يرجع الأمر كله , تلاها بهذه السورة لبيان هذه الأغراض حيث نصر يوسف – عليه السلام – بعد أن عاداه إخوته وابتلى , وكذلك نصر محمد - ﷺ - يوم الفتح على مــن عــاداه ومكَّنــه قيــادهم [3] . ومن كان له عقل يدرك أن العاقبة للمتقين .

وقد قرن هنا وفي سورة الزخرف إنزال القرآن الكريم برجاء العقل دون رجاء التقــوى كما في سورة الزمر ودون رجاء الرحمة كما في سورة الأنعام وذلك ـــ كما ســبق أن ذكرت ـــ أن السورتين ابتدأت بالحروف المقطعة التــي تأتي في سياق التحدي والإعجاز , وهذا يومئ إلى نوع الكلام الذي يأتي بعده فدلائله ظاهرة تلائم العقل , كما ورد فيــه وصف الكتاب بالمبين دلالة على ظهور آياته ووضوحها فيسهل إدراك العقل لها .

1- يوسف : 2　　　2- يوسف : 109

3-ينظر نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : 7،8

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كما إن نظم الكلام على التعظيم "إنا "وهذه العظمة تدل على الظهور فمقتضى العقل في السورتين واحد وإن اختلفت مشاربه واتجاهاته ففي يوسف كان مقتضى العقل بظهور الدلائل عبر القصص أما في الزخرف فعَبْر المجادلة والاستدلال . أما في الزمر " قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ " [1] لأن عمود السورة الإخلاص , والخطاب فيها للمتقين المخلصين وحديثها عن مقتضى التقوى والإخلاص والمخاطب أولو الألباب لذا لاءم فيها رجاء التقوى فهي الموصلة للإخلاص , وهناك أيضاً تلاؤم لفظي بين " لعلهم يتقون " في الزمر و بين شيوع مفردات التقوى : يتقي , متقون , اتقون . شيوعاً ظاهراً وهو ما يسميه العلماء ائتلاف اللفظ , وكذلك الأمر في الأنعام فقد تقدمها " وَهُدىً وَرَحْمَةً " [2] , في وصف التوراة , وألحقه بـ : "فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ " [3] كما أن السياق العام لسورة الأنعام تأخير العقوبات وعدم التعجيل بها وهذا من الرحمة , ومن وجه آخر فيها إبراز الفضل عليهم رغم الشرك وهذا من الرحمة .

ونلاحظ أن السياق القبلي – بالإضافة إلى ما سبق – ذكر لفظة " الآيات " بالجمع أي علامات والعلامة ظاهرة وفي جمعها دلالة على كثرتها فزاد على الوضوح الكثرة , وهذا أدعى لأن يدركها العقل . وزاد في تأكيد وضوحها بأنها آيات " الكتاب " والعرب كانت أمة أمية , ولكن قيض الله لهذه الآيات من يكتبها وهذا أدعى لبيانها ووضوحها ؛ لذا عرَّف " الكتاب " فهو معروف مسطور , ومن ثَمَّ لا يقع فيه اختلاف كما أنه " مبين " بيِّن في نفسه مبيِّن لما فيه من الأحكام . وزاد في ترقي هذا الوضوح الملائم للعقل ماورد في نظم الآية ذاتها أنه " قُرْآناً عَرَبِيّاً " بلغتكم وهذا أدعى لأن تدركوه , كما إنه أورد إنزال القرآن بنون العظمة (نا) أنزلناه , وقصد أن يكون هذا القرآن " عربياً " فالله قادر على أن يكون كلامه واضحاً يدركه العقل وأن يأتي بما يُفهم بأوائل النظر أدنى معناه فهماً يوثق بأنه مراد [4] .

1- الزمر : 28
2- الأنعام : 154
3-الأنعام : 157
4 - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : 4/4

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

" لعلكم تعقلون " وقعت استئنافية وفيها معنى الرجاء فالمرجو بعد كل هذا الوضـــوح أن يعقل من يقرأه وعبَّر عن العلم بالعقل للإشارة إلى أن دلالة القرآن على هذا العلـــم قـــد بلغت في الوضوح حداً أن يُنزل من لم يحصل له العلم منزلة من لا عقل له وأنهم مـــاداموا معرضين عنه فهم في عداد غير العقلاء [1] .

وفي السياق البعدي أيضاً ما يقر استعمال لفظة العقل حيث كان ما قـــص علـــى الرسول – صلى الله عليه وسلم – في هذه السورة " أحسن القـــصص " ويحمـــل علـــى المصدر فالمعنى نقص عليك أحسن الاقتصاص وعلى هذا التقدير فالحسن يعود إلى حـــسن البيان لا إلى القصة والمراد من هذا الحسن كون الألفاظ فصيحة بالغة في الفصاحة تجعـــل من السهل على العقل إدراكها , وإن حملناه على المفعول كان المعنى كونه أحسن القصص لما فيه من العبر والنكت والعجائب التي ليست في غيرها [2] . وأرى أن كلا الوجهين مراد فهي حسنة في نظمها ودقيقة في لفظها , فالحسن في لفظها كما إنـــه يعـــود إلى القـــصة ومعناها وما فيها من العبر باعتبارات مختلفة منها التركيز في نظم القرآن في هـــذه القـــصة على السمو والابتعاد عن جانب التردي والدنو.

وهذا الحسن مرتبط بالعقل فكلما زاد الحسن زاد الوضوح والظهور وهذا أدعـــى لأن يدرك بالعقل . وقوله " هذا القرآن " الإشارة بهذا وتعريف القرآن دليل علـــى أنـــه قريب متناول وهذا أدعى لإدراكه , " آيات للسائلين " اطراد جمع الآيـــات في الـــسورة دلالة على وضوحها . وفي منّة الله تعالى على يوسف " بالعلم والحكمة " ملاءمة للعقـــل ويلاحظ أنه في سورة يوسف يقدم العلم على الحكمة في حين العكس في سورة الأنعام ؛ وذلك لأن يوسف فُضِّل بالعلم كمـــا إنه رزقه العلم مبـــكراً . والحكمـــة لا تـــأتي إلا متأخراً . أما الأنعام فالنظم فيها وارد في التشريع , والتشريع تكون الحكمـــة أولى لإدراك أسراره من العلم . ونلاحظ فيما ورد في القصة من غياب العقل: امـــرأة العزيـــز حيـــث راودت من ربته ففي ذلك ملاءمة لرجاء العقل. كما في حيلة يوسف - عليه السلام - للاحتفاظ بأخيه ملائمة للعقل أيضاً .

1- التحرير والتنوير : 9/12

2- الكشاف عن حقائق غوامض التتريل وعيون الأقاويل : 250/3

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد وردت لفظة العقل في الختام التعقيبي لهذه القصة حيث ظهرت العظة والعبرة وعدم الاتعاظ بها غياب للعقل , لذا ورد نظم الآية مؤيداً للفظة , ففي الآية بيان لسنة الله - عز وجل -في إرسال الرسل وأنهم كلهم رجال , من جنس من يرسل إليهم و لم يرسل أبداً ملائكة فمقتضى العقل الإيمان بهم وعدم معارضة ما مضت عليه سنة الله في إرسال الرسل . كما إن في الأرض آثار إهلاك من كذبهم خاصة أنهم ساروا في أرضهم فالعظة ماثلة أمامهم وكل ذي عقل يتفكر ويتروّى فيما يرى لذا ختم بـ " أفلا تعقلون " لأن التسليم بأمر نبوة محمد -ﷺ- لا يحتاج إلى أكثر من العقل فأنكر عليهم ووبخهم على عدم إعمالهم عقولهم , والدار الآخرة لا يخفى أنها خير من الدنيا وهي خير للمتقين من متاع الدنيا الزائل وقال صاحب التحرير والتنوير " أفلا تعقلون " بتاء الخطاب على الالتفات , لأن المعاندين لما جرى ذكرهم وتكرر صاروا كالحاضرين فالتفت إليهم بالخطاب (1) كما يظهر لي أن في ذلك قوة في لهجة التوبيخ والإنكار .

ولفظة العقل ملائمة للسياق والنظم حيث إنه فيما تقدم دليل على العظة والعبرة وإنكار على عدم التفكر والتروي مع وجود ما يدعو لذلك والمُنْكر عليه عالم عارف بذلك و لم ينكر عليه عدم إعمال عقله إلا لأنه قادر و لم يفعل فأصبح كمن لا عقل له , كما أن العبر كانت ظاهرة لذا قال : " أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا " فهناك تناسق بين الاستفهاميين في " أفلا تعقلون " و " أفلم يسيروا " فكلاهما للتوبيخ والإنكار على عدم إعمال العقول وفيها ارتباط فالتوبيخ على عدم إعمال العقل مرتبط بالإنكار عليهم عدم نظرهم في الأرض مع سيرهم فيها . وقد اطرد في القرآن أن صيغة " أفلا تعقلون " استفهام فيه إنكار وتوبيخ للمخالفين سواء من اليهود أو من المشركين وهذا يدل على أنهم لا يُعملون عقولهم .

1-التحرير والتنوير : 127/12

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ونلاحظ أن النظم قيَّد السير بالأرض " في الأرض " أي في هذا الجنس الـصادق بالقليل والكثير , ولما كان المراد سير الاعتبار سبب عنه قوله : " فينظـروا " أي عقـب سيرهم وبسببه , ونبه على أن ذلك أمر عظيم ينبغي الاهتمام بالسؤال عنـه بـذكره أداة الاستفهام فقال: " كيف كان عاقبة " أي آخر أمر " الذين من قبلهم " . ولما كان الذين يعتبر بحالهم - لما حلَّ بهم من الأمور العظام – في بعض الأزمنة الماضية وكان المخاطبون بهذا القرآن لا يمكنهم الإحاطة بأهل الأرض وإن كان في حال كل منهم عظة أتى بالجار فـقال : " من قبلهم " في الرضا بأهوائهم في تقليد آبائهم .ولما كان من الممكن أن يدعى مطموس البصيرة أنه كان له نوع خير , قال: " ولدار الآخرة " أي التي وقع التنبيه عليها بأمور تفوق الحصر " خير للذين اتقوا " أي حملهم الخوف على جعل الائتمار والانزجـار وقاية لهم . ولما كان التسليم في هذا لا يحتاج فيه إلى أكثر من العقل , قال منكراً علـيهم مبكتا : " أفلا تعقلون " أي فيتبعوا الداعي إلى هذا السبيل الأقوم [1] . وفي لعلكم تعقلون في البداية ملاءمة لـ " عبرة لأولي الألباب " في الخاتمة فالعقل يكون أولاً لإدراك ظـاهر الأمور ثم اللب يأتي ثانياً حين يتعمَّق في معاني وحقائق الأمور فكأن في ذلك إشـارة إلى الترقي في الإدراك من العقل إلى اللب وهذا ملائم لنظم السورة التي بينت وضوح نظمها " آيات " ," مبين " عربياً " , " أحسن القصص " ففي كل ذلك وضوح يدركـه العقـل ولكن بعد سرد القصة وبيان العبر التي لا يدركها إلا ذو لب فليس المقصود فهم أحداث القصة بل الاعتبار بما فيها فكم يغتر كثير من الناس بالقوة ويمل الصبر , ولا يدرك حقيقة "إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ " إلا أولو الألباب "وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ""رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيـلِ الْأَحَادِيثِ " كما إن السير في الأرض والتعمق في النظر في عاقبـة الأولين بعد تجاوز ظاهر الأمر لا يكون إلا لأولي الألباب .. فكأن السورة تدرجت مـن النظـر أولاً إلى ظـاهر الأمـور , إلى التعمق في حقائقها وإدراك ما في عبرها.

1- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : 113/4

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي سياق مجادلة هود لقومه ومحاجته لهم ورد العقل فقال : ﴿ **يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ** ﴾ [1] وكانت الفاصلة فيها استفهاماً فيه توبيخ لعدم إعمال العقل والتفكر وكما سبق فالفاصلة بـ " أفلا تعقلون" اطرد وقوعها في القرآن إذا تقدمها عمل غير مناسب للعقل , ومخالف لمقتضاه .

ونلاحظ أن لهذه الفاصلة علاقة وملاءمة لمطلع السورة " الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ " من حيث الحروف المقطعة التي مقتضاها التحدي والإعجاز كما سبق , وكون الكتاب محكمة آياته ثم فصلت فيه دلالة على أن العبر مفصلة واضحة , وهذا ملائم للعقل كما يلاحظ أن في القصص الواردة في السورة تفصيلات ودقائق لم تُذكر في غير هذه السورة يدلنا على ذلك ما ورد في قصة نوح من بدء رسالته والتفصيل في إغراق قومه و لم يرد في غيرها من السور .

كما نلاحظ أن المواجهة بين هود وقومه في هذه السورة أعمق لأن التفصيلات أظهر ومع ذلك لا يعقلون ولا يدركون الحق , نرى ذلك في السياق القبلي الذي وصف فيه هود قومه بأنهم " مفترون " باسم الفاعل الدال على ثبات هذا الوصف فيهم , كما إن في ورود الافتراء دون غيره ملاءمة للعقل حيث إن الافتراء قطع على كذب وإخبار به [2] , فإذن هم يعلمون يقيناً أنهم كاذبون فالأمر ظاهر لهم ومع ذلك يخبرون بكذبهم ويصدون أنفسهم وغيرهم وهذا منافٍ للعقل السليم . خاصة أن النظم أخبر عنهم هنا بقولهم " ما جئتنا ببينة " فأنكروا أن يكون نبيهم أتاهم ببينة فوصفهم " بالافتراء " فإذن كانت هناك بينة ولكنهم يغالطون وهذا ظاهر في مخالفتهم للعقل . وأكد هذا الوصف في ختام قصتهم بوصفهم بالجحد :

1- هود : 51

2- الفروق اللغوية : 59

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

﴿ **وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ** ﴾ فأشار إليهم بإشارة تدل على البعد ففيها دلالة على بعدهم عن الله , وفيه دلالة أخرى ببعدهم عن العقل خاصة أنه تلاها بالجحد والجحد إنكار للشيء بعد العلم به , كما إنه إنكار للشيء الظاهر[1].وإنكارهم كان لنعم ظاهرة لذا جمع الآيات وأضافها لـ "ربهم" , ثم زادوا على ذلك بأن عصوا رسله فتركوا أمر الرحيم واتبعوا أمر كل جبار عنيد ففي هذا مخالفة صريحة للعقل .

وفي نظم الآية ما يدل على قرار اللفظة فهو يدعو (قومه) فهم إذن منه وهو منهم فحرصه عليهم ظاهر، ودلل على ذلك بأنه لا يسألهم أجراً على هذه الدعوة وإنما أجره على الله سبحانه وتعالى ؛ لذا ختم باستنكار عدم إعمالهم لعقولهم والأمر بين يدركه كل ذي عقل وما من رسول إلا واجه قومه بهذا القول ؛ لأن شأنهم النصيحة , والنصيحة لا يمحضها إلا حسم المطامع وما دام يتوهم شيء منها لم تنجح ولم تنصع [2] . ولذا بيّن - عليه السلام – أنه لا يرجو الأجر إلا من الله وخصص قوله بـ " الذي فطرني " بالتعبير بالموصول دون الاسم العَلَم لزيادة تحقيق أنه لا يسألهم على الإرشاد أجراً لأنه يعلم أن الذي خلقه يسوق إليه رزقه , لأن إظهار المتكلم علمه بالأسباب يكسب كلامه على المسببات قوة وتحقيقاً [3] . وكذلك أشار بقوله " الذي فطرني "فبين أن الذي يرزقه هو فاطره وخالقه وجميع الأمم كانت تؤمن بأن الله خالق ورازق فاستدل على صدق دعوته بما لا تختلف عقولهم في معرفته , فإذا كانوا يعلمون أن الله هو الخالق الرازق " وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ " [4] , فمقتضى العقل أن يكون -سبحانه وتعالى- حقيقاً بالعبادة ولذلك ختم بـ " أفلا تعقلون " يعني أفلا تعقلون أني مصيب في المنع من عبادة الأصنام , وذلك لأن العلم بصحة هذا المنع كأنه مركوز في بدائة العقول [5] .

1- الفروق اللغوية : 57
2- الكشاف غوامض التنزيل وعيون الأقاويل : 207/3
3- التحرير والتنوير : 278/11
4- لقمان : 25
5- التفسير الكبير : 363/6

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كما وردت الفؤاد في قصة قوم عاد حين كان الإخبار عن هلاكهم وعدم انتفـــاعهم بأدوات إدراكهم فقال تعالى : ﴿**وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَـــمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَـــانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ**﴾[1]. على الرغم من أن ســياق القصص كان استعمال القلب فيه أكثر من الفؤاد وخاصة حين يصف الأمم الكافرة لأنه يحكي عن عقائد ثابتة متمكنة في قلوبهم سواء كانت باطلة أو صحيحة لكن الــسياق في قصة عاد رشح لاستعمال الفؤاد ، وذلك لأن السياق كان في هلاكهم ودمــارهم ، وفي هذا الهلاك من الخوف ما يجعل الفؤاد مضطرباً غير مستقر ، وحين بــدأت الآيــات في الإخبار عنهم وردت بقوله : "وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ .." فذكر النـــذارة دون غيرها من مهمات الرسالة ، وفي " أنذر " تخويف مع إعلام موضع المخافـــة ، فـــإذا خوف الإنسان غيره ـــ وأعلمه حال ما يخوفه به فقد أنذره[2]. وهذا التخويـــف ملائـــم لحال الفؤاد . ثم بعد ذلك ذكر اضطراب الرؤية في ظنهم الخائب "هذا عارض ممطرنـــا" ووقوع الأمر خلاف ما ظنوا على الرغم من أن الرؤية كانت متيقنة، حيث أشاروا إليـــه بـــ "هذا" للقريب ، فقد رأوا أن السحابة سوداء ولكن لاضطرابهم ظنوها سحابة مطـــر لتغيثهم "بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ" ، وفي تأخير الضمير "رأوه" دلالـــة إبهام توضح بـــ "عارضاً" ، وفي هذا الوضوح بعد الإبهام دلالة اضطراب وتـــردد تلائـــم حال فؤادهم المضطرب الذي يحاول أن يرى الأمور كما يريد . فكل ذلك مرشح للفؤاد ، فليس هناك ثبات لا في النظر ولا في النفسية أو الأمن . ثم إن الآيـــة وردت بقولـــه : "وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً" ، قال "جعلنا" ، وتلاحظ أن اطراد جعلنا مع الأفئدة في سياق القرآن ملائم لها حيث إن فيه معنى الإحداث والتغيير والذي يلائـــم اضـــطراب الفؤاد ، وتجدد حدوث المشاعر فيه ، ثم إن تجاور السمـــع والإبصار مرشح قوي لـــورود الأفئـــدة ؛ لأن تلك الآلات منـــافذ لتوارد المظاهر الخارجيـــة بكل ما فيها من تناقض

1- الأحقاف : 26

2- الفروق اللغوية :: 256

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فهم يرونه "عارض ممطرنا" وهو حقيقة "ريح فيها عذاب أليم" ، ولذا أخر الأفئدة عن السمع والإبصار ، لأنها مسببة عن ذلك ومتأثرة بها . وورودها نكرة للتعظيم ، وهو ملائم للسياق من وجوه :

أولاً : قوله "فيما إن مكناكم فيه" يدل على عظم ما مُكِّنوا فيه وما أعطوه وهو ما يتناغى مع التعظيم في هذه الأمور الثلاثة .

ثانياً : إيثار التعظيم في الأفعال "مكناهم" أو "جعلنا" يلائم التعظيم .

ثالثاً : دلالة القدرة القاهرة في عقابهم : ﴿**فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ**﴾ ملائم للتعظيم ، أي مع عظم تلك الآلات إلا أنها لم تغن عنهم شيئاً عندما جحدوا بآيات الله . ولذلك قال "من شيء" و لم يقل "شيئاً" ، أي لا قليل ولا كثير وهذا أدل على القدرة "وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ" ، قال "حاق" دون "نزل" ليدلل على أن ما حاق بهم كان مكروها[1]. واختيار هذه الكلمة مربٍ للخوف في النفوس وهذا أيضاً ملائم للفؤاد .

كما مضى السياق البعدي في نظم فيه تخويف وإنذار من إنذار الجن لقومهم بعد سماع القرآن "فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ" ، ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء "أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ" ، وذكر النار وحال الكافرين خاصة دون غيره من أحوال يوم القيامة . ثم ختم السورة بـ "فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ" فهو إنذار وتخويف ، وذكر عاقبة تثير الاضطراب أو عدم الاستقرار وهذا حال الفؤاد .

1- الفروق اللغوية : 325

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أما في سياق قصة سيدنا عيسى ـــ عليه السلام ـــ فقـــد وردت لفظـــة "القلـــب" في موضعين :

الأول : في سياق مقام علم اليقين ، كما ورد في قـــصة ســـيدنا إبـــراهيم ـــ عليه السلام ـــ والانتقال إلى اليقين ملائم للقلب واطمئنانه ، لذا قال تعالى : ﴿ **قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ**﴾ [1] وقد وردت هذه الآية بعد قول الحواريين لعيسى "يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ" ولما زجرهم قائلاً لهم "اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ" ، أجابوه فأقنعوه حين قالوا "نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الـــشَّاهِدِينَ". وقد أفلح الحواريون في الاعتذار عن أنفسهم، فليست المائدة مجرد اشتهاء لطعام فريد ، وإنما هي توطئة لحصول مقاصد إيمانية رائعة . والاستفهام الذي ورد في قوله تعالى " هَـــلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ" استفهام حقيقي لا مجازي ، والمراد منه هو المستفهم عنه وهو إنزال المائدة من السماء . والحواريون لم يكونوا شاكين في قـــدرة الله على الإنزال المطلوب ، بل هم يؤمنون بقدرته على كل شيء[2]. وإنما أوردوا استفهامهم مورد استفهام الشاك تلطفاً وإجمالا في الطلب[3] ، بمعنى أنهم لم يجرؤا على قول عبارة تلزم عيسى-عليه السلام- بالإجابة . ولقد ورد في الموضع تسميتهم بالحواريين لدلالتها علـــى النقاء والصفاء والإخلاص في الصحبة ، وذلك نافٍ لأن يكـــون الاستفهام فيـــه معـــنى الشك ، كما في تسمية الحواريين ملاءمة للقلب لأنه قيل في معنى تسميتهم أنهـــم كـــانوا صياديين لاصطيادهم نفوس الناس من الحيرة وقودهم إلى الحق[4] ؛ وقد تكون "يستطيع" هنا مستعاراً لـــ "يستجيب" بجامع التمكن من الحصول على المطلوب في كل منهما ، أو مجاز مرسل بإطلاق السبب "الاستطاعة" وإرادة المسبب "الاستجابة"[5]. وأميل إلى رأي. د المطعني هنا لأنهم بالفعل كانوا يريدون الإجابة ليحصل لقلوبهم الاطمئنـــان ، فـــلاءم استعمال القلب هنا السياق حيث إن الحواريين كانوا مؤمنـــين ولكنهم يريدون تثبيـــت هذا الإيمان

1- المائدة : 113
2- التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم : 271/1
3- التحرير والتنوير :5/ 121
4 - المفردات في غريب القرآن : 142

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

5- التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم : 272/1

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بالمشاهدة ، والتثبت بالإيمان والتمكين له لا يكون إلا في القلب ، وقد ذكرت الآيات سابقاً معجزات عيسى ـ عليه السلام ـ من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وإخبارهم بما يأكلون وما يدخرون وهذه كلها مثبتة للإيمان ، ولكنها كانت معجزات تجري على الأرض ، فأرادوا معجزة يشاهدونها تنزل من السماء فسألوا المائدة وطريقة سؤالهم تدل على رغبتهم في تأكيد وتثبيت إيمانهم بالعلم اليقين ، ويؤكد ذلك أن الآية داخلة في سياق الامتنان على سيدنا عيسى ـ عليه السلام ـ ، حيث قالوا "نريد أن نأكل منها" "تطمئن قلوبنا" "نعلم أن قد صدقتنا" "ونكون عليها من الشاهدين" وأتت هذه المعاطيف مرتبة ترتيباً لطيفاً ، وذلك أنهم لا يأكلون منها إلا بعد معاينة نزولها ، فيجتمع على العلم بها حاسة الرؤية ، وحاسة الذوق ، فبذلك يزول عن القلب قلق الاضطراب ، ويسكن إلى ما عاينه الإنسان وذاقه[1].

وفي استعمالهم للفعل مضارعاً في كل الأفعال "نأكل ـ تطمئن ـ نعلم ـ نكون" تشخيص لقولهم وأنه واقع مشاهد الآن , وفي هذا سكون لقلوبهم "تطمئن قلوبنا" ، حيث إنها ماثلة أمامهم تؤكد علمهم ويقينهم "ونعلم" علما يقينا . وقالوا "أن قد صدقتنا" و لم يقولوا "صدقك" ، فالعناية هنا في صدقه خاصة في أمر الرسالة لا في صدقه عامة ، وإنما يريدون أن يعلموا يقينا أنه ـ عليه السلام ـ صدقهم في رسالته وأنَّ معجزاته الأرضية مرجعها إلى الله (إليه يرجع الأمر كله) ، "ونكون عليها من الشاهدين" نشهد عليها عند الذين لم يحضروها من بني إسرائيل ، أو نكون من الشاهدين لله بالوحدانية ولك بالنبوة[2].

"عليها" أي شهادة رؤية مستعلية عليها بأنها وقعت لا شهادة إيمان بأنها جائزة الوقوع[3].

فالقلب هنا أليق بسياقه ونظمه ، فالسياق للثبات ، والنظم أكد هذا الثبات والتمكن للإيمان .

1- البحر المحيط : 59/4

2- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل : 314/2

3- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : 570/2

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والموضع الثاني الذي ورد فيه "القلب" ما ورد في سياق وصف أتباعه ـــ عليه السلام ـــ وذلك في قوله تعالى : ﴿**ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْأِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ**﴾[1].

فالسياق صريح في أنه في شأن الذين اتبعوا تعاليم الإنجيل الذي آتاه الله عيسى فأخبر عنهم الله بقوله : "وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً" مورداً لفظة القلوب دون الأفئدة بالرغم أن الأفئدة تحمل معاني الرأفة والرحمة والشوق والإشفاق فلمَ استعمل القلوب ؟ ذلك لأن الرأفة والرحمة كانت ثابتة في هؤلاء متمكنة في قلوبهم يدلنا على ذلك سياق الآية ونظمها ، فالذين اتصفوا بهذه الصفة هم الذين اتبعوا عيسى والإنجيل الذي معه ، لذلك ذكرهم بهذا الوصف و لم يقل "النصارى" أو "الذين قالوا إنا نصارى" مثلاً كما قال في مواضع أخرى وذلك يدل على أن الأساس متين وقوي ، فلا بد أن تكون الصفة ثابتة ، كما إنها كانت رأفة ورحمة حتى آلت إلى رهبانية فصارت ثابتة ، ولكن هذه رأفة ورحمة مذمومة ، والممدوح منها أن تكون دائرة حسب الأحوال والمقامات ، ولذا نهى القرآن عن الرأفة في سياقين : أولهما : سياق تنفيذ الحدود "وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ" [2] ، وثانيهما : عند لقاء العدو "وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ" [3].

ومن ثم كان تقييد الرأفة والرحمة والرهبانية بأنها في "قلوبهم" دون أفئدتهم دلالة على هذا ، وإن كان هذا مرجوحاً ؛ إذ في "جعلنا" ما يناكد ذلك وينغص عليه فالله "جعل" بمعنى أوجد ـــ هنا ـــ بفضله ومنته في قلوبهم رأفة ورحمة ثابتة فكيف يجعلها ويذمها ؟ فإذن الذم "للرهبانية" حيث عاد الضمير عليها فقط ؛ ولذلك فالوجه الوقف على "ورحمة" ، ثم تكون الواو في "ورهبانية" للاستئناف ، فيبدأ كلام جديد "ورهبانية ابتدعوها"، وإنما جاء بها عقب الرأفة والرحمة ليدل على أنهم لم يقفوا بها عند إرادة الله منها وإنما تعدوا فيها وبالغوا حتى خرجت بهم إلى اعتزال الناس.

1- الحديد : 27

2- النور : 2

3- التحريم : 9

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقوله "ابتدعوها" بالإفراد, والضمير يعود على ما قبله مباشرة هنا ، والكلمة تدل على ذلك "ابتدعوها" أي أحدثوها ، فإن الابتداع الإتيان بالبدعة والبدع هو ما لم يكن معروفاً ، أي أحدثوها بعد رسولهم ، فإن البدعة ما ابتدع من الدين بعد الإكمال[1]، ونصبُ رهبانية على طريقة الاشتغال والتقدير ، وابتدعوا رهبانية ، وليس معطوفاً على "رأفة ورحمة" لأن هذه الرهبانية لم تكن مما شرع الله لهم فلا يستقيم كونها مفعولاً لـ "جعلنا" ولأن الرهبانية عمل لا يتعلق بالقلوب فـ"جعلنا" مقيد بـ "في قلوب الذين اتبعوه" فتكون مفعولاته مقيدة بذلك .

والمعنى وابتدعوا لأنفسهم رهبانية ما شرعناها لهم ولكنهم ابتغوا بها رضوان الله ، فقبلها الله منهم لأن سياق حكاية ذلك عنهم يقتضي الثناء على أحوالهم[2]. ولكنهم ما رعوها حق رعايتها بل منهم من رعاها "فهم الذين آمنوا" وكثير منهم ما رعوها حق رعايتها وهم الذين يُقْصَدُون بالذم " وكثير منهم فاسقون" .

وقد يكون في وصف أتباع عيسى ـ عليه السلام ـ إيماء إلى الثناء عليهم ومدحهم بذلك ، ويكون في ذلك حض وحث للمؤمنين بأن تخشع قلوبهم ، ويكون له اتصال ما بـ ﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ**﴾[3] وفي هذا إثارة لهم أي إثارة وحض لهم أي حض . كما إن في هذا الوصف مضادة لوصف القسوة في السياق المتقدم ﴿**وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ**﴾[4] وهم اليهود ، ذلك أن عيسى بعث لتهذيب اليهود واقتلاع القسوة من قلوبهم التي تخلقوا بها في أجيال طويلة[5].

ونظم الآية ملائم لاستعمال القلب مع هذه الصفات حيث أكد النظم على تمكنها وثباتها فعطف أولاً الفعل "جعلنا" على "قفينا" و "آتينا" وهي أفعال

1- لسان العرب : 228/1
2- التحرير والتنوير : 380/27
3- الحديد : 16
4- السابق : 16
5- التحرير والتنوير : 378/27

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عظيمة وأثرها عظيم لا يزول ، فكذلك هذا الجعل للصفات كان أثره لا يزول . وعبَّر بالفعل "جعلنا" بالمضي ، فالجعل قد حصل ، وفي الجعل ــ كما ذكرت سابقاً ــ معنى الاتصال والاستمرار . وأضافه إلى تعاليمه سبحانه وتعالى ، وهذا آكد في تثبيت وتأكيد أثر هذا الجعل . ثم قال "في" أي داخلها وهذا أدل على التمكن "قلوب الذين اتبعوه" ، أضاف القلوب إلى خاصة الناس من قوم عيسى ــ عليه السلام ــ وهم "الذين اتبعوه" ، حيث إن تعاليم الإنجيل الذي أتاه الله عيسى ــ عليه السلام ــ أمرهم بالتخلق بالرأفة والرحمة فعملوا بها ، إذ إن ارتباطهم بسيرة عيسى ــ عليه السلام ــ رشح ذلك في قلوبهم وذلك بجعل الله تعالى لأنه أمرهم به ويسره عليهم[1] .

ونكّرهما "رأفة ورحمة" دلالة على عظمتهما وتمكنهما ، وقال "رأفة ورحمة" ، ولم يقل "رقة" ، وذلك لأن هاتين الصفتين أقوى وأبلغ في الأثر ، فالرأفة متعلقة بدفع الأذى والضر ، والرحمة : العطف والملاينة ، فعطف الرحمة على الرأفة من عطف العام على الخاص . والرأفة والرحمة ليست مجرد شعور بل هي شعور ينتج عنه فعل إحسان[2] ، ولهذا هي أقوى من غيرها من الصفات ، كما إنهما ليستا من الصفات التي تكون في وقت وتزول في آخر بل من الصفات الثابتة التي يتخلق بها الإنسان ، والحكيم من يُعملها حسب شرع الله .

وقد ورد في الكتاب العزيز ما يدلل على تمكن هذه الصفات من أتباع عيسى حيث قال تعالى : ﴿**وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ ، وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ**﴾[3] ، والله أعلم .

1- التحرير والتنوير : 378/27

2- المفردات في غريب القرآن : 197

2- المائدة : 82 ، 83

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أما في قصة أيوب ــ عليه السلام ــ فإن "اللب" وحده هو الذي عبر به في الاتعاظ بأمره، فقال تعالى : "وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ" ، وذلك لأنه ذكر أيوب ، والبلاء الذي أصابه ونعمة الله عليه بالشفاء ورد أهله له ومثلهم معهم رحمة من الله . فالنعم المذكورة فيها ابتلاء للعبد ولكن لا يعي ذلك إلا صاحب اللب والعقل الخالص حيث تطغي النعم كثير من الناس "وقليل من عبادي الشكور" ولا يتعظ بالنعمة ويعتبر بها إلا الخاصة . كما إن طريقة العلاج وسرعة تبدل الحال لا يفطن إليها إلا ذو لب خالص .

وقد تساوق النظم مع السياق في استعمال لفظة "اللب" خاصة دون العقل ، فليس كل من لديه عقل يعمله ويتفكر به ولكن صاحب اللب دائم التفكر والتذكر ، ولذا ورد النظم بقوله : "وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ" .

فذكر أن الهبة والنعمة التي أنعمها الله على سيدنا أيوب ــ عليه السلام ــ حيث أصلح له أهله وأتاه مثلهم معهم رحمة منه- سبحانه-"وذكرى لأولي الألباب"فالرحمة قد يساء فهمها وقد يطغى الإنسان بما رحمه الله به من العذاب ويتمادى ، ولكن صاحب اللب والعقل السليم تكون له ذكرى ، واختار كلمة "ذكرى" للدلالة على أنها ثابتة ودائمة ، كما إن الذكرى دلالة على النظر والاستدلال ، وهذا لا يكون إلا لمن كان له لب خالص ، ولذلك عداها "باللام" "لأولي" فهي لهم وفي صالحهم ، وذكر "أولي" خاصة دون أصحاب لما فيها من دلالة الدوام والثبات في الملكية فعقولهم راجحة في كل الأحوال وملازمة اللب ثابتة دائمة لهم ، كما إن "أولي" تستعمل في التشريف في سياقات القرآن الكريم ولذلك اتصلت بـ "الألباب" و"بأل" الدالة على كمال الوصف فمن يتذكر دائماً يستحق التشريف والوصف بالكمال البشري وجمع "الألباب" للدلالة على تفاوت هذه الأفهام في درجة الفهم أو نوعه .

ونرى الاختلاف هنا عما ورد في سورة الأنبياء حيث قال تعالى : "وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ" وقال هنا "وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ" . قال صاحب التحرير في ذلك : "فأما قوله هنا "وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ" فإن الذكر: التذكر

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بما خفي أو بما يخفى ,وأولوا الألباب هم أهل العقـــول ، أي تـــذكرة لأهـــل النظـــر والاستدلال[1] ، فإن في قصة أيوب مجملها ومفصلها ما إذا سمعـــه العقـــلاء المعتـــبرون بالحوادث والقائسون على النظائر استدلوا على أن صبره قدوة لكل من هو في حـــرج أن ينتظر الفرج ، فلما كانت قصص الأنبياء في هذه السورة مـــسوقة للاعتبـــار بعواقـــب الصابرين ، وكان النبي ـــ ﷺ ـــ والمسلمون مأمورين بالاعتبار بها من قوله : "اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ" . حُق أن يشار إليهم "بأولي الألباب"

وأما الذي في سورة الأنبياء فإنه ذكر من الأنبياء من ابتلى من قومه فصبر ، ومن ابتلي من غيرهم فصبر ، وكيف كانت عاقبة صبرهم واحدة مع اختلاف الأســـــباب الداعية إليه ، فكانت في ذلك آيات للصابرين أي الممتثلين أمر الله المجتنبين نهيه ، فإن مما أمر به الله الصبر على ما يلحق المرء من ضر لا يستطيع دفعه لكون دفعه خارجاً عن طاقتـــه فختـــم بخاتمة إن في ذلك لآيات للعابدين[2] . وقيل إن سبب الفرق "ذكرى للعابدين" لأن أيوب لم يصرح بمرضه والسياق في قصص الأنبياء قبله لم يورد ذنوبـــاً وقعـــت منـــهم فقيـــل "للعابدين" وقيل في الثانية "لأولي الألباب" مناسبة لتصريحه بمرضه وشكايته ، إذ اعتبـــار أولي الألباب يورثهم مقام العابدين وهو أسنى مقام[3]. وقيل "وذكرى لأولي الألباب" لأن أولي الألباب أعم من العابدين واستدفاع وساوس الشيطان "أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُـــصْبٍ وَعَذَابٍ" أعم من الاستشفاء للأبدان "أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ" فخص بكل آية مـــا اقتـــضاه في صدر الكلام ، وتعرض أيوب ـــ عليه السلام ـــ بالسؤال[4].

ويظهر لي أن السياق العام للسورتين له مدخل في ذلك ، فالسياق العام في"ص" في تقسيم الناس إلى طائفتين : طائفة في خصام وشقاق فكان حالهم إعراض وعـــدم تفكـــر وتكذيب للنذر فهؤلاء لا عقل لهم فكيف يكون لهم لب ؟ .

1- التحرير والتنوير : 126/21 2- السابق : 226/23

3- ينظر ملاك التأويل :أحمد بن إبراهيم الغرناطي,ت:سعيد الفلاح,بيروت,دار الغرب الإسلامي,ط1, 1403هـــ-1983م : 843-844/2

4- درة التنزيل وغرة التأويل : 211

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وطائفة متذكرة وذكر أعلى مثلاً لذلك وهم الأنبياء ، وحين عرض السياق قصص الأنبياء ذكر منها ما يقوي جانب الاعتبار والعظة فذكر من قصة داود -عليه السلام- فتنته بالخصم بعد أن آتاه الحكمة وفصل الخطاب, وذكر من قصة سليمان -عليه السلام- الإنعام عليه بالصافنات الجياد ثم فتنته بإلقاء الجسم على كرسيه ، ثم ذكر من قصة أيوب -عليه السلام- شكواه لمرضه ، ثم منة الله عز وجل عليه بالشفاء وهبته أهله ومثلهم معه ، وهذه ابتلاءات تليها نعم لا يعرف قدرها ويعتبرها إلا من كان له لب خالص صافٍ فلا يعرف حكمة الابتلاء بالنعمة ويؤدي حقها إلا صاحب اللب الخالص وقد نص السياق على أن ذلك ذكر "هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ" وختم السورة بقوله "إن هو إلا ذكر للعالمين ولتعلمن نبأه بعد حين" فنص على أن فيما سبق ذكر وهذا الذكر لا يكون إلا لأولي الألباب .

أما في سورة الأنبياء فالجو العام فيها هو تكرار العبادة ومشتقاتها وذلك لأنه بدأ السورة بقوله "اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ" والحساب يحتاج استعداداً بالعباد ، ثم مضى يذكر أن كل من في السموات والأرض عابد لله "وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ" وأمر جميع الرسل بتوحيد الله وعبادته "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ" ، وأثنى على الملائكة بالعبادة خصوصاً "عِبَادٌ مُكْرَمُونَ" وحين بين فضل الهبة لإبراهيم بالبنين وصف بنيه بقوله "وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ" فلاءم كل ذلك قوله تعالى "وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ" لأن الاهتمام في السورة بالعبادة والثناء فيها على العابدين ، ولذا نجد أنه ختم بقوله "إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ" كتعقيب ختامي على قصص الأنبياء جميعاً ثم ختم السورة بقوله "إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عَابِدِينَ" فكان في ذلك ملاءمة بين البداية والخاتمة حيث بدأ السورة بالتحذير من قرب الحساب وختمها بأن هذا بلاغ للعابدين ليستعدوا للحساب ، فنجد أن سياق السورة وجوها العام ملائم "للعابدين" كما لاءم سياق سورة ص وجوها العام أولي الألباب .

***

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المبحث الرابع : الختام القصصي .

الآيات الواردة في المبحث :

1- ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ الأعراف 101:

2- ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾ الأعراف:100

3- ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ يونس:74

4- ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾ يونس:100

5- ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ العنكبوت:35

6- ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ العنكبوت:43

7- ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ـ وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ الصافات:137ـ138

8- ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ص:29

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي سياق الختام القصصي ورد القلب في مواضع والعقل واللب في مواضع أخرى بما يلائم النظم والسياق أما المواضع التي ورد فيها القلب فالسياق قبلها في قصص شأنها أن تؤدي إلى العظة والاعتبار فأما أن تؤدي إلى العكس فهو ناتج عن الطبع على القلب وشدة الغفلة التي تكون سمة لا تنفعك إذ إن موقف الناس من القصص يكون أحد أمرين :

إما مصدق معتبر به وهذا من شأنه أن يثبت على الحق ، وإما منكر مكذب ، وجاحد معاند ، وهذا من شأنه أن يثبت على الباطل وبهذا يكون الختام التعقيبي في هذه المواضع مختصاً بإيثار القلب لأنه ثبات على أحد الأمرين السابقين وقد قال تعالى في هذا السياق : **﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾**(1) .

وقال تعالى : **﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾** (2) .

والسياق العام لسورة الأعراف ويونس تعجيل العقوبات. والإهلاك والطبع على القلب من هذا القبيل ، والطبع لا يكون إلا في القلب حيث يكون سمة لا تنفك عن قلب من طبع عليه فهو ثابت حتى يكاد يكون كأنه خلقة وطبع لمن طبع عليه. وقد دل السياق القبلي والبعدي في كلا السورتين على الطبع الملائم للقلب ، ففي سورة الأعراف بدأت الآيات بذكر كفر إبليس وعصيانه لله وتوعده أن يضل من يتبعه ,ثم لما وردت قصص الأنبياء صرح الله بأقوالهم الصريحة والسريعة برد الحق والكفر به ففي قصة نوح (فكذبوه) ثم بين الله عز وجل أنه أهلكهم بذنوبهم (فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا) وعطف عذابهم بالواو للدلالة على سرعة إهلاكهم وفي ذلك عظة وعبرة لمن له قلب لكن من طبع عليه ..

1- الأعراف :100،101

2- يونس:74

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي قصة عاد لما كذبوا وقالوا : (فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) جاء الرد مباشرة (قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ) ، (فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا) ، وفي قصة ثمود لما كذبوا وعقروا الناقة أخذهم العذاب مباشرة (فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ) (فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ) ، وكذلك قصة لوط (فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ) ، (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً .....) وكذلك قصة قوم شعيب (وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ) ففي هذا التكذيب وسرعة الإهلاك عظة وعبرة من لم يعتبر بها فقد طبع على قلبه ، ثم وردت آيات التحذير من أن يأتهم بأس الله بياتاً أو ضحى والتحذير من مكر الله جل وعلا (فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ).

فكل ما تقدم يجعل القلب متأثراً ويدعوه إلى الاعتبار والإيمان فلما حصل من الكفار خلاف ذلك كانت عاقبتهم الطبع على قلوبهم .

ونلاحظ أن الموضع الثاني في الأعراف متفق مع موضع يونس في النظم مع بعض اختلاف فرضة السياق ، فكلا النظمين ورد بـ (كذلك) ، (كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ) ، (كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ) . قال صاحب نظم الدرر : استخدم أداة التشبيه (الكاف) وجعل مدخولها اسم الإشارة (ذلك) فالكاف تبين صفة هذا الطبع وقوى هذا الشبه أن المشار إليه مذكور قبل ذلك . حيث سبقت لهم العبر وورثوا الأرض بعد من هلكوا ، أو كان لهم فسحة من الوقت للتأمل في عقابهم ، وجاءتهم الرسل ليس ببينة بل ببينات ولكنهم لم يؤمنوا فمثل هذا الإعراض يكون الطبع على القلوب طبعاً لا ينفك عنها البتة [1].

ويظهر لي أن المعنى أوسع مما ذكر صاحب النظم فليس التشبيه بالطبع قاصرا على من سبق الطبع على قلوبهم بل فيه تهديد لمن سار على نهجهم فورود النظم بـ (كذلك) دليل على

1- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : 176/3

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وجود طبع أول شبه به طبع ثان ، والأول معهود وهو ما طبع به علـــى قلـــوب الأمـــم السابقة فكفروا وأهلكوا ، والثاني طبع غير معهود سيطبع به على قلوب من سيسير على نهجهم فشبه هنا إذن غير المعهود بالمعهود ليظهره ويدلل عليه . كما أن ذلك أدخـــل في إرادة التهديد والتخويف والإنذار لمن كذب محمداًﷺ

كما اتفق النظمان في ورود فعل الطبع بالمضارعة ، وذلك لبيان تجدد هذا الطبـــع واستمراره لأزمان مستقبلة إذا حصل من أهلها ما حصل من هـــؤلاء وهـــذا أدخـــل في التهديد وأدل على تمكن الطبع . وفي التعدية بـــ (على) دليل استعلاء الطبع على قلـــوبهم وفي هذا دلالة قهرهم وإذلالهم . وقد رشح لجعل الطبع على قلوبهم خاصة النظم في كلا الموضعين حيث جاءتهم الرسل بـــ(البينات) وأوردها بالجمع في كلا الموضعين دليل على كثرتها وبالتالي ظهورها فلا يكفر بها إلا من طبع على قلبه . كما قال : (فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ) باستعمال الكون في نفي الإيمان عنهم وهذا دليل تأبيد هـــذا الحـــال عليهم فهنا نفى انبغاء الإيمان منهم أصلاً لذا قيل (كذبوا) بـــ (به) أي كله دون أن يؤمنوا بشيء منه وما هذا إلا لتمكن الطبع من قلوبهم وعدم استعدادهم للإيمان .

ولكن اختلف النظمان في أمور أخر تبعا للسياق والنظم وهذه الأمورهي :

أولا:وردالنظم في موضع الأعراف مصرحا بلفظ الجلالة (يطبع الله) وفي موضع يونس لم يصرح" نطبع على قلوب المعتدين" وذلك لأن السياق في الأعـــراف مـــصرح بكفـــرهم بوحدانية الله فذكر لفظ الجلالة أما في يونس فلم يصرح بل إن النظم من بدايته (بعثنا) ، (نطبع) بنون العظمة .

ثانياً : ذكر في الأعراف (على قلوب الكافرين) وهنا (على قلوب المعتدين) لأنه صـــرح بذنبهم هناك وهو الكفر بوحدانية الله ، أما هنا فلم يصرح بالذنب وكل ذنب يعد اعتداءً فقال (على قلوب المعتدين)[1] .

1- ملاك التأويل :1/ 559

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي قوله تعالى ﴿**أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ**﴾ [1] . بدأت الآية بالاستفهام التعجبي وفيه توبيخ وتجهيل لمن مر على هذه الآثار و لم يتعظ ، وقد ورد هذا الاستفهام في سورتين أخريين إحداهما سورة طه ﴿**أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ**﴾[2] ، والثانية في سورة السجدة ﴿**أولم يهد لهم كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ**﴾ [3] والتركيب الاستفهامي في السور الثلاث اطرد وروده في لفت الأنظار إلى مصارع الأمم التي عتت عن أمر ربها ، وأن المراد هو استحضار صورة ما حل بها من عقاب لأخذ العبرة منه حتى لا يكون مصير المخاطبين هو ذلك المصير المؤلم فالقرآن يلفت أنظارنا إلى ذكريات فاجعة وقعت في غابر الأزمان ولكن حديثها مما سارت به الركبان . وذكر المفسرون أن (يهد) عدي باللام لأنه ضمن معنى التبين . وهذا كان يقتضي أن يأتي (يهد) على صيغة المبني للمفعول . وهو لم يأت كذلك لهذا فالأنسب أن يكون (يهد) مضمناً معنى الفعل (يصل) وتعديته باللام لما لا ينازع فيه يعني ألم تصل إليهم أخبار الأمم التي كفرت بالله وعصت رسله فأهلكهم الله وهم لا يحصون عدداً ؟ ويكون من السر البلاغي لو كانوا أحسنوا الفهم والاعتبار[4] . وأوافق د.المطعني على هذا الفهم لأن ما ورد في الآية بعد ذلك من التهديد بالإصابة بذنوبهم والطبع على قلوبهم دال على أنهم لم يحسنوا الفهم والاعتبار مع أنه سبق لهم ما يوصلهم إلى حسن الفهم والاعتبار فلم يكن منهم ذلك وقال :(لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا) فأظهر بقوله (للذين) و لم يقل (لهم) فوضع الإضمار تعميماً وتعليقاً للحكم بالوصف وإشارة إلى بلادتهم لعدم البحث عن الأخبار ليعلموا منها ما يضر وما ينفع فلا يكونوا كالبهائم ، فإنهم لو تأملوا أحوال من ورثوا أرضهم وأموالهم لكفاهم ذلك في الهداية إلى سواء السبيل[5] .

1- الأعراف : 100 2- طـه: 128

2- السجدة: 26 4-التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم : 396/1

5- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : 75/3 بتصرف يسير

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثم قال تعالى (يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا) باستعمال الفعل المضارع دلالة على استمرار مكوثهم في الأرض وقال (يرثون) إذن أصبحت لهم ، فلهم حرية التنقل فيها ومشاهدة ما فيها من العبر فإن لم يعتبروا فقلوبهم مقفلة عن قبول الحق وهذا ملائم لعقابهم بالطبع .

وفي قوله (من بعد) وسياق القرآن كله في (من بعد) يدل على أنه قد سبقه عبر، وتدل على حصول فسحة زمنية للتأمل والاعتبار بهذه العبر فإن لم يحصل لهم بعد هذه الفسحة اعتبار (طبع على قلوبهم) ، (أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ) قال: أصبناهم من الصواب، وأصاب السهم إذا وصل إلى المرمى بالصواب [1] واستعمال الإصابة للدلالة على نوال الشيء المطلوب بتمكن منه ، فالمعنى أن نأخذهم أخذاً لا يفلتون منه ، والباء في (بذنوبهم) للسببية : أي بسبب ذنوبهم [2] . واستعمال الماضي للدلالة على تحقق وقوع الإصابة إذا تعلقت بها مشيئة الله . والجملة مقيدة بالشرط بلو (لو نشاء أصبناهم) انتفى أخذنا إياهم في الماضي بذنوب تكذيبهم لأجل انتقاء مشيئتنا وذلك لحكمة إمهالهم لا لكونهم أعز من الأمم البائدة أو أفضل حالاً منهم وجملة (نطبع) ، إما معطوفة على جملة الاستفهام أو الواو للاستئناف : أي ونحن نطبع على قلوبهم في المستقبل كما طبعنا عليها في الماضي [3].

ويظهر أن منع عطفها (على أصبناهم) ليس من أجل أن المقصود هنا عذاب الاستئصال فلا يعطف عليه الطبع ، بل لأن أصبناهم هنا أتت مقيدة بالشرط والشرط هنا دال على امتناع وقوع الإصابة ، فلا نعطف عليها لأنها مقيدة بشرط يدل على امتناع على وقوع الفعل ، أما الطبع فلم يمتنع وقوعه على أمة محمد قال تعالى في شأن المنافقين **﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ﴾** [4] وقال تعالى: **﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾** [5] .

1- المفردات في غريب القرآن : 291
2- التحرير والتنوير : 219/8
3 _ السابق : 219/8
4 _ المنافقون : 3
5- محمد : 16

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فالاستئناف أقوى من العطف هنا ، وكذلك أقوى من جعل (الواو) بمعنى (أو) لأنه ليس هناك خيار بين عذاب الاستئصال ــ فهو ممتنع ــ وبين الطبع ، هذا إن كـــان المقـــصود بالإصابة عذاب الاستئصال ولكن إذا كان المقصود غير عذاب الاستئصال من الابـــتلاء بالذنوب والبلاء فيصح عطف (نطبع) على (أصبناهم) ويكون ذلك من باب الترقـــي في العقوبة فكثيراً ما يعاقب الله تعالى على الذنوب بالإيقاع في ذنوب أكبر منـــها ، وعلـــى الكفر بزيادته والغلو فيه . (ونطبع على قلوبهم) بالمضارع هنا (نطبع)دون الماضي (طبعنا) لخصوصية بيانية رائعة وهي أن الطبع على القلوب عقوبة على الإصرار على المعاصـــي ، يمنع الله فيها القلوب من نفاذ الحق إليها ومن التفقه فيه حال حياتهم ، والمضارع يفيد تجدد ذلك الطبع وحدوثه ما داموا أحياء ويزداد بازدياد كفرهم ومعاصيهم . وفي المضارع معنى آخر وهو تراكم الطبع على القلب وكثرته بخلاف الماضي الذي يدل على حدوثـــه مـــرة واحدة . وقال (قلوبهم) بإضافتها لضمير الغائب للدلالة على إبعادهم (فهم لا يـــسمعون) هنا ذكر نتيجة الطبع .ونلاحظ هنا تلاؤم وتناسب الكلمات فالطبع رشح للقلب فهو سمة ثابتة ولا تكون إلا في القلب والطبع على القلب دال على النتيجـــة بعـــدهما (فهـــم لا يسمعون) في تركيب بلاغي يفيد توكيد نسبة الجهل إليهم . وهذا أبلغ مما لو قيل (فـــلا يسمعون) وأبلغية ما في النظم على العبارة المناظرة ترجع إلى تكرار الإسناد يعني أن الخـــبر يسند فيها إلى المبتدأ مرتين:

فـــ(هم) هو المسند إليه . وقد وقع خبر جملة (لا يسمعون) وفاعل يـــسمعون هـــو واو الجماعة العائد على المسند إليه (هم) فهذا إسناد ، والإسناد الثاني هو إسناد جملـــة الخـــبر برمتها إلى المبتدأ . وتكرار الإسناد يجعل المعنى هكذا : فهم لا يسمعون لا يسمعون ، أما عبارة فلا يسمعون فليس فيها إلا إسناد واحد [1] .

وللإمام عبد القاهر مذهب ثان في أبلغية هذا التركيب (فهم لا يسمعون) وما جاء على طريقته . حاصله أن البدء بالمحدث عنه يقتضي تأكيد الخبر وتحققه حيث قال (ومثاله قولـــك : هـــو يعطـــى الجزيـــل ، وهـــو يحـــب الثنـــاء لا تريـــد أن تـــزعم

1-التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم : 397/1

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أنه ليس هنا من يعطي الجزيل .. ولكنك تريد أن تحقق على السامع أن إعطـاء الجزيـل وحب الثناء ، دأبه ، وأن تمكن ذلك في نفسه .. فإن قلت: فمن أين وجـب أن يكـون تقديم ذكر المحدث عنه بالفعل ، آكد لإثبات ذلك الفعل له وأن يكون قوله (هما يلبسـان المجد) أبلغ في جعلهما يلبسانه من أن يقال (يلبسان المجد) فإن ذلك من أجل أن لا يـؤتى بالاسم معرىً من العوامل إلا لحديث قد نوى إسناده إليه ، وإذا كان كذلك .. ، فـإن قلت : عبد الله ، فقد أشعرت قلبه بذلك أنك أردت الحديث عنه فإذا جئت بالحـديث فقلت مثلاً (قام) .. فقد علم ما جئت به وقد وطأت له وقدمت الإعلام فيه ، فدخل على القلب دخول المأنوس به ، وقبله قبول المهيأ له المطمئن إليه ، وذلك لا محالة أشد لثبوته ، وأنفى للشبهة ، وأمنع للشك ، وأدخل في التحقيق) [1](أ ــ هـ) .وإيثار السمع هنـا على البصر ؛ لأن المعارف التي تحجب عنهم طريقها السمع ؛ إذ هي أحد أشد ذكريـات لأمم مضت ، وحذف مفعول يسمعون لإفادة التعميم ، أي لا يسمعون شيئاً قط[2] .

وكما وردت القلب في الختام القصصي في سياق ونظم يلائمه كذلك ورد العقل في مواضع أخرى تلائمه وتناسبه وأول هذه المواضع قوله تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ** ﴾ [3]. ورد العقل فاصلة هنا وهـذا ملائم للسياق العام في سورة يونس من وجوه :

أولاً : ابتداء السورة بالحروف المقطعة " آلر " وعقبها بإشارة للبعيد " تلك " إلى آيـات الكتاب ووصفه بالحكيم وهذا فيه تحد والتحدي لا يكون إلا بما هو ظاهر ومبين حتى لا يكون هناك لبس ينقض التحدي والإعجاز وهذا الوضوح يرشح لاستعمال العقل .

ثانياً : الدلائل في ثنايا السورة كانت واضحة لكل ذي عقل حيث استدل بمظاهر الطبيعة وقدرة الله على الخلق وهذه أمور مسلم بها عند مشركي العرب.

ثالثاً : أن لفظة الآيات في كل سياق السورة وردت معرفة فهي إذن واضحة غير مبهمـة وتعريفها إما بأل أو بإضافتها " لله " أو إضافتها إلى " نا " العظمة وهذا أدعى لإعجازها ووضوحها .

1- دلائل الإعجاز : 132

2-التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم:397/1

3 -يونس:100

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

رابعاً : نص في هذه السورة على منع العجب وذلك لظهور الأمر " أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم " فضلاً عن الكفر والرجس وكل ذلك دليل على ظهور الآيـــات الدالة على صدق الرسول- صلى الله عليه وسلم- ووحدانية الله وقدرته على البعث ولا يكذب بذلك إلا من غاب عقله .

وهذه السورة تفردت بذكر رؤية فرعون للبحر وهلاكه فيه على الرغم من أن الآيـــة كانت أمامه عياناً فهو إذن من " الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ " أما من عقل كقوم يونس أنجاهم الله .

وفي نظم الآية قال " وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ " والـــرجس مرشـــح أن يكون ما بعده الذين لا يعقلون فالرجس يكون رجساً من أربع جهات من جهة الطبـــع , أو العقل أو الشرع أو منها جميعاً [1] , وهنا رجسهم أنهم خالفوا مقتضى عقولهم .. ذكر البقاعي :(إن الرجس اضطراب وتزلزل يلزم صاحبه التكذيب الذي هو أشبه بالسحر لأنه تخييل ما لا حقيقة له , فإن كان الرجس كذلك فلا يكون فاعله إلا عديم العقل , فالعاقل متزن لا اضطراب فيه , وصاحب الرجس مضطرب متزلزل [2] , ومن ثم فهو لا يـــدرك الأمور الواضحة البنية الدالة على الإيمان , ولذا أعقب الكلام بقوله " قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآياتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ " فهي إذن آيات ونـــذر ترى وتشاهد ولكن من فقد الإدراك لا يراها . فقوله " عَلَى الَّـــذِينَ لا يَعْقِلُـــونَ " أي لا يستعملون عقولهم بالنظر في الحجج والبراهين والآيات أو لا يعقلون دلائله وأحكامه لمـــا على قلوبهم من الطبع فلا يحصل لهم الهداية التي عبر عنها بالإذن فيبقون مغمورين بقبائح الكفر والضلال , أو مقهورين بالعذاب والنكال [3] . والتعدية بـــ " على " دالـــة علـــى ذلك .

1- المفردات في غريب القرآن: 195
2- نظم الدرر في تناسب الآيات والسورة : 491/3 بتصرف
3- تفسير أبي السعود : 275/3

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي التعبير عنهم بـــ " الذين " دلالة على أنهم معروفون لا خفاء فيهم , وهذا ما قدم له سياق السورة من قصص لأمم كثرت عليهم الآيات فلم يعقلوا , ورأوا الآيـــات عياناً فلم يؤمنوا فطبع على قلوبهم ومن طبع على قلبه علم أنه لا يعقل لذا عبر عنهم بـــ " الذين " وجعل النفي بقوله " لا يعقلون " فليس لهم عقل الآن ولا يتجدد لهم البتة .

والموضع الثاني في قوله تعالى : " وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ" [1] وقـــد وردت لفظة العقل فا صلة أيضاً مخبرا بها لمن تكون الآيات الواضحة في شأن الأمم ومـــن الذي يعتبر بها . وقد وردت الآية تعقيباً لقصة قوم سيدنا لوط - عليه السلام -بعد أن أهلكهم الله جل وعلا . ولكن لم قال: " يعقلون " دون (يتذكرون) , أو يتفكرون أو غير ذلك .

حين ننظر إلى السياق العام لسورة العنكبوت نجد أن فيه مخاطبة للعقل من بدايـــة السورة بـــ " آلم " الذي فيه إشارة لأهل الفطنة والبصائر وسبقت القاعدة في ذلـــك [2] مروراً بالقصص والذي كان التركيز في العبرة فيها على العقل , وإنكار الله على من قال أن الكتاب من صنع محمد لأن ذلك ينافي مقتضى العقل حيث كان صلى الله عليه وسلم أمياً لا يقرأ و لا يكتب ؛ وانتهاءً بالاستدلال بالعقل في بيان قدرة الله تعـــالى في ختـــام السورة " وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ " لأنهم يجيبون بما يقتضيه العقل ولكنهم يجحـــدون " قُـــلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ " . ومما ورد في القصص مخاطباً فيه العقل قوله تعالى في قصة نوح عليه السلام " وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ " فإيراد القصة هنا فيه آية ودلالة للعـــالمين خاصة كما ذكرت الآية , وفي قصة إبراهيم- عليه السلام-كان خطابه لقومه خطاباً للعقـــل " إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً " , " فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الـــرِّزْقَ " , " أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ " , " قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَـــدَأَ الْخَلْقَ" فبيان عجز من اتخذوا من دون الله عن الرزق , وكون الرزق عنـــد الله خطـــاب للعقل فأيهما أحق بأن يكون رباً ؟ وفي قوله " أو لم يروا " وقوله " قُلْ سِيرُوا فِي الْـــأَرْضِ فَانْظُرُوا " حض لاستعمال العقل للاسترشاد به إلى الحق .

1- العنكبوت :35

2- ينظر البحث ص: 120

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي قصة لوط عليه السلام والتي وردت الآية ختاماً تعقيباً للقصة فيها دلالة واضـــحة على أن فاصلة الخاتمة لا يمكن أن تكون إلا " يعقلون " وذلك لأمور في القصة وأخرى في نظم الآية فسياق القصة يحكي عن جرائم قوم لوط والتي يأباها العقل ولا يفعلها إلا مـــن لاعقل له ولذا وصفها بـــ " الفاحشة " و الفاحشة شيء مستقبح لا يفعله البتة ذو عقل و لا تطلق الفاحشة على الجرم إلا إذا عظم قبحه من الأفعال والأقوال [1] , وهذا ما لا يمكن أن يقبله عقل عاقل فهو إذن مخالف لمقتضى العقل أصلاً . ثم قال " مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ " نفى كون أحد من الناس قد سبقهم إليها وورد النفي بقوله " ما سبقكم " وذلك لبيان امتداد الزمن في أنه لم يسبقهم أبداً أحد إلى ذلك فكأنهم فعلوا هذا مـــن دون غيرهم , وهذا يؤكد أن العقل يرفضها تماماً ثم بين كثرة جرائمهم بادئاً بأعظمها منكراً لها مؤكداً إنكاره للدلالة على قبحها ومخالفتها للعقل والفطرة السليمة " أَئِنَّكُمْ لَتَـــأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ " , " وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ " مستعملا لفظـــة " تـــأتون " والتي تدل أنهم كانوا يفعلون هذا المنكر بسهولة حيث لا رادع لهم من عقل أو غيره عن فعل هذه المنكرات والفواحش وهذا أدخل أن يكون هلاكهم" آيـــة " لقـــوم يعقلـــون فمنكرهم لا يقبله العقل ولا يحتاج الإنسان إلى طول تفكر في سبب إهلاكهـــم وفحـــش جرمهم فمن عقل يدرك ذلك دون حاجة إلى التعمق أو الغوص في ذلك .,, فلا بـــد وأن يكون هلاكهم متفرداً بهم , وأن يكون ظاهراً للعقل مكشوفاً .

وقد قال الله في شأنهم ﴿ **وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَـــلا تَعْقِلُـــونَ** ﴾[2] وذلك لأن علامات هلاكهم ظاهرة للعيان حيث لم يبق من مـــساكنهم إلا دلائـــل الهلاك التي كانت عبرة واضحة أما بقية مساكنهم فقد طمرت تماماً و لم يبق إلا آثار الهلاك فـــقط . كما أن قصتهم كانت مشتهرة بين الناس وقد عرفها العرب حتى قبـــل رســـالة سيدنا محمد ـــصلى الله عليه وسلمـــ وكانوا يشيرون إلى بقايا مساكنهم وما ترك منـــها للعظة والعبرة وهم يعلمون أنهم أهلكوا فليس أمرهم خافياً على أحد وكون هلاكهم كان مكشوفاً فهو ملائم ليدركه العقل .

1- المفردات في غريب القرآن : 376

2- الصافات: 138

وفي السياق البعدي أيضاً خطاب للعقل في عاقبة المخالفين "قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ " حيث وضحت هلاكهم وعقوبتهم للعقل فأنى له الإعراض ؟ وخطاب للعقل بضرب الأمثال التي تقرب المعاني للأفهام لكي يدركها العقل , وذكر السياق صراحة أن هذه الأمثال تحتاج إلى عقل " وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ " و لا يكون ذلك إلا لمن له علم وإدراك وفهم .

وفي نظم الآية قال تعالى : " وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ " تأكيد بأن فيها آية بالرغم من أن المخاطب لا ينكر أن فيها آية بل تعارف الناس على أن هذا المكان كان فيه أناس أهلكهم الله بفعلهم ولكنه أوردها بالتأكيد لإنزال غير منكر مترلة المنكر لها لأن فعلهم فعل المنكر و هذا أدخل في ذمهم وأكثر ملاءمة للفظة العقل حيث ظهر لهم الحق و فعلوا خلافه وقال " تركنا منها " و لم يرد النظم (تركنا فيها) أو(تركناها) كما ورد في سورة القمر في شأن سفينة نوح " وَلَقَدْ تركناها آية " ففي تعبيره بـ " تركنا " دلالة على أنه ترك قصداً واختياراً وأن ما ترك منها بقي على حاله حيث ترك دون تغيير وتبديل لقصد أن تكون آية .وفي قوله تركنا منها زيادة فضل على أن يكون النظم على تركنا فيها أو تركناها من وجهين :

أولاً : أن فيه بيان لشدة الهلاك الذي وقع بها حيث لم يبق من سائر قراهم إلا بقايا يعبر عنها بالبعض.

ثانياً : أن فيه تخير للموضع الذي ترك منها فلم يبق مكشوفاً للعيان سوى موضع العبرة وآثار العذاب وهذا لا يدل عليه النظم لو كان بـ " فيها " حيث يعني هنا أن من جملة ما ترك العبرة وقد يكون في اكتشاف هذه العبرة خفاء لأنك تبحث عن موضع العبرة من جملة ما ترك , كما إن قول " فيها" يوحي بأنه في داخلها وقد يكون خفياً . أما تركناها فترك القرى بجملتها وكما هي أيضاً لا تكون فيه الآية بينة .

كما إن إفراده " للآية " يلائم (منها) , لأن الآية بعض من الآيات و لا يكون ذلك مع " فيها " أو تركناها فالملائم لها آيات . وقد تكون " من " لابتداء الغاية فجعل معها آية تلتها آيات وعبر على طول الزمان , وقد تكون للتبعيض حيث إنه ما يزال منها بعض آيات كافية للعقل أن يعتبر بها كبقايا قريتهم مغمورة بماء بحيرة لوط تلوح من تحت

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المياه شواهدا للقرية , وبقايا لون الكبريت والمعادن التي رجمت بها قريتهم وفي ذلك عـــدة أدلة باختلاف مدارك المستدلين والتبعيض عندي أرجح من الابتداء لأنه عبر بقوله " آيـــة بينة " بالإفراد الذي يدلنا على اختصاص شيء واضح من هذه القصـــة ليكون عـــبرة و فتح للعقل لأن يدرك ما حصل فإذا كانت هذه آية واحدة فكيف بما حصل من آيـــات حين هلاكها . وفي قوله " بينة " زيادة توضيح فعلى أنها " آية " يتركـــز عليهـــا النظـــر للاعتبار فيها فهي أيضاً " بينة " واضحة مكشوفة للعيان وهذا ملائم لأن يدركها العقـــل دون تفكر وتعمق وخص بها " لقوم يعقلون " فجر بحرف الملكية فمن يدركها لا بـــد أن يكون ذا عقل وقال " لقوم يعقلون " و لم يقل للعاقلين أو للذين يعقلون وذلك لأن لزيادة كلمة قوم مدلول اطرد في كل نظم القرآن فيعبر بها عن أنه من قوام حياتهم كذا وهنـــا لا يدرك هذه الآية البينة إلا من كان من مقوماتهم الأساسية التي إن فقدت منهم فقدوا أساس حياتهم , فيدرك هذه البينة من كان العقل عموداً في حياته وفيها مدلول أن من يدرك هذه البينة جماعة بعضهم من بعض لا فرد واحد ,وحين يدرك " الآية البينة " , جماعة ولا يتفرد بها واحد منهم دلالة على أنها مكشوفة يتفق عليها ونكر " قوم " , فأي جماعة يكون من أسسها ومقوماتها العقل تدرك هذه الآية و لا يختص ذلك بقوم دون قوم . وقد يكون في قوله " قوم " دلالة أخرى حيث إنها تطلق على الرجال دون النساء وهم الـــذين فـــيهم القوامة وفي الواقع كان من يمر بها في طريق التجارة هم الرجال فإن كان هؤلاء الرجـــال مقومهم العقل تدبروا ونفعوا أهلهم . ويكون في استعمال كلمة قوم مطابقة لواقع من يمر بها .ونلاحظ التدرج في سياق القصص في الوضوح وفي مخاطبة العقل ففي قصة نوح عليه السلام قال " وجعلناها آية " وهنا قال " آية بينة " لأن الإنجاء بالسفينة أمر يتسع له كـــل عقل وقد يقع في وهم جاهل أن الإنجاء بالسفينة لا يضطر إلى أمر آخر كما إن السفينة قد بليت ألواحها وحديدها أو بقي منها ما لا يظهر إلا بعد تفتيش إن كان [1] .

وأما الآية هنا الخسف وجعل ديار معمورة عاليها سافلها وهو ليس بمعتاد وإنمـــا ذلك بإرادة قادر يخصها بمكان دون مكان وفي زمان دون زمان , فهي بينة لا يمكن لجاهل أن يقول هذا أمر يكون .

1- التحرير والتنوير : 167/20

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والموضع الثالث في قوله تعالى : "وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ " حيث قال تعالى " يعقلها " فوردت العقل دون غيرها في إدراك الغاية من الأمثال وذلك لأن الأمثال هي الطريق إلى المعاني المحتجبة في الأستار قال عبد القاهر الجرجاني : " واعلم أن مما اتفق العقلاء – أي الذين يعتد بهم الكاملون في العقل – عليه أن " التمثيل " إذا جاء في أعقاب المعاني , أو برزت هي باختصار في معرضه ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته , كساها أبهة , وكسبها منقبة , ورفع من أقدارها , وشب من نارها , وضاعف قواها في تحريك النفوس لها , ودعا القلوب إليها , واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفاً , وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفاً [1] . فإذا كان ذلك أثر التمثيل فهو ملائم للعقل وسياق سورة العنكبوت عموماً في خطاب العقل كما تقدم في قوله تعالى : " وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ " ومن الملاحظ أيضاً أن في السورة تدرج في مخاطبة العقل ووضوح العبرة من الإبهام إلى الظهور كالشيء الملموس فحين ذكر قصة نوح عليه السلام قال : " وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ " ثم قال في قصة قوم لوط " آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ " حيث زاد الوضوح فيها ثم قال تعالى : " مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ " فزاد إيضاح العبرة هنا بضرب المثل فكلما زاد الوضوح كان ذلك أدعى لمخاطبة العقل وأدخل أن يكون العقل هو من يدركها لذا قال تعالى : " وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ " فقال " الأمثال " و لم يقل التشبيه حيث إن المثل أوضح من الشبه فهو أعم والتمثيل أخص والتمثيل يتميز بخطاب العقل ووجه الشبه فيه عقلي لا يتوصل إليه إلا بتأول سواء كان صورة واحدة عقلية كما يرى الإمام عبد القاهر [2] أو من عدة صور , كما ذهب السكاكي [3] أو مركباً من صور حسية وعقلية كما ذهب الخطيب والبيانيون من بعده [4]

1- أسرار البلاغة : عبدالقاهر الجرجاني,ت:محمود شاكر,القاهرة ,مطبعة العاني,ط1, 1412هـ-1991م:115

2-السابق : 95

3- مفتاح العلوم :أبو يعقوب السكاكي,بيروت,دار الكتب العلمية :148

4- الإيضاح في علوم البلاغة :الخطيب القزويني, ت:محمد عبد القادر الفاضلي,صيدا,المكتبة العصرية,ط1, 1422هـ-2002م: 243

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فعلى كل هذه الآراء لا بد من إعمال العقل فيه للوصول إليه , وخص المثل دون غـيره وخاصة في مثل سياق هذه الآية لأن نظم الآية خصص أنه "مَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ " أي لا يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون في العلم المتضلعون فيه , قال الإمام أحمد حدثنا إسحاق بن عيسى حدثني ابن لهيعة عن أبي قيل عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : "عقلت عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ألف مثل , وهذه منقبة عظيمة لعمرو بن العـاص رضي الله عنه حيث يقول تعالى : "وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَـالِمُونَ" وقال ابن أبي حاتم عن عمرو بن مرة قال :ما مررت بآية من كتـاب الله لا أعرفهـا إلا أحزنني لأني سمعت الله تعالى يقـول : "وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَـا يَعْقِلُهَـا إِلَّـا الْعَالِمُونَ". [1] ولذا خص الله الأمثال لأن فيها زيادة فضل على التشبيه وخص كذلك من يعقلها فالأمثال خفية من جانب تحتاج علماً وظاهرة من جانب آخر يـستطيع إدراكهـا العقل ، أو كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية : غالب الأمثال المضروبة ، والأقيسـة إنمـا يكون الخفي منها إحدى القضيتين ، وأما الأخرى فجلية معلومة ، فضارب المثل وناصب القياس إنما يحتاج أن يبين لك القضية الخفية ، فيعلم بذلك المقصود لما قارها في العقل من القضية السلبية ، والجلية هي الكبرى التي هي أعم ، فإن الشيء كلما كان أعـم كـان أعرف في العقل لكثرة مرور مفرداته في العقل[2] ، ولذا قصر إدراكها قصراً حقيقياً علـى "العالمون" باسم الفاعل الدال على الثبوت ولا يقال للعالم عالماً إلا إذا كان هناك معلوم[3]. فمعلومه الموجود هو الذي جعله يدرك الأمثال لأنه قاس المعلوم لديه سابقاً بما ضرب لـه المثل لاحقاً فأدرك المناسبة ووجه الشبه بينهما . وقد لاءم ذلك النظم حيث اطـرد مـع ورود الأمثال قوله "نضربها" فالضرب يأتي دائماً مع المثل سواءً كان أصله مـأخوذاً مـن الضرب في الأرض ، أو من نصب الشيء وإشهاره ، أو من صنع الشيء أو إنـشائه ، أو من بقاء الشيء على مثال آخر فالجامع بينها كلها ظهور الأثر ووضوحه ، أيضاً و بقـاء أثره وهذا يلائم الأمثال ويلائم أيضاً إدراك العقول لها ..

1- تفسير القرآن العظيم : 399/3

2- التفسير الكامل :ابن تيمية ,ت:أبي سعيد العمروي,ط1, 1423هـ-2002م : 48/1

3- الفروق اللغوية : 102

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وورود الأمثال بالجمع دلالة على أن الأمثال في القرآن عامة تضرب لإفهام الناس حقـــائق الأمور ويلائم هذا العموم قوله "للناس" وإشارته بـــ"تلك" للبعيد فليس المقـــصود مثـــل العنكبوت فقط بل الأمثال في القرآن الكريم ، وفي الإشارة بتلك أيضاً دلالة علـــى بُعـــد مرادها وأنه ليس مقصودها فقط الصورة المحسوسة بل المقصود ما تنطوي عليه من معـــانٍ خفية يتوصل إليها العالم . ولذا ورد النظم هنا بالقصر و لم يقل يعقلها العالمون بـــل قـــال "وما يعقلها إلا العالمون" ينفي أن يستطيع إدراكها حق الإدراك إلا من علم حقائق الأمور وهذا ملائم للسياق الذي وردت فيه وهو سياق الوحدانية وعدم الإشراك بالله ، فالعـــالم لديه يقين واليقين يهدي إلى توحيد الله -جل وعلا- و لم يقل المتقـــون أو المؤمنـــون لأن الهادي إلى الصواب هنا هو العلم الذي يهدي إلى القياس الصحيح .

وقد ورد النظم في سورة الحشر ﴿**وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ (1) لأن ما ذكر فيها ليس فيه صورة حسية يقاس عليها ، فما ذكر حقائق ولكنها تحتاج إلى تفكر وطول نظر فالقضية معنوية لا تشاهد من بداية السورة في مقارنتها بين المسلمين من جهة وبين المنافقين واليهود من جهة أخرى، والأمثال كانت في المقارنة بين معاني ومعاني يظهر ميزة بعضها على الآخر بالتفكر فيها لا بعلم مسبق بأمور مشاهدة ..

وفي سورة إبراهيم قال تعالى : ﴿**وَيَضْـــــرِبُ اللَّـــهُ الْأَمْثَـــالَ لِلنَّـــاسِ لَعَلَّهُـــمْ يَتَذَكَّرُونَ**﴾ (2) ، برجاء التذكر لأن النظم كان في سياق شهادة التوحيد والحديث سابقاً كان في شأن المؤمنين وعاقبتهم فهم أهل التذكر، والشهادة أيضاً مجال التذكر فلا بـــد أن تكون ماثلة أمام الناس ذاكرين لها دوماً .

1- الحشـــر : 21
2- إبراهيـــم : 25

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أما الموضع الرابع والأخير في ورود العقل في الختام القصصي فهو ما ورد في ختام قصة قوم لوط في قوله تعالى : ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وبالليل أفلا تعقلون﴾ [1]

حيث وردت الفاصلة بـــ "أفلا تعقلون" بالاستفهام الإنكاري والذي يوبخهم على عدم إعمالهم عقولهم للاتعاظ بما حل بالأمم السابقة. والسياق القبلي يقرر هذه النقطة في نظمها حيث أورد قصص الأمم وبين هلاكهم وما حل بهم من العذاب فمن أهلكهم ليس بعاجز عن إهلاك مكذبي العرب .

وفي نظم الآية ما يؤيد قرار "العقل" في نظمها حيث كان حالهم مكشوفا ظاهرا أمام أعينهم فهم يمرون صباح مساء عليهم ، ونلاحظ أن الآية وردت بالتوكيد "وإنكم لتمرون ..." وهذا ملائم لأن تكون الفاصلة "أفلا تعقلون" حيث أنزلهم مترلة المنكر وهم ليسوا منكرين ، وهذا أبلغ من أن يخاطبهم بدون التوكيد لأن في ذلك تعريض بهم أنهم علموا ولكن لم يعملوا ، وقد يترل مترلة المنكر من لا يكون إياه إذا رأوا عليه شيئاً من ملابس الأفكار[2] ، وذلك لتماديه في الغفلة والإعراض، لأنه لما كانت الأدلة ظاهرة كان جديراً بأن لا ينكر بل إما أن يعترف به أو يتردد فيه ، فترل المخاطبون مترلة المترددين تنبيها لهم على ظهور أدلته ، وحثاً على النظر فيها[3] ، وهذا يلائم أن تكون الفاصلة في التوبيخ والإنكار على عدم إعمال العقل لظهور الأدلة ، ومع ذلك فعل العرب من قريش ينافي ذلك حيث كذبوا محمدا ـ ﷺ ـ ففعلهم فعل المنكر ، فعلى الرغم من ظهور آثار إهلاك قوم لوط لهم إلا أنهم لم يعتبروا .

كما أكد النظم على ظهور العبرة لهم فقد ذكر أولاً قصة قوم لوط خاصة لأنها أكثر ما كان تمر بها قريش في سفرهم حيث قال "تمرون" و لم يقل "مررتم" لأن مرورهم متجدد آنا بعد آن وكان مقتضى العقل أن يعتبروا ولكن لا عقول لهم ،

1- الصافات : 137

2- مفتاح العلوم : 75

3-الإيضاح في علوم البلاغة:40

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال "عليهم" و لم يقل "عليها" لأن العبرة ليست في الديار بل بفناء من كان يسكن الديار ، فالديار لا تزال باقية ولكن أين ذهب ساكنوها ؟ ومرورهم "مصبحين وبالليل" أي في كل أوقات الزمان ، وهذا أدعى إلى الاتعاظ بحالهم وعبر باسم الفاعل في "مصبحين" وذلك لأن كثرة مرورهم بالصباح ، كما إن العبرة بالمشاهدة والرؤية تكون واضحة في الصباح أكثر من الليل . لذا أنكر عليهم عدم إعمالهم عقولهم ليروا الصواب ويتوصلوا للهداية ، لذا نلاحظ أن العقل هنا هو الملائم للنظم والسياق دون غيره من الألباب التي تستدعي أن يكون ما يتفكر فيه دقيقاً أو الأحلام أو النهى التي تنهى عن القبائح وتملي على الإنسان التأني فليس هذا موضع تدق فيه كما دق العقل .

ونلاحظ ورود العقل في المواضع الثلاثة السابقة ، لكنه عدل عنه إلى اللب لما كان النظم يتحدث عن قصص فيها عمق وحاجة إلى الفهم الدقيق لإدراكها وذلك في قوله تعالى ﴿**كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾ [(1)].

وورود الألباب ملائم " للسياق " الذي تحدث عن قصة سيدنا داوود - عليه السلام- حيث أورد السياق أموراً من قصته تحتاج إلى فهم لا يدركه العقل المجرد بل لابد له من فهم دقيق للوصول إلى فهمها والاعتبار منها ومن ذلك الفتنة التي افتتن بها سيدنا داوود - عليه السلام- وهي فتنة لا يدرك الحكمة منها إلا من خصه الله بلب كامل ، ولا يخفى كيف كثر الكلام فيها و لم يدرك الصواب إلا قليل .

كما في التأكيد على شرف وعلو مكانة داوود - عليه السلام- والثناء عليه بالإنابة وبقربه منزلة عند الله ، وحسن مآبه كل ذلك لا يدرك فضله إلا أولو الألباب .

كما نلاحظ أن الموضعين اللذين دعا فيهما النظم في السورة للتفكر في القصص الواردة ناط فيهما الفهم والإدراك بأولي الألباب " لِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ "ذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ "[(2)] وذلك لخفاء العبرة فيهما على مجرد العقل بل لابد من التذكر والتأمل والذي لا يلائم إلا اللب .

وفي نظم الآية ذاتها ما يدل على قرار اللب كما قررها السياق ، حيث إن نظم الآية متعلق بالكتاب وتدبره وهذا لا يكون إلا باللب .

1- ص : 29   2 ينظر البحث ص : 110

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد وردت ألفاظ ترشح للب حيث خص بالذكر " الكتاب " دون القــرآن وفي ذلك ملاءمة لأولي الألباب بعد ذلك لأن إيراد الكتاب " يدل على أن المقصود فهم ما فيه من الشرائع وتعلمها وإدراكها وهذا لا يكون إلا من " أولو الألباب " ونلاحظ الارتباط في موضع آل عمران حين قدم الكتاب وناط التذكر بأولي الألباب وإن اختلف الــسياق كما سنرى[1] .

كما خص "التدبر" والتدبر فهم عميــق وإدراك لأســرار الــنظم لا يكــون إلا باللب ؛ لذا وردت صياغة الفعل بالمضارعة الدالة على تجدد هذا التدبر وهو لا يكون إلا من ذي لب . كما نلاحظ الإدغام في " ليدّبروا " وفيه دلالة على سرعة زمن هذا الفهــم والتدبر ، وهذا أيضاً ملائم لأولي الألباب .

كما إن التذكر أيضاً منوط بأولى الألباب وأصحاب العقول الراسخة الكاملة لذا أورد النظم الألباب و لم يورد العقل وإن كان السياق العام الذي يجمعها الختام القصصي .

---

1 _ينظر البحث ص : 238

***

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المبحث الخامس : سياق اليوم الآخر

الآيات الواردة في المبحث :

1- ﴿ رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ النور:37

2- ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ غافر:18

3- ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ النازعـــات:8

4- ﴿ وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ ســبأ:23

5- ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ قّ:33

6- ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ إبراهيم:43

7- ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ قّ:37

8- ﴿ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴾ الهمزة:7

9- ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلّاً كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ يّـــس:62

10- ﴿ هَذَا بَلاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ إبراهيم:52

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي سياق اليوم الآخر كان أكثر استعمال القرآن للفظة القلب سواء في سياق حال الناس في الموقف أو في سياق حال أهل النار في النار أوحال أهل الجنة في الجنة , وذلك لأن القلب عليه المعول في ذلك اليوم هذا أولاً . كما إن شدة هول الموقف والخوف الذي يكون فيه لا تظهر إلا إذا حرك القلب .

ففي سياق حال الناس في الموقف وردت القلب في جميع المواضع عدا موضع واحد وردت فيه لفظة الفؤاد لمناسبة السياق والمقام والمواضع في هذا السياق هي :

قوله تعالى : ﴿ **رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ** ﴾ (1) .

وقوله : ﴿ **وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ** ﴾ (2) .

وقوله : ﴿ **قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ** ﴾ (3) .

وقوله : ﴿ **وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ** ﴾ (4) .

وقوله : ﴿ **مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ** ﴾ (5) .

وقوله : ﴿ **مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ** ﴾ (6) .

فالموضع الأول في سياق بيان أحوال الناس على اختلافهم في الموقف في قوله تعالى : ﴿**رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ** ﴾ (7) . وردت لفظة القلب دون الفؤاد على الرغم من أن المعنى فيه خوف واضطراب وتقلب وتحول واستعمال القرآن للفظة القلب اطرد على

1- النور :37
2- غافر :18
3- النازعات:8
4- سبأ :23
5- ق:33
6- إبراهيم:43
7- النور:37

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الثبات والتمكن فكيف استعملت هنا بمعنى الاضطراب بل صرح فيها بمعنى التقلب ؟ ذلك لأن الحديث سابقاً كان عن أحوال في الحياة الدنيا أما في الآية فالحديث عن زمن غير زمن الدنيا , وأحداث غير أحداث الدنيا , الكلام عن ﴿ **يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ** ﴾ [1] فإذا كانت السماوات والأرض بدلت فكيف بحال القلب هل يثبت أمام هذه الأهوال أياً كان يقينه وإيمانه وثبات عقيدته؟ يدلنا على ذلك موقف الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه في الشفاعة في ذلك اليوم وترددهم وخوفهم وهم المصطفين الأخيار فكيف بمن سواهم ؟ والسياق القبلي والبعدي يؤيد استعمال القلب هنا في التقلب فما حدث غير عادي وغير مألوف وكذلك نظم الآية يؤكد قرار استعمال لفظة القلب دون غيرها في معنى الاضطراب والتقلب من هول يوم القيامة.

فالسياق القبلي ذكر من أحداث وأهوال هذا اليوم " يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ " فكيف تبدل حال الألسنة والأيدي و الأرجل بعد أن كانت مجندة لابن آدم لا تخالفه ما يأمرها ولكن في الموقف العظيم يتبدل حالها وتشهد ضده ولا تخفى ما كانت تخفيه في الدنيا هذا وجه , ومن وجه آخر كيف تبدلت إلى ناطقة و لم تكن تنطق فكيف بحال القلب إن كان هذا حال جنوده فقد تخلفت عنه. وإذا انهزم الجند وانقلب حالهم فأي ثبات لحال ملكها – القلب ؟ وورد أيضاً قوله تعالى : " يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ " فبعد أن كانت الحقائق غائبة أو متناساه هاهي ظاهرة أمام العيان أفلا يكون لذلك هز للجبال فكيف بالقلوب ؟

وفي السياق البعدي : " لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا " فالله يعد المؤمنين بحسن الجزاء ومع ذلك هم يخافون هذا اليوم فالأمر إذن عظيم ينخلع له القلب وفي التصريح بأن المصير لله _عز وجل_ وهو ملك السماوات والأرض _سبحانه _تربية للخوف من هذا المصير . كما أن في السياق بيان قدرة الله على تقليب الليل والنهار أفلا تكون أهوال يوم حسابه لمن خلق حرية بأن تقلب القلوب والأبصار؟

1- إبراهيم :48

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي نظم الآية ما يدل على أن القلوب في مكانها وقرارها حيث بدأت بقوله : " رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ " فكان الوصف لقـــوم مؤمنين موقنين بالله لا يصرفهم شيء عن ذكر الله حتى ولو كان المال الذي أخبر تعالى أن حبه غريزة في الإنسان " وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً " فأي قلوب يملكها هؤلاء والتي وقفت من أجل الله أمام فطر ثابتة. وتدرج تعالى في ذكر التجارة ثم البيـــع فقـــد لا يكـــون في التجارة ربح بل قد يكون فيها خسران لكن التصريح بالبيع دلالة على ربحها , ومع ذلك فهي لا تلهيهم عن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وأورد ذلك بالمصدر دلالة دوام ثباتهم على الصلاة والزكاة ومع ذلك يتصفون بالخوف الدائم المستمر المتجدد من يوم تتقلـــب فيـــه القلوب و الأبصار فاليوم إذن عظيم وهوله عظيم فإذا كان من حالهم الالتزام بـــذكر الله وقلوبهم مطمئنة بذكره " يخافون " بالمضارعة خوفاً مستمراً فالحال إذن غير الحال والزمان غير الزمان , وقال " يخافون " , و لم يقل يخشون لأن في الخوف توقع مكروه وانتظاره [1] ولأن في الخوف تعلقاً بآثار المخوف منه بخلاف الخشية فتكون من عظم المخـــشـــي في ذاتـــه [2]وقال: "يوم" بالتنكير الدال على العظمة وكذلك الإبهام فهـــذا اليـــوم مبـــهم موعـــده , مبهمة أهواله , مبهم المصير فيه تسأل الله الثبات ثم قال " تتقلب " بتائين و لم يقل " تقلب " وذلك لأن زمن تقلبها أطول [3] وهذا البناء أيضاً ـ أدل علـــى الحركـــة والاضطراب الشديدين. إذ يومئ إلى أن ذلك فعلها الملازم لها الذاتي فيها لأن اليوم الذي تتقلب فيه القلوب " كألف سنة " والزمن لم يعد محسوباً لأن المهلة انقضت فتقلبها طويل أمده , أيضاً فيه دلالة على شدة التقلب وعدم الاستقرار . وتقلب القلوب والأبصار إمـــا أن تتقلـــب وتتغير في أنفســـها : وهو أن تضطـــرب من الهول والفـــزع وتشخـــص

1- المفردات في غريب القرآن: 166
2-الفروق اللغوية:270
2- بلاغة الكلمة في التعبير القرآني : د.فاضل السامرائي,عمان ,دار عمار,ط3, 1426هـ-2005م :11

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كقوله : ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ﴾ (1) وإما أن تتقلب أحوالها وتتغير فتفقه القلوب بعد أن كانت مطبوعاً عليها لا تفقه وتبصر الأبصار بعد أن كانت عميا لا تبصر (2) . قاله الزمخشري وقد وافقه ابن عطية في الأول وزاد على ذلك أن ذلك اليوم – لشدة هوله ومطلعه – القلوب والأبصار فيه مضطربة قلقلة متقلبة من طمع في النجاة إلى طمع , ومن حذر هلاك إلى حذر , ومن نظر في هول إلى النظر في آخر وناسب هذا التلون في التقلب من طمع إلى حذر والتدرج فيه من طمع إلى طمع هول الحدث الذي خلع القلوب من مكانها وقلبها . وخالف ابن عطية الزمخشري في القول الثاني ووافقه في هذه المخالفة أبو حيان(3) في أن يكون المعنى :أن تفقه القلوب بعد أن كانت مطبوعاً عليها لا تفقه . وأوافقهما في هذه المخالفة فقول الزمخشري الثاني بعيد , إذ إن ذلك لا يكون مع المؤمنين فلم يكونوا في الدنيا على خلاف المعتقد , بل هذا المعنى يكون في سياق الكافر وحده فهو الذي يتغير حاله وتتبدل صفته من جهل إلى علم وهكذا ... والسياق هنا في خاصة الخاصة فالغفلة في شأنهم تكون غفلة عمل لا عقيدة . والعرب تستعمل مثل هذا المعنى في الخوف ومنه قول الشاعر :

بل كان قلبك في جناحي طائر (4)

والفرق بين تعبير القرآن عن شدة الخوف وتعبير الشاعر الذي يمثل استعمال العرب فبالإضافة إلى دقة البناء ودقة التصوير الظاهر فقد لا حظنا كيف تساوق السياق القبلي في التعبيرعن الخوف ممهداً للنظم ثم يأتي النظم وكل لفظة فيه -كما بينت سابقاً -قد رسخت حتى سلمت لنا المعنى تسليماً ثم عقب لها السياق البعدي بما يؤكد قرار المعاني وقرار الألفاظ حتى كأن النظم نسج واحد كل عقدة فيه تؤدي إلى الأخرى بعضه من بعض ،

1- الأحزاب : 10

2- الكشاف : 308/4

3- المحرر الوجيز : 517/10 , 518

4- البحر المحيط :25/4

5-مطلع البيت:هلا برزت إلى غزالة في الوغى .....بل كان قلبك في جناحي طائر.قائله:غزالة وقاله هاجيا للحجاج:الحماسة البصرية : صدر الدين البصري،ت: مختار الدين أحمد ، بيروت ، عالم الكتب ، 1403هـ - 1983م :70/1 .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

في حين أن تعبير الشاعر عن الخوف لم يتجاوز هذا المعنى الذي ذكره ولو قرأنا القـــصيدة كاملة ما ورد قبل هذا البيت , وما عقبه لن نجد البتة الترشيح أو التعقيب الذي رأينـــا في القرآن بل نجد أن المعنى وقف فقط على البيت المذكور وللمتأمل أن يتأمل . والقلب هنـــا في موضعه ولا يؤدي مؤداه الفؤاد , لأنه مضطرب أصلا فلا يمكن أن يصور لنـــا تقلـــب الفؤاد هول الحدث كما يصوره لنا الذي كان ثابتاً , والثبات صفة فيه لكن هناك ما قلبه وهزه .

وقد ورد في القرآن نظم مشابه ذكر فيه تقلب الأفئدة في قوله تعـــالى : ﴿ **وَنُقَلِّـــبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ** ﴾ (1) ودقة كل لفظة في مكانها بينـــه ؛ فالموضع الأول السياق في هول يوم القيامة , أما الثاني فالسياق في عدم ثبات الكفار على مبدأ أو دعوى أو قول قال تعالى : ﴿ **وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَـــاءَتْهُمْ آيَـــةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُـــونَ** ﴾ (2) , كما ورد في السياق البعدي الأفئدة : ﴿ **وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْـــآخِرَةِ وليرضوه وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ** ﴾(3) ثم وصفهم بالجهل والافتراء : " فَذَرْهُمْ وَمَـــا يَفْتَرُونَ " (4) . وكل ذلك نابع عن أفئدة .

وفي جمع " القلوب " ملاءمة لتصوير هول الحدث فانقلاب القلوب عام وليس خاصاً بقلب دون قلب ؛ ولذا عرفت (بأل) وقد تكون للجنس فكل القلوب متقلبة خائفة دون تمييز , وقد يكون للعهد ولذلك أيضاً وجه لطيف , فإنه إذا تقلبت قلوب هؤلاء الآمـــنين المخلصين فكيف بغيرهم ؟ ثم فيه من تمام النعمة عليهم ما فيه ؛ لأنـــه إذا كـــــــان عاقبتهم " لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا " بعد هذا الخوف الشديد كان ذلك أتم للنعمة وأكمل وأدل على لطف الله بهم وإنعامه عليهم . وقد عطف الأبصار على القلوب , لأنها كانت أدوات للإدراك لها – القلوب – في الدنيا فتقلبت معها.

1- الأنعام :110
2- الأنعام:109
3- الأنعام:113
4_ الأنعام:112

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فلفظة القلب دقيقة في استعمالها في التقلب في هذا النظم دون الفؤاد حيث تقلبت وأساسها الثبات , وأيد قرار اللفظة في مكانها النظم الذي أخبر بدءاً عن تتريه من يخاف هذا اليوم عن اللهو وعقب تأمينهم لحسن الجزاء ومع ذلك فلا بد من هزة أهوال ذلك اليوم , وساعد في دقة اللفظة نسب الفعل للقلوب , وورود الفعل بتائين وجمع القلوب والأبصار وتعريفهما .

وفي قوله تعالى : ﴿ **وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ** ﴾ أيضاً وردت لفظة القلب وذلك لأن انخلاع القلوب وتغير مكانها أدل على هول الحدث من انخلاع الأفئدة فالأفئدة يعرف عنها الاضطراب ولكن القلوب ثابتة لا يحركها إلا هول عظيم وحدث معجز .

والسياق القبلي يؤكد هذه العظمة التي تنخلع من أجلها القلوب حيث صدرت السورة بصفات الله -جل جلاله- وكان منها خاصة شديد العقاب وهذه الصفة من القوة بحيث يضطرب لها القلب أياً كان ثباته وكذلك في قوله تعالى " ذي الطول" فهي صفات قوة يخاف الإنسان عند سماعها , ثم ذكر بعد ذلك في شأن الكافرين " وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ " فإذا كان تساءل عن عقاب الدنيا كيف كان ؟فكيف بعقاب الآخرة وأهوالها ؟

ثم بدأ النظم يتدرج في التحذير من يوم القيامة فقال أولاً " لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ" فسمى يوم القيامة بالتلاقي وأياً كان معنى التلاقي من تلاقي العالمين بعضهم ببعض , أو تلاقي أهل السماء وأهل الأرض , أو تلاقي المرء بعمله , أو تلاقي الناس مع بارئهم فكلها ينخلع لهذا القلب وإن كان اللقاء بالله ومن ثم المواجهة بالعمل أعظم من غيرها في النهاية إلا أنها كلها تمثل خوفاً من كشف الحقائق أو الفضيحة بين الخلائق, والهلاك بعد ذلك فهذا يلائم أن يكون ما ينخلع شيء لم يعتد ذلك وذلك لأن الأحداث أيضاً لم تكن معتادة ولا تخطر على قلب بشر .

ثم ترقى وذكر بأن " الله سريع الحساب " حيث يوفي كل نفسٍ عملها ويحاسبهم كنفس واحدة حتى وإن تلاقوا جميعاً, وهذا يخلع القلب أيضاً حيث يكون إما هلاك سريع أو نجاة سريعة والمرء لا يعلم مصيره . ثم بعد ذلك صدر الآية بالإنذار والإنذار يكون في

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سياق التخويف وسمى القيامة " بالآزفة " أي القريبة والأزف: ضيق الوقت و خص هـذا الاسم هنا دون غيره لأن فيه معنى السرعة , وهذا يلائم السياق قبلاً " إن الله سريع الحساب " ويلائم ما ورد في السياق البعدي من حكاية اغترار فرعون بملكه وسلطانه , تنبيهاً على أن مثل ذلك زائل لا محالة لسرعة زوال الدنيا وسرعة وقوع الحدث , كما يلائم معنى الضيق فيه الضيق الوارد في الآية " كاظمين " و مما يدل على هول الحدث أيضاً وأنه ينخلع له القلب ويتبدل حاله قوله تعالى : " يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ " أي ظاهرون والبروز من الأرض الأرض الفضاء [1] الذي كل ما عليها ظاهر , وأكد هذا الظهور " لا يخفى على الله منهم شيء " فكيف بحال الإنسان وقد علم يقيناً أنه لا يخفى على الله منه شيء .

وفي السياق البعدي تأكيد على هذا الظهور والكشف أمام الله -جل وعلا- ملائم لتحريك القلوب " يعلم خائنة الأعين " ليس ذاك فحسب بل " وما تخفي الصدور " وقد اطرد في السورة تردد ذكر الجلالة " الله " خاصة وهذا مما يربي المهابة والخوف وكرر وصفه تعالى بـ " إنه قوي شديد العقاب " وتكرر التحذير من يوم الحساب وخص ذكره في قصة موسى عليه السلام مما وصف به موسى فرعون " وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ " كما أن ما ورد في السورة من أحداث ذلك اليوم يخلع القلوب من جعل القيد في الأعناق لا الأيدي والأرجل , ووصف جهنم " بالحميم " , " والنار " فحرارة في حرارة " يسجرون " والسجر تهييج النار [2] كما جمع أبواب جهنم " ادخلوا أبواب جهنم " وجعل الكافرين الظالمين " خالدين " فيها وجعل ذلك مما يوهن القلب ويزيد رعبها وخوفها .

وفي نظم الآية قال " وأنذرهم " والإنذار تخويف مع إعلام موضع المخافة [3] , وحين يحدد المنذر منه " يوم الآزفة " يعظم هذا الإنذار , ويزيد الخوف , وتسمية القيامة بـ " الآزفة " القريبة مما يخيف القلوب ويهزها ويحركها من مكانها , وكذلك : "ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون" وكأن في الساعة تلاؤماً مع الآزفة , إذ السياق كله في قرب الحدوث وسرعة الانقضاء .

1- المفردات في غريب القرآن:52

2- السابق : 230

3- الفروق اللغوية : 256

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كما في تأكيد وقوع الساعة " إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا " دليل على حصولها وقربها والمعنى الحالة الدانية العاجلة السريعة جداً مع الضيق في الوقت وسوء العيش لأكثر الناس , وهي القيامة كرر ذكرها وذكر الإنذار فيها تصريحاً وتلويحاً تهويلاً لها وتعظيماً لشأنها [1].وخص القلوب -هنا-دون الفؤاد لأن الموضع في أحوال يوم القيامة الذي يتبدل فيه كل شيء والذي تزول فيه الجبال والسماوات والأرض عن مكانها فكيف بقلب ابن آدم وهو أضعف منها , وحدد ذلك التحذير بحدث يكون فيه فقال : " إذ القلوب لدى الحناجر " أي حين ترتفع قلوبهم عن مقارها فتلصق بحناجرهم , فلاهي تخرج فيموتوا ولا ترجع إلى مواضعها فيتنفسوا ويتراجعوا [2] . ولا نستطيع هنا أن نقول أن ذلك مجازاً بل الصحيح أنها للحقيقة لأن الأصل في الشيء الحقيقة كما أن الآية واردة في شأن يوم القيامة وهو غيب لا يعلمه أحد فكيف نقول عنه مجازا ، ونحن لا نعلم أصلاً حقيقة الأمر بل هو غيب و لا يمنع أن يكون حقيقة لأن كل شيء يتغير في ذلك اليوم فلم لا تكون من ضمنها القلوب فتغير مكانها من شدة الهول ؟

أما في قوله تعالى في سورة الأحزاب " إِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ " فالسياق مختلف -كما سأعرض لذلك تفصيلا في أحوال المؤمنين - فالسياق في الدنيا في معركة الأحزاب والتي لشدتها خاف المؤمنون خوفاً شديداً فقد يجوز فيها القول بالتجوز لأنه شأن تعلم حقيقة وقوعه فهو مرئي في الدنيا . ودرجة الخوف مختلفة ولما كان هذا الرعب على وجه غريب باطن عبر بـ" لدى " [3] , كما أن استعمال لدى هنا يدل على أن الأمر حقيقة فلدى لا تكون ظرفاً للمعاني بل للأعيان خاصة [4] فعين القلوب تكون لدى الحناجر أي زالت عن أماكنها صاعدة من كثرة الرعب حتى كادت تخرج [5] . وفي جمع القلوب والحناجر وتعريفها " بأل " والتذييل بـ "مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ" فيه دلالة عموم ذلك واستغراقه لكل ظالم وكافر فالعموم هنا للمخاطبين وغيرهم فالإنذار في قوله "وأنذرهم". لا يختص به هؤلاء الكفار بل هو عام عموم الاستغراق في

1- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : 496/6
2- الكشاف : 338/5
3- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : 497/6
4- معاني النحو : 190/2
5-نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 497/6

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الظالمين ,وهذا العموم أدعى لتخويفهم وأدخل في الدلالة على شدة الخوف الملائم لحالهم ولا يعني العموم أنه عام لجميع الخلائق بل هناك من أمنهم الله **﴿من آمن بـــالله واليـــوم الآخر فلاخَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾**[1] "**سبـــعة يظلهم الله تحت ظله يوم لا ظـــل إلا ظـــله..** "[2]بل الخوف لمن ظلم نفسه وكفر . "ما للظالمين من حمـــيم ولا شـــفيع يطاع" زيادة في هول هذا اليوم فلا القريب يفيد من ظلم نفسه , أياً كان قربه منه وحبـــه له و لا شفيع يؤذن له فيطاع في الشفاعة عنه . وقال الفخر الرازي : إنه تعالى ذكـــر في هذه الآية جميع الأسباب الموجبة للخوف أولها : أنه سمي ذلك اليوم (الآزفة) لأنـــه إذا قرب زمان عقوبته كان في أقصى غايات الخوف , والثاني : قوله : "إذ القلـــوب لـــدى الحناجر" والمعنى أنه بلغ ذلك الخوف إلى أنه انقلع القلب من الصدر وارتفع إلى الحنجـــرة والتصق بها وصار مانعاً من دخول النفس , والثالث (كاظمين) والمعنى أنه لا يمكنـــهم أن ينطقوا وأن يشرحوا ما عندهم من الحزن والخـــوف , وذلـــك يوجـــب مزيـــد القلـــق والاضطراب والرابع قوله "مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ " فبين أنه لـــيس لهـــم قريب ينفعهم ,ولا شفيع يطاع فيهم فتقبل شفاعته.." [3] .

فكل هذا الخوف يؤكد أن استعمال القلب دون الفؤاد ملائم لهـــذا الحـــال وهـــذا الزمـــان .

وفي قوله تعالى : "قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ" [4] . وردت القلب أيضاً وذلك لأن وجيفها ــ خاصة ــ يبين عظمة الحدث دوناً عن الفؤاد المضطرب أصلاً .

وقد دل السياق القبلي على عظمة الأمر المسبب لاضطراب الثابت من الجوامد فكيف بقلب ابن آدم ، حيث بدأت الآيات بالقسم ، وإذا كان القسم من عظـــيم -ســـبحانه وتعالى- فالمقسم عليه أيضاً عظيم ، والقسم من الله ــ جل وعلا ــ يخلع القلوب كيـــف يقسم رب العزة وما يزال المكذبون يعارضون ويصدون ، كما أنه تعالى أقسم بمخلـــوق

1- المائدة:69

2-الحديث:صحيح مسلم:716/2 ,رقم الحديث:1031 .

3- التفسير الكبير : 505/9

4- النازعات : 8

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عظيم وهي الملائكة كما صوب ذلك ابن القيم[1]. وأقسم بصفات مخصوصة لها في نزعها للأنفس الخبيثة ، ونشطها للأنفس المؤمنة ، وسبحها ، وسبقها ، وتدبيرها للأمور .

ثم بعد ذلك بدأ بذكر ما اضطربت له القلوب فقال يـــوم "ترجـــف الراجفـــة" والرجف الاضطراب الشديد[2] ، وقال البغوي: يكون ذلك في الحركة والصوت الهائل " فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ "[3] ، الراجفة : قبل الواقعة التي ترجف عندها الأرض والجبال ، وقبـــل النفخة الأولى : وصفت بما يحدث بحدوثها "تتبعها الرادفة" أي الواقعة التي تردف الأولى، وهي النفخة الثانية، وقيل الراجفة الأرض والجبال، من قوله : "يَـــوْمَ تَرْجُـــفُ الْـــأَرْضُ وَالْجِبَالُ" ، والرادفة السماء والكواكب ، لأنها تنشق وتنثر كواكبها على أثر ذلـــك[4] ، ويظهرلي أن الحديث عن أهوال يوم القيامة فلا يمنع أن تكون المعاني كلها مرادة فكل ذلك حادث في ذلك اليوم . وكل ذلك مما تنخلع له القلوب فقد رجفت منه الجبـــال والأرض فما حال القلوب ؟والجناس بين ترجف والراجفة يوحي بشدة هذا الاضطراب حتى بلغت من شدة إرجافها للقلوب وجميع الأشياء الساكنة من الأرض والجبال إلى نزع النفوس ــ من جميع أهل الأرض ــ مبلغاً تستحق به أن توصف بالعراقة في الرجف [5] . أتبعها الثانية حالاً منها, دلالة على قربها قرباً معنوياً لتحقق الوقوع ولأن ذلك كله في حكم يوم واحد فصح مجيء الحال وإن بعد زمنه من زمن صاحبه[6] . ولذا عبر بالفعل "تتبـــع" وعطـــف عليها بحرف العطف .

1- الضوء المنير على التفسير :ابن قيم الجوزية , الرياض,مكتبة دار السلام : 213/6
2- المفردات في غريب القرآن : 196
3- تفسير البغوي:1379
4- الكشاف : 305/6
5- نظم الدررقي تناسب الآيات والسور : 311/8
6- السابق : 311/8

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي نظم الآية ما يؤيد استعمال القلوب لتصوير هول الحدث فـذكر "قلـوب" مجموعة ومنكرة فهي قلوب كثيرة ولكنها ليست كل قلوب الخلائق بل هي قلوب الظالمين وما أكثرهم حينئذ ويدلنا على النوعية قولهم بعد ذلك "تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ" والخـسران يكون للظالمين ، أما من آمن فهو في أمان . وتحديد الوقت "يومئذ" فيه تأكيد على علـة اضطرابها فالوقت عسير وقد سبق وصفه بصفات تؤكد هذا الخوف وذلك الاضطراب . ثم ذكر حالها "واجفة" بالاسمية دلالة على ثبات هذا الوصف لها يوم القيامـة ، فبعـد أن كان حال القلب في الدنيا قاراً في مكانه أصبحت صفته في أهوال يوم القيامة "واجفـة" وأصل الوجف سرعة السير[1] . فهو دال على سرعة حركة القلوب واضطرابها الـشديد حتى أصبحت تسير وتتحرك من مكانها وفي هذا الوصف سخرية بهم تلائم سياق السخرية في القسم وتلائم مجازاتهم على سخريتهم من حصول يوم القيامة ، ولو ذكر الفؤاد ما برز لنا أن الحدث غير عادي لأن في الأفئدة أصلاً اضطراب فإن زاد عن حده يوحي بالخوف الشديد ولكن ليس كما يدل عليه اضطراب القلب الذي كان من صفته الثبات فما الذي حركه ؟ لا بد أنه أمر عظيم كيف لا وهو يوم يبدل فيه الكون فالسماء غـير الـسماء والأرض غير الأرض ـــ نسأل الله الثبات ـــ ففي تبدل حال القلوب دلالة ظاهرة علـى هول يوم القيامة ففيها زيادة فضل في المعنى عن الفؤاد .

وفي السياق البعدي تأكيد لذلك حيث تبعها بقوله تعالى "أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ" فلمـا وصفها بالاضطراب ، وكان قد يخفى سببه لكونه قد يكون عند السرور العظيم كما قد يكون عند الوجل الشديد فأخبر عنه بما يحقق معناه فقال "أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ" ، أي ذليلـة ظاهر عليها الذل واضطراب القلوب من سوء الحال[2] ، لذا أضاف الأبصار للقلوب و لم يقل أبصارهم وإنما جعلها تابعة للقلوب ليدلل على أن الخشوع خشوع ذلـة وهـوان لا طاعة والتزام . وتكون كذلك لأنها كانت أداة لإدراك القلوب فذلت بـذلها وخـضعت بخضوعها ـــ والله أعلم ـــ .

ثم ذكر بعد ذلك سبحانه ما يقوي هذا الاضطراب من التهديد حيث قـال :

1- المفردات في غريب القرآن: 529 2- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : 310/8

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

"فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ" ، وأكد كونها واحدة وعلى الرغم من ذلك فهي كافية لأن يكونوا "بالساهرة" ، ثم وصف تعالى ذلك اليوم بوصف أقوى مما سبق وذلك ليخلع قلوب الطغاة المعرضين المتجبرين فقال "الطامة الكبرى" فهي مصيبة تطم وتعم, و لم يقف على ذلك بل قال "كبرى" يصفها سبحانه وهو أعلم بما يكون فيها ، فما حال من جهلها و لم يستعد لها . ثم بين حقيقة قد كانت غائبة عن ابن آدم "يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإنسان مَا سَعَى" فلشدة حصولها ينكشف الغطاء عن الإنسان و(يتذكر) بالمضارعة لاستمرار هذا التذكر وهذا يدل على أنه يتذكر كل ما كان .. ، ثم يأتي بعد ذلك المآل "وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى" فبعد أن كانت غيباً ها هي في ذلك اليوم بارزة ظاهرة . وأما من خاف هذا اليوم قبل رؤيته "فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى" ونرى أنه ذكر بروز النار دون تأكيد وفي ذلك إنزال للمنكر مترلة غير المنكر لظهور الدلائل على قيام القيامة و ذلك لما سبقها من الوعيد والأهوال يجعل رؤيتها مؤكدة ، ولكن الأمن في ذلك اليوم عزيز لا يكون إلا لمن رضي الله عنهم فأكد أنه على الرغم من الأهوال فهناك أمن لمن يستحقه . وغلبة الخوف في الآيات ملائم لانخلاع القلب واضطرابه . وختم السورة بالإنذار "مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا" أيضاً ملائم للخوف الشديد الملازم للقلوب في ذلك اليوم العصيب .

فنرى بذلك أنه اطرد في سياق أهوال يوم القيامة لفظة القلب وذلك لتصوير هول الحدث في تبديل الأحوال والخوف الشديد مما بدل الثبات في القلب إلى اضطراب وليس في ذلك مفارقة لدقة استعمال القرآن بل إن لكل لفظ سياق يسير فيه فحين تغير سياق الدنيا إلى الآخرة تغير المعنى من الثبات إلى الاضطراب .

والملاحظ أن القرآن استعمل القلب في التعبير عن الخوف من أهوال ذلك اليوم ، ولكن هناك اختلاف في درجة الخوف وشدته نابعة من أمور عدة :

أولها : اختلاف صفات المتحدث عنهم ، فنجد أن سياق غافر والنازعات يتحدث عن الكفار وهم أيضاً درجات ، فدرجة كفر من ذكر في سياق غافر أشد يدلنا على ذلك السياق القبلي والبعدي والذي تحدث عن أشد الناس كفراً ، فرعون الذي ادعى أنه إله ، ثم تحدثت الآيات عن كل متكبر جبار ، أما سياق النازعات فكان في الرد على من أنكر البعث وكل الكافرين اشتركوا في ذلك ، وسياق النور تحدث عن المؤمنين فهم أولى بالأمن فكان خوفهم أقل .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثانيها : اختلاف مثير الخوف في المواضع الثلاثة فنلاحظ أن مثير الخوف في موضعي غافر والنازعات أشد حيث يتحدث عن الموقف ، فهو يصور حالهم وقد رأوا عياناً أهوال ذلك اليوم ، أما السياق الذي ورد فيه خوف المؤمنين فكان تعبيراً عن خوفهم في الدنيا من أهوال ذلك اليوم فهو خوف استعداد ، إذن فيه خوف ورجاء فهو أقل بل ويختلف عن خوف الكافرين .

ثالثها : اختلاف النظم في التعبير عن هذا الخوف يدلل بدقة على درجة الخوف فموضع غافر بدأ نظم الآية بالإنذار وفيه التخويف ، ثم بتسمية يوم القيامة بـ"الآزفة" اسم يدل على سرعة وقوعها وهذا أدعى للخوف ، ثم عبر بالجملة الاسمية التي تدل على ثبات حال الخوف لهم "إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ" وعبر عن شدة الخوف بانخلاع القلوب من مكانها أساساً وكونها لدى الحناجر معبراً ب"لدى" الدالة على شدة القرب وهم على ذلك "كاظمين" فمن شدة الخوف منعهم حتى التعبير عنه ، ثم زاد الخوف عليهم بأن أيسهم من النجاة ومن الشفاعة فهؤلاء أشد وأعظم من غيرهم خوفاً . أما النازعات فقد عبر عن خوف القلوب دون تغيير مكانها فهو أقل من خوف من في سياق غافر ولكنه أشد من خوف المؤمنين فقلوب هؤلاء "واجفة" سريعة الحركة وهذا وصف دائم لها وفي ذلك دليل على شدة خوفها زاد على ذلك بأن قال "أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ" فزاد على شدة الخوف ذلة وخوف من المخشوع منه واعتراف بقدرته عليهم ، ويدل على أن الخوف هنا أقوى من خوف المؤمنين ورود النظم بقوله "أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ" بإسناد ثان غير الإسناد الأول وفي التعبير عن خوفهم بإسنادين دليل على قوة وشدة الخوف . أما سياق النور فكان في المؤمنين وعبر عن خوفهم بقوله "يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ" فعبر بالمضارعة دلالة على استمرار وتجدد هذا الخوف لديهم ولاءم بالمضارعة بين "يخافون" و "تتقلب" ، وعبر عن خوف قلوبهم بقوله "تتقلب" و لم يغير مكانها و لم يجعلها واجفة بل متقلبة وهذا أخف من سابقه . كما أن في التقلب دليل على خوف ورجاء فهي لم تثبت على خوف دائم ولا أمن دائم هذا من وجه ، كما أن في تقليب القلوب والبصر دليل على فسحة في هذا الخوف تجعل من الممكن تقليب القلوب والأبصار في هذه الأهوال ، فليست الأبصار شاخصة ـ كما عبر في غير هذه المواضع عن خوف الظالمين ـ ولا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الطرف غير مرتد، ولا الأفئدة هواء .. وما ذلك إلا لكون هؤلاء آمنوا في حين كفر غيرهم.

رابعها : النتيجة فقد صرح في شأن الكافرين بـ(ما للظالمين من حميم) فوصفهم بالظالمين بالاسمية تدليلاً على شدة جرمهم لذاحرمهم الحميم ، والشفيع الذي يشفع فيهم ، فهلاكهم إذن محتم وهذا أشد الخوف . يليه موضع النازعات الذي لم يصرح لهم صراحة بتوجيه الخطاب لهم بالعقاب ولكنه صرح ببعثهم ثم أخبر أن هناك نار وجنة يدخل كل منهما الإنسان حسب توفيق الله ثم بعمله ، فالتهديد ليس صريحاً كموضع غافر ، والنتيجة ليست محتمة ـ على الأقل في نظر هؤلاء الكاذبين ـ . أما موضع النور فالنتيجة أمن وأمان "لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ" وزاد على ذلك بأن طمأنهم أن أعمال الكافرين ليست بشيء فأكد على عزهم ونصرهم بذلة أعدائهم ـ والله أعلم ـ .

وكما وردت (القلب) دون غيرها لبيان حالة الخوف على اختلاف أحوال الناس ـ في الموقف وردت أيضاً حين كشف الغطاء عن الكافرين وظهر لهم الحق وذلك في قوله تعالى : ﴿**وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ**﴾[1] . والنظرة العجلى أو ظاهر الأمر يشعر بأن الأليق الأفئدة لظهور أمارات تدل على ذلك (فزّع) والموقف من مواقف يوم القيامة وفيه من الخوف والاضطراب ما فيه إلا أنه تعالى قال :(عن قلوبهم) وذلك لأن السياق الخاص للآية في بيان حال الكفار عند كشف الغطاء عنهم ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[2] وحينها لا اضطراب في الحقائق بل أمامهم عين اليقين وهذا يكون في القلب لا الفؤاد . واختلف في عود الضمير في (قلوبهم) فقيل المقصود قلوب الشافعين والمشفوع لهم[3] ، وقيل المقصود الملائكة ، أو الكفار[4] .

1- سبأ : 23 2- ق : 22

3-الكشاف : 120/5 ، نظم الدر في تناسب الآيات والسور : 176/6 تفسير أبي السعود : 258/5

4- المحرر الوجيز : 182

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ورجح صاحب البحر المحيط الكفار حيث قال :(إن الضمير في قلوبهم) عائد على من عاد عليه (اتبعوه) و (عليهم) و (مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ)[1] وأوافقه في ذلك بدليل السياق القبلي والبعدي فما ورد قبلاً (وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ) و لم يتبع الشيطان إلا الكافرون ، (وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ) أيضاً لم يتسلط الشيطان إلا على من كفر ، (مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ) و لم يشك في اليوم الآخر إلا الكفار . ثم ورد التحدي صريحاً للكفار الذين ادعوا أن لهم شفعاء يشفعون لهم من دون الله . ووردت الآية (وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ ..) متصلة مباشرة بهذا السياق فالراجح أن يعود الضمير على من سبق الحديث عنهم ولا يصرف عنهم إلى غيرهم .

كما أن السياق البعدي يؤكد ذلك (وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ) و (قُلْ لا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ) إلى نهاية الآيات والسياق صريح في الكفار والقلوب المقصودة قلوبهم لا قلوب غيرهم .

وفي نظم الآية ما يقر ورود القلب خاصة دون غيرها حيث قال : "حَتَّى إِذَا فُزِّعَ" ، وفي هذا النظم تحديد للموقف الدقيق في ذلك اليوم وهو كما سبق الموقف الذي تظهر فيه الحقائق وقد وردت (فزع) وهي مرشحة للقلب بمادتها وصياغتها فمعناها : كشف عنهم الخوف[2] وفزع فزعه ، كمرض مرضه : أقام عليه وداوه وعالجه[3] ، واشتقاق الكلمة فزّع من فزع فيه دلالة على قوة هذا الكشف تبعاً لقوة الفزع حيث إن الفزع مفاجأة الخوف ، وهو انزعاج القلب بتوقع مكروه عاجل[4] وهذه القوة في الكشف تورث يقيناً لا يكون إلا في القلب ، وقد وردت على وزن (فُعّل) بالتضعيف وهذه دلالة ثانية على قوة الفعل وكذلك مبنياً لما لم يسم فاعله وفي ذلك بيان لقوة الحدث والفعل وهذا مطرد في نظم القرآن الكريم في الإخبار عن أحوال يوم القيامة ؛لذا وقع الفعل على القلوب (عن قلوبهم) وجمع القلوب . لعموم ذلك على قلوب الكفار في ذلك اليوم, وأضافها بضمير الغائب احتقاراً لهم وتقليلاً من شأنهم .

1- البحر المحيط:2669/7

2- لسان العرب : 4 / 3410

3- الكليات : 698

4-الفروق اللغوية : 272

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولأن الكشف وقع على القلب ميز الحق من الباطل فحين سئلوا (ماذا قال ربكم) (قالوا الحق) حتى إنهم يلهجون بالحمد في النار لانكشاف الغطاء .

فالبصر حديد والحق واضح ، وهذه الإجابة ملائمة للقلب لأنه لم يعد عليه غشاوة ولا اضطراب في الحق بل وصل إلى اليقين — وإن كان لا ينفعهم في هذا الوقت — لذا عرفوا (الحق) ولم يقولوا (حقاً) ، وهذا أدخل في بيان انكشاف الحقائق لديهم فتعريفهم (بأل) هنا فيه دلالة على أن جنس الحق هو ما قاله ربهم ويلائم أن يكون للكمال فالحق الكامل هو ما قاله ربهم .

وفي قوله (وهو العلي الكبير) قد تكون الواو استئنافاً فيكون القائل هو الله- سبحانه وتعالى- وقد تكون عاطفة فتكون مما حكاه الله تعالى من قول الكفار وهذا أدخل في بيان انكشاف الحق لديهم ، وبالتالي قرار القلب في نظمها وسياقها .

وفي قوله تعالى : ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ (1) ورد "القلب" في وصف المتقين المستحقين للجنة ؛ وذلك لأنه لا ينفع في الآخرة إلا الاعتقاد الثابت الصحيح وهو الذي ينجي صاحبه ، ويكون عليه المعول في الفوز ، وهذا الاعتقاد لا يكون إلا في القلب ، ولذا خص بالذكر هنا . كما ورد على لسان سيدنا إبراهيم — عليه السلام — قوله : "إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ" فجعل سلامة القلب شرط النجاة ، كما جعل القلب المنيب هنا شرط الفوز بالجنة.

والسياق القبلي مرشح "للقلب" حيث تقدم قوله : "وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ" فالحديث عن حال المتقين في الموقف وجزائهم ، والتقوى محلها القلب فهذا من ذاك؛ لذا ورد القلب بعدها في وصف هؤلاء المتقين ، ففي الآيات إجمال في الصفات ثم تفصيل حيث ذكر أولاً المتقين ثم فصل في صفات هذه التقوى "أَوَّابٍ حَفِيظٍ" — "وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ" ، وفي الصفات الواردة تأكيد على قرار القلب — أيضاً — حيث إن منهج القرآن في تفصيل صفات المتقين ذكره من الصفات الملائمة لأعمال القلوب ، بما يدل على إرادة وجوه متعددة مناسبة للقلب ففي "أواب" وهو الرجوع إلى الله بترك المعاصي(2) و"حفيظ" وهو المتيقظ قليل الغفلة دلالة على دوام تذكر يجعل المرء رجاعاً لله،

---

1 - ق : 33

2- المفردات في غريب القران :40

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

محافظاً على توبته ، والتذكر من أعمال القلوب ، كما إن في بنية الصفات علـــى صـــيغة المبالغة دلالة على كثرة هذا الرجوع منهم ، وهو دليل على حضور ذكـــر الله دائمـــاً في قلوبهم ولا يكون ذلك إلا إذا استقر ذكر الله في قلوبهم وثبت وهذا وجه ثان لمناسبة هذه الصفات للقلب .

ثم قال تعالى: "من خشي الرحمن" والخشية نابعة أساساً من القلب ثم إنهـــا ملائمـــة للصفات المتقدمة ــــ أواب ، حفيظ ــــ فكثرة الرجعة لله بالطاعة ، والحفاظ على التـــيقظ من الغفلة إنما هي نابعة من خشية الله ، كما إن في قوله:"الرحمن" دلالة على المبالغـــة في الخشية ، فالخشية لذات المخشي لا لخوف مكروه منه . ففي خـــص "الـــرحمن" دون أي صفة أخرى أو ذكر لفظ الجلالة "الله" قرن للخشية بالاسم الدال على سعة الرحمة ، وفي هذا ثناء على الخاشي وهو خشيته لله مع علمه أنه واسع الرحمة ، وترقى في الثناء علـــى المتقين بقوله "بالغيب" وقيل المعنى أن المخشي منه غائب ، أو خشيه بسبب الغيب الـــذي أوعده فيه من عذابه ، وقيل في الخلوة حيث لا يراه أحد[1]، وكل هذه الأحوال في الخشية مع التعظيم لشيء غائب دالة على ثبات لا يكون إلا في القلب .

وفي قوله "وجاء" دلالة في المشقة التي تعرض لها للإتيان في ذلك اليوم بهـــذا القلـــب المنيب وتحمل هذه المشقة في الدنيا دالة على ثبات صاحبه على الرغم من وسوسة الـــنفس ووسوسة قرين السوء لكنه متق له ، أواب ، حفيظ ، خاش للرحمن بالغيب .

وفي قوله "بقلب منيب" انتزع من هذا المتقي قلباً آخراً على سبيل المبالغة وهذا من التجريد الدال على كمال الصفة ،وهذا الكمال ملائم للقلب وثباته ، والانتزاع بحـــرف داخل على المنتزع وهذا الحرف هو الباء ولا يصلح في هذا الموضع أن نقول بأنه للسببية أو التعدية أو المصاحبة لأن المبالغة المفيدة للتجريد تكفي للحسن ومتى زيد عليها ما أوجـــب العكس صار الكلام كالرمز وصار غاية البرودة بالذوق السليم[2] .

1-المفردات في غريب القرآن:40

2- مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص : ابن يعقوب المغربي ,بيروت ,دار الإرشاد الإسلامي :351/4

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي تنكير "قلب" دلالة على عظمة هذا القلب الذي جاء به هذا العبد الخاشي لله المنيب له والأقوى أن يكون التنكير للنوعية ، بمعنى أنه مخالف لغيره ممن ذكروا سابقاً في سياق السورة، وفي وصف القلب بـ"منيب" ملاءمة لـ"أواب" فالإنابة هي الأوبة فكلاهما رجوع إلى الله . ومن الملاحظ أن القرآن في هذا الموضع ، أضاف الإنابة إلى القلب ، كما أضاف سابقاً السلامة إلى القلب في موضع الشعراء والصافات . في حين أنه في جميع مواضع القرآن أضافها للذات وذلك لأن جميع المواضع وردت في شأن الدنيا ، فإضافة الإنابة للذات لإرادة المبالغة ، أما في المواضع التي أضافها للقلب سواء "السلامة ـ أو الإنابة" فالسياق في حال الآخرة والمراد الجزاء والجزاء في الآخرة يكون النظر فيه إلى القلب وخصت الإنابة هنا لأن السياق في الرجوع إلى الله ، أما في موضعي الشعراء والصافات فخص السلامة لأن السياق في الإخلاص ، وخلوص القلب من الشرك وكل ما تقدم في السياق القبلي من صفات ، وكونها واردة بصيغة المبالغة ، واسم الفاعل الدالة على الثبات ، وورود الصفات "أواب ، حفيظ ، منيب ، متيقن" ثم ما ورد في نظم الآية من ذكر الخشية دون الخوف ، وصفة "الرحمن" دون غيرها وكون هذه الخشية بالغيب ، كل ذلك توطئة لا يمكن أن يذكر بعدها إلا "القلب" فهي من أعماله .

كما إن في السياق البعدي ما يؤكد على قرار اللفظة في مكانها ، حيث في الأمر بدخول الجنة بعد إزلافها من المتقين تثبيتاً لهم فلم يقف الأمر على تقريبها بل أيد ذلك بالأمر بدخولها "ادخلوها" وفي كيفية الدخول "بسلام" تأكيد على ثبات القلوب ، فالسلام أمن وقرار للقلب ، وفي الوعد أيضاً بأن "لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ" أيضاً ثبات وقرار يلائم حال المؤمنين الذين رجعوا لله بقلوب منيبة مؤمنة .

وكما ورد القلب في المواضع السابقة عدل عنه إلى الفؤاد في بيان حال الكافرين في الموقف قال تعالى: ﴿**مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ**﴾(1) . وذلك لملاءمتها لجزاء الظالمين الذين يتحدث السياق عنهم ، فالملاحظ أن سياق سورة إبراهيم ـ العام ـ في بيان ظلم الإنسان وكفره ووجوه ذلك .

1-إبراهيم : 43

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهذا خط مطرد في بدايتها ووسطها ونهايتها ، ومن ثم يكون جزاؤهم في الآخرة مقابلاً لهذين الأمرين : الكفر والظلم، فقد قابل التجبر والعناد "وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ" بما يقابله "وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُ وَلا يَكَادُ يُسِيغُهُ .."

وهكذا الأمر هنا فالحديث عن الظالمين وعملهم في الدنيا وبيان جزائهم في الآخرة ، فكان العقاب من جنس العمل السابق ومن ثم وردت "أفئدتهم" .

فالسياق القبلي المتحدث عن الظالمين قال فيه تعالى : "وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ" فسماهم بـ"الظالمون" باسم الفاعل الدال على ثبوت هذه الصفة ، كما أنه لم يعبر عنهم بـ"الذين ظلموا" بل بـ"الظالمون" وذلك لاكتمال الوصف فيهم وأنهم بلغوا في الظلم مبلغاً خطيراً فظلمهم أشد من ظلم غيرهم ، والظلم نقصان الحق ويكون في البعض والكل[1] . كما أنه يعبر بالظلم عن وضع الشيء في غير موضعه إما بنقصان أو بزيادة وإما بعدول عن وقته أو مكانه[2] . فإذن في الظلم دليل على قوة وتجبر على المظلوم بل واستعلاء من مركز قوة على المظلوم ، ويؤكد لنا هذا المعنى تعبير النظم بالمضارعة في "يعمل" الدال على تجدد هذا الظلم منهم آناً بعد آن وفي اختيار مادة "عمل" دون غيرها والدالة على أن العمل بقصد[3] وأن فيه تأثير في الشيء[4] وفي قوله "عما" دون "عن الذي" لأن في "ما" هنا دلالة إبهام ما عملوا إبهاماً يدل على كثره وتطاوله ، فجميع النظم يؤكد على إصرارهم على الظلم وفعلهم له بقوة واستعلاء فكان الجزاء بالمقابل هدّ هذا الجبروت وتلك القوة .

"مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ" .

مهطعين أي مقبلين ببصرهم على شيء معين من هول ذلك اليوم ولا يقلع عنه مادين أعناقهم[5] ، ولكن نظرهم ذليل ذكر صاحب اللسان أن المهطع الذي ينظر في ذل وخشوع ؛ أو الذي يقبل مسرعاً خائفاً فـ"هطع" معنى لا يكون إلا مع خوف

---

1 - الفروق اللغوية :260
2-المفردات في غريب القرآن : 318
3- االسابق : 351
4- المفردات اللغوية : 153
5- الصحاح : 245/3

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال هو الساكت المنطلق إلى الهتاف إذا هتف هاتف[1].

فكل معاني مهطعين دالة على شدة الخوف والذلة الملائمة لذكر الفؤاد بعدها من وجه ومن وجه آخر ملائم لجزاء "الظالمين" فالتطامن في مهطعين أشبه بالهلاك فكما كانوا يسرعون في ظلم الناس وإهلاك حقوقهم في الدنيا جازاهم الله بأن جعلهم مسرعين لهلاكهم والغالب من حال من يبقى بصره شاخصاً من شدة الخوف أن يبقى واقفاً ولكن الله بين أن حال هؤلاء الظالمين بخلاف هذا المعتاد ، فإنهم مع شخوص أبصارهم يكونون مهطعين، أي مسرعين نحو ذلك البلاء. فكما خالفوا الحق خلف الله حالهم في ذلك اليوم.

"مقنعي رؤوسهم" والمقنع الذي يرفع رأسه ينظر في ذل ، وذكر المبرد أن الإقناع خفض للرأس وورد هذا المعنى في لغة العرب والأشهر لغة رفع الرأس ، ويظهر لي أن لكل من المعنيين وجه ، ففي رفعهم لرؤوسهم مع شدة الخوف ، _والمعتاد أن الخائف يخفض رأسه _ اضطراب يلائم مخالفة المعتاد في الوصف السابق ويلائم أيضاً اضطراب الفؤاد ويرشح له .

وأما معنى "خفض الرأس" فملائم لحال الذلة التي يكونون فيها ، لذا لم يرد مضافاً للذات كما وردت مهطعين بل أضيفت للرأس "مقنعي رؤوسهم" لأن الذلة أكثر ما تظهر في الرأس وطأطأته . وفي تعدد الحال ــ هنا ــ لهؤلاء الظالمين وتعبير النظم بالاسمية تأكيد على ذلهم وثبوته لهم فكما عبر عن أن ظلمهم كان متمكناً ثابتاً منهم _حيث عبر عنهم باسم الفاعل "الظالمون" _كذلك عبر عن تمكن ذلهم باسم الفاعل "مهطعين مقنعي رؤوسهم" . ثم زاد على هذا الذل ذلاً بقوله "لا يرتد إليهم طرفهم" مغايراً بين الجمل إثباتاً ونفياً ، وهذا أبلغ في التعبير عن شدة خوفهم ، وأدخل في الترشيح للفظة الفؤاد بعدها ؛ حيث أثبت لهم وصفين دالين على مذلتهم ونفى هنا االفعل "لا يرتد" و لم يثبت ضده وفي ذلك دلالة على دوام الحال وهذا ملائم للاضطراب أيضاً ومخالفة المعتاد فالمعهود كثرة ارتداد الطرف لا قلته، فكيف بالعدم ؟

1- لسان العرب : 4674/6

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فكل ما سبق مرشح للفؤاد من وجهين : من حيث الذلة وشدة الخوف التي لا تكون إلا في الفؤاد ، ومن حيث الاضطراب وانقلاب الحال الذي يلائم أن يحول قلوب هؤلاء المتجبرين إلى أفئدة ضعيفة في ذلك اليوم ، لذا تحتم بعد ذلك أن يورد وصف أفئدهم بقوله: "وأفئدهم هواء" قال ابن عطية: إما أن تكون منخرقة شبيهة الهواء في تفرغه من الأشياء وانخراقه ، ويحتمل أن يكون في اضطراب أفئدهم وجيشاها في صدورهم ، وإنما تجيء وتذهب وتبلغ حناجرهم فهي في ذلك كالهواء الذي هو أبداً في اضطراب[1] . ولكل من الوجهين دلالة فالأول مبين لشدة الخوف بأها لم تضطرب فقط ، لأن النظم قد عبر عن الاضطراب والتحرك بقوله "واجفة" و "بلغت القلوب الحناجر" ولكن هنا الخوف أعظم فكأها انخلعت أصلاً من مكاها و لم يعد لها وجود ، وقيل: إن المراد بيان أن قلوب الكفار خالية يوم القيامة عن جميع الخواطر والأفكار لعظم ما ينالهم من الحيرة ومن كل رجاء وأمل لما تحققوه من العقاب ومن كل سرور ، لكثرة ما فيه من الحزن[2] .

ويظهرلي أن الأمر أعظم من خلو الخواطر لأنه حين خلا فؤاد أم موسى بعد إلقاء ابنها في اليم عبر بـ"فارغاً" فعبر بالفراغ ، ولكن حين اشتد الخطب والهول وكان الخائف كافراً عبر بـ"هواء" فهي ليست فارغة بل غير موجودة ، والله أعلم. ودلالة هذا الوجه على الترقي في الخوف . والثاني دلالته على تساوق المعنى مع الصفات السابقة فكلها فيها تغير في الوصف وتبدل في الحال وهذا يلائم الاضطراب في الأفئدة . فإن نظرنا للترقي فبالوجه الأول ، وإذا نظرنا لتساوق المعاني فبالوجه الثاني .

والسياق البعدي يؤكد شدة هذا الخوف الذي يلائم حال من اشتد كفرهم وعنادهم حيث ذكر صفة للعذاب لم تذكر في سياق آخر "مقرنين في الأصفاد" ، "سرابيلهم من قطران" ، تغشي وجوههم النار" ولعظمة الأمر وهوله وصعوبة تصور حقيقته جعل ذلك ذكرى لأولي الألباب ﴿**هَذَا بَلاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾[3] . وفيما ذكر قبل هذه الآية من أحوال الكافرين

1- المحرر الوجيز : 8/ 261

2- التفسير الكبير : 108/7

3-إبراهيم:52

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

في الموقف ومخالفته للمعتاد لا يدرك كنهه ولا عظمة الموقف ، ويصدق أنه يكون إلا ذو لب يدرك عظمة الله وقدرته على كل شيء والتفكر في أهوال ذلك اليوم وكيف يمكن أن تبدل السماء غير السماء والأرض غير الأرض ويدرك حقائق الأمور ولا يقف على ظواهرها ويقيسها بأمور الدنيا بل يدرك أن أمر الآخرة مختلف إلا ذو لب ، فكيف يقرن المجرمون في الأصفاد ، وهل هناك سرابيل من قطران وكيف تغشى وجوه الكافرين النار ، كل ذلك يحتاج لباً خالصاً صافياً .

ونظم الآية يوطيء توطئة لا يمكن أن يكون ختامها إلا بـ"أولوا الألباب" وتدرج في الإدراك من العام إلى الخاص الذي لا يكون إلا للخاصة وهم أولوا الألباب .

فقال : "هذا بلاغ للناس" فأشار أن في ذلك بلاغ للناس عامة والتبليغ لا يخص فئة دون فئة بل الرسول — صلى الله عليه وسلم — بعث للناس كافة ، ثم قال "ولينذروا به" فإنه إذا بلغهم الأمر حصل عنه الإنذار ، ونلاحظ أنه عطف الفعل على الفعل السابق والضمير بالجمع عائد على الناس جميعاً دون اختصاص "وليعلموا" فإذا بلغهم الأمر وأنذروا من الشرك علموا (إنما هو إله واحد) . وأيضاً الفعل معطوف والضمير فيه عائد على الناس . وذلك لأن البلاغ والإنذار والعلم بذلك لا يكون خافياً على الناس بل هو لهم جميعاً ولكن من الذي يذكر ؟ هنا خص بخالصة العلم وخالصة الفائدة من الإنذار خاصة الناس وهم "أولوا الألباب" ، ولذا أورد الفعل قبلها بـ"يذكر" بإدغام التاء في الذال وفي هذا دلالة على سرعة الاستفادة ودوامها ولا يكون متذكراً بسرعة إلا الخاصة .. لذا نجد أن الأفعال التي وردت لعامة الناس لم يرد فيها إدغام, أو صياغة تدل على السرعة في الألفاظ أو العلم وذلك لأنها وردت لعامة الناس ، قال صاحب الإرشاد :"في تخصيص التذكر بأولي الألباب ، تلويح باختصاص العلم بالكفار ودلالة على أن المشار إليه بهذا ما ذكرنا من القوارع المسوقة بشأنهم لا كل السورة المشتملة عليها على ما سبق للمؤمنين أيضاً ، فإن فيه ما يفيدهم فائدة جديدة ، وحيث كان ما يفيده البلاغ من التوحيد وما يترتب عليه من الأحكام بالنسبة إلى الكفرة أمراً حادثاً ، وبالنسبة إلى أولي الألباب الثبات على ذلك حسبما أشير إليه عن الأول بالعلم وعن الثاني بالتذكر"(1) .

1-تفسير أبي السعود: 506/3

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأوافق صاحب الإرشاد على ما ذكر إلا أنني أرى أن العلم لكل الناس من الكفرة والمؤمنين الذين لم تبلغ عقولهم الكمال والتذكر خاص بأهل العقول الخالصة .

لذا نرى في الآية ترقي من الأدنى إلى الأعلى ومن العام إلى الخاص فمن البلاغ إلى الإنذار ثم العلم ، ثم التذكر ومن الناس جميعاً إلى فئة أولي الألباب . وهذا الترقي أكد أن تكون اللفظة "أولوا الألباب" دون سواها . ومن الملاحظ أن كل مقطع في الآية يعود إلى مقاطع أخرى في السورة تناسبه ، فقوله "هذا بلاغ للناس" التبليغ له علاقة بقوله تعالى "لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ" ، و "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ" ، "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ" ، ويعود قوله "ولينذروا به" إلى قوله "وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ" ، "وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ"، "فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ" ، وقوله "وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ"إلى قوله "وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ" ، وقوله "وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ" إلى كل ما ذكر من الانتفاع بالآيات "قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلَانِيَةً" و "اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ... " .

فكأن النظم ختم بآية تلخص ما ورد في ثنايا السورة وهذا من بلاغة القرآن الكريم وإعجاز بيانه .

***

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي سياق حال أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار وردت القلب في موضع واحد فقط وكذلك الفؤاد واللب ، في حين ورد العقل في موضعين ولكل لفظة دقة في سياقها ونظمها لا تقوم مقامها لفظة أخرى. والمواضع كالتالي :

1- قوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾(1)

2- وقوله : ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾(2)

3- وقوله : ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلّاً كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾(3)

4- وقوله : ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾(4)

5- وقوله : ﴿هَذَا بَلاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (5)

والموضع الذي ورد فيه القلب في سياق بيان حال المؤمنين في الموقف في قوله تعالى **"إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ"** ، فوردت القلب دون غيرها من الألفاظ على الرغم أننا لاحظنا فيما سبق أن لفظة الذكرى اطرد ورودها مع اللب ، فَلِمَ غاير القرآن هنا واستعمل القلب ؟

ذلك لأن السياق ـــ كما سبق أن ذكرت ـــ في اليوم الآخر وهو سياق جزاء فالمعول على القلب ، كما أن السياق رجوع إلى الله جل وعلا وهذا لا يتطلب لباً بل قلباً مخلصاً مبادراً بالعودة لله -جل وعلا- ، فالمقصود بالرجوع استجابة القلب لا غيره ذلك لأن استجابة غيره لا تعد استجابة بدونه ولا تنفع صاحبها ، هذا بالإضافة أن اللب ورد في النظم في الآيات الكونية أو في أحوال الأمم السابقة وليس هذا سياقه هنا .

1-ق : 37
2- الهمزة : 7
3- يس : 62
4- الملك : 10
5- إبراهيم : 52 (وقد ضمت مع آية "وأفئدتهم هواء" لئلا ينقطع الكلام)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ونلاحظ أن طريقة النظم أكدت قرار اللفظة في مكانها حيث قدمت القلب على السمع "أو ألقى السمع وهو شهيد" ونكرته ، وإنما تقديمه هنا على السمع على الرغم من تأخيره عن السمع في مواضع أخرى لأنه ــ كما سبق ــ المقصود الرجوع إلى الله والانتفاع بهذا الرجوع ولا يمكن أن ينتفع به إلا إذا كان القلب هو الراجع لله فليس المقصود الإدراك ، وقد قال الجرجاني في هذا المعنى :"إن من رأى أن المعنى في من كان له قلب على الفهم والعقل أخذه ساذجاً وقلبه غُفلا ، وقال القلب هاهنا بمعنى : العقل ، وترك أن يأخذه من جهته ، ويدخل إلى المعنى من طريق المثل فيقول :"إنه حيث لم ينتفع بقلبه و لم يفهم بعد أن كان القلب للفهم جعل كأنه قد عدم القلب جملة وخلع من صدره خَلْعاً ، كما جعل الذي لا يعي الحكمة ولا يعمل الفكر فيما تدركه عينه وتسمعه أذنه ، كان عادم للسمع والبصر ودخل في العمى والصمم"(1) .

وأعاد مثل هذا المعنى في الدلائل(2) . وذكر ابن القيم وجهاً آخر لتقديم القلب على السمع: وهو أن المقصود بهذا التقديم الدلالة على بدء النظم بذكر صفة أكمل خلق الله الذين يدركون الحق بقلوبهم قبل أسماعهم فإذا سمعوا الآيات كان لهم نور على نور ، فصاحب هذا القلب إذا سمع الآيات وفي قلبه نور من البصيرة ازداد بها نوراً إلى نوره ، فإن لم يكن للعبد مثل هذا القلب فألقى السمع وشهد قلبه ، و لم يغب حصل له التذكر أيضاً . وأهل الجنة سابقون مقربون وأصحاب يمين وبينهما في درجات التفضيل ما بينهما(3) .

ولا تعارض بين الوجهين فكلاهما أشار إلى تقديم استعداد القلب أولاً ثم السمع ثانياً وكون المعول على استعداد القلب لا السمع فقط . وتنكير القلب قال فيه صاحب التفسير الكبير "والأولى أن يقال هو بيان وضوح الأمر بعد الذكر وأن لا خفاء فيه لمن كان له قلب ما ولو كان غير كامل ، أو "ألقى السمع" أي استمع وإلقاء السمع كفاية في الاستماع ، لأن من لا يسمع فكأنه حفظ سمعه وأمسكه فإذا أرسله حصل الاستماع حيث لم يقل أو استمع لأن الاستماع يبني عن طلب زائد ، وأما إلقاء السمع فمعناه

1- أسرار البلاغة : 33

2- دلائل الإعجاز : 304

3- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين:ابن قيم الجوزية,ت:محمد حامد الفقي ,دار الفكر : 443/1

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أن الذكرى لمن لا يمسك سمعه بل يرسله إرسالاً ، وإن لم يقصد وهذا يلائم "قلب أي قلب كان" . فكأن الفخر الرازي يرى أن التنكير للعموم ، ويظهر لي أن التنكير هنا لكمال الوصف لا لعموم بدلائل :

أولها : أن السياق المتقدم كان في المتقين ، والتقوى كمال في العبادة كما أن الصفات التي أوردت لهم كانت بصيغة مبالغة تدل على كمالهم وتميزهم عن غيرهم.

ثانيها : ارتباط هذا القلب بالذكرى ، والتذكر من أعمال القلوب الخالصة الكاملة وليس أي قلوب .

ثالثها : تقديم القلب ـ هنا ـ على السمع الذي فيه دلالة حضوره أولاً قبل السمع وهذه دلالة على يقظته واستعداده للحق حتى قبل السمع فهذا نور في البصيرة لا يكون إلا للخلص .

رابعها : أن استدلال الفخر على كونه أي قلب بقوله تعالى "ألقى" بالتعبير بإلقاء السمع وأن هذا يكون لأي سمع ليس في محله وإن كان الإلقاء فيه معنى ما ذكر ؛ ذلك أن النظم قيد هذا الإلقاء بما يمنع هذا الفهم حيث قال "وهو شهيد" فليس إلقاء السمع فقط سبباً للذكرى بل لا بد من حضور الذهن والفطنة ، لأن من لا يحضر ذهنه فكأنه غائب والمعنى وهو مؤمن شاهد على صحته وأنه من وحي الله[1] .

خامسها : التعدية باللام "له قلب" الدالة على الملكية فيها معنى أن القلب يعمل لصلاحه ويعمل له لا عليه وهذا دليل على كماله وصلاحه .

وما ورد في السياق البعدي من الأمر بدوام التسبيح ، والأمر بالتذكير بالقرآن ، وخص "من يخاف وعيد" بهذا التذكير تأكيد على قرار القلب في نظمها .

وكما ورد القلب في حال أهل الجنة في الجنة فقد عدل عنها إلى الفؤاد في بيان حال أهل النار في النار فقال تعالى : ﴿**نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ**﴾ [2] وذلك لما في هذا العقاب من خوف تضطرب له الأفئدة هذا من وجه ، ومن وجه آخر سيتضح لنا من خلال الصفات التي وردت في الآيات للكافرين في الدنيا ، وثم كان الجزاء في الآخرة مناسباً لها من جهة التضاد أو المقابلة.

1- الكشاف : 605/5   2- الهمزة : 6-

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فنجد أن السياق القبلي وصف الكافرين بصفات تدل على تجبرهم وقوة عتـــوهم وتماديهم في الدنيا ولكن عذاب الآخرة حطم هذه القوة فوصفهم أولاً بقوله "همزة لمــزة" فالمعنى والبنية تدل على قوة هذا الوصف فيهم ، فالهمز الضغط ومنه الهمزة في الكـــلام ، واللمز العيب والإشارة بالعين لانتقاص أعراض الناس[1]0 وبناء همزة ، لمزة ، فُعلة يـــدل على أن ذلك عادة منهم ، فالصيغة تدل على تمكن الوصف من الموصوف ، فإذن كانت فيهم جرأة وقوة على أعراض الناس ، فقابل هذا الوصف من العذاب ، النبذ والتحطـــيم بالنار "كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ" فبدأ بالزجر "كلا" وهذا موطيء للفؤاد بعده ، ففي الزجر تخويف يستدعي أن يهز تلك القلوب التي تجبرت في الدنيا فما هي في الآخرة إلا أفئـــدة ضعيفة معذبة ، ثم في قوله "لينبذن" أيضاً ملاءمة لفعلهم في الدنيا ، فالنبذ غير الإلقاء حيث إن النبذ دلالة على أن المنبوذ حقير مهمل ، وهذا الجزاء يلائم تحقيرهم للنـــاس في الـــدنيا وتحقيرهم لأنسابهم والاستهانة بأعراضهم ,فخوفهم الله وضعف شأنهم وفي هـــذا أيـــضاً ملاءمة للفؤاد ، فهو يضعف شأنهم وبالتالي يسترهب أفئدتهم .. "في الحـــطمة" عـــــدى بـــ "في" حيث تكون النار وعاء يحيط بهم لا فكاك لهم منها ولا منجى ولا مهرب ، وهذا أيضاً أدعى لخوفهم واضطرابهم ثم إن في(الحطمة) ملاءمة للسياق قيل : فلمعنى ما يختص بالحكم يسمي تعالى باسم من أسمائها من نحو جهنم فيما يكون مواجهة ومن نحو الحطمة فيما يكون جزاء لقوة قهر واستعداد بعدد ونحو ذلك في سائر أسمائها[2] ، والحطمة النـــار التي من شأنها أن تحطم كل ما يلقى فيها ، وسبب ذكر الحطمة الاتحاد في الصورة واللفظ فالهامز يضع من قدر الأعراض فيلقيها في الحضيض فيقول تعـــالى : وراءك الحطمـــة وفي الحطم كسر فالحطمة تكسرك وتلقيك في حضيض جهنم ، لكن الهمز لـــيس إلا الكـــسر بالحاجب ، أما الحطمة فإنها تكسر كسراً لا تبقي ولا تذر ، كما أن الهماز اللماز يأكـــل لحم الناس والحطمة اسم للنار من حيث إنها تأكل الجلد واللحم[3] .

1- الصحاح : 56/3 ، 57

2- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : 526/8

3-التفسير الكبير: 286/11 ، 287

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثم وصفهم بـــ"الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ" فالمال أيضاً قوة في نظرهم ولكنه كان سبباً في هلاكهم ، وقال "مالاً" بالتنكير ، قال الفخرالرازي: التـــنكير للتعظيم ، أي مال بلغ من الخبث والفساد أقصى النهايات فكيف بالعاقل أن يفخر بـــه ، فقيد التعظيم بالفساد والخبث ليوطيء إلى مناسبته للجزاء عليه بتغليظ العذاب وبتخليدهم في النار (1).

وفي الاستفسار عنها "وما أدراك مالحطمة" تهويل لشأن النار وبيان لقـــصر إدراك الناس لحقيقتها ، وفي إضافتها للفظ الجلالة تربية للمهابة والخوف ما يهز الأفئدة ويقضي اضطرابها ووصفها باسم المفعول فيه دلالة على أنها لا تزال تلتهب ولا يزول لهيبها ففيـــه دلالة على استمرار التوقد وتجدده.

ففي كل ما تقدم من السياق القبلي ملاءمة للفؤاد وتمهيد له خاصة وأن السياق في اليوم الآخر ولا قلوب ثابتة في ذلك اليوم بل أفئدة مضطربة فكيف إذا كانت كـــافرة ، كما أن في ملاءمة الجزاء لفعل هؤلاء الكفار ملاءمة للفؤاد ، حيث عمـــد إلى مجـــازاتهم بإضعاف أفئدتهم وإهانتها وتحطيمها .

ثم يأتي النظم مؤكداً ملاءمة الفؤاد دون القلب للسياق والمعنى حيث قال : "الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ" فخص الأفئدة بالذكر في العقاب وذلك لأنه لا شيء في بدن الإنـــسان ألطف من الفؤاد ، ولا أشد تألماً منه بأدنى أذى يمسه ، فكيف إذا اطلعت عليه نار جهـــنم واستولت عليه(2) .

وفي بداية النظم ذكر اسم الموصول "التي" وكأن هذه النار معروفة بأنها تطلع على الأفئدة وفيه تخصيص لمهمتها في ذلك اليوم بالأفئدة على الرغم أن النار تطال جميع الجسد ـــ والعياذ بالله ـــ ولكن هذا التخصيص للمهمة _هنا _تخويف وإنذار يلائم أن تضطرب له الأفئدة ، وفي صياغة تطلع بالتشديد تأكيد على قهرها لهذه الأفئدة ، ومعنى إطلاع النار عليها أنها تعلوها وتغلبها وتشتمل عليها .

1- التفسير الكبير : 286,287/11

2- الكشاف : 429/6 ، 430

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والإطلاع يجوز أن يكون بمعنى الإتيان مبالغة في طلع أي الإتيان السريع بقوة واستيلاء ، فالمعنى : التي تنفذ إلى الأفئدة فتحرقها في وقت حرق ظاهر الجسد ، وأن يكون بمعنى الكشف والمشاهدة قال تعالى : "فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ" فيفيد أن النار تحرق الأفئدة إحراق العالِم بما تحتوي عليه الأفئدة من الكفر فيصيب كل فؤاد بما هو كفاؤه من شدة الحرق على حسب مبلغ سوء اعتقاده[1] . والثاني لدي أقوى لأن فيه ملاءمة الجزاء لفعلهم في الدنيا .

وقوله "على" يظهر الاستعلاء وبالتالي ضعف المستعلي عليه "الأفئدة" لذا قال (الأفئدة) دون القلوب ؛ لأن الفؤاد محل الشعور والألم فكما كانوا يعمدون في الدنيا إلى محل الألم ومحل التوقد حيث عرف عن العرب اعتزازها بنسبها وبنفسها ، وكل إنسان يكره أن تظهر معايبه ويعد كشفها والحديث فيها من أشد ما يؤلمه ، كذلك كان عقاب الكفار الهمازين اللمازين ذاكرا المحل الذي يحدث فيه الألم الشديد وهو الفؤاد . كما أن السياق في الإيلام والتعذيب فالفؤاد ملائم دون غيره ، وتعريف الأفئدة "بأل" التي للعهد هنا لأنه سبق وصف من يحويها فالأفئدة التي تطلع عليها النار هي الأفئدة المذكورة صفاتها والمعهودة لديكم .

ثم إن السياق البعدي يؤكد غرض الإيلام المناط بالفؤاد حيث أكد "إنها عليهم مؤصدة" وقدم "عليهم" على "مؤصدة" زيادة في تأكيد اختصاص العذاب بهم. ومؤصدة مطبقة وذكرها بصيغة اسم المفعول أيضاً للدلالة على استمرار وثبات حال هذا الإيصاد وهذا يؤكد يأسهم من الخروج وتيقنهم بحبس الأبد ، فتوصد عليهم الأبواب وتوضع على الأبواب العمد استيثاق على استيثاق. كما أن زيادة "عمد ممدة" على ما ورد في سورة البلد دليل على أن كفر هؤلاء أشد وأعظم ، كما إن في ذكر العمد ملاءمة الجزاء للعمل لأن فيها إهانة لهم كما كانوا يهينون الناس همزهم ولمزهم .

وفي كل ما ورد في السياق البعدي من تأكيد العذاب وتوثيقهم ملاءمة للفؤاد حيث فيه إضعاف له وهد لقوته وتخويف واضطراب له .

1-التحرير والتنوير : 475/30

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي قوله تعالى : "**وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلّاً كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ**" [1] وقوله: "**وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ**" [2] ، ذكر تعالى العقل في عقابه لأهل النار في النار واعترافهم بانعدام عقولهم حين رأوا النار حقيقة وذلك لأن الأمور كانت ظاهرة أمامهم عياناً ولكن لم يكن لديهم عقول يدركون بها الحق ، فقال تعالى موبخاً لهم لعدم مخالفتهم الشيطان مع ظهور عداوته لهم حتى هلكوا وحقت عليهم النار : "وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلّاً كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ" . وقد وردت العقل دون غيرها من الألفاظ وذلك لأن السياق القبلي والبعدي مرشح لها ، فنرى أن السياق القبلي يوبخهم على عدم إدراكهم عداوة الشيطان لهم وإضلاله إياهم "أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ" فوبخهم على أمر ظاهر ومع ذلك لم يدركوه ، لذا وردت الفاصلة "تعقلون" ومتعلقات العقل في النظم كثير منها: مناداتهم "يا بني آدم" فهو مذكر لهم بهذا النداء بمظاهر عداوة الشيطان لهم منذ عهد آدم عليه السلام حين أخرجه من الجنة وهذا مطرد في القرآن الكريم فحيث ما ورد النداء بـ(يا بني آدم)، فالتذكير بالعداوة من بدء عهد آدم ، وهذه العداوة ظاهرة لا تخفى على عاقل . ومنها بيان الله لهم عداوة الشيطان صراحة بل ومؤكداً "إنه لكم عدو مبين" على الرغم أنهم يعلمون عداوته ولكن أنزلهم منزلة المنكر لما ظهر منهم مما يخالف هذه المعرفة من اتباع أمر الشيطان وهذا مخالف للعقل .كما إن وسائل الشيطان المختلفة في إضلال بني آدم كثيرة وهي ظاهرة ، من تزيل السوء والفحشاء لهم ، وإلقاء الأمنيات لهم ، وصدهم عن الحق ، وتخذيلهم من القتال في سبيل الله ودعوتهم إلى الخمر والميسر وغير ذلك كثير مما يظهر لكل عاقل أنه من حبائل الشيطان فلا يسير خلفها إلا من عدم العقل .

كما إنه ورد في النظم تذكير بني آدم بالعهد الذي أخذه الله عليهم ألا يتبعوا الشيطان وهذا لا ينكره عاقل فكيف يخالفون مقتضى هذا العهد باتباع الشيطان وترك أوامر الله - جل وعلا -

---

1- يس : 62

2- الملك : 10

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي نظم الآية صرح بضرر الشيطان على ابن آدم "ولقد أضل منكم جبلاً كـــثيراً" بالتوكيد أيضاً ، وفي هذا إنزال لهم مترلة المنكر حيث خالفوا ما عرفوا وظهر عليهم دلائل الإنكار حيث خالفوا العقل والحق بفعلهم .

وخص النظم لفظة "جبلاً كثيراً" والجبل غليظ الخلق[1] . وكأن في ذلك إشارة أنه لم يضل الشيطان إلا من غلظ عقله وفهمه فإذن لا يضل الشيطان إلا منعدم العقل والفهم وتحديد المفعول بـــ"جبلا" مرشح للعقل فمن سار على ما ساروا عليه فهو مثلهم غلـــيظ الخلق ، ومن ذلك غلظ الفهم والإدراك ؛ فختم بـــ"أفلا تعقلون بالاستفهام الإنكـــاري وهو ملائم للسياق الذي ظهرت فيه عداوة الشيطان ومع ذلك هناك من يتبعه فالاستفهام للإنكار هنا وللتوبيخ. ونلاحظ أن النظم أتى بـــ"أفلم تكونوا تعقلون" و لم يأت بـــ"أفلا تعقلون" بل زاد الكون ونفاه فكأن عدم العقل متأصل فيهم ومتأبد ,وهذا أقوى من غيره في النفي وأعلى نبرة في الغضب والتوبيخ وارتفاع نبرة الغضب فيها دلالة على ظهور الأمر فأمر عداوة الشيطان مركوز في الفطر فكيف يخالف هؤلاء ويتبعونه ، وأورده بالمـــضارعة "تكونوا تعقلون" أي ألم يتجدد لكم إدراك وعقل بتوالي ظهور العبر وكثرتها وهذا أدخل في توبيخهم وأدعى لإقرار "العقل" في نظمها فلا يوبخ إلا على أمر ظاهر فإن ارتفعت نبرة التوبيخ فهو أدل أنه أكثر ظهوراً من غيره .

ونلاحظ أن السياق البعدي مؤكد لقرار العقل ، حيث كان فيه خطاب للعقل في أمور أخر مدركة بالعقل لا اللب ، فإذن الأمور المذكورة في النظم على اختلافها إلا أنهـــا بظهورها مدركة بالعقل كعداوة الشيطان ، وانتكاس الخلق بعد تعميرهم، وكون الرسول ليس شاعراً ، وقدرة الله على الخلق وإنعامه على ابن آدم وحقيقة خلق الإنسان وغير ذلك فكلها أمور على اختلافها إلا أن مجرد العقل يدركها ولا تحتاج إلى لب وهذا مؤكد لقرار لفظة العقل دون غيرها .

1- الفروق اللغوية : 294

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال تعالى في شأن أهل النار في اعترافهم بذنبهم في النار ﴿**وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾[1] ، والسياق في ندمهم على عدم انتفاعهم من النذر الذين أنذروهم هذه العاقبة و لم يستمعوا لهذا النذير ، فوردت لفظة العقل دون غيرها ، فالسياق هنا بدأ بأشياء ظاهرة للعيان مقتضى العقل أن يستفيد منها من يراها أو يسمعها لتهديه إلى الصراط المستقيم ولكن الكافرين لم يكونوا ذوي عقول واعية ليبصروا ذلك .. فبدأت الآيات بقوله تعالى : "الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً" . ومن يتدبر أن الحياة بعدها موت يكون ظاهراً لعقله أن هناك غاية لهذه الحياة فكيف إذا كان خلق السموات سبعاً طباقاً دون فطور ولا تفاوت وزينة السماء بالمصابيح دلالة واضحة ظاهرة على أن لها خالقا يستحق العبودية والوحدانية -سبحانه -، و لم يقف الأمر على هذا الوضوح بل إن الله تفضل بإرسال النذر الذين يزيدون الأمر وضوحاً وينبهون الغافلين على هذه الحقائق إن كانت غابت عن أذهانهم ، ولكن الذين كفروا خالفوا مقتضى العقل وكفروا.. وقد قال تعالى : "وللذين كفروا بربهم .." و لم يقل بالله بل صرح أنهم كفروا بربهم وأضافه إلى ضميرهم فهم أعرف به وهم يقرون أنه خالقهم ولكن لم تكن لهم عقول واعية تدرك ذلك .

وفي السياق البعدي قال "فاعترفوا بذنبهم .." والاعتراف بالذنب دليل على ظهور الخطأ, وارتكابه مخالفة لمقتضى العقل ، كما عمد السياق إلى الاستفهام التقريري الذي يقررهم بفضل الله في خلق الأرض وهم يقرون بذلك لأنه واضح للعقل ظاهر للعيان "وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ" "وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ". واستفهم "أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ"فهم يروها أمام أعينهم فهل هناك وضوح غير ذلك ؟ فالنظم قرر وضوح دلائل الإعجاز وبيان قدرة الله جل وعلا بخلق الأرض وهم أنفسهم يمشون فيها ، ويرون الطير بأعينهم أنها ثابتة في السماء لا يمسكها إلا الرحمن ، وقررهم بأنه هو الناصر الرازق - سبحانه - ، ثم خاطب عقولهم في القياس بين أيهما أهدى من "يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ" وذكر تفضله عليهم بأدوات الإدراك "السمع والإبصار والأفئدة"

1- الملك : 10

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقررهم بقدرته في إخراج الماء لهم خاصة وأن أهل مكة لم يكن لديهم نهر جار أو غـيره بل يعتمدون على العيون فكيف إذا غارت هذه المياه في الأرض ؟!

فسياق السورة القبلي والبعدي بين قدرة الله جل وعلا في الخلق وقـرر الكفـار بقدرة هم أنفسهم لم ينكروها بل كانوا يقرون بها ولكن الكبر منعهم من الإيمان ، لـذا حين ورد النظم في توبيخهم لأنفسهم وإعلان ندمهم ، ورد بتأنيب أنفسهم بأنهم غـاب عنهم العقل والسمع لأن الأمور كانت ظاهرة أمامهم ولكن لم يؤمنوا . "وَقَالُوا لَوْ كُنَّـا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ" ، فبدأ النظم بالحكاية عـن قـولهم وهـذا الاعتراف منهم أنفسهم يدل على أن الأمور كانت ظاهرة لا خفاء فيها وهذا ملائم للعقل ، "لو كنا نسمع" والمقصود هنا سماع استجابة لأن مجرد السماع لا ينفعهم في معرفة الحق ، والجملة هنا وردت شرطية "بلو" فامتنعت نجاتهم من النار لامتناع سماعهم وعقلـهم ، ونلاحظ أنه أطلق السمع فقال "نسمع" و لم يحدد ماذا يسمعون وفي هذا دلالة على كثرة الآيات والدلائل التي كانت ظاهرة ولكنهم لم يستجيبوا لها و لم يعقلوها . فانتفاء الـسمع بإعراضهم عن تلقي دعوة الرسل مثل ما حكى الله عن المشركين "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَـرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ" وانتفاء العقل بترك التدبر في آيات الرسل ودلائل صـدقهم فيمـا يدعون إليه[1] . واستعمال الفعلين بالمضارعة فلم يقولوا "سمعنا وعقلنا" بل قالوا "نسمع أو نعقل" دلالة على أن الإنذار بالقول لم يكن مرة واحدة وانتهى بل كـان مـستمراً ، وكذلك الدلائل كانت مستمرة ظاهرة أمامهم ولكنهم عطلوا أدوات إدراكهم على كثرة وامتداد الدلائل والإنذار وما كان مستمراً لا بد وأن يكون ظاهراً مدركاً للعقل ولا يغفله إلا من لا عقل له ، ولا شك في أن أقل الناس عقلاً المشركون لأنهم طرحوا ما هو سبب نجاتهم لغير معارض يعارضه في دينهم ، إذ ليس في دين أهل الشرك وعيد على ما يخـالف الشرك من معتقدات ، ولا ما يخالف أعمال أهله من الأعمال فكان حكم العقل قاضـياً بأن يتلقوا ما يدعوهم إليه الرسل من الإنذار بالامتثال إذ لا معارض له في دينـهم لـولا الإلف والتكبر بخلاف حال أهل الأديان أتباع الرسل الذين كانوا على دين فهم يخشون

1- التحرير والتنوير: 26/29

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إن أهملوه أن لا يغني عنهم الدين الجديد شيئاً فكانوا إلى المعذرة أقرب لــولا أن الأدلــة بعضها أقوى من بعض[1] .

وجمع بين السمع والعقل لأن مدار التكليف على أدلة السمع والعقل، فالعقل يرشــد إلى العقائد الصحيحة والسمع يختص بالأحكام الشرعية[2] . فقوام الصلاح في حسن التلقــي وحسن النظر وأن الأثر والنظر أي القياس هما أصلا الهدى ، و"أو"للتقسيم باعتبار نــوعي الأحوال التي تقتضي حسن الاستماع تارة إذا ألقي إليها إرشاد وحسن التفهم ، والنظــر تارة إذا دعيت إلى النظر من داع غير أنفسها أو من دواعي أنفسها . ووجه تقديم السمع على العقل أن العقل بمترلة الكلي والسمع بمترلة الجزئي للترتيب الطبيعي لأن سمع دعــوة النذير هو أول ما يتلقاه المنذرون ثم يعملون عقولهم في التدبر فيها . كما إن الــسياق في الإدراك فقدم أداة الإدراك "السمع" على الإدراك "العقل" [3]. ويظهر لي أن كــون "أو" للتسوية هنا وجه فسواءً سمعوا أو عقلوا لاهتدوا شريطة أن يكون السماع سماع إجابــة . فإذن لفظة العقل قارة في مكانها ، فلم يكن أمر الإيمان مع هذه الدلائل الظاهرة يحتاج لبا متعمقا في الفكر بل إلى عقل مدرك وحسب .

1- التحرير والتنوير:26./29.

2-الكشاف:173/6.

3_التحرير والتنوير:26/29.

***

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفصل الثاني

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفصـل الثاني

بلاغة القرآن في التعبير عن القلب وما في معناه في سياق أحوال المخاطبين

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : سياق أحوال المخاطبين الكفار

المبحث الثاني : سياق أحوال المخاطبين المؤمنين

المبحث الثالث : سيـاق أحـوال الرسـول ﷺ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المبحث الأول : سياق أحوال المخاطبين الكفار :

في سياق أحوال المخاطبين من الكفار والمنافقين واليهود وضعاف الإيمان وردت صفات مشتركة لهم في مواضع من القرآن في حين اختصت كل طائفة بصفات أخر في مواضع أخرى وقد ورد في هذه الصفات القلب أو ما في معناه بما يلائم حال المخاطب والسياق في كل موضع .

وسأعرض أولاً للصفات المشتركة ، ثم للصفات التي اختصت بها كل طائفة

أولاً الصفات المشتركة :

الآيات الواردة في ذلك :

1- قوله تعالى : ﴿ **فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ**﴾ البقرة : 10

2- ﴿ **وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا** ﴾ الأحزاب : 12

3- ﴿**وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ**﴾محمد : 20

4- ﴿ **وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ** ﴾التوبة : 125

﴿**وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ** ﴾ المدثر:31

5- ﴿**أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾ النور : 50

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

6- ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴾المائدة : 52

7- ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ الأحزاب : 32

8- ﴿ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴾ الأحزاب : 60

9- ﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾الأنفال : 49

10- ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ الحج : 53

11- ﴿ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾التوبة: 87

12- ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ التوبة : 93

13- ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ محمد : 16

14- ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴾ **محمد:29**

15- ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ المنافقون : 3

16- ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ النحل : 108

﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الروم:**59**

17- ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ البقرة:7

18- ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ الأنعام:46

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

19- ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ الجاثية : 23

20- ﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾الأحزاب : 26

21- ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ الحشر : 2

22- ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴾ آل عمران : 151

23- ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾الأنفال : 12

24- ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾ آل عمران : 167

25- ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ الفتح : 11

26- ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ المائدة : 41

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

27- ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ التوبة : 8

فمن الصفات المشتركة : (**مرض القلب**) وقد وردت في وصف المنافقين وضعاف الإيمان ، - أما المواضع التي وردت في المنافقين فهي : -

1- قوله تعالى ﴿ **فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ**﴾ البقرة 10

2- وقوله : ﴿**و َإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّاغُرُورًا** ﴾ الأحزاب 12

3- وقوله : ﴿ **وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ** ﴾ محمد 20

4- وقوله : ﴿ **أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ** ﴾ محمد :29

5 - وقوله : ﴿**وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ** ﴾ التوبة : 125

6- وقوله : ﴿ **وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ** ﴾ المدثر : 31

7 - وقوله : ﴿**أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾ النور 50

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والمواضع التي احتملت[1] ضعاف الإيمان هي :

1- قوله تعالى : ﴿ **فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ** ﴾ المائدة 52

2- وقوله: ﴿**يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا** ﴾ الأحزاب : 32

3- وقوله : ﴿ **لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا** ﴾ الأحزاب : 60

4- وقوله : : ﴿**إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ا** ﴾ الأنفال : 49

5- وقوله : ﴿**لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ** ﴾ الحج : 53

ونلاحظ أنه في جميع هذه المواضع هناك أمور مشتركة في ورود الألفاظ سواء في مادها أو في تركيبها ، وأمور مختلفة تبعاً لكل سياق ونظم وكلها تؤكد قرار القلب ، في نظمها وسياقها .

أما الأمور المشتركة فهي :

أولاً : التعدية بفي " في قلوبهم " حيث ورد في النظم حرف الجر (في) دون غيره فلم يقل بقلوبهم مرض ولا على قلوبهم؛ وذلك لما في دلالة (في) على الظرفية الدالة على شدة تمكن المرض منهم حتى صارت قلوبهم ظرفاً للمرض ووعاءً له [2] ، وهذا ملائم لمعنى الثبات في القلب .

1- ذكرت الاحتمال فيها لخلاف المفسرين في صرفها للمنافقين أو لضعاف الإيمان

2- ينظر : من أسرار التعبير القرآني دراسة تحليلية لسورة الأحزاب :د.محمد أبو موسى,القاهرة,مكتبة وهبة,ط1, 1426هـ-1996م:110

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثانياً : ورود لفظة " قلوبهم" بمادتها وتركيبها الذي وردت عليه في جميع المواضع ، فقد خص القلب بالذكر في جميع المواضع دون غيره من الأعضاء ؛وذلك لأنه هو المهم فيها فهو الذي ينتج عنه التأثير في بقية الأعضاء فالمعول على القلب لا غيره ، كما إن القلب هو موطن العيب وظرف القدح والذم ، فلو كان سبب المرض عيباً في أبدانهم لما كان هناك قدح .

ووردت اللفظة جمعاً " قلوبهم " وذلك للدلالة على أن هذا المرض سمة عامه فيهم ، كما إنها مضافة إليهم بضمير الغائب ، وكان يمكن أن تأتي معرفه (بـأل) أو بالإضافة ولكن بغير هاء الضمير كأن يكون النظم مرض في القلوب ، أو مرض في قلوب المنافقين ، وذلك لإفادة إهمال واستبعاد هؤلاء المنافقين واستصغار شأنهم وهذا ما اختصت به هاء الغائب ، كما إن في هذه الإضافة دليل اختصاص هذه القلوب بهم دون غيرهم فليست قلوبهم كقلوب الكافرين ميتة ولا كقلوب المؤمنين حية ، بل هي مذبذبة بين هذا وذاك فلا هي حيه فترجى ولا ميتة فتنسى .

ثالثاً : تقديم في قلوبهم على المرض ، وذلك للاهتمام بالقلوب وكون المعول عليها كما سبق أن ذكرت .

رابعاً : ورود مادة المرض دون غيرها من المواد الأخرى التي قد تؤدي المعنى كالسقم ، أو العيب ، أو الضعف ،..... وصيغتها بالنكرة في كل المواضع.

فمعنى المرض : الخروج عن الاعتدال الخاص بالإنسان قال صاحب المفردات ويسمى النفاق مرضاً إما لكونه مانعا عن إدراك الفضائل كالمرض المانع للبدن عن التصرف الكامل ، وإما لكونها مانعة عن تحصيل الحياة الأخروية ، وإما لميل النفس إلى الاعتقادات الرديئة كميل البدن المريض إلى الأشياء المضرة .(1)

1- المفردات في غريب القرآن : 469

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكل المعاني التي دار عليها معنى المرض تدل على النقص والعيب يدلنا على ذلك استعمال العرب لها حيث يقال أمرض الرجل إذا وقع في ماله العاهة ، والمُراض بالضمّ داء يقع في الثمرة فتهلك ، وليلة مريضة إذا تغيمت السماء فلا يكون فيها ضوء ، ورأي مريض : فيه انحراف عن الصواب ، وكل ما ضعف فقد مرض ، وقال ابن الأعرابي : أصل المرض النقصان, وقال : المرض إظلام الطبيعة واضطرابها بعد صفائها واعتدالها [1] .فكل استعمالات العرب للفظة فيما يعاب ويخشى منه ففيه زيادة التحقير والازدراء وليس ذلك في السقم لذا وردت دون غيرها ، كما إننا حين ننظر لاستعمال القرآن لها نجد أنه يستعملها في أصحاب الأعذار سواء الذين يعذرون في الجهاد أو الذين يخفف عنهم الأحكام في الصيام أو الصلاة أو غيرها وما ذلك إلا دلاله عن نقصهم عن غيرهم فيخفف عنهم في حين لم يستعمل السقم في هذه الأعذار .

كما إن في المرض دلالة على طول أمده ؛ لذا ناسب استعماله هنا مع المنافقين وضعاف الإيمان ففيه لزوم كما إن في كثرة ما يضاف إليه المرض كأن يقال ليلة مريضة ، ورأي مريض ولا يقال ذلك في السقم . دلالة على قوة الوصف وهذا ملائم لتمكنه في القلب. وقال في ذلك د . عبد الحليم حفني : إنما يعني أن في المنافقين شذوذاً على الخلقة السوية لبني آدم ، ومن الخلقة السوية فيهم الترعة الدينية التي يعبر عنها علماء النفس والاجتماع بغريزة التدين ، بمعنى الإحساس الفطري لدى الإنسان بوجود قوة عليا في الكون هي ألوهية الله - سبحانه - مهما تصورها في صنم أو غيره والتي يعبر عنها في الدين بالفطرة ، فالحس الديني الصحيح مركوز في طبيعة البشر ، وهي الطبيعة السوية لهم ، ولكن كما يوجد الشذوذ في كل شيء ، وفي كل قاعدة فكذلك يوجد في الطبيعة البشرية ، والمنافقون يمثلون هذا الشذوذ عن الطبيعة السوية ، والقرآن يعبر عن شذوذهم بما هو أدق وهو المرض . لأن المرض ليس له حدود أو صورة معينة بل هو شديد التفاوت والتنوع ، وكذلك النفاق (2) .

1- لسان العرب : 4181/6

2-التصويرالساحر في القرآن الكريم:101,102

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أما بنية المرض فقد وردت بالتنكير وهذا التنكير للنوعية فهذا المرض غير معـــروف ولا معهود كما إنه مرض يختلف من شخص لآخر حسب نفاقه أو ضعف إيمانه .

وقد حمل المرض في هذه المواضع على المجاز ويظهر لي أن الحقيقة أولى من المجاز فقد دل النظم الحكيم من أول الأمر بالتنكير على أن هذا المرض غير معروف للمخـــاطبين ، وما حمل المرض على المجاز إلا للفرار من عدم مشابهته للأمراض المعهودة المعلومة ، وهـــذا ما يقوم به التنكير [1] .

خامساً : التعريف بالموصولية في جميع المواضع عدا موضع البقرة .

- سيوضح السبب في تفصيل الآية ذاتها - " الذين في قلوبهم مرض " ؛ وذلك لأنهم معلومين للمخاطبين، أو كالمعلومين وذلك لتمكن المرض من قلوبهم فظهرت آثـــاره لمـــن حولهم .

سادساً : التعبير بالجملة الاسمية : لدلالة لزوم وثبات هذا المرض فيهم وهذا ملائم لحال المنافقين ، فلم يذكر عالم من العلماء أن أحداً من المنافقين رجع للإيمان أو آمن وحـــسن إيمانه ، فالنفاق لازم باق مع صاحبه وهذا اللزوم يؤيده كونه في القلوب وكون التعديـــة بفي ، واستعمال مادة المرض خاصة . فهو مرض يصعب بحال من الأحوال علاجه .

وكما اشتركت المواضع في أمور في النظم فقد اختص كل موضع بنظم يلائم سياقه وحال المتحدث عنهم ففي قوله تعالى : ﴿ **فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً وَلَهُـــم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ**﴾ [2]. الآية الواردة في صفات المنافقين فالغرض هنا هـــو الإخبار عن وصفهم وهذا أقوى وأدخل في بيان نفاقهم ، ويدل هذا على أن درجة نفاقهم كبيرة يؤكد على ذلك السياق حيث تقدم الحديثَ على المنافقين الحديثُ عـــن صـــفات طائفتين أولهما المتقون ، وقد وصفوا بصفات تدل على سبب بلوغهم درجـــة عاليـــة في التقوى ، حيث تمكنت في قلوبهم فآمنوا بالغيب وأقاموا الصلاة وأنفقوا في سبيل الله وآمنوا بما أنزل إليهم وما أنزل مـــن قبـــلهم وأيقنوا بالآخـــرة فـــــزادهـــــــم الله هـــدى

1- ينظر شروح التلخيص : مختصر العلامة سعدالدين التفتازاني ,مواهب الفتاح في شرح التلخيص :ابن يعقوب المغـــربي ,عـــروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح:بهاء الدين السبكي ,بيروت ,دار الإرشاد الإسلامي :348/1

2- البقرة : 10

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأخبر عنهم بأنه " هم المفلحون " والفلاح لا يكون إلا لمن كمل إيمانه ، ثم حين ذكر الكافرين ذكر منهم الفئة التي تمكن الضلال من قلوبهم فلا يمكن أن يؤمنوا ، فقد "ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة " .

وبالتالي حين يذكر فئة المنافقين في مقابل هاتين الفئتين لابد أن يذكر حال تمكن النفاق في قلوبهم وسببه فلذا كان الملائم أن يخص بالذكر القلوب وأن يطيل في ذكر صفاتهم .

ونلحظ أن القرآن لم يعرفهم بالموصولية بل ورد قوله تعالى " في قلوبهم مرض " دون ذكر اسم الموصول ، وذلك لأنه عرّف بصفاتهم أولاً فلما عرّفوا بصفات معينه أصبحوا معروفين للمخاطبين فهم كالمعلومين لهم فلا حاجة إذن لذكر الموصول . والصفة لم تذكر ابتداءً في النظم ولا خاتمة فلم يبدأ في ذكر المنافقين بـ " في قلوبهم مرض " بل ذكر قبلها صفات عدة ، كما إن النظم الحكيم أيضاً لم يختم بها صفات المنافقين وذلك لكي لا تعد سبباً لما يعقبها من الصفات ، ولا نتيجة لما سبقها ، بل صفة مرض القلوب في المنافقين في هذا الموضع صفة من ضمن صفات عدة لهم وهذا أدخل في ذمهم وأقوى في الدلالة على شدة نفاقهم واختص هذا الموضع بقوله " فزادهم الله مرضاً" وهذه الزيادة دلالة لاكتمال المرض وتمامه فيهم فهم بسبب توغلهم في الفساد ومحاولتهم ما لا ينال لأن في قلوبهم مرض ولأنه مرض يتزايد مع الأيام تزايداً مجعولاً من الله فلا طمع في زواله [1].وإعادة " مرضاً "منكراً لكونه مغايراً للأول ضرورة أن المزيد يغاير المزيد عليه [2] وعلى قاعدة إعادة النكرة نكرة .

1- التحرير والتنوير : 1/ 278
2- البحر المحيط : 1/ 190

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي قوله تعالى : ﴿ **وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِـــمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا** ﴾ (1)

وصف المنافقين بـــ "في قلوبهم مرض " غير أن هذا الموضع مختلف عن سابقه فليس وصف قلوبهم بالمرض مقصودا لذاته وإنما ذكر في سياق الدفاع عن الرســـول ﷺ ضـــد هؤلاء المنافقين فالاعتناء هنا بأقوالهم المؤثرة في جموع المسلمين ســـواء في التقـــول علـــى الرسولﷺ في زواجه من زينب أو التقول في ضعف المسلمين وقوة المشركين وغير ذلـــك من الأقوال المرجفة فكل السور مبنية على أقوال للمنافقين ناشئة عن مرض قلوبهم .

كما إن النظم عبر عنهم هنا بالموصول ليكونوا معروفين للمخاطبين أو لأنه لم يسبق وصف لهم يغني عن التعريف بهم باسم الموصول (الذي).

والآية هنا واردة في المنافقين ولا تحتمل البتة ضعاف الإيمان وإن ورد فيها العطف والعطف يقتضي التغاير وقد قال باحتمالها ضعاف الإيمان : الزمخشري ، وابن حيان ، وأبو السعود ، والطاهر بن عاشور ، والألوسي في أحد قوليه وجوز في الآخر أن يكون المـــراد بهم المنافقين والتغاير للوصف لا للذات .ورأى البقاعي أنها في المنافقين خاصةً(2) ويظهر لي أن الأرجح رأي الألوسي الثاني وهو كونها في المنافقين والتغاير إنما هو لتغـــاير الـــصفات وعطف الذين في قلوبهم مرض على المنافقين وهم هم ليفيد هذاالعطف أنهم جمعوا بـــين النفاق وبين مرض القلب ولو حذف الواو لكان الذين في قلوبهم مرض وصفاً للمنافقين ، ولذهب معنى الجمع بين الصفتين الذي أفادته الواو (3) .

1- الأحزاب : 12

2- الكشاف عن غوامض التنزيل وعيون الأقاويل : 55/3 ، البحر المحيط : 212/7 ، تفسير أبي السعود : 215/ ، روح المعاني : 8/ 156 ، التحرير والتنوير : 207/21 ، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : 82/6 .

3- الكشاف :55/3 ، البحر المحيط : 7/ 212

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

و سياق الأحزاب ورد في فترة استعلى فيها النفاق وقويت شوكة المنافقين ، كما إن الأقوال الواردة بعد ذلك عن هؤلاء لا يمكن أن يقولها من لامس الإيمان قلبه وإن كان ضعيفاً حين قالوا " يا أهل يثرب لا مقام لكم " وكانوا أشحة عليكم " – أي على المؤمنين . " سلقوكم بألسنة حداد " أشحة على الخير " كما قال " أولئك لم يؤمنوا " فنفى عنهم الإيمان بالكلية فهم " لم يؤمنوا " فلم يسبق لهم إيمان البتة ، ولم يذكر أنهم آمنوا بعد ذلك .

كما إن نظم الآية بيّن سخريتهم واستهزاءهم بأقوى الأساليب حيث عبروا بالقصر " ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً وقالوا "رسوله " في حين أنهم لا يعتقدون أن محمداً ﷺ رسول ولكن سخرية منهم وقولهم "غروراً" والغرور هو الشيطان ، وهو إيهام يحمل الإنسان على فعل ما يضر وأصله الغفلة[1] ولا يمكن أن يصدر هذا القول إلا من قلب مريض ، وهذا الوصف " الذين في قلوبهم مرض " يبين العلة وما دام القرآن وصف إناءهم ، أي قلوبهم بالمريضة فالقول يكون من جنس الإناء ، والقاعدة أن كل وصف بعده حكم أو قول يدل على أن الحكم أو القول معلل عن الوصف السابق .

وحين نقابل قولهم بما صدر عن المؤمنين حين الفزع نتيقن قرار القلب في نظمها فما صدر من المنافقين لا يمكن أن يكون إلا من خلل في قلوبهم خاصة ، أما المؤمنون فعلى اشتداد الكرب إلا أن الأمر لم يجاوز حديث نفس " وتظنون بالله الظنونا " .

ومع ذلك عوتبوا عليه . ولكنهم ثابتون على الإيمان لثباته وتمكنه في قلوبهم ، ولكن حين حصل الخلل والعيب في قلوب المنافقين صدرت عنهم تلك الأقوال .

1- المفردات في غريب القرآن: 361

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي موضعي سورة محمد ﴿ **وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ** " [1] و" **أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ** ﴾ [2].

أيضاً وصف المنافقين بـ " الذين في قلوبهم مرض " و المرض ليس مقصوداً لذاته وإنما المقصود الإخبار عن فعلهم في الخوف وفي الأمن ، وكلا الموضعين قد بنيا على التعريف بالموصولية ، وهذا لا يكون إلا في معرض التشخيص لهؤلاء وتحديد سمتهم كأنهم يتحركون ، ولذا جاء في السياق ما يكشف عن أفعالهم ففي الموضع الأول " ينظرون إليك " وفي الثاني " لأريناكهم " ففعل الرؤية في الموضعين كاشف عنهم ومحدد لهم ، وهذا يتناسب مع التعريف بالموصولية .

كما إن في التعبير عن أفعالهم بالفعل المضارع "ينظرون إليك" يجعل الصورة متحركة أمامنا توضح أفعالهم التي فعلوها وهي أفعال متجددة من المنافقين في كل زمان ومكان ، وهذا يدل على تمكن مرض قلوبهم وفي الموضع الثاني كشف ضغائنهم حيث عرفهم الرسول بسيماهم ، وفي لحن قولهم وهذا الوضوح في أفعالهم دليل على تمكن النفاق منهم حتى ظهر في أفعالهم وأقوالهم .

كما إن ورود الخبر بدون مؤكدات دليل آخر على ظهور الأمر فيهم ، وكذلك اعتبار العموم في الخطاب يتلاقى مع الموصولية في كون ذلك المرض معروف عنهم .

وقد وصف النظم هنا حالهم في الخوف ، و حالهم في الأمن وهناك فرق شاسع في فعالهم في الحالين يدل على عدم اعتدال قلوبهم واضطرابها ويشابه هذا النظم نظم الأحزاب الذي صور أيضاً حالهم في الأمن وحالهم في الخوف ففي موطن الخوف " ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت " .

---

1 - محمد: 20

2 - السابق: 29

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حيث غشيت حركة عيوهم واضطراهم بغشاء المسجى الذي خذلته قواه ، وهـــمّ بفراقه نبض القوة والحياة ، وفي اختبار نظر المغشي عليه من الموت ، صـــورة صـــادقة لهؤلاء الخوارين الذين يملأ قلوبهم الجمود والموت ، والذين وصفهم بمرض القلوب ، وإذا طال زمن مرض القلوب استشرى فيها داؤها ، ومات كل معنى من معاني الحياة الـــتي لا تجد لها مقراً إلا في صحاح القلوب . (1)

ونلاحظ أن تصوير الخوف في الأحزاب أقوى لأن دواعيه أقوى حيث صرح النظم بمجيء الخوف " فإذا جاء الخوف " وفي هذا التشبيه تصوير للخوف في صورة حي مخيف يتحرك ويجيء وهذا أدعى للخوف ، وزاد على كوهم ينظرون نظر المغشي عليه " تـــدور أعينهم " فالأعين ذاها لا الأحداق تدور وهذا أدل على شدة الخوف ، لكنهم في حـــال الأمن " سلقوكم بألسنة حداد " وفي سورة محمد " فهل عسيتم إن توليتم أن تفـــسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم " و " ذلك بأهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم " .

فهم في حال الخوف أشد خوفاً ورعباً وفي الأمن أشد عتواً وكفراً وما هذا التـــضاد في الحالين إلا نابع من مرض في قلوبهم وإلا لداموا على فعل واحد في الحالين ولكن قـــد اضطربت قلوبهم ومرضت وخرجت عن اعتدالها . وفي ذكر الحالين زيادة توبيخ واستهزاء لهؤلاء المنافقين .

ولكننا نلاحظ أن في نظم الأحزاب في الآية التي بين فيها فعلهم في الأمن والخـــوف لم يصرح بصفة " الذين في قلوبهم مرض " وذلك لأنه تقدم في صـــفاهم " الـــذين في قلوبهم مرض " قريباً فهو مصروف إليهم يقيناً أما في (محمد) فلم يسبق وصـــفهم بهـــذا الوصف ، فالعلة موجودة في سورة الأحزاب لكن استغنى عنها بما سبق .

1- من أسرار التعبير القرآني دراسة تحليلية لسورة الأحزاب : 139

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وحين نربط موضعي محمد بما قبلهما نجد قبلها " فاعلم أنه لا إله إلا الله وأستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم " والعلم اليقين لايكون إلا في القلب المتيقن بأن الله يعلم المتقلب والمثوى يستدعي القيام للجهاد إذا وقر في القلب وبالنظر أيضاً إلى سياق محمد عموماً نجدها في الجهاد ولما كانت قلوب المؤمنين سليمة تشوقوا للجهاد ، ولضعف ومرض قلوب المنافقين تخوفوا وهربوا منه والتشوق إلى الجهاد أو الخوف منه عمل قلبي ينتج كل منهما من سلامة القلب أو من مرضه .

وفي قوله تعالى : " وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ "(1).

وردت كذلك " الذين في قلوبهم مرض " والسياق في التوبة في كشف المنافقين من جميع الوجوه في الأفعال والأقوال وفي صفاقم الداخلية لذا كان الإطناب ، والتفصيل واضح بل سمة عامة فيها ، وليس المرض مقصوداً لذاته بل ورد لكشف قولهم وموقفهم من الآيات وأثر الآيات فيهم .

فالتأثير في المؤمنين أو في المنافقين كان مركزاً على القلب فالذين آمنوا زادهم إيماناً ، وزيادة الإيمان كماً وليست كيفاً لأن أصل الإيمان موجود ولكنه يزيد بالطاعة ، وأما "الذين في قلوبهم مرض " والذين استهزؤوا بالآيات بقولهم " أيكم زادته هذه أيماناً فقد زادهم" رجساً إلى رجسهم " وصفهم بمرض القلوب لأن هذا القول الساخر المستهزئ لا يصدر إلا من قلب مريض .

ونلاحظ دقيقة هنا أنه لم يتعرض لصفة قلوب المؤمنين البتة فلم يقل في مقابل " الذين في قلوبهم مرض " الذين قلوبهم صحيحة أو السليمة قلوبهم ، وذلك لأن قلوب المؤمنين باقية على أصلها والشيء الباقي على أصله لا يذكر ولا يسأل عنه ، في حين أن الذين في قلوبهم مرض خالفوا الأصل لذا ذكر الصفة التي خرجوا إليها .

1-التوبة :125

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد خص القرآن هنا زيادة الرجس إلى الرجس لزيـــادة الـــتحقير والإهمـــال ، والرجس الشيء القذر[1].

وكل ما سيق في التوبة فيه إهمال للمنافقين " ولكن كره الله انبعاثهم فثـــبطهم " ، " ولا تصل على أحد منهم مات أبداً " و " فأعرضوا عنهم إنهم رجس"

فكأن هؤلاء المنافقين في ركن بعيد ويجب تجنبهم لذا لاءم ورود الرجس هنا ، ثم أكد القرآن على بعدهم وخزيهم بأن " ماتوا وهم كافرون " فلزمهم النفاق حتى مـــاتوا عليه فماتوا كافرين مخالفين للحق لذا ورد الوصف بالجملة الاسمية " وهم كافرون " لدلالة ثبات هذا الحال ثباتا يلاءم قلوبهم المريضة التي استفحل فيها المرض حتى ماتت على الكفر.

وفي قوله تعالى : **﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَـــةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّـــهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ ﴾** [2]

أيضا المرض ًفي هذا الموضع ليس مقصوداً لذاته وإنما المقصود أثره والأثر الناتج هنا سخرية الذين في قلوبهم مرض من الآيات " ماذا أراد الله بهذا مثلاً " والسياق هنا يتكلم عن موقف الطوائف المختلفة من الآيات : الذين كفروا ، وأهل الكتاب ، والذين آمنـــوا والذين في قلوبهم مرض .

وأثر الآيات في جميع الطوائف كـــان قلبيـــاً فـــاليقين في القلـــب ، والإيمـــان في القلب ، وعدم الريبة أيضاً تكون من القلب فالذين آمنوا وأهل الكتاب الذين أتبعوا الحق لأن قلوبهم باقية على الفطرة الصحيحة كان الأثر صحيحاً ، ولكن حين مرضت قـــلوب

1- المفردات في غريب القرآن : 194

2- المدثر :31

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المنافقين والكافرين كان الموقف مريضاً تبعاً للقلب الذي ينبع منه ومقولهم " ماذا أراد الله بهذا مثلاً " ليس سؤال جهل بل هو سخرية واستهزاء بالآيات ولا يكون ذلك إلا من قلب مريض .

قال صاحب نظم الدرر : إن إبراز الأحكام على وجه الغموض من أعظم المهلكات ، لأن المنحرف الطباع يبحث عن عللها بحثاً متعنتاً ، فإذا عميت عليه قطع ببطلان تلك الأحكام أو شك وربما أبى الانقياد . [1] وقوله منحرف الطباع دليل على أن المنافقين والكافرين فيهم استعداد للانحراف وما ذلك إلا لمرض قلوبهم .

وحين نقابل موقف هؤلاء المرضى القلوب بموقف من تبع الحق نعلم أن الآية في المنافقين لا ضعاف الإيمان وذلك لأن النظم جمع لأهل الحق إثبات اليقين ونفي الشك ، فكأن هذا آكد وأبلغ لوصفهم بسكون النفس وثلج الصدر وبالمقابل عرض بحال من عاداهم [2] فبالتالي هم أكثر شكا وفتنة في الدين واشتداد المرض فيهم يجعلهم في طائفة المنافقين .

وقد جعل القرآن فعل هؤلاء ضلال فقوله " كذلك يضل الله من يشاء " فذكر القرآن " كذلك " دلالة أنه قد سبقها ضلال أول ، وهذا الضلال إنما هو قول الذين في قلوبهم مرض والكافرون " ماذا أراد الله بهذا مثلاً " والهداية "يهدي من يشاء " في يقين وعدم ارتياب أهل الكتاب وازدياد الذين آمنوا إيماناً .

1- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور :232/1

2- الكشاف : 259/6

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقوله : "أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمَ الظَّالِمُونَ "(1)

في سياق إعراض المنافقين عن حكم الرسولﷺ . ونظم الآية يتساءل عــن سـبب إعراضهم عن حكم رسول الله ﷺ فعرض لصفات معروفة في المنافقين فذكر أولاً مــرض قلوبهم ، ثم الريبة التي سكنت في قلوبهم ، ثم ختم التساؤل بــ هــل سـبب إعراضــهم خوفهم أن يظلمهم الله ورسوله –تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - وكل هذه الـصفات فيهم عموماً ، فقلوبهم منحرفة عليلة لذا صدرت منهم أفعال تدل على هــذا المــرض ، وكذلك هم مرتابون يشككون في الحق .ولكن في هذا الموقف خاصة وهو التحــاكم إلى رسول الله - ﷺ - سبب إعراضهم ليس مرض قلوبهم ولا ريبتهم ولا خوفهم من" أن يحيف الله ورسوله عليهم ، فلا يتصور البتة أن يظلمهم الرسول ولا يقع حتى في قلوبهم هم لعلمهم بعدل الرسول ﷺ ؛ - لذا أضرب القرآن عما سبق " بل أولئك هم الظالمون " فبين أن سبب إعراضهم إنما هو ظلمهم ، وقد وصفهم ب " أولئــك هــم الظــالمون " بالإشارة إليهم .بما يوحي ببعد مترلتهم في الكفر والفساد (2) وعبر بالجملة الاسمية وعرف الخبر "الظالمون " وأتى باسم الفاعل وكل ذلك مؤكد إلى اكتمال الظلم فيهم وثباتــه في قلوبهم وهو ثبات يلائم حال المنافقين ولزوم نفاقهم .

وتعداد هذه الصفات لهم ثم الإعراض عنها لذمهم واحتقارهم حيث ذكر الصفات المنحرفة فيهم عموماً ، ثم خصص العلة الأساسية التي دعتهم للعــدول عــن حكــم الله ورسوله .

---

1 - النور : 50 .

2 - تفسير أبي السعود : 474/4 .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ونلاحظ في المواضع التي احتملت ضعاف الإيمان أن مرض القلوب لم يقصد بذاته أيضاً وإنما المقصود الآثار المترتبة على أمراض القلوب وقد تنوعت تبعاً لقوة هذا المرض أو لضعفه وللموقف الذي حصل فيه الفعل أو القول . ونلاحظ أن هناك مواضع لا يمكن صرفها البتة للمنافقين بل هي يقيناً في ضعاف الإيمان ، وهناك مواضع أخرى تحتمل المنافقين أو ضعاف الإيمان نرجح بينهما من خلال السياق والنظم .

ففي الموضع الأول في قوله تعالى ﴿ **فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ** ﴾ (1) قال المفسرون : هي في المنافقين وقيل هي في المنافقين أو في مؤمني الخزرج من الذين تابعوا جهالة وعصبية ، ويظهر لي أنها واردة في ضعاف الإيمان بدلالة السياق والنظم فالسياق السابق في خطاب المؤمنين حيث بدأ السياق القريب بقوله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض " و لم يرد البتة في نظم القرآن جميعاً مناداة المنافقين بـ " يا أيها الذين آمنوا " هذا وجه .

ومن وجه آخر نلاحظ أن قوله تعالى " ومن يتولهم منكم فإنه منهم " بنى عليه قوله " فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم ... " وفي الآية ضمير يعود على المؤمنين "منكم " فإذن الذين في قلوبهم مرض جزء من هؤلاء . فلا يمكن إذن أن يقصد بهم المنافقين بل هم فريق الذين آمنوا ولكن ضعف إيمانهم لذا وصفهم بمرض القلب.

والأثر الذي صدر تبعاً لهذا المرض فعل وقول مريض كقلوبهم فالفعل المسارعة فيمن نهى الله عن موالاتهم ، والقول " نخشى أن تصيبنا دائرة " صرحوا بخوفهم من أن يصيبهم سوء جراء برائتهم من أعداء الله وموالاة أوليائه وهذا هو الخلل .

1- المائدة :52

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد يضعف المرض الذي في القلب وقد يقوى حتى يضمحل الإيمان بالكلية ويحبط عمل من ضعف إيمانه ونظم الآية يدل على أن المرض كان شديداً شدة أحبطت أعمالهم "حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين " و لم يرد إحباط العمل إلا مع الكافرين وهؤلاء ضعف إيمانهم حتى أضمحل .

يدل على ذلك نظم الآية في بيان فعلهم حيث قال " يسارعون فيهم " مستعملا مادة المسارعة والسرعة التقدم فيما ينبغي أن يتقدم فيه [1].وهذا المعنى يدل على أن فعلهم إنما هو نابع من قلب مريض اختلفت لديه المعارف فظنوا أن المسارعة في أعداء الله مما ينبغي المسارعة فيه وما هذا إلا لمرض قلوبهم .

وقد أورده النظم بالمضارعة الدالة على تجدد هذا الفعل آنا بعد آن وفي ذلك دلالة أن هذا حالهم عبر الأزمان . كما أوردها على صيغة المفاعلة وكأن أحد يشاركهم في ذلك ، وليس ذاك وإنما هو للدلالة على شدة هذه المسارعة فكأن هناك منافس لهم .

وقد عدي بـ (في) دون (إلى) وفي ذلك دلالة على شدة موالاتهم لليهود والنصارى حتى كانوا من شدة ملابستهم كأنهم مظروفون لهم كأن هذا الكلام الناهي لهم كان إغراء ,ويعتلون بما لا يعتل به إلا مريض الدين من النظر إلى مجرد السبب في النصرة [2]. وفي التعدية بفي مبالغة في بيان رغبتهم فيهم وتهالكهم عليهم وفي إيثار(في) دلالة على أنهم مستقرون في الموالاة [3]. كما استعمل القرآن المضارعة في حكاية قولهم " يقولون نخشى أن يصيبنا دائرة " وفي ذلك دلالة-أيضاً-على تجدد هذا القول منهم ، وما ذلك الفعل والقول إلا لتمكن المرض وهذا ملائم لأن يكون المرض في قلوبهم لا في غيرها .

لذا ورد الندم في شأنهم باسم الفاعل " فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين " ليكون ثابتاً عليهم وعبر بالإصباح لأنه لا أقبح من مصابحة السوء لما في ذلك من البغتة بخلاف ما ينتظر ويؤمل [4].

1- الفروق اللغوية : 230

2- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : 482/2

3- تفسير أبي السعود : 285/2

4- السابق :482/2

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكل ذلك ملائم لشدة مرض قلوبهم الذي أضعف إيمانهم حتى أصبحوا ظـــاهرين للرسولﷺ ؛ لذا بدأ النظم بقوله " فترى " وهذا ملائم لتعريفهم بالموصولية ، فهم قـــد عرفوا حتى ظهرت أفعالهم للعين .

وفي قوله تعالى : ﴿ **يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْـــضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا** ﴾(1) .

الآية واردة في ضعاف الإيمان وقد ذكر ذلك المفسرون (2) وقال ابن عطية : وهذا أصوب وليس للنفاق مدخل في هذه الآية (3). وهذا هو الراجح لدي أيضاً ، لأن السياق في شأن أمهات المؤمنين ولا يتصور أن يكلمن المنافقين أو أن يجرؤ المنافقون في الاقتــراب من بيت الرسول ﷺ . والحديث مع أزواجه رضوان الله عليهن .

وأثر مرض القلب هنا الطمع فيما لا سبب له في الحـــــقيقة كالطمع في نساء النبي ﷺ . وهذا الطمع لا يكون إلا من قلب فيه مرض وخلل ، وإلا فلا سبب ولا مسوغ له إلا علة كامنة في قلب ضعاف الإيمان .

لذا وردت لفظة " الطمع " وهو ما يكون من غير سبب يدعو إليه ، فإذا طمعت في الشيء فكأنك حدثت نفسك به من غير أن يكون هناك سبب يدعو إليــه ، ولهـــذا ذم الطمع و لم يذم الرجاء(4).

1- الأحزاب : 32

2 - الكشاف : 66/5 ، التفسير الكبير : 167/9 ، نظم الدرر في تناسب الآيات والـــسور :101/6 ، التحريـــر والتنـــوير : 21/241

3- المحرر الوجيز : 58/12

4- الفروق اللغوية :275

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال صاحب نظم الدرر : والتعبير بالطمع للدلالة على أن أمنيته لا سبب لهـا في الحقيقة لأن اللين في كلام النساء خلق لهن لا تكلف فيه ، فأريد مـن نـساء الـنبي ﷺ التكلف للإتيان بضده [1]. فأمهات المؤمنين لا يكون منهن ريبة البتة ولأن السياق في شأن أزواج النبي ﷺ . ورد النظم بالإفراد " الذي في قلبه مرض " وفي ذلك دلالة على القلة ، والقلة في عدد المرات وعدد الأشخاص ولذلك وجوه :

أولها : قلة من يحدثنه أمهات المؤمنين ــ رضي الله عنهن ــ

ثانيها : قلة من يحدث منه الطمع ممن يحدثن أمهات المؤمنين فقلة على قلة.

ثالثها : أنها صورة واحدة لا امتداد لها في الزمن لأنها مختصة بعهد الرسول - ﷺ -العهد الذي كانت فيه أمهات المؤمنين وهي فترة زمنية محدودة . وهذا يدلنا على أن الجمـع في المواضع الأخرى فيه دلالة على امتداد الزمن وكون ذلك متجددا في المنـافقين وضـعاف الإيمان زمناً بعد زمن .

رابعها : قلة الحاجة إلى الحديث مع أزواج النبي ﷺ . وخاصة في وجوده فالأولى سؤاله . وحتى بعد وفاته ﷺ الحاجة قليلة فسنته موجودة وقبلها كتاب الله ــ جل وعلا ــ .

وفي هذه الآية بيان لأثر مرض قلوب ضعاف الإيمان من ناحية ، وفيه مدح لأمهات المؤمنين حيث لم يكنّ ولن يكنّ موطن ريبة أو شك لذا استعمل معهن القرآن الطمع ، وجعله لا يصدر إلا من قلب مريض اختل لديه الوازع الديني وبالتالي اختلـت موازينـه للأمور .

وفي قوله تعالى :﴿ **لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُـونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا** ﴾ [2].

1- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور :101/6

2- الأحزاب : 60

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تحتمل " الذين في قلوبهم مرض " أن تكون في ضعاف الإيمـــان ، لأن الإرجـــاف بالفعل والقول قد يحصل من ضعاف الإيمان ومن ذلك ما حدث في حادثة الإفك حيـــث تحدث فيها بعض ضعاف الإيمان وهذا يعد من الإرجاف ، فيكون العطف لتغاير الذوات لا الصفات .

ولكن الأرجح أن تكون في المنافقين ، وذلك لأنه ورد بعدها لعن " ملعونين أين ما ثقفوا " ولم يرد اللعن والإبعاد مع ضعاف الإيمان في نظم القرآن كله ، فيكون العطـــف لتغاير الصفات لا لتغاير الذوات .

ونلاحظ على أن التغاير للذوات إلا أن القرآن عطف بالواو وذلك ليدلل على أنهم مشتركون في صفة واحدة فبعضهم من بعض فعلهم واحد وسمتهم في معـــاداة المـــسلمين واحد فكلهم ينشر الأقاويل والإشاعات لإضعاف المؤمنين .

قال ابن عطية : ويحتمل أن تكون هذه الأصناف متفرقة بعضها من بعض . ويحتمـــل أن تكون داخلة في جملة المنافقين لكنه نص على هاتين الطائفتين وقد ضمهم عمـــوم لفظـــة النفاق تنبيهاً عليهم ، وتشريداً بهم ، وغضاً منهم[1].

وكأن العطف باستقلال هذه الصفات ، وكأنهم بلغوا في كل واحدة المبلغ الـــذي يبلغه المقصور عليها[2] وهذا لدي أرجح لأن السياق _كما ذكرت_ الأولى أن يكون في المنافقين وهذا أدخل وأقوى في ذمهم وبيان حرصهم على تخذيل المسلمين .

وما ذلك الفعل إلا نتاج مرض قلوبهم وانحراف طبيعتهم عن الطريق السوي لذا كان ملائم وصف قلوبهم بالمرض هنا .

وفي قوله تعالى : ﴿ **إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ [3].

1- المحرر الوجيز : 119/12

2- من أسرار التعبير القرآني – دراسة تحليلية لسورة الأحزاب : 399

3- الأنفال :49

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ذكر القرآن أيضاً "الذين في قلوبهم مرض " بالعطف على المنافقين والعطف بالواو معناه التغاير فذهب بعض المفسرين إلى أن التغاير في الذوات فقالوا بأن المقصود المنافقين والذين في قلوبهم مرض : هم ضعاف الإيمان[1] وقال ابن عطية في ضعاف الإيمان ، لأنه لم يذكر أحد ممن شهد بدراً بنفاق [2].

ويظهر لي أن الراجح " الذين في قلوبهم مرض " أنهم المنافقون ، ذلك لأن في قولهم مشابه لقول المنافقين في موضع الأحزاب " ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً " مع اختلاف في أسلوب القول : فأسلوبهم في موضع الأحزاب أقوى وأعلى في النبرة من موضع الأنفال وذلك لأن موضع الأحزاب كان في عهد قد استعلى النفاق فيه وقويت شوكة المنافقين فكان قولهم أكثر قوة وصراحة في النفاق . أما موضع الأنفال ففي غزوة بدر وقد كان النفاق ضعيفاً حينها ، في حين أن شوكة المؤمنين أقوى وبالتالي ضعفت نبرة المنافقين فعرضوا بالقول تعريضاً في حين صرحوا في موضع الأحزاب.

ونجد الفوارق واضحة بين النظمين على الرغم من استعمال ذات الصفة " الغرور " ولكن في الأحزاب استعملوا كما سبق _ أسلوب القصر ، وتجرأوا على ذكر اسم الجلالة والرسول صراحة ونسبوا وعد الغرور لله ورسوله وهذا يدل على شدة نفاقهم واشتداد المرض في قلوبهم .

أما في الأنفال فقالوا " غر هؤلاء دينهم " حيث أشاروا إشارة بـ " هؤلاء " وإن كان فيها سخرية واستهزاء بالمؤمنين استهزاء دالا على أن القول نابع عن مرض قلبي إلا أنه أخف من أن يقصر وعد الله ورسوله على الغرور . كما إن في قولهم عموم للمؤمنين يعد أخف من خص الله ورسوله بالوعد . وكل ذلك دليل على أنهم منافقون اتفق قولهم مع المتأخرين ولكن كانت شوكتهم أضعف منهم . وفي كلا الموضعين القول أثر ناتج عن مرض قلوبهم ولا ريب .

1- الكشاف عن غوامض التنزيل وعيون الأقاويل: 590/2 ، التفسير الكبير : 493/5 ، البحر المحيط : 501/4

2- المحرر الوجيز : 339/6

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي قوله تعالى ﴿ **لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ** ﴾ [1].

المقصود بالذين في قلوبهم مرض في هذا الموضع ضعاف الإيمان ولا ينصرف للمنافقين ، لأنها كانت في العهد المكي ، ولم يعرف النفاق في ذلك العهد وإنما كان هناك مؤمنون وكافرون مجاهرون بالكفر .

ولكن سياق الآية ونظمها يؤكد على أن الضعف كان شديداً في هؤلاء ، خاصة أن العهد المكي كانت فيه أحداث عظام محصت المؤمنين حقاً من ضعاف الإيمان ولذا كثر من ارتد في هذا العهد ، وربما لأن هذه الفترة كانت الأساس والعمد لحمل الدعوة ونشرها فلا يحملها إلا من خلص إيمانه وقوى .

والسياق : في الشبهات التي يلقيها الشيطان وهي شبهات قوية يدلنا على كل دلائل في النظم . ـ سأعرض لها ـ .

أما الأثر الذي ترتب على مرض قلوب ضعاف الإيمان هنا هو افتتانهم بالشبهات التي يلقيها الشيطان والتي لا يتقبلها إلا من لديه استعداد قلبي وهذا لا يكون إلا من مريض قلب لأن الشبهة ليست صدقاً ولا حقاً ولكنها صادفت سبباً قوياً أوجد لها رواجاً وهو مرض القلب .

ويدلنا على شدة هذا المرض وقوة هذه الفتنة أمور عدة :

أولها : البدء في " ليجعل " باللام وهي مستعارة لمعنى الترتيب مثل اللام في قوله تعالى : " فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً " وهي مستعارة لمعنى التعقيب الذي حقه أن يكون بحرف الفاء ، أي تحصل عقب النسخ الذي فعله الله فتنة من أفتتن بانصرافهم عن التأمل في أدلة نسخ ما يلقيه الشيطان ، وعن استماع ما أحكم الله به آياته ، فيستمر كفرهم ويقوى [2].

1- الحج :53

2- التحرير والتنوير : 217/17

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال صاحب معجم حروف المعاني : اللام للعاقبة أو الصيرورة[1]. ولكل من القولين دلالة فالأول دال على أن فتنتهم مترتبة على نسخ ما ألقى الشيطان ، وهذا المعنى أدخل وأدل على تمكن المرض من قلوب من في قلوبهم مرض وكفر القاسية قلوبهم وأن ذلك متأصل في قلوبهم ، فالأولى أن يعودوا للحق لا أن يفتتنوا فافتتانهم دال على مرض قلوبهم أما العاقبة فهي دالة على أنهم عوقبوا بالفتنة لما علم في قلوبهم من إعراض ، والأول كما سبق أدخل في ذمهم حيث إن دلالته على انحرافهم أقوى لأنه ترتب على ما حقه أن يردهم إلى الحق ضلالهم .

ثانيها : جعل إلقاء الشيطان للفتنة متجدداً آنا بعد آن باستعمال المضارعة " يلقي " وتجدد الفعل يكون معه تجدد المرض وبالتالي استمراره وشدته .

ثالثها : ورود لفظة الشيطان دون غيرها . والشيطان قد يكون جناً وقد يكون إنسانا . وذلك لما فيها من معنى : شدة البعد عن رحمة الله أو البعد في الضلال وذلك إذا كانت من شطن أي تباعد ومنه بئر شطون [2]. وشدة القوة في الشر فالشيطان هو الشرير من الجن [3].

وكلا المعنين يدلان على شدة الفتنة أو بمعنى آخر شدة السبب يؤكد ذلك ورود فتنة بالتنكير الذي يظهر لي أنه للتعظيم .

لأن قوة الفعل نابعة من قوة فاعله والفاعل هنا الشيطان فلابد أن تكون الفتنة قوية قد تخرج من الدين أصلاً وقد سبق أن ذكرت أن الارتداد عن الدين في هذا العهد كان كثيراً ، لذا نلاحظ أن النظم عطف عليهم القاسية قلوبهم وقيل هم الكافرون أو اليهود فكلاهما وصف في مواضع أخرى بقسوة القلوب .

1- معجم حروف المعاني في القرآن الكريم :محمد حسين الشريف,بيروت ,مؤسسة الرسالة,ط1, 1996م: 852/2

2- المفردات في غريب القرآن : 264

3- الفروق اللغوية :392

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد دلل لفظ (القاسية) بمعناه وصياغته على ملائمته للقلب حين عبر باسم الفاعل الدال على ثبات الوصف وعرفه " بأل " والتي تدل هنا على كمال الوصف لهم وإذا كمل الوصف ثبت وتمكن كما إن في نسبة الفعل للجارحة " القاسية قلوبهم " دلالة علـــى أن القسوة متأصلة والتأصل لا يكون إلا مما صدر من القلب ، كما إن كون قلـــوبهم هـــي القاسية أدخل في ذمهم وأدل على إصرارهم على كفرهم وكلاهما بلغ الحد في وصفه حتى اجتمعا في قرن واحد وهو الظلم " وإن الظالمين لفي شقاق بعيد " 0

" فالذين في قلوبهم مرض " سفلت قلوبهم عن حد الاعتدال من اللين حتى صـــارت ما يئتهم تقبل كل صورة ولا يثبت فيها صورة ، والقاسية قلوبهم عن ذلك الجدال إلى أن صارت حجرية [1]. وهذا يلائم وصفهم بالظلم الذي هو وضع الشيء في غير موضـــعه المختص به إما بنقصان أو بزيادة [2]. وهؤلاء إما زاد ضعفهم ، أو زادت قسوتهم فخرجوا عن الحق .

وأكد أخرى على تمكن الضلال منهم بقوله " لفي شقاق بعيد " بإعـــادة التأكيـــد وبالتعدية " بفي " حيث انقسموا في الشقاق انقساماً حتى صار وعاءً لهم ومـــا هـــذا إلا لمرض قلوبهم وقسوتها

1- ينظر نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : 165/5

2- المفردات في غريب القرآن :318

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن الصفات التي اشتركت فيها الطوائف المختلفة **(صفة الطبع)** وقد وردت في مواضع قصد بها المنافقون ومواضع أخرى قصد بها الكافرون،والمواضع التي وردت في المنافقين :

1- قوله تعالى : ﴿**رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ** ﴾التوبة: 87

2- قوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ التوبة : 93

3- قوله تعالى : ﴿ **وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ** ﴾ محمد: 16

4- قوله تعالى : ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ**﴾المنافقون : 3

أما التي وردت في الكافرين فموضعين هما :

أولاً- ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ** ﴾ النحل : 108

ثانيا - قوله تعالى : ﴿ **كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ **الروم** : 59

ونلاحظ أيضاً هنا أن هناك أمورا مشتركة في النظم وهناك أمور مختلفة تبعاً لكل سياق أما المشتركة فهي :

1- ورود لفظة " الطبع " دون غيرها من المواد وهي إما أن تكون من الطَبْع بمعنى السجية[1] وهذا المعنى ملائم لتمكن القلوب وملائم _بدلالته على الملازمة والثبات_ لشدة العقاب على من عاقبهم الله بالطبع وقد تكون من الَطبَع بمعنى الدنس وهذا يلائم أيضاً دنس نفوس وقلوب من عوقبوا بذلك كما سنرى .وانقلاب المعايير لديهم والفساد الداخلي فيهم كما إن المعنى يلائم جميع المواضع لأنه يبين في هذه المواضع تخير المنافقين أو الكافرين ما هو أدنى ويفضلونه على الذي هو خير وما هذا إلا للدنس في نفوسهم .

1- المفردات في غريب القرآن:304

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي الطبع معنى دوام ولزوم يلائم ثبات القلب .كما اطرد ورودها بالماضي وهذا يلائم حدوثه وثباته وملازمته لهم عدا موضع الروم فورد فيه المضارعة ؛ وذلك لأنه تقدمه (كذلك) وفيها دلالة على أن ما قيل إنما هو من طبع القلب وأن الطبع سيستمر ويتجدد مع كل من يقول بهذا القول.

2- ورود لفظ الجلالة " الله " دون أي اسم من أسمائه الحسنى حتى وإن بني الفعل لما لم يسم فاعله فهي مصروفه إليه سبحانه وذلك لأن في لفظ الجلالة تربية المهابة والخوف ، و القهر فيه أقوى ففي هذا الاسم جميع الصفات .

3- التعدية بعلى وذلك لما فيه من دلالة القهر والاستعلاء والتمكن وهذا ملائم للجزاء بالطبع وملائم أن يوجه الطبع للقلب .

4- ورود القلب دون غيره وذلك لأن فيه دلالة التمكن والطبع تمكن للعقاب حتى يصبح سمة وطبعاً لهم ، كما إن القلب عليه المعول في فعالهم التي استحقوا عليها العقاب لذا وجه العقاب لها خاصة . وقد وردت بالجمع ، وذلك لأن السمة عامة فيهم ، كما أضيفت بضمير الغائب وفي ذلك دلالة على إهمالهم وتحقيرهم .

5- ورد العقاب بالجملة الفعلية دون الاسمية وذلك لأنها واردة في المجازاة على أفعال منهم تقدمت فجازاهم الله بالطبع على قلوبهم وذكر العلماء إن المجازاة في جميع نظم القرآن وردت بالفعل .

6- تميزت جميع المواضع في تعبيرها عنهم ببيان قوة فعلهم الباطل قوة تلائم قوة العقاب ، كما إن جميع المواضع كان نتيجة الطبع فيها الحرمان من الإيمان أو العلم .

هذه الأمور المشتركة وقد اختص كل موضع بنظم يلائم سياقه وترتب عليه نتيجة الطبع الملائمة لحال المتحدث عنهم .

ففي موضعي التوبة قال تعالى : ﴿ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ (1) .

1- التوبة : 87

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

﴿ **إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَــعَ الْخَوَالِــفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ (1)

و السياق في سقوط همة هؤلاء المنافقين وقد ورد عقابهم بالطبع وذلك مجازاة لهــم على فعلهم الذي لاءمه الطبع حيث رضوا بأن يكونوا مع الخوالف والرضا أدخل في دلالته من التسليم أو القبول لأن فيه قناعة واطمئنان للنفس بالأمر ففيه سكون داخلي كمــا إن فيه دلالة على أن في الاختيار محبة للأمر المختار ، ومحبتهم لأن يكونوا مع الخوالف : وهم النساء المتأخرات عن الركب أو الأطفال (2) دليل طبع على قلوبهم .

فهذه فئة تأنف العرب وتنفر من أن يكونوا منها فكيف إذا كان الرضا ممن هم أولو طول وأغنياء فهذا أدل على أن ذلك نتاج طبع ودنس في القلوب فهم رضوا بالدنية فزادهم الله جهلاً على جهل وطبع على قلوبهم .

وقد عطف الطبع بالواو " رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع .... " وقد تكــون الواو للدلالة على استقلال الحكم الأول عن الثاني ، وقد تكون للترتيب ولكل منهما وجه ولا يتنافيان فإن أخذنا دلالة الاستقلال ففيه دلالة استقلال الحكم عن سابقه فكــل مــن الحالين عقاب بذاته فكونهم رضوا بالتأخر هذا عقاب ، وزاد عليه عقاب آخر بالطبع على قلوبهم وهذا المعنى فيه مبالغة في ذلهم تلائم أن يكون العقاب على القلب وتلائم الطبع.

وإن جعلنا دلالة الواو على الترتيب(3)حيث إن الواو فيها جميع معــاني حــروف العطف ، ولكن هذه المعاني تقوى وتضعف بحسب السياق والغرض المراد ، ويظهر لي هنا أن المعنى هنا الترتيب حيث ترتب على رضاهم بالذي هو أدنى الطبع على قلوبهم .

1- التوبة : 93

2- المفردات في غريب القرآن :163

3- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب :أبومحمد محي الدين ,القاهرة ,دار الطلائع :18/2

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وترتب على الطبع في الموضع الأول " فهم لا يفقهون " وفي الموضع الثاني " فهم لا يعلمون " وقد اختلفت النتيجة مع أن المقصود في كلا الموضعين المنافقين ولكن المذكورين في الموضع الأول أشد نفاقاً ؛ ذلك لأنهم وصفوا بأولي الطول والطول القـــدرة والغـــنى والسعة والعلو[1] في حين خص الموضع الثاني الأغنياء وقد يكون الغني ليس ذي قدرة ولا علو فهم إذن أقل حالاً من أولي الطول وبالتالي ترتب على من كانوا أعلى وأقوى عقاب أقوى حيث قال " فهم لا يفقهون " والفقه علم الشيء بحجته[2] فحرموا ذلك ، في حين أن العلم أقل فهو مناسب للفئة الأقل فالعلم علم الشيء بحقيقته[3] دون الحجة والبرهـــان فحرمه من كانوا أقل . و ترتب على ذلك حذف لفظ الجلالة من الأولى وذكره في الثانية على الرغم من أن ظاهر النظم يقتضي خلاف ما جاء عليه البناء القرآني ، حيث حـــذف أولاً وأثبت ثانياً ، وللعلماء في ذلك آراء :

قال الخطيب الإسكافي : أنه لما صدرت الآية بفعل علم أن فاعله الله فيما لا يقتضي ذكر الفاعل بل يقام المفعول به مقامه كان مثل هذا في الفعل في منتهى الآية محمولاً عليه؛ لأنه معلوم أن الله يطبع كما علم أن الله يترل السورة فكأن التوفقة في ذلك بين آخر الآية وأولها الإخبار، ثم إن الآية الثانية وضعت اللفظة منها موضع إشباع وتأكيد حيث جاءت " إنما " بعد نفي مكرر " ليس على الضعفاء ، ولا على ... ولا على .. " فنفي الحـــرج عمن قعد عن الجهاد لإحدى المعاذير التي ذكرها ، ثم ألزم الحرج القـــوم الـــذين حـــالهم مضادة لأحوال أولئك فلما كان هذا الموضع موضعاً بين فيه مضادة حالهم لأحوال غيرهم لتخالف بين أحوالهم من فسح في القعود لهم كان موضع تنبيه وتأكيد وتخويف ، وتحذير فسمى الفاعل وهوا لله تعالى ليليق الفعل إذا جاء هذا المجيء بمكانه[4] .

1- لسان العرب : 2728/4

2- المفردات في غريب القرآن : 385

3- الفروق اللغوية : 94

4- ينظر : درة التتريل وغرة التأويل :146

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وذكر صاحب أسرار التكرار وصاحب ملاك التأويل أن السبب الموافقة بين الأفعال[1] .

وقيل أسند الطبع في الثانية إلى الله بخلاف ما في الآية السابقة " وطبع على قلوبهم " لعله : للإشارة إلى أنه طبع غير الطبع الذي جبلوا عليه بل هو طبع أنشأه الله في قلوبهم لغضبه عليهم فحرمهم النجاة من الطبع الأصلي وزادهم عماية ، ولأجل هذا المعنى فرع عليه " فهم لا يعلمون " لنفي أصل العلم عنهم أي يكادون أن يساووا العجماوات[2] .

وقال السامرائي : إن إسناد الطبع إلى الله أشد تمكناً في القلب من بنائه للمجهول ، فما أسند إليه صراحة يكون أثبت وأقوى مما لم يسند إليه[3] ، وعلى هذا فهو يُسند الطبع الله في مواطن المبالغة والتأكيد ، ويبنيه للمجهول فيما هو أقل من ذلك ، موافقاً في ذلك قول الكرماني: إن العلم فوق الفقه والفعل المسند إلى الله فوق المسند إلى المجهول[4] .

ويظهر لي قوة هذا الرأي باعتبار قوة الفعل . في حين يظهر لي أن الموضع الأول أقوى في الوصف باعتبار آخر : وهو اعتبار إهمالهم وتحقيرهم فلشدة إهمال واحتقار النظم لهم حذف معهم لفظ الجلالة ، وقد دل على هذا الإهمال دلائل في النظم حيث تقدم قوله " وذرنا مع القاعدين " ففي "ذرنا" معنى الترك مع الاحتقار والإهمال فيذر الشيء أي يقذفه لقلة اعتداده به ، والوذرة قطعة من اللحم وتسميتها بذلك لقلة الاعتداد بها [5] كما إن النظم لم يطل الحديث عنهم بل أعرض عنهم مباشرة واتجه في الحديث إلى غيرهم وما هذا إلا لعظم جرمهم .

1- ينظر : أسرار التكرار :137، ملاك التأويل : 597/1
2- التحرير والتنوير : 182/10
3- بلاغة الكلمة في التعبير القرآني : 84 ، 85
4- أسرار التكرار : 137
5- المفردات في غريب القرآن : 533

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ونلاحظ أن القرآن أكد على تأبيد الطبع بما يلائم ثبات القلب ودل على ذلك دلائل في السياق القبلي والبعدي حيث تقدم "فرح" المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله "وقال" وكرهوا أن يجاهدوا.... " فأكد بالطباق " فرحوا وكرهوا " على تعمق وتمكن إعراضهم وهذا ملائم للقلوب كما إن الفرح والكره إنما هي مشاعر قلبية . وكذلك الرضا " رضيتم بالقعود أول مرة " .

وفي السياق البعدي : ذكر من أعمالهم المعارضة المخالفة ما يؤكد على تأبيد الطبع على قلوبهم .

وفي قوله: **﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾** [1] .

السياق في حالهم عند الاستماع للرسول ﷺ ويرشح لورود الطبع على القلوب حيث قال تعالى" يستمع " ولم يقل يسمع لأن الاستماع فيه استفادة المسموع بالإصغاء إليه ليفهم[2] ، وهذا أدخل في ذمهم وأكثر ملاءمة لأن يكونوا مطبوعا على قلوبهم فكيف يكون منهم هذا الإصغاء ثم يقولون " ماذا قال آنفاً" فهذا من استعمال الفعل "استمع " في معنى إظهاره لا في معنى حصوله ، وفي تعديه الفعل بـ " إليك " مع كونه يتعدى بنفسه أريد تعلقه بالشخص المسموع منه [3].

فإذا كان الشخص محمداً ﷺ والسماع منه مباشرة فهذا أدعى للتأثر والفهم والإيمان فإن حصل عكس ذلك فهو نتاج طبع على قلوبهم ولاشك .

وفي قولهم " ماذا قال آنفاً" تأكيد آخر على قرار الطبع على قلوبهم سواء كان قولهم على جهة الاستهزاء وضرب من الاستخفاف لأن فيه تصريح بالإعراض وقت الكلام[4] أو جهلاً فإن كان استهزاءً فمن يسخر بخير الكلام والمسموع من خير متكلم إلا من طبع على قلبه خاصة وأنهم عرب يدركون بلاغته وعظمته .

1- محمد :16
2- المفردات في غريب القرآن : 103
3- التحرير والتنوير : 83/26
4- المحرر الوجيز : 398/13

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وإن كان جهلاً وقلة وعي فهو ذم أيضاً لهم فكيف لا يفهمون ولا يتأثرون بكلام الله والرسول ﷺ هو مبلغه إلا أنهم ضلوا حتى صاروا كالبهائم فلم يؤمنوا و لم يفهموا فهم انتفاع وهذا الجمود لا يكون إلا بالطبع على قلوبهم .

وفي لواحق " طبع الله على قلوبهم " ما يؤكد أيضاً على قرارها حيث قال الله تعالى " واتبعوا أهواءهم " .

فهذه نتيجة الطبع حيث " اتبعوا " بغاية جهدهم " أهواءهم " مجانبين لوازع العقل وناهي المروءة فلذلك هم يتهاونون بأعظم الكلام ويقبلون على جمع الحطام. وتأكيداً على ضلالهم ، ذكر في مقابلهم " والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم" فلما بلغوا هم غاية الجهل بأن طبع على قلوبهم طبعاً متمكنا قابلهم بمن يضادهم ممن زادهم الله هدى وترقى بهم بأن آتاهم تقواهم .وهذه صورة من صور إعراضهم عن القرآن.

وفي قوله تعالى : " أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوبهم أقفالها " صورة ثانية من إعراض المنافقين عن القرآن الكريم والذم في هذا الإعراض موجه للقلب ، ولكنه أخف من الذم السابق والعقاب السابق فالطبع أشد من جعل الأقفال على القلوب حيث إن النظم السابق أكد على أفعال أشد جرماً في الموضع الأول ففيه الاستماع إلى الرسول ﷺ مباشرة ، كما إن فيه استهزاء بالذكر الحكيم ، والإعراض حصل مباشرة بعد السماع وهذا أدل على شدة نفاقهم.

أما في قوله :﴿ **أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوبهم أقفالها** ﴾ فالحديث عن تدبر القرآن وهذا أخف من الإعراض عن الاستماع والاستهزاء ، لذا كان العقاب أخف فلم يقل الطبع ولا الختم بل ذكر ما هو أخف منهما فذكر(القفل).

ونلاحظ أن هذه اللفظة من فرائد استعمال القرآن الكريم وذلك لأن السياق أيضاً في فريدة من فرائد القرآن حيث لم يرد التدبر في سياق إنكار عدم التدبر إلا في هذا الموضع فقد ورد في التعليل لكنه لم يرد في الإنكار سوى في هذا الموضع . فلفظة الأقفال فريدة من فرائد استعمال القرآن في نظم فريد من فرائد نظوم القرآن أيضاً .

والملاحظ أن لفظة " قلوب " أتت جمعاً ونكرة فالجمع لعموم ذلك في المنافقين وفي التنكير معنى التحقير والإهمال لها ، وفيه معنى الانفصال عن الذات حتى كأنها قلوب مجهولة ليست كغيرها من قلوب الناس ، كما إن في التنكير معنى التوبيخ والاستهزاء بهم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بأنها لم تعد ملكهم فلو أرادوا التدبر لما استطاعوا ، ولذا لم يقل " قلـوبهم " وفي إضـافة الأقفال لها على " قلوب أقفالها " دليل تنوع لهذه الأقفال بتنوع هذه القلـوب . وهـذا أدخل في ذمهم .

وورود الأقفال مع القلوب ملائم لأن فيها ملازمة وثبات يلائم القلوب ، وكون السياق وارداً في تدبر القرآن فهذا ملائم للقلب لأن التدبر لا يكون بغير القلب .

وفي قوله: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ [1] السياق في بيان كذبهم ومخالفة قولهم لاعتقادهم وفيه أيضاً إهمال وتحقير لهم يلائم الطبـع على قلوبهم . حيث بين كذبهم " نشهد إنك لرسول الله " وهم كاذبون لأن ما قالوه وإن كان مطابقاً للواقع إلا أنه مخالف لاعتقادهم والخبر إذا لم يطابق الاعتقاد يعد كـذباً[2] وبين جبنهم فهم يتخذون من أيمانهم جنة ، وهم كالخشب المسندة ويحسبون كل صـيحة عليهم وهم يلوون رؤوسهم ويصدون عن الرسول ، وهم مستكبرون وكل ذلك آثـار الطبع على قلوبهم فلا يفعل ذلك إلا من طبع على قلبه .

ونلاحظ أن الآية بدأت باسم الإشارة " ذلك " وله تعلق بـ " طبـع الله علـى قلوبهم " حيث إن إيمانهم ثم كفرهم دليل على الطبع على قلوبهم . قال ابن عطية : الإشارة إلى فعل الله بهم في فضحهم ، ويحتمل أن تكون الإشارة إلى سوء ما عملوا فسبب إقدامهم على الأعمال السيئة ، هو استخفافهم بالإيمان ورجوعهم للكفر مرة ، فرسخ الكفـر في نفوسهم فتجرأت أنفسهم على الجرائم ، حتى صارت قلوبهم كالمطبوع عليها أن لا يخلص إليها الخير[3].

1- المنافقون :3
2- ينظر: شروح التلخيص : 1/177 ، 178
3- المحرر الوجيز : 14/455

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كما إن الإيمان ورد بالفعل وورده بالفعلية يدل على عدم ثباته فالفعل – آمنوا – يضمحل ما لم يُربّ بالأعمال بخلاف الوصف أو المصدر الصريح وهذا ما حدث مع هؤلاء المنافقين ، لذا يظهر لي أن " ثم " هنا للتراخي الرتبي فهم أولاً شهدوا بما لم يواطيء قلوبهم وادعوا الإيمان وهم يبطنون الكفر واستمروا في أعمالهم الباطلة حتى رسخ كفرهم فطبع على قلوبهم . وقال البقاعي : التعبير بثم يفهم أن من استمر طول عمره على الإيمان ثم كفر قبل موته بلحظة كان له هذا الذم[1] مشيراً بذلك أن التراخي زمني ويظهر لي أن الرتبي أدخل في ذمهم وأكثر ملاءمة للسياق الذي يدل على ترقيهم في الكفر لا على مكوثهم فيه زمناً .

وكل ذلك ملائم لأن يكون العقاب على القلب خاصة " فطبع الله على قلوبهم " ، وظهرت نتيجة هذا الطبع ظاهرة جلية " فهم لا يفقهون " .

ونلاحظ اتفاق النظم هنا مع نظم التوبة في البناء لما لم يسم فاعله والعقاب بحرمان الفقه .وذلك لأن في كلا السياقين إهمال وتحقير للمنافقين هنا وهناك وإن اختلفت السمة بين هؤلاء الذين ظهر في الآيات كبرهم والاغترار بظاهرهم مع خواء داخلهم ، وأولئك الذين سقطت همتهم ويجمع بينهما احتقارهم لكلا السمتين ..

وفي الإخبار بالمسند الفعلي في المواضع الثلاثة - موضعي التوبة و(المنافقون) اختصاص يؤكد قوة الطبع وثبات الوصف على هؤلاء فكأنهم هم وحدهم من حرموا الفقه والعلم دون غيرهم ، على الرغم من اشتراك غيرهم معهم في هذا الوصف ولكن كأنهم لا اعتداد بهم أمام هؤلاء .وهذا الاختصاص أيضاً ملائم للقلب لما احتوى من المبالغة في وصفهم بهذه الصفات .

1- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور :608/7

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أما قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (1)

وقوله : ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (2)

فالطبع فيهما وارد على قلوب الكافرين لا المنافقين والموضع الأول في سياق الرد على افتراء القرآن ، وقد ورد العقاب بالطبع على قلوبهم لملاءمته للسياق ، فمرشحاته ظاهرة في السياق القبلي والبعدي حيث ذكر من حالهم شرح صدورهم بالكفر والكفر إنما يغلق القلوب و لايشرحها فلا يشرح صدره بالكفر إلامن انقلبت لديه الأوضاع والمعايير عندهم وما ذلك إلا لِطَبع وفساد داخلي في قلوبهم وكذلك استحباب الدنيا على الآخرة كل ذلك من قلب موازينهم الدالة على أنها صادرة من قلب مطبوع عليه .

وأكد السياق البعدي على هذا الطبع حيث تبعه بـ " لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون " والجملة هنا واقعة موقع النتيجة لما قبلها ، لأن ما قبلها صار كالدليل على مضمونها ، ولذلك افتتحت بكلمة نفي الشك . فما أكد خسرانهم إلا لأنه تأكد الطبع على قلوبهم فلا يمكن أن يرجى الخير منهم .

وبدأت الآية بقوله : " أولئك الذين طبع الله على قلوبهم ..... " جملة مبينة لجملة " وأن الله لا يهدي القوم الكافرين " بأن حرمانهم الهداية بحرمانهم الانتفاع بوسائلها: من النظر الصادق في دلائل الوحدانية ، ومن الوعي لدعوة الرسول ﷺ والقرآن المترل عليه ومن ثبات القلب على حفظ ما داخله من الإيمان حيث انسلخوا منه .

وافتتاح الجملة باسم الإشارة لتمييزهم أكمل تمييز تبيناً لمعنى الصلة المتقدمة ، وهي اتصافهم بالارتداد إلى الكفر بعد الإيمان بالقول والاعتقاد ، وأخبر عن اسم الإشارة بالموصول لما فيه من الإيماء إلى وجه بناء الحكم المبين بهذه الجملة (3).

1- النحل :108

2- الروم :59

3- التحرير والتنوير : 240/13

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ونلاحظ أن النظم قدم القلب على السمع والبصر ، وذلك لأن المقصود بالعقاب أولاً هو القلب فالطبع حدث فيه أولاً وبالتالي انعدم نفع السمع والبصر وهذا أدخل في المذمة وأقوى في بيان شدة العقاب حتى لا يظن أن سبب عمى القلب من ضعف وسائله بل العكس صحيح فسبب انعدام النفع بالوسائل لأن الأصل مطبوع عليه – القلب - وهذا أدل على تمكن الطبع مما يلائم القلب . كما إن في قوله " وأولئك هم الغافلون " قصر إضافي يقصد به المبالغة لعدم الاعتداد بالغافلين غيرهم لأنهم بلغوا الغاية في الغفلة حتى عد كل غافل غيرهم كمن ليس بغافل قال صاحب التحرير : ومن هنا جاء معنى الكمال في الغفلة لا من لام التعريف(1) . ويظهر لي أن معنى الكمال منهما وبهذا يكون معنى الكمال أقوى ، كما إن المؤكدات كلما كثرت في الجملة كان الكلام آكد وما هذا إلا نتيجة ظاهرة أكيدة للطبع على قلوبهم .

وفي الموضع الثاني طبع على قلوبهم لإعراضهم واعتبارهم أن ما جاء به القرآن وحدث به الرسول ﷺ أو صحبه الكرام إنما هو باطل .

ويؤكد الطبع على قلوبهم ما أكده السياق القبلي " ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون " وضرب الأمثال إنما هو لتوضيح المعاني . فكيف إذا كان " من كل مثل " وكيف إذا كان من ضربها هو الله -جل وعلا- فلا يعرض بعد ذلك إلا من طبع على قلبه ، وكما أكد الطبع " ولئن جئتهم بآية ليقولن ... " حيث أقسم تعالى على ردة فعلهم وأكد أنهم لن يقولوا إلا كفراً وما ذلك إلا للطبع المتمكن والذي لا يكون إلا في القلب حيث أفسدها وجعلها ترى الحق باطلاً لذا عرف بهم باسم الموصول " الذين كفروا " فهم المعروفون بالكفر . والتعبير بأسلوب القصر في قولهم دلالة جرأة ووقاحة في الباطل ودليل على طبع متمكن حيث قصروا صفات من أتى بالحق على الباطل .

1- التحرير والتنوير : 240/13

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فمن أعجب العجب أن من يدعي العقل يصر على التكذيب بالحق ، ولا يصغي لدليل ولا يهتدي لسبيل؛ لذا قال مستأنفاً في جواب من سأله : هل يكون مثل هذا الطبع ؟ " كذلك " أي مثل هذا الطبع العظيم جداً ، ولما كان كون الشيء الواحد لناس هداية ولناس ضلالة صرف الخطاب عنها إلى الاسم الأعظم الجامع قال : " يطبع الله " وقال[1] " على قلوب الذين لا يعلمون " وقيل : يحتمل أن يكون الذين كفروا فيكون قد وضع الموصول موضع ضميرهم بما في حيز الصلة ، ويحتمل أن يكون عاما ويدخل فيه أولئك دخولاً أولياً[2] .والثاني لدي أرجح وأقوى وذلك لابتداء الآية بـ" كذلك " وهذا يفهم تشبيه هذا الطبع بطبع يماثله فكل من فعل فعلهم وقال قولهم طبع على قلبه كما إنه يفهم من هذا التشبيه أن القول المتقدم هو نتيجة القبح ومثله يحدث على مر الزمن .

وعلى الرغم من اتحاد الوصف بين الذين كفروا وبين المنافقين إلا أننا نلاحظ فروقاً في النظم تبعاً لاختلاف أحوال كل منهما ومن ذلك :

المواجهة الصريحة ظاهرة في النظم مع الكافرين وذلك ملائم لحالهم فهم كانوا مجاهرين بكفرهم ليسوا كالمنافقين الذين أخفوه وأظهروا الأيمان لذا نلاحظ مع المنافقين التخفي والضعف في المواجهة .

وكما عوقب الكافرون بالطبع عوقبوا بالختم في مواضع أخرى وذلك لخصوصية في السياق والنظم ومناسبة لحال من وردت فيهم الآيات وذلك في مواضع ثلاثة أولها :

قوله تعالى : ﴿**خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾[3] .

وقوله : ﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ** ﴾[4] .

1- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور :646/5
2- روح المعاني : 61/8
3- البقرة : 7
4- الأنعام :46

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقوله : ﴿ **أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ...** ﴾ (1)

فالمختوم على قلوبهم في الموضع الأول صنف من الكفار لاءمهم الختم حيث أخبر عنهم النظم بأنهم " سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ " فقلوبهم ممنوعة مستوثق عليها من قبول الحق . ولا يلائم هذا الختم في ثباته وكونه يستحيل معه دخول إيمان إلا القلب .

كما إن السياق عموماً في ذكر أعلى الأصناف وأثبتهم على اعتقادهم سواء في الإخبار عن المؤمنين الذين وصفوا بأنهم " بالآخرة هم يوقنون " وأنهم " هم المفلحون " واليقين والفلاح من أعلى مراتب الإيمان وأكملها . كذلك حين ذكر المنافقين في السياق البعدي ذكر منهم الذين " في قلوبهم مرض " وهم من لازمهم نفاقهم حتى أصبح علة لا تفارقهم ووصفهم بأوصاف مطولة تدل على مدى تماديهم في عتوهم وتأكيداً على بلوغهم مرحلة بعيدة في النفاق والبعد عن الله فكان الملائم حين يذكر صنف الكافرين أن يذكر منهم من تمكن الكفر والإعراض فيهم فلذا وصف قلوبهم خاصة .

والمختوم على قلوبهم في الموضع الثاني : صنف لم يستجيبوا لله فكانوا هم والأموات سواء " إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللّهُ " صنف لم يؤثر فيهم ما أصاب من قبلهم فيتضرعوا لله. كما وصفهم السياق البعدي بأنهم " القوم الظالمون " فمن مقومات قوميتهم الظلم ولا أعظم من الإصرار على الشرك فكان الملائم لمن كانت هذه صفاتهم أن تهدد قلوبهم التي هي محل التمكن والثبات على الاعتقاد لأنهم لم يوصفوا بأنهم "القوم الظالمون " بالقومية وبالاسمية إلا لثباتهم على ذلك فهددهم بزيادة تثبيتهم على ضلالهم وذلك بالختم على قلوبهم .

ومن مؤكدات قرار لفظة القلب في موضع البقرة أن الآية وردت بالإخبار والإخبار بالشيء دليل على أنه معروف ولا يكون معروفاً إلا ما كان متمكناً،وفي الإخبار عنه بالمضي دلالة على حصوله وتمامه تماماً يدل على تمكنه.

1- الجاثية :23

والجملة استئناف بياني يفيد جواب سائل يسأل عن سبب كونهم لا يؤمنون ، وموقع هذه الجملة في نظم الكلام مقابل موقع جملة " أولئك على هدى من ربهم " فلهـــذه الجملــة مكانة بين ذم أصحابها بمقدار ما لتلك مكانة في الثناء على أربابها[1].

كما إن التصريح بأن الفاعل هو " الله " بالتصريح بلفظ الجلالة وهـــذا أدخــل في الدلالة على تمكنه وذلك لأن الإله أقدر على من هو دونه ففي ذلك تربية للمهابة تلائــم القلوب.

فالختم على قلوبهم ختم مستعلٍ عليها فهي لا تعي حق الوعي لأن الختم على الشيء يمنع الدخول إليه والخروج منه[2].

وقد أكد قرار القلب تكرار الجار (على) الدالة على الاستعلاء ولو لم يكرر لكــان انتظاماً للقلوب والأسماع في تعدية واحدة ، وحين استجد للأسماع تعدية على حدة ، كان أدل على شدة الختم في الموضعين[3]، فكانت إعادة الجار تقتضي ملاحظة معــنى الفعــل المعدى به حتى كأنه ذكر مرتين والعطف وإن كان في قوة الإعادة لكنه ليس ظاهراً مثلها في الإفادة لما فيه من الاحتمال [4].

وقد قدم القلوب على الأسماع في موضع البقرة في حين أخرها عنــها في ســورة الجاثية قال صاحب نظم الدرر : " لما سوى هنا بين الإنذار وعدمه كانت البداءة بالقلوب أنسب تسوية لهم بالبهائم ، ولما كان الغبي قد يسمع أو يبصر فيهتدي وكان إلى الــسمع أضر لعمومه وخصوص البصر بأحوال الضياء نظر للسمع ثم البصر تسفيلاً لهم عن حــال البهائم بخلاف ما في الجاثية فإنه لما أخبر فيها بالإضلال وكان الضال أحــوج شــيء إلى سماع الهادي نفاه ، ولما كان الأصم إذا كان ذا فهم أو بصر أمكنت هدايته وكان الفهــم أشرف نفاهما على ذلك الترتيب [5].

1- التحرير والتنوير : 250/1
2- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : 38/1
3- الكشاف عن غوامض التنزيل وعيون الأقاويل: 168/1
4- روح المعاني : 138/1
5- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور:38/1

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال صاحب الإرشاد : تقديم ختم قلوبهم للإيذان بأنها الأصل في عدم الإيمـــان ، وللإشعار بأن ختمها ليس بطريق التبعية بختم سمعهم ، بناءً على أنه طريق إليها ، فـــالختم عليه ختم عليها ، بل هي مختومة بختم على حدة ولو فرض عدم الختم على سمعهم فهـــو باق على حاله حسبما يتضح عنه قوله تعالى : ﴿ **وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأسْمَعَهُمْ وَلَـــوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ** ﴾ (1)ومثل قوله قال صاحب روح المعاني(2) وقال صاحب التحرير (إن حال القلوب هي الأصل في الانصراف عن التلقي والنظر في الآيتين ولكـــن نظم هذه الآية كان على حسب ما يقتضيه الذكر من الترتيب ونظم آية البقرة كان على حسب ما يقتضيه الطبع) (3).

ولدي قول صاحب نظم الدرر أقوى حيث راعى فيه السياق وقد وضـــح ذلـــك السامرائي وزاد عليه بقوله : فقدم القلوب على السمع في البقرة ، وقدم الـــسمع علـــى القلب في الجاثية وذلك لأن في البقرة ذكر القلوب المريضة فقال : ﴿ **في قلـــوبهم مـــرض فزادهم الله مرضا** ﴾ وفي الجاثية ذكر الأسماع المعطلة قال : ﴿ **وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا** ﴾ فقدم السمع فوضع كل لفظة في المكان الذي يناسبها (4).

ثم إن آية البقرة ذكرت من أصناف الكافرين من هم أشد ضـــلالاً وكفـــراً ممـــن ذكرهم آية الجاثية فقد جاء فيها قوله تعالى : ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ** .... الآيات ﴾

وفي الموضع الثالث : المختوم على قلوبهم صنف عطلوا إدراكهم وأدواته عن سمـــاع وإبصار الحق فهم قوم سمعوا آيات الله ولكنهم " يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَـــسْمَعْهَا " و " اتَّخَذَهَا هُزُوًا " "واتخذ إلهه هواه" فكان لزاماً أن يكون وصفهم بأنهم مختوم على أسماعهم وقلوبهم .

1- تفسير أبي السعود:54/1 والسورة الأنفال :23   2_ روح المعاني :137/1

3- التحرير والتنوير :377/25

4- التعبير القرآني: فاضل السامرائي،دار عمار،ط1، 1425هـــ -2004م :64، 65.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد ظهر في السياق البعدي التأكيد على الختم على قلوبهم حيث قــصروا قــصر متأكد من أن الحياة حياة دنيا فقط ولا بعث ولا حساب بعدها فــأنكروا البعــث ، ولا ينكره إلا جاحد ولا يكون الجحود إلا بتغطية القلب وإعراضه .

ونلاحظ أن نظم الآيات في كل موضع مؤيد للقلب ، مؤكد لوصفها بـــ " الختم " كما قررها السياق فحين ترد " ختم " فهي ترشح أن يكون ذلك على شيء ثابت تــدل على تمكن منه وهذا لا يكون إلا في القلب فإذن هي ترشح للقلب فالختم وإن كان أقــل أثراً وقوة من الطبع إلا أنه لا يقال إلا حين الاستيثاق من الشيء والمنع[1] ففيه معنى لــزوم الوصف وإن كان لزوماً أقل من لزوم الطبع .

ونلاحظ أن ورود لفظ " الختم " في هذه المواضع الثلاثة مع أن الموصوف فيها فئــة أشتد كفرها فلم لم تعاقب بالطبع ؟ أجيب

أولاً : أن الكفار مهما بلغوا من الكفر فليسوا كالمنافقين واليهود في كفرهم وإن كانوا قد وصفوا بالطبع في موضع الروم وموضع النحل فذلك لملاءمة السياق .

ثانياً : أن هناك جامع بين هذه المواضع فالصفة الظاهرة في المواضع الثلاثة الإعراض عــن قبول الحق والختم من معانيه الإعراض يقال ختم عليك بابه " أعرض عنه " ويخــتم عــن الشيء تغافل وسكت .وليس ذلك في الطبع ولذا الختم أدق[2]

وجاء في الجاثية " أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ " فقد ذكر في البقرة أن الإنذار وعدمه عليهم سواء وأنهم ميئوس من إيمانهم و لم يقل مثل ذلك في الجاثية .

ثم كرر حرف الجر (على) مع القلوب والأسماع في آية البقرة مما يفيد توكيد الختم فقال " على قلوبهم وعلى سمعهم " و لم يقل مثل ذلك في الجاثية بــل انــتظم الأسمــاع والقلوب بحرف جر واحد فقال : " وختم على سمعه وقلبه " .

1- المفردات في غريب القرآن :85   2- لسان العرب : 110/1

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثم قال في البقرة " وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ " بالجملة الاسمية " والجملة الاسمية كما هو معلوم تفيد الدوام والثبات ، ومعنى ذلك أن هؤلاء لم يسبق لهم أن أبصروا وإنما هـذا شأنهم وخلقهم فلا أمل في إبصارهم في يوم من الأيام .

في حين قال في الجاثية " وجعل على بصره غشاوة " بالجملة الفعلية الـتي تفيـد الحدوث . ومعلوم أن (جعل) فعل ماض ، ومعنى ذلك أن الغشاوة لم تكن قبل الجعل ، يدلك على ذلك قوله تعالى " وأضله على علم " مما يدل على أنه كان مبصراً قبل ترديه . ثم ختم آية البقرة بقوله : " وله عذاب عظيم " و لم يقل مثل ذلك في الجاثية فدل على أن صفات الكفر في البقرة أشد تمكناً فيهم ، ولذا قدم ختم القلب على ما سواه لأنـه هـو الأهم ، فإن القلب محل الهدى والضلال [1]، كما إنه فيه الدلالة على التمكن والثبات التي تلائم تمكن الكفر الذي دل عليه السياق في نفوس هؤلاء.

واختلف في تنكير "غشاوة " في موضع البقرة للتعظيم أم للنوعية [2]وكلا الأمرين يلائم أن يكون متمماً للختم على قلوبهم فإن كانت للتعظيم فهي تدل على تمكـن وإن كانت للنوعية فهي نوع غريب لم يُعهد وهذا أدل على تمكنها وأرجح الثاني لأن الكـلام ختم بالحديث عن عذاب الآخرة " ولهم في الآخرة عذاب عظيم " وكل ما في الآخرة من عذاب هو نوع غير معروف كما في ورود الغشاوة دون الغطاء أو غيرها ملاءمة للقلب إذ في الغشاوة دلالة على أنه من جنس الشيء وهذا أدل على التمكن .

كما لاءمت فاصلة موضع الجاثية القلب " أفلا تذكرون " بالإنكار عليهم عـدم التذكر وما ذلك إلا لمنع قلوبهم عن التذكر الذي لا يكون إلا بها ، لذا ورد بالإدغام الذي يدل على بداهة التذكر وسرعته التي تكون بالقلب فإن ختم على القلب فلا يكون ذلك .

1- التعبير القرآني :65,64

2- شروح التلخيص :348/1

3- الفروق اللغوية :34

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أما موضع الأنعام فالكلام جار مجرى التهديد والتخويف ونلاحظ تدرج الآيات في هذا التهديد بأسباب هلاكهم أولاً بأخذ السمع والبصر ثم بالختم على قلوبهم ثم بإهلاكهم أصلاً ، وهذا يلائم أن يقدم السمع والبصر على القلب حيث تدرجت مراحل الإهـــلاك صعوداً مبتدئا بالأدوات ثم مكان الإدراك ثم بزوالهم هم وأدوات إدراكهم إن داموا علـــى تعطيل الانتفاع بها فيما أمر خالقها .

ويدلنا على هذا التدرج ورود الكاف في " أرأيتكم " قبلها وبعدها وعدم ورودهـــا في أخذ السمع والأبصار ، لأن التوبيخ على إهمال الحذر من إتيان عذاب الله ، أقوى من التوبيخ على الاطمئنان من أخذ أسماعهم وأبصارهم ، فاجتلب كاف الخطاب المقصود منه التنبيه دون أعيان المخاطبين[1].

وختم الآية بقوله "ثم هم يصدفون " مؤكد على قرار " القلب " حيث إن ثم هنـــا للتراخي الرتبي الذي يؤكد ترقبهم إلى أن ثبتوا على ما هم عليه من الكفر والـــضلال .. كما إن المجيء بالمسند في جملة " هم يصدفون " فعلاً مضارعاً دالاً على تجدد الإعـــراض منهم وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي لتقوية الحكم[2] كل ذلك يدل على تمكن وثبات يلائم القلب كما إن في " يصدفون " دلالة على ذلك أيضاً فمعناها الإعراض الشديد ، أو الميل في أرجل البعير أو الصلابة لصدف الجبل أي جانبه ، أو الصدف الذي يخـــرج مـــن البحر وكل المعاني دالة على ثبات الوصف وشدته وهذا ملائم للقلب .

1- التحرير والتنوير : 105/7، 106 2_ الإيضاح :67

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن الصفات التي اشترك فيها اليهود والكفار **(الرعب)** المتمكن في قلوبهم وقد ورد هذا الوصف في أربعة مواضع موضعين لليهود وموضعين للكافرين والمواضع كالتالي :

قوله تعالى : ﴿ **وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا** ﴾ (1)

وقوله : ﴿ **هوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ** ﴾ (2)

وقوله : ﴿ **سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ** ﴾ (3)

وقوله : ﴿ **إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ** ﴾ (41)

ونلاحظ أن المواضع اشتركت في أمور واختلفت في أخرى تبعاً لاختلاف الطوائف واختلاف الموقف ، أما الأمور المشتركة فهي :

أولاً : سياقها العام واحد فكلها في سياق الحرب والمواجهة ففي حالة السلم لا يكون فيه مثل هذا الرعب والذي هو أعلى درجات الخوف . وإنما يكون في حالة المواجهة وإلا فاليهود والكفار قد هادهم الرسول ﷺ وعاشوا معه في المدينة ومكة دون خوف . لذا لاءم القلب -لأن الرعب شديد في موقف شديد- دون الفؤاد لأن الفؤاد مضطرب بطبعه .

1- الأحزاب : 26

2- الحشر : 2

3- آل عمران :151

4- الأنفال:12

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثانياً : الفاعل في جميع المواضع هو الله ـ سبحانه وتعالى ـ ولذا لاءم أن يكــون الرعــب متمكناً في القلب خاصة ويكون له أثر شديد كما سأعرض إن شاء الله .

ثالثاً : التعدية بــ (في) في جميع المواضع وهذا أدخل في بيان الصفة وأثر العقاب حيث إن قلوبهم صارت وعاءً للخوف فلم ينضح إلا بما يؤكد هذا الرعب .

رابعاً : ورود " القلوب " دون الأفئدة وهذا ما ظاهره يوهم خلاف الظاهر ، حيــث إن الرعب يلائم الفؤاد وليس القلب ، ولكنه جاء هنا مع القلب ، وذلك للدلالة على تمــام النعمة على المؤمنين من جهة ومن جهة أخرى طلاقة قدرة الله ـ جل وعلا ـ وإيقاع الذل والقهر على الكافرين أو اليهود لا يكون عظيماً ولا يكون للقدرة ظهور فيه وللمنة عظمة إلا إذا وقع على القلب الثابت فأرعبه وهزه وإلا فالفؤاد أصلاً مضطرب ولا تظهر فيه هذه المعاني التي أرادها القرآن . كما إن القلب هو المحرك وهو الأساس في الأفعال فإذا كــان الخذلان من جهته كان التأثير أعظم والضعف تام . قال الفخر الــرازي : مــن الــنعم المذكورة في قوله " سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب " هذا من النعم الجليلة وذلــك لأن أمير النفس هو القلب فلما بين تعالى أنه ربط قلوب المؤمنين ذكر أنه ألقى الرعــب والخــوف في قلوب الكافرين فكان ذلك من أعظم نعم الله تعالى على المؤمنين [(1)].

كما إن السياق القبلي القريب في المواضع مرشح للقلب ففي موضع الأحزاب يؤكــد قرار القلب لأن حال اليهود ورد مقابلة بحال المؤمنين " بلغت القلوب الحناجر " فالتركيز أيضاً كان على القلب وإن اختلف الخوف فمع المؤمنين طارئ ومع اليهود ثابت ,وخوف المؤمنين من قلوبهم ، أما خوف اليهود فمن فعل الله بهم وبالتالي اختلف الــنظم والمــآل لاختلاف السياق ـ كما سأعرض لاحقاً ـ كما إن النظم عرض للمؤمنين مبيناً قوة إيمانهم لذا عبر عنهم بــ " المؤمنون " فيلائم معهم القلب ، لذا لاءم مع اليهود القلب لــتمكن كفرهم وخداعهم .

1- التفسير الكبير : 463/5

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي موضع الحشر الغطرسة والتكبر والإعجاب بالقوة الواردة في الآيات من اليهود تـــدل على تمكن الكفر في قلوبهم فحين يقلب عليهم المآل لابد أن يكون العقاب مركزاً علـــى القلب أيضاً وسنرى في الـــتعرض لنظم الآية كـــــــيف كانت الألفاظ والنظم مقـــراً للقلب .

وفي موضع آل عمران والأنفال نلاحظ ترشيح الـــسياق لاســـتعمال القلـــب دون سواه ، لأن معنى الثبات والقوة في القلب لاءمه ما ورد في السياق من تثبيت للمـــؤمنين وتقوية لقلوبهم ومن تمام التثبيت أن يقابل بثـــــبات قلوب المؤمنين اضـــطراب قلـــوب الكافرين ،كما وردت اللفظة بالجمع "قلوب " دلالة على أن ذلك سمة عامة فيهم وهـــذا أدعى لنصرة المؤمنين .

خامساً : تقديم الجار والمجرور " في قلوبهم " ، "في قلوب الذين كفروا " على المفعـــول " الرعب " وذلك لأن الاهتمام في السياق منصب على القلب فقدم ، كما أن تقديم القلب ملائم لليهود أو الكفار في سياق المواجهة والحرب لأنه هو المتحكم في الجـــيش وعليـــه المعول في النصر أو الهزيمة .

سادساً : ورود الرعب بمادتها وصياغتها دون الخوف ،وذلك لأن الرعب هو الانقطاع من امتلاء الخوف(1) فكأن الخوف إذا بلغ حده وأعلى درجاته يسمى رعباً وهذا المعنى ملائم لشدة العقاب وقوة الفاعل سبحانه وللتمكن في القلوب خاصة .

وأورد الرعب معرفة (بأل) والدالة على الكمال هنا وهذا أدل على المبالغة فكأن ما أصابهم هو الرعب الكامل الذي ليس بعده رعب .

1- المفردات في غريب القرآن :398

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واختلفت الطائفتان_ اليهود والكفار_ في أمور تلائم حال كل منهما وطبعه وذلك في:

أولاً : ورود القذف مع اليهود والإلقاء مع الكفار وذلك لملاءمة القذف مادة وصياغة مع اليهود حيث إن معنى القذف الرمي البعيد والرمي بقوة[1] وهو ما قبضت يدك مما يملأ الكف فرميت به أما الإلقاء فهو طرح الشيء حيث تلقاه أي تراه[2]. فالقذف إذن غير الإلقاء فهو أشد وأقوى ولذا هو ملائم لقلوب اليهود من وجوه .

إن الإذلال والقهر فيه أقوى وهذا ملائم لحال اليهود وخبثهم ونلاحظ أن استعمال القرآن للقذف سواء كان خبراً من شخوص القصص أو خبراً من الله عنهم أو أمراً لهم _وإن كان بينهما فروق _إلا أن المعنى العام فيه دلالة القوة والشدة وبالتالي يكون نتاجه وتأثيره أقوى وأكثر تمكناً وهذا ملائم للقلب كما إن القذف فيه معنى التصاق المرمى بالمرمي به وهذا يعني لزوم الرعب والرعب كان ملازماً لليهود ، بخلاف الإلقاء مع الذين كفروا فهو يمكن زواله كما إن الإهانة ليست قوية فيه كقوة الإلقاء وذلك ملائم لحال الكفار ومواجهتهم .

كما إن القذف ورد بالمضي في حين ورد الإلقاء بالمضارعة ، وذلك لأن خوف اليهود ليس من بعثة الرسول ﷺ وإنما هو لازم فيهم من قبل ذلك وفي قصصهم مع موسى عليه السلام دليل على ذلك فحدوثه من قبل يلائم المضي لأنه ليس بطارئ وقد يكون زاد في عهد الرسول ﷺ . أما الرعب مع الكفار فهو حادث وطارئ واستجد عليهم لذا لاءمه المضارع .

وفي التعبير بالعظمة " سألقي ،سنلقي " ملاءمة لمواجهة الكفار في حين إن التعبير بالغائب إهمال ملائم لجبن اليهود وعدم مواجهتهم فهم لا يقاتلون إلا من وراء جدر أوفي حصون .

1- المفردات في غريب القرآن : 457
2- السابق : 457

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثانياً : في شأن اليهود أضيفت القلوب إلى ضمير الغائب الذي فيه دلالة إهمال واحتقـــار يناسب جبنهم وذلتهم في حين أضاف القلوب إلى الموصول في شأن " الـــذين كفـــروا " وذلك ملائم لصراحتهم ومواجهتهم فهم معروفين إذن غير متخفين بل ظاهرين ظهـــوراً لاءم التعريف عنهم بالموصولية .

وكما وجد اختلاف بين اليهود والكفار نجد أن هناك أيضاً اختلاف في الموضـــعين الواردين في اليهود تبعاً للسياق الخاص لكل موضع ولحال كل من المتحـــدث عنـــهم . وكذلك الحال بالنسبة للكفار، فموضع الأحزاب شأن اليهود فيه أشد حيث إنه في زمـــن متأخر عن موضع الحشر وهو زمن قد قويت فيه شوكة اليهود ، لذا كان الرعب الواقـــع على قلوبهم أشد وكانت نتائج هذا الرعب بالتالي أشد وأقوى وأدل على القهر والذلـــة الواقعة في قلوبهم من موضع الحشر .

فنلاحظ أن النظم قدم لقذف الرعب في قلوبهم بمقدمات تناسب تمكن الرعب منهم وتسليطه على قلوبهم خاصة حيث قال تعالى " ورد الله الذين كفروا بغـــيظهم ... " وفي هذا تمهيد للرعب لأن الكفار هم الذين جرأووا اليهود على نقض العهد فكان رجـــوعهم بداية الرعب ثم ترقى النظم في تربية المهابة والترقي في الرعب فذكر مقدمة ثابتة للرعـــب "وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ ".

ونلاحظ أن الظاهر يدل على خلاف النظم حيث إن الترقي في المهابة يقتضي ذكر لفظ الجلالة في الثاني وإضماره في الأول ، ولكن النظم هنا فيه إهمال واحتقار لليهود لـــذا أضمر معهم ، كما إن الكفار كانوا محركاً رئيساً ليهود بني قريظة فذكر معهـــم لفـــظ الجلالة لشدة تأثيرهم في اليهود وهذا وجه ثان ،وما رد الذين كفروا ولا إنزال اليهود من صياصيهم إلا تمهيداً لقذف الرعب في قلوب اليهود وهي توطئة شديدة جداً ودالة علـــى شدة الرعب ولزومه ؛ لذا عبر عنه بالقذف ، وجعل في القلوب خاصة ، وجعلت الحصون مجرد " صياصي " وهذه التســـمية توصل إلى إيحاءات في قذف الرعب في قـــلوبهم مـــن وجوه متعـــددة : فـــ (الصيصة)تستعمل في عدة معان : في قرون البقـــــر والضباء ،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والشوك الناشئ حول أرجل الديكة ، وشوك النساجين[1] وكلها معان تشير إلى إيحاءات تهون من شأن هذه الحصون المنيعة فحين تسمع كلمة " صياصيهم " تتوارد على الذهن كل الاستعمالات التي يعرفها العرب لـ " الصياصي " مما يضيع معه أي تصور لقوة هذه الحصون ومناعتها . وهذه الكلمة الصياصي أعون على السخرية بهم والاستهزاء بحصونهم من مرادفها[2] " الحصون " حيث إن كل دلالات الصيصة يجمعها شيء واحد هو أن ظاهرها قوية ولكنها في حقيقتها ضعيفة[3] وهذا الضعف من وجوهه المختلفة سواء كان من السخرية والاستهزاء باليهود ، أو من إهمالهم واحتقارهم الظاهر في النظم ، أو من بيان قدرة الله التي حولت الحصون المنيعة إلى مجرد صياصي ، إنما هو من قذف الرعب في قلوب اليهود ولو لم يرعبهم الله ويجعل الرعب متمكناً في قلوبهم لما كانت حصونهم صياصي فخورهم الداخلي وضعفهم المعنوي هو الذي أدى إلى الضعف الحسي الظاهر .

ولما كانت قلوبهم ظرفاً للرعب ووعاءً له كانوا مستسلمين لأحد أمرين " فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً " فإما القتل ، أو الأسر وكلا الحالين هوان وذلة وفي تقديم المفعول به " فريقاً " في النظم ملاءمة شديدة لقذف الرعب حيث دلت من أول الأمر على أن تشتتهم وتفرقهم نشأ عن هذا الرعب ، وفي تقديم تقتلون " على " تأسرون " مناسبة أيضاً لقذف الرعب في القلوب ، فالمقتولون هم الرجال المظاهرون للمشركين ، ومن ثم بدأ بحالهم هم لأن قتلهم أدخل في المنة على المؤمنين وفي سرورهم لأنهم الشوكة التي تألموا منها ، لذا استعمل المضارعة هنا . وفيه دلالة على أن الفعل وقع بتؤدة وتمهل وفي ذلك دلالة على التمكن منهم تمكناً يظهر المنة على المسلمين ، ويظهر أيضاً قدرة الله -جل وعلا- كما يظهر شدة ذلتهم وهوانهم .

1- لسان العرب :2537/4

2- صفاء الكلمة : عبد الفتاح الأشين ,الرياض,دار المريخ ,1403هـ-1983م : 118

3- التصوير الساخر في القرآن الكريم : د.عبد الحليم حفني ,الهيئة المصرية العلمية للكتاب : 140

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أما في موضع الحشر فالحال أقل شدة من حال اليهود في الأحزاب كما إن الموقف كان مختلفا فالنظم في شأن يهود بني النضير فلم يحصل فيهم قتـــل بـــل إن الرســـول ﷺ أجلاهم من المدينة فقط لذا حين عبر النظم عن نتائج قذف الرعب في قلوبهم كان التعبير أخف من موضع الأحزاب . والتوطئة له أيضاً أقل حيث وطأ بإخراجهم من ديـــارهم ، وإخلاف ظنهم وكل ذلك نابع من قذف الرعب في قلوبهم خاصة لذا نتجت كل الأفعال والظنون من وعاء الرعب وقد أكد النظم على ذلك بأمور عدة :

أولها : عبر عن الجلاء بالحشر ، وفي ذلك تربية للمهابة والخوف حيث شبهه بيوم الحشر وأي خوف ورعب أكبر من رعب ذلك اليوم ومثل هذا الرعب لا يكون إلا في القلب .

ثانيها : التضاد والذي اعتمد عليه النظم بين ظنهم " وظنوا أنهـــم مانعتـــهم حـــصونهم" _والظن هنا لمعنى اليقين_ وبين الواقع بأنها لم تغن عنهم بل أمكن الله منهم وهذا الظن إنما هو من قلوبهم ؛لذا كان قذف الرعب فيها خاصة والمقابلة بين التكبر والغطرســـة فـــيهم حيث ظنوا أن حصونهم تمنعهم من الله ، وبين الخضوع والاستسلام الذي حل بهم حيث خربوا بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين .وبين فعلهم من إعداد الحصون ، وتبيين فعل الله بهم بأن أتاهم من حيث لم يحتسبوا وقذف الرعب في قلوبهم .

ونلاحظ دقة النظم في خص الألفاظ الدالة على الرعب المتمكن في قلوب اليهـــود فعلى إعجابهم بـــ "حصونهم " يعبر بالفعل " أتى " الدال على سهولة هدمها و لم يستعمل (جاءهم) وما ذلك إلا لتربية الرعب في قلوبهم فهو متعلق بقذف الرعب .

وفي تخيره للفعل " يخّربون " دلالة على تمكن الرعب في قلوبهم وفيه قـــراءة بـــالتخفيف وثانية بالتشديد[1] ولكل منهما دلالته فقيل إن التخفيف لأن حصونهم من رعبهم المتمكن في قلوبهم تحولت إلى مجرد بيوت ضعيفة ، ولهذا لا تحتاج إلى جهد في تخريبها،ولاحركـــة مضاعفةفي نقضها،ولهذا جاء الفعل عادياً مخفـــفاً لخفة هـــذه البيـــوت وهوانهـــا علـــى أصـــحابها [2]

1- قرأ أبو عمر وحده "يخرّبون " بتشديد الراء وقرأ الباقون" يخْربون" بسكون الخاء . معاني القراءات : الأزهري ,ت:عيد مـــصطفى عوض القوزي ,ط1 , 1412هـ-1991م :63/3,

2- الشخصية اليهودية من خلال القرآن : صلاح الخالدي ,دمشق ,دار القلم,ط1, 1419هـ -1998م : 23

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويظهر لي أن لقراءة التشديد " يخرّبون " وجهاً أيضاً ولا يتعارض مع كون حصونهم أصبحت مجرد بيوتاً ففيه دلالة على أنهم لتمكن الرعب في قلوبهم جّدوا في تخريب بيوتهم إما ليحتموا بما أخذوه منها ، أو ليقينهم بأنها ستكون إرثاً للمؤمنين فأرادوا حرمانهم منها .

ولظهور أثر هذا الرعب المتمكن في القلوب ختم النظم بـ " فاعتبروا يا أولى الأبصار" فناط الاعتبار بالأبصار دون الألباب وذلك لأن الأثر كان ظاهراً ومرئياً للبصر حيث إن تخريبهم لبيوتهم كانت حادثة واقعة لا تحتاج إلى تفكير طويل بل هي أمام الأبصار وما هذا إلا لتمكن الرعب فظهرت آثاره عياناً .

وكما اختلف النظم مع اليهود تبعاً لاختلاف الموقف وحال المتحدث منهم كذلك اختلف مع الكافرين .

ومواضع الاختلاف:

أولاً : على الرغم من اتفاق الموضعين في إيراد الفعل "سألقي ، سنلقي " بالمضارعة إلا أن الملاحظ أن القرآن أورده بنون العظمة في موضع آل عمران دون موضع الأنفال وذلك لأن المنة أعظم في آل عمران ، حيث حصلت بعد المخالفة ومع ذلك يمن الله عليهم بالنصر فناسب الموضع العظمة لتدل على أن النعمة في آل عمران أعظم كما إن السياق" آل عمران " في المصطفين الأخيار ويلائمهم عظمة المنة ,وفي إسناد كلا الفعلين لله -جل وعلا- ملاءمة للقلب ، لأن في ذلك دلالة على قوة وتمكن هذا الإلقاء وهذا يلائم ثبات وتمكن القلب ، كما إن المضارعةالدالة على التجدد لهذا الرعب ملائمة - أيضاً - للقلب حيث إنه متجدد على قلوب الكافرين.

ثانياً : من الملاحظ أن الخطاب في " آل عمران " موجه مباشرة للمؤمنين " بَلِ اللّهُ مَوْلاَكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ " -" سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ " أما الأنفال ففيه احتمال أن يكون الخطاب موجه للملائكة وهذا يعود أيضاً إلى أن المنة في آل عمران أعظم من المنة في الأنفال .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثالثاً : التصريح بالنتيجة في موضع الأنفال ؛ لأن السياق في غزوة بدر والنتيجة كانت لصالح المؤمنين ؛ لذا ذكر كيفية نصرهم على الكافرين في حين لم يصرح بالنتيجة في آل عمران ؛ لأن السياق كان في غزوة أحد ..

ونلاحظ أن لواحق اللفظة في كلا الموضعين مؤكدة لقرارها في نظمها ففي موضع آل عمران جعل سبب هذا الرعب " بما أشركوا " فزاد "ما " للدلالة على عظم هذا الشرك في نفوسهم عظم يدل على تمكنه وأنه قد تغلغل في قلوبهم وهذا ملائم للقلب . وتصريح النظم بأن الإشراك كان " بالله " بخص لفظ الجلالة " الله "بالذكر دليل آخر على قرار " القلب " في نظمه ؛لأن فيه دلالة على جرأة الكافرين على الإشراك بمن يجب تأليهه _سبحانه_ وهذا لا يكون إلا من عزم باطل في القلب .

وفي جمع الآية بين ذكر حالهم في الدنيا " الرعب " وحالهم في الآخرة "ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين " دليل على ثبات حال الخوف وعدم الأمن لهم في الدنيا والآخرة وهذا ملائم للقلب .

أما في موضع الأنفال فنلاحظ بأن النظم عطف " بالفاء " "فاضربوا " التي تدل على التعقيب وهذا التعقيب يدل على شدة الأثر الذي أحدثه الرعب في قلوبهم فمكّن المؤمنين منهم مباشرة وهذا يلائم القلب حيث لا يضعف الجيش إلا إذا خار قلبه .. كما إنه في تحديد مواضع الضرب بأنها " الأعناق " ، " وكل بنان " دليل على غلبة المؤمنين عليهم وقهرهم لعدوهم ، حيث إن النظم حدد موضع الحياة وموضع القوة وحمل السلاح وفيهما تكمن الحياة فبهلاكهما هلاك الكفار وهذه قوة تمكن تدل بالمقابل على شدة الرعب الذي سكن قلوب الكافرين .. فالأعناق مفاصل ومذابح في الكافرين كما إن إفساد الأصابع أنكى ما يكون بعد ذلك لأنه يبطل قتال المضروب أو كمال قتاله [1].

1- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : 194/3

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكما أكد السياق القبلي والنظم قرار اللفظة في مكانها أكد ذلك السياق البعـــدي فأكد في موضع آل عمران تغلب المؤمنين على الكافرين " إذ تحـــسونهم بإذنـــه " ، " إِن يَنصُرْكُمُ اللّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ " وفي الأنفال " ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُـــشَاقِقِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ " " ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّار" حيـــث أدام الله الذل على الكافرين وفي ذلك ثبات للمؤمنين ودليل على قرار تمكن لا يلائـــم إلا القلب -والله أعلم -

***

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن المواضع التي تقارب النظم فيها في وصف المنافقين والكافرين ما يلي :

1- قوله تعالى : **﴿ وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُواْ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَوِ ادْفَعُواْ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾**(1).

2- وقوله : **﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾** (2).

3- وقوله :**﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾** (3)

4- وقوله : **﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾** (4).

فالصفة المشتركة بين هذه المواضع والتي أراد بيانها القرآن هي مخالفة ظاهر هؤلاء باطنهم ، ومغايرة أقوالهم لاعتقادهم ، وقد ورد القلب في جميع المواضع لملاءمته للغرض والسياق حيث إن الكلام عن أمور ثابتة غير متغيرة بل اعتقادات ثابتة وهذا لا يكون إلا في القلب ولا يراد بها وقت معين حتى يرد الفؤاد إذ الصفة هنا على سبيل التأبيد .

والموضعان الأولان في المنافقين وكلاهما في التخلف عن الجهاد وقد اشترك النظم فيهما في تخير بعض الألفاظ في حين اختلف في أخرى لاختلاف حال المتحدث عنهم فمما اشترك فيه :

1- آل عمران : 167

2- الفتح :11

3 – المائدة:41

4- التوبة :8

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أولاً : خصه لفظ " يقولون " فما أظهروه لا يجاوز كونه قولاً لا اعتقاد فيه وهذا واقع المنافقين وقد صاغها النظم بالمضارعة لتجدد ذلك فيهم فهذا ديدن المنافقين في كل زمان ومكان .

ثانياً : ورود النفي بقوله " ما ليس " وفيه دلالة قوة للنفي .

ثالثاً : التعدية بفي ، لأن النظم يخبر أن ما قالوه لم يتمكن في قلوبهم فالتعدية بفي للدلالة على أن المتمكن في قلوبهم خلاف ما قالوا .

رابعاً : ورود القلب دون غيره - لما سبق - أنه أراد أموراً ثابتة واعتقادات متمكنة غير متغيرة ، وجمع القلوب للدلالة على أن ذلك سمة عامة فيهم جميعاً ، و أضاف القلوب لهاء الضمير أيضاً احتقاراً لهم وإهمالاً .

هذا ما اتفقت فيه المواضع في حين اختلفت في ورود الأفواه في الموضع الأول والألسنة في الموضع الثاني وقيل في ذلك " يقولون بأفواههم " لا يتجاوز إيمانهم أفواههم ومخارج الحروف منهم ولا تعي قلوبهم منه شيئاً وذكر الأفواه مع القلوب تصوير لنفاقهم ، وأن إيمانهم موجود في أفواههم معدوم في قلوبهم ، بخلاف صفة المؤمنين في مواطأة قلوبهم لأفواههم[1]، وقيل : عبر بالأفواه التي فيها ما هو أبعد عن اللسان لكونهم منافقين ، فقولهم إلى أصوات الحيوان أقرب منه إلى الكلام .

ولما أفهم هذا أنه لا يجاوز ألسنتهم فلا حقيقة له ولا ثبات عندهم ، صرح به في قوله " ما ليس في قلوبهم "[2].

1- الكشاف : 656/1

2- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : 179/2

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهذه معان صحيحة ولكن لا يظهر فيها لمَ وردت الأفواه في موضع آل عمران في حين وردت الألسنة في موضع الفتح وما ذلك إلا لاختلاف حال المنافقين في كل من الموضعين فموضع آل عمران في المنافقين في غزوة أحد وقد كان النفاق في هذه الفترة ضعيفاً لم تقو شوكته ، لذا ورد معه الأفواه في حين أن المنافقين في موضع الفتح كانوا في صلح الحديبية وهي فترة كانت قد قويت فيه شوكة النفاق ، كما إن المتحدث عنهم هم الأعراب وهم أشد كفراً ونفاقاً .

لذا وردت معهم الألسنة ، وذلك لأن نظم القرآن في جميع مواضعه التي يورد فيها الأفواه يوردها عند الفراغ من الدليل وعدم وجود الحجة والبرهان والدليل[1] فيكون الكذب عند ورود الأفواه أظهر من الصدق وهذا يلائم قولهم " لو نعلم قتالاً لاتبعناكم " حيث إن علامات القتال والاستعداد له كانت ظاهرة معلومة ولا شك فكيف يقولون ذلك فالكذب ظاهر والقول غير متقن ، لذا لاءم الأفواه .

في حين استعمل القرآن الألسنة في معنى إتقان الكلام ، لذا يعبر بأداة الكلام ذاتها فظهور الإتقان إذن في الألسنة لا في الأفواه وهذا يلائم حال الأعراب وتمكن نفاقهم وإتقان عذرهم " شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا " وقيل يحتمل التكذيب لهم أمرين أن يكون التكذيب راجعاً إلى قولهم " شغلتنا أموالنا وأهلونا " أو إلى طلب الاستغفار [2]، والظاهر أنه راجع إلى الجملتين المقولتين من الشغل وطلب الاستغفار، لأن قولهم " شغلتنا " كذب وطلب الاستغفار خبث منهم وإظهار أنهم مؤمنون عاصون"[3]. والراجح عندي أنه يعود فعلاً للأمرين فهذا أدخل في ذمهم وأكثر ملاءمة لشدة نفاقهم .

1- البرهان في علوم القرآن : 427/2
2- التفسير الكبير : 74/28
3- البحر المحيط : 93/8

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويؤيد لدي خص هذه الألفاظ والتوجيه السابق لسبب ذكرها دون غيرها القوة في رد النظم على كل من الفئتين , فالرد في موضع الفتح أقوى وأشد وأكثر صـــراحة في تهديدهم من الرد عليهم في موضع آل عمران " قل فمن يملك لكم من الله شـــيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً " ثم أتبع ببيان أن الله " بما تعملون خبير " في حين اكتفـــى النظم في آل عمران بقوله " والله أعلم بما يكتمون ".

كما صرح النظم بأنهم " قوماً بوراً " وأتبع ذلك بـــ " ومن لم يـــؤمن بـــالله ورسوله فإنا أعتدنا للكافرين سعيراً " في موضع الفتح في حين ذكر فقط في موضـــع آل عمران " هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان " وإن قال أكثر العلماء إن هذا تنصيص من الله على أنهم كفار، قال الحسن:(إذا قال الله تعالى" أقرب"فهو اليقين أنهم مشركون، وهو مثل قوله " مائة ألف أو يزيدون " فهذه الزيادة لا شك فيها). وهذا الراجح لدي أيـــضاً إلا أن النظم لم يكن فيها صريحاً كصراحته في موضع الفتح وهذا دليل على قوة الصفة في منافقي الفتح وأنها أشد من صفة المنافقين في آل عمران .

وقد أكد النظم في موضع الفتح على ثبات نفاقهم حيث أكد على كذبهم بالإضراب عن أعذارهم بقوله : " بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً " فبين أيضاً حال قلوبهم بأن تخلفهم لظنهم أن الرسول ﷺ والمؤمنين سيهزمون والظن هنا يقين ثبت في قلوبهم ؛ لذا أتبع النظم ذلك بقوله " وزين ذلك في قلوبكم " فزين الشيطان ذلك اليقين في قلوبهم وما يزين للقلب يحبه وبالتالي يتمكن لذا لاءم أن يأتي القلب وأن تكون التعدية بـــ (في) ليؤكد علـــى تمكنـــه وتغلغله في قلوبهم وترقى في ذمهم بأن ظنهم كان ظن سوء وبالتالي كانوا قوماً خاســـرين ولم يكن ذلك إلا نتاج أفعال قلوبهم لذا كانت المؤاخذة مرتبة على ذلك .

***

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والموضع الثالث في قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾[1].

ورد في المنافقين أيضاً ولكن السياق الخاص فيه مختلف عن الموضعين السابقين فهو تسلية للرسول ﷺ ويشترك معها في سياق عام هو بيان صفة المنافقين التي عرفوا بها وهي مخالفة ظاهرهم لباطنهم .

ولكن صفة النفاق هي أقوى مما في الوصفين السابقين ودل على ذلك نظم الآية حيث أورد :

أولاً : يسارعون فوصف هؤلاء بالمسارعة في الكفر وهذا أعتى من شأن من سبق ممن اعتذر كاذباً وأوردها مضارعة تأكيداً على تجدد ذلك منهم في كل حين .

ثانياً : أورد النظم هنا الفعل الماضي " قالوا " في حين ورد في الموضعين السابقين الفعل " بالمضارعة " وفي هذا دليل على قوة الصفة في هؤلاء عن أولئك فهي حاصلة فيهم متمكنة سابقة في صفاتهم في حين إن من وردت معهم المضارعة دليل على تجدده وهذا أقل من كونه ثابتاً فيهم فقد يقل أو يزيد في خلال التجدد أما من سبق لهم القول فقد لزمهم وثبت عليهم .

ثالثاً : ورود الأفواه دون الألسنة وذلك لضعف الحجة والبرهان فهو قول بالأفواه ؛لأن كل ما فعلوه يدل يقيناً على كفرهم فكيف يسارعون في الكفر ويقولون (آمنا) ؟ هذا ظاهر بطلانه .

1- المائدة : 41

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

رابعاً : ورود الآيةبـــ " و لم تؤمن قلوبهم " وهذا أقوى من " ما ليس في قلـــوبهم " مـــن وجوه هي :

أـ إن في هذا تصريح بما لم يصرح به سابقاً من انتفاء إيمانهم وهذا أقوى في الدلالة علـــى ظهور كفرهم.

ب ـ إن في هذا التصريح ملاءمة للمسارعة في الكفر حيث أظهر حال قلوبهم بعدم إيمانها فإذن هي كافرة .

جـــ - نسب عدم الإيمان لقلوبهم خاصة و لم يرد النظم بـــ " لم يؤمنوا " أو " ما هـــم بمؤمنين" بنسب عدم الإيمان لذواتهم وهذا أقوى لأن فيه تأكيد على تمكن النفـــاق مـــن قلوبهم خاصة وفيه أيضاً ملاءمة لمسارعتهم في الكفر فهذا من ذاك فالمسارعة في الكفر من عدم إيمان قلوبهم .

خامساً : عطف القرآن عليهم " الذين هادوا " بالواو الدالة على الاشتراك وفي هذا دليل على مشاركتهم اليهود في كفرهم وعتوهم فاتصفوا بذات صفاتهم وهذا أدخل في ذمهـــم أكد على ذلك قوله تعالى: " الذين هادوا " و لم يقل " اليهود " وهذه اللفظة تطلق علـــى المتدينين من اليهود والذين كان جرمهم في الدين أقوى من جرم غيرهم فهم الذين حرفوا التوراة والإنجيل فإذا قورن بهم هؤلاء المنافقين فهو دليل على شدة نفاقهم وقوتـــه ، لـــذا ترتب عليه شدة العقاب بقوله " أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم " فأشار إلـــيهم وتلاه بالموصول وفي ذلك بيان لفعلهم السابق فمن فعلوا كل ما ســـبق " لم يـــرد الله أن يطهر قلوبهم " وقال تعالى " لم يردالله أن يطهر قلوبهم " و لم يقل " يفسد الله قلوبهم "، وذلك لأن نفي الشيء أقوى في الدلالة من إثبات ضده ففيه دلالة تأبيد زمني يلائم قلوبهم المسارعة في الكفر . يؤكد على ذلك نسب الفعل للفظ الجلالة ففي ذلك تأكيد على قوة الفعل تبعاً لقدرة الفاعل.

وفي ورود مادة " يطهر " ملاءمة للقلب حيث فيه معنى وصول الغاية في النقـــاء ، وفيه لزوم لهذا النقاء يلائم القلب وقد اطرد استعماله في القرآن في مواضع الفضل وزيادة النقاء ووصف به من وصل مرتبة عالية من الإيمان والابتعاد عن الذنب فحين ينفي عـــن المنافقين كل هذا الفضل دليل على سفول مترلتهم ودوام هذا السفول عليهم .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أكد ذلك بيان القرآن لحالهم في الدنيا والآخرة ففي الدنيا خزي وفي الآخرة "عذاب عظيم " فأبد عليهم هذا الحال في الدارين .

أما موضع التوبة فالاختلاف بيّن وذلك لأن السياق في الكافرين فنلحظ أن الصراحة في إدعائهم أظهر حيث قال تعالى " يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم " .

فقال: "يرضونكم" والإرضاء قد يكون بتمويه من القول ولا يشترط أن يكون قولاً صريحاً بالاعتذار أو بالإيمان وهذا حال الكفار فهم لم يصرحوا البتة بالإيمان فالإرضاء قد يكون بأي شيء دون التصريح بالإيمان .

وورود الأفواه لأن الإرضاء بغير حجة وغير متقن لأنهم لم يكونوا منافقين فلذا لم يتقنوا التزلف في الكلام .

وقال : " وتأبى " ولم يقل يرضونكم بما ليس في قلوبهم " أو بما تكره قلوبهم " لما في الإباء من معنى الامتناع [1]الذي يدل على القوة وهذا حال الكافرين فهم لا يمكن أن يؤمنوا حتى لوقسرت قلوبهم قسراً فهي تأبى وتمتنع وهذا أدخل في الدلالة على تمكن كفرهم من قلوبهم فهي تأبى إلا بالمعصية وهذا الوصف ملائم لأن يكون في القلوب خاصة لأنه وصف ثابت لهم متمكن فيهم لذا ختم بقوله " وأكثرهم فاسقون " فتخير الفسق خاصة لما فيه من الدلالة على شدة المعصية فالفسق الخروج من طاعة الله بكبيرة ولا يكون إلا بالإفساد [2] وقوله أكثرهم لأن المقصود الخروج عن الكمال العرفي بين الناس ، وليس المراد الخروج من مهيع الدين لأن ذلك وصف لجميعهم لا لأكثرهم[3].

ونلاحظ أن القرآن صرح بوصفهم بالفاسقين مخالفاً لموضعي المنافقين الذي لم يصرح فيه بوصفهم بالكفر أو الفسق وذلك لمداهنة المنافقين وصراحة الكافرين بكفرهم .

1- الفروق اللغوية : 147

2- السابق : 259

3- التحرير والتنوير : 31/10

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثانياً : الصفات الخاصة :

من الملاحظ أن ما سبق كان في صفات مشتركة بين الطوائف المختلفة ، أما الصفات التي اختصت بها كل طائفة فكما يلي :

الآيات الواردة في الصفات الخاصة بالمنافقين :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ البقرة : 204

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾النساء : 63

﴿ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ التوبة : 45

﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ التوبة : 110

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ آل عمران : 7،8

﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ ﴾ التوبة :64 .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الموضع الأول في قوله تعالى : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ** ﴾ (1).

والثاني ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا** ﴾ (2)

وكلا الموضعين يجمعهما سياق عام واحد _وإن اختلفت الصورة _وهو مخالفة الظاهر للباطن وبمعنى آخر بيان حقيقة الدعوى .

والنظم والتركيب في الموضع الأول قائم على أمور عدة كلها تدور حول ما وقر في القلب :

أولها : المقابلة بين طائفتين الأولى" **ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه** " والثانية " **ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله** " والمقابلة بين الطائفتين لإرادة إظهار الأحوال النفسية والصفات الداخلية والتي أساسها القلب فالطائفة الأولى تبرع في البلاغة في القول لإظهار ما تريد حتى إنها تعجب في قولها الرسولﷺ فكيف بمن سواه ؟ وتبرع في الكلام في أمور الحياة الدنيا وتشهد الله " على ما في قلبه " كما تريد وتزعم لا كما في الحقيقة ، والثانية تساوى ظاهرها بباطنها ومرد حالة الطائفة الأولى النفاق المتمكن في قلوبهم حتى أتقنوا النفاق أيما إتقان ، ومرد حالة الطائفة الثانية الإخلاص. والنفاق والإخلاص إنما هما من أعمال القلوب .

ثانياً : تركيز القرآن على قسمين من أفعال هؤلاء الذين أشهدوا الله على ما في قلوبهم : أفعال جوارح "سعى في الأرض ليفسد فيها " ، " ويهلك الحرث والنسل " وأفعال القلوب " ألد الخصام " و " أخذته العزة بالإثم " وكل منهما مناقض لصدر الآية " يعجبك قوله " ودالة على ما في قلبه على حقيقته وليس على ما أراده . وهذه الأفعال بعض مما في قلوبهم وهذا جزء من كل من فعلهم ومحورها كلها القلب .

1- البقرة : 204
2- النساء :63

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثالثاً : تركيز القرآن على تلونهم مع مخاطبيهم فكلامهم معجب في أمور الدنيا ولكن حين يرد الدين تظهر الحقيقة وما ذلك إلا لتمكن النفاق وهذا لا يكون إلا في القلب .وورود الفعل "قيل " بالبناء لما لم يسم فاعله دليل عموم . فعدم قبولهم للنصح من الخلق كلهم سواء كان الرسول ﷺ أو من غيره وهذا أدخل في ذمهم وأدل على تمكن نفاقهم وما هذا الفعل إلا ناتج عما في قلوبهم .

رابعاً : خص القرآن العقوبة الأخروية بالذكر " فحسبه جهنم .." لأن المجازاة في الآخرة على ما وقر في القلب لا على الظاهر وكل ما سبق من أعمالهم إنما هو نتاج نفاق قلوبهم فجازاهم بمثل أعمالهم .

وكما دللت التراكيب في العموم على قرار القلب ففي الألفاظ دقة في تأكيد قرار القلب يدلنا على ذلك ما يلي :

أولاً : ورود (الناس) " ومن الناس " دون غيرها من الألفاظ كالإنسان أو المرء وذلك لاشتقاقها من النوس وهو الحركة والاضطراب والتذبذب(1)فكأن الناس كالخيط الرفيع المعلق في الهواء حركته شديدة فإما أن تصل به إلى أقصى درجات الإيمان وإما أن تصل به إلى أقصى درجات النفاق وهذا الحال أو ذاك إنما يعود للقلب .

ثانياً : قوله " يشهد الله " والشهادة تحتاج تصديقاً لشيء مرئي معلوم فكأنهم يؤكدون على ما يدعون وبأنه حقيقة معلومة وفي " إشهادهم الله " جرأة تدل على أن الفعل نابع من قلب تمكن فيه النفاق يدلنا على ذلك التصريح بلفظ الجلالة " الله " الذي هو أدعى لتربية المهابة فلا تغيب هذه المهابة إلا عن من غوى قلبه .

ثالثاً : ورود (ما) والتي فيها دلالة الإبهام الذي يدل على كثرة أفعال قلوبهم المنافقة ولكن ما ذكر على سبيل المثال لا الحصر . كما في الإبهام فيها مناسبة لخفاء ما في قلب هذا المنافق وستره ، وقد يكون فيه معنى التحقير لدناءة ما في قلوبهم ، وقد يكون تهويلاً من شأن ما في قلوبهم لعظم فساده .فكل الدلالات تناسب القلب وتمكن النفاق فيه .

---

1 – معجم مقاييس اللغة:532/2

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

رابعاً : التعدية بـــ (في) والتي تدل على تمكن الشيء وقراره وهذا ملائـــم لأن يكـــون المتحدث عنه في القلوب لا في غيرها لثباتها وقرارها .

خامساً : ورود الجملة الحالية " وهو ألد الخصام" والتي فيها إنكار وتعجب وتحقير لهـــذا المنافق كما فيها مقارنة بين متناقضين لتعميق الصورة في الذهن ولذا وردت بالجملة الاسمية للدلالة على ثبات هذا الحال لهم وهذا الثبات يستدعي القلب . وفيه دلالة على المبالغـــة فالألد الخصم الجدل الشحيح الذي لا يزيغ إلى الحق[1]وشدة الخصام ملائمة لما وقـــر في قلوب المنافقين .

وقوله تعالى : ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا**﴾ [2]يندرج أيضاً تحت سياق مخالفة الظـــاهر للبـــاطن ، أو الدعوى لحقيقة الأمر ولكن الدعوى هنا مختلفة عن الدعوى في موضع البقرة فهنا السياق يتكلم عن دعوى المنافقين قبولهم حكم رسول الله ﷺ في حين أنهم يرفضونه بقلوبهم بـــل ويصدون عنه .

وذكر القرآن القلوب لأنها المعول عليها فيما يبطنونه والقرآن يعمـــد إلى كـــشف حقائق قلوبهم وبالتالي حقيقة اعتقادهم وفضح نفاقهم.

وقد أكد السياق القبلي على ما ذكر في قلوبهم من النفاق فهم " يزعمـــون أنهـــم آمنوا" هذا ظاهرهم وحقيقة أمرهم أنهم " يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به " " وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُـــولِ رأيـــت المنـــافقين يصدون عنك صدوداً " فهم يصدون صدوداً عن حكم الله ورسوله ولكنـــهم يظهـــرون خلاف ذلك "يحلفون بالله إن أردنا إلا أحساناً وتوفيقاً " وما ذلك إلا لنفاقهم والنفـــاق من أعمال قلوبهم ، لذا بين الله أنه يعلم حقيقة أمرهم ببيان علمه بما في قلوبهم خاصة .

---

1 - لسان العرب :4020/2

2 - النساء :63

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا** ﴾ فكل ما في الآية يدور حول القلب :

حيث بدأت الآية بالإشارة " أولئك الذين .. " والموصول وفيهما دلالة على أن ما سبق من النفاق إنما هو مما في قلوبهم لذا بعد أن أورد فعالهم أخبر بأنهم الذين يعلم الله ما في قلوبهم خاصة لأن الفعال المتقدمة نفاق ظاهر أنه من أعمال القلب ، كما إن العلم مسند للفظ الجلالة وفي ذلك قدرة تومئ إلى معرفة ما يسرونه لا ما يظهرونه . وما يسرونه إنما هو في قلوبهم .

و(ما) فيها دلالة إبهام تلائم أيضاً ما يخفى والذي لا يكون إلا في القلب ، كما فيها دلالة على كثرة ما يعلمه الله من قلوبهم وما ذكر مثالاً, وفيها دلالة على تحقير ما في قلوبهم . وفي التعدية بـ (في) ملاءمة للقلب لأنه يدل أن علم الله هنا متعلق بما تمكن في القلب ووقر فيه والذي هو حقيقة أمرهم لذا ترتب عليه قوله ﴿ **فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا** ﴾ فأمر الله بالإعراض عنهم لأن حقيقة أمرهم الإعراض عن حكم الله ورسوله وهذا اعتقادهم الذي وقر في قلوبهم لذا ترتب عليه " فأعرض عنهم والشد عليهم في القول " وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً ".

وفي السياق البعدي ما يؤكد قرار القلب أيضاً حيث نفى عنهم الإيمان " فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا " وكل ذلك ليس في المنافقين فالإيمان في القلب وتعليق الإيمان بما ذكر ينفي عن المنافقين الإيمان لأن حالهم مناقض لذلك وهذا متعلق بالقلب أيضاً ، كما يتعلق به كل ما ورد بعد ذلك من مخالفة أمر الله.

***

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال تعالى : ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾[1]

وقال : ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[2].

ورد الموضعان في صفات المنافقين والملاحظ أن كلا الموضعين يجمعهما سياق عام واحد وهو ظهور فعل المنافقين في صورة الطاعة مع منافاته لحقيقتها ، وإن اختلفت صورة الطاعة .

ففي الموضع الأول : صورة الطاعة توقير الرسول ﷺ باستئذانه في التخلف عن الجهاد والحقيقة منافية لذلك فما فعلوا ذلك إلا لمخالفة أمر الرسول - ﷺ - والضن بأنفسهم عن نفسه وعدم الخروج للجهاد .

أما الموضع الثاني : فصورة الطاعة : بناء المسجد و الحقيقة أن البناء كان يراد به الضرار والكفر وفتنة المسلمين ؛ لذا اتفق النظمان في صفة الريبة وإن اختلفت صياغتها تبعاً للسياق الدقيق الخاص -كما سأعرض- . والريبة هي الشك بتهمة[3]فأعمالهم متهمة بفسقها وإن كان ظاهرها الطاعة . والسياق والنظم ملائم للقلب فالسياق فضح حقيقة اعتقادهم والذي يكمن في القلب والنظم رشح بألفاظ وعقب بأخرى كلها تؤكد قرار القلب في نظمها .

ففي الموضع الأول :

بدأ بالقصر" بإنما " وفيها دلالة أنه معلوم أنه لا يتخلف عن الجهاد ولايجرؤ عليه إلا هؤلاء وهذا أدخل في ذمهم وأظهر في بيان تمكن نفاقهم وهذا ملائم للقلب.

كما وصفهم بـ " لا يؤمنون " بلا الناهية والفعل المضارع وفي ذلك دلالة على تأبيد ذلك عليهم وهذا أيضاً ملائم للقلب .

1- التوبة :45

2- السابق :110

3- الفروق اللغوية : 114

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ونلاحظ أن النظم ترقى في وصف نفاقهم وكفرهم حيث ذكر أولاً عدم إيمانهم ثم ترقى في ذمهم بأن ذكر ريبة قلوبهم " وارتابت قلوبهم " مستعملاً " ارتابت " بالمضي وبصيغة الافتعال فالريبة متمكنة من قلوبهم أصيلة فيهم وهم يطلبونها وإن ثقلت عليهم آثارها من التزلف وهذا ما دلت عليه صيغة الافتعال هنا . فالريبة ملائمة لأنها من أعمال القلب وملائمة بصيغتها _الافتعال _الدال على الطلب مع الثقل دلالة على أن هذا التصميم في الطلب نابع عن طلب القلب .

ثم ترقى النظم في ذمهم بقوله " فهم في ريبهم يترددون " بالجملة الاسمية الدالة على ثبات هذا الوصف لهم والتعدية بـ (في) الدالة على أن الريبة أصبحت وعاء لهم يدورون فيه وأكد ذلك قوله "يترددون " فكأنهم يروحون ويجيئون في الريبة.

والملاحظ أن هذا الموضع أول موضع وصف حال قلوب الكافرين في السورة فذكر فيه الافتعال ثم ذكر تجدده لهم حتى صار عادة لهم وبالتالي نجد كل ما ورد من فعال قلوبهم بعد ذلك في السورة نابع عن اعتيادهم النفاق بعد طلبهم له فكل ما ورد لاحقاً من تمكن نفاق قلوبهم .

فالسياق البعدي أورد أفعالاً كعدم إرادتهم الخروج وعدم إعدادهم له ، وتخذيلهم للمؤمنين وابتغاء الفتنة وغير ذلك تؤكد قرار النفاق في القلب .

وفي الموضع الثاني :

أكد القرآن قرار القلب بدلالته أولاً على التمكن والقرار للريبة تمكناً لا يكون إلا في القلب حيث قال تعالى : " لا يزال " بلا والفعل المضارع للدلالة على الاستمرار وفي هذه الصيغة دلالة على تطويل وقت الريبة في قلوبهم . ثم أتى بالريبة بالمصدر الدال على الثبات والاستقرار أيضاً وعدى ب(في) ، حيث جعلت قلوبهم ظرفاً ووعاءً للريبة وهذا ثبات وتمكن ملائم للقلب وأتبع بقوله " إلا أن تقطع قلوبهم " تأكيداً لثبات الريبة وبقائها حتى تهلك قلوبهم وفي قوله" بنيانهم " دون تسميته بالمسجد عدم اعتداد بهذا المسجد لأنه نفى عنه سابقاً صفات المسجد وأثبت له ضدها فلم يبق فيه إلا البناء فقط وهذا راجع أيضاً إلى نياتهم التي وقرت في قلوبهم .

وقوله : " الذي بنوا " قد يكون فيه دلالة على تعبهم في هذا البناء وهذا التعب في البناء المقصود به الضرر نابع من نفاق قلوبهم ، أو لكي لا ينصرف المعنى لغيره من البناء .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي السياق البعدي ما يؤكد على قرار القلب حيث قابل هؤلاء الذين تمكن النفاق في قلوبهم بالمؤمنين الذين تمكن الإخلاص في قلوبهم .والإخلاص والنفاق من أعمال القلوب .

وقوله تعالى : ﴿ **فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ** ﴾[1].

وقوله : ﴿ **وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون** ﴾ [2].

يجمعهما أيضاً سياق عام واحد وهو سياق المجازاة مع اختلاف نوع المجازاة باختلاف الفعل المجازي عليه ، ولذا ورد القلب لأن المجازاة والمؤاخذة قد تكون على فعل القلب لأن فيه التعمد .

أما الموضع الأول : فالسياق يدور حول إخلافهم ما عاهدوا الله عليه ومجازاتهم على ذلك .

وورود القلب فيه دقيق أكده السياق والنظم ، فالسياق القبلي أكد على معاهدتهم الله لئن آتاهم من فضله ليؤدن حق الله في هذا الفضل ، وقد أورده بصيغة القسم والتأكيد فكونهم يحنثون بهذا اليمين وينقضون عهدهم أدعى إلى مجازاتهم ، ولذا نجد أن نبرة الغضب كانت شديدة في النظم وذلك لعظم جرمهم حيث تجرءوا على إخلاف عهد الله خاصة ؛لذا صرح بلفظ الجلالة " عاهد الله " تربية للمهابة وبياناً أن فعلهم نابع من شدة نفاقهم الذي تمكن من قلوبهم ، لذا حين ورد العقاب ورد على قلوبهم خاصة .

1- التوبة :77
2- التوبة :127

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد أخبر القرآن بحالهم بقوله : " فلما أتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضـــون " فأتى بــ " لما " و لم تأت معها " أن " وفي ذلك دلالة على أن بخلـــهم وتـــوليهم عقـــب إيتائهم مباشرة ، وهذا يدل على أنهم لم يؤدوا حقه ولو لمرة واحدة يؤكد ذلـــك تعليـــق الفعل بخلوا بــ (به) و لم يقل " بخلوا " فقط وفي ذلك دلالة على إمساك المال بالكلية فلم ينفقوا منه شيئاً البتة ، وهذا له تعلق بتعمد الفعل وقصده وإرادة الكذب ، ومن ثم كان له تعلق بالجزاء ، " فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم "

كما إن الحال له وجه في الجزاء " تولوا وهم معرضون " ، إذ إنه يؤكـــد تعمـــد الفعل طواعية ، فالبخل قد يكون جبلة وغريزة عن طريق الطبع والوراثة ، وهو وإن كان معيباً إلا أنه أقل درجة ، فإذا كان عن إعراض فهو أقبح ، وكذلك التولي قد يكون عـــن غفلة وعدم فهم ، فإذا كان عن إعراض كان أدخل في الذم وأولى بأن يكون لـــه هـــذا العقاب ، ومن ثم كان للحال مدخل في العقاب وتعلقه بإيثار النفاق في القلب خاصـــــة فكانت المجازاة شديدة مبينة لشدة الغضب منهم من وجه ، وسريعة ملائمة لسرعة توليهم فأتى النظم بقوله " فأعقبهم " بالفاء الدالة على التعقيب ، و" أعقبهم " دون غيرها وفيها دلالة على وقوع العقاب مباشرة بعد ذنبهم من وجه. ومن وجه آخر يلائم توليهم فكأنه كان في توليهم إعطاء الظهر فأعقبهم أي ألحقهم وأورثهم النفاق .

وقد ذكر " نفاقاً في قلوبهم " مصرحاً بالقلب مع أنه معلوم أنه في القلب تأكيـــداً على ذلك وأورد النفاق بالنكرة دلالة على النوعية حيث أراد نفاق العقيدة وهـــو الـــذي يكون في القلب وبه يكفر الإنسان بخلاف نفاق العمل فهو غير قادح في الإيمان وأكد هذا الفهم للنوعية قول ابن القيم :(فإن الله سبحانه ذم من خالف ما التزمه له بالوعد ، وعاقبه بالنفاق في قلبه والفرق بين ما التزم لله وبين ما التزم بالله أن الأول ليس فيه إلا الوفـــاء ، والثاني يخير فيه بين الوفاء وبين الكفارة حيث يسوغ ذلك ، وسر هذا أن ما ألتزم له آكد مما التزم به ، فإن الأول متعلق بإلهيته ، والثاني بربوبيته) [1].

1- الضوء المنير :375/3

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكونه في العقيدة : فهو دائم ثابت وأكدا هذا الثبات بقوله " إلى يوم يلقونه " وفي هـذا تهديد بملاقاة من خلفوا عهده وتأبيد لهذا الوصف في قلوبهم وفي قوله :" بما أخلفوا الله ما وعدوه " ذكر ما هو ألصق بما سبق فالباء سببية بينت سبب عقابهم وفي ورود (ما) دقة ملائمة للنظم الذي أكد على تأبيد الصفة في قلوبهم ففيها دلالة استطالة ذلك منهم وكل ذلك ملائم للقلب .

وفي ختم الآية بـ " وبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ " زيادة في ذمهم حيث أورد الكون "بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ " زيادة في ذمهم وتأكيدا على تأبيد الكذب عليهم فهو وصف دائم لهم وهذا دليل على تمكن النفاق في قلوبهم .

وفيما ورد في السياق البعدي من أفعال من لمزهم للمطوعين بالصدقات والفرح بالتخلف عن الجهاد وغير ذلك دليل على أنها نابعة من نفاق القلب.

وفي الموضع الثاني: ﴿ **وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون** ﴾ السياق في مجازاتهم على موقفهم من القرآن وهو نفاق قلب أيضاً. والسياق القبلي مقر للقلب حيث تكلم عن أقوالهم ثم ترقى بعد ذلك وتحدث عن أفعالهم وكلاهما صدر عن نفاق قلوبهم خاصة فالقرآن يؤثر في القلب فإن لم يستجيبوا فذلك لإعراض قلوبهم ولا شك .

والنظم مقر نفاقهم والذي منبعه قلوبهم حيث حكي قولهم " هل يراكم من أحد " وفي هذا دلالة على أن نظرهم إلى الناس فقط وهذا دليل النفاق ثم ترقى النظم بأن بين بعد قولهم فعلهم " ثم انصرفوا " وثم هنا للتراخي الرتبي حيث لم يقفوا على القول بل تجرأوا وانصرفوا كي لا يسمعوا الذكر وقال صاحب التفسير الكبير: والانصراف يحتمل أن يكون المراد نفس هربهم من مكان الوحي واستماع القرآن ، ويجوز أن يراد به ثم انصرفوا عن استماع القرآن إلى الطعن فيه وإن ثبتوا في مكانهم [1].

1- التفسير الكبير : 177/6

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويظهر لي أن الأول هو الأرجح بدليل أن الفعل " انصرفوا " نسب إلى ذواتهم لا إلى قلوبهم كما إن قولهم " هل يراكم من أحد " دليل على ذلك حيث يرى انصرافهم أما انصراف قلوبهم فهو غير مرئي . وانصراف ذواتهم نابع من انصراف قلوبهم ؛ لذا وردت المجازاة على القلوب خاصة " صرف الله قلوبهم " وفي نسب الفعل للفظ الجلالة " الله " تربية للمهابة وتأكيد على شدة الفعل وبالتالي دوامه على قلوبهم فترتب عليه " بأنهم قوم لا يفقهون " حيث أصبح من مقومات قوميتهم عدم الفقه وفي نفي الفقه عنهم " لا يفقهون " ملاءمة للقلب حيث إن التأثر بالقرآن شيء داخلي فيكون بفقه القلب . وفي حذف المفعول دليل على عموم هذا الحال وبالتالي ثباته وقراره .

وفيما ورد في السياق االبعدي ملاءمة لما ورد في النظم ، حيث ورد فيه صفات للرسول ﷺ فهو "من أنفسكم " ، " عزيز عليه ما عنتم " و " حريص عليكم " و "بالمؤمنين رؤوف رحيم " وكلها صفات الأولى فيها إتباعه لا الإعراض عنه وفي ذلك توبيخ ولوم للمعرضين عنه ودليل على أن ذلك من صرف قلوبهم عن الحق .. وفي ختمها " فإن تولوا فقل حسبي الله ... " توبيخ شديد لهم على إعراضهم . ولا يشتد التوبيخ والعقاب على الفعل إلا إذا كان من عمد القلب .

وورد قوله تعالى : ﴿**هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ . رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ**﴾ [1]. والسياق هنا في الابتلاء بالمتشابه في الكتاب ، لذا ذكر القرآن القلب وذلك لأن أثر الكتاب متعلق بالقلب ، وقد مهد لذلك السياق القبلي الذي ذكر إنزال الكتاب وكونه هدى للناس لما فيه من شرائع إنما هي مخاطبة للقلب والالتزام بها يكون نابعاً من اعتقاد قلبي وإلا فلا أساس لها .

1- آل عمران : 7، 8

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وحين ننظر للآية ذاتها نجد أنها تعمد إلى التفصيل في موقف المنافق وموقف المخلص المؤمن من المتشابه وكلا الموقفين إنما هو نابع عن القلب وحاله واعتقاده لذا حين فصل النظم قال " فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ... " وقال في مقابله " وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ... " .

فوصف المنافقين هنا بـ " الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ " مورداً القلوب وقدم في قلوبهم على المسند إليه وذلك لأن القلوب عليها المعول فيما سيرد من فعلهم تجاه المتشابه من الكتاب وجعل الزيغ متغلغل متمكن منهم ؛لذا عدا بـ " في " ليلائم القلب .

وقد أكد قرار القلب في مكانها قوله " زيغ " دون ميل أو انحراف وذلك لما فيه من الدلالة على الميل الشديد ومن الملاحظ في نظم القرآن كاملاً لم يرد الزيغ مع الأفئدة البتة بل ورد مع القلوب . وذلك لأنه يعبر عن ميل شديد ثابت فاطرد ذكره مع القلب . وفي المواضع التي ورد فيها مع غير القلب كالبصر لم يرد إلا في مواقف عظيمة شديدة على النفس كحادثة الإسراء " ما زاغ البصر وما طغى " " ومعركة الأحزاب " زاغت الأبصار " أو في أحداث القيامة " أتخذناهم سخرياً أم زاغت عنهم الأبصار " فلا يلائم هذه القوة في الميل إلا في القلوب ، هذا وجه ، كما إن الميل عن الحق ميل معنوي داخلي لذا ورد مع القلوب.

وفي ورودها نكرة تعظيم لهذا الزيغ الذي جعل ردة الفعل عكسية فبدل أن يؤثر فيهم الكتاب إيجاباً أثر فيهم سلباً وما ذلك إلا لقوة الزيغ في قلوبهم ، ولا يمنع أن يكون التنكير للنوعية فهو نوع من الزيغ جعلهم يتتبعون المتشابه لا لطلب الحق بل ابتغاء الفتنة وابتغاء التأويل .

ونلاحظ أن الله قال " يتّبعون " بالتشديد و لم يقل " يتبعون " وفي ذلك دلالة على كلفة ذلك ومشقته عليهم ومع ذلك -لتمكن الزيغ في قلوبهم- يتبعونه وفي هذا تأكيد على قرار القلب فالزيغ تمكن وثبت في قلوبهم خاصة لذا نبعت عنه أفعالهم .

ثم قابلهم بـ " الراسخون في العلم " فالضد بالضد يعرف فهم قد رسخوا في الزيغ والضلال كما رسخ المؤمنون في العلم .

وفي ذكر الرسوخ خاصة دليل ثبات يقابل ويضاد الزيغ الذي كان فيه المنافقون ففيه طباق معنوي فكأن النظم ذكر الوجه المقابل ولكن من حيث المعنى لا اللفظ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وحين رسخت قلوب هؤلاء قالوا " آمنا به كل من عند ربنا " فعكس قولهم ما وقر في قلوبهم من الثبات على الحق ..

فظاهر في النظم أن الحالين إنما هما من القلب لذا لاءم أن يذيل بقوله " وما يذكر إلا ألو الألباب " الذي لاءم ما قبله وما بعده فظهر لنا النظم مترابطاً يوصل بعضه إلى بعض حيث وردت " الألباب " دون العقول وذلك لأن إدراك المتشابه في الكتاب والحكمة منه شيء خفي لا يستطيع إدراكه أي عقل بل يشترط لإدراكه لب كمل في الفهم فلاءمت الألباب بذلك ما قبلها .

وفي ورود النظم بأسلوب القصر " وما يذكر إلا أولو الألباب " تأكيد على هذا الاختصاص بالفهم ويمكننا أن نعتبر هذا القصر حقيقي تحقيقي على إرادة معنى الكمال في الوصف ويؤيد هذا ورود النظم بـ " يذكر " المشددة التي لم ترد في القرآن كله إلا مع أولي الألباب والتي تدل على سرعة الفهم والإدراك وهذا لا يكون حقاً إلا من " أولو الألباب " ويؤيد ذلك(ال) في الألباب التي تدل على كمال الوصف .

أو أن نعتبر أن القصر الحقيقي إدعائي لإدارة المبالغة في الوصف . وعلى الرغم من هذا التأكيد نلاحظ أن القصر ورد بالنفي والاستثناء ولم يرد بـ " إنما " والظاهر أن يأتي "بإنما" ، ذلك لأن في السياق معارض " الذين في قلوبهم زيغ " ولا شك أن المعارض لديه شك فلذا لاءم أن يأتي القصر بالنفي والاستثناء .

وكما لاءمت الألباب ما قبلها فقد لاءمت ما بعدها " ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ... " فلا يدعوا بهذا الدعاء إلا " أولو الألباب " وذلك لأن في هذا الدعاء اعتبار بحال الذين في قلوبهم زيغ ، وتذكير بالنعمة التي أنعمها الله عليهم إذ لم يجعلهم منهم ولا يدرك ذلك إلا أولو الألباب . ويؤكد ذلك طريقة القرآن في بيان دعائهم حيث قال تعالى: " لا تزغ قلوبنا " ولم يقل " ثبتنا " وذلك لأن في النهي اعتبارات عديدة وواسعة لا تكون في " ثبتنا " من إدارة الثبات على عدم الزيغ ، أو الزيادة في الثبات فكأنهم يطلبون العون ، وفيه الخوف من مكر الله وسوء الخاتمة وكل ذلك لا يتأتى إلا من" أولو الألباب "

كما إن معنى التأبيد في " لا تزغ قلوبنا " أقوى من " ثبتنا " . وهذا أبلغ في الدعاء وأدل على صدوره من " أولو الألباب " .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي قوله تعالى ﴿ **يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِم قُلِ اسْتَهْزِؤُواْ إِنَّ اللّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ**﴾ (1)

ورد القلب وذلك لملاءمة حال السياق وحال المتحدث عنهم فالمتحدث عنهم المنافقون ونفاقهم متمكن لا يلائمه إلا أن يكون في القلب ، كما أن السياق في سخريتهم من الله وآياته ورسوله وهو جرم عظيم لا يقدم عليه إلا من تمكن النفاق في قلبه كما أنه لا يمكن أن يكون إلا عن تعمد وقصد وهذا فعل القلب.

والسياق القبلي مؤكد لقرار القلب في مكانها فما ذكره من أفعال المنافقين دال على تمكن النفاق. والنفاق من أعمال القلوب أصلاً ، فإيذاء الرسول ، والحلف بالله وهم كاذبون ومحادة الله ورسوله دليل على ما وقر وتمكن في قلوبهم.

وحين ورد النظم أكد على ذلك حيث سمى "المنافقون " باسم الفاعل و لم يورده بـ " الذين نافقوا " وفي ذلك دلالة على اكتمال نفاقهم وثباته في قلوبهم ، وورد الفعل "تنبئهم " الدال على خفاء ما يخبر عنه وعلى عظمة وتهويل شأنه(2)ملائماً لـ (ما) والتي فيها معنى الإبهام الدال على خفاء ما في قلوبهم كما إن في معنى الإبهام التهويل فكأنه يهول شأن النفاق الذي في قلوبهم وكل ذلك مرشح لأن يرد القلب بعد ذلك دون سواه لأن ما خفي من النفاق وعظم وتمكن إنما محله القلب وفي إيحاء " تنبئهم " بالتهديد ملاءمة للقلب فلا يرد التهديد على ما لا تعمد فيه بل على ما كان اعتقاداً متعمداً .

وفي التعدية بـ (في) أيضاً ترشيح للقلب لدلالته على أن الإنباء بما هو متمكن متعمق في القلب لذا قال بعد ذلك " قلوبهم " وجمعها دلالة على أن هذا عام فيهم وحقر شأن هذه القلوب بإضافتها إليهم بهاء الضمير .

ونلاحظ ارتفاع نبرة التهديد بقوله " قل استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون " وفي ذلك ملاءمة لحال قلوبهم حيث هزها النظم بالتهديد بأن الله سيخرج ما يحذرون وبالتالي سيكون عليه العقاب والحساب لذا أورد لفظ الجلالة " الله " لتربية المهابة في قلوبهم .

وفيما ورد في السياق البعدي بعدم قبول عذرهم والحكم بكفرهم والتصريح بعذابهم كل ذلك دليل على أن الفعل فعل قلوبهم التي تمكن فيها النفاق.

1- التوبة : 64 — 2- الفروق اللغوية : 53

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال تعالى في وصف حال اليهود والمنافقين وهم شرذمة مختلطة متشابهة في المترع والمظهر وإن اختلفت بواطنهم ﴿ **لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاء جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ** ﴾[1].

موردا القلب في بيان تفرقهم وهذا رشح له السياق القبلي ، حيث إن السياق القبلي في اجتماع المؤمنين على قلب رجل واحد في إيثارهم الأنصار لإخوانهم المهاجرين ، وفي دعاء من جاء بعدهم لمن سبقهم فكل ذلك تآلف واجتماع قلب يناقض ما عليه هؤلاء المتشرذمة من المنافقين واليهود من اجتماع الظاهر وعداوة الباطن وما ذلك إلا من عداء قلوبهم .

وفي النظم ما يؤكد قرار القلب حيث عبر بكل ما يدل على شدة تفرقهم وتمكن هذه الفرقة منهم لأن منبعها فرقة القلوب وإن اجتمع ظاهرهم لكن الأصل فيهم مختلف لذا قال تعالى : " تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى " فعبر " بـ " تحسبهم " بالفعل المضارع فيما يدل على الوحدة وفي تخير المضارع دلالة على أمرين أن هذا التوحد حادث وليس ثابت والثاني أنه متجدد بتجدد العوامل وهي عوامل ظاهرة فقط وليست أصيلة " ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم " ، و" لا نطيع فيكم أحداً "و " إن قوتلتم لننصركم " فكل ذلك إدعاء متجدد منهم وهو كاذب كما دل النظم .

وكما عبر بالفعل في بيان ظاهر توحدهم- والذي يدل على حدوثه وعدم ثباته- عبر بالمقابل الذي يؤكد هذا التفرق بالجمة الاسمية في تفرقهم فقال " وقلوبهم شتى " وأتى بالجملة في إطار الحال ، ولذا فإنها مرتبطة بما قبلها لإثبات المبالغة في الغرض المراد أي أن تفرق قلوبهم في وقت حسبانهم كذلك ، أي عند أقصى مظاهر الاتفاق هم في أقصى درجات الاختلاف ، فكيف بغير هذه الحال وذلك الوقت ؟ فهم أشد تشتتاً وأكثر تفرقاً .

1- الحشر:14

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذا بالنسبة لدقة التركيب أما الألفاظ فدقتها أيضاً مقرة " للقلب " حيث دلت على تمكن وثبات هذا التفرق حيث قال " جميعاً " دون " مجتمعين " وذلك لأمرين :

أولها : أن جميعاً فيها دلالة الاجتماع المعنوي أما مجتمعين ففيها دلالة اجتماع الظاهر .

ثانيها: التعبير بالإفراد " جميعاً " فيه دلالة شدة التوحد فكأنهم لشدة نفاقهم على قلب رجل واحد في حين أن تفرقهم شديد لا اجتماع فيه وفي الدلالة على شدة التوحد في الظاهر مع شدة اختلاف الباطن دليل على تمكن النفاق تمكناً لا يكون إلا في القلب .

كما أورد في بيان تفرقهم لفظة " شتى " دون متفرقة أو مختلفة وذلك لما لها من فضل في المعنى يلائم حال تفرق قلوب هؤلاء الشديد فلم ترد هذه اللفظة إلا في موضعين الأول هنا والثاني في قوله " إن سعيكم لشتى " فاستعملت فيما كان شديد الاختلاف فأشد ما يختلف سعي الإنسان فكل إنسان له سعيه المختلف عن سعي غيره سواء في نوعه أو في صلاحه أو في درجته أو في خلوص نيته ... إلى غير ذلك فموارد اختلاف عمل الإنسان كثيرة متنوعة لا حصر لاختلافها ، وكذلك هنا قلوب اليهود والمنافقين لذا لاءمها استعمال " شتى" معها .

وفي تعليل النظم فعلهم هذا بنفي العقل دون غيره من الفقه أو غيره ملاءمة لما سبق حيث إن النظم علل لكل ما سبق والذي يجمعه مناقضة ظاهرهم لباطنهم الذي فيه حقيقة أمرهم ، حيث إن مقتضى العقل أن يتفق الظاهر مع الباطن فلما كان فعلهم مخالف لمقتضى الظاهر لزم أن ينفي عنهم العقل بل جعل فقدان العقل من مقومات قوميتهم ذلك لأن ما خالفوه ظاهر لكل عاقل لذا حين أجمعوا على ذلك دل على فقدانهم جميعاً العقل لذا ورد " يعقلون " بالجمع وبحذف المفعول الدال على عموم ما لا يعقلونه .

***

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الآيات الواردة في الصفات التي اختص بها الكافرون :

1- ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آَذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آَيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ .الأنعام :25

2- ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آَذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآَنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴾. الإسراء :46

3- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآَيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آَذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ .الكهف : 57

4- ﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ . الأنعام : 43

5- ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾. الحج : 53

6- ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ الزمر : 22

7- ﴿ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ الحجر :12

8-﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾الشعراء : 200

9- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آَيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآَيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾البقرة : 118

10- ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ آل عمران : 156

11- ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ الأعراف : 179

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

12- ﴿ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴾ النحل : 22

13- ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ الزمر : 45

14- ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ الكهف : 28

15- ﴿ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ الأنبياء :3

16- ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴾المؤمنون : 63

17- ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ الفتح : 26

18- ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ المطففين : 14

19- ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ الأنعام : 110

20- ﴿ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ الأنعام :113

21- ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ البقرة : 171،170

2- ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ المائدة : 103

23- ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ الأنفال : 22

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فمن معاقبة الله للكافرين أن جعل على قلوبهم أكنة وقد ورد هـــذا العقـــاب في السياق الذي بين فيه القرآن اتخاذ مشركي قريش آلهة مع الله على الرغم من قراءة الرسول صلى الله عليه وسلم عليهم القرآن ، وتصريف الله لهم في هذا القرآن من كل مثل ومـــع ذلك يعرضون وقد ورد هذا العقاب في ثلاثة مواضع والرابع كان من قبل الكـــافرين في حكايتهم عن أنفسهم , والمواضع هي :

قال تعالى : ﴿**وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ**﴾ (1).

وقال : ﴿ **وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً** ﴾ (2).

وقال : ﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْـــتَدُوا إِذاً أَبَداً** ﴾ (3).

فالملاحظ أن النظم عمد إلى قلوبهم مؤثراً إياها في العقاب وذلك لأن عليها المعول في أفعالهم أولاً . كما إن توجيه العقاب إليها أدخل في مذمتهم وعقابهم وقد ذكر أنهـــا " في أكنة " و لم يقل بأنها " غلف " . كما في الحكاية عن اليهود وذلك لأن حال اليهـــود أنكى وأشد إعراضاً حيث كان لهم علم سابق ومع ذلك أعرضوا وجادلوا أما مـــشركو قريش فلم يكونوا كذلك فكانت " الأكنة " أنسب لهم حيث هي حاجبة للقلب ولكنها ليست متصلة به كالغلاف .

ونجد أن في نظم الآيات الثلاث وجوه من الاتفاق كما فيها وجوه من الاختلاف تبعاً للسياق الجزئي وما يترتب عليه من اختلاف . فمن وجوه الاتفاق :

أولاً : أن السياق القبلي لهذه الآيات ذكر فيه التذكير بالقرآن خاصة وتركيزه على

1- الأنعام : 25
2- الإسراء : 46
3- الكهف : 57

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وحدانية الله - جل وعلا- ومع ذلك أعرض المشركون مع أن الدلائل كانت واضحة على وحدانية الله جل وعلا فناسب لذلك أن يكون العقاب على " القلب " لأن البلاء والإعراض فيها خاصة فلا ينكر وحدانية الله بعد كل ما تقدم إلا من حجب قلبه عن الإيمان وكان هذا الحجاب ثابت عليه متمكن منه .

ثانياً : استعمل القرآن فعل " جعلنا " لهذا العقاب الموجه لقلوبهم لما في الجعل من معان واسعة من تغيير بإيجاد الأثر فيها وبغير ذلك ، كما فيه معنى الإحداث ، ويدل أيضاً على الاتصال[1]، وهذا يقوي العقاب الواقع على قلوب المشركين فقيل أن جعل بمعنى ألقى فتتعلق على بها ، أو بمعنى صير ، فتتعلق بمحذوف ، ويجوز أن تكون "خلق" فيكون في موضع الحال لأنها في موضع نعت لو تأخرت فلما تقدمت صارت حالاً (2) وأرجح أن تكون بمعنى خلق فهذا أليق بحالهم حيث كان هذا الحال لهم دائماً ، ومنذ بداية الدعوة فهم وإن سمعوا إلا أنهم يكابرون وتأخذهم عزتهم بالإثم ، وهذا الخلق يلائم أن يكون في القلب بحيث يكون ثابتاً لا تغير له ، وكونهم يسمعونه من الرسول سماعاً ومع ذلك لا يؤثر فيهم دلالة أخرى على أن قلوبهم في أكنة متمكنة منهم ،ويدل على خلقه فيهم كما ورد في حكاية القول عنهم في موضع فصلت (وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّة) فهذا دلالة على أن قلوبهم خلقت في أكنة ولهذا الادعاء زادهم الله على فعلهم بأن ثبت هذه الأكنة فقد كانت "في أكنة" فزاد عليها (وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً) واتصل هذا الجعل بقلوبهم إلى الأبد .. والواو قد تكون عاطفة وقد تكون حالية ، والعاطفة تدل على استقلال الحكم وفي هذا مذمة لهم فهم يستمعون هذا حال، وكون قلوبهم في أكنة حال أخرى فكأن سماعهم مستقل عن قلوبهم فلا يؤثر فيها لأن عليها أكنة ، وفي معنى الاشتراك في العطف بالواو وجه حيث فيه مذمة لهم لأنهم وهم يسمعون خير البشرية وخير مُنْزَل قلوبهم الحاضرة معهم لاهية لأن عليها أكنة فالأولى أن يشارك الاستماع فهم وتأثر ولكن حال قلوب الكافرين غير هذا الحال ، ولكونها واواً للحال مدخل أيضاً فهم ينصتون إلى سماعك وهم من الغباوة في حد من قلبه في كنان وأذنه صماء (3)

1- الفروق اللغوية : 142 2- البحر المحيط : 101/4

3 – السابق:101/4

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهذا أرجح عندي ، لأن الغاية ذكر حالهم ، وفي ذكر حالهم تأكيد على دوام ذلك لهم بدوام الحال ، كما أضيف الفعل فيها إلى (نا) العظمة الدال على تمكنه وثباته وهذا ملائم للقلب .

ثالثاً : وفي جميع المواضع قدم على قلوبهم "وفي آذانهم" وفي ذلك تنبيه على تعلق الأكنة بالقلوب والوقر بالآذان من أول الأمر[1]، كما إن تقديمها تقوية للحكم وتأكيد على ثباته حيث سلط عليها تسليطاً لا ينفك عنها وهذا ملائم للقلب .. لذا وردت الأكنة مع القلوب .. وجعل العقاب على القلب لأنه موطن الإشراك وجعله في كنان أدخل في المذمة وأقوى في العقاب لأن كل فعل صادر عنه وحين يكون في حفظ عن سماع الحق يكون فعله خارج ومخالف للصواب وهذه مذمة للمشركين الذين كانوا يظنون أنفسهم خيار الناس ..

وقد ذكر السياق أنها أغطية مستعلية عليها استعلاء يدل سياق العظمة على أنه لا يدع شيئاً من الخير يصل إليها فهي لا تعي شيئاً من آياتنا[2].

كما قدمت " على قلوبهم أكنة " على " في آذانهم وقرا " وذلك لكي لا يظن أن عدم السماع هو السبب في عدم الإدراك بل إن الإدراك معدوم أصلاً لديهم لعيب في قلوبهم ولكونها محجوبة عن إدراكها للحق ؛ لذا كان سماعها له كسماع من يسمع لغة لا يفهمها لعمى في قلبه لا لخلل في سمعه وهذا أدخل في مذمتهم وأليق بحال من تحدث عنهم السياق من عقلاء المشركين الذين يربأون بأنفسهم أن يقابلوا دعوة الرسول- صلى الله عليه وسلم- بمثل ما يقابله به السفهاء من الإعراض التام فهم يسمعون ولكن بقلوب " في أكنة " مغطاة محجوبة عن فهم الحق وهذا حال أنكى من حال من لا يسمع أصلاً . وقد اختلف هل هو مجاز أم حقيقة ، والحقيقة في هذا غير مستحيلة ، أما الوقر في الآذان فاستعارة بينة لأن الكفرة يسمعون الدعاء إلى الشرع سماعاً تاماً ولكن لما كانوا لا يؤثر ذلك فيهم إلا كما يؤثر في الذي به وقر فلا يسمع شبهوا به [3].

1- التحرير والتنوير : 58/6

2- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 483/4

3- محرر الوجيز : 9/ 342

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

رابعاً : اتفقت المواضع في إضافة القلوب إليهم " على قلوبهم " وفي إضافتها لهم بـــضمير الغائب ، استهانة بشأنهم وهذا دال على مذمتهم ، ودال على أن القلوب التي وصفت في أكنة خاصة بهم دون سواهم وفي ذلك ملاءمة لحالهم حيث ترفعوا بأنفسهم عـــن الحـــق وخيل إليهم أن يحفظوها مما يضرها ، فحفظها الله مما ينفعها .

خامساً : كما اتفقت في تنكير " أكنة " وهي جمع لكنان ، والكنان ما يكن فيه الـــشيء أي يحفظ فيه [1]وأرجح أن التنكير هنا للنوعية للإشارة إلى أنه نوع غير متعارف عليـــه لا أن الحكم من أحكام النوعية فإن كان للقلوب أكنة تحفظ فيها أو تمنع من أن يصلها الحق فهي نوع من الأغطية غير معروفة ، كما لا يمنع أن يكون في التنكير هنا معـــنى التعظـــيم وهذا يلائم كون الجعل من الله ، وكونه على القلوب وكون أثره قوياً بحيث لم يفقهـــوا القرآن مع أنهم مستمعون له لا مجرد سامعين وذلك لأنه استعلى على قلوبهم ، كما يستفاد تنوعها بتنوع أحوال أصحابها من جمعها لا من تنكيرها .

سادساً : وردت في كل المواضع بعد ظهور أثر هذه الأكنة على القلوب والـــوقر علـــى السماع بعدم الفقه جملة شرطية تؤيد هذا الأثر " وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بهـــا " وإذا ذكرت ربك " ، " وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً " .

وكل ما سبق من الاتفاق يؤكد دقة القرآن في استعمال لفظة القلب دون غيرها فالسياق القبلي وما ورد فيه من التوحيد ولا يكون هذا التوحيد إلا يقين في القلب ، ولا ينصرف عنه إلا من كان عيبه في قلبه خاصة كما فيه ملاءمة لحال مشركي العرب الذين ما منعهم إلا كبر وقر في قلوبهم من إتباع الهدى وإلا كانوا يعلمون أن محمداً -ﷺ-صـــادق . وفي استعمال فعل الجعل وقوة دلالته في ذاته وفي إضافته إلى (نا) العظمة وكون هذا الجعـــل من الله ملاءمة للقلب حيث يلائم تمكنه وثباته أن يكون الفعل قوياً ثابتاً لا يزول . كما في

1- المفردات في غريب القرآن : 444

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ورود مادة الأكنة ملاءمة للقلب وذلك لأن القلوب ثمينة ولكن يهينها أصحابها وهنا جعلها في أكنة وفي اللفظ سخرية من الكفار حيث قالوا " وقلوبنا في أكنة " ولا يوضع في الكنان إلا ما كان ثميناً ولا يحفظ إلا مما يضره فهم ظنوا بأنهم حفظوا قلوبهم بذلك الإعراض فعاقبهم الله بأن جعل هذا الحفظ مذمة لها لا فخراً . كما إن في تنكير" أكنة " ملاءمة أخرى للقلب ففيه دلالة على خصها بنوع خاص يلائمها وهو نوع غير معروف كما هو عظيم بحيث يتمكن منها ولا يزول عنها ، وفي ذكر عدم فقههم للقرآن نتيجة هذه " الأكنة " دلالة أخرى على تمكنها وثباتها ثباتاً يلائم ثبات القلب وتمكنه .

ولكل موضع سياق قريب يميزه وحال للمقصود بالنظم يلائمه فما سبق كل آية وما ورد في نظمها وما تبعها من السياق البعدي يوافق حال كل من هؤلاء المشركين ودرجة كفره وعناده .

ففي آية الأنعام ﴿ **وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ** ﴾ .

ذكر من المشركين من يتعمد إلى الاستماع للرسول ـ ﷺ ـ حيث قال " وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ " و لم يقل يسمع دلالة على أن الاستماع بإنصات ومقصود ومع ذلك لا يؤثر فيهم ما يستمعون إليه وهذا دلالة على تمكن الكفر منهم وهذا ما يلائم أن يكون على قلوبهم أكنة وهم في هذا النظم أنكى حالاً من الموضع في سورة الإسراء والكهف لما دل عليه النظم من استماعهم وما يدل عليه بعد ذلك السياق البعدي -كما سأوضح بإذن الله -. والفعل ورد بالمضارعة دلالة على تجدد ذلك منهم كلما ورد الوحي ويدل هذا التجدد على تعمدهم هذا الاستماع وحرصهم عليه لا لإتباع الحق ولكن للمجادلة بالباطل . واستعمل معهم القرآن (يستمع) بالإفراد على الرغم من كونهم جمعاً وفي ذلك دلالة على اتفاقهم ,فالغاية من الاستماع واحدة والآذان التي استمعوا بها آذان معرضة " وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ " كراهة أن يفقهوه في موضع المفعول لأجله . وفيها دلالة على دوام عدم الفقه عندهم وهذا ملائم للقلب أيضاً . ثم استأنف القرآن " وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا " وفي الاستئناف إسناد ثان وكلما زاد الإسناد زاد التوكيد وهذا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أيضاً ملائم لثبات العقاب على القلوب . و" القلب " ملائم لهذه القوة في العناد حيث سمعوا للرسول ومع ذلك لم يفقهوا ، وكان الاستئناف بجملة شرطية تؤكد تأبيد كفرهم وعنادهم " وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا " فلم يقل يكفروا بها بل نفى ضده وهذا أدل على أن كفرهم وعدم إيمانهم مطلق لا تغير له ، وكانت الجملة الشرطية " بإن " التي تستعمل في المعاني المحتملة المشكوك في كونها على الرغم من أن ما وقع بعدها متيقن ، و في ذلك تتريل للمشركين مترلة الجاهل لمخالفتهم مقتضى العلم وتوبيخ لهم لأنهم لن يؤمنوا؛ فالسبب في إشراكهم كامن في قلوبهم ،فقد ذكر عدم انتفاعهم بعقولهم حتى كأن على محالها أكنة ، ولا بسماعهم حتى كأن في آذانهم وقراً، ثم انتقل إلى الحاسة التي هي أبلغ من حاسة السماع فنفى ما يترتب على إدراكها من الإيمان ، والرؤية هنا بصرية[1]. وهذا أرجح من الرؤية العلمية لأنهم كانوا يطلبون الآيات البصرية ومع ذلك لا يؤمنون فأكد لهم تعالى أنهم لو رأوا كل آية ما آمنوا ، وقيل إن (كل) مستعملة في الكثرة مجازاً [2]. وأرى أن كل حقيقة لأن الكفار فعلاً لو رأوا كل الآيات الدالة على وحدانية الله ما آمنوا وفي ذلك تأكيد على شدة كفرهم وعنادهم . ومقصود هذه الجملة الشرطية الإخبار عن المبالغة التامة ، والعناد المفرط في عدم إيمانهم حتى أن الشيء المرئي الدال على صدق الرسول حقيقة لا يرتبون عليه مقتضاه . بل يرتبون عليه ضد مقتضاه [3]. وحتى ابتدائية وليست جارة ، وليس المعنى أن استماعهم يمتد إلى وقت مجيئهم ، ولا أن جعل الأكنة على قلوبهم والوقر في آذانهم يمتد إلى وقت مجيئهم ، بل المعنى أن يتسبب على استماعهم بدون فهم وجعل الوقر على آذانهم والأكنة على قلوبهم أنهم إذا جاءوك جادلوك . ومما يلائم " القلب " في هذا النظم أن الجملة الشرطية الثانية جاءت " بإذا " التي تؤكد تحقق ذلك منهم فهم إذا جاءوا للرسول جادلوه بالباطل؛ لذا ورد الفعل بالمضارعة " يجادلونك " وفي هذا دلالة على شدة عنادهم حيث يتجدد منهم

---

1 - البحر المحيط : 101/4

2 - التحرير والتنوير : 58/6

3 - البحر المحيط : 102/4

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ذلك ليس ذاك فحسب بل في المضارعة دلالة على اقتناعهم بما يفعلون ، والجمع فيه دلالة على اتفاقهم واجتماعهم على الباطل كما أنهم تجرأوا على مجادلة الرسول -ﷺ- مع معرفتهم بأنه صادق ، وكل ذلك دال على تمكن الكفر في قلوبهم وحجب الأكنة لقلوبهم عن فهم الحق ورؤيته ، " يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ " عدل عن الإضمار إلى الإظهار لزيادة التسجيل عليهم بالكفر ، وأنهم ما جاءوا طالبين الحق كما يدعون ولكنهم قد دخلوا بالكفر وخرجوا به ، فهم عدلوا من الجدل إلى المباهته والمكابرة . لذا عرف باسم الموصول لبيان صفة الكفر فيهم والتي دعتهم إلى المجادلة . والتعبير عنهم بصفة الكفر وبيان مجادلتهم ملائم للقلب حيث إن الكفر لا يكون إلا في القلوب كما إن المجادلة لا تكون إلا بمنطلق قوة حتى ولو كانت في باطل وهذه القوة تدل على تمكن في الكفر وهذا لا يكون إلا في القلب ؛ ولذا تجرأوا على قول " إن هذا " بسخرية حيث أشاروا للقرآن بقولهم " هذا" وهذه سخرية بكلام اعترفوا هم بأنه معجز ومع ذلك يشيرون له بأسلوب سخرية ويتهمونه بأنه أساطير الأولين و لم يسبق مثل هذا القرآن فهذا دلالة أيضاً على عنادهم وهذا دليل على تمكن الكفر في قلوبهم . فنظم الآية عموماً وقوة دلالته على شدة عنادهم وكفرهم ملائم للقلب .

كما إن في السياق البعدي ما يؤكد قرار اللفظة مكانها حيث بين أن أولئك الكفار كانوا يعاملون رسول الله -ﷺ- بنوعين من القبيح الأول : أنهم كانوا ينهون الناس عن قبول دينه و الإقرار بنبوته ، والثاني : كانوا ينأون عنه (1). وهذا لا يلائم إلا كفراً سكن وتمكن في القلب ، والتأكيد أنهم يهلكون أنفسهم دون أن يشعروا ونفي الشعور عنهم مذمة بالغة إذا البهائم تشعر وتحس ، فإذا قلت " فلان لا يشعر " فقد نفيت عنه العلم النفي العام الذي يقتضي أنه لا يعلم ولا يدرك المحسوسات ، وهذه عبارة عما جعل الله في نفوس هؤلاء القوم من الغلظ والبعد عن قبول الخير (2). وفي ذلك تأكيد على تمكن الأكنة وسيطرتها عليهم سيطرة لا تكون ملائمة إلا لثبات القلب وتمكنه ،

1- التفسير الكبير : 507/4

2 - المحرر الوجيز : 167/5

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كما إن في تأكيد النظم في السياق البعدي على أنهم لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه والتأكيد بأكثر من مؤكد بـ " إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ " ووصفهم بالكذب باسم الفاعل دلالة على ثبات هذا الكذب فيهم ، وتأكيد خسرانهم " قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّـهِ " ووصفهم بالكذب ثم ترقي في وصفهم بالظلم "وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّـهِ يَجْحَدُونَ" فليس تكذيبهم لعدم معرفة بل جحوداً ثم بعد ذلك ترقى في الوصف فجعلهم في حكم الأموات " إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ " وذلك إنما لتمكن كفرهم وعتوهم ولكل ذلك دق استعمال القرآن في أن جعل الأساس في عيبهم قلوبهم .

وفي موضع الإسراء أيضاً قرأ عليهم القرآن ومع ذلك كذبوا ولكن حالهم ليس كحال من في موضع الأنعام فالاستماع قصد للسماع للتكذيب ولكن حين يقرأ الرسول عليهم القرآن قد يسمعونه وهم لا يريدون ذلك فهم أقل من سابقهم في كفرهم وإن كانوا شاركوهم في عدم فقه القرآن وفي حجب قلوبهم عنه لأنهم كرهوا سماع الحق قال تعالى **﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً " ، " وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً ﴾** . فوردت هنا القلوب " جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً " ويؤيد خص القلب هنا بالعقاب ما ذكر في السياق القبلي من حال المشركين: شدة كفرهم وعنادهم الدالة على تمكن الكفر في قلوبهم حيث جعلوا مع الله إلها واحدا وتخيروا الذكور لأنفسهم ونسبوا لله ما يكرهون من الإناث حيث جعلوا الملائكة إناثاً . ووصف تعالى قولهم بأنه " قولاً عظيماً " فلا يجرؤ عليه إلا من تعمق الكفر وتغلغل في قلبه.كما يدل نفورهم من القرآن عوضاً عن الاستفادة منه على هذا الكفر والعتو .

ثم في السياق الذي يؤكد نبوة محمد -ﷺ- ويقررها يقركذلك أن القرآن من الله -جل وعلا- وورد وصفهم بالذين لا يؤمنون بالآخرة واستعمل الموصول دون الضمير ذماً لهم بما في حيز الصلة ويتم به ما سبق الإشارة إلى كفرهم بالمبدأ أو المعاد [1]

---

1 - روح المعاني : 85/8

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كما إن فيه إيماء إلى علة جعل ذلك الحجاب بينـــــه وبينـــهم .[1] " وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُـــرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً " ذكر حالهم مع القرآن بجملة شرطية مصدرة بإذا التي للتحقيق فالحجاب بينهم وبين الرسول -ﷺ- لازم ودائم كلمـــا قرأ القرآن فهم محجوبون عنه وربط هذا الحجاب بقراءة الرسول -ﷺ- القرآن وهذا يدل على ما وقر في نفوسهم من الكفر وقراً ثابتاً متمكناً لا يكون إلا في القلوب فالمؤمنون تلين قلوبهم وجلودهم إلى ذكر الله شوقاً إليه حتى إذا لم يقرأ فهم يشتاقون إليه وما ذلك إلا لما وقر في قلوبهم من الإيمان وبالمقابل حال هؤلاء يستلزم الحجاب بينهم وبين الرسول وقال (وجعلنا) والجعل من الله و" نا " الدالة على العظمة فهو إذن حجاب لا يمكن أن يهتـــك ستره فيكون مانعاً لهم من الحق وأي مانع " حجاباً " بالتنكير دلالة على عظمته لعظمة من وضعه ووصفه بأنه " مستوراً " ذا ستر وقيل هو حجاب لا يرى فهو مستور ، ويجوز أنه حجاب من دونه حجاب أو حجب فهو مستور بغيره .. وهذا عندي أرجح . أو حجاب يستر أن يبصر ، فكيف يبصر المحتجب به ، وهذه حكاية لما كانوا يقولونه (وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ) . ووصف الحجـــاب بالمستور مبالغة في حقيقة جنسه ، أي حجاباً بالغاً الغاية في حجب ما يحجبه هو حتى كأنه مستور بساتر آخر ، أو أريد أنه حجاب من غير جنس الحجب المعروفة فهو حجـــاب لا تراه الأعين ، ولكنها ترى آثار أمثاله [2]. وأرى أن كلا المعنيين ملائم للـــسياق ولحـــال هؤلاء المشركين الذين كانت الدلائل أمامهم ظاهرة وكفروا بالآخرة وأعرضوا عن الحق ولم يفقهوه ؛ ولذا كان الصارف في نفوسهم بحيث يهمون ولايفعلون ، وذلك من خور الإرادة والعزيمة بحيث يخطر الخاطر في نفوسهم ثم لا يصممون ، وتخطر معاني القـــرآن في أسماعهم ثم لا يتفهمون ، وذلك خلق يسري إلى النفوس تدريجاً تغرسه في النفوس بادئ

---

1 - الكشاف عن غوامض التنزيل وعيون الأقاويل 3:/ 523 والآية فصلت :5

2 - التحرير والتنوير : 94/14

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأمر وشهوة الأعراض وكراهية المسموع منه ثم لا يلبث أن يصير ملكة في النفس لا تقدر على خلعه ولا تغييره[1]. وتغليظ شأن الحجاب بأنه مستور دلالة أخرى على ملاءمة القلب فغلظ الحجاب لغلظ الكفر وتمكنه في قلوبهم .

وقيل : إن معنى الحجاب الطبع الذي على قلوبهم والطبع المنع الذي منعهم أن يدركوا لطائف القرآن وكافة فوائده ، وأرى أنه ليس الطبع لأن الطبع صرح به في حال من هم أنكى وأشد كفراً من هؤلاء المشركين وهم اليهود والمنافقين الذين شابهت أخلاقهم أخلاق اليهود .. وأما الحجاب هنا فقد يكون كما ذكرت الروايات حجب أنظارهم عن رؤية الرسول -ﷺ- ، كما حصل مع امرأة أبي لهب ، وقد يكون كما ذكر الزمخشري مؤاخذة على قولهم بأن بينهم وبين الرسول -ﷺ-حجاباً فجعل الله بينهم وبينه حجاب حسي ومعنوي ، أما الحسي فكما ذكر سابقاً والمعنوي الأحجبة التي وضعت حول قلوبهم وآذانهم وأبصارهم عن إدراك الحق.

وقيل في :(وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً) عبر عن شدة كفرهم وعظمه بأنهم بمثابة من غطي قلبه وصمت آذانه[2]صمماً وثقلاً مانعاً عن سماعه اللائق به ، وهذه تمثيلات معربة عن كمال جهلهم بشؤون النبي -عليه الصلاة والسلام - وفرط نبو قلوبهم عن فهم القرآن الكريم ومج أسماعهم له ،جيء بها بياناً لعدم فقههم لتسبيح لسان المقال.إثر بيان عدم فقههم لتسبيح لسان الحال ، قيل بأن هذا التسبيح من الظهور بحيث لا يتصور عدم فهمه إلا لمانع قوي يعتري المشاعر فيبطلها ، وتنبيء على أن حالهم هذا أقبح من حالهم السابق لا حكاية لما قالوا : "قلوبنا ..." كيف لا وقصدهم بذلك إنما هو الإخبار بما اعتقدوه في حق القرآن والنبي -ﷺ- جهلاً وكفراً من اتصافهم بأوصاف مانعة عن التصديق والإيمان ، لا الإخبار بأن هناك أمراً واردا ما أدركوه

---

1 - التحرير والتنوير : 94/6

2 - المحرر الوجيز: 107/9

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قد حال بينهم وبين إدراكه حائل من قبلهم[1]وهذا لدي أرجح لملاءمته للـــسياق وحال المتحدث عنهم.

ومما يدل على ملاءمة القلب للنظم أن الأكنة استعلت وتمكنت من قلوبهم لذا بدأ بـــ (على) وهذا دال على ثبات الغطاء على قلوبهم بحيث لم ولن يفقهوا الحق ، لأنهم إذا سمعوا من القرآن ما ليس فيه ذكر الله تعالى بقوا مبهوتين متحيرين لا يفهمون منه شـــيئاً ، وإذا سمعوا آية فيها ذكر الله تعالى وذم الشرك بالله (ولوا نفورا) [2] وهذا أدل دليل علـــى ملاءمة القلب وجعل الأكنة عليها خاصة .حيث إن ما يقابلهم من حال المؤمنين (وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ) (أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) ، وهؤلاء لا يكرهون الذكر بل أنهـــم (وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً) ، والتولية: بمعنى الإعراض وترك القرب وقد يكون بالجـــسم ، وقد يكون بترك الإصغاء والائتمار ، وحال الكفار تولية بأجسادهم وأسماعهم وهذا أدل على ما ذكر في القلوب من الكفر (على أدبارهم) دلالة على سرعة التولي والانزعـــاج في القرار (نفورا) والنفور الانزعاج من الشيء .. فوصفهم بأوصاف تدل على شدة نفـــرتهم فهي ليست كأي نفرة بل تولٍ سريع على الأدبار بانزعاج مما سمع وهذه الحـــال مـــضادة تماماً للاطمئنان والسكون والركون لذكر الله، فكما كان الركون والاطمئنـــان لثبـــات الإيمان في القلب .. كذلك النفور من ذكر الله وحده لثبات وتمكن الإشراك والكفـــر في القلب ، فكلا الحالين ملائم للقلب دون سواه ، وفي الاشتراط في هذه الحالة "بإذا" دليـــل على ذلك فيلزم هذه النفرة الشديدة من الكفار ذكر الله في القرآن وحده ، وهـــذا دليـــل على عظمة الغطاء الذي غطى قلوبهم ، كما إن الوضع ليس وضع رهبة حيث قال "ربك" المربي بالنعم فالأولى زيادة في الاطمئنان لا النفور فإن كان العكس فهو دليل انعكاس تـــام لا يكون إلا في القلب . فإذن دقة النظم في تصوير حال شدة إعراضهم ملائم للقلب مهد لهذا السياق القبلي.

---

1 – تفسير أبي السعود: 135/4

2 - التفسير الكبير : 351/7

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأكد عليه السياق البعدي حيث ذكر فيه علم الله- وهو علم لا شك فيه- بأنهم لا يستمعون إلا للباطل وهو كثير ؛ لذا قال "بما" باسم الموصول (ما) الدال على كثرة ما يستمعون له من الباطل وهذا يدل على ملازمته لهم ، وقوله (وَإِذْ هُمْ نَجْوَى) أخبر عنهم بالمصدر للمبالغة عن كثرة تناجيهم وهذه دلالة أخرى على ملاءمة القلب للسياق البعدي كما لاءم النظم والسياق القبلي فالكثرة تكون نتاجاً لثبات الشيء وتمكنه ، ثم وصفهم بـــ (الظالمون) باسم الفاعل وبالظلم خاصة دلالة على شدة كفرهم . وفي اتهامهم للرســـول بأنه (مسحوراً) جرأة لا يفعلها إلا من تمكن كفره في قلبه . ثم فيما ورد في النظم (انْظُـــرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ) فالتعبير بفعل النظر إشارة إلى أنه بلغ من الوضوح أن يكون منظـــوراً وهذا دليل على وضوح فعلهم للعيان وهذا الوضوح إنما هو دلالة لوضوح شركهم لتمكنه من قلوبهم ، وفي قوله (فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَـبِيلاً) ويحتمـــل معنـــيين : أحـــدهما لا يستطيعون سبيلا إلى الهدى والنظر المؤدي والآخر لا يستطيعون سبيلاً إلى فساد أمرك [(1)].

وكلا المعنيين دليل على عمى القلب وفي انغاضهم رؤوسهم للرسول حين يؤكـــد لهـــم حقيقة البعث دليل استهزائهم ، وهذا الاستهزاء لا يكون إلا بقلب تمكن الكفر فيه. والله أعلم .

وفي موضع الكهف قال تعالى **﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَـــا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِـــمْ وَقْـــراً وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً﴾**[(2)].

المراد المشركون من العرب الذين ذكّروا بالقرآن فأعرضوا عنه .

والسياق القبلي أكد أنهم لايؤمنون إلا عند نزول عذاب الاستئصال فيهلكوا ، أو أن يتواصل أنواع العذاب والبلاء عليهم ماداموا في الحياة الدنيا .. والعاقل لا يرضى بذلك وهذا ملائم أن يكون عقابهم موجه إلى قلوبهم حيث إن هذا الإيغال في الإعراض إنما هو لتمكن الكفر في نفوسهم وهذا التمكن لا يكون إلا في القلب. كما يدلنا على ملاءمـــة القلب للنظم ذكر النظم اجتماع الرسل على التبشير والإنذار ومع ذلك يجـــادل الذين

---

1 - المحرر الوجيز : 107/9

2- الكهف : 57

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كفروا بالباطل فلم يرسل الله رسولاً واحداً بل أرسل رسلاً وكانوا مبشرين فجمعوا بين الجانبين ترغيب وترهيب و لم يؤثر ذلك في الكافرين. بل إنهم جادلوا وزادوا على ذلك أن تكلفوا اتخاذ الآيات ، وكل ما أنذروا به هزواً . وفي نسبة الآيات بضمير عائد على الله -جل وعلا -دليل على عظمتها وإعجازها وكونها أهلاً للتعظيم والتصديق . فلا يقوم على الاستهزاء بها إلا من تمكن الكفر في نفسه ليس ذاك فحسب بل حجب عليه بحجاب لا ينفك ؛ لذا لم يدرك عظمتها فكان فعله معاكس لهذه العظمة في قوله " وما أنذروا هزواً " (وما) التي في تنكيرها دليل على عظمة ما أنذروا به بحيث لا ينكره ولا يسخر منه إلا من حجب عنه رؤيته وهكذا كان حال الكافرين مع الحق .

ونلاحظ هنا اتفاق النظم مع نظم الأنعام بوصف هؤلاء "بالذين كفروا "، ووصفهم بالمجادلة " يجادلون " ولكن في الأنعام خصص مجادلتهم بسخريتهم بالقرآن وقولهم " إن هذا إلا أساطير الأولين " على الرغم من استماعهم له . أما هنا فعمم "بالباطل ليدحضوا به الحق " ، ثم صرح باستهزائهم بآيات الله وبما أنذروا به .

ثم قال تعالى في نظم الآية " ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه " وفي سورة الأنعام " ومنهم من يستمع إليك " فحال من ذكر في سورة الأنعام أنكى من حال من ذكر في موضع الإسراء ولكن هؤلاء الذين ذكروا في هذا الموضع أشد كفراً وظلماً يدلنا على ذلك قوله " ومن أظلم " فجعل كل ظلم دون ظلم من ذكر حاله في هذه الآية حيث " ذكر بآيات ربه " وأورد التذكير بالفعل المبني لما لم يسمَ فاعله تقوية للفعل واهتماماً به، وفي تضعيف الفعل دلالة أخرى على تكرار الفعل ومع ذلك يقابله إعراض ، والتذكير " بآيات ربه " قال (ربه) و لم يقل " الله " وخص بالذكر لأن هؤلاء المشركين ذكروا بما كانوا يؤمنون به فقد كانوا يؤمنون بالربوبية ولكن الكبر منعهم من تصديق محمد -ﷺ- . وفي ذلك دلالة على تغطية قلوبهم عن الحق هذا وجه ، كما إن التذكير بالنعم أدخل في الاعتراف بها والتصديق بواهبها فلا يعرض إلا من حجب قلبه عن الحق .. كما أنها " آيات " لا آية واحدة وكلما كثرت الآيات كان الأولى تصديقها وإزالتها للشك والكفر فإن لم تؤثر فما هو إلا شيء وقر في القلب ، ومع هذا الإعراض " نسي ما قدمت يداه " وهذا من أعظم الظلم حيث يعرض ويزداد جهلاً بأن ينسى ذنوبه . ولذا حين حكى عن الكفار ذكر جدالهم بالباطل ووصفهم بالصفات الموجبة للخزي والخذلان

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾وعطف بالفاء دلالة على المبادرة بالإعراض مبادرة تدل على عتوهم ونفـــورهم عتـــــــواً كامنــاً في القلب[1]. ومع هذا الإعراض يتناسى ما قدمت يداه من الأعمال المنكرة .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِـــمْ وَقْــراً ﴾ مؤكداً بـــ(إنا) وزاد عظمة الفعل وقوته كونه قد أضيف إلى (نا) الدالة على العظمة . (وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً) أيضاً جملة شرطية كما تقدم تؤكد تأبيد كفرهم وعدم إيمانهم ، والنفي هنا أقوى (فلن) حيث أتى النفي بلن ، وأتى مرتبطاً بالفاء بالشرط ، وزاد في التأكيد بـــ (إذن أبداً) .ومما يقوي نظم الآية عموماً أنها بنيت علـــى الاستفهام التقريري والاستفهام هنا أقوى في تأكيد كفرهم وظلمهم من الإخبار .

ومما وصف به الله تعالى الكفار القـــــــــسوة وجعلها صفة لقلوبهم في ثلاثـــة مواضع هي :

في قوله تعالى ﴿فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[2] .

وقوله ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُـــوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [3].

وقوله ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُـــوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ [4].

---

1 - التفسير الكبير : 476/7

2 - الأنعام:43

3 - الحج:53 سبق بيانها ينظر البحث : 190

4 - الزمر:22

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد وردت لفظة (القلب) في هذه المواضع وذلك لما وصل إليه هؤلاء الكفار من درجة في الكفر لم يعد يلينها ولا يؤثر فيها شيء من ذكر أو ابتلاء فهؤلاء على اختلاف أحوالهم إلا أنها تمكنت القوة منهم وكان حال قلوبهم إعراض دائم عن الحق وشدة في الكفر حتى تحولت قلوبهم من مضغ حية إلى جماد توصف بالقسوة وستلاحظ – بإذن الله – قرار لفظة (القلب) في كل موضع من هذه المواضع في نظمها وسياقها وملاءمتها لوصفها الذي وصفت به وحال من وصف بهذا الوصف .

فالموضع الأول تحدث عن الأمم السابقة في إعراضها مقارناً لهم بمشركي أمة محمد صلى الله عليه وسلم فنفى عنهم التضرع حتى في حال الشدة في حين أنه أثبته لمشركي هذه الأمة وفي ذلك دلالة على عتو وشدة كفرهم وبلوغ عدم خوفهم من الله مبلغاً عظيماً حتى أن قلوبهم لم تعد قلوباً حية بل أصبحت من الجوامد لذا لاءم أن يوصفوا بقسوة القلوب .

كما عبر السياق القبلي بأن ما جاءهم من البأس ليس هيناً دل على ذلك قوله تعالى " فأخذناهم " والأخذ فيه تنبيه على معنى المجازاة والمقابلة لما أخذوه من النعم فلم يقابلوه بالشكر [1]، وبذلك يكون الأخذ شديداً واستعمال القرآن في غالبه للأخذ في عتاب الأمم التي تجبرت وزاد طغيانها وهذا مرشح للفظة" القلب " لأن فيه دلالة على تمكن وشدة الكفر فيها من وجه ، ومن وجه آخر: أن القرآن نص على أن المؤاخذة لا تكون إلا لما كان من عزم القلب وفعله . كما في عطف الأخذ بالفاء على (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ) دلالة على سرعة الأخذ بعد الإرسال وفي ذلك دلالة على شدة كفرهم وعنادهم لرسلهم فعجل الله بأخذهم .كما قال " يتضرعون " بفك الإدغام وإثبات التاء للدلالة على لزوم فترة أطول في التضرع ، كما في معنى التضرع دليل على التذلل الشديد وهذا دليل على أن ما أصابهم من البلاء استلزم تذللاً شديداً ليس فقط خضوع أو خشوع

---

1 - المفردات في غريب القرآن : 22

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بل هو تضرع كما إن هذا التضرع لابد أن يستمر وقتاً أطولاً لشدة هذا البلاء فإن كان حالهم مخالف لذلك فما ذاك إلا نتاج قلوب تمكن فيها الكفر واستأصل قلوبا بلغت من الكفر مبلغاً صارت فيه حجارة لا قلوباً .

ويؤكد السياق البعدي أيضاً قرار لفظة القلب في سياقها حيث عبر عن إعراضهم بأقوى العبارات الدالة على شدة الإعراض فعبر عن تركهم لأمر الله وطاعته بقوله" فلما نسوا ما ذكروا به " . فعبر عن الترك بالنسيان إذ بلغ وجوه الترك الذي يكون معه نسيان ، وزوال المتروك عن الذهن . وهذا إن دل على شيء دل على غياب العبرة عنهم غياباً تاماً في حين أنها شيء تذل وتخضع له القلوب فكيف الحال إذا كان حال هؤلاء ليس عدم تضرع فقط بل بلغ بهم الكفر أن نسوه وغاب عن أذهانهم ؟ وفي قوله " ذكروا " بالتشديد وبالبناء لما لم يسم فاعله دليل آخر أن التذكير كان شديداً مركزاً ولكن لقسوة قلوبهم نسوه . وفيما ذكرت الآيات من طرق تذكير هؤلاء حيث ذكرهم بالشدة فلم يتذكروا، وذكرهم بالنعمة فلم يتذكروا ، - فلا الشدة ذكرتهم ولا الرخاء ردهم - دليل على تمكن القسوة من قلوبهم لتمكن الكفر فيها وتأصله . وعقابهم دليل آخر على ثباتهم على هذا الحال وتمكنه من قلوبهم حيث (فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا) فقطع شأنهم لأنهم لن يزدادوا إلا كفراً .

وفي الخبر المستعمل هنا في إنذار السامعين من المشركين على طريقة التعريض تأكيد على قرار لفظة " القلب " في سياقها ونظمها حيث فيه خلع لقلوب المشركين التي قد تصل إلى مثل هذه القلوب يدل على ذلك تهديد السياق البعدي لهم (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ) وختم على قلوبهم فإن ختم الله عليها قست و لم يعد يؤثر فيها شيء من الذكر والعبر .

وفي نظم الآية بدأ بـ " لولا " الدالة هنا على التوبيخ والتنديم حيث دخلت على الماضي [1]، وفيها دلالة على أنه لم يكن لهم عذر في ترك التضرع إلا عنادهم وقسوة قلوبهم [2].

---

1 - معنى اللبيب : 289/1

2 - الكشاف : 346/2

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا) فإذ تدل أنه حين جاءهم اليأس لم يتضرعوا وهذا مرشح لوصفهم بـ " ولكن قست قلوبهم " أي صلبت فجاءت (لكن) بين ضدين اللين والقسوة حيث إن لكن للاستدراك عما قبله أي فلم يتضرعوا إليه تعالى برقة القلب والخضوع مع تحقق ما يدعوهم إليه ولكن ظهر فيهم نقيضه حيث قست قلوبهم فاستمرت على ما هي عليه من القساوة (1) وهذه دلالة على أنهم اعتراهم ما في خلقتهم من المكابرة وعدم الرجوع عن الباطل كأن قلوبهم لا تتأثر فشبهت بالشيء القاسي (2) فبين تعالى أن سبب عدم تضرعهم نابع من قلوبهم وقسوتها وفي هذه دلالة على عدم إمكانية صلاحهم أو تضرعهم ودلالة على أن حالهم في الكفر حال شديدة .

فالقلب ملائم لنظم الآية وسياقها من وجوه :

أولها : أن القلب ملائم لبيان شدة كفرهم وعتوهم فعبر عنه بقسوة القلب وفي ذلك دلالة على عدم تراجعهم عن هذا الكفر ..

ثانيها : التعريض بالمشركين حيث إن الله مطلع على القلوب فذكر حال قلوب هؤلاء معرضاً بقلوب الكفار ؛ ولذا توعدهم بعد ذلك بالختم على قلوبهم .

ثالثها : بيان قدرة الله -جل وعلا- ، حيث هدّ هذه القلوب وانتقم منها على الرغم من بلوغها مبلغاً شديداً في الكفر والعناد والذي ظنوا –باعتقادهم- أنه ينجيهم ويعلي شأنهم .

رابعها : التأكيد على استحقاقهم واستحقاق من فعل فعلهم للعذاب حيث في ذكر القلوب بيان أنهم عمدوا إلى ذلك عمداً وأصروا عليه إصراراً جعل ذلك نابعاً من قلوبهم متأصلاً فيها وخاصة أنه سبق لهم من البلاء ما يردهم عن باطلهم ومع ذلك لم يرتدعوا .

---

1 - تفسير أبي السعود : 383/2

2 - التحرير والتنوير : 99/6

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثم أكد على قرار القلب في مكانها قوله (وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُـــونَ) ويحتمل أن تكون الجملة داخلة تحت الاستدراك ويحتمل أن تكون اســـتئناف إخبـــار ، والظاهر الأول ، فيكون الحاث على ترك التضرع قسوة قلوبهم إعجابهم بأعمالهم التي كان الشيطان سبباً في تحسينها لهم (1) .

كما إن تزيين الأعمال يكون في القلوب ودل على ذلك قولـــه تعـــالى في شـــأن المؤمنون (وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْأِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ) (2) وقد وجد الشيطان مـــن طباعهم عوناً على نفث مراده فيهم فحسن لهم تلك القساوة وأغراهم بالاســـتمرار وفي قوله (ما كانوا يعملون) دلالة على استطالة ذلك منهم بدلالة (ما) .وكونـــه دائـــم مستمر متجدد بدلالة (كانوا يعملون) الفعل الناقص كانوا والمضارعة في يعملون ..وكل ذلك دال على ثبوت هذا الحال لهم وتمكنه من قلوبهم ..

وفي قوله تعالى **﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّـــهِ فَوَيْـــلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾** (3) ورد القلب لبيان مـــدى مـــا وصل إليه هؤلاء الكفار من عتو في كفرهم حيث وصف هذه القلوب بـــ " القاسية " ، وقد سبق أن أشرت إلى أن سياق سورة الزمر عموماً يقتضي إيثار القلب ، وحين نلاحظ هنا السياق القبلي والذي فيه مقارنة بين أهل التقى وأولو الألباب وبين هـــؤلاء الـــذين أعرضوا نرى قرار لفظة القلب في سياقها كما قرت في نظمها - كما سنرى - فمن سبق الحديث عنهم من المؤمنين كانوا ممن كمل لهم الإيمان فأخلصوا واجتنبوا الطاغوت وأنابوا ووصفوا بأنهم عباد للرحمن ، واستمعوا القول فاتبعوا أحسنه ، وهداهم الله هداية تسديد وعون زيادة على هدايتهم للحق ، وكانوا هم أولو التقوى الخالصة من كل شائبة ، وهم الذين كمل لهم الدين حتى وصلوا إلى التقوى فكل هذه الأوصاف لا تكون إلا لمن تعمق الإيمان في نفسه فالملائم معهم القلوب .كذلك حين يقابلهم بضدهم يلائم أن يقابلهم بمن اشتد كفرهم ولا يتضح هذا الاشتداد والعتو إلا إذا وقر في القلب فلذا كان الأنسب ذكر صفة القلب خاصة .

---

1 - البحر المحيط : 13/4

2 - الحجرات : 3

3 - الزمر:22

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كما إن وصف القلوب الكافرة هنا بالقاسية خاصة مؤيد بالسياق فمن رأى مـــا أنزل الله من الآيات العظام الدالة على قدرته و لم يخضع ويذل لهذه القدرة فلا يناســبه إلا الوصف بالقسوة ، وفي إرداف النظم بعد أن بين حال قلوب الكفار من الذكر .بما يدل على أن القرآن سبب لحصول النور والشفاء والهداية وزيادة الاطمئنان دليل على قـــسوة قلوبهم ، والمقصود منه بيان أن القرآن لما كان موصوفاً بهذه الصفات ، ثم إنه في حق ذلك الإنسان صار سببا لمزيد من القسوة دل ذلك على أن جوهر تلك النفس قد بلغ في الرداءة إلى أقصى الغايات (1) . فذلك ملائم لأن يكون هذا الوصف هو القسوة وملائم أن تكون في القلب كما لاءمت الشدة الظاهرة في السياق البعدي في عقابهم " سوء العذاب " "وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون" القلب أيضاً .

وفي نظم الآية ما يدل على قرار لفظة القلب في نظمها كما قرت في سياقها حيث بدأت الآية بالاستفهام (أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَـــدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ) وقيـــل هذا الاستفهام تقريري (2) وقيل: إنه إنكاري وأرى أن الثاني أولى وفيه معنى نفي المساواة وفي نفي المساواة دليل على قرار القلب حيث نفى مساواة من منَ الله عليه بالإيمان حـــتى تمكن في قلبه وفاض حتى ملأ صدره لا بد أن يتجه النفي المقابل لمن تمكن الكفر منه وملأ قلبه؛ فلذا أورد في مقابلهم القاسية قلوبهم . كما إن في ذكر الهمزة خاصة دلالة على قرب من شرح الله صدره للإيمان قرباً يقتضي بعد من جعلهم مضادين لهم في الصفات ، ومـــا قرب هؤلاء إلا للين في قلوبهم وما بعد مخالفيهم إلا لقسوة في قلوبهم . وفي معنى " شرح " دلالة أخرى على قرار القلب في نظمها ، حيث إن أصله من شرح اللحم ، ومنه من شرح الصدر أي بسطه بنور إلهي وسكينة من جهة الله وروح منـــه(3)، والـــشرح الكـــشف ، والبيان والفتح (4) .

---

1 - التحرير والتنوير : 24/ 65

2 - معجم حروف المعاني في القرآن الكريم : 84/1

3 - المفردات في غريب القرآن : 216

4 - لسان العرب :4/ 2228

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكل ذلك يقتضي عمق في الإيمان فمن يقابلهم يلزم أن يكون حاله شديد في الكفر وهذا ملائم للقلب . وفي المبالغة في وصف أولئك بالقبول وهؤلاء بالامتناع ـ ملاءمة للقلب ـ حيث ذكر شرح الصدر لأن توسعته وجعله محلاً للإسلام دون القلب الذي فيه يدل على شدته وإفراط كثرته التي فاضت حتى ملأت الصدر فضلاً عن القلب ، وإسناده إلى الله تعالى دليل على أنه أتم الوجوه لأنه فعل قادر حكيم ، وقابله بالقساوة مع أن مقتضى المقابلة أن يعبر بالضيق لأن القساوة كما في الصخرة الصماء . تقتضي عدم قبول شيء بخلاف الضيق فإنه يشعر بقبول شيء قليل ، وعدل عن التعبير بما يفيد مجعولية القساوة له تعالى وخلقه إياها للإشارة إلى غاية لزومها لهم حتى كأنها لو لم تجعل لتحققت فيهم بمقتضى ذواتهم (1) . وأرى أن هذا اللزوم هو الذي اقتضى إسنادها إلى القلوب دون الصدر وأما ما قيل أن إسنادها للقلوب دون الصدر فللتنصيص على فساد هذا العضو الذي إذا فسد فسد الجسد كله (2) فهذا التنصيص أيضاً مستفاد من لزوم القساوة لهم والتي اقتضت أن تكون في القلب خاصة . لذا عبر عنها باسم الفاعل " قاسية " معرفاً لها بأل الدالة هنا على كمال الوصف لهم في هذه القسوة وكل ذلك مؤكد لقرار القلب في نظمها . كما في إجمال سوء حالهم بما تدل عليه كلمة " ويل " من بلوغهم أقصى غايات الشقاوة والتعاسة دليل آخر، فأصله في اللغة شدة العذاب (3) وهو بمعنى القبح والكآبة والفضيحة ولا تكون شدة العذاب إلا لشدة ما وقر وتمكن في النفوس من الكفر ولا يكون هذا العمق والثبات إلا في القلوب . كما دل على ذلك أيضاً مقابلة قسوة قلوبهم بلين قلوب المؤمنين . وفي بيان سبب قسوة قلوبهم دليل أقوى على قرار اللفظة في مكانها حيث قال " من ذكر الله " فزاد في بيان ما بلاهم به من عظيم القسوة فإن من تبتدى قسوته مما تطمئن به القلوب وتلين له الجلود ، من مدح الجامع لصفات الكمال فهو أقسى من الجمود .(4)

---

1 - روح المعاني : 247/8

2 - السابق : 247/8

3 - المفردات في غريب القرآن : 550

4 - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : 437/6

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقراءة من قرأ (بمن) أبلغ لأن القاسي من أجل الشيء أشد تأبياً عن قبوله من القاسي عنه بسبب آخر .

كما أن في " من " مناسبة لما قيل في حال المؤمنين " إلى " فمن ابتداءً وإلى انتهاءً . ففي ذلك دلالة على قسوة متمكنة من القلوب حيث قست قبل ابتداء الذكر أو من أول ابتدائه في حين أن لين قلوب المؤمنين شوقاً إليه قبل حتى أن يترل أو يذكر وهذا دليل على شدة إيمان المؤمنين وشدة كفر الكافرين .. فالقلب إذن في مكانه ولا يمكن أن يؤدي الفؤاد دقة المعنى الذي أداه القلب ، فالفؤاد لا يسكن فيه التأبي الشديد من الشيء حتى قبل وروده كالقلب لأن في دلالة التأبي من الشيء قبل وروده دليل على أن الأصل والخلقة فيهم القسوة وهذه من دلالات القلب فهي حال ثابتة أصيلة لا عارضة مضطربة .

كما في ختم نظم الآية بقوله (أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ) افتتح الجملة باسم الإشارة أولئك وفيه دلالة على بعدهم عن الله .كما إن في الافتتاح باسم الإشارة عقب ما وصفوا به من قساوة القلب إفادة أن ما سيذكر من حالهم بعد الإشارة هم أحرياء به لأجل ما ذكر قبل اسم الإشارة .. (فِي ضَلالٍ مُبِينٍ) فسبب قساوة قلوبهم أهم متمكنون في الضلالة منغمسون في حمأها فكان ضلالهم أشد من أن ينقشع حين يسمعون ذكر الله ، وضلالهم شديد لا يخفى لشدته ، فالمبين كناية عن القوة والرسوخ فهو بين للمتأمل أنه ضلال (1).

وفي قوله تعالى : ﴿**كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ**﴾ (2) .

وقوله : ﴿**كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ**﴾(3) .

السياق في كلا الموضعين عن القرآن الكريم وقدرة الله _جل وعلا_ على سلكه في قلوبهم وإن كذبوا وجحدوا إلا أهم في قرارة أنفسهم يعلمون أنه الحق من رهم ونلاحظ أن القرآن أورد القلب خاصة بالرغم أهم لم يؤمنوا ولكن ليؤكد أنه وقر في

---

1 - التحرير والتنوير : 65/24 2 - الحجر:12
3 - الشعراء:200

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أنفسهم أنه حق والمراد ـــ والله أعلم ـــ إقامة الحجة على المكذبين بأن الله تعالى ســلك القرآن في قلوبهم وأدخله في سويدائها ، كما سلك ذلك في قلوب المؤمنين المــصدقين ، فكذب به هؤلاء وصدق به هؤلاء كل على علم وفهــم (ﯿيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَــنْ بَيِّنَــةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ) .

ولذا ورد في السياق البعدي في كلا الموضعين التصريح بأنهم لا يؤمنــون بــه (لا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ) ، (لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ) حتى لــو جاءهم آيات عظام "وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لقالوا إنما سكرت أبصارنا " وما ذلك إلا لقرار الكفر والعناد في قلوبهم .

فالقلب هنا ملائم للسياق سواء لعلمهم يقيناً أن القرآن حــق (وَجَحَــدُوا بِهَــا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ) وهذا اليقين تمكن وثبات لا يلائم إلا القلب لذا عبربــــ (كَــذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ) أو لبيان قرار وتمكن كفرهم وعتوهم فالسياق في بيان قــرار كلا الحالين وتأبيد ذلك وهذا لا يكون في الفؤاد المضطرب .

ونلاحظ دقة القرآن في ذكر" القلب " ودقة الألفاظ المجاورة له ، والموضعان اتفاقا في النظم سواءً في ورود الفعل " نسلكه " ، " سلكناه " بالمــضارعة في موضــع الحجــر وبالمضي في موضع الشعراء .

وقد بدأ النظم بـــ " كذلك " الدال على التشبيه فمثل ما قدر الله علــى إنــزال الذكر وحفظه ، وإرسال الرسل من قبل فكذلك يقدر على سلك هذا الذكر في قلــوب المجرمين . والبدء بكذلك تأكيد على القدرة تأكيداً يدل على قدرة الفاعل وبالتالي قــدرة الفعل على التمكن والثبات لذا كان ملائماً أن يكون مع القلب لتتجلى القــدرة لا مــع الفؤاد والذي لا يدل على اللزوم والثبات .

ورشح للقلب الفعل " سلك " دون دخل وذلك لما في هذا الفعل من دلالة علــى الدقة لذا يرد مع سلك الخيط في المخيط أو سلك الماء في مساربه وهي أشياء دقيقة وهــي دقة تلاءم القلب من ناحية كما إن فيها إشارة إلى ضيق قلوب المجرمين عن الحــق فلــذا يحتاج الأمر فيها إلى سلك دقيق .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كـــما إن في الســـلك معنى القوة والشدة كما يقال تطعن الطاعن فتسلك الرمح فيه (1) وهذه شدة ملائمة أيضاً لقلوب المجرمين لضيقها وعتوها عن الحق . أما دخل فــلا يـــدل على هذه الدقة كما إنه لا يدل على الشدة فالدخول فيه معنى سهولة الدخول والرضـــى به.

ولاستعماله بالمضارعة في الحجر والمضي في الشعراء دقة تلائم السياق قال الغرناطي : " ورد في الحجر (نسلكه) بلفظ المبهم لأن الإخبار عن كفار قريش ممن اســـتمر علـــى كفره فهو حالهم وقت نزول القرآن وبعده . وقوله :" نسلكه " مشعر باستمرار حـــالهم وموافاتهم على ذلك وقد تأكد هذا بوصفه بالإجرام وتسجيل حالهم السيء بقولـــه " لا يؤمنون " وأداة لا النافية للمستقبل فناسب هذا اللفظ المبهم المضارع ، أما آية الـــشعراء فقد تقدمها ذكر قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وغيرهم من الأمم المكذبين ، بعد سلوك ما ذكر سبحانه أنه في زبر الأولين . فلما تقدم أمرها أولاً وانقطعـــت أزمانهـــا ، وقعت العبارة بالماضي(2) .

ويظهر لي أن رأي الغرناطي في كون الفعل بالمضي في الشعراء صحيحاً وله وجـــه وأضيف عليه أن القصص في الشعراء كانت سابقة للآية لذا لاءم معها المـــضي حيـــث تكلمت عن شيء سابق . ومن وجه آخر على الرغم من أن النظم بـــني علـــى الفـــرض والتقدير في المستقبل (وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ) . والذي يلائمه في الظاهر أن يأتي الفعل معه مضارعاً إلا أن النظم خالف الظاهر وأتى بالمضي ويظهر لي أن السبب في ذلك علم الله سلفاً أنهم لن يؤمنوا به فالكفر فيهم سابق يدلنا على ذلك قولـــه (وَمَـــا كَـــانُوا مُؤْمِنِينَ) . فعدم الإيمان فيهم موجود أصلاً لذا لاءم أن يعبر معهم بالمضي لا بالمضارعة .

أما توجيه الغرناطي لاستعمال النظم للفعل المضارع " نسلكه " في الحجر فأرى أن الأقوى والأظهر أن السبب في ذلك ورود القصص لاحقة بعد هذا الفعل لا سابقه لـــه في السورة فكأن استعماله للمضارعة للإيماء إلى ما يسرد بعد ذلك من قصص الأمم السابقة وكيف سلك فيها الذكرلذا لاءم المستقبل هنا المضارعة .

1 - لسان العرب : 2073/3

2 - ملاك التأويل : 722/2 ، 724

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي إضافة " قلوب المجرمين" خاصة دون الكافرين مع إن الكلام عن الكافرين لكن النظم ذكر وصفهم " بالمجرمين " ملاءمة لفعل السلك حيث إن الإجرام هو التعدي في الذنب وتعديهم في الذنب تلائمه القوة والدقة في إدخال الحق في قلوبهم وإن خالفوه لكنهم عرفوه يقيناً واستكبروا .

وورد اللفظ بالجمع "قلوب المجرمين" دليل على أن هذا عام فيهم وهذا العموم يلائم أن يكون في القلوب فكلما عم الشيء دل على تمكنه ولزومه .

ومن المواضع التي ورد فيها القلب قوله تعالى : ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ**﴾ (1) .

واصفاً حال قلوب الكافرين في سياق بيان إعراضهم وكفرهم ومدى تماديهم وتجرؤهم على الله في أقوالهم وقد قرت اللفظة في سياقها حيث ما ورد في سياق أقوال الكفار وأهل الكتاب التي تدل على تمادٍ في الكفر لا يصدر إلا من تمكن له في القلب: من اتخاذ آلهة أخرى مع الله ، وعداء لجبريل ، ونبذ لليهود وإتباع للسحر، وتحريف في أوامر الله ، وسؤال رسلهم ما لا يحق لهم سؤله ، والادعاء بأن الجنة لليهود والنصارى ، واتهامهم بعضهم البعض أن دينهم ليس ديناً وهم أهل الكتاب ، ومنع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ، والقول بأن لله ولد - جل وعلا - فحين يشابههم كفار العرب في ذلك لا يتلاءم مع السياق إلا القلب لأن هذه الأقوال لا تصدر إلا من قلوب ملأها الكفر وتعمق وتمكن فيها .

ولذا حين أراد النظم تصوير درجة كفر هؤلاء العرب في إطار تسلية الرسول - ﷺ - ، ذكر القلب فهذا الكفر فيهم ليس حادثاً بل أصلاً فيهم وقد شابهوا في أقوالهم أقوال الكفار من الأمم السابقة والتي كشفت عن اعتقاد راسخ في نفوسهم انطلقت منه أقوالهم فصورت لنا ما انطوت عليه قلوبهم من الكفر .

---

1 - البقرة:118

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ونظم الآية المتقدم على لفظة القلب مرشح لها والمتأخر عنها معقب لهـا حيـث بدأت الآية بقوله تعالى : (وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ) قيل الجهلة من المشركين ، وقيل مـن أهل الكتاب (1) وما عليه الجمهور أنهم كفار العرب وأرجح أن يكونوا كفار العرب لأن الآية السابقة تقول : **﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾** حيث جمع اليهود والنصارى ثم قال : "كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ " فشبه قولهم بقول "الذين لا يعلمون" من كفار العرب وليس المراد الذين لا يعلمون من أهل الكتاب لأنـه صرح بوصفهم في ذات السور بقوله (وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ) فعطفهـم علـى السابقين من أهل الكتاب وهنا لم يعطف بل شبه قولهم بقول فئة أخرى ـ والله أعلم ـ وعبر عنهم هنا بـ " الذين لا يعلمون " فعبر عنهم باسم الموصول الذي يدل على أنهـم عرفوا بهذا الوصف عدم العلم . والعلم يقين لا يكون إلا في القلب وبالتالي انعدامه يكون من القلب وهذا مرشح للفظة القلب فيما بعد . كما إن في قولهم (لَوْلا يُكَلِّمُنَـا اللَّـهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ) فلولا هنا بعدها الفعل وهذا يدل على أنها للتحضيض وهذا التحضيض فيه دليل على جرأة على الله وهذه الجرأة لا تكون نابعة إلا لما وقر في القلب من الكفر وقد قـصد منه التعجيز والاعتذار عن عدم الإصغاء للرسول استكباراً بأن عدوا أنفـسهم أحريـاء بالرسالة وسماع كلام الله . فقولهم هذا مرشح للقلب لأنهم قالوه على طريقة الاسـتكبار والعتو وما طلبوه خاصة يدل على ذلك أيضاً حيث قال " يكلمنا الله " فمن هـم حـتى يخصهم الله بالكلام ، ولكن ذلك دلالة على تمكن كفرهم ، " وقـالوا إن الله " بلفـظ الجلالة الذي يربي الهيبة في القلوب وتخضع وتوجل القلوب عند ذكره وهـم يتـساهلون بطلب كلامه لهم (أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ) ،وقد جاءهم آيات كثيرة و لم يؤمنوا،أراد مطلـق آيـة فالتنكير للنوعية وحينئذ فهو مـكابرة وجـحود لما جاءهم من الآيات .(2)

1- الكشاف : 316/1

2 - التحرير والتنوير : 671,670/1

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كما إن في كلامهم بنون العظمة في الإشارة لأنفسهم دليل آخر على تمكن الكفر منهم ـ وهو تمكن وعتو ـ يشبه ما كان في قلوب اليهود والنصارى المخالفين وهذا مؤكد للقلب .. فكون قولهم كقول اليهود والنصارى فهم على درجة شديدة من الكفر كما كان اليهود والنصارى ففي كلامهم مشابهة لكلام اليهود والنصارى ، ثم جعل في كلام اليهود والنصارى مشابهة لكلامهم فهذا التبادل بينهم في أقوال الكفر دليل على الكفر وتمكنه . وفي قوله " مثل " دليل على عتوهم وكفرهم فقد عرف اليهود أنهم أكثر الأمم فسقاً وكفراً لذا لم يرد معهم إلا القلب فهم إذا كانوا مثلهم والمماثلة أن يسد أحد الشيئين مسد الآخر ، والمثل أعم الألفاظ الموضوعة للمشابهة ، فهي تدل على كون المحكوم عليه بالمماثلة متفقاً مع ما يماثله في جميع الجهات التي يصير بالاتفاق معه فيها على مثاله (1) . فهذا مؤكد على قرار لفظة القلب فمماثلتهم لليهود في كل شيء دليل على أن ما سكن فيهم من الكفر إنما منبعه من القلوب لذا قال " تشابهت قلوبهم "فجعل المشابهة في قلوبهم و لم يقل تشابهت أقوالهم بل ذكر ما هو أعمق من ذلك وهو سبب تماثل الأقوال فلما ذكر تماثل المقالات وهي صادرة عن الأهواء والقلوب ذكر تماثل قلوبهم في العمى والجهل فقيل : تشابهت قلوبهم في الكفر ، وقيل في القسوة ، وقيل في التعنت والاقتراح ، وقيل في الحال (2) والتشابه بين شيئين في أمر من الأمور من غير قصد إلى زيادة ونقصان وجدت الزيادة أم لم توجد (3) ، فهذا يدل على شدة المشابهة والشبه يستعمل فيما يشاهد ويقال فيما يشارك في الكيفية فقط ، والشبه أنه لا يتميز أحد الشيئين عن الآخر عيناً كان أو معنى وقيل الأصل في دلالة مادة المشابهة في الصورة واستعماله في معنى من المعاني

1 - الفروق اللغوية : 163

2 - المطول : شرح تلخيص مفتاح العلوم :سعد الدين التفتازاني,ت: عبد الحميد هنداوي ,بيروت ,دار الكتب العلمية ,ط1, 1422هـ-2001م : 335

3 – البحر المحيط :537/1

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يكون على سبيل المجاز بإطلاق هذه الدلالة على مطلق الاتفاق عـيناً ومعنى (1). فمـن الملاحظ أن القرآن استعمل المثل مع الأقوال لعمومه. واستعمال المشابهة في القلوب لا يراد بها كيفيتها بل المقصود المعاني التي سكنت فيها واستعمال المشابهة فيه دلالة علـى شـدة مشابهتهم باليهود حتى كأنه أصبح شيئاً مشاهداً ظاهراً للعيان وما ظهر ذلـك الـشبه إلا لشيء وقر في القلوب خاصة فكان أثره على الأقوال والأفعال .

وختم الآية بقوله (قَدْ بَيَّنَّا الْآياتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) دليل آخر على قرار اللفظة في نظمها حيث جعل في مقابل هؤلاء الذين لا يعلمون والذين شابهت قلـوبهم قلـوب اليهـود والنصارى الموقنين واليقين من صفة العلم وهو فوق المعرفة والدراسة ، وهو سكون الفهم مع ثبات الحكم (2) ، فاليقين نقيض الشك (3) . فلا يصل إلى اليقين إلا من ارتقى أعلـى درجات العلم وهذا لا يكون إلا نابعاً من قلوب متمكنة فمن يقابلهم قلوبهم متمكنـة في الكفر .وفي قوله (قَدْ بَيَّنَّا الْآياتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) تعليل للإعراض عن جوابهم بأنهم غير أهل للجواب لأن أهل الجواب هم القوم الذين يوقنون وقد بينت لهم آيات القرآن بما اشتملت عليه من الدلائل وأما هم فليسوا أهلاً للجواب لأنهم ليسوا بقوم يوقنـون بـل ديـدنهم المكـابرة (4) . وهذا الإهمال لهم دليل على مؤاخذتهم بما كان في قلوبهم مـن الكفـر . وقوله (لقوم يوقنون) قال (لقوم) أي من قوامتهم اليقين فهو إذن أصيل فيهم أما مـن يضادهم فأصيل فيه الكفر وهم الذين عبر عنهم بأنهم " لا يعلمون " وهذه الأصالة دليـل تمكن وثبات لا يكون إلا في القلب. فقرار لفظة القلب مما سبق يتضح لنا من وجوه هي :

1- جرأتهم على الله فيما طلبوا جرأة لا تكون إلا من تمكن كفرهم في القلوب .

2- كونهم لا يعلمون فانعدام العلم يكون من عمى القلب كما إن وجوده يكون من بصيرة القلب .

1- أدوات التشبيه دلالتها واستعمالها في القرآن : د.محمود موسى حمدان ,مصر مطبعة الأمانة ,ط1, 1413هـــ-1992م : 236

2 – المفردات في غريب القرآن : 553

3 - لسان العرب : 6 /4964

4 - التحرير والتنوير : 172/1

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

3- المماثلة والتشابه التي نص عليها النظم بين الذين لا يعلمون وبين اليهود والنصارى دليل على ما وقر في قلوبهم لما عرف عمن ماثلوهم من شدة الفساد والعتو الثابت في القلب.

4- مقابلتهم بالموقنين والضد بالضد يعرف وكانت صيغة اليقين بالمضارعة"يوقنون " وفي هذا دليل على مكثهم وقتاً طويلاً في التفكر والتدبر بآيات الله إضافة إلى تجدده واستمراره وهذا دليل على أن يقينهم أصيل فيهم وبالمقابل كفر من يضادهم أيضاً أصيل فيهم . والله أعلم .

وفي قوله تعالى :﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزّىً لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ (1) .

ورد القلب في سياق من الله على المؤمنين بعقاب الكافرين وخذلانهم ، حيث أمرهم بألا يكونوا كالكافرين في تخاذلهم فالنصر والعزة من الله _سبحانه وتعالى_ فحذر المؤمنين من فعل الكافرين وقولهم وبين انقلاب أقوال الكافرين عليهم حيث يخذّلون المؤمنين فيجعل الله ذلك خذلاناً لهم ولقلوبهم خاصة..

واللفظة قارة في سياقها حيث ركز تعالى في منه على المؤمنين بخذلان قلوب أعدائهم من الكافرين (سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ) كما ابتلى الله المؤمنين (لِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ) فركز أيضاً على قلوب المؤمنين هنا ثم عاد إلى تخذيل قلوب الكافرين مرة أخرى (لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ) كما ورد في السياق البعدي ما يؤكد قرار اللفظة فمن من الله - جل وعلا - على المؤمنين أن جعل قلب رسوله - ﷺ - رحيماً بهم (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ) وكذلك الابتلاء في المعارك لبيان حقيقة القلوب (وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا) ،(يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ).

1- آل عمران : 156

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فبين الله حقيقة قلوبهم بما صرحوا به من أقوال وحكم على قلوبهم بالكفر (هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ) فكان التركيز على القلب أيضاً لفضح حقائق هؤلاء المنافقين وقد رشح نظم الآية للفظة القلب وعقب لها أيضاً بما يناسبها فبداية الآية بمناداة المؤمنين بوصف الإيمان (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) دليل على أن ما سيرد بعد ذلك من الأمر إنما هو لكمال دينهم وهذا الكمال يكون في القلب ، كما في تخذيل قلوب الكافرين بالحسرة قوة لقلوب المؤمنين.

كما ورد النظم بالنهي الذي يدل على تأبيد هذا النهي (لا تَكُونُوا) فهذا النهي يدل على التحذير ألا يكونوا لا حاضرا ولا مستقبلاً مشابهين للذين كفروا وهذا التأبيد دليل على أن الأمر عظيم وإن حصل أخل بإيمانهم وهذا لا يكون إلا إذا وقر في القلب ..

كما إن في قوله تعالى (كَالَّذِينَ كَفَرُوا) وعطف (وقالوا)عليه دليل على قرار القلب حيث بين أولاً أنهم متصفون بالكفر، ثم قال (وقالوا) هذا دليل أن قولهم إنما كان سبب صدوره كفرهم وكفرهم اعتقاد في قلوبهم أنتج هذا القول لذا حين وردت العاقبة وردت على الأساس في إصدار هذه الأقوال وهو القلب . ويؤيد قرار القلب تعليق قولهم بـ (إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزّىً) من وجوه أولها : أن "إذا" فيها دلالة على تأكيد هذا الشرط وتحققه كما إنها تدل على دوامه أبداً لهم فكلما ضرب إخوانهم في الأرض أو كانوا غزى قالوا هذا القول وهذا يدل على أن ذلك اعتقاد ثابت عندهم ولا يثبت ذلك ويكون اعتقاداً إلا باستقراره وتمكنه فيه وهذا محله القلب.وثانيها : أن كون القول لا يقال إلا إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى فظاهر أن القصد منه التخذيل لا الحرص على إخوانهم ولا يكون التخذيل إلا لغاية في القلب وهو هزيمة المسلمين بهذا التخذيل . وإتيان إذا مع ضربوا لتدل على اطراد الأمر في مستقبل الزمان ووضع الماضي موضع المستقبل للدلالة على ثبوت الأمر فصيغة الماضي متحققة الوقوع (1) .

1 - المحرر الوجيز : 531/3

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي نفي الموت والقتل بــ (ما) (مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا) دلالة على استطالة تدل على عمق اعتقادهم بذلك عمقاً لا يكون إلا في القلب وليس جلوسهم عندهم البته مانعاً مــن موتهم أو قتلهم ولكن لأن اعتقادهم ورغبتهم في ذلك متمكنه منهم دللوا عليها بربطهــا بالشرط بــ (لو) وهذا التعليق بالشرط دليل على تمكن ذلك من قلوبهم أيضاً . وكل مــا سبق رشح أن يكون العقاب على القلوب فقال تعالى (لِيَــجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَــسْرَةً فِــي قُلُوبِهِمْ) واللام للعاقبة (1) أي قالوا ذلك واعتقدوه ليكون (حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ) وفي معنى يجعل الدال على الاتصال وإتيانه بالمضارعة دلالة على تثبيت هذه الحسرة وتمكينــها ولا يكون ذلك إلا في القلوب ، وكون الفاعل هو (الله) دلالة أخرى على تمكينــه تمكينـاً يعمد إلى القلوب كما فيه دلالة على عظيم أثر هذه الحسرة بدلالة عظيم جاعلها في قلوبهم ، وفي تنكير (حسرة) دليل آخر على عظمتها لذا عداها بفي دلالة على تمكنها وتغلغلها " في قلوبهم " وقيل معنى ذلك إشارة إلى معتقدهم حسرة في قلوبهم وقيل: إن ما يكــون حسرة في قلوبهم انتهاء المؤمنين ومخالفتهم الكافرين في هذا المعتقد ، وقيل إلى نفس نهي الله تعالى عن الكون مثل الكافرين في هذا المعتقد لأنهم إذا رأوا أن الله تعالى قد وسمهم بمعتقد وأمر بخلافهم كان ذلك حسرة في قلوبهم وقيل :إن الإشارة إلى النهي والانتهاء معــاً (2). ويظهر لي أنه لا يمنع أن يكون كل ما سبق هو الحسرة في قلوبهم وهذا أدخل في عــذابهم وخذلانهم حيث تتعدد اتجاهات هذه الحسرة وهذا أدعى لتمكنها في قلوبهم ويدل علــى هذا الترجيح أنها وردت " نكرة " وهذا أدل على تنوعها وعمومها بالإضافة إلى عظمتها . والحسرة هي الغم على ما فاته والندم عليه (3) . وقيل الحسر الكشف عن الشيء ، وقيل الإعياء والتعب وقيل الحسرة أشد الندم (4) .. ومعاني الحسرة بالغم وأشد الندم والإعيــاء والتعب ترشح أن يكون النظم بالأفئدة لأنها صفات ضعف تكون ملائمــة لاضــطراب الفؤاد لا قوة القلب.

---

1 - التبيان في إعراب القرآن : أبو البقاء العكبري,الأردن ,بيت الأفكار الدولية : 91.
2 - ينظرالمحرر الوجيز : 393/3
3 - المفردات في غريب القرآن : 125
4 - لسان العرب : 769/2

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولكن ذكرها هنا مع القلب أدخل في بيان الخذلان حيث يجعلها دائمة عليهم من وجه ومن وجه آخر فيه بيان لقوة الله -عز وجل -حيث قهر قلوبهم بهذه الحسرة على الرغم من تمسكها باعتقادها الفاسد فجعله وبالا عليهم, ومن وجه آخر فيه تهكم بهؤلاء الكفار واستهانة بشأنهم حيث مكن الحسرة في قلوبهم وفي ذلك نصرة للمؤمنين بإعزاز شأنهم وإذلال أعدائهم حيث إن الحسرة تدل على أن النادم كالحسير من الدواب الذي لا منفعة فيه فكيف إذا كانت الحسرة سلطة على قلبه . وقوله تعالى (وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ) تذييل يؤكد قرار القلب في مكانها حيث يجعل ذلك اعتقاداً سليماً هو الأولى والأحق بأن يعتقد ويسكن القلوب فاعتقاد الكافرين حسرة في قلوبهم ، أما الاعتقاد بأن الله _جل وعلا_ هو الذي يحيي ويميت فهو حياة قلوبهم لذا قيل: إن المقصود بـ(وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ) قولان: رد على شبه الكافرين وأن قضاء الله لا يتبدل ، وقيل: يريد يحيي قلوب أوليائه وأهل طاعته بالنور والفرقان ويميت قلوب أعدائه من المنافقين(1) وكلا المعنيين لا بد أن يكون راسخاً في القلوب ، ثم في قوله تعالى (وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) دليل على قرار القلب حيث إنه لتمكنها أصبحت كالمرئية فعلق ذلك بالبصر لا بالسمع وإن كان الصادر منهم قولاً مسموعاً لا فعلاً مرئياً ، لما كان ذلك القول من الكافر قصداً منهم إلى عمل يحاولونه فخص البصر بذلك(2).

وفي قوله تعالى : **﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْأِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾**(3) ، وردت لفظة القلب في سياق بيان صفات المستحقين للنار وقد تقدم في السياق القبلي ما يؤكد قرار القلب في نظمها وسياقها.

---

1 - التفسير الكبير : 402/3

2 - البحر المحيط : 102/3

3 - الأعراف : 179

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حيث أخبر عن العهد الذي أخذ على ذرية آدم بأن الله ربهم وشهدوا على ذلك فلا يخالف بعد ذلك إلا من عمي قلبه ، لذا حين ذكرت صفات المستحقين قدمها بانعدام فقه قلوبهم .

ونلاحظ أن طريقة النظم تؤكد على ثبات وتمكن الصفات الواردة لهؤلاء وتـــدل على رسوخ الجهل فيهم ورسوخ العتو والكفر من وجوه :

أولها : ورود الخبر بالتأكيد (بالقسم وقد) مما يؤكد ثبات الصفات ثباتاً يلائم القلب.

ثانيها : ورود (ذرأنا) دون غيرها من المواد لأن فيها دلالة على أنهم أصلاً خلقوا بأوصاف تسكنهم جهنم ، كما إن من معاني ذرء : ذرأ الحب الذي يزرع فكأنهم زرع لجهنم وذرأ لها ، وهذا دليل على لزوم الصفات الواردة بعد ذلك لهم وأنها صفات غير عارضة بل هي ثابتة لذا كان الملائم لها القلب لا الفؤاد .

وقد وردت (ذرأنا) بالمضي وفي ذلك دلالة على لزوم الوصف فهو سابق فـــيهم فليس بحادث ولا طاريء ، وإضافته إلى (نا) الدالة على العظمة مؤكد أيضاً لشدته وقوته وبالتالي ثباته وتمكنه .

ثالثها : تقديم القلوب على أدوات الإدراك الأخرى ، وذلك ملائم لسياق المجازاة فالمجازاة متعلقة بالقلب وفعله ، فهو الأساس في الاعتقاد والعمل وهو المحرك لبقيـــة أدوات الإدراك فبدأ به بعد ذلك أعدم الأدوات الأخرى الفائدة .

وفي جمع القلوب دلالة على أن السمة عامة في هؤلاء الكفار ، كما نلاحـــظ أن النظم نكرها ، وقيل في تنكيرها لكونها غير معهودة مخالفة لسائر أفـــراد الجـــنس فاقـــدة للكمال بالكلية(1) . ويظهر لي بالإضافة إلى ذلك أن القصد إلى تنكيرها للدلالـــة عـــن انفصالها عن ذواتهم حتى كأنها قلوب مجهولة بعيدة عنهم كأنها لم تعد ملكهم فلـــو أرادوا الفقه لما استطاعوا ، وهذا أدخل في مذمتهم وأدل على ثبات الجهل ولزومه لهم . وقد نفى عنها الفقه خاصة لأن الحديث عن النظر في أدلة التوحيد وثبوت النبوة وما تفـــرع عـــن ذلك ، وهذه أمور ليست ظاهرة للعيان حتى يستعمل معها يعقلون بل هي أمـــور باطنـــة عميقة تحتاج فقهاً لا عقلاً .

---

1 - تفسير أبي السعود : 56/3

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

رابعها : تقديم (لهم) فقدم المسند على المسند إليه وفي ذلك اختصاص الوصف بهم اختصاصاً فيه دلالة لزوم كأن هذه القلوب والأعين والآذان المنعدمة هي لهم دون غيرهم فهي ملازمة لهم لا تبارحهم إلى غيرهم . وهذا ملائم لثبات القلب .

خامسها : إثبات الحواس الثلاثة لهم ثم وصفها بعدم الشعور دون سلبها عنهم ابتداء ، بأن يقال ليس لهم قلوب يفقهون بها ولا أعين يبصرون بها ولا آذان يسمعون بها ، وفي ذلك شهادة بكمال رسوخهم في الجهل(1) . فالغريب المثير للسخرية أن تكون الحاسة موجودة ولكنها لا تؤدي وظيفتها والأغرب أن يكون هذا ليس في حاسة واحدة ، وإنما في عدة حواس في وقت واحد ، والأبلغ في الغرابة أن يكون فقدان هذا العدد من الحواس ليس في شخص واحد ، وإنما في جمع أو طائفة من الناس في مكان وزمان واحد(2) .

سادسها : حذف المفعول وفيه دلالة على العموم ودلالة العموم تؤكد أنه ليس من شأن القلوب الفقه أبداً ولا من شأن العيون الإبصار ولا من شأن الآذان السماع فالعيب إذن لازم لها .

سابعها : ترقي النظم في الإخبار بجهلهم بأن أعدمهم وسائل الإدراك أولاً ثم شبههم بالأنعام ثم تفضيل الأنعام عليهم بأن جعلهم أضل منها ثم قصر الغفلة عليهم.

فكل ما سبق مؤكد للزوم ودوام يلائم ثبات القلب لا اضطراب الفؤاد .

وفي سياق أحوال الكافرين ذكر أحوال قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة مورداً في كلا الموضعين لفظة القلب دون غيرها من الألفاظ وذلك في قوله تعالى: ﴿**إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ**﴾ (3) .

وقوله: ﴿**وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ**﴾(4) .

---

1 – تفسير أبي السعود : 56/3 بتصرف يسير
2 - ينظر التصوير الساخر في القرآن الكريم : 79
3 - النحل:22
4 - الزمر:45

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وبّين حال قلوبهم في الموضعين عند ذكر الله وحده دون من زعموا له من الشركاء ، فذكر موقفهم من وحدانية الله - جل وعلا-، والتوحيد إخلاص ويقين لا يكون إلا في القلب . وفي سياق كل موضع ونظمه ما يؤكد على قرار لفظة القلب في مكانها إضافة إلى حال المُتكلم عنهم وهم منكرو البعث فهؤلاء ثبتوا على ذلك وكانوا أشد كفراً من غيرهم حيث يستلزم إنكارهم للبعث والحساب والجزاء إنكارهم لوحدانية الله فالوحدانية تؤكد القدرة على كل شيء ومن ذلك المقدرة على البعث والحساب والجزاء .

فنلحظ في الموضع الأول في قوله تعالى :﴿**إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ**﴾ . ففي هذه الآية يؤكد وحدانية الله _جل وعلا_ ويذكر حال من لا يؤمنون بالآخرة وموقفهم من وحدانية الله _جل وعلا_ فخص ذكر حال قلوبهم بأنها منكرة والقلوب هنا مناسبة دون غيرها لدلالتها على عمق اعتقادهم وقوة إنكارهم لهذه الحقيقة.

وما تقدم في السياق القبلي من ذكر النعم على ابن آدم وقدرة الله في الخلق وإنزال المطر وإنبات الزرع وتسخير الليل والنهار والشمس والقمر وتسخير البحر وخلق الجبال وغير ذلك من النعم تؤكد حقيقة وحدانية الله _جل وعلا_ فلا يدعوهم إلى إنكار وحدانية الله بعد ذلك إلا قلوب تقوّى وتعمق فيها الكفر والصلف والعتو فالقلب أدق في هذا الموضع من غيره فهذا الإنكار لا يمكن أن يصدر إلا من قلوب مدركة لهذه الحقيقة ولكنها " منكرة " لشيء تعرفه مستكبرة عن الاعتراف به .

ثم إن المقارنة بين منْ يُدَعون من دون الله وقدرة الله _جل وعلا_ تؤكد وحدانية الله فالله يَخْلق وهم لا يَخلِقون بل هم يُخْلَقون ، وهم أموات لا يشعرون أيان بعثهم وبعث من يعبدونهم من دون الله ،والله حي لا يموت وهو يعلم متى البعث _ سبحانه _ فهذه دلالة واضحة لا مراء فيها لا ينكرها إلا من تعمق ورسخ الإنكار في قلبه ، كما إن هذا التصرف وهذا الإنكار منبعه القلب دون سواه ففيه القوة التي تحمله على جحد كل هذه الدلالات كما إنه إذا ملأه الجحود فلا يمكن لصاحبه الإيمان البتة .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفيما ورد في السياق البعدي من صلفهم يدل على شدة كفرهم حينما يعلمون أن القرآن مترل من رهم المنعم عليهم ثم يقولون (أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) وفي قوله (لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ) دلالة على قرار لفظة القلب في مكانها فكفرهم تعمق واشتد لذا عبر عنه أنه كمن في قلوبهم ، ولأن كون الخلل الكامن في قلوبهم هو الداعي لهذا الكفر والإنكار اشتد عقابهم فحملوا (أوزارهم كاملة) (ومن أوزار الذين يضلونهم) كما عبر عنها بالوزر دلالة على ثقلها وعظمتها وفي ذلك دلالة على صدورها عن إصرار وتعمد وهذا لا يكون إلا من عمل القلب ، وفي التهديد لهم بعاقبة من سلف ووصفهم بالظالمين وكونهم يدخلون من أبواب جهنم المختلفة دليل على شدة كفرهم وتنوع صلفهم وقد يدل دخولهم من أبواب جهنم جميعاً وليس من باب واحد على تنوع معاصيهم وإصرارهم على مختلف المعاصي الموجبة لجهنم وهذا يكون من قلب متعمد غافل .

كما إن في مقابلتهم (بالذين اتقوا) دليل على قرار (القلب) في مكانها حيث إن التقى درجة قوية من الإيمان لا تكون إلا في القلب فكذلك من يقابلهم لابد وأن يكون وصل درجة عظيمة لا تكون إلا في القلب . وقيل أقوى مراتب الكفر الجمع بين التكذيب بالله تعالى وبالبعث لأن من صدق بالبعث فمحال أن يكذب بالله تبارك و تعالى(1) . ونظم الآية يؤكد قرار اللفظة أيضاً حيث بدأت بـ(إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ) بصفة الإخبار دون توكيد على الرغم من أنها في سياق منكري وحدانية الله وذلك إنزال لهؤلاء المنكرين مترلة العارف وذلك لأن الخبر معروف وظاهر لا يحتاج تأكيد فمن ينكره ؟ فالمعول إذن على قلبه المصر على الكفر والمنكر للحق .وفي إضافة " إلهكم " إلى ضمير المخاطب دليل آخر أن هذا الإله معروف يقيناً وأكد على وصفه بالوحدانية للتقرير فقط فهم يعلمون ذلك وهذا يؤكد أيضاً على استعمال لفظة القلب. وقوله (فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ) الفاء للتفريع ، أي يتفرع على هذه القضية القاطعة بما تقدم من الدلائل أنكم قلوبكم منكره وأنتم مستكبرون وأن ذلك ناشئ عن عدم إيمانكم بالآخرة .(2)

---

1 - المحرر الوجيز : 10/8　　2 - التحرير والتنوير : 13/ 103

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فالفاء للإيذان بأن إصرارهم على الإنكار واستمرارهم على الاستكبار وقع موقع النتيجة للدلائل الظاهرة والبراهين الباهرة (1) . وهذا دليل على تعمق الكفر والشرك في قلوبهم وفي التعبير عنهم بالموصول دلالة على ذلك أيضاً فهم قد عرفوا بمضمون الصلة واشتهروا بها اشتهار لمز وتنقيص عند المؤمنين ، كما إن الصلة للإيماء إلى أن لهذه الصلة ارتباطاً لاستمرارهم على العناد (2) وفي هذا التعبير عنهم بالصلة جمع لوصفين لهم فهم ينكرون التوحيد وينكرون البعث أيضاً وهذا دلالة على شدة كفرهم شدة تلائم القلوب .. حيث وصفهم بأنهم لا يؤمنون بالآخرة ، مبالغة في نسبة الكفر إليهم لذا قال (قلوبهم منكرة) فوصف قلوبهم بـ (منكرة) ملائم للقلب دون سواه حيث إن مادة نكر تدور على القوة وهي تستلزم الصلابة والثبات الملائم للقلب فالإنكار الجحود ، والنُكر الأمر الشديد ، ونُكر الداهية (3) وإسناد الإنكار إلى القلوب لأنها محله وهذا أبلغ من إسناده إليهم حيث هو أدل على ذمهم وكون الإنكار لا يمكن أن يتغير أو يتبدل فهو صادر من قلوبهم خاصة لذا قدم (قلوبهم) فذلك أدل على شدة كفرهم حيث قرع الأسماع بأساس داء الكفرثم ذكر العلة . فكأن القلوب هنا هي أساس في العلة لأن علة الإنكار غرتها وهذا أدل على جحودهم فمحل الإنكار قلوبهم واستعمل هنا الإنكار خاصة لأنه ضد الإقرار والذي كان هو الأولى بعد ما تقدم في السياق من الدلائل الظاهرة ولكن القلوب عمياء عنها بل متعامية .

وفي حذف متعلق (منكرة) دلالة على عموم إنكارهم وهذا العموم دليل على ملاءمة القلب لنظمها حيث إن إنكارهم عام لكل الدلائل والظواهر وهذا أدل على عمق كفرهم . ويبين ثباتهم على كفرهم التعبير بالجملة الاسمية " قلوبهم منكرة " فالإنكار صار سجية لهم ، وكذلك جملة " وهم مستكبرون " دال على تمكن الاستكبار منهم وقد خولف ذلك في آية الفرقان (لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيراً) لأن تلك الآية

---

1 - تفسير أبي السعود : 54/4
2 - التحرير والتنوير : 103/13
3 - لسان العرب : 4539/6

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لم تتقدمها دلائل على الوحدانية مثل الدلائل المـذكورة في هـذه الآيـة (1) . والاستكبار من عمل القلوب فهو امتناع عن الحق معاندة وكبراً (2) . وفي زيادة مبـنى " مستكبرون " زيادة في معناها حيث هم مبالغون في التعالي على الحق متكلفون له وهذا أدل على أن هذا الكبر نابع من قلوبهم حتى ظهر على ظواهرهم قال العلماء : (كل ذنب يمكن التستر به وإخفاؤه إلا التكبر فإنه فسق يلزمه الإعلان)(3) وما هذا الظهور لما كمن إلا لتمكنه من قلوبهم فظهر على ذواتهم لذا أسند الاستكبار هنا إلى ذواتهم لا قلـوبهم .. ـ والله أعلم ـ وفي عطفها بالواو دليل على تمكن كفرهم حيث أكد استقلال كل حكم بذاته وكلها مجتمعة فيهم فلم يعبر عن كفرهم بإسناد واحد بل بأكثر من إسناد وعبر عنه بالوصل بالواو تأكيداً على ذمهم فهم كذا وزيادة على ذلك هم أيضاً كذا .. ـ والله أعلم ـ

وفي قوله تعالى: **(وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ)** لاءم النظم أيضاً لفظة القلب في بيان حال الكفار بوحدانية الله -جل وعلا -فهذا الموضع كالسابق جمع فيه هؤلاء الكفـار إنكـار لوحدانية الله وإنكار للبعث وهذا ـ كما سبق ـ أشد الكفر فالمناسب له أن يكـون في القلب الذي يدل على تمكنه وعمقه .. كما إن سياق الـسورة عمومـاً في الإخـلاص والإخلاص لا يكون إلا في القلب فما يقابله من الكفر لا بد أن يكون من شدته متعمـق في القلب .والسياق القبلي ذكر من المؤمنين القانتين وأولي الألباب والمتقين وكـل مـن اتصف بهذه الصفات بلغ منزلة عظيمة من الإيمان تكمن في القلب ، كذلك من يـضادهم في وصفهم لا بد أن يكون كفره متعمق فيناسب أن يذكر معه القلب .. كما سُبقت هذه الآية بدلائل على وحدانية الله وقدرته ظاهرة الدلالة على وحدانيته سبحانه وتعالى فلا ينفر ولا ينكر هذه الوحدانية إلا من تمكن كفره من قلبه ، كما إن في ضعف وعـجز مـن دعـوا من دون الله عن الشفـاعة وعـدم المقـدرة عـلى النفع لهم أو

---

1 - التحرير والتنوير : 103/13

2 - لسان العرب : 3808/5

3 - البحر المحيط : 469/5

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الضر دليل آخر على أن من يتمسك بهم من دون الله قد ملأ الكبر نفسه وتعمق في قلبه .

وما في السياق البعدي من الوعيد الشديد وعدم نجاتهم من النار ولو افتدوا بما في الأرض و مثله معه دلالة على ما بلغه كفرهم من شدة ترتب عليه شدة الوعيد وعدم إمكانية الخلاص من النار .. واستعمال "حاق" (وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) فحاق دالة أيضاً على نزول المكروه بهم (1) وذلك ليس إلا لتمكن كفرهم وكونه في قلوبهم لذا أخذهم الله به ..

وبمقابلة هذه الآية بقوله تعالى (ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ) في شأن المؤمنين وموقفهم من ذكر الله دلالة على قرار لفظة القلب في مكانها . فالمؤمنون لقوة إيمانهم وتعمقه في قلوبهم تلين قلوبهم لذكر الله بل أنها تشتاق له وهؤلاء الكفار لما بلغ بهم من شدة الكفر والبعد عن الحق تنفر قلوبهم وتنقبض من ذكر الله ، فمقابلة حال المؤمنين بحال الكافرين دليل في دقة الكلمة في موضعها فحال هؤلاء الكفار ونفورهم عن الحق شديد ومتمكن تمكناً لا يكون إلا في القلب .

ونظم الآية ذاتها يدل على قرار لفظة " القلب " في نظمها كما قرت في سياقها ، حيث بدأت الآية بالشرط بإذا (وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ) .

فالشرط بإذا دليل على تحقق ذلك فيهم بل واستمراره فكلما ذكر الله وحده نفرت قلوب الكافرين وما هذا إلا لتمكن كفرهم وعمقه كما إنه تعالى قال: " الله " وهذا مما يربي المهابة في النفس والخضوع في القلب لا الاشمئزاز فمن انقلب حاله إلى هذا الحد فهذا دليل على أن العلة في أساس خلقه وطبعه وقوله (اشمأزت) اختيار هذه الصفة خاصة تبين مدى شدة كفرهم ولشدة هذه اللفظة وقوتها في الدلالة على نفورهم ، وانقباض قلوبهم وذعرها من ذكر الله ملائمة لقوة القلب وثباته ، كما إن الكره والنفور من أعمال القلوب .

1- الفروق اللغوية : 340

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فنرى أنه في الموضعين الذي تحدث عن(الذين لا يؤمنون بالآخرة) الذين جمعوا بين الكفر بالوحدانية ، والكفر بالآخرة ذكر صفة الإنكار ، والاشمئزاز وكل من الوصفين بالغ الغاية في وصفه فمنكرة بالغة الغاية في جحود الحق ، والاشمئزاز بالغ الغاية في النفور وكـــــره الحق ، وهذا لا يكون إلا في قلب اشتد الكفر فيه .. (وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُــمْ يَسْتَبْشِرُونَ) فقوله (الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ) العبارة صريحة أنه مــــــقارنة بين الله ــــ جل وعلا ــــ وبين الشركاء فدونيتهم ظاهرة ولكن من تعمق كفره لا يـــدرك ذلـــك .. كمـــا أن الاستبشار بالشركاء لا دليل له إلا عمى قلوبهم فقد تقدم في السياق القبلي عجزهم عـــن الشفاعة فعلام الاستبشار بهم ؟

وقال تعالى في معاقبة المشركين بالله ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَــدْعُونَ رَبَّهُــمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً**﴾(1) .فوردت لفظة القلب وذلك في سياق عقاب المشركين الذين غرهم زينة الحياة الدنيا فصرفتهم عن الإيمان استعلاءً كي لا يتساووا مع فقراء المؤمنين فصححت الآية القيم بميزان العقيدة لذا كـــان الأولى في بيـــان ذلك أن يورد القلب في شأن الكافرين لأن اعتقادهم خاطئ كما إن العقاب كان ملائماً لحالهم فقد اغتروا بالدنيا فعاقبهم الله بأن أغفل قلوبهم عن ذكره وخـــلّ بينـــهم وبـــين أهوائهم.

وفي السياق القبلي الذي ذكر فيه قصة أصحاب الكهف ورد القلب معهم لثباهم على إيمانهم وخروجهم من ديارهم من أجل إيمانهم ، وبالمقابل لابد أن يذكر من تمسك بالدنيا و لم يدخل الإسلام قلبه لأنه ثابت على ذلك .. وخاصة أن الآية وردت في أغنياء قـــريش الذين فضلوا الدنيا وأنفوا من اتباع الحق لكي لا يتخلوا عن زينة الدنيا .

---

1 - الكهف:28

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كما ورد في السياق البعدي ما يؤكد على قرار (القلب) في نظمهـا وسـياقها وحال من وردت فيه الآية . حيث ورد فيه قوله (إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً) والشرك ظلـم ووصف المشركين بالظالمين فيه دلالة على تمكن هذا الشرك من قلـوبهم حـتى وصـفوا بالظالمين والظلم تجاوز في الحد لا يكون إلا ممن تمكن الكفر والشرك منه وهذا لا يكـون إلا في القلب ، كما إن لهجة التهديد (فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ) تلائم حال من عتى وتمسك بظلمه وهذا الحال ملائم للقلب ، كما عمد السياق إلى ذكر طوائـف مـن الكفار بلغت مبلغاً موغلاً في الكفر فمنهم المجرمون ومن جُعل على قلوبهم أكنة ، والذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكر الله ، فكل هؤلاء ثبتوا على كفرهم كما ثبت مَنْ ذُكـر في نظم الآية عـلى كفره وحبه للدنيا فكان عقابه على مركز ثباته على الكفر وهو القلب .

و نظم الآية ذاتها يرشح لاستعمال " القلب " حيث قال تعالى ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً**﴾ . حيث إن المقابلة بين من أوصى الله رسوله أن يصبر نفسه معهم وبين من نهاه عنهم تؤكد أن من يجب أن يصبر الرسول- ﷺ - نفسه معه (يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ) أي دائمين على الدعاء في كل وقت(1) ، وقيل المراد صلاة الفجر والعصر وخصتا بالذكر لأنهما وقـت الشغلة . وقد عبر عنهم بالموصول للإيماء إلى تعليل الأمر بملازمتهم ، أي لأنهـم أحريـاء بذلك لأجل إقبالهم على الله فهم الأجدر بالمقارنة والمصاحبة(2) . وأيضاً لأنهم تميزوا بذلك وكان هذا الوصف أشهر ما عرف فيهم . وهذه الملازمة للدعاء والإقبال على الله دليـل على ثبات إيمانهم وقوته وتمكنه التي لا تكون إلا في القلب ، فمن يقابل هؤلاء في النـهي عنهم يلزم أن يكونوا بالمقابل على ثبات شديد على ظلمهم فيلزم أن يرد معهم القلب .

---

1 - الكشاف عن غوامض التأويل وعيون الأقاويل : 580/3
2 - التحرير والتنوير : 55/15

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كما إن القرآن بين أن سبب هذا الدوام في الدعاء(يريدون وجهه) وهذا تعبير عن الإخلاص بل دوام الإخلاص والاجتهاد فيه حيث ورد بالمضارعة (يريدون) ففي دلالة الاستمرار دلالة على اجتهادهم وحرصهم على الفوز برضا الله خاصة . والإخلاص لا يكون إلا في القلب ، وحال من يقابل هذا الحال ينافي هذا الإخلاص منافاة ثابتة في قلوبهم ، كما إن الآية ذكرت (وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) دليل على تعلق قلوب المشركين بزينة الدنيا تعلقاً قوياً فتقابل قلوب المؤمنين المخلصين قلوب المشركين المتعلقة بالدنيا . والقوة في الآية الظاهرة من خلال الأمر للرسول- ﷺ - بـ(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ..) والنهي (وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ) وهو - ﷺ - لا يمكن أن يطيع من فضل زينة الدنيا ولكنه - ﷺ - حرص على هدايتهم ،دليل على تعمق الكفر في قلوبهم حيث أغفل الله قلوبهم عن ذكره لذا حذر الرسول من إطاعتهم أو الحرص عليهم ، واستعمال صياغة النهي (لا تطع) دليل على تأبيد عدم الإطاعة مطلقاً لمثل هؤلاء وهذا دليل على ثبات قلوبهم على ما هم عليه وعدم رجوعها وهذا ملائم للقلب لا لغيره .

وقد عبر عن هذه الفئة من المشركين باسم الموصول (مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ) وذلك لبيان الصفة الخاصة التي كان من أجلها النهي عن إطاعتهم، في حين أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يمكن أن يطيعهم ، وفي ذلك تهيج لهمة الرسول - ﷺ - ، إن دلت على شيء دلت- كما سبق أن ذكرت- على مدى ما وصلت إليه قلوبهم من الكفر العميق الذي لا يمكن أن يغير . وخص قلوبهم هنا بالإغفال دون غيره من الصفات مناسب لحالهم المتمسك بالدنيا والذي دعاهم إلى الإشراك ، كما إن ما في سياق السورة عموماً من قصة أهل الكهف الذين تركوا الدنيا من أجل الدين ، وضرب المثل لزوال الدنيا من خلال أصحاب الجنتين ، وتشبيه الحياة الدنيا بالماء الذي اختلط بنبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح ، تركيز على زخرف الدنيا الزائل والذي أطغى بعض المخذولين فكانت الغفلة ملائمة هنا لمناسبة الانشغال بالدنيا .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والإغفال ملائم للقلب وثباته حيث إنه من خلال استقراء مواضع الغفلة في القرآن(1) تبين أنها لا تكون إلا في مواضع الآيات ماثلة أمام من يغفل عنها ومع ذلك لا يدركها فهذا دليل على أن السبب انعدام الإدراك في القلب. ولم ترد بصيغة (الفعل) إلا في هذا الموضع فقط وموضع النساء ولكن اختص هذا الموضع بكونه عقاباً وقع على مستحقيه (أغفلنا) وورد بصيغة (أفعل) وهي أدل على قوة الفعل وتمكنه وعمده إلى ما توجه له وزاده قوة إضافته إلى (نا) العظمة.

والغفلة بمعنى السهو يعتري الإنسان من قلة التحفظ والتيقظ(2) وهذا السهو خلقه الله وجعله في قلوبهم فهو أدعى إلى تمكنه وثباته في قلوبهم ، كما إن غفل الشيء بمعنى ستره وهذا أيضاً ملائم للقلوب الكافرة حيث سترها الله عن ذكره والغفل هو المكان الخالي أو المهمل ، والإغفال : الموات(3) ، وكل هذه المعاني للغفلة دالة على استعمالها في تمكن السهو حيث يستر به القلب فيصبح خالياً ومواتاً ، فتضافر هذه المعاني يؤكد قوة الغفلة فيلائم هذه القوة أن توجه للقلب خاصة فكيف إذا كان من أغفل هذه القلوب هو الله جل وعلا ؟ فهذا أدعى لتمكنه .

والمراد بإغفال القلب جعله غافلاً عن الفكر في الوحدانية حتى راج فيه الإشراك وذلك ناشئ عن خلقه عقول ضعيفة التبصر مسوقة بالهوى والإلف وأصل الإغفال : إيجاد الغفلة ، وأريد بها هنا غفلة خاصة ، وهي الغفلة المستمرة المسلطة من الله تعالى إما بطبع لا يتخلف أو بغيره ، وقد اعتضد هذا المعنى بجملة "واتبع هواه" فإن اتباع الهوى يكون عن بصيرة لا عن ذهول (4) .

وورود "اتّبع" بالتشديد دليل على تقصي الهوى واتباعه كله ، كما يدل على تعمد الاتباع للهوى والدوام عليه ، والعطف بالواو دال على استقلال الحكم هنا وهذا الاستقلال تأكيد أيضاً على سوء حالهم وعمق كفرهم الملائم للقلب (وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً) في زيادة فعل الكون دلالة على تمكن الخبر من الاسم ، أي

---

1 - ينظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن : محمد فؤاد عبد الباقي ,القاهرة,دار الحديث,ط3, 1411هـ-1991م : مادة غفل : 638، 639.

2 - المفردات في غريب القرآن: 328

3 - لسان العرب: 32774/5 4- التحرير والتنوير : 56/15 بتصرف يسير

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حالة تمكن الإفراط والاعتداء على الحق ، والإفراط التقدم في الأمر وهو تقديم العجــز ، أمره مفروط أي متروكاً ترك فيه الطاعة وغفل عنها(1) وقال صاحب المفــردات إســرافاً وتضييعاً(2) . وهذه التفصيلات التي وردت في حال هؤلاء المشركين دليل علــى تمكــن الكفر والشرك في قلوبهم فاجتمعت عليه غفلة في القلب واتباع للهوى ، وتفريط في الأمر وكلها دائمة عليهم ..

ونلاحظ في عموم الآية تعبيرها عن أصحاب الحق بــ (الــذين ..) وأصــحاب الباطل بــ (من) وفي ذلك عناية بشأن المؤمنين ففي التعبير عنهم (بالذين) دلالة على أنهم معروفين بعكس دلالة (من) التي فيها من الإبهام الذي فيه إهمال لشأن الكافرين ، و الجمع فيه قوة وتعظيم لهم في حين أن التعبير المفرد عن الكافرين فيه إهانة لهم ، و فيه دلالة على قوة التمكن منهم حيث كانت قلوبهم قلباً واحداً أغفله الله إغفالاً واحداً وشملهم جميعــاً بذلك وهذا أدل على قهره لهم وبالتالي تمكن هذا القهر منهم وفي ذلك ملاءمة للقلوب . ـوالله أعلم ـ.

ومما وصف به الكافرون وصفهم بأن قلوبهم لاهية حيث قال تعــالى: ﴿لاهِيَــةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَــأْتُونَ الــسِّحْرَ وَأَنْــتُمْ تُبْصِرُونَ﴾(3) فوردت هنا لفظة القلب دون سواها ، فلم يُستعمل الفؤاد مثلاً على الــرغم من أن اللهو فيه ضعف واضطراب بل وردت القلب وذلك لمناسبتها للنظم والسياق .

أما السياق فلاءم أن يوصف القلب باللهو دون الفؤاد لأن السياق يتحدث عــن يوم القيامة ووردت تسميته هنا بالحساب لأن الحساب هو الكاشف عــن حــال المــرء فالخوف من ذكره أعظم(4) فحين يوصف القلب باللهو في حين أن الأولى به الخوف لأن السياق سياق تهديد وحساب فهذا دليل على تمكن اللهو والإعراض منه بحيث لم يعد يؤثر فيه بل يسهو عنه ويلهو .

---

1 – لسان العرب : 3390/5

2 – المفردات في غريب القرآن : 379

3 - الأنبياء : 3

4 - التفسير الكبير : 120/8

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والسياق القبلي يؤكد هذا التمكن من قلوبهم حيث عبر أولاً عن قرب الحساب بصيغة الافتعال إشارة إلى مزيد القرب وأخر الفاعل(لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ) تهويلاً لتذهب النفس في تعينه كل مذهب(1) فلو لم يكن كفرهم متأصلاً في نفوسهم وعميقاً في قلوبهم لكان حالهم غير الحال التي ذكرها لهم (وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ) حيث وصفهم بأمرين الغفلة والإعراض : أما الغفلة فالمعنى أنهم غافلون عن حسابهم ساهون لا يتفكرون في عاقبتهم مع اقتضاء عقولهم أنه لا بد من جزاء المحسن والمسيء ثم إذا انتبهوا من سنة الغفلة ورقدة الجهالة مما يتلى عليهم من الآيات والنذر أعرضوا وسدوا أسماعهم(2)فأخبر عنهم بخبرين ظاهرهما التنافي ، لأن الغفلة عن الشيء والإعراض عنه تتنافيان ولكن يجمع بينهما باختلاف حالين(3) وهذين الحالين لا يمكن أن تكون نابعة إلا من تمكن الكفر في قلوبهم .. كما إنه عبر عن كلا الحالين لهما بما يدل على الثبوت فعبر أولاً بالجملة الاسمية (هُمْ فِي غَفْلَةٍ) ثم عبر باسم الفاعل الدال أيضاً على الثبات (معرضون) وهذا كله مرشح لأن يكون اللهو في القلب دون سواه .وفي تنكير(غفلة)دليل على ذلك سواء دل تنكيرها على التعظيم فالغفلة عظيمة أو على العموم فالغفلة عامة وكلا المعنيين ملائم لحال هؤلاء الكفار وملائم لاختيار لفظة القلب.وفي دلالة (في) على الظرفية دلالة على شدة تمكن الوصف منهم فكأنها و دعاء لهم وهم غافلون أشد الغفلة حتى كأنهم منغمسون فيها أو مظرفون في محيطها ؛ ذلك أن غفلتهم عن يوم الحساب متأصلة فيهم بسبب سابق كفرهم(4)، كما إن في ذكر النظم حالهم مع الذكر بطريق القصر - وهو هنا قصر حقيقي- بأنه لا يأتيهم أي ذكر (إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ) دلالة على تمكن الكفر منهم وكون اللهو والغفلة واللعب دائمة فيهم فحالهم مقتصر على ذلك لا يخرج عنه ؛ ولذا وصف الذكر بـ (محدث) فمهما تكرر أو تجدد نزوله فحالهم معه واحد لا يتغير .

---

1 - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : 15/5

2 - التفسير الكبير : 120/8

3 - رصف المباني في شرح حروف المعاني : 388

4 - التحرير والتنوير : 9/17

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فقرر إعراضهم عنه تنبيه المنبه وإيقاظ الموقظ : بأن الله يجدد لهم الـذكر وقتـاً فوقـت ويحدث لهم الآية بعد الآية والسورة بعد السورة ، ليكرر على أسماعهم التنبيه والمـواعظ لعلهم يتعظون ، فما يزيدهم استماع الآي والسور وما فيها من فنون المواعظ والبصائر إلا لعباً وتلهياً(1) . وبين حالهم بالجملة الاسمية (وهم يلعبون) مقدماً المـسند إليـه تقويـة للحـكم ، وكل ذلك يلائم ثبات القلب وتمكنه.

وفي السياق البعدي تأكيد على قرار اللفظة في سياقها فأقوالهم التي تنتقل من قول إلى أسوأ منه ، فمن اتهامهم الذكر بأنه أضغاث أحلام إلى أنه افتراء إلى قولهم بأن الرسـول شاعر هذا دليل على ترقيهم في الكفر ترقٍ يدل على تمكن كفرهم وتعمقه تعمقاً لا يكون إلا في القلوب .

وفي قوله تعالى : (مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ) في إنكار إيمان من كان حالهم أقل من حال هؤلاء ولم يؤمنوا ، وفي الاستفهام الإنكاري الـذي يؤكـد استحالة إيمانهم فهم أنكى حالاً وأشد كفراً ممن سبقهم ، تأكيد على قرار القـلب في مكانها .

ثم يأتي النظم مؤكداً على قرار اللفظة في مكانها حيث بدأ ببيان حال قلوبهم باسم الفاعل الدال على الثبات (لاهية قلوبهم) ووصف قلوبهم باللهو هنا خاصة قدم له السياق القبلي (في غفلة) و (معرضون) (استمعوه وهم يلعبون) فهذا الإعراض وتلك الغفلة وذلك اللعب إنما هو ناتج عن لهو الأساس وهي القلوب وخاصة ـ كما سبق ـ أن السياق في بيان اقتراب الحساب ، وحين ننظر إلى معاني اللهو نجد أن فيه ثبات وتمكن يلائم القلـب فبالإضافة إلى صيغته الدالة على الثبات ، فمعناه أيضاً يدل على قوة في الانشغال تكـون مستقرة في قلوبهم ، فاللهو ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه ، ساهية مـشتغلة بمـا لا يعنيها(2) ولا يمكن أن ينشغل الإنسان إلا بشيء متمكن ثابت نابع عن قناعـة وهـذا لا يكون إلا في القلب . ولهى : بمعنى أنس بالشيء وأعجب به ، ولا يكون الأنس بالـشيء إلا إذا طالت الاستكانة له ، والتلهي بالـشيء التـعلل به والتمـكث بـه.

---

1 - الكشاف عن غوامض التنزيل وعيون الأقاويل: 126/4

2 - المفردات في غريب القرآن : 458

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويقال : تلهيت بكذا أي تعللت به وأقمت عليه و لم أفارقه(1) . كما إن استعمال النظم لهذه اللفظة يدل على أن ما يسبب هذا اللهو مما يشغل تماماً كالولد والمال والحياة الدنيا والأمل فكلها أمور شغلها دائم وطويل وشغلها يسكن القلب و لم يرد بصيغة اسم الفاعل ويكون حالاً للقلوب إلا في هذا الموضع لأن حال هؤلاء المشركين بعدما تقدم من التحذير من الحساب يلائمه وصفه باللهو خاصة .. وقد قدم لاهية على قلوبهم فجعل القلوب معمول لاسم الفاعل وقد يكون من باب نسبة الفعل للجارحة حيث ذكر القلب خاصة أو من التعبير عن البعض بالكل .. وأرجح أن الأول أولى وأدل على شدة لهوهم وعظيم أثره بالإضافة إلى أن ذلك أدخل في ذمهم حيث إن محل التفكر والاعتبار وأساس الصلاح فيهم لاه فهذا أدل على عدم إمكانية صلاحهم وأن اللهو متأصل فيهم وفي إضافة القلوب لضميرهم جعل هذه القلوب خاصة بهم دون غيرهم وفيه إشارة أيضاً لهوان شأنهم بالتعبير عنهم بالضمير الغائب وقيل في (لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ) إما حال آخر من فاعل استمعوه أو من واو يلعبون . والمعنى ما يأتيهم ذكر من ربهم محدث في حال من الأحوال إلا حال استماعهم إياه لاعبين مستهزئين به لاهين عنه ، أو لاعبين به حال كون قلوبهم لاهية عنه لتناهي غفلتهم وفرط إعراضهم عن النظر في الأمور والتفكر في العواقب(2) ، والثاني عندي أولى لِما تقدم .

ثم أخبر عنهم بأنهم بالإضافة إلى هذه الأوصاف التي تدل على تمكن كفرهم (وَأَسَرُّوا النَّجْوَى) حيث ذكر ما يظهرونه في حالة الاستماع من اللهو واللعب ثم ذكر ما يخفونه من التشاور في الصد عنه(3) فذكر ظاهر فعلهم وخافيه أدخل في ذمهم حيث فعلهم سراً وإعلاناً لا يخرج عن الاستهزاء واللهو لذا استعمل معهم (القلب) لدوام ذلك لهم وثباته في حالهم وكون اللهو متأصلاً فيهم ، وعبر عنهم بالموصول (الذين ظلموا) وقد يكون بدلاً إشعاراً بأنهم هم الموسومون بالظلم

---

1 - لسان العرب : 4089/6 ، 4090

2 - تفسير أبي السعود : 322/4

3 - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : 15/5

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفاحش فيما أسروا به وقد يكون خبراً لمبتدأ محذوف فمبتدأ الخبر محـذوف. أو فاعل لأسروا(1) والوجهان الأولان أرجح عندي في الدلالة حيث في الإبدال بيان أنهم هم دون سواهم الذين أسروا النجوى ، وفي كونه خبراً لمبتدأ محذوف دلالة اختصاصهم بالظلم وكلا الوجهين أدل على ذلهم وآكد في الدلالة على مدى ما وصلوا إليه من الكفر .. حيث إن في التعبير بالموصول إيحاء إلى سبب تناجيهم ، وللنداء على قبح ما هم متصفون به ، والنجوى لا تكون إلا سراً ولكن عبر بأنهم أسروها للدلالة على مبالغتهم في إخفائها ، أو جعلوها بحيث لا يفطن أحد لتناجيهم ولا يعلم أنهم يتناجون(2) وما ذلك إلا لما وقر في قلوبهم من الكفر . كما إن في استفهامهم دليل سخرية يؤكد على قرار اللهو والاستهزاء في قلوبهم وتأصله منهم فكون الرسول بشراً ليس بدعاً من الأمر بل كل من سبقه كانوا بشراً ولكن عميت قلوبهم واتهامهم له بالسحر أنكى من سابقه فهم يعلمون يقيناً بخلق محمد ـ ﷺ ـ. وفي قولهم (وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ) دلالة على لهو قلوبهم وغفلتها فلولا ذلك لأبصروا الحق وما داموا يدعون أنهم لا زالوا (يبصرون) فماذا أبصروا ؟ إذن البصر أبصر ما لا يعنيه وما لا يفيده لأن محركه (القلب) تلهى أيضاً عما يعنيه فأثر في الجوارح .

وفي قوله تعالى : ﴿**بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ**﴾(3) ، ورد القلب في بيان صفة الكافرين دون غيرها وذلك لملاءمتها للسياق والنظم ، فالسياق قبلها كان في وصف المؤمنين وقد ركز النظم على وصف قلوبهم ووصفها بصفات تدل على كمال إيمانهم وقراره وثباته في قلوبهم وبالتالي حين يقابلهم بمن هو ضدهم لا بد أن يكون الحديث عن قلوبهم دون سواها.

فقال النظم (بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا) بدأ بالإضراب لأنهم لم يخشوا ربهم كالمؤمنين و لم يؤمنوا بآياته و لم توجل قلوبهم من ربهم و لم يسارعوا في الخيرات بل كانوا خلاف ذلك كله "فقلوبهم في غمرة" .

---

1 - التبيان في إعراب القرآن : 262
2 - التحرير والتنوير : 9/17
3 - المؤمنون : 63

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فورود القلوب دقيق هنا فالأعمال السابقة أعمال قلوب عملتها قلوب المـــؤمنين وأعرضت عنها قلوب الكافرين هذا أولاً .

ثانياً : وصف القلوب بـــ "في غمرة" فبدأ بفي فهي أصبحت وعاء للغفلة وهذا دليل على تمكن ولزوم الغفلة فلاءم أن تكون في القلوب .

ثالثاً : ورود "غمرة" وأصل الغمر إزالة أثر الشيء ، والغمرة معظم الماء الـــسائرة لمقرهـــا وجعل مثلاً للجهالة التي تغمر صاحبها(1) وفي الغمرة دلالة الطمس والتغطية حيث فيهـــا معنى الكثرة والانغماس في الشيء وكل هذه الدلالات تلائم القلـــب لأن فيهـــا تمكـــن ولـــزوم . وكون هذه الغفلة "من هذا" من الأعمال الصالحة الظاهر خيرها أو من الذكر البين خيره أيضاً دليل على أن الغفلة طالت الأساس في الأعمال ألا وهو القلب .

رابعاً : في ترقي النظم بقوله:(وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ) بأن قدم المجرور دل على الاختصاص أي لهم أعمال لا يعملون غيرها من أعمـــال الإيمـــان والخـــيرات ، ووصف "أعمال" بجملة (هم لها عاملون) للدلالة على أنهم مستمرون عليهـــا لا يقلعـــون عنها ، وجيء بالجملة الاسمية لإفادة الدوام على تلك الأعمال وثباتهم عليها(2) ، والدوام واللزوم صادر عن قلوب مصرة على الكفر لا عن أفئدة متقلبة .

ونلاحظ ما ورد في السياق البعدي من التهديد والعذاب والوصف لهؤلاء الكفار بالاستكبار وعدم التدبر ، وإنكارهم للرسول _صلى الله عليه وسلم _وهو منهم واتهامهم له بتهم هم أعلم من غيرهم أنها ليست فيه كل ذلك دال على تمكن الكفر في قلوبهم وإلا لما قالوا ذلك . فكل ما صدر عنهم كان نتيجة الغفلة التي غلفت قلوبهم وغمرتها .

---

1 - المفردات في غريب القرآن : 367

2 - التحرير والتنوير : 66/18

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي سياق أحوال الكافرين ذمهم القرآن بأن ما دعاهم إلى عتوهم وكفرهم إنما هي حمية الجاهلية وأورد القرآن القلب ليجعله محلاً لهذه الصفة الذميمة وتأكيدا على تمكنها من قلوبهم وذلك في قوله تعالى في سورة الفتح ﴿**إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً**﴾(1) .

واللفظة قارة في سياقها حيث نصت آيات السورة في أغلبها على القلوب (أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ) ، (يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ) , (وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ) ، (فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ) لتبين لنا عنايتها بالكشف عن الدور الحاسم لهذا الجانب في العقيدة والسلوك ، ويتضح لنا أهمية ذلك في سورة كشفت عن معتقد الكافرين والمنافقين ، وهو معتقد نبع الخلل فيه من القلب وفساده وعنيت السورة كذلك ببيان اصطفاء المؤمنين وظفرهم بعطايا الله ونعمه ، ومرد ذلك الفضل وصلاحه القلب ، فالقلب مناط العمل وموطن تجلي العطايا والهبات أو سلبها(2) .

ويؤكد قرار اللفظة ما ورد في السياق القبلي القريب الذي دل على شدة الموقف في صلح الحديبية بين المؤمنين والكافرين وشدة تعصب الكافرين لكفرهم تعصباً يدل على تمكنه في قلوبهم وذكر السياق صفات للكافرين تدل على شدة كفرهم وتمكنه تمكناً لا يلائم إلا القلوب فهم "الذين كفروا" , " وصدوكم عن المسجد الحرام والهدي معكوفاً أن يبلغ محله " فصد المؤمنين عن دخول المسجد وهديهم معكوفاً دليل على شدة كفر من صدهم وعدائهم للإسلام عداءً كان منبعه قلوبهم ، كما يدل على قرار القلب في السياق والنظم مقابلة حمية هؤلاء الكفار بعظمة منة الله على المؤمنين وقوة قدرة الله في هذه النصرة وكذلك نص السياق البعدي على صفات المؤمنين التي تدل على كمال إيمانهم وشدتهم على الكفار فما يضادهم لابد أن يكون بلغ في الكفر مبلغاً كبيراً .وقد عبر السياق البعدي عن (الذين كفروا) بـ(الكفار) دون اسم موصول وفي هذا دلالة على لزوم كفرهم واكتماله في نفوسهم وتعمقه في قلوبهم .

---

1 - الفتح : 26

2 - محمد والفتح قراءة في جماليات البيان القرآني : د. طارق شلبي : 343

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي نظم الآية ذاتها ما يدل على قرار اللفظة في مكانها حيث بدأت بقوله تعالى : "إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ" بيان لوقت هذه الحمية ، وفيه أيضاً بيان لعلتها وهذه الدلالة تؤكد قرار القلب حيث إن في دلالة (إذ) على الوقت الذي جعل فيه الذين كفروا في قلوبهم الحمية تأكيد على قرار القلب وذلك لأن في هذا الوقت تجلت شدة كفرهم وعدائهم للإسلام شدة إنما نبعت من قلوبهم التي سيطر عليها الكفر وتغلغل فيها وجعل " إذ " ظرف متعلق بفعل (صدوكم) وتعليق الظرف بفعل (وصدوكم) مشعر بتعليل الصد لكونه حمية الجاهلية ليفيد أن الحمية متمكنة منهم تظهر آثارها فمنها الصد عن المسجد الحرام(1) . وهذا دليل على الترشيح لاستعمال القلب . كما إن في الجعل دلالة على اتصال هذا الجعل في قلوبهم وفي التصريح بالفاعل والتعبير باسم الموصول فيه دلالة أيضاً على قرار القلب في مكانها وذلك لأن داعيهم إلى هذه الحمية اتصافهم بالكفر والكفر لا يكون إلا من فساد القلب ولذا قدم (في قلوبهم) دلالة على أنه مناط العمل ومحور تصدر عنه الأفعال ومظاهر السلوك ، و في تقديمه دلالة على قوة هذه الحمية حيث كانت في القلب خاصة .. وجعل التعديةبـ (في) دلالة على تمكن هذه الحمية وتغلغلها تغلغلاً يناسب تمكن القلب وثباته . والصفة التي جعلها الكفار في قلوبهم تؤكد أيضاً على قرار القلب فهي الحمية والحمية : القوة العصبية إذا ثارت وكثرت يعبر عنها بالحمية (2) وتستعمل عموماً في بلوغ الشيء ذروته ، حميت الشمس بلغت شدة حرارتها ، حمى فلان أنفه ، وفرن ذوي حمية منكرة ، إذا كان ذا غضب وأنفة، حموة الألم سورته (3) وحميا الكأس سورتها وشدتها . ولا يبلغ الشيء ذروته إلا إذا تمكن وهذا ملائم للقلب . و في تعريفها باللام دلالة على أنها معهودة عندهم ومعروفة وخاصة لما عرف عن الجاهلين من العصبية فهي إذن صفة متمكنة فيهم .

---

1 - التحرير والتنوير: 165/26
2 - المفردات في غريب القرآن: 140
3 - لسان العرب 1016/2

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثم في قوله (حمية الجاهلية) بدل أو عطف بيان قصد من إجماله ثم تفضيله تقرير مدلولـه وتأكيده (1) كما إن في التكرار (الحمية حمية) تأكيد على ذلك وهذا التأكيـد علـى المدلول يلائم القلب . كما في تحديد هذه الحمية بأنها (حمية الجاهلية) تأكيد علـى قـرار لفظة القلب في نظمها فلا تكون الجاهلية إلا في شيء تجاوز حده في الجهل والكفر تجاوزاً يدل على تمكنه وقد استعمل القرآن هذا المدلول في مواضع يتعمق فيها التنفير من الكفـار وأعمالهم فكل المواضع التي وردت فيها الجاهلية انطوت على تكثيـف دلالي شـديد في التنفير ولا يكون ذلك إلا من شيء خطير يكون منبعه فساد القلب ويدل على ذلك تعبير القرآن بالجاهلية في الظن بالله غير ظن الحق (يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ)(2) وفي الاستنكار الشديد لحكم الجاهلية الذي ورد مقابلاً لحكم الله (أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ)(3) وفي ذكر الجاهلية في معرض صيانة السلوك عن مظاهر وآفات مذمومة ومعيبة (وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى)(4) . فكلها أمور تدل على أن فاعلها فاسد قلبه ولا شـك وهـذا الفساد متمكن فيه وكل ذلك دليل على قرار القلب في نظمها - كما سـبق - ، وقـد جعلها الله حمية جاهلية لأنها بغير حجة وفي غير موضعها لأن الرسول -ﷺ- لو جاءهم محارباً لعذروا في حميتهم ، وإنما جاء تعظيماً للبيت لا يريد حرباً(5) . وعلى الرغم من ذلك تعصبوا وصدوه وهذا دليل على تمكن كفرهم بل وشدته ، حيث إن مدار حميتهم مطلـق المنع سواء أكان بحق أو بباطل ، فتمنعهم من الإذعان للحق . وفي قوله تعالى بعد بيـان موقف الكافرين وصفة قلوبهم التي ملأها الكفر (فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى) بالفاء لا بالواو إشارة إلى أن ذلك كالمقابلـة وحينئـذ يكون فيه لطيفة إذ تدل على الترتيب والتعقيب ، فإذا تأملنا ما يوجد بين الطـرفين مـن تقـابل الدلالة اتضـح لنا حدة المفارقة التي تستحيل إلى مفاجأة للمتـلقي

---

1 - التحرير والتنوير : 65،26
2 - آل عمران: 154
3 - المائدة: 50
4 - الأحزاب: 33
5 - المحرر الوجيز : 466/13

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهو ينتقل من النفور النابع من حمية الجاهلية إلى الطمأنينة السابقة التي حلت بالرسول -ﷺ-وصحبة وقد أنزل الله عليهم السكينة . وهذا التقابل مؤكد على قرار القلب فقابل تمكن حمية الجاهلية القارة في القلب ، بالسكينة التي لا تكون إلا في القلب ، كما إنها من الله وهذا أدل على تمكنها فعظمة المنة بهذه السكينة العظيمة دليل على أنها مقابلة لكفر شديد .وفي التفضل على المؤمنين بـ(أَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى) دليل آخر فالإلزام دليل على لزوم الشيء وطول المكث ، ولزوم الشيء عدم مفارقته [1] وكون ما ألزموه (التقوى) دليل على أن المنة عظيمة والإلزام بما يرتقي بالقلب للوصول إلى كمال الإيمان حيث خص هنا التقوى بالذكر وفي كونها مقابلة لحمية الكافرين فهذا دليل على أن حمية الكافرين كانت متمكنة من قلوبهم فمكن بالمقابل السكينة والتقوى في قلوب المؤمنين وفي قوله (وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا) تكرار دفع الأذهان إلى معرفة زيادة تقدير الفارق بين كلمة التقوى من ناحية وحمية الجاهلية من ناحية أخرى . والآية من الاحتباك ذكر حمية الجاهلية أولاُ دليلاً على ضدها ثانياً ، وكلمة التقوى ثانياً دليل على ضدها أولاً [2] . ثم ختم الآية (وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً) وفي هذه الخاتمة دليل أيضاً على قرار القلب حيث علم الله ما في قلوب الكافرين فعذبهم بأن سكن قلوب المؤمنين وألزمهم التقوى . فعلم الله كان لما وقر في القلوب فحكم بالجاهلية على الكافرين بفعلهم وأنزل فضله على المؤمنين لما علم في قلوبهم من تقى وخير _والله أعلم_.

وفي قوله تعالى : ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [3] . وردت لفظة القلب دون غيرها والآية واردة في سياق تكذيب الكفار بيوم البعث وبما أنزل من الذكر من رب العالمين وهذا لا يصدر عن فؤاد مضطرب بل عن اعتقاد راسخ وهذا لا يكون إلا في القلب .

---

1 - المفردات في غريب القرآن : 453

2 - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : 212/7

3 - المطففين:14

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وحين نلاحظ السياق القبلي نجده يقرر هذه اللفظة فقد أورد من فعال هؤلاء ما يدل على رسوخ كفرهم وتمكنه في قلوبهم من تطفيف الميزان ، والتكذيب بيوم البعث والتجرؤ على وصف القرآن بأساطير الأولين ، كما إن القرآن وصفهم بـ(الفجار والمكذبين) وهذه صفات لا تكون إلا في القلب فهي دالة على بلوغ متصفها درجة شديدة من الكفر .

يدلنا على ذلك ورود الصفة باسم الفاعل" الفجار " المكذبين " ، " معتد " والمبالغة في " أثيم " كل ذلك دليل على اكتمال الصفة وهذا يدل على ثبوتها ورسوخها وهذا لا يكون إلا لعلة في القلب .

كما في شدة الوعيد الوارد في النظم دليل على ذلك أيضاً فلا يشتد الوعيد إلا لاشتداد كفرهم .

وفي نظم الآية ما يؤكد على قرار القلب حيث بدأ النظم بالزجر بـ(كلا) وبالإضراب بـ(بل) لبيان حقيقة الأمر الداعي إلى كفرهم وتكذيبهم فليس السبب الشك في يوم الدين أو أن ما يتلى عليهم أساطير الأولين فهذا حق بين لا ينكره إلا من " رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ " فاستعمل ران وفيها ترشيح للقلب فالرين : صدأ يعلو الشيء الجليل [1] وران بمعنى رسخ ، وران كل ما غلبك فقد ران بك ورانك وران عليك [2] فكل المعاني التي يدور حولها الرين فيها رسوخ وغلبة وثبات تناسب القلب هذا عموماً ،وتناسب النظم هنا لأن قولهم نابع عن رسوخ وغلبة الذنب على قلوبهم فكأنه ركبها كما يركب الصدأ وغلب عليها . وهو أن يصر على الكبائر ويسوف التوبة حتى يطبع على قلبه ، فلا يقبل الخير ولا يميل إليه. لذا قالوا عن الآيات أساطير الأولين وأكد هذا الرسوخ بالتعدية بـ(على) لما فيها من معنى الاستعلاء والغلبة وبجمع " قلوبهم " حيث دل على عموم الوصف فيهم فكأن هذا الرين أصبح سمة عامة لقلوب هؤلاء الكفار .

---

1 - المفردات في غريب القرآن : 214
2 - الكليات : 465

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي (ما) دلالة إبهام تدل على كثرة وعظمة ما كسبوا من الذنوب وهذه الكثـــرة والعظمة لا شك أن تورث عمى دائم عن الحق فعّلة الرين كـــسبهم ، ولـــذا أوردهـــا بالمضارعة فهذا الكسب مستمر متجدد منهم وكثرة الأفعال سبب لحصـــول الملـــــكات إن خيراً فخيراً وإن شراً فشراً فيتراكم الذنب على القلب فيسود [1] .

وفي استعمال الكون " ما كانوا " دليل على تأبيد هذا الوصف لهم فقـــد لـــزمهم سابقاً وهو ملازم لهم لاحقاً . وكل هذا اللزوم والتأكيد ملائم للقلب الثابت لا الفـــؤاد المضطرب .

وفيما ورد من عقاب لهؤلاء دليل على تمكن كفرهم فهم (عَـــنْ رَبِّهِـــمْ يَوْمَئِـــذٍ لَمَحْجُوبُونَ) ، (ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ) وما هذا إلا لما وقر في قلوبهم من كفر وتكذيب وعتو عن الحق .

---

1 - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : 359/8

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أما الفؤاد فلم ترد في أحوال الكافرين إلا في موضعين في سورة واحدة وهما في قوله تعالى:﴿**وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ**﴾[1] وقوله:﴿ **وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ** ﴾[2] وذلك لتساوقها مع السياق الذي يكشف عن تفاهة طلب الخوارق كما يكشف عن طبيعة المكذبين المعاندين التي لا تتخلف عن الإيمان لنقص في الآيات والدلائل ، ولكن الطبع فيها مطموس وملائمتها للمخبر عنهم وهم مشركو العرب الذين اضطربت أفئدتهم حيث يعلمون أن الله هو الرازق الخالق ومع ذلك يشركون به ولا يوحدونه بالعبادة . فقال تعالى معبراً عن حالهم : ﴿**وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ**﴾ فعبر النظم عن اضطرابهم في اعتقادهم بـ (نقلب أفئدتهم) وقد رشح لاختيار هذا العقاب الملائم لحالهم السياق القبلي فتقليب الأفئدة له ارتباط بجعلهم لله شركاء وبنين وبنات وهم يعلمون أنه هو خالقهم ورازقهم وهذا تقلب واضطراب يكون في الأفئدة لا القلوب ، كما إنه صرح بهذا الاضطراب بقوله (بغير علم) فلا أساس ثابت لما ادعوه وكرر ذلك (وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ) ،(فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ) كما يظهر جلياً جهلهم واضطرابهم في نسبهم لله -جل وعلا – الولد ، وهم لا يدعون له صاحبة ، وفي قولهم للرسول- ﷺ - أنه درس ما يذكرهم به من الآيات وهم يعلمون أنه أمي ، كما يظهر واضحاً في التقابل بين (فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ)، (وأقسموا بالله) فهم إن سبت آلهتهم لا يتورعون عن سب الله ـــ جل وعلا ـــ وهم في ذات الوقت يقسمون به فأي اضطراب هذا . والتقليب بمعناه اللغوي ملائم لأفئدة المشركين فقلب الشيء صرفه عن وجه إلى وجه كقلب الثوب وقلب الإنسان أي صرفه عن طريقته وتقليب الله القلوب والبصائر صرفها من رأي إلى رأي[3] حيث كانوا يؤمنون بأن الله هو الرازق وكان حرياً بهم أن يوحدوه وهم يؤمنون بوجوده وكونه ـــ سبحانه ـــ خالق للسماوات والأرض وغير ذلك .

---

1 - الأنعام : 110

2 - الأنعام : 113

3 - المفردات في غريب القرآن : 411،412

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولكن قلب الله أفئدهم المضطربة حيث لم تنكر وجوده وفي ذات الوقت لم توحده، والتقليب لأفئدهم ملائم لقسمهم بأنه لو جاءهم الرسول بآية لآمنوا.. فعدم إيمانهم ليس لقلة في الدلائل بل لانعدامه من كوامن أنفسهم فالله صرفهم وقلب قلوبهم فالإيمان ليس ملك أيديهم متى ما شاءوا آمنوا بل هو بمشيئة الله _جل وعلا_ "مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ" .

وفي النظم طرق عدة توصل إلى إيحاءات في ذكر تقليب أفئدة المشركين خاصة : فإن نظرنا إلى طلاقة القدرة نجد أن "وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ .." متساوق مع طلاقة القدرة المذكورة في الآيات ففالق الحب والنوى ومخرج الحي من الميت وخالق الإصباح و .. و.. غلبت قدرته قلوب المشركين الذين أقسموا على إيمانهم إن جاءهم آية فأتاهم الله من حيث وثقوا وكانت قلوبهم المعاندة أمام قدرة الله مجرد أفئدة مضطربة يقلبها كيف يشاء . ودل على هذه القدرة التركيب في نظم الآية حيث قال (نقلب) بالمضارعة وباستعمال صيغة "نفعّل" الدالة على كثرة فعل هذا الفعل وفي المضارعة دلالة على تمكن قوة الله من أفئدهم فالأفئدة ليست في متناول أحد سوى الله وهي كامنة في الصدور ، ومع ذلك فالله يقلبها كيف يشاء .ولذا لم تؤمن أولاً حتى تؤمن آخراً دل على ذلك " كما لم يؤمنوا به أول مرة " فهم لم يؤمنوا أولاً بالقرآن فكيف يؤمنون بعد ذلك فالله قد صرف قلوبهم أصلاً عن الإيمان . وفي استقراء النظم القرآني في (قلب) خرجتُ بأن المواضع التي نسب هذا الفعل لله كانت مواضع دالة على القدرة والإعجاز فمنها هذا الموضع ، ومنها قوله (ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال) في قصة أصحاب الكهف ، وقوله (ويوم نقلب وجوههم في النار) .

وفي تقلب أفئدهم دلالة على حال المشركين المضطربين في اعتقادهم حيث في (نقلب) إشارة إلى الحيرة والتردد وهذه الحيرة ملائمة للفؤاد .. وفي ذلك مدخل لأن يكون النظم على ذمهم ، وكذلك السخرية من قلوبهم التي ما هي إلا أفئدة مضطربة لا قرار لها ، كما إنها ضعيفة لعدم علمها ، وفيه إهمال وتحقير من شأن هذه الأفئدة حيث تحدث عنهم بضمير الغائب (أفئدهم وأبصارهم) لإهمال شأنهم ، ودل على هذا الإهمال الذي يلائم أن تكون أفئدهم ضعيفة قوله (ونذرهم) ففي هذا الفعل دلالة على تركهم بإهمال .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد ورد فعل التقلب مع القلوب (تتقلب فيه القلوب والأبصار) وهنا ورد مع الأفئدة وسبق أن ذكرت أنه إنما تقلب القلوب حينما كان السياق في اليوم الآخر وكل شيء في ذلك اليوم يتبدل فكيف بالقلوب ، فالتقلب تحول وتردد لا يلائم إلا الأفئدة ولكن حين يكون السياق في اليوم الآخر فكل شيء لم يعرف في الدنيا يصدق حصوله يوم القيامة . فالأفئدة هنا ملائمة للسياق وللنظم فالتقلب كما ذكرنا فيه دلالة حيرة واضطراب ملائم للفؤاد وقدم تعالى ذكر تقليب الأفئدة على تقليب الأبصار ، لأن موضع الدواعي والصوارف هو القلب ، فإذا حصلت الداعية في القلب انصرف البصر إليه شاء أم أبى ، وإذا حصلت الصوارف في القلب انصرف البصر عنه ، فهو وإن كان يبصره في الظاهر إلا أنه لا يصير ذلك الإبصار سبباً للوقوف على الفوائد المطلوبة[1] .

ويظهر لي أن لتقديم الفؤاد وجه آخر حيث في ذلك رد على قسم هؤلاء المشركين الذين ربطوا إيمانهم بأبصارهم ــ حين طلبوا رؤية معجزة مرئية بالأبصار ــ بأن الإيمان كامن في القلب وما البصر إلا تابع له ، فإذا صرف القلب عن الإيمان فكيف يقسمون بأنهم سيؤمنون له تبعاً لما يبصرون ؟! فليس عدم إيمانهم قلة معجزات ، لا بل لأن قلوبهم أصلاً مصروفة عن الإيمان وليس داعي الشرك فيها تقليباً عن حالة كانت صالحة لأنها لم تكن كذلك حيناً ، ولكنه تقليب لأنها جاءت على خلاف ما الشأن أن تجيء عليه .وقوله (نذرهم) وعطفه على (نقلب) يحقق أن معنى (نقلب أفئدتهم) نتركها على انقلابها الذي خلقت عليه فكانت مملوءة طغياناً ومكابرة للحق ، وكانت تصرف أبصارهم عن النظر والاستدلال ولذلك أضاف الطغيان إلى ضميرهم (طغيانهم) للدلالة على تأصله فيهم ونشأتهم عليه وأنهم حرموا لين الأفئدة الذي تنشأ عنه الخشية والذكرى[2] . ولذا فالأولى أن الجملة معطوفة على "لا يؤمنون" ، ويدلنا على ملاءمة الأفئدة للنظم قوله (كما لم يؤمنوا به أول مرة) فهم لشدة اضطراب قلوبهم وحيرتها لم يؤمنوا أصلاً لا أولاً ولا آخراً كما إنهم لن يؤمنوا (ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله) والله شاء أن يقلب قلوبهم .. (وأن يذرهم في طغيانهم يعمهون) .

---

1 - التفسير الكبير : 115/5

2 - التحرير والتنوير : 274/6

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كما يلائم الأفئدة قوله (يعمهون) فالعمه التردد في الأمر والتحير[1] ، ويقال أرض عمهاء : لا أعلام بها ، وكذلك كانت أفئدة المشركين متحيرة مترددة لا أعلام بها تسير بها إلى الهدى .. وقيل العمى عام في البصر والرأي والعمه في الرأي خاصة[2] .

وفيما ورد في السياق البعدي تأكيد على اضطراب يلائم الأفئدة ويلائم حال المشركين. فلو أنزل الله الملائكة ولو كلمهم الموتى ولو حشر عليهم كل شيء قبلاً ما آمنوا وهذا دليل على تمكن التقليب من أفئدتهم ودوامه عليها ولذا تصغى لزخرف القول وتترك الحق وما ذلك إلا لشدة ضعفها وتعلقها بكل ما هو واهن يزيدها ضعفاً وخوراً .

وقال تعالى:﴿ **وَلِتَصغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ**﴾

ووردت الأفئدة هنا فآثار زخرف القول واقعة عليها خاصة لأنها هي سبب شركهم وميلهم مع الباطل وقال هنا (لتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة) و لم يقل كما قال في شأن أزواج النبي _صلى الله عليه وسلم_ (فقد صغت قلوبكما) فاستعمل هنا الأفئدة لأنها الملائمة لحال المشركين العرب خاصة ولمن كفر بيوم القيامة عامة فلا يكفر ولا يشرك بالله إلا من كان في قلبه ضعفاً يوهنه فلا يوصف إلا بكونه فؤاداً مضطرباً لا قلباً ثابتاً وأسباب ضعفها عدم العلم اليقين، والإيمان بشيء والكفر بشيء آخر وهذا اضطراب ، أما في شأن أزواج النبي فاستعمل معهن القلب لأن في قلوبهم من الإيمان ما يجعلها راسخة رسوخ الجبال ولكن لمترلتهن العظيمة فهن محاسبات على خطرات قلوبهن و لم تستعمل "صغى" في القرآن الكريم سوى في هذين الموضعين ، والصغي ميل يكون حسياً ويكون معنوياً وهو أقل من الزيغ لذا استعمل الزيغ في القلوب والصغي مع الأفئدة باستثناء موضع "الطلاق" وليس لأن ميل المشركين قليل لا بل ميلهم عظيم ولكن لأن أفئدتهم نفسها ضعيفة وليست في القوة والثبات كقلوب المنافقين فحالهم أقل من حال المنافقين فكانت الأفئدة ملائمة معهم وكان الصغي ملائماً مع الأفئدة ، والصغي من أعمال القلوب .

---

1 - المفردات في غريب القرآن : 351 , لسان العرب : 3114/4
2 - الكليات : 652

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كما إن التركيب (ولتصغى إليه أفئدة ..) ملائم للسياق قبله حيث إن سبب هـذا هين وضعيف ووهم مضطرب ، فهو "زخرف القول" وهو يوحي إيماءً ومع ذلك تميل إليه أفئدهم فالسبب ضعيف ولا تميل إليه إلا أفئدة ضعيفة مثله ولأناس ضعاف في حـالهم ، مضطربين في اعتقادهم ، كما إن أفئدتهم مقلبة تميل إلى الباطـل ، ويغرهـا ويخـدعها "زخرف القول" وزخرف القول هو المزين المموه الذي يخدع ظاهره ، وهو في حقيقتـه مهلك فكيف يستحوذ على اهتمام المشركين إلا لأن أفئدتهم مضطربة مترددة ضعيفة وفي الصغي معنى نقص الحظ[1] . وهذا ملائم للأفئدة حيث نقص حظها من الثبات فمالت إلى الباطل.والتعبير عنه بالمضارعة الدالة على الاستمرار والتجدد دلالة على حبـهم لـذلك وحرصهم على الميل لزخرف القول لما يوافق من هوى في أفئدتهم وبالتالي تعمقهم يومـاً عن يوم في الضلال ، ويدل على ذلك ترقيهم " ولتصغى ، وليرضوه ، وليقترفوا .. " وقال في النظم (إليه) ولم يقل "منه" ، أو له وكأن أفئدتهم لشدة اضطرابها وترددهـا تـشتاق لزخرف القول لتصغي إليه ، وهذا دال على ضعف فيها حيث تـشتاق إلى الأوهـام المضللة .

ونلاحظ في النظم أنه قال: (أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة) فخص بذلك الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وهم المشركون ولكنه خص هذه الصفة من صفاتهم لأن في "الـصغي" دلالة على ميل الهوى لما يصغى إليه ، وكونه ميل لزخرف القول المخادع يلائم خاصـة قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة لأنه هوى والآخرة لا يفوز بها من اتبـع هـواه ولأن في زخرف القول تغليب للشهوات ومد للأمل يفرح به من لا يؤمن بـالآخرة . والآخـرة حقيقة يتعارض معها وهم زخرف القول وقيل : إنما خص بالذكر عدم إيمانهم بـالآخرة دون ما عداها من الأمور التي يجب الإيمان بها وهم بها كافرون إشعاراً بما هـو المـدار في صغو أفئدتهم إلى ما يلقى إليهم ، فإن لذات الآخرة محفوفة في هذه النشأة بالمكاره وآلامها قرينة الشهوات[2] .

---

1 - تفسير أبي السعود : 43/2

2 - الفروق اللغوية : 225

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

و لم يصغوا فقط بل رضوه والرضا من أعمال القلوب ولا يكون إلا بعد العمل أو في أثنائه(1) وهذا دلالة على ضعفهم فرضاهم به عن معرفة بأنه زخرف ووهم ولكن لأن أفئدهم مقلبة مالوا إليه ، واقترفوا من الآثام ما هم مقترفون .

ونلاحظ أن النظم كرر في عطفه اللام "وليرضوه" ، "وليقترفوا" وإن كان الصغي يقتضي الرضى ويسببه فكان مقتضى الظاهر أن يعطف بالفاء وأن لا تكرر لام التعليل فخولف مقتضى الظاهر للدلالة على استقلاله بالتعليل ، فعطف بالواو وأعيدت اللام لتأكيد الاستقلال ، فيدل على أن صغي أفئدهم إليه ما كان يكفي لعلمهم به إلا لأنهم رضوه(2) .ويظهر لي أن في تكرار اللام ملاءمة لطلاقة القدرة وتأكيد لها فكأن في إعادة اللام دلالة على إجبارهم على ذلك . يؤكد ذلك قوله (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْأِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ) . فإذن هناك قدرة ومشيئة من الله قضت إيحاء الشياطين لبعضهم البعض زخرف القول وبالتالي كان لها قدرة في جعل أفئدة المشركين تصغي وترضى وتقترف .

فاللام إن كانت لام كي للتعليل ففيها ملاءمة لإهمالهم واحتقارهم وهذا ملائم لاحتقار قلوبهم وجعلها أفئدة لا قلوباً حيث إن السبب الحقير كان سبباً لأن تصغى وترضى وتقترف .. وإن كانت اللام للأمر فهذا يلائم طلاقة القدرة حيث هيمن الله على قلوبهم فضعفت أمام قدرته فكانت أفئدة تصغي لزخرف القول وترضاه وتقترف من الذنوب ما تقترف تبعاً له . وإن كانت اللام للقسم فذلك يدخل في ذلهم وكشف حقيقة أفئدهم الضالة حيث أقسم أنهم يرضونه ويقترفون الذنوب لذلك . وقد تكون اللام للعاقبة وهذا ملائم لحالهم حيث صرفت لهم الآيات وكثرت أمامهم المعجزات جلية واضحة صريحة فأبوا التصديق فكان عاقبتهم بعد أن انصرفوا عن الواضح أن صرفهم الله للقول الخادع يسمعونه وتصغى إليه أفئدهم ويرضونه ويقترفون الذنوب من أجله .

---

1 - التحرير والتنوير : 10/7

2 – السابق:10/7

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكل الأوجه السابقة ملائمة لحال الفؤاد ففي الأمر دلالة استعلاء من الله علـــى قلـــوبهم فتكون بذلك كما سبق أفئدة ، وفي التعليل والعاقبة ذم لهم وسخرية بقلوبهم التي ركنـــت إلى الوهم دون الآيات الواضحات وفي القسم أيضاً ذم لهم بكشف حقيقة أفئدتهم ، فكل الأوجه ملائمة ومكملة لبعضها البعض . ويظهر لي أن الأقوى التعليل لما فيه من اســـتهانة بأفئدتهم وكون ميلها عن الحق سهل.

وفي السياق القريب ما يؤكد السخرية منهم (ونذرهم في طغيـــانهم يعمهـــون) ، (ولكن أكثرهم يجهلون) ، (فذرهم وما يقترفون) ، (وليقترفوا) وكأن فعلهم لن يكون إلا اقترافاً للسوء وكسباً له ، فالاقتراف أكثر ما يستعمل في السوء. (وما هم مقترفون) و(ما) التنكير هنا لتحقير ما يفعلون (هم مقترفون) عبر بالجملة الاسمية دلالة على تمكـــن هـــذا الفعل من قلوبهم فلذا أضعفها وصيرها مضطربة فهي مقلبة أولاً ، ممنوعة مـــن الإيمـــان ، مسلطاً عليها شياطين الإنس والجن يزيدونها ضعفاً ويوحون إليها زخرف القـــول ، لـــذا فـــهي تصغى ، والتعبير بالمضارعة فيه دلالة على أن هذا الحال متمكن منهم كما إنه ممتد في كل زمان وهو حال كل فؤاد لا يؤمن بالآخرة .

***

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي قوله تعالى:﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ . وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾[2]. وصف القــرآن في هــاتين الآيتين الكفار وآباءهم الذين سبقوهم بعدم العقل و لم يصفهم بما هو أفضل من ذلــك في الفهم حيث فقدوا أصلاً العقل المدرك الظاهر لظاهر الأمور فهم لسواها أفقد . ذلك أهم خالفوا أموراً ظاهرة بل أموراً هم يعرفوها ويعترفون بها لله تعالى وهي دالة على وحدانيته فكيف يشركون به سواه ، ومنها خلق السموات والأرض ، واختلاف الليـل والنـهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء ، وتـصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض .. فهي أمور ظاهرة لذا صرح القرآن حين قرر هذه الأمور أنها آيات (لقوم يعقلون) وهي دالة على وحدانية الله _جل وعلا_ ، ومع ذلك هؤلاء الكفار يجعلون لله أنداداً وليس ذلك فقط بل يحبوهم كحب الله ، كما إن مما يدل على فقداهم العقل اتباعهم عدوهم ولا يتبع عدوه إلا فاقد العقل ، ولذا أكد الله (إنه لكم عدو مبين) وفي التأكيد قوة دلالة على عدائه وهم يتبعونه، كما إنه ظاهر العداوة لا خفاء به، ثم إن الشيطان لا يأمرهم بخير البتة بل يأمرهم بالسوء وهذا دافع لتركه لا اتباعه ومن عكس هذا الظاهر فهو فاقد للعقل. وفي خص لفظة الجلالة (الله) بالذكر في السياق القبلي دلالة على انعدام عقولهم حيث لم يقل وأن تقولوا على ربكم ما لا تعلمون بل قال (على الله) ولفظة الجلالة توحي بالهيبة والخوف من الله أن يقال عليه بغير علم فإن صـدر من الكافر ما تجرأ به على الله بكامل عظمته وجلاله فهذا إنما هو من انعدام العقل .

كما في السياق البعدي نص على المحرمات التي حرمها الله على الإنسان نص يدل على خبثها وأنها لا خير فيها والعاقل يجتنبها فكيف إذا كان الشرع يحرمها فهـذا آكـد لاجتنابها فلم يحرم الله إلا ميتة أو دم أو لحم خنزير ، أو ما أهل لغير الله بـه ، وللطـف الشرع حللها عند الضرورة ، فهو شرع يتطابق مع العقل السليم .

---

1 - البقـرة : 170 - 171

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي نظم الآيتين ما يرشح لاستعمال العقل ونفيه عمن كان هذا حالهم وتلك مقالتهم . حيث بدأ الآية بقوله (وإذا قيل لهم) فعدل بالخطاب عنهم على طريقة الالتفات للنداء على ضلالتهم لأنه لا ضال أقل من المقلد ، كأنه يقول للعقلاء انظروا إلى هؤلاء الحمقى ماذا يقولون[1] وفي هذا القصد من الالتفات ملاءمة للعقل حيث إن في هذه الاستهانة بهم دلالة على عدم إدراكهم للفضل الظاهر والحق البين واتباعهم للباطل لا لشيء إنما للتقليد . وفي تقييد الجملة بالشرط "بإذا" دلالة تحقق ذلك فيهم بل ولزومه لهم لزوماً يدل أنهم على مر الزمان لا يعملون عقولهم في إدراك الحق .

فالله أمرهم بأن يتبعوا ما أنزل الله من الدلائل الظاهرة فهم قالوا : لا نتبع ذلك ، وإنما نتبع آباءنا وأسلافنا ، فكأنهم عارضوا الدلالة بالتقليد وهذا ظاهر في الخطأ وفي خصه (ألفينا) دلالة واضحة على انعدام العقول فهم لم يقتنعوا به ولكنهم ألفوا هذا الفعل من آبائهم ففعلوا ما كانوا يعقلون .

وفي ذكر النهي عن التقليد عقيب الزجر عن اتباع خطوات الشيطان فيه تنبيه على أنه لا فرق بين متابعة وساوس الشيطان وبين متابعة التقليد[2] . ومن ترك ذلك فلا عقل له ، لذا ورد الجواب عليهم بقوله تعالى: (أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون) باستفهام فيه معنى التوبيخ والتقريع وقد أورد الاستفهام بالهمزة لأنها تقتضي إقرار المخاطب بالمستفهم عنه إقراراً يجعله عاجزاً أمام قوة دليل المخاطب . وهذا ملائم لأن ينفي عنهم العقل . و هذه الجملة المصحوبة بلو في مثل هذا السياق هي جملة شرطية وتجيء لو هنا تنبيها على أن ما بعدها لم يكن يناسب ما قبلها لكنها جاءت أيضاً لاستقصاء الأحوال التي يقع فيها الفعل ، فإذا تقرر هذا فالواو في (ولو) في المثل التي ذكرناها عاطفة على حال مقدرة والعطف على الحال حال ، فصح أن يقال إنها للحال من حيث إنها عطفت جملة حالية على حال مقدرة، وصح أن يقال إنها للعطف من حيث ذلك العطف، والمعنى : إنكار اتباع آبائهم في كل حال من الحالة التي لا تناسب أن

---

1 - الكشاف عن غوامض التتريل وعيون الأقاويل : 357/1

2 - التفسير الكبير : 189/2

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يتبعوا فيها ، وهي تلبسهم بعدم العقل وعدم الهداية[1] . وهذا الجمع بين معنى العطف في الواو ومعنى الحال عندي أقوى في الدلالة من خصه بالحال كما يرى الزمخشري[2] أو بالعطف كما يرى الفخر[3] وابن عطية[4] . وقال الفخر في "لا يعقلون شيئاً" لفظ عام ومعناه الخصوص ، لأنهم كانوا يعقلون كثيراً من أمور الدنيا ، فهذا يدل على جواز ذكر العام مع أن المراد به الخاص .

ويظهر لي ـ والله أعلم ـ أن العموم هنا مراد وليس المقصود به الخصوص لأن ما يعقلونه من أمور الدنيا لم ينفعهم في اتباع الحق فهو إذن كالعدم لعدم منفعته ، وذلك كالتعبير عن قلة إيمانهم أو قلة شكرهم فهي قلة بمعنى العدم لأنه لم ينفعهم هذا القليل حيث هو على طرقهم الشركية الخاطئة فلذلك هنا ما يعقلون من أمور الدنيا لا يعتد به فهو كالعدم . لذا أورد نفي العقل عنهم بلفظ العموم وقدم نفي العقل لأنه الذي تصدر عنه جميع التصرفات وأخر نفي الهداية لأن ذلك مترتب على نفي العقل[5]. ويظهر لي بالإضافة إلى ذلك أنه قدم إدراك الظاهر بالعقل ثم تلاه بعد ذلك بصلاح الداخل وهي الهداية فهم لا يعقلون الظاهر ولا يستشعرون الباطن وهذا أدخل في مذمتهم .

ثم أعقب ذلك بضرب المثل لهم ليتضح لإفهامهم المدى الذي وصلوا إليه في انعدام عقولهم وعمى بصائرهم فقال : (ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع ..) فجعل وصفهم كوصف الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً ، وفي ذكر هذين المثلين تقابل يفهم مثلين آخرين ، فاقتضى ذلك تمثيلين في مثل واحد كأن وفاء اللفظ الذي أفهمه هذا الإيجاز مثل الذين كفروا ومثل راعيهم كمثل الراعي ومثل ما يرعى من البهائم وهو من أعلى خطاب فصحاء العرب. وكلما قلبنا هذا المثل ظهر لنا ملاءمة الفاصلة (لا يعقلون) حيث جعلهم كمن لا يسمع إلا دعاء ونداءً فهم وإن كان لهم سمع فلا فهم لهم

---

1 - البحر المحيط : 656/1 ، 65

2 - الكشاف عن غوامض التنزيل وعيون الأقاويل : 357/1

3 - المحرر الوجيز : 64/2 ، 65

4 - البحر المحيط : 657/1

5 - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 313/1

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فهم بذلك يسمعون أصواتاً مجردة ولكنهم لا يعقلون ولا يدركون قال الزمخشري: إنهم لا يسمعون من الدعاء إلا جرس النغمة ودوي الصوت ، من غير إلقاء أذهان ولا استبصار ، كمثل الناعق بالبهائم التي لا تسمع إلا دعاء الناعق ونداءه الذي هو تصويت بها وزجر لها، ولا تفقه شيئاً آخر ولا تعي ، ويجوز أن يراد بما لا يسمع : الأصم الأصلح الذي لا يسمع من كلام الرافع صوته بكلامه إلا النداء والتصويت لا غير من غير فهم للحروف ، وقيل معناه : ومثلهم في اتباعهم آبائهم وتقليدهم لهم كمثل البهائم التي لا تسمع إلا ظاهر الصوت ولا تفهم ما تحته فكذلك هؤلاء يتبعونهم على ظاهر حالهم ولا يفقهون أهم على حق أم باطل ، وقيل معناه : وصفهم في دعائهم الأصنام كمثل الناعق بما لا يسمع ، إلا أن قوله : (إلا دعاءً ونداءً) لا يساعد عليه لأن الأصنام لا تسمع شيئاً[1] وأوافق الزمخشري في ذلك فالمعاني السابقة محتملة ودال عليها المعنى والسياق أما الأخير فلا دلالة له ولا يساعد عليه السياق . فالحديث عن الذين كفروا في عدم اتباعهم للحق وعماهم عنه واتباعهم لما ألفوا عليه آباءهم دون فقد ما فيه من الضلال .. وأكد على ذلك عدم وقوف النظم على هذا المثل بل زاد عليه بأن أخبر عنهم بأنهم (صم بكم عمي) فنفى عنهم جميع أدوات الإدراك والفهم لأنهم لم ينتفعوا بحواسهم ولا صرفوها في إدراك ما ينبغي ، ولما تقرر فقدهم لهذه الحواس قضى بأنهم (لا يعقلون)[2] وجاءت الفاصلة تصريح كمجيء النتيجة بعد البرهان . فالعقل هنا ملائم لكونه فاصلة بعد أن بين ظهور جهل الذين كفروا وعدم استخدام أدوات الإدراك والعقل فيترتب على ذلك عدم الفعل لهذا أورده بالفاء "فهم" فعدم عقلهم مترتب على عدم استخدام سمعهم وأبصارهم في إدراك الحق . والتعبير عن ذلك بالجملة الاسمية دلالة ثبات ذلك لهم والتصريح بالضمير "هم" وتقديمه بيان لتقوية الحكم لهم وهذا أدخل في ذمهم .

---

1 - الكشاف عن غوامض التنزيل وعيون الأقاويل : 357/1

2 - المحرر الوجيز : 64/2 ، 65

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وجعل الخبر بالجملة الفعلية التي لم تثبت لهم "الجهل" بل نفت عنهم الضد وهو عدم العقل وفي ذلك دلالة على تأبيد ذلك الحال لهم مع تجدده في كل حال لهم فهم في كل حال "لا يعقلون" .

وكما وصف القرآن الكفار بأنهم لا عقول لهم حين كفروا وأشركوا بالله اتباعاً لآبائهم ، كذلك هم لا يعقلون حين اتبعوهم فيما شرعوا ما لم يشرع الله فإذن التبعة العمياء لمن لا يعقل ولا يعلم دلالة على فقدان العقل لذا قال تعالى في شأن الكافرين :﴿ **مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ**﴾ [1] .

فوصف أكثر الكفار هنا خاصة بأنهم (لايعقلون) وورود هذه الصفة دون غيرها ملائم للسياق ففي السورة بيان تشريعات لله ـ جل وعلا ـ في الحلال والحرام وعلتها ظاهرة لا تخفى على عاقل وصريحة واضحة ليست مجال للخطأ . كما إن علة إصلاحها للمجتمع وللفرد أيضاً ظاهرة فكل البهائم أصلها حلال ويستثنى منها (مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ) وما تلي عليهم وحرم ظاهر ضرره كالميتة والدم ولحم الخنزير وغير ذلك فالالتزام بذلك يقتضيه ظاهر العقل .وكذلك في تشريع الله في التعامل مع الغير بالعدل والتقوى صلاح ظاهر وتحريم قتل النفس التي حرم الله وحد السارق والقصاص ، والنهي عن اللغو في الأيمان ، وتحريم الخمر والميسر والأنصاب والأزلام كل هذه التشريعات من الله ـ عز وجل ـ علة صلاحها ظاهرة لا تخفى إلا عن من لا عقل له فكيف يُخرج عن ذلك بل كيف يتجرأ الكفار على تشريعات ما أنزل الله بها من سلطان فهم لا عقل لهم وأكثر منهم انعداما للعقل وأكثر منهم انعداماً للعقل لذا قال تعالى :﴿**ما جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ**﴾ فالخروج عن شرع الله بتشريع ما لم يشرع خروج عن العقل من وجوه :

---

1 - المائدة:103

أولها : أن لا علة صحيحة معتبرة بالعقل السليم في تحريم ما حرم الكفار على أنفسهم .

ثانيها : أن ضرر تحريمها أكثر من نفعه بل إنه لا نفع في تحريمها البتة ولا حكمة يقتضيها ظاهر العقل .

ثالثها : أن من شرع ذلك لا علم له ولا هدى ليصلح أن يكون مشرعاً ومن يتبع من لا يعلم ولا يعقل معدوم العقل .

ثم يأتي نظم الآية يؤكد ملاءمة وصف الكفار الذين اتبعوا أمر من أمرهم وشرع لهم من أسيادهم دون علم بأنهم (لا يعقلون) حيث بدأ بالنفي (مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ) فالله تعالى لما منع الناس في السياق القبلي عن أمور لم يكلفوا بالبحث عنها كذلك منعهم عن التزام أمور لم يكلفوا التزامها ، ولما كان الكفار يحرمون على أنفسهم الانتفاع بهذه الحيوانات وإن كانوا في غاية الاحتياج إلى الانتفاع بها [(1)] ، بين تعالى أن ذلك باطل فقال : (ما جعل الله) فنفى وقال (ما جعل) و لم يقل ما شرع لأن هذا الفعل لا يرقى لأن يكون شرعاً فهو فعل غير عاقل فلذا حين نفاه نفى جعله فهم جعلوها جعلاً لأنهم ليسوا أهل تشريع بل مفترون على الله كذباً .. وفي التعبير بالجعل دليل على اتصال ذلك فلم يكن ذلك شرعاً ولن يكون ثم أغرق في النفي بقوله (من بحيرة) أي بحيرة أبداً .. وأكد النفي بإعادة النفي فقال (وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ) وهذا التأكيد في النفي يرد العاقل إلى الصواب ومن عمل بذلك بعد كل هذا التأكيد فهو لا يعقل فكيف بمن لم يكن هو من فعل ذلك بل اتبعه بدون علم فهم أولى بعدم العقل وفي تنكيرها دليل على عموم ذلك فلم يجعل الله في شرعه جنس البحير أو السائبة أو الوصيلة أو حام فلم يكن ذلك معروفاً البتة في الإسلام .

فالحيوانات مخلوقة لمنافع المكلفين ، فتركها وإهمالها يقتضي فوات منفعة على مالكها من غير أن يحصل في مقابلتها فائدة .. فظاهر عدم المنفعة في تحريم ما حرمه الكفار على أنفسهم بل الأظهر ضرر ذلك التحريم على الكفار وعلى

---

1 - التفسير الكبير : 447/4

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الدواب التي حرمت .. وبمقابلتها بما حرم الله يظهر الفرق الكبير بين التحريمين فضرر ما حرم الله ظاهر لا يغفل عنه إلا جاهل أما ما حرمه الكفار فهو إدعاء فما العلة في البحيرة وهي الناقة التي شقت أذنها ، وما العلة في السائبة : وهي المسيبة المخلاة ، وكان الجاهليون يفعلون ذلك ببعض مواشيهم ، فيحرم الانتفاع بها ، وما العلة في الوصيلة : وهي الأنثى من الأنعام ، كانت إذا حملت توأماً ذكرا أو أنثى يقال وصلت الأنثى أخاها ، أي تدفع عنه الذبح ، وما العلة في الحامي : وهو الفحل يحمي ظهره من الركوب والانتفاع ، بسبب تتابع أولاد له من فحولته . فلا علة ولا ضرر فيها وهذا ظاهر بل الأظهر جهلهم في شقهم لآذانها أو تسيبها أو تحريم ركوبها من عند أنفسهم وتحريم أكلها على أنفسهم .

فهم أنفسهم أوجدوا فيها العلة ومن ثم حرموها فإذن هم أوجدوا ما رأوه علة وتلفاً فيها وهذا ظاهر في جهلهم وعدم عقلانيتهم .. لذا بعد ظهور بطلان ذلك استدرك النظم (وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ) مؤكداً بهذا الاستدراك أن ذلك ليس من شرع الله وأن الكفر هو داعي من افترى على الله الكذب والتعبير عنهم باسم الموصول لتعين الصفة التي دعتهم لما فعلوا وهي صفة تدل على جهلهم وأنهم لا علم لهم فكفروا بالله وهم يقرون بربوبيته وزادوا على ذلك الجهل أن تجرأوا على الافتراء عليه والكفار كانوا معترفين بأن الكذب من أقبح القبائح ، وهم كذبوا على ملك الملوك [1] وفي اختيار (يفترون) دلالة على انعدام عقولهم وبالتالي عقول من يتبعهم فافترى قطع على كذب ، وأخبر به [2] فكأنهم كذبوا على الله وصدقوا هم أنفسهم كذبهم وهذا دليل انعدام عقولهم وكون هذا الكذب (على الله) دليل على انعدامها أيضاً فكيف جرؤوا على الله عالم الغيب – سبحانه- ولذا قدم الجار والمجرور على متعلقة (الكذب) تعظيماً لفعلهم وبياناً لعظمة كذبهم وجرمهم ولا يفعل ذلك إلا معدوم العقل وعرف (الكذب) لأنه معهود عندهم أنه كذب ، ثم قال (أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ) وأكثرهم هم أراذلهم الذين يتبعونهم ، فالرؤساء يفترون على الله الكذب أما الأتباع والعوام فأكثرهم

---

1 - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : 551/2

2 - الفروق اللغوية : 44

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(لا يَعْقِلُونَ) وذلك لأنهم يتبعونهم فيما هو ظاهر ضرره فهم لا عقل لهم ولن يتجدد لهم العقل لذا نفى بـــ (لا) وأدخلها على المضارع ، فنرى أن ما سبق (يَعْقِلُونَ) من الـــنظم والسياق يرشح لها دون غيرها كما أكد على قرارها السياق البعدي الذي أكـــد انعـــدام عقولهم ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَـــا وَجَـــدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ**﴾ .

حيث أبوا اتباع ما أنزل الله ، وجاء به رسوله وجعلوا كفايتهم اتباع ما وجـــدوا عليـــه آباءهم ، وهم لا علم لهم ولا هداية ، فهم لا يملكون اتخاذ القرار وزيادة على ذلك يتبعون من لا علم لهم فهم على أنهم مقلدون لم يقلدوا من يعلم بل من لا يعلم فهذا دليل آخـــر على انعدام عقلهم .

ومن المواضع التي وصفت الكفار بأنهم لا عقول لهم قولـــه تعـــالى :﴿ **إِنَّ شَـــرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ**﴾ [1] .

وبالنظر إلى مقصود السورة عموماً يتضح ملاءمة وصف هؤلاء الكفار بأنهم (لا يعقلون) حيث ركزت على وجوب اتباع الداعي بغاية الإذعان و التـــسليم والرضـــى والتبرؤ من كل حول وقوة وذلك للنعم والنصر الذي ورد فيها ولو شاء لسلبها ، فحـــين يكون موقف الكفار عدم السماع للرسول وعدم اتباعه بعد هذه النعم وذلك الفضل فما هو إلا من عدم العقل ، فإنه أيد رسوله بالملائكة وبالمطر وثبته ومن معه وألقى في قلـــوب المشركين على كثرتهم الرعب وقتلهم و لم تغن عنهم فئتهم من دون الله فمن يعرض عـــن سماع الرسول وطاعته بعد ظهور هذا النصر الذي يؤكد صدقه فلا عقل لـــه لأن الأمـــر واضح مدرك بمجرد العقل ولا يحتاج إلى عمق في الإدراك ولكن من فقد أولويات الإدراك فقد العقل وهذا ما كان شأن الكفار .

ودلت المقابلة بينهم وبين المؤمنين أن المقصود بالسماع سماع الفهم والإدراك ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ**﴾ . فأثبت الـــسماع للمـــؤمنين وذلـــك لطاعتـــهم وامتثـــالهم فهـــم إذن مـــدركون لمـــا يـــسمعون

---

1 - الأنفال:22

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويعقلون أما الذين قالوا أنهم سمعوا دون امتثال فهؤلاء فقدوا العقل الذي يجعلهم يتبعون الحق وبالتالي فسمعهم ليس سمعاً لأنه دون فهم .. فكان الملائم معهم أن ينفى عنهم العقل لذا وردت الآية بعد ذلك "إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ" ومما يقرر خاتمة الآية بكونهم (لا يعقلون) وورود نظم الآية بالتوكيد (إن) حيث أكدت كونهم (شر الدواب) والدابة كل ما يدب على الأرض ويستعمل ذلك في الحيوان وفي الحشرات أكثر [1] . فإذن هم من الدواب وإن كانت تستعمل للإنسان على العموم بأنه مما يدب على الأرض لكن استعمالها في الحيوان الذي لا يعقل أكثر وحين تذكر الدواب أول معنى يتبادر للذهن الحيوان . فهذه أدل على عدم عقلهم فكيف إذا كان أكثر استعمالها في الحشرات فهذا أيضاً يقلل منزلتهم حتى عن الحيوان فهم أقل من ذلك بكونهم حشرات . وقد تكون بعض الحيوانات تميز كالخيول في معرفتها أصحابها وكالكلاب وغيرها فانخفض بهؤلاء الكفار أن جعلهم (شر الدواب) أي التي لا نفع فيها البتة ، فهم شر من يدب على وجه الأرض ، أو إن شر البهائم الذين هم صم عن الحق لا يعقلونه ، جعلهم من جنس البهائم ، ثم جعلهم شرها[2] . وقيل شبههم بالدواب لجهلهم وعدولهم عن الانتفاع بما يقولون ويقال لهم ، ولذلك وصفهم بالصم والبكم وبأنهم لا يعقلون . وقيل : بل هم من الدواب لأنه اسم لما دب على الأرض ولم يذكره مع معرض التشبيه ، بل وصفهم بصفة تليق بهم على طريقة الذم [3] .. والثاني عندي أرجح وأدخل في مذمهم وذلك أن التشبيه بالشيء لا يعني أنه هو بل هناك وجه شبه أو أوجه تجمع بين المشبه والمشبه به ولكن حين يكون هو، يكون ذلك أدل على المقصود فالحقيقة هنا أدل حيث إن الإنسان أصله من الدواب التي تدب على الأرض ثم كرم بالعقل ولكن حين لا يعمل بمقتضاه يعود أدراجه وينتكس ويعود إلى كونه دابة فقط وهذا يقتضي أن يكون لا يعقل ، ثم وضح بعد ذلك عند مَنْ هم أشر الدواب (عند الله) وهو الذي لا تختلط عليه الأمور - سبحانه -

---

1 - المفردات في غريب القرآن : 171

2 - الكشاف عن غوامض التنزيل وعيون الأقاويل : 568/2

3 - التفسيرالكبير : 469/5

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولا يكْون حكمه إلا عدلاً وصواباً فلم يرد النظم بـــ (إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّــهِ الــصُّمُّ الْبُكْمُ ...) على العموم دون تعليقها بكونها (عند الله) لأن العموم قد يورد خلافــاً في الحكم فقد يرى أنهم ليسوا شر الدواب ولكن حين يكون الحاكم بذلك الحكم هو (الله) فهذا الحق وهذا الخبر الأكيد الذي لا يخالفه ولا يشك فيه إلا من هو لا يعقل مثلهم وهذا يلائم أنهم لا يعقلون فالله -جل وعلا- لا يكون عنده شر إلا من لا يدرك نعم الله ويعمل بها ونعمه ظاهرة جلية وأوامره حق لا يمارى في اتباعها فلا يتخاذل عنها إلا من لا عقل له .. وقد ركب النظم صفات هؤلاء الشرار بأنهم (الصم) و لم يقف على هذا الوصف بل (البكم) وأيضاً (لا يعقلون) ففي الآية ترقٍ حيث بدأ بالصم لأنه ناشئ عنــه الــبكم وعرفها والتعريف هنا للدلالة على أنهم عرفوا بذلك الصمم والبكم وأرى أيضاً أن النظم يدل على أن المقصود الصمم والبكم الكامل الذي لا أمل في أن يسمعوا الحق أو يتكلموا به وهي عبارة عما في قلوبهم وقلة انشراح صدورهم وإدراك عقولهم فلــذلك وصــفهم بالصم والبكم وسلب العقل[1]. وفي ذلك كناية عن انتفاء قبولهم الإيمان وإعراضهم عمــا جاء به الرسول -ﷺ- ثم قال (الذين لا يعقلون) معبرا بالاسم الموصول الذين دلالــة على هذه الصفة خاصة (لا يعقلون) فلم يقل مثلا (الجاهلون . . أو الغافــلون) بــل خصص (الذين لا يعقلون) حيث رشح لذلك ما سبقه من وصفهم بشر الدواب وكون ذلك (عند الله) ثم يذكر (الصم البكم) فمن فقد أدوات الإدراك لابد لازما أن يفقده من باب أولى فهؤلاء فقدوا السمع والكلام فبالتالي لا يمكن إلا أن يكونوا (لا يعقلون) والجهل والغفلة وغيرها قد تدل على نقص في الفهم ولكن لا تدل على انعدامه والآيــات تريد أن تركز على انعدامه عند من ظهرت له نعم الله وقدرته في نصرة رســوله وأتباعــه ومع هذا الظهور هناك من يعرض . ونفيه (بلا) أوسع في نفي المضارع من (ما) وأدل على انتفاء السماع في المستقبل [2] فهم لا يتجدد لهم فهم ولا عقل البتة.

---

1 - المحرر الوجيز : 257/6

2 - البحر المحيط : 475/4

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كما إن السياق البعدي أكد تأبيد ذلك فيهم مما دل على أنهم فعلاً دواب لم يوهبوا العقل وما كان ذلك إلا لأن الله لم يعلم فيهم خيراً ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأسمَعَهُمْ وَلَوْ أسمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ فترقى السياق البعدي في الإخبار عنهم بانتقاء قابلية الاهتداء عن نفوسهم في أصل جبلتهم . فالخيرية معدومة في نفوسهم لذا انعدم سماعهم للخير . أما (لو)الثانية فهي المشتهرة بين النحاة (بلو) الصهيبية (نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه). وذلك أن تستعمل (لو) لقصد الدلالة على أن مضمون الجزاء مستمر الوجود في جميع الأزمنة والأحوال عند المتكلم . فلا يقصد من (لو) ربط انتقاء مضمون جوابها بانتقاء مضمون شرطها ، أي ربط حصول نقيض مضمون الجواب بحصول نقيض مضمون الشرط ، بل يقصد أن مضمون الجواب حاصل لا محالة ، سواء فرض حصول مضمون شرطها أو فرض انتفاؤه[1]. وهذا يلائم السياق وحال المخير عنهم الذين لازمهم كفرهم ويلائم أيضاً فقدان العقل لذلك أصلاً ..

وقد ذكر في نفس السورة " إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ"وذلك لأن السياق كان فيمن تولى و لم يسمع و لم يطع الرسول الكريم والسياق كان يتحدث عن مشركي مكة و لم يذكر غيرهم فخص بالنظم الصم والبكم لأنهم معاصرين للرسول ﷺ يرون ويسمعون ومع ذلك لم يؤمنوا أما هنا فعمم الوصف (الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ) لأن السياق تحدث عن أمم سابقة و لم يقتصر الحديث عمن عاصر الرسول - ﷺ - فلا يأتي معهم السماع والنظر .. هذا وجه ، ومن وجه آخر أن الذنب هنا نقض العهد وهذا يتطلب شيء متمكن في النفس من الكفر وعدم الإيمان . أما هناك فالتولي نتج عن عدم سماعهم سماع فهم لأنهم لو سمعوا لما تولوا . لذا لاءم هناك نفي العقل عنهم . وهنا نفي الإيمان .. والله أعلم .

---

1 - التحرير والتنوير : 9/ 65, 112

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي قوله تعالى ﴿**وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ**﴾[1] ورد (العقل) في وصف اليهود والكفار في سياق استهزائهم بالدين وذلك لأن في سخريتهم بالصلاة مخالفة للأمر المعلوم الظاهر وهذا لا يكون إلا من فاقد العقل . ونلاحظ أن السياق القبلي البعيد فضل المؤمنين عليهم وحذر المؤمنين من أن يتخذوهم أولياء فبعضهم أولياء بعض ، وما كان هذا التحذير من موالاتهم إلا لأن عيبهم ظاهر بيِّن .

وحين ننظر إلى السياق القبلي القريب نجد ما يؤكد قرار العقل في سياقها كما قرت في نظمها حيث سمى اليهود والنصارى بـ(الذين أوتوا الكتاب) في سياق الإخبار عنهم بأنهم اتخذوا الدين الإسلامي هزواً ولعباً وتسميتهم بالذين أوتوا الكتاب أدخل في ذمهم وأظهر في كونهم لا يعقلون فكيف يكونوا أصحاب كتاب ويسخرون بالدين . إلا لفقدانهم العقل .كما إن النظم ألحق بهم الكفار في الفعل (والكفار) فنفى عنهم التميّز بإتيان الكتاب وهذا من فقدان العقل فكيف يشاركون من لا دين له في الفعل وهم أصحاب دين إلا لأنهم فقدوا عقولهم.

وفي نظم الآية قال (إذا ناد يتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً) فخص بالذكر هنا النداء إلى الصلاة ، والنداء إلى الصلاة في الدين الإسلامي ظاهر فضله وظاهر خيره فهو تكبير وتشهد وصلاة على الرسول -ﷺ- ودعوة إلى الخير فكله ذكر وهو بذلك خير من نواقيس اليهود والنصارى وشعاراتهم الدينية وهذا لا يخفى إلا على من فقد عقله فكيف بمن يتخذها هزواً .

لذا كان ختم النظم (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ) بالبدء بالإشارة وهذا ربط بين المعاني حيث إن الجملة صارت تعليلية فعللت فعلهم السابق من استهزاء بالدين وخاصة بالنداء إلى الصلاة بأن سبب ذلك أنهم أناس من مقومات قوميتهم فقدان العقل وإلا لما صدر منهم مثل هذا . ونلاحظ أن النظم أتى بالمضارعة دلالة استمرار ذلك فيهم بل وتجدده عبر الأزمان كما حذف المفعول ليدلل على عموم مالا يعقلونه وهذا أدخل في ذمهم.

---

1 - المائدة:58

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المبحث الثاني : سياق أحوال المؤمنين

أولا : المواضع التي وردت في صفات المؤمنين :

1- قوله تعالى :﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ الأنفال: 2

2- ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾" الحج:35

3- ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ الرعد **28**:

4- ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ الحج :54

5- ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ الزمر :23

6- ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ الزمر : 18

7- ﴿ أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ الزمر : 9

8- ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ المؤمنون : 60

9- ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ النحل : 106

10- ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ المجادلة :22

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

11- ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آَمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ الحشر :10

ورد في سياق صفات المؤمنين وصفهم بصفات عظيمة تنوعت تبعاً لتنوع السياق.

ففي سياق بيان أثر القرآن فيهم ورد وصفهم بالوجل والاطمئنان واللين والإخبات وكل الصفات الواردة نسبت لقلوبهم وفي ذلك إشارة لثبات إيمانهم ، كما وصفوا باستماع القول واتباع أحسنه ونيط ذلك بكمال عقولهم ، والمواضع كالتالي:

1- قوله تعالى :﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آَيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾الأنفال: 2

2- وقوله :﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾الحج:35

3- ﴿ الَّذِينَ آَمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ الرعد 28:

4- ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آَمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ الحج :54

5- ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾الزمر :23

6- ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ الزمر : 18

فالموضعان الأولان وصفت قلوب المؤمنين بالوجل والوجل ليس من الخوف في شيء[1] وهناك فروق بين الخوف والوجل دل عليها استعمال القرآن حيث لم يرد الوجل إلا مع الله _سبحانه وتعالى_ في حين ورد الخوف مع غيره وفي هذا دليل على عظمة المخوف منه في الوجل ، أما الخوف فهو مطلق قد يكون من عظيم وقد يكون من حقير

1 - الفروق اللغوية : 273

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهذا يوصلنا إلى قوة الوصف في الوجل لذلك يأتي في استشعار عظمة الله ، ومن ثم لم يرد إلا في سياق المدح في حين ورد الخوف في سياق الذم . ونلاحظ أن لفظة "وجل" لم ترد في القرآن كله إلا مع المؤمنين و لم تنسب لذواهم بل نسبت إلى قلوهم في هذه المواضع ، وهذا يشير إلى أن اللفظة فيها تشريف وارتقاء في الإيمان يلائم القلوب ثم إن الوجل ليس الخوف الذي يسبب الاضطراب والتردد ، فالخوف على قسمين : خوف العقاب وخوف العظمة والجلال . قال ابن القيم :(وليس في مقام أهل الخصوص وحشة الخوف ، إلا هيبة الجلال وهي أقصى درجة يشار إليها في غاية الخوف يعني أن وحشة الخوف إنما تكون مع الانقطاع والإساءة ، وأهل الخصوص أهل وصول إلى الله وقرب منه فليس خوفهم خوف وحشه كخوف المسيئين المنقطعين لأن الله_ عز وجل_ معهم بصفة الإقبال عليهم والمحبة لهم . وهذا بخلاف هيبة الجلال فإنها متعلقة بذاته وصفاته وكلما كان عبده به أعرف وإليه أقرب كانت هيبته وإجلاله في قلبه أعظم . وهي أعلى من درجة خوف العامة) [(1)]. فإذن هذا الوجل الذي نسب للمؤمنين ليس وليد تردد واضطراب بل وليد زيادة معرفة بالله ويقين به -جل وعلا- ، وكذا ورد في سياق الثابتين على الإيمان .

كما إن هناك ملحظاً ثالثاً مهماً يدلنا على ملاءمة لفظة القلوب لهذه الصفة وعدم خروج نظم القرآن عن سيره في استعمال لفظة القلوب في الثبات والتمكن كخط عام ، وهو أن الذين وصفوا بصفة (الوجل) في القرآن كانوا على مراتب عالية من الإيمان ،حيث وصف بها في سورة الأنفال : (المؤمنون حقاً)، وفي سورة المؤمنون الذين يسارعون في الخيرات وهم سابقون ، وفي سورة الحج المخبتين ، فلا يتصور في مثل هؤلاء تردد أو اضطراب .

كما إن السياق الخاص في جميع هذه المواضع كان سياق عبادة والمؤمن مهما قدم من عبادة لا يتكل عليها بل يظل وجلاً هل تقبل أم لا حتى الأنبياء . ونجد أنه في كل موضع وردت فيه صفة الوجل تشفع بصفات تسبقها أو تتبعها تؤكد أن هذا الوجل ثبات ويقين وزيادة في الخير ,لا اضطراب وتردد يثني عن التقدم في ركاب السالكين .

---

1 - مدارج السالكين بين منازل إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ : 51/1

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ففي الموضع الأول في سورة الأنفال قال تعالى : ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** ﴾ نجد أن هذه الآية سبقت بالأمر بالتقوى وإصلاح ذات البين وطاعة الله ورسوله وكل ذلك لا يكون إلا في قلوب متمكنة في الإيمان فالتقوى درجة عالية من العبادة تكون في القلوب والعمل على الإصلاح يدل على سمو ورقي يكون في القلوب وكذلك الطاعة الخالصة لله ورسوله . ثم في قوله تعالى " إن كنتم مؤمنين " حض على إكمال الإيمان والوصول به إلى الإيمان الحق لا التشكيك في إيمانهم والإيمان من أعمال القلوب فكيف بالرقي به فثبات على ثبات .وتمكن في الإيمان لا يكون إلا في قلب مطمئن بالله -جل وعلا- موقن به سبحانه لذا ذكر بعد ذلك ما يوصلهم إلى هذا الكمال قاصراً الإيمان الكامل الحق على من ترد صفاتهم في الآية (إنما) واستعمل إنما لأن هذه الصفات معروفة واضحة فيمن كمل إيمانه "المؤمنون" بالتعريف بأل التي تدل على كمال الوصف وباستعمال اسم الفاعل الدال على كمال إيمانهم فلم ترد بـ" الذين آمنوا " الدالة على تجدد الفعل بل قال تعالى : " المؤمنون " دلالة على اكتماله وبالتالي ثباته في قلوبهم والذي يؤكد هذا الكمال قوله تعالى بعد ذلك " أولئك هم المؤمنون حقاً " فكيف ينسب لهذا الكمال التردد والاضطراب ؟ فالوجل إذن ثبات لا تردد " الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم " الجملة هنا شرطية فلا توجل قلوب هؤلاء إلا " إذا ذكر الله " واستعمل (إذا) لتحقيق ذلك . إذن فداعيهم للوجل عظيم "إذا ذكر الله " والذكر حقيقته التلفظ باللسان ، وإذا علق بما يدل على ذات فالمقصود من الذات أسماؤها فالمراد من قوله " إذا ذكر الله " إذا نطق ناطق باسم من أسماء الله أو بشأن من شؤونه،مثل أمره وهيئته لأن ذلك لابد معه من جريان اسمه أو ضميره أو موصوله أو إشارته أو نحو ذلك من دلائل ذاته[1]فإذا "ذكر الله " أي الجامع لصفات الكمال من الجلال والجمال مجرد ذكر في نحو قوله" الأنفال لله " "وجلت "خافت خوفاً عظيماً يتخلل صميم عظامهم ويجول في سائر معانيهم وأجسامهم [2].

---

1 - التحرير والتنوير : 15/9

2 - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : 184/3

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهذا يناسب تكرر لفظ الجلالة في الآية السابقة ثــلاث مرات" الأنفال لله " ، "فاتقوا الله "،" أطيعوا الله " فهذا من الذكر هنا ، وهو المقصود الأعلى من الطاعة السابقة.

وهذه المهابة إنما هي استعظام لله -جل وعلا- فالوجل : استشعار للخــوف ذاتــه ووصفت به القلوب دون الأفئدة ، لأن منبع الوجل _كما سبق – معرفة الله واليقين بــه سبحانه وتعالى ، فهذا الوجل يقين لا اضطراب ، كما إن َوجِل بكسر العين في الماضــي على طريقة الأفعال الدالة على الانفعال الباطني وفي ذلك دلالة على انبعاثه تبعاً لاعتقــاد راسخ بعظمة الله وقدرته ، لذا خصت به القلوب المؤمنة.

واتبع هذه الصفة بصفات تؤكد ثبات هذه القلوب حيث قال : " إذا تليت علــيهم آياته زادهم إيماناً " فإذا تليت عليهم الآيات يزدادون إيماناً و لم يقل " يؤمنوا" لأنهم ســبق منهم الإيمان ولكنهم يرقون بالازدياد المستمر في الإيمان ، ونلاحظ أن الفعل هنا مبني لما لم يسم فاعله وفي هذا دلالة على قوة الإيمان وثباته فهم هنا مستمعون "ذُكر,تليت " فالذكر هنا من غيرهم والتلاوة أيضاً فكان هذا حالهم فكيف إذا كانوا هم الذاكرون أو التــالون للآيات ؟

ثم قال " وعلى ربهم يتوكلون " بالتقديم الذي يدل على أنهم لا يصرفون توكلهم البتة في أي حال من أحوالهم على غير الله " ويتوكلون " بالمضارعة لتجدد هذا التوكل في كل حال ، و التوكل من أعظم أعمال القلوب التي لا يؤديها حق أدائها إلا المؤمنون حقاً وفي ورود النظم بتعريف المسند إليه باسم الإشارة تنبه على أنهم جديرون بالمزايا التي أخبر عنها. حيث ذكر صفاتهم وذكر بعدها جزاءهم حيث حكم لهم المولى بأنهم " المؤمنــون حقاً " وكل هذا تأكيد لثبات إيمانهم الملائم لكونه في قلوبهم ، ثم قال : " الذين يقيمــون الصلاة " بالمضارعة أيضاً فهم يقيمونها على وجهها الصحيح دائماً ، فحــالهم مــستمر متجدد في عدم الإخلال بواجبات صلاتهم وهم لا يتوقفون عن الإنفاق وكل هذه دلالــة عظيمة على الثبات واليقين الملائم لحال القلوب قال الفخر الرازي : (وهــذه الــصفات الثلاث مرتبة على أحسن جهات الترتيب ، فإن المرتبة الأولى هــي الوجــل، والثانيــة : الانقياد لمقامات التكاليف لله و الثالثة هي : الانقطاع بالكلية عما سوى الله والاعتماد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بالكلية على فضل الله ، بل الغنى بالكلية عما سوى الله تعالى : والمراتب الثلاثة المتقدمة أحوال معتبرة في القلوب والبواطن ثم انتقل منها إلى رعاية أحوال الظاهر)[1] .

ويظهر لي في الترتيب أمر آخر : وهو أن وجل القلب بمعنى استشعار عظمة الله هو المحرك للأعمال الآتية والباعث لها على أكمل وجه وأتمه ، ثم ما في ذلك من طهارة الباطن وبناء الأعمال على أساس سليم .

وقد ذكر الله ـ جل وعلا ـ هنا الصفات القلبية ، البدنية ، المالية وقابلها بما يناسبها من الجزاء فقوبلت الأعمال القلبية بالدرجات ، والبدنية بالغفران ، والمالية بالرزق الكريم [2].

وفي موضع الحج " الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ "[3] لاءمت القلب السياق القبلي والبعدي حيث إن السياق كان يتحدث عن تعظيم العبادة والتعظيم ينبع من القلب ,كما ركز السياق على مستلزمات القلب وأعمال القلوب ومنها التقوى " فإنها من تقوى القلوب " ، وتربية المهابة في القلوب بتكرار لفظ الجلالة "الله" ،"شعائر الله " ، " ليذكروا الله " والأمر لمن وحده بـ " فله أسلموا " والإخلاص قلبي كما تابع وصف المؤمنين هنا بهذه المستلزمات حتى قال " وبشر المخبتين " والبشارة طمأنينة للقلب والإخبات اجتهاد في العبادة مع الاطمئنان ، أو الملازمة للطاعة مع السكون إليها [4] .

---

1 - التفسير الكبير :5/452،453

2 - البحر المحيط : 4/455

3 - الحج : 35

4 - الفروق اللغوية : 281،280

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لذا أعقبه بصفات تدل على هذا " الصابرين " ، "المقيمي " ، "ينفقون "وقد أبـدلها مـن المخبتين معرفاً لهم باسم الموصول الذي يدل على معرفة الصفات منهم وهذا دليل علـى ثباتهم عليها لذا عرفوا بها وهذا ملائم لثبات القلب .

وفي البدء بالجملة الشرطية بإذا " إذا ذكر الله وجلت قلوبهم " الدالة على التحقيـق دليل تلازم بين ذكر الله ووجل قلوبهم وهذا دليل ثباتهم على هذا الحال.

والنظم هنا مشابه لنظم الأنفال ، ولكن الموصوف مختلف فهناك كـان الوصـف للمؤمنين حقاً وهنا للمخبتين ، وهناك كان في أول أمر الإسلام حيث كان الـسياق في غزوة بدر ، أما هنا ففي عبادة الحج وهي متأخرة كثيراً عن حادثة غزوة بدر ، لذا نجـد اختلافاً في الصفات الواردة بعد صفة وجل القلوب والتي تؤيد أن هذه الصفة كانت صفة ثبات .

ففي الأنفال عطف " وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً " لأنهم في بداية الأمـر ويحتاجون هذه الزيادة في الإيمان هذا وجه ، والوجه الآخر " أنهم المؤمنون حقاً " فكل آية تمر عليهم تزيدهم إيماناً ورقياً .ثم إن طلاقة التوكل على الله من صفات المؤمنين الكـاملي الإيمان فناسب أن يعطف هذه الصفات على وجل قلوبهم.

وناسب أن يعطف " والصابرين " في سورة الحج باسم الفاعل لأن أمرهم قد ثبت وأورد الصبر هنا لأنه ذكر بعدها الإيذاء : "أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا " ، " الـذين أخرجوا من ديارهم "وقيل لأن الحج مظنة لكثرة الخلطة الموجبة لكثرة الأفكار ولاسـيما وقد كان أكثر المخالفين مشركين لأن السورة مكية قال عاطفاً غير متبع ، إيذاناً بالرسوخ في الأوصاف " والصابرين " الذين صار الصبر عادتهم " على ما أصابهم " كائنـاً مـا كان[1] .

ثم عطف والمقيمي الصلاة ومما رزقناهم ينفقون وهي ذات الصفات في حق " المؤمنون حقاً " سوى أن الشأن في الصلاة هناك " يقيمون " وهنا " مقيمي " لوجوه :

1 - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : 152/5

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أولها : أن موضع الأنفال في بداية أمرهم – كما سبق – فالتجدد والاستمرار أليق بحالهم فهو أقل دلالة على الرسوخ من " المقيمي " هنا لأنهم المؤمنون حقاً وشأنهم أعلى ولكن مراعاة للزمن فهم في بداية الأمر أما هنا فقد ثبت حالهم وشأنهم فلاءم أن يكون النظم بالاسم " المقيمي " هذا وجه . ووجه آخر : أن السياق في سورة الحج في عبادة الحج فهم وإن حصل لهم من المشاق بأفعال الحج وغيره ما عسى أن يحصل فهم " المقيمي الصلاة " وعبر بالوصف دون الفعل إشارة أنه لا يقيمها على الوجه المشروع مع تلك المشاق والشواغل إلا راسخ في حبها فهم – لما تمكن من حبها في قلوبهم والخوف من الغفلة عنها_ كأنهم دائماً في صلاة[1] .

فنلاحظ أن القلب ملائم هنا لصفة الوجل التي لا تكون إلا عن يقين وهذا الوجل ليس تردداً بل ثبات ومعرفة حقةبالله _جل وعلا_ " إنما يخشى الله من عباده العلماء " كما أنه من آثار هذا الوجل التي وردت في الآية الصبر ، وإقام الصلاة . والإنفاق المستمر وهذه لا تصدر إلا ممن رسخ إيمانه كما إنها أعمال قلوب فالصبر من أعمال القلوب وإقامة الصلاة - وليس أدائها - من أعمال القلوب والإنفاق لا يثنى عليه إلا إن كان خالصاً لوجه الله وهذا أيضاً من أعمال القلوب ، فنظم الآية يؤكد ملاءمة القلب له وكذلك ما سبقه من الصفات تؤكد ذلك.

وما عقبه أيضاً يؤكد قرار القلب في مكانه في النظم ، حيث ذكر تعالى ﴿ **لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ** ﴾ فالشعائر ليست مقصودة لذاتها ولكن المقصود " التقوى " أي عمل القلب قال "وبشر المحسنين " والإحسان أعلى مراتب العبادة وهو : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فهو يراك وهذا عمل قلبي راق لا يكون إلا من قلوب متمكنة في الإيمان . وحين أراد الله أن يخوف خوف بقوله : " إن الله لا يحب كل خوان كفور " والخيانة والكفر لا تكون إلا في القلب–أعاذنا الله – فإذن التركيز هنا في هذا السياق كان على القلب ومستلزمات القلب في سياق العبادة لذا حين وُصف المخبتون ُوصفت قلوبهم.

---

1 - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : 153/5

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكما وصف القرآن قلوب المؤمنين بالوجل من الذكر وصفها أيضاً بالاطمئنان لذكر الله فقال ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** ﴾ مورداً القلب وذلك لأن القلوب المتحدث عنها قلوب مؤمنة كما إنها وصفت هنا بالاطمئنان ,والاطمئنان سكينة وثبات لا تكون إلا في القلب .

والسياق القبلي قد وصف المؤمنين بصفات فيها قرار وثبات فوصفهم بأولي الألباب واللب الخالص من العقل ولا يصل إلى هذا الخلوص إلا بثبات على العلم والحق ثم وصف هؤلاء " أولي الألباب " بصفات لا تكون إلا فيمن تمكن الإيمان من قلبه حيث أثبت لهم الوفاء بالعهد ونفى عنهم نقضه ووصفهم بالخشية والصبر وإقام الصلاة والإنفاق سراً وعلانية ورد السيئة بالحسنة وكلها صفات دالة على الثبات على الحق، ثم وصف المؤمنين في هذه الآية باطمئنان قلوبهم بذكر الله وقد تقدم هذا الوصف قوله تعالى : " ويهدي إليه من أناب " ، " الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله " فجعل الذين آمنوا بدلاً من " أناب " والإنابة : الرجوع إلى الطاعة ، والرجوع إلى الله بالتوبة وإخلاص العمل(1) وقيل أناب لزم الطاعة ، ومن معاني الإنابة الإتيان مرة بعد مرة (2)وهذه المعاني تدل على لزوم للطاعة وتردد عليها فلا يخرج عنها إلا رجع إليها وهذا دلالة على ثبات الإيمان وقال ابن القيم : إذا استقرت القدم في منزلة " التوبة " نزلت بعده منزلة " الإنابة " وهي تتضمن أربعة أمور : محبته لله ، والخضوع له والإقبال عليه ، والإعراض عما سواه فلا يستحق اسم " المنيب " إلا من اجتمعت فيه هذه الأربع(3)وكلها لا تنبع إلا من قلب ثابت تعمق فيه الإيمان . كما إن في اللفظة معنى الإسراع والرجوع والتقدم والمنيب إلى الله المسرع إلى مرضاته ، الراجع إليه في كل وقت ، المتقدم إلى محابه (4) .

---

1 - المفردات في غريب القرآن :509- الفروق اللغوية :324
2 - ينظر : لسان العرب: 4569/6
3 - مدارج السالكين : 433/1
4 - السابق : 433/1

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فحين يوصف من كانت هذه حاله لا يمكن أن يوصف إلا بالاطمئنان والثبات على الدين وهذا يكون في القلب لذا وصف هنا حال قلوبهم وخصها بذلك و لم ينسب إليهم الأفئدة لأنها لا تليق بمقام هذا ثباته وأناس هذا حالهم.

ونظم الآية يؤكد قرار اللفظة في مكانها " الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله " حيث عرفهم بـ " الذين" للدلالة على أنهم عرف فيهم الإيمان وظهر عليهم ووصفهم بالإيمان" آمنوا " والإيمان عمل قلبي فهو أرقى من الإسلام فكيف إذا كان هذا المؤمن منيباً لله جل وعلا فالإنابة والإيمان لابد أن توصل إلى القرار والسكينة لذا قال " وتطمئن قلوبهم بذكر الله " وحين ذكر تعالى " تطمئن " أوردها بالمضارعة لإفادة دوام الاطمئنان وتجدده حسب تجدد الآيات وتعددها [1]. وكلمة " تطمئن " مرشحة للقلب بعدها فلا يكون الاطمئنان إلا فيه ، فالطمأنينة هي الاستكانة والسرور بذكر الله والسكون به ، وهذا للقلب دون سواه ، ولذا ذكر القلب وأضافه إلى المؤمنين "قلوبهم " لأن الاطمئنان من أحوال القلوب المؤمنة ، ولا يكون ذلك الوصف في الفؤاد .

وفي استعمال القرآن الكريم لم يصف بها إلا الخواص فوردت في شأن إبراهيم عليه السلام ،والحواريين والصحابة ، والنفس المؤمنة المبشرة من الله بالنجاة ، ومن أكره أن يعود إلى الكفر ، وكلها سياقات فيها زيادة إيمان ومنّ من الله بهذا الاطمئنان . فلذا لاءم أن تكون مع القلب خاصة ثم ذكر بعد ذلك سبب هذه الطمأنينة " بذكر الله " وخص الباء هنا دون غيرها لأن فيها بالإضافة إلى السببية الالتصاق فكأن فيه إشارة إلى ملازمة ذكر الله لكي تلازم الطمأنينة القلوب ، فإذا كان سبب الطمأنينة ذكر الله فلا شك في دوامها وثباتها وهذا ملائم للقلوب .

ثم ذيل النظم الآية بقوله : " ألا بذكر الله تطمئن القلوب " وذلك لأن هذا حقيقة مسلمه لا ينكرها إلا جاحد ، وهذا عام في كل القلوب لذا عرف القلوب (بأل) للجنس فكل قلب يطمئن بذكر الله وفي ذلك إشارة إلى أن من لم يطمئن به فليس له قلب ، فضلاً عن أن يكون في قلبه عقل بل هو من الجمادات ، أو إلى أن كل قلب يطمئن به فمن

---

1 - تفسير أبي السعود : 456/3

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أخبر عن قلبه بخلاف ذلك فهو كاذب معاند [1] ويظهر لي أن في " ألا بذكر الله تطمئن القلوب " دلالة على قضية بدهية ولكن من حيث "القلوب الفطرية " فهي في أصل وضعها من دون مؤثرات خارجية تصرفها عن التأثر " تطمئن بذكر الله " لأنها قد خلقت على الفطرة : " كل مولود يولد على الفطرة .. الحديث "[2]فهذه الجملة تذييل جرى مجرى المثل بناءً على مقتضى الأصل والفطرة.واستفتح النظم بـ " ألا " للحض والترغيب في الإيمان .

وفيما عقب نظم الآية من تكرار وصفهم بالإيمان وعملهم الصالحات تأكيد على ثبات الإيمان وقراره في قلوبهم ، كما إن في الوعد لهم " طوبى لهم " سواء كان المقصود بها شجرة في الجنة ، أو الجنة أو كونها مصدر كبشري ، ففي هذا وعد لهم بحسن العاقبة والجنة ، وهذا فيه تثبيت لهم وسكون لأنفسهم فالعاقبة طيبة والمآب حسن .

ولكن لم أورد " الوجل " في موضعي الأنفال والحج ، والاطمئنان في موضع الرعد مع اتحاد السياق العام لجميع المواضع فكلها في بيان أثر القرآن في المؤمنين ؟

وذلك لاختلاف السياق الخاص لكل موضع فالملاحظ أن السياق في الأنفال والحج مؤثر للوجل دون الاطمئنان حيث تقدم النظم في الأنفال بيان اختلاف المؤمنين حول الأنفال ، وكان السياق عتاب ولوم لهم فلاءم لذلك الوجل لا الاطمئنان ، أما موضع الحج فالسياق القريب واضح جداً في ورود الوجل حيث كان الحديث فيه عن المتشابه والوجل فيه أدخل حيث كان موطن فتنه وقد افتتن به كثير من ضعاف الإيمان وارتدوا ، فكان الملائم معه الوجل خوفاً من الوقوع في الفتنه .

---

1 - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : 149،150/4

2 - الحديث : سبق تخريجه ص : 25

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أما موضع الرعد فالبشارة فيه والراحة واضحة لذا لاءمه الاطمئنان " طوبى لهم وحسن مآب "، " مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ " .

وكما أكد ورود اللفظة السياق أكدها النظم أيضاً حيث قال تعالى: "ذُكر " بالبناء لما لم يسمّ فاعله وبالمضي وقد يكون في هذا التذكير تخويف ممن ذكره لأنه يّذكر به وليست هذه الدلالة في " بذكر الله تطمئن القلوب " لأنه يغلب هنا على المعنى اختيار أقوال الرحمة. كما إن في لفظة " ذُكر " سرعة توحي بالمهابة ليست في " بذكر " المصدر الذي يدل على الدوام واستطالة في الزمن قد يكون فيها رحمة وعذاب فيكون الذكر بين ترغيب وترهيب يطمئن القلب بالترغيب وإن حصل له بعض الخوف لكن لا يزال حاله بين الحالين ويؤكد لنا السرعة في "ذُكر " ورود الفعل معها بالمضي " وجلت " والاستطالة في " بذكر الله " ورود الفعل معها مضارعاً " تطمئن " .

وفي قوله تعالى : ﴿ **وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** ﴾[1] .

وصف قلوب المؤمنين بالإخبات للوحي والذكر والإخبات _كما سبق _ هو الاطمئنان بالإيمان والاجتهاد في العبادة والملازمة للطاعة وهو من أسماء الممدوح[2] فالصفة صفة مدح للمؤمنين وفيها دلالة دوام واستمرار على العبادة والطاعة لذا لاءم أن تنسب للقلب .

وقد ورد في السياق القبلي التركيز على القلوب في العبادة ، وكذلك ورد التركيز على القلوب في الاتعاظ بما حصل للأمم السابقة فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور . فالمعول إذن على القلوب ، لذا كان ذلك في الوحي أولى فذكر شأن قلوب الذين أوتوا العلم فقال تعالى ﴿ **وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُواالْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ** ﴾ كما تقدم ذكر موقف المخالفين

1 - الحج : 54
2 - الفروق اللغوية : 281/280

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

من " الذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم " –تقدم بيانه ـــ ، وكل المواقف كانت نابعة من القلب ذلك أن أثر القرآن الكريم يكون في القلب لا في غيره .

وحين نلاحظ النظم نرى كل الألفاظ في نظم الآية ترشح لاستعمال القلب ، وما عقبها أيضاً يؤيد قرارها في مكانها ، فالعلم يقين يرسخ القلوب ،لذا قابله بالشك " ترى الكافرين " ، " لا يزال الذين كفروا في مرية منه" وذلك لأنهم لم يؤتوا العلم .

والملاحظ أن الفعل هنا مبني لما لم يسمَ فاعله " أوتوا " وقد ذكر السامرائي قاعدة في ذلك : بأنه اطرد في نظم القرآن في الإيتاء إذا بني للمعلوم فهو للمدح أما إذا بني للمجهول فهو للذم [1]. وهنا السياق ظاهر في المدح . وأوجه ذلك بأن القاعدة ليست مطردة في القرآن فحين يرد النظم مهتماً بالوصف أو الحدث أو المفعول ،وليس بالفاعل يبنى الفعل للمجهول ، حيث إن الغرض ليس الإيتاء ، وإنما وصف أحوال من أوتي وهذه الآية دليل على ذلك . كما يدلنا على ذلك وصف القرآن لمشاهد القيامة ببناء الأفعال للمجهول ، وذلك لأن الغرض وصف الحدث الدال على الرهبة .

وبناؤه –هنا- للمجهول أدخل في المدح والثناء على المؤمنين حيث فيه اهتمام بأحوالهم وهذا أدل على ثبات الوصف فيهم وبالتالي ذلك ملائم للقلب . وفي وصفه بالحق دلالة ثبات فالحق ثابت لا تزعزع فيه ، وفي تعريف " الحق " دلالة على كونه معروفا يقيناً وكونه معهوداً عندهم .

قال ابن القيم : (إن الله أودع في قلوب عباده : من التصديق الجازم واليقين الثابت والطمأنينة بكلامه ووحيه فإن الله سبحانه فطر القلوب على الحق والانقياد له والطمأنينة والسكون إليه ومحبته ، فإن كل من تدبر القرآن أوجب له تدبره علماً ضرورياً ويقيناً جازماً أنه حق وصدق) [2] .

---

1 - التعبير القرآني : 315

2 - مدارج السالكين : 471/3

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فإذن معرفة الحق موجبة للطمأنينة ولا تكون الطمأنينة إلا في القلب . ثم عطف بالفاء " فيؤمنوا به "" فتخبت له قلوبهم " دلالة ترتيب وفي هذا الترتيب ترتيب رتبي وفي ورود " الفاء" دقة أكثر من "ثم " حيث تجمع الفاء بين الترتيب الرتبي والسرعة وهذا أدخل في مدح هؤلاء المؤمنين حيث أسرعوا في الترقي والزيادة في الإيمان حتى وصلوا إلى الإخبات واجتماع العلم ، والإيمان ، والإخبات لا يكون إلا في القلب ولا يكون في الفؤاد .

وختم الآية بالجملة المؤكدة " وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آَمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ" إتمام للترقي الذي سبق في إيتائهم العلم ، وإيمانهم ، واطمئنانهم حيث زاد عليه بأن هداهم وهذا ترقٍ في رفع منزلتهم في الهداية والإيمان . وفي ورودها بالتوكيد " إن الله لهاد ... " زيادة ثبات وزيادة فضل من الله لا يكون إلا في قلوب مؤمنة .

وفي قول : ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾[1] .

ورد القلب أيضاً , وقد تقدم في أكثر من موضع بيان ملاءمة سياق الزمر للقلب . وقد وصفه هنا باللين إلى ذكر الله والظاهر أن القلوب توصف بالقوة والتمكن والثبات فكيف خالف ووصفها باللين ؟

من الملاحظ أن اللين في الآية ليس من الضعف في شيء بل هو لين نابع عن إدراك الحق واليقين به وبالتالي الانقياد له وقبوله فلين قلوب المؤمنين هنا كان لذكر الله ، ويظهر لي أن معنى " تلين إلى ذكر الله " الشوق إلى ذكره واللهفة إليه ، حتى يكون مقابلاً للآخرين فإذا كانوا اشمأزوا ونفروا, فالمؤمنون في شوق إليه وتلهف وهذا أقوى في مدحهم وبالتالي ثبات قلوبهم على الإيمان ففي المعنى تعلق قلبي بذكر الله وهذا أقوى من أن يرد النظم بـ " تلين من " لأن في (من) معنى حضور الذكر لكن " إلى " الشوق إليه حتى ولو كان غائباً وهذا من تعلق قلوبهم بذكر الله وهذا اللين ثبات وقوة لا ضعف فيه .

---

1 - الزمر : 23

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واللين في القرآن استعمل فقط حين يكون سببه قدرة إلهية " فبما رحمة من الله لنت لهم " فلان لهم الرسولﷺ بفضل الله ورحمته بعد أن خالفوا أمره فسبب اللين إذن عظيم وقال تعالى " ألنا له الحديد " والحديد لا يلين إلا بقدرة الله جل وعلا وهكذا هنا القلوب فهي على قوتها وثباتها ولكنها تلين وتنقاد وتطمئن لذكر الله .

وما ورد في نظم الآية يؤكد على قرار القلب في مكانها حيث بدأ بقوله :" الله نزل أحسن الحديث" فإيقاع لفظ الجلالة (الله) مبتدأ وبناء" نزل " عليه فيه تفخيم لأحسن الحديث ومن ثم تمهيد للمهابة الحاصلة منه من اقشعرار جلودهم " تقشعر جلود الذين يخشون ربهم " أي تنقبض وتجتمع وتقف وتصاب بالرعدة [1]. والجلود هنا ظواهر الأجسام وإنما اقشعرت حين نزل عليها القرآن وذلك لأنه لا إدراك لديها بذاتها وإنما إدراكها ينبع من القلب فأول وهلة ترتعد ولكن حين يدرك القلب تلين وهذا ملائم للقلب لأنه إذا كان هذا ظاهر جسد المؤمن فكيف بقلبه ؟. وقد خص بهذا " الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ " فالقشعريرة إذن إجلال وهيبة لا انصراف وخوف مبعد عن الحق . وذكر الخشية هنا مرشح لذكر القلب حيث إن الخشية من أعمال القلوب ، وتكون من عظم المخشي وهذا يُحدث الأثر المذكور ، " ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ " تمتد وتنعم ، وقدم ما صرح فيه بالاقشعرار الذي يلزمه اليبس وأخر القلوب إبعاداً عما قد يفهم يبساً فيوهم قسوة فقال : " جلودهم " لتراجعهم بعد برهة إلى الرجاء وإن اشتدت صلابتها ،" وقلوبهم " وذكره لتجدد لين القلوب مع الجلود دال على تقرير اقشعرارها معها من شدة الخشية ، فإن الخشية لا تكون إلا في القلب ، وكان سر حذف التصريح بذلك تنزيهها عن ذكر ما قد يفهم القسوة[2] .

---

1 - لسان العرب : 5 /3638

2 - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : 439/6

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولا يفوتنا أن نلاحظ العطف بـــ " ثم " والتي تفيد التراخي الرتبي –هنا- وفيه دلالة على ترقيهم في الإيمان والتأثر بالقرآن حيث بدأ أولاً بالأثر الظاهر تقشعر جلودهم مـــن الخشية ثم بعد ذلك تلين وتلين معها القلوب ليناً يتأصل فيها حتى أنها تشتاق إليه لذا قـــال "إلى ذكر الله " و لم يقل " من ذكر الله " وهذا أدخل في مدحهم والثناء عليهم .

وفي هذا تعريض بقلوب من أعرض " القاسية قلوبهم " وفي هذا الترقـــي وكمـــال الإيمان لهم ملاءمة لكونهم " أولو الألباب " .

وقيل في الجمع بين الحالتين في الآية هنا " تقشعر – تلين " لوقوعها بعد قوله "مثاني" وإلا فقد اقتصر على وصف المؤمنين بالوجل في قوله تعالى : " إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم " فالمقام هنا لبيان تأثر المؤمنين بالقرآن ، والمقام هنالك للثنـــاء علـــى المؤمنين بالخشية من الله في غير حالة قراءة القرآن [1] ويظهر لي أن فيه -كمـــا ســـبق – تعريضاً وذماً للقاسية قلوبهم حيث تأثرت حتى الجلود وأولئك قست قلوبهم .

وفي الإشارة بـــ " ذلك هدى الله يهدي به من يشاء " تأكيد على قرار القلب ففي هذه الهداية دليل زيادة التثبت حيث هي بمعنى هداية معونة وتثبيت وهي لطائفة خاصة من الناس تليق بحالهم فاستحقها هؤلاء ، لذا قابلهم بضدهم " ومن يضلل الله فما له من هاد " والضد بالضد يعرف .

وفي قوله تعالى : ﴿**الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَـــدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾ [2] بين موقف المؤمنين من الوحي ثم جعل هذه الصفات لأولي الألباب خاصة وهذا ملائم للسياق العام للسورة – كما سبق بيانه- .

والسياق القبلي القريب أكد على التقوى والإخلاص وخير الناس من عباده ، وجعل سبب النجاة الإخـــلاص وركـــز على تكرار لفظـــة العبادة " ذلـــك يخـــوف الله بـــه عباده "" يا عباد فاتقون " ، " وبشر عبادي " وأبدل منها " الذين يستمعون القول "

---

1 - التحرير والتنوير : 71،72/24

2 - الزمر :18

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فهي بيان لها وتفسير وهناك ملاءمة بين عباد و " أولو الألباب" ، فعباد لا تطلق إلا على خاصة الناس وخالصهم وكذلك الألباب لا تطلق إلا على خاصة العقول وخالصها .

وكل الألفاظ الواردة في نظم الآية مؤكدة على قرار " الألباب " في نظمها فكل الصفات الواردة فيها لا تكون إلا لمن كمل عقله وخلص حيث وصفهم بقوله " الذين يستمعون القول " فعرفهم أولاً باسم الموصول " الذين " دلالة على معرفة ذلك منهم واشتهار هذا الوصف فيهم وقال " يستمعون " دون يسمعون لما في الاستماع من دلالة من استفادة المسموع بالإصغاء إليه ففي الاستماع زيادة فضل واستفادة ليست في يسمعون وورودها بالمضارعة دليل تجدد ذلك منهم وهذا لا يكون إلا من " أولو الألباب " .

ونجد أن قوله: " الذين يستمعون القول .. "إيماء إلى وجه الخبر حيث إن اتباع أحسن القول سبب في حصول الهداية كما إنه لا يختار هذا الاختيار إلا " أولو الألباب " فأشار اسم الموصول ورشح للخاتمة .

وفي عطف " فيتبعون أحسنه " دلالة على أن ذلك لا يصدر إلا من " أولو الألباب " حيث يدل العطف بالفاء على سرعة إدراكهم للحسن وعدم أخذهم وقتاً في ذلك وما هذا إلا لصفاء عقولهم وكمالها ، ثم فيه إيماء إلى إرادة الشرط في " الذين" للإشارة إلى التلازم وعدم الانفكاك بينهما في كل أمرهم .

كما إن في اسم التفضيل " أحسن " . وليس مستعملاً هنا في تفاوت الموصوف به في الفضل على غيره فهو للدلالة على قوة الوصف وهذا ملائم لقوة إدراك العقول وكونها " ألباباً " ، كما إن في اسم التفضيل دليل اختصاص للأفضل على غيره وهذا ملائم لاختصاص الألباب بخاصة العباد .

وفي قوله " الذين هداهم الله " جعل المسند إليه إشارة لتمييز المشار إليهم أكمل تمييز مع التنبيه على أنهم كانوا أحرياء بهذه العناية الربانية لأجل ما اتصفوا به من الصفات المذكورة قبل اسم الإشارة من اجتنابهم عبادة الأصنام مع الإنابة إلى الله ، واستماعهم كلام الله وإتباعهم إياه نابذين ما يلقي به المشركون من أقوال التضليل . وهو ما أشار إليه البلاغيون من أغراض تعريف المسند إليه باسم الإشارة من تميز به عن غيره وبيان كونه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

جديراً بالصفات التي ترد قبله والجزاء الذي يرد بعدها[1]. وفي تعريف الجزأين " أولئك الذين هداهم الله " قصر الهداية عليهم وهو قصر صفة على موصوف قصر إضافي قصر تعيين ، أي دون الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم[2]. وهي هداية عون وفي ذلك زيادة في الفضل وبيان أنهم بلغوا درجة عالية في الإيمان لذا خصهم بالعون وهذا الاختصاص يلائم " أولو الألباب " ، لذا كان وصفهم الثاني " وأولئك هم أولو الألباب " باستعمال تعريف المسند إليه باسم الإشارة تمييزاً لهم ، ولجعلهم جديرين بما يذكر لهم من عظم الجزاء والإتيان بضمير الفعل " هم " بين المبتدأ والخبر وتعريف أولو الألباب " بأل " إنما يفيد أن القصر والتأكيد أي أن هؤلاء لا غيرهم أولو الألباب حقاً . وهم أولى من يسمون بـ " أولو الألباب " فإنه لم يقل " أولئك أولو الألباب " أو" من أولي الألباب" لأفاد أن اتصافهم بهذه الصفة ليست على صفة الكمال ، أو قد يشاركهم فيها غيرهم فقال ذلك للدلالة على أنهم هم أولوا الألباب دون غيرهم ، وهم المتصفون بأولي الألباب إلى الحد الأقصى[3].

فالملاحظ أن جميع الألفاظ الواردة مؤكدة لقرار " الألباب " ودقتها في نظمها ونلاحظ أن طريقة النظم مقرة لها أيضاً فالترقي في المدح والجزاء ظاهر في النظم حيث بدأ بـ " يستمعون " ثم ترقى بهم " فيتبعون أحسنه " ثم ترقى بهم " أولئك الذين هداهم الله " ثم ترقى " أولئك هم أولو الألباب " حيث ذكرها في الثانية و لم يذكرها في الأولى وهذا أدخل في الترقي باختصاصهم بالفضل ، ثم يظهر الترقي في الجزاء الأخروي أيضاً حيث ذكر النظم " لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف " " من فوقها غرف مبنية " " تجري من تحتها الأنهار " .

---

1 - الإيضاح في علوم البلاغة :53/51،المطول: 224،خصائص التراكيب: 206، دلالة التراكيب : 165
2 - التحرير والتنوير : 51/24
3 - روح المعاني : 117/28

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ونلاحظ أن في العطف بالواو " أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ " استقلال كل جملة بالحكم وهذا أدخل في مدحهم وبيان الكمال في وصفهم وهذا ملائم لــ "أولوا الألباب " دون غيرها من الألفاظ .

وفي كل المواضع المتقدمة بيان حال المؤمنين من القرآن فهم بين وجـــل واطمئنـــان واستماع له وفهم خالص وشتان بين موقفهم وموقف الكافرين من ازديادهم رجـــساً إلى رجسهم وانصرافهم عن الذكر واشمئزازهم ونفورهم وما ذلك إلا لما وقر في قلب كـــل منهما فتبعته الجوارح .

وفي قوله تعالى : ﴿ **مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾[1]

وردت لفظة القلب دون غيرها لملائمتها للسياق والنظم فالسياق في بيان صـــفات من افترى على الله الكذب وهذا الافتراء لا يكون إلا ممن تعمق الكفر في قلبه ، لذا حين ورد الاستثناء منهم ورد لمن تعمق الإيمان في قلبه " وقلبه مطمئن بالإيمان " .

وكل الصفات الواردة في الآية دليل على تمكن كفر من يفتري الكذب من اتهامهم الرسول بافتراء القرآن ، وقولهم إنما يعلمه بشر، وكفرهم بآيات الله وافتـــرائهم الكـــذب والافتراء افتعال يدل على تكلف ذلك وتعمده وهذا لا يكون نابعاً إلا من قلوب تمكـــن فيها الكفر .

لذا حين ورد النظم قال تعالى : " من كفر بالله من بعد إيمانه " بالتصريح بلفـــظ الجلالة وفي هذا تربية مهابة للقلوب وبزيادة "من " الدالة على بعد زمني فالكفر بعد طول زمن الإيمان دليل تمكن َدخل في قلوبهم وإصرار على الكفر يلائم القلب فحين قابلهم بمن يضادهم قال : " إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ " ذكر القلوب خاصة وجعل وصـــف الإيمان متعلق بها لابذواتهم فلم يرد النظم " مطمئنين بالأيمان " بل ورد قوله تعـــــــالى : " وقلبه مطمئن بالإيمان " وهذا أدل على تمكن الإيمان حيث نسب للقلوب ، كمـــا إن الإيمان إنما هو مـــن أعمال القـــلوب وقـــدم " قلبه "لأن عـــلى القـــلب المــــــعول

---

1 - النحل : 106

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والاهتمام هنا بالقلب فهو المحرك وهو محل الإيمان الصادق أو ضده . والتصريح به دليل ثبات الإيمان ، وأكد هذا الثبات ورود الجملة بالاسمية " قلبه مطمئن " ، "بالإيمان " تخير الباء " وفيها دليل ملابسه والتصاق يؤدي معنى الثبات والتمكن . وفي قوله " بالإيمان " دليل ثبات أيضاً حيث أورد الإيمان بالمصدر الدال على الدوام ، وعرفه "بأل" الدالة على كمال الوصف وكل ذلك ملائم لثبات القلب وتمكنه .

وحين قابلهم بضدهم قال تعالى : " وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا " فذكر " الصدر " ولم يذكر " القلب " على الرغم من أن كل الأفعال السابقة من الكفار نابعة من قلوبهم فهي عن تعمد واعتقاد ولكن ورود الصدر هنا ملائم للشرح الذي فيه معنى اتساع وانبساط لا يكون في القلب بل في الصدر كما إنه اطرد في استعمال القرآن ورود شرح مع الصدر لا مع القلب " قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي" [1] "أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ " [2] " فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ " [3]وهذا لا يناقض أن يكون عملهم عن اعتقاد لأنهم شرحوا ووسعوا صدورهم للكفر فكان كل فعلهم نتاج هذا الكفر ، لذا ترتب على فعلهم جزاؤهم " فعليهم غضب ولهم عذاب عظيم " .

وفيما ورد في السياق البعدي من بيان أفعال الكفار وعقابهم فيه تركيز على القلوب فمن يستثنى منهم لابد أن يكون التركيز أيضاً على أفعال قلوبهم .

وفي قوله تعالى :﴿ **وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ** ﴾ [4] وصف قلوب المؤمنين بالوجل في سياق بيان حالهم عند العبادة ، والملاحظ أن السياق العام لسورة " المؤمنون "يقوم على التركيز على صفات موصوفين متقابلين (المؤمنون) ، (الكافرون) ولذا بدأها بـ" قد أفلح المؤمنون " وختمها : " إنه لا يفلح الكافرون "

---

1 - طه : 25
2 - الشرح :1
3 - الأنعام : 125
4 - المؤمنون : 60

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فسورة (المؤمنون) مشحونة بجو الخشوع والأمور القلبية مثل التقوى " وأنـــا ربكـــم فاتـــقون " " إن الذين هم مـــن خشية رهم مشفقون " والخشية والإشفاق أمر قلبي وهما من لوازم الخشوع " والذين يؤتون ما آتوا وقلوهم وجلة " والوجل أمر قلبي وهـــو مـــن لوازم الخشوع أيضاً حيث ذكر أولاً من صفاهم " الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ "[1]

أما الكافرون فقلوهم في غمرة ، ويستكبرون عن الحق ويكرهونه ولا يتضرعون لله ولا يتقونه وكل هذه الأعمال ظاهر أها من أعمال القلوب.والـــسياق في (المؤمنـــون) في وصف من كمل إيماهم وحكم لهم بالفلاح " قد أفلح المؤمنون " ولم تقل " الذين آمنوا " ومن كمل إيمانه ثبت قلبه ، لذا كانت القلب هي الملائمة هنا .

والملاحظ أن نظم الآية افتتح الجملة بـــ " إن " للاهتمام بالخبر وتأكيده ، والإتيان بالموصولات في صفات المؤمنين الأربعة للإيماء إلى وجه بناء الخبر ، وهو أهم يسارعون في الخيرات ويسابقون إليها وتكرار أسماء الموصولات للاهتمام بكل صلة من صلاهّا ، فـــلا تذكر تبعاً بالعطف ، والمقصود الفريق الذين اتصفوا بصله من هذه الصلات . وفيه أيضاً إشارة إلى معرفة ذلك فيهم وظهوره واشتهار ه عنهم . وتقديم المجرورات الثلاثـــة علـــى عواملها للاهتمام بمضموها ، وأيضاً لبيان قوة الصفة فيهم ولذا جاء فيها بالضمير " هم " لتأكيد الصفات لهم . وهذا النظم ملائم للقلب فكل التأكيدات وبيان قوة الصفة دليـــل ثبات وتمكن وهذا لا يكون إلا في القلب .

ونلاحظ أن الصفات المذكورة ذكرت بصيغة تدل على ثباهّا ثباتاً يلائـــم لفظـــة القلوب بعدها ومؤكد على أن الوجل المذكور مع القلوب هو وجل الهيبة والجلال النابع من يقين بالله أكدته الصفات السابقة لهذه الصفة وهي الإشفاق الذي كان من خشية الله -جل وعلا- وقال " من خشية رهم " والخشية خوف يشوبه تعظيم[2]

1 - لمسات بيانية في نصوص التنزيل :فاضل السامرائي ,عمان ,دارعمار: 131
2 - الفروق اللغوية:270

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال " ربهم " و لم يقل " الله " فإذا كانوا يخشون ربهم الرحيم المنعم في حالة الإنعام فهذه دلالة على قوة إيمانهم وتمكنه تمكناً يسكن القلوب والإشفاق رقة الخـوف . وهـو دوام الحذر وأوردت الصفة باسم الفاعل دلالة على ثبوتها ، ثم ذكر أنهم بآيات ربهم " يؤمنون " بالمضارعة وهذا يلائم استمرار نزول الآيات فيستمر الإيمان بها ثم قال " والذين هم بربهم لا يشركون" فلم يثبت الإيمان فقط بل نفى ضده " لا يشركون" والمراد هنا نفي الشرك الخفي وهو أن يكون مخلصاً في العبادة ولا يقدم عليها إلا لوجه الله تعالى[1]- دلالة علـى امتداد زمن إيمانهم وتأبيده وهذا أدعى لملاءمة حال القلوب وأليق بأن يكون صـفة لمـن يسارع في الخيرات ويكون سابقاً لها .

ثم قال تعالى في نظم الآية ﴿ **وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ**﴾ والمعنى يعطون ما أعطوا فدخل فيه كل حق يلزم إيتاؤه سواء كان ذلك مـن حق الله تعالى ، أو من حقوق الآدميين ولكن لثبات إيمانهم لا يدخلـهم العجـب فيمـا يقدمون وهذا من تمام إيمانهم ونلاحظ أنه عبر بالمضارع "يؤتون " أي كل أفعالهم علـى استمرارها وتجددها محل همة منهم لا يند منها شيء لا يخافون من عدم قبوله وهذا دلالة على قوة الإيمان وقد سألت عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ فقالت : " وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ " أهو الذي يزني ويشرب الخمر ويسرق وهو على ذلك يخاف الله تعالى ؟ فقال عليه الصلاة والسلام إن لا يا ابنة الصديق ولكن هو الرجل يصلي ويـصوم ويتصدق وهو على ذلك يخاف الله تعالى" [2] فإذن الخوف ليس من فعلهم المعصية فخافوا العقاب بل من خوف عدم القبول لأنهم عرفوا قدر الله وعلموا قصور أعمالهم أمام هيبتـه وجلاله وأمام كرمه ونعمه على ابن آدم . فهذا يقين سكن نفوسهم ولاءم أن توصف به قلوبهم .

---

1 - مدارج السالكين : 518/1

2 - الحديث : سنن ابن ماجة ,محمد القزويني ,ت:محمد فؤاد عبد الباقي ,دار الفكر,:1404/2هـ: رقم 4198

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والواو –هنا- حالية فهذا الوجل حالهم الدائم الذي لا يفارقهم ، وحق الحال إذا جاءت بعد جمل متعاطفة أن تعود إلى جميع الجمل التي قبلها [1]، فسبب الخشية وجل قلوبهم ، وهو سبب إيمانهم وإخلاصهم وبذلهم فحين عظم الله في قلوبهم كان دافعاً للأعمال القلبية الواردة .

وقدم " قلوبهم وجلة " و لم يقل " وجلة قلوبهم " دلالة على اختصاص هذه القلوب بالوجل ، وتمكن الوجل منها حتى أصبح حكماً عليها وهذا أقوى من " وجلة قلوبهم " كما إن الاهتمام أصلاً بالقلوب لذا قدمت .قال صاحب التفسير الكبير : واعلم أن ترتيب هذه الصفات في نهاية الحسن ، لأن الصفة الأولى دلت على حصول الخوف الشديد الموجب للاحتراز عما لا ينبغي ، والصفة الثانية : دلت على ترك الرياء في الطاعات ، والصفة الثالثة : دلت على أن المستجمع لتلك الصفات الثلاثة يأتي بالطاعات مع الوجل والخوف من التقصير وذلك هو نهاية مقامات الصديقين [2] .

ويزيد تأكيد هذا اليقين بالجملة المؤكدة " أنهم إلى ربهم راجعون " فهم يدركون يقيناً أنهم ما أدوه حقه بكل ما قدموا فحري بهم عدم الأمان إلا أن يرحمهم الله . ثم أتبع ذلك ما يؤكد لنا من الأوصاف والتي لا تصلح إلا في القلب لتمكنها ، ولكونها منازل من الإيمان لا يصل إليها من في جوفه فؤاد مضطرب متردد بل لمن كان له قلب ثابت الاعتقاد متمكن في الإيمان ، لذا أشار إليهم بـ " أولئك يسارعون في الخيرات " ناسباً الفعل إليهم فلشدة تمكن الإيمان من قلوبهم هم يسارعون ويسابقون في الخيرات فبسبب يقين القلب وإيمانه نشطت الجوارح في الطاعة " وهم لها سابقون " عبر باللام إشارة إلى زيادة القرب منها والوصول إليها وأنهم لا يسابقون إلا في الخيرات دون غيرها ولسبقهم ومسارعتهم دليل تعلق ذلك بالقلب فتحرك القلب وهمته همة للجوارح فتعقيب " قلوبهم وجله " بهذه الإشارة " أولئك " والوصف لهم بـ "يسارعون في الخيرات " بالمضارعة الدالة تجدد

1 - التحرير والتنوير :63/18
2 - التفسير الكبير : 28/8

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ذلك منهم و "هم لها سابقون " باسم الفاعل الدال على فوزهم وتقدمهم الثابت الـــدائم فلا يتقدم عليهم أحد تأكيد على قرار القلب في نظمها .. ولو أبدلنا الفؤاد لا ختل المعنى ولكان هناك اضطراب في النظم وانعدام للملاءمة في السياق.

وفي قوله تعالى: ﴿**أَمَّنْ هُـــوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْـذَرُ الْـآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُـوا الْأَلْبَابِ**﴾[1] .

وردت لفظة (الألباب) والسياق في المقارنة بين الذين عرفوا الله فعبدوه على بصيرة وبين من لم يعلم فهل يستويان ؟

وسياق سورة الزمر العام – كما سبق – يدلنا على سبب ورود هذه اللفظة دون غيرها حيث إن عمود السورة يتحدث عن الإخلاص . قال البقاعي : وما أحسن التعـــبير هنا باللب الذي هو خلاصة الشيء لأن السياق للإخلاص[2]. والإخلاص كمـــا يكـــون لخلاصة الناس فهو أيضاً لا يكون إلا لمن كمل إيمانه وهذا ملائم لكمال الألباب ، كما إن الإخلاص هو لب العمل وكذلك اللب فبينهما تناسب وجوه .

ثم إن الآيات في السورة تدعو إلى التقوى والتقوى كمال في العبادة لا يصله إلا من كمل له عقله .

إذن السياق عامة يقتضي الألباب ، وكذلك نجد نظم الآيات مرشحاً لهـــا فتقـــدم بألفاظ تقتضيها وتعقبها بما يؤكدها .

ونلاحظ أن الآية بدأت بـــ " أمن " وفيها قراءتان بتخفيف الميم ، وقد قرأ بها نافع وحمزة وابن كثير ، والباقون بتشديدها [3].

فمن قرأ بالتخفيف فله وجهان قال النحاس : والوجهان حسنان[4] : أحـــدهما أن تكون الهمزة للنداء والثاني : أن تكون للاستفهام ,أمامن قرأ بالتشديد فله وجـــه واحـــد وهوكونها للاستفهام والتقدير:أم الذي هو قانت أفضل ممن ذكر ؟ قال الأزهـــري وهـــو الوجه .

---

1 - الزمر : 9
2- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : 428/6
3 - معاني القراءات : 335
4 - إعراب القرآن : 808/2، 809

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكلا القراءتين سبعية فلكل منهما وجه يلائم " أولو الألباب " فوجه النداء يـدل علـى قرب هؤلاء المتصفين بهذه الصفات حيث استعملت أداة النداء " الهمزة " وهي للتقريـب فقد ناداهم في حال قيامهم في آناء الليل ساجدين وقانتين وهي الحالة التي يكون العبد فيها قريباً منه فلاءم ذلك الهمزة من هذا الوجه ، كما إن القرب يلائم معرفة أولي الألباب بالله وشوقهم للوصول إلى رضا الله . وكل ذلك لا يكون إلا من أولي ألباب .

وفي قراءة التشديد معنى الاستفهام وتلائم " الألباب " بكون المقصود منها النفـي الإنكاري وهذا النفي يقتضي تفضيلهم عمن سواهم وكون غيرهم لا يمكـن أن يكـون مثلهم بل ينكر على من يظن هذا . وهذا أدخل في مدح أولي الألباب كما أن معنى النفي الإنكاري في " أمن هو قانت " يلائم الاستفهام في " قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون " فهو أيضاً للنفي الإنكاري فناسب صدر الآيـة عجزها وهذا أيضاً فيه بيان لكون " أولو الألباب " خاصة الناس وهذا ملائم لتسميتهم بأولي الألباب .

وفي وصفهم بـ " قانت آناء الليل " تأكيد على ملاءمة " أولو الألباب " فالقنوت هو : لزوم الطاعة وقيل الدعاء في الصلاة [1]، وحقيقة القانت أنـه القـائم بـأمر الله ، فالداعي إذا كان قائماً خص بأن يقال له قانت ، لأنه ذاكر لله تعالى ، وهو قـائم علـى رجليه ، فحقيقة القنوت العبادة والدعاء لله عز وجل ، في حال القيام ويجوز أن يقـع في سائر الطاعة ، لأنه إن لم يكن قيام بالرجلين ، فهو قيام بالشيء بالنية[2] .

والملاحظ أن كل معاني القنوت تدور حول التزام الطاعة وقتا طويلاً والقيام بها على استقامة وهذا يستلزم صبراً ، ويستلزم إخلاصاً لا يكون إلا من أولي الألباب ، إضافة أن القنوت في جميع سياقات القرآن ورد مع الخواص كإبراهيم عليه السلام ، ومريم البتول ، وأزواج رسول الله ﷺ .

---

1 - المفردات في غريب القرآن : 413
2 - لسان العرب : 3748/5

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وحين ورد في شأن المؤمنين ورد فيمن كمل إيمانهم كما شُفع في النظم بصفات تؤكد هذا الكمال كحفظ الغيب وعمل الصالحات وغير ذلك ، وكونه للخواص يلائم أن تختم الآية بمن خص بكمال العقل وهم " أولو الألباب " وفي بيان حاله " ساجداً أو قائماً" تأكيد على هذا الكمال ، وفي تحديد الوقت بقوله " آناء الليل " دون أن يكون في ساعات النهار دلالة على الإخلاص والصبر على العبادة والملائم لكمال أولي الألباب كما إنه قدم السجود على الركوع لأن المقام مقام إخلاص ، ولما كان الإخلاص أقرب مقرب إلى الله لأنه تجرد عن جميع الأغيار، وكان السجود أليق الأشياء بهذا الحال .وفي تعبير النظم بالاسمية "ساجداً" ، " قائما " تنبيه على دوام طاعة وإخلاص ، وقال " يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه " بالمضارعة وفي ذلك بيان تقلب حاله بين هذين الحالين ، فهو بين الخوف والرجاء وهذا هو اللائق بـ " أولو الألباب " .

وتقديم الحذر على الرجاء دلالة كمال العقل حيث لم يركن إلى عمله السابق الدائم بل هو يستعد ليحصل على الرحمة من ربه .

وبين الصدر والعجز تناسق عجيب حيث بدأ فيها بذكر العمل وختم فيها بذكر العلم وهذا يدل على أن كمال الإنسان محصور في هذين المقصودين ، فالعمل هو البداية والعلم هو النهاية [1]. وهذا ملائم بأن يختم بعد هذا الكمال بقوله " إنما يتذكر أولو الألباب " وهم الذين كملت عقولهم وخلصت من الشوائب فهذا ملائم لكمال العمل والعلم ، ولا يدرك هذا التفاوت العظيم الحاصل بين العلماء والجهال إلا " أولو الألباب " [2] ، ولذا علل جانب إثبات التذكر للعالمين ونفيه عن غير العالمين بطريق

---

1 - التفسير الكبير : 429/9 ، 428

2 - السابق : 429/9

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الحصر لأن جانب التذكر هو جانب العمل الديني وهو المقصد الأهم في الإسلام لأن بـه تزكية النفس والسعادة الأبدية ، ولما كان أهل العلم هم أهل التذكر دون غيرهم أفاد عدم استواء الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، فليس قوله : " إنما يتذكر أولو الألباب " كلاماً مستقلاً.

كما إن " يعلمون " ملائم لكمال " أولو الألباب " حيث أنزل مترلة اللازم فلـم يذكر له مفعول : والمعنى الذين اتصفوا بصفة العلم ، وقد دل على أن المراد الذين اتصفوا بصفة العلم قوله عقبه " إنما يتذكر أولو الألباب " لأنه لا يكون المرء ذو لب إلا إذا كان العلم وصفاً غالباً له .

ونلاحظ تناسق تركيب نظم الآية الملائم لـ " أولو الألباب " حيث حذف المقابل ونص على الأفاضل مع حذف المقابل في الفاصلة والتعريض بهم عن طريق إنما والاكتفـاء بالأفاضل : "أولو الألباب " وفي هذا دلالة على أن من ذكرهم خواص الناس وأفاضلهم ؛ لذا أعرض عن ذكر من سواهم ، وهذا ملائم لأن يكون المذكور " أولو الألباب " .

واستمر السياق في أمر المؤمنين بالتقوى وإيراده للإحسان في حيز الصلة بـالتقوى وفي ذلك إيذان بأهما من باب الإحسان وأهما متلازمان ، والإحسان والتقـوى كمال - كما سبق - في العبادة ملائم لكمال " أولو الألباب " وفي مقارنة الـصفات الـواردة لأولي الألباب بصفات غيرهم ممن لم يكن مخلصاً لله فيلجأ لله في الضراء وينسى نعم ربه في السراء دلالة على كمال " أولو الألباب " حيث ثبتوا على حال واحدة وهي الإخلاص لله في كل الأحوال فاستحقوا بأن يكرموا بلب العقل وخالصه .

***

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومما وصف الله تعالى به المؤمنين مورداً القلب قوله تعالى : **﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾** [1] .

فنظم الآية يتكلم عن إيمان كتبه الله في قلوب من حاد من يحاد الله ورسوله. فالسياق في وصف حزب الله وقال البقاعي (إن الأكثر منها المراد فيها بالخطاب من يصح أن ينظر إليه تارة بالجلال وتارة بالكمال ، فيجمع له الوصفان ، وهو من آمن) [2] .

وهذا ملائم للقلوب ، ثم إن تكرار لفظة الجلالة في هذه السورة خاصة في كل آياتها يربي مهابة لا تكون إلا في القلوب ، وإدراك الجلال والعظمة في لفظة الجلالة لا يكون إلا في قلوب مؤمنة .

والحديث في الآيات عن الولاء والبراء ، ولا يصل إلى معاداة من حاد الله ورسوله إلا من كان مخلصاً ، وهذا الإخلاص لا يكون إلا في القلب ، ولا يكون إلا ممن وصل إلى درجة عالية في الإيمان تلائم ثبات القلوب .

ونظم الآية ذاتها ومقارنة حال المؤمنين بحال الكافرين والمنافقين الذين جعلوا مودتهم لمن حاد الله ورسوله يؤكد على قرار لفظة القلب ، فحال المؤمنين تمكن بعون من الله -جل وعلا- ، وحال المنافقين اضطراب .

وقد بدأ النظم بقوله تعالى : **﴿ لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾** بالنفي بـ (لا) التي تفيد الاستقبال فلا يوجد من يؤمن بالله واليوم الآخر يواد من حاد الله ورسوله دائماً وأبداً . لا حالاً ولا مستقبلاً وفي هذا دلالة على تمكن الإيمان بل الوصول إلى الإيمان المطلق ، وهذا ملائم لحال القلوب لذا قال "يؤمنون "بالمضارعة فهم مستمرون على هذا الإيمان ، فتجدد إيمانهم في قلوبهم

---

1 - المجادلة : 22

2 - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : 507/7

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولذا خص في الذكر هنا الإيمان بالله واليوم الآخر ، وذلك لأن الإيمان بالله فيه إجلال وهيبة تكون في القلوب ، والإيمان باليوم الآخر يحتاج يقيناً فهو أمر غيبي هذا وجه ، ومن وجه آخر قد يكون في ذلك إشارة إلى أن هؤلاء ماثل أمامهم اليوم الآخر دائماً ، لذا هم مستعدون له ومن ذلك معرفتهم أن النجاة في ذلك اليوم بمحادة الكفار . وهذا الاستعداد لا يقبل عليه إلا من تمكن إيمانه في قلبه .

كما إنه قال " يوادون " فذكر المودة خاصة والمودة من أحوال القلوب ، وليس ذلك في المناصرة ، أو الاتخاذ " لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ " فحين ذكر المودة وأهم لا يولوهما لمن حاد الله ورسوله كان لزاماً أن يذكر حال القلوب دون غيرها .. ولذا ذكر في الميل أقرب الناس ﴿ **وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي** ﴾ وذلك لأن الميل إلى هؤلاء أعظم أنواع الميل ومع هذا فيجب أن يكون هذا الميل مطروحاً بسبب الدين [1] .

والجمع بين هؤلاء لاستغراق جميع أنواع النصرة ، سواء كانت للدم أو القرابة أو الدين أو العرق . فكان حال قلوبهم أن " كتب في قلوبهم الإيمان " فكانت الصلة قوية بين فعلهم وجزائهم حيث إن فعلهم في أخص الولاء والبراء ، فهم لم يوادوا من حاد الله أياً كانت القرابة والصلة وهذا لا يكون إلا من قلب مخلص فهو إذن عمل قلبي لذا كان الجزاء مركزاً على القلب .

ونلاحظ أنه قابل أزلية عدم المودة لمن يحاد الله ورسوله ﴿ **لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ** ﴾ حيث نفى الوجود ولم ينفِ الوقوع بأزلية الإيمان في قلوبهم " كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ " فلا انفكاك له " في قلوبهم " فجعلها أوعية له فأثمر ذلك نور الباطن واستقامة الأعمال الظاهرة [2].

---

1 - التفسير الكبير : 499/10

2 - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور :7 /507

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن الملاحظ أنه خص " كتب " دون (جعل) أو (أدخل) وذلك لأن كتــب في مواضع القرآن كله تدل على التقدير الأزلي ، ولأشياء لا يمكن أن تتبدل أو تتغير " كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ " ، " قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللّهُ لَنَا " ، "كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي " ، " لولا أن كتب الله عليهم الجلاء " وورد الفعل بالمضي فيهـا جميعـاً وفي ذلك دلالة على حصوله ، وهذا يؤكد ثباته .وفي خص فعل كتب مبالغة حيث إن الشيء يراد أولاً ، ثم يقال ، ثم يكتب فعبر عن المبدأ بالمنتهى للتأكيد والمبالغة [1] كما فيه مشاكلة لفظية بـــ " كتب الله لأغلبن " وهذا مناسب للغرض المراد من أزلية الحكم في القدر بأن الله غالب ورسله ، وكذلك أزلية الإيمان في قلوب حزب الله ، لذا قال " في قلوبهم " لأن هذا التأكيد والمبالغة والأزلية تلائم ثبات القلوب . وقرئت "كُتب " و " كَتب " قرأهـا بالبناء لما لم يسم فاعله عاصم ، والباقون بالبناء للمعلوم . قال الأزهري : المعنى واحد في القراءتين : أي كتب الله في قلوبهم الإيمان فلا يكفرون[2] .

ويظهر لي أن البناء للفاعل فيه تساوق مع النظم والمقام أما الـنظم فظـاهر ، لأن الأفعال فيه مبنية للمعلوم " أيدهم " ، " ويدخلهم " ... ، أما المقام فهو الثنـاء علـيهم ومدحهم ، وهذا يليق ببناء الفعل للمعلوم وهو مطرد في الذكر الحكيم.

أما قراءة البناء للمجهول - كُتب – فلإظهار قوة الفعل حيث فيه تركيـز علـى الفعل ذاته وفي ذلك دليل على عظمة الفعل وبالتالي عظمة المنة . ومن وجه آخـر فيـه إظهار اهتمام بالموصوف والمقصود بالفعل وهم المؤمنون وهذا أدخل في مدحهم وكونهم ممن كُتب في قلوبهم الإيمان ، وفي هذا ملاءمة لتعريف الإيمان بـــ (أل) الدال على كمـال الوصف والسياق يؤكد ذلك فهو في خص الولاء والبراء وهذا أعمق الإيمان وأخلصه وهذا ملائم للقلوب لذا قدم القلوب على المفعول.

---

1 - روح المعاني:9 /229

2 – معاني القراءات:61

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثم إن في الآية ترق في الجزاء حيث كتب أولاً في قلوبهم الإيمان فثبته في قلـــوبهم ثم زادهم على ذلك بالعون " وأيدهم بروح منه " وقيل بنصره ، وقيل المعنى (القرآن) وقيـــل بجبريل عليه السلام [1] . ومن فصل نظر لحال المنصور والحاجة إلى النصرة ، ويظهر لي أن العموم هنا أولى سواء كان التأييد بالنصر ، أم بالقرآن ، أم بجبريل عليه السلام فهذا أدخل في نصرة من والى الله ورسوله وملائم للإيمان الذي كتب في قلوبهم – ثم وعدهم بدخول الجنة و تخليدهم فيها ثم الرضا عنهم ورضاهم عنه وفي ختم الآية بقوله" أولئك حزب الله" بالإشارة بأولئك وهذا دليل استحقاقهم كل ما سبق من ثبات إيمان ونصرة وجنـــة ومـــا ذلك إلا لتمكن إيمانهم وقوته وهذا لا يكون إلا في القلب .

وقوله " حزب الله " تعظيم لشأنهم فالحزب الجماعة فيها غلظة [2] . وكل معـــاني الحرب تدور حول الشدة والقوة ، كما إنها تدل على قوم تشاكلت قلوبهم وأعمالهم وهذا أدل على الثبات والتمكن فكيف إذا كان الحزب "لله" وفي خصهم بأنهم " هم المفلحون " تأكيد على كمال فلاحهم والفلاح لا يكون إلا مع الإيمان الكامل ولا يكون ذلـــك إلا بتمكنه في القلوب .

وحين نقارن بين حال المؤمنين وحال المنافقين الوارد في السورة يظهر لنا قوة تمكن الإيمان بل قوة جانبهم وتفوقهم على من يضادهم في موالاة غيرالله ، قوة وثباتـــا يلائـــم القلب ويؤكد على قرارها في نظمها وسياقها .

فقد أعز المؤمنين بالإيمان " أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ" وبالمقابل أذل مـــن واد من حاده " كبتوا كما كبت الذين من قبلهم " ولا يفوتنا أن العزة والذلة عبر عنها الله – هنا – بتبديل حرف مكان حرف "كتب – كبت " وما ذلك إلا لهوان من حاده عليه .

وأدخل المؤمنين الجنة " ويدخلهم جنات .... " وأعد للكافرين " عذابا شديداً " وكتب في قلوب من واده الإيمان " كتب في قلوبهم الإيمان " وأنساه من جعل ولايته لغير الله " اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ " وكـــــان للمـــــؤمنين الـــعزة

---

1 _ تفسير أبي مسعود :3 /221

2 –المفردات في غريب القرآن: 122

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بكونهم " حزب الله " ولغيرهم من المنافقين الذلة بكونهم " حـزب الـشيطان " ونـصر المؤمنين " وأيدهم بروح منه " والذلة لمن حاده " أولئك في الأذلين " وكـل مـا ورد في الآيات من أفعال وجزاء يدل على أن الأفعال إنما هي من أفعال القلوب لذا كان الجـزاء عليها مركزاً على القلوب .

وفي قوله تعالى : **﴿وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾**[1] .

تركز الوصف على القلوب وذلك لأن السياق في وصف التابعين وقـد تقـدمهم وصف المهاجرين ، ثم الأنصار وهم خيار الأمة وقرونهم خير القرون وما ذلك إلا لثبـات إيمانهم وتمكنه كما إن الصفات التي أوردها لهم تدل على ذلك . فحين يرد الـنظم عـن التابعين الذين ساروا على هديهم يكون الملائم الحديث عن قلوبهم وذلك لأنه دخـل في قلوبهم الإيمان وتمكن ، لاقتفائهم آثار من سبقهم فالسياق في وصفهم ومدحهم .

وورد النظم بقوله تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَـا اغْفِـرْ لَنَـا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ** ﴾ مستعملاً المضارعة في " يقولون " الدالة علـى تجـدد الاستغفار منهم وهذا دليل إيمانهم وخضوعهم لله -جل وعلا- ، ولتمكن الإيمـان مـن قلوبهم دعوا معهم لإخوانهم الذين سبقوهم ، وهذا دليل صدق مودة وصفاء لا يكون إلا في القلب ، لذا حين دعوا قالوا " لا تجعل في قلوبنا غلا " ولم يرد بـ " انزع من قلوبنا " وهذا أدل على طهر قلوبهم وصفائها فهم يتحرزون من الغل ابتداءً أما " نزع " ففيها دلالة على وجوده وإرادة التخلص منه وليس ذلك في وصف قلوبهم فهي أنقى مـن أن تحمـل غلاً. وفي تحديد كون نزع الغل من القلب لا من الصدر دلالة على قوة الإيمان لأن علـى القلب المعول فالغل فيه يكون دَخلا في الإيمان وضعف في القلب وبالتالي الإيمان لذا سألوه أن " لا تجعل في قلوبنا غلاً " دون صدورهم لأن ما في الصدر قد يكون خطرات نفـس وقد تكـون أفعالاً اضطرارية لا تعمد فيها ولا يكون ذلك في القلب .

---

1 - الحشر : 10

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي التقييد بـــ " للذين آمنوا " دليل آخر على تمكن إيمانهم وعمقه في قلوبهم حيث أكدوا مرة أخرى على كون الجامع الإيمان وفي هذا إشارة وتأكيد على ولائهم وحبهم لمن كانت ولايته وإيمانه بالله. وفي هذا الدعاء دليل على وصولهم درجة عالية من الإيمان حيث حرصوا على التخلص من أضغان النفس وضعفها وهذا رقي يلائم القلب .

ثم ختم الآية " ربنا إنك رؤوف رحيم " أكدوا بتكرار " ربنا " بالتعلق به ســـبحانه وأنهم يعتقدون ما يقولونه [1]. وسألوه بأبلغ رحمته " رؤوف " ثم بـــ " رحيم " وما ذلك إلا إلحاح في الدعاء والتقرب إليه سبحانه بصفاته وهذا دليل على قوة إيمانهم .

وكل ما سبق دليل على صدق المودة وصفاء القلوب بين المؤمنين وهذا حال مناقض لحال الفسق والمخادعة في دعوى النصرة في السياق البعدي عند المنافقين.والذين وصفهم الله بـــ " تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى " لذا نصر الله المؤمنين عليهم بأن قذف في قلوب عدوهم الرعب . وما ذلك إلا نابع عما وقر في قلب كل منهما فجازاهم الله على ذلك .

---

1 - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 528/7

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثانياً : الآيات الواردة في سياق المن :

1- ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ، إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾لأنفال:10ـ11

2- ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)﴾ (آل عمران:126)

3- ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (لأنفال:63)

4- ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (آل عمران:103)

5- ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ (الفتح:**4**)

6- ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً﴾ (الفتح:18)

7- ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة:117)

8- ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾(الأحزاب:10)

9- ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ، وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة:14ـ15)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

10-﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ الحجرات:3

11-﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ (الحجرات:7)

12-﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (التغابن:11)

ففي سياق المن عليهم بالإمداد السماوي في حالة الخوف والحرب قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ، إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [1] وقال : ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [2].

وردت القلب بالرغم أن الموقف العام موقف خوف واضطراب في أول معركة يدخلها المسلمون ضد المشركين و لم يستعمل لفظة الفؤاد الدالة على الاضطراب .

وذلك لعدة أمور :

أولها : أن الحديث عن قلوب مؤمنة مصدقة بالله -جل وعلا -كما أخبر عنها (أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً) .

وثانيها : أن السياق في المن عليهم بالطمأنينة والثبات والمدد وليس في خوفهم في المعركة فلذا لاءم القلب هذا المنّ الذي كان عظيماً فهو من الله -جل وعلا- الذي بدل الخوف نعاساً وأمنة ومن ثم ثباتاً ونصراً وذلك لأن مَن منَّ عليهم صحابة الرسول - ﷺ -حين ثبتوا مع رسوله الكريم .

---

1 - الأنفال : 10 ، 11

1 - آل عمران : 126

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وثالثها: أنه وطأ للفظة وعقبها بمعان في السياق وبألفاظ لا يمكن أن يأتي معها إلا القلب .

ورابعها : أنه في التدرج الذي ذكر في المنّ باستجابة الدعاء ثم البشرى ، ثم الطمأنينة ثبات للقلب أولاً ثم ترقى بعد ذلك بإنزال المطر والتطهير من الرجز إلى الربط على القلب الذي ظهر نتاجه ثبات الأقدام في المعركة .

فأخبر في السياق القبلي بأنهم (إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ ..) فركنهم ومغيثهم هو الله -جل وعلا- فلا بد أن يكون ذلك مركز ثبات لهم ، وقال (تَسْتَغِيثُونَ) بالمضارعة دلالة على استمرارهم وإلحاحهم في دعائهم ، ولينقل لنا الصورة حية كما حصلت وهذا أدخل في المن ، كما إنه خص مادة (الغوث) دون غيرها من دعاء ، واستجارة ليدل على شدة حاجتهم إلى ذلك وأنه قد جاء في وقته وأوانه . وفي لفظة الغوث دلالة على كثرة النصرة وسرعة الإجابة وكلاهما ملائم للقلب لأن فيهما ثبات له هذا من وجه ، ومن وجه آخر تدلنا على ثبات قلوب المؤمنين حتى في حالة الخوف لأنهم استغاثوا ربهم (ربكم) ولم يقل (الله) ، ففي استغاثة الرب يقين برحمته ومنّته وتوكل عليه يلائم القلب . ولاءم اللفظة أيضاً سرعة المنّ عليهم بالإجابة حيث عطف بالفاء (فاستجاب لكم) دلالة على تمام النعمة حيث استجاب لهم مباشرة بعد استغاثتهم ، بل وأكد لهم ذلك (أني) وذلك لأن مقام الوعد والضمان من مستلزمات التأكيد هذا من وجه ، ومن وجه آخر لأن التحقيق للوعد ملائم لمقام المن . فوصفهم بـ(المؤمنون حقاً) يلائم القلب لأن الإيمان الحق اعتقاد راسخ في القلب ، وكونهم يلحون في الدعاء والتضرع ويثقون في النصر لأنهم استغاثوا (ربهم) دلالة على يقين لا يكون إلا في القلب . وفي سرعة الاستجابة والتأكيد على المدد أيضاً ثبات ومنة عظيمة من الله لقرار القلب .

وفي نظم الآيتين ذاتها تأكيد على قرار اللفظة في مكانها فقصر المدد والنصرة على أنه بشرى واطمئنان دلالة على أن المقصود به القلب ثم صرح بعد ذلك أنه للقلب . ولتطمئن (قلوبكم) هذا أولاً .

ثم صرح بأن الذي جعله وأراده هو (الله) آكد أن يكون أثره ثابتاً عميقاً فلا بد أن يكون في القلب .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثم إن أساس النصر ثبات القلب في المعركة كما ستوضح لنا الآية التالية والآيات تتحدث عن انتصارهم في بدر فلا يمكن أن يستعمل إلا القلوب ..

كما إنه تقدم القلب ما يمهد لها فالبشرى بداية الاطمئنان ولذا كان من عوامل طمأنينة أم موسى البشرى (إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) . ثم الاطمئنان قرار وسكون يوطيء لاستعمال القلب كما قال سيدنا إبراهيم (وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي) و لم يقل فؤادي . ثم في قصره (وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) تثبيت للقلوب في المعركة فهم جند الله وإذا كان النصر من عنده فلن يكون إلا لجنده ولذا ناسب أن يورد معها صفتا(إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) لدلالتها على قهره وغلبته لأعدائه وحكمته في توجيه نصره .

وفي الآيات ترقٍ بهذا الثبات والنصرة حيث بدأ بالإخبار بالاستجابة ثم بالبشرى والاطمئنان بالمدد, ثم اتبع القول بالفعل فألقى في قلوبهم بعزتة وحكمته الطمأنينة والأمن والسكينة بدليل النعاس الذي غشيهم في موضع هو أبعد الأشياء عنه وهو موطن الجلاد ومصاولة الأنداد والتيقظ لمخاتلة أهل العناد[1] . ولكل من القراءتين في (يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ) إما بفتح النعاس أو بضمها وجه في التثبيت الملائم للقلب ففي كون الفاعل هو الله والنعاس مفعول به والفعل (يُغَشِّيكُمُ) بالتشديد دلالة إجبار لهم على النعاس ، وتغطيتهم به جميعاً في وقت واحد كرامة لهم في مثل هذا الموقف للتخفيف عنهم من شدته فهذا تثبيت منه سبحانه لقلوبهم . وكون النعاس غشيهم بسهولة في مثل هذا الوقت ملائم للبشرى السابقة والاطمئنان الحاصل في قلوبهم فسهل عليهم النعاس في موقف الاضطراب والخوف فيه أولى ولكن الأمر خرج عن المعتاد لأمر من الله سبحانه وتعالى وفي بناء الفعل لما لم يسم فاعله تركيز على الفعل ذاته وهذا أدخل في المن على المؤمنين فكما سبق الوقت خوف وحال المؤمنين اطمئنان ونعاس ولذا قيده (أمنة منه) فهو أمان وليس ضعفا وممن ؟ من الله -جل وعلا- ، واستعمل (أمنة) على وزن (فعلة) تأكيداً على استمرار الأمن ودوامه وهذا أدعى لاطمئنان القلب وثباته .

---

1 - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : 192/3

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثم عطف على ذلك إنزال الغيث وكان في ذلك ملاءمة لـــ (إذ تستغيثون) حيث أغاثهم بالمدد وهو مرادهم في الحرب وزادهم من فضله بأن أغاثهم بالغيث الحقيقي وقـــد خص لفظة (ماء) لدلالة ذلك على الرفق بهم والنفع لهم في حالتهم ، فأمدهم بمدد حسي ومعنوي وهذا آكد لطمأنينة قلوبهم وثباتهم بالإضافة إلى فائدة الماء لهم في المعركة ليكون لهم ماء يشربون منه ويتطهرون طهارة حسية ومعنوية ، والطهر فيه نقاء ويقـــين يلائـــم القلب (ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ) ، ولذا جاء مع الصفوة المختارة في الدنيا والآخرة فجاء مع أهل البيت وخالص المؤمنين ، ثم مع نساء أهل الجنة في الآخرة . ومادة الطهـــر فيها رقي يالقلوب وتخليص لها من الشوائب لذا يلائم الـــتطهير الـــتمكين والثبـــات وفي التأكيد بإذهاب رجس الشيطان عن المؤمنين تأكيد على الثبات وعظيم المنة من الله -جل وعلا -على المؤمنين (وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ) والربط على القلب يأتي في ســـياق الخـــوف الشديد الذي يعقبه أمن وثبات ولذا لاءم السياق الذي يحكي عن الخوف في معركة بـــدر ولاءم لفظة القلب حيث ثبت لها الأمن . واستعمل الفعل ربط مجاز لأن الربط على توثيق ما هو مضطرب بحيث يكون هذا الربط سبباً في ثباته ، وحفظه ، والربط يكون للمـــدح والثناء ولا يكون إلا في الأشياء المحبوبة ، لذا ورد هنا في منّ الله وفضله علـــى الـــصحابة بتثبيتهم في المعركة ولذا غاير عند إرادة الذم في دعاء سيدنا موسى على بـــني إســـرائيل :(وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ) وفي (على) دلالة الاستعلاء الذي يدل على قوة التمكين والثبـــات على قلوبهم ثم ذكر بعد ذلك أثر هذا الربط بأن ثبت الأقدام فانتقلت الطمأنينة من القلب إلى قرار الإقدام ورسوخها وفي التعليلات في الآية بدأ أولاً بالتعليل الظاهر، وهو تطهيرهم من الجنابة وهو فعل جسماني وعطف عليه بغير لام العلة ما هو من لازم الـــتطهير وهـــو إذهاب رجز الشيطان ، ثم عطف بلام العلة ما ليس بفعل جسماني ، وهو فعل محله القلب ، وعطف عليه بغير لام العلة ما هو من لازمه ، وهو كونهم : لا يفرون وقـــت الحـــرب فحين ذكر التعليل الظاهر الجسماني والتعليل الباطن القلبي أظهر التعليل ، وحـــين ذكـــر لازمها لم يؤكد بلام التعليل ، وبدأ أولاً بالتطهير لأنه الآكد والأسبق في الفعل ولأنه الذي تؤدى به أفضل العبادات وتحيا به القلوب[1] .

---

1 - البحر المحيط : 463/4

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويظهر لي أن الطهر أساس في ذهاب الرجز واطمئنان القلوب ؛ لذا يذكر مع القلوب حين المدح بصفة الطهر ومن ثم في ثبات الأقدم .

وحين ننظر إلى السياق البعدي نرى ملاءمة القلب لسياقه البعدي كما لاءم سياقه القبلي ونظمه..

حيث مدهم بالملائكة و لم يقف الأمر على ذلك بل أوحى للملائكة (إني معكم وصرح بالغاية وهي (فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا) والثبات للقلوب ، ثم أورد المقابلة والتضاد بين حال المؤمنين الثابت المطمئن بـ (سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ..) و لم يقل الخوف .. وفي ضعف العدو قوة وثبات للمؤمنين . وفي ضرب الأعناق خاصة دلالة على التمكن وكذلك ضرب (كل بنان) فمكنهم من كل بنان وكل طرف .

ولا يفوتنا أن نبين أن المنَّ هنا ملائم لثبات القلب من جهات : أن المانّ هو الله والذي وصف نفسه في هذا السياق (بالعزيز الحكيم) والمنة كانت عظيمة حيث تنوعت من مدد بالملائكة ورحمة بالنعاس وغوث بالماء فكان للمن جانبان لا يستغني عنهما القلب في المعركة وهما القوة : بالملائكة ، والاطمئنان ـ بالنعاس والماء ـ فثبت الأقدام ، والممنون عليهم رسول الله وصحابة استغاثوا ربهم وألحوا في الدعاء فكانوا (مؤمنون حقاً) وسياق الأنفال في معركة بدر إخبار عن الحدث ذاته حين حدوثه أما سياق سورة آل عمران فكان التذكير بالحدث بعد معركة أحد ولذا نلاحظ على الرغم من تشابه شديد في اللفظ إلا أن هناك اختلافاً في النظم ناتج عن اختلاف السياق . والسياق في آل عمران ذكر لمعركة بدر تمهيداً لذكر موقعة أحد وما أصابهم فيها من حزن وترح والمقام مقام مسح على القلوب وطمأنة لها فقال في هذا الموطن:(وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ) فذكر أن البشرى (لهم) وقدم (قلوبهم) على الإمداد بالملائكة فقال:(إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ) كل ذلك من قبيل المواساة والتبشير والطمأنة ، ولما لم يكن المقام في الأنفال كذلك ، وإنما المقام ذكر موقعة بدر وانتصارهم فيها ودور الإمداد السماوي في هذا النصر ، وقد فصل في ذلك أكثر مما ذكر في آل عمران فكان المقام مقام الانتصار وإبراز دور الإمداد الرباني قدم (به) على القلوب والضمير يعود على الإمداد . ولما كان المقام في آل عمران هو الطمأنة وتسكين القلوب قدمها على الإمداد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فقال:(وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ) وزاد كلمة (لكم) فقال:(وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ) زيادة في المواساة والمسح على القلوب فجعل كلاً في مقامه[1] .

وما ذكره السامرائي في تقييد (بشرى) بأنها (لكم) موافق لما سبقه بـه الخطيب الإسكافي في أن تقييد (بشرى) بأنها (لكم) لأن آية آل عمران سيقت مساق الامتنان والتذكير بنعمة النصر في حين القلة والضعف فكان تقييد بشرى بأنها لأجلهم زيادة في المنة[2] .

ويظهر لي أن في تقديم القلب أيضاً إكراماً للمؤمنين حيث إن السورة في المصطفين الأخيار ، لذا نلحظ أن السياق في آل عمران قد زادهم على ما طلبوا ، بل قد حذف من الكلام ما يدل على الاستغاثة والسياق توطئة ومدخل لما حدث في غزوة أحد فلم يفصَّل بل لمح إلى ما سوف يستقبل من الأيام وأن المؤمنين وإن حدث منهم تخلف إلا أن قلوبهم ما تزال مؤمنة ولا يزال النصر ثابتا لهم على مر الزمن وبهذا يكون تقديم القلب أولى من المدد السماوي .

أما ما ذكره البقاعي : (إن تقديمه لئلا يتوهم أن ذلك بشرى لغيرهم ، ولمثل هذا قدم القلوب) [3] . فلعله لم يلحظ أن الخطاب في الآيات للمؤمنين ومن ثم فلا يصح أن يقع الظن أن إنزال الملائكة للكفار . ويلاحظ أنه في نظم السورتين قال: (بشرى) بالاسم ، ثم قال (ولتطمئن) بالفعل قال الفخر الرازي : لأن أحدهما أقوى في المغلوبية من الآخر ، فأحدها إدخال السرور في قلوبهم ، وهو المراد بقوله (إلا بشرى) .

والثاني حصول الطمأنينة على أن إعانة الله ونصرته معهم فلا يجبنوا عند المحاربة ، فالمطلوب الأقوى الطمأنينة ففرق بين العبارتين تنبها على حصول التفاوت بين الأمرين ، ولما كان الأقوى حصول الطمأنينة أدخل حرف التعليل[4] .

---

1 - التعبير القرآني : 72/71
2 - درة التتريل وغرة التأويل: 54
3 - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : 150/2
4 - التفسير الكبير : 222/3

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويظهر لي أن البشرى بالمدد ثابتة ولا تحتاج إلى تجدد فأتت بالاسمية أما الاطمئنان فالحال أن القلوب تحتاجه آناً بعد آن كالرزق حين عبر الله (يرزقكم) لأن الناس تحتاج الرزق باستمرار وفي كل يوم فكذلك الاطمئنان يتجدد في القلوب.

وفي السياق البعدي لآية آل عمران تأكيد على تثبيت القلوب واطمئنانها حيث ذكر أن هذا النصر (لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ). ففي قطع الكافرين وكبتهم وخيبتهم ثبات ونصرة للمؤمنين .

وكما من الله على المؤمنين في غزوة بدر بالمدد والطمأنينة كذلك كان له سبحانه منَّ عليهم في غزوة أحد وكان المعول في هذا المن على القلوب لأنها الأساس الذي يبنى فيها الإيمان . ومن ثم تكون أساساً في نصرة الدين .. ولكن المن في آل عمران أعلى ، فهو ينعم عليهم في حالة المخالفة والقرح ، لذا ذكر في الغاية من المن تمحيص القلوب فقال تعالى : ﴿**ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**﴾ .

وقد وردت لفظة القلب لأن ما كان بين جوانح الصحابة قلوب ثابتة مؤمنة بالله جل وعلا وإن اعتراها بعض الخوف لكنها لا تخرج عن كونها قلوباً إلى أفئدة مضطربة ولذا تجد أن السياق القبلي والبعدي ونظم الآية يؤكد على دقة استعمال القلوب ، وقبله السياق العام لسورة آل عمران حيث إنها في المصطفين الأخيار وما ورد فيها من صفاتهم تدل على الكمال والثبات ..

وكل ما ورد في السياق كان معالجات نفسية ترتبط بالقلب في الأمر بالصبر والتقوى للنصر وهذا عمل بالقلب (بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا) ، (وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) . والحزن في القلب والشعور بارتفاع المنزلة بالإيمان أيضاً في القلب . والشأن في غزوة أحد كان المعول فيه القلب (مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ)، (إِذْ تُصْعِدُونَ وَلا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ .. فَأَثَابَكُمْ غَمّاً بِغَمٍّ لِكَيْلا تَحْزَنُوا ..) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولذا حين ورد النظم جعلت الغاية من المنة في معركة أحد (القلوب) (وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) لأنه ركز في الآية أيضاً على حديث أنفسهم وما تخفيه صدورهم وقلوبهم (قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ) وهذا كان خفياً في قلوبهم لم يصرحوا به (يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ) والظن خفي أيضاً ، (يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ) و لم يصرحوا بهذا القول بل كان حديث نفس بدليل (يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لا يُبْدُونَ لَكَ) فكلها أحاديث دارت في دواخل أنفسهم وإرادات كانت في قلوبهم لذا كان خاتمة الآية (وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ) وقد تكون اللام هنا للعاقبة لأنه بعد هذه المنه آل أمرهم وحالهم إلى تطهير قلوبهم فالمقصود ما تكون عليه عاقبة أمرهم بعد هذه المنة . وقد تكون للتعليل ولكن التعليل يستحيل أن يصرف لله ولكنه يصرف للمخاطبين ففيه إخبار لهم بابتلاء ما في صدورهم وتمحيص ما في قلوبكم أما الله فهو عالم بذلك- سبحانه وتعالى - ولكن لم خص الصدور بالابتلاء والقلوب بالتمحيص ، ولَم لم يذكر إحدى العاقبتين دون الأخرى بل جمع بينهما ؟

قال صاحب المحيط : (إن المقصود من تعلق الابتلاء بالصدور هي القلوب التي ينطوي عليها الصدور كما قال (وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) وتعلق التمحيص بالقلوب لأن المقصود تصفية وتطهير ما انطوت عليه القلوب من النيات والعقائد ولذا جاء (إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) عقيب قوله (وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ) على معنى أنه عليم بما انطوت عليه الصدور وما أضمرته من العقائد ، فهو يمحص منها ما أراد تمحيصه) [1] .

---

1 - البحر المحيط : 97/3

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وبسط الآلوسي ما أجمله أبو حيان فرأى أن التمحيص متعلق بالاعتقاد وقد شاع استعمال القلب مع ذلك فيقال : اعتقد بقلبه ولا تكاد تسمعهم يقولون اعتقد بصدره أو آمن بصدره . وفي القرآن (أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ) وليس فيه كتب في صدورهم الإيمان ، نعم يذكر الصدر مع الإسلام كما في قوله تعالى (أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ) والمعنى ليبتلي إسلامكم وليمحص إيمانكم[1] . فكأنه يشير إلى أن فيها عموماً وخصوصاً وأوافقه على ذلك .

وذكر صاحب التحرير أن المقصود بالصدور الضمائر لأن العرب تطلق الصدر على الإحساس الباطني وعدي إلى الصدر فعل الابتلاء لأنه اختيار الأخلاق والضمائر : ما فيها من خير وشر ، وعدي إلى القلوب فعل التمحيص لأن الظنون والعقائد محتاجة إلى التمحيص لتكون مصدر كل خير[2] .

ويظهر لي أن في النظم ترقٍ لذا ذكر الابتلاء أولاً وناطه بالصدور ثم ذكر التمحيص وناطه بالقلوب يدل على ذلك السياق الذي ذكر أولاً مس القرح والجراح المؤمنين وفي هذا ابتلاء ثم ذكر (الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ) . وهنا التمحيص لما في القلوب حيث اتبعوا وجاهدوا مع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ على ما فيهم من الجراح وهذا لما في قلوبهم من الإيمان كما إنه معروف أنه لم يتبع الرسول ويظل معه في المعركة إلا أفاضل المؤمنين .

وكما دل السياق على ذلك دل عليه دقة اللفظة في (يبتلى ، ويمحص) فالابتلاء يكون في الخير والشر ، ففيه شمول وعموم لذا لاءم شمول الصدر وعمومه كما إنه ليس فيه قوة كالتمحيص فهو ملائم للصدر حيث ما في الصدر ليس ثابتاً وقوياً بل قد يكون خطرات نفس أما يمحص فهو تخليص الشيء وتنقيته. والتمحيص كالتزكية والتطهير . وهذا ملائم للقلب الذي فيه الاعتقاد والاعتقاد يلزمه الخلوص والنقاء ، واللفظ ملائم للترقي حيث بدأ أولاً بابتلاء الصدور واختبارها ثم الخلوص إلى القلوب والرقي بها إلى الطهر والنقاء .

---

1 - روح المعاني : 310/2

2 - التحرير والتنوير :261/3

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي سياق المن أيضاً قال تعالى :**﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾** [1] وقوله **﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾**[2] .

ورد القلب دون الفؤاد لأنه أدل على تمكن هذه الألفة وعمقها وكونها دائمة ثابتة بثبات القلوب لا مضطربة باضطراب الأفئدة ويدل على دقة الكلمة السياق والنظم . والسياق في كلا السورتين في المنّ بالتأليف بين الأوس والخزرج مع اختلاف المخاطب في كلا الموضعين ، ففي سورة الأنفال الخطاب موجه للرسول -ﷺ- وتذكيره بمنّ الله عليه بالتأليف بين المؤمنين بعد أن ذكر المن عليه وعلى المؤمنين بالنصر في غزوة بدر -كما سبق أن بينا -ولم يكن في السياق جراحات كما في سياق آل عمران لذا لم ترد تفصيلات في هذا المنّ كما وردت في الآية التي في آل عمران كما إن المخاطب محمد ﷺ يكفيه الإشارة إلى المنّ لأنه يعرف من ربه ما لا يعرفه أحد من البشر والسياق البعيد في آل عمران والأنفال فيه ذكر للخلاف سواء العداء بين الأوس والخزرج أو الاختلاف على الغنيمة في الأنفال فكان الملائم لذلك تذكير المؤمنين بنعمة الألفة خاصة بعد الفرقة والخلاف .

ونجد أن في السياق ما يؤكد على استعمال (القلب) وذكر منه التأليف بين القلوب خاصة حيث كان التركيز على القلب فكان النصر أولاً بالربط على قلوبهم ، وحين كان الأمر بالاستجابة لله والرسول أعلمهم بأن (أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ) فركز على القلب ، ثم جعل التقوى شرطاً في النصر والثبات (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً) والتقوى من أعمال القلوب .

---

1 – الأنفال:63

2 – آل عمران :103

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثم أكد تعالى تأييده لرسول الله ﷺ بنصره وبالمؤمنين و لم يذكر من عدة هذا النـــصر بالمؤمنين إلا تأليف قلوبهم لأن ذلك أساس النصر ، وذلك أعون له علـــى سياســـتهم ، وأرجى لاجتباء النفع بهم ، إذ يكونوا على قلب رجل واحد وقد كان العرب يفـــضلون الجيش المؤلف من قبيلة واحدة لأن ذلك أبعد عن حصول التنازع بينهم [1].

وفي نظم الآية قال تعالى (وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ) جعل هذه الألفة من النصرة حيـــث سبقها بـــ(حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ) ثم قال (وبالمؤمنين) فعطف المؤمنين علـــى نصرته له وجعل أساس كون المؤمنين نصرة للرسول الألفة بين قلوبهم .

وفي (ألف) تمهيد للفظة القلب حيث إن الألفة ليست مجرد الجمع بل لا بد مـــن الموافقة[2] واتفاق الأهواء وهذا لا يكون إلا إذا اتفقت القلوب . كما إن فيها معنى الإلزام والعهد[3] وهذا يلائم قلوب المؤمنين لتكون نصرة للرسول - ﷺ -حيث تلتزم ويكـــون بينها عهد على المحبة والنصرة .. وفيه معنى الجمع بعد التفرق وهذا يلائم الأوس والخزرج حيث كانت أشد عداوتهم قبل الإسلام فحين دخلوا الإسلام آخى بينهم وألـــف بـــين قـــلوبهم .

وصرح بأن الألفة كانت (بين قلوبهم) لأنه أراد الاجتماع بالاعتقاد لا الاجتماع في الظاهر وهذا لا يكون إلا في القلوب ولأن الفائدة تكون فـــي جمـــع القلوب التي هي أساس عمل الجوارح فلذا خصها بالتأليف وذكرها خاصة يلائم قولـــه (وبـــالمؤمنين) أي الذين كمل إيمانهم فلا بد أن يكون المتألف فيهم القلوب الثابتة لا الظواهر .. كما إن المنة في هذا التأليف لا تظهر إلا إذا صرح بأن التأليف كان بين قلوبهم وذلك لما عرف عنـــهم من العداوة قبل الإسلام ، فيكون صعباً بل متعذراً والتأليف بينهم ولكن قدرة الله _جـــل وعلا_ ألفت بينهم.

---

1 - التحرير والتنوير : 151/9
2 - لسان العرب : 180/1
3 - الفروق اللغوية : 151

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي القرآن الكريم ورد التأليف مرة في التأليف بين السحاب في سـورة النـور ، وأخرى في التأليف بين قريش ويتضح لنا من خلال هذه المواضع أمران :

أولهما : أن التأليف لم يستعمل في القرآن إلا حين يكون الجمع بين الشيء متعذراً صـعباً كالجمع بين قلوب المتعادين قبل الإسلام والجمع بين السحاب لإنزال المطر والذي ثبـت علمياً أنه من أصعب الأمور الجمع بينها حتى أنه حين الجمع بينها يحدث البرق . وكذلك الجمع بين قريش برحلة الشتاء والصيف على الرغم من اختلاف مشاربهم وأهوائهم وهذا يؤكد لنا قدرة الله _جل وعلا_ ويؤكد لنا ملاءمة أن يكون هذا التـأليف للقلـوب لا غيرها لأنه قد يسهل جمع الأفئدة الرقيقة المضطربة لكن جمع القلـوب ذات الاعتقـادات الثابتة على اعتقاد واحد هنا يظهر الإعجاز والمن الحقيقي .

ثانيهما: أنه لم يخص بالتأليف القلوب إلا في هاتين الآيتين وآية التوبة ففي آية التوبة المعني أيضاً القلوب لأن السياق كان يتحدث عن المنافقين فجعل من أهل الزكاة (المؤلفة قلوبهم) ليطهرها وينقذها من النفاق فنسب التأليف لها أما هنا فلأن في ذلك يكمن النـصر ولأن الموصوفين بهذا هم المؤمنون والإيمان يكمن في القلب كما إن سبب هذه الألفة هو الإيمان بالله وعبادته . وهذا ملائم للاعتقاد القلبي. وذكر القلوب للإشعار بأن التأليف بينـها لا يتسنى وإن أمكن التأليف ظاهراً[1] ، ولذا لم يصرح بالقلوب في قوله (لِـإِيلافِ قُـرَيْشٍ إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ) بل نسب التأليف لذواتهم وذلك لأن الجامـع بينـهم كانـت المصلحة وقد اجتمعت ظواهرهم و لم تجتمع قلوبهم ..

1 – تفسير أبي السعود: 110/3

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولكون الأمر ثابتاً وقد وقع حقاً استعمل الفعل الماضي تأكيداً على ثبات هذا المنّ وحصوله ، وفي جمع القلوب دليل على كثرة اعتقاداقم واختلاف مشاربهم ومع ذلك جمع بينهم وهذا أدل على المنّة ، ثم بعد ذلك أورد الجملة الشرطية بلو (لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ) لبيان عظمة المنة على أكمل وجه وأتمه ولذا قال (مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ) و لم يقل ما ألفت بينهم لأن المراد كما سبق التأليف بين القلوب مركز الاعتقاد لا بين الظواهر . وفي قوله تعالى :(أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً) إشارة تؤكد دقة استعمال القلوب هنا . فالانفاق هنا لا يمكن أن يكون سبباً في التأليف بين القلوب وإن ألف بين الظاهر ولذا جعل من مصارف الزكاة (المؤلفة قلوبهم) فهي وسيلة ولكنها ليست هي المؤلفة بل المؤلف هو الله -سبحانه وتعالى- فإذن الرابط بين القلوب والذي ألف بينها هو الإيمان بالله وعبادته وحده وهذا لا يكون إلا بتوفيق الله ولا يكون إلا في القلوب ..

ثم استدرك تعالى (وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ) فالله هو القادر وحده على ذلك ونلاحظ هنا أنه قال (أَلَّفَ بَيْنَهُمْ) قال صاحب الإرشاد (وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ) قلباً و قالباً بقدرته الباهرة[1] فنسب التأليف هنا إلى ذواقم ويظهر لي أنه خص أولاً ثم عم فذكر الأساس وهو القلوب ثم قال (بينهم) دلالة على أن ما أمكن في الباطن ظهر على الظاهر وقد لاءمت هذه النعمة سابقها حيث أيد الله نبيه بنصره ثم قال بالمؤمنين و لم يدع هؤلاء المؤمنين على فرقة بل ليكون المن أعظم ألف بين قلوبهم ففي القرآن ترقٍ في المن والنعمة ثم ختم بـ(إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) فبعد أن أكد أن الرسول- ﷺ-لا يمكن أن يؤلف بينهم ولو أنفق ما في الأرض جميعاً فالأمر إذن يحتاج قدرة وغلبة ختم بـ(عَزِيزٌ حَكِيمٌ) فلولا عزته سبحانه التي تغلب كل شيء ولا يغلبها شيء وحكمته التي يتقن بها ما أراد بحيث لا يمكن لأحد أن يغير شيئاً إلا هو لما تآلفوا[2] .

---

1 - تفسير أبي السعود :110/3

2 - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور :238/3

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي موضع آل عمران قال تعالى ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾.

فهنا أيضاً خص بالتأليف القلوب وفي السياق ما يؤكد على دقة استعمال هذه اللفظة حيث إن المعنى -كما ذكرت سابقاً- في المن هي القلوب حيث سبق القرآن التذكير بما يجعل قلوبهم ثابتة على الحق حيث إنهم (تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ) وكذلك (فيكم رسوله) .

فمن تتلى عليه الآيات باستمرار وفيهم رسول الله- ﷺ- يكون الإيمان أمكن في قلبه وأثبت وفي النداء (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) ملاءمة لاستعمال لفظة القلب فالإيمان في القلب ، وهم هنا لما يكتمل إيمانهم فأرشدهم إلى ما يكّمل إيمانهم وذكر لهم من المنة ما تفضل به على قلوبهم خاصة وتلاه بالأمر بأعظم مهمة في الدين والتي لا تكون إلا لمن ثبت إيمانه ووقر في قلبه ﴿**وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ .

وفي نظم الآية ما يؤكد دقة القلب حيث بدأ بقوله (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا) فأمر ثم نهى ليؤكد على شدة الاعتصام بحبل الله ولأن الاعتصام عمل من أعمال القلوب وقد قال ابن القيم : (اتصال الاعتصام تصحيح القصد ثم تصفية الإرادة ، ثم الحال وقال اتصال الاعتصام : مقام الإيمان) (1) والإيمان في القلب . ولتأكيد هذا الأمر قال (جميعاً) وزيادة للتأكيد على الاجتماع على الحق قال (ولا تفرقوا) فنهى عن التفرق مطلقاً . وهذا كله فيه تثبيت للقلوب على دين الله فلاءم أن يذكرهم بعدها بفضله عليهم بتأليف قلوبهم .. فقال ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ وصرح بأن ذلك نعمة ومنٌ من الله _جل وعلا_ وهذا آكد لثباتها وتمكنها ، وفصل في ذكر حالهم .

---

1 - مدارج السالكين :323/3

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وذلك ملائم لسياق بيان المن في سورة آل عمران (إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً) أي في الوقت الـذي كنتم فيه أعداءً تحولت هذه العداوة إلى ألفة وفي ذكره سبحانه (أعداء) دلالة على قوة المنة وأنها لا تكون إلا من الله لذا جمع (أعداء) لإرادة تعدد وتنوع العداوة ، فإذا انقلبـت إلى ألفة كان ذلك أوقع في المن . وهذا أدعى لثباتها وأليق بأن تلائم القلوب. وتكون فيها فهو لم يقل حيث كنتم متفرقين أو مختلفين بل ذكر أعظم من ذلك وهو العداء بينهم ومع ذلك يؤلف بينهم وزاد على تأكيد هذا المن أن عطف بالفاء (فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُـوبِكُمْ) وفي ذلـك إشارة إلى سرعة ذلك وهذه السرعة أدل على تمام وكمال المنة ، وقد خصت القلوب بهذا التأليف و لم يجعل الفعل للذوات وذلك لما ذكرت سابقاً من ملاءمة لفظة الألفة للقلـوب ولأن المعني القلوب والاعتقاد والباطن لا الظواهر، ولأن كل ما ورد من الأوامـر مـن التقوى والاعتصام وعدم التفرق أعلى من أن يكون للذات بل هو للقلـب الـذي هـو الأساس ولأن الإعجاز والمنة العظمى تكون في جمع القلوب المتعادية .

وأكد على دقة اللفظة أيضاً سرعة النتيجة بعدها (فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً) حيث عطف بالفاء أيضاً وهذا دال على السرعة وبالتالي تمام النعمة ، وقال (أَصْبَحْتُمْ) و لم يقـل (صرتم) وخصت هذه اللفظة حيث هي مبدأ النهار وفيها مبدأ الأعمال فالحال التي يحسها المرء من نفسه فيها هي حالته التي يستمر عليها يومه في الأغلب[1] . فكأنهم قد انتقلوا من ظلمة العداوة والكفر إلى نور الصباح والألفة والإيمان بالقلوب فحين خـصت القلـوب مباشرة بالألفة ظهر الأثر سريعاً لذا قال (إِخْوَاناً) و لم يقل (إخوة) وإن كان المفرد واحـد فالأول يكون في إخوة الدين والصداقة والاجتماع فأسبابها متعددة وكـثيرة وبواعثهـا عظيمة ، بخلاف إخوة فتكون في إخوة الدم وقد يحدث الخلاف والعداوة . وفي إخوان ما يدل على شدة الحب وقوة القرب في علاقة المؤمنين بعضهم ببعض إذ الزيادة في حـروف الكلمة تدل على الزيادة في معناها . ما يعنيه علماء اللغة بقولهم الزيادة في المـبنى تدل

---

1 - المحرر الوجيز :251/3

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

على الزيادة في المعنى وكانت الزيادة هنا تدخل المولى ــ عز وجل ــ في تأليف القلــوب (فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ) أي ألف الله بين قلوبكم ، وكان النقص هناك في آيــة الحجــرات لتدخل المؤمنين في التأليف وفرق بين تأليف الخالق للقلوب ، وبين تأليف المخلوق (1).

ونلاحظ أن منة الألفة في ترتيبها ملائمة للنعم السابقة لها وللنعم اللاحقــة بهــا. حيث تقدمها (وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ) . فتلاوة الآيات عليهم ووجود الرسول -ﷺ- أوصلهم إلى الإيمان الذي ألف بين قلوبهم على أساس مــتين ثم عقبــها (وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا) حيث ترتب على تآلفهم علــى الإيمــان وصفاء قلوبهم واعتصامهم بحبل الله النجاة من النار ، فالوصف الموقع على القلوب متلائم مع نظمه ومتلائم مع سياقه كما رأينا.

وفي قوله تعالى ﴿**هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانــاً مَــعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً**﴾ (2) .

وقوله تعالى ﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَــا فِــي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً**﴾(3) .

وردت لفظة القلب دون غيرها في سياق المّن على المؤمنين بالتثبيت والتوفيق وقت الشدة . وقد أكد قرار القلب ما ورد في سياق السورة من المن والبشرى (إِنَّا فَتَحْنَا لَــكَ فَتْحاً مُبِيناً) ، (وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً) ، ونسب النصر لذاته سبحانه بنون العظمة (نا) ، وجعل الفتح بالماضي دليل يقين تحققه وحصوله. فكل ذلك من دواعي تثبيــت وتمكــين يكون في القلوب .

ونجد في نظم كلا الموضعين ما يقرر لفظة القلب حيث كان المن فيهما بالسكينة. فالسكينة منة وفضل لا تكون إلا في القلب وقال ابن القيم عن السكينة: (إنها تشمل ثلاثة معان : النور ، القوة ، الروح ، فبالروح حياة القلب وحياته توجب كمال يقظته وفطنته ، والنور يكشف له عن دلائل الإيمان وحقائق اليقين ويميز له بين الحق والباطل ، والــقوة

---

1 - من بلاغة القرآن : د. إبراهيم الجعلي ,الرياض ,مكتبة المتنبي : 171
2 - الفتح : 4
3 - السابق : 18

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

توجب له الصدق وصحة المعرفة ، وقهر داعي الغي والعنت) [1] . فكل المعاني التي نص عليها ودارت حولها السكينة لا تكون إلا في القلب ، وليس أي قلب بل لا بد أن تكون قلوباً مؤمنة على درجة عالية من الإيمان واليقين وقهر الهوى . والسكينة في اللغة مفارقـة الاضطراب عند الغضب والخوف[2] . وهذا المعنى ملائم للسياق ــ هنا ــ فهو خـوف وغضب واضطراب ولكن الله ثبتهم بأن سكن قلوبهم .

وسنعرض لما يقرر القلب في كلا النظمين ولكن الملاحظ أن هنـاك اخـتلاف في الموضعين حيث جعلت السكينة على القلوب في الموضع الأول (أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِين) وللذوات في الموضع الثاني (فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ) ، وذلك لأن الموضع الأول الحال فيه أشد ، فالحال حال جهاد لا هدنة فلا بد أن يكـون المـن أعظم. والتسكين إذا كان في القلب فذلك أدخل في المن وأدعى للتثبيت .

أما الموضع الثاني : فكان في الصلح والبيعة فالحال أقل شدة وفي جعلها على الذوات معنى شمولها لهم عموماً في البيعة .

وفي نظم كل موضع ما يؤكد قرار القلب ، ففي الموضع الأول : بدأ بقوله (هُـوَ الَّذِي) أي الذي فتح لك الفتح المبين ، والذي غفر لك ذنبك ، وأتم نعمته وهـداك إلى صراط مستقيم ونصرك نصراً عزيزاً ، هو ــ سبحانه ــ منزل السكينة في قلوب المؤمنين فهذا دليل على عظمة هذه السكينة فهي من الله الذي وعد بتحقيق النصره وقال أنـزل : فقد أنزلها من علو وهذا العلو يعني القدرة والتمكن لذا تمكنت السكينة في قلـوبهم فقـد نزلت من دون واسطة ، ولذا قال (في) ، و لم يقل (على) وهذا أدل على التمكن حيـث أصبحت قلوبهم وعاء للسكينة لا تنضح إلا بها أياً كان الحال .

(قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ) جمع قلوبهم فالمنة كانت عامة لجميع المـؤمنين في ذلـك الموقـف والعموم أدل على التمكن . كما إنه قال (المؤمنين) و لم يقل (الـذين آمنـوا) وفي هـذا

---

1 - مدارج السالكين : 507/2
2 - الفروق اللغوية : 228

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

دليل على ثبات الإيمان وقراره ، فالسكينة لزيادة الإيمان (لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ) وهـذا نتاج جعلها في القلب ، فهم مؤمنون ثابت إيمانهم مسبقاً ، فالقصد إلى الزيادة وقد عبر بالفعل (يزدادوا) و لم يقل (يزيدوا) ففك إدغام الفعل دلالة على كثرة هذه الزيادة وتجددها آناً بعد آن حيث عبر بالمضارعة ، وكل ذلك تأكيد على ثباتها وتمكنها في القلوب وقال ابن عطية في قوله تعالى"وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ": ومن جنده السكينة التي أنزلها في قلوب أصحاب محمد ﷺ فثبت بصائرهم[1] .

وفي ختم الآية بقوله (وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً) في حين ختم الآية الواردة بعد المنافقين (وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً) ملاءمة للمؤمنين في الأولى وملاءمة للمنافقين في الثانية . وذلك لأن الأولى تقدمها العلم بالفتح ، والعلم بحال المؤمنين وزيادتهم على إيمانهم بالسكينة فكان الموضع موضع علم وحكمة قال (عليماً حكيماً) أما الثاني فمتصل بما قبله : بالعذاب للمنافقين فذكر قدرته على عقابهم وقهرهم بالعذاب فقال " عزيزاً حكيماً " [2].

وفي الموضع الثاني بدأ القرآن بتوكيد رضى الله -عز وجل -على المؤمنين (لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ) وهذا تثبيت ولا شك لا يكون إلا في القلوب (عن المؤمنين) أيضاً وصفهم بالمؤمنين وهذا دليل ثباتهم على الإيمان فما حصل من الرضا وإنزال السكينة إنما هو من العون وزيادة الإيمان والفضل .

(إِذْ يُبَايِعُونَكَ) وفي جعل الجملة -المضاف إليها الظرف- فعلية مضارعة دليل حصول الرضا قبل انقضاء الفعل في حال تجدده مبالغة هي أدخل في مدح هؤلاء المؤمنين وبيان لعظمة المنة حيث حصل الرضا عند تجديد المبايعة و لم ينتظر به تمامها[3] . (فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ) قوله (علم) هنا مرشحة للقلب لأن علم الله بالشيء يقتضي بيان حقيقة ما هو عليه وبالتالي المجازاة على ذلك ؛ ولذا خص هنا القلب بالمعرفة لأنه على

---

1 - المحرر الوجيز : 434/13

2 - ينظر : درة التنزيل وغرة التأويل: 303 ، أسرار التكرار في القران الكريم :الكرماني, ت:عبد القادر عطا ,القاهرة,دار الفضيلة : 227 ، ملاك التأويل : 1025/2

3 - التحرير والتنوير : 148/26

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ما وقر فيه يكون المن ,ونلاحظ ورود ذلك في قوله (أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ)[1] في شأن المنافقين وخص القلب أيضاً لأن حقائق الاعتقاد لا تكون إلا في القلوب .

وفي قوله (ما) ملاءمة للقلوب لما في (ما) من الإبهام فما في القلوب مبهم لا يعلمه إلا الله ، ومنها دلالة تعظيم لما في قلوبهم .

(فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ) قيل الفاء للتعقيب وعلم الله قبل الرضا لأنه علم ما في قلوبهم من الصدق فرضي عنهم[2] . وقيل الفاء في (فعلم) عطف (على يبايعونك) ، (فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ) ، عطف على (رَضِيَ) أي فأنزل عليهم الطمأنينة والأمن والسكون النفسي بالربط على قلوبهم[3] .

وقيل الفاء ليست للتعقيب ، لأن علم الله بما في قلوبهم ليس عقب رضاه عنهم ولا عقب بيعتهم فتعين أن تكون فاء فصيحة تفصح عن كلام مقدر بعدها : والتقدير : فلما بايعوك علم ما في قلوبهم من الكآبة ، ويجوز أن تكون الفاء لتفريع الأخبار بأن الله علم ما في قلوبهم بعد الإخبار برضا الله عنهم لما في الإخبار بعلمه ما في قلوبهم من إظهار عنايته بهم ، ويجوز أن يكون المقصود من التفريع قوله (فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ) ويكون قوله : (فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ) توطئة له على وجه الاعتراض[4] .

ويظهر لي أن الآية على نظمها دون تقديم وتأخير فعلم الله متقدم أزلاً . ولكن القرآن هنا في سياق المن والفضل وكلما ترقى القرآن في بيان المن كان أدخل في المدح وأدعى لتمكن هذا المن . فالرضا على المؤمنين هنا وقع أولاً وقد يسرهم للمبايعة ثم بعد ذلك أنزل الله السكينة عليهم وذكر علم الله بعد الرضا وقبل إنزال السكينة إنما هو كما قال الطاهر بن عاشور إظهار عنايته بهم ومدح لهؤلاء المؤمنين ببيان استحقاقهم لإنزال السكينة عليهم فالقصد والله أعلم بيان زيادة المدح بالتصريح بالعلم هنا دون التصريح به مع الرضا . وذلك للترقي في بيان الفضل والمن لذا صرح بتعليق العلم بالقلب وعلى هذا

---

1 - النساء : 63

2 - التفسير الكبير: 79/10

3 - تفسير أبي السعود : 103/6

4 - التحرير والتنوير : 26 /148

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فيظهر لي أن الفاء قد تكون للتعقيب حيث إن الله لم يدعهم حيارى بل مباشـــرة أنـــزل عليهم السكينة . وقد تكون سببية فبسبب ما في قلوبهم من إيمان أنزل علـــيهم الـــسكينة وهذا أدخل في مدحهم .

وفيما ورد من أنواع المن والفضل في السياق البعدي تأكيد على قرار القلب ففيه من الوعد والبشرى ما تقربه القلوب وتسكن وتثبت ليقينها بفضل الله ونصرته.

وقال تعالى في سورة التوبة ﴿**لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَــاجِرِينَ وَالْأَنْــصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَــيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ**﴾(1) .

مورداً لفظة القلب في سياق المنّ على المؤمنين في غزوة تبوك بالتوبة عليهم دون الفـــؤاد, وذلك لأن السياق العام في السورة عني بالقلوب ، لذا قدم الحديث عن المنـــافقين ومـــا كانت عليه قلوبهم من المخالفة ، والمنافقون أنكى حالاً من الكفار وأثبت على اعتقـــادهم الفاسد والنفاق من أعمال القلوب ولذا ختم أمرهم بصرف قلوبهم وبين حالها للحرص من هذه الحال، ولذا جعل من مصارف الزكاة (المؤلفة قلوبهم) لكي يرقى بهذه القلوب التي لم تثبت فيؤل حالها إلى الثبات والتمكن ارتقاءً بها عن النفاق ، كما ورد في السورة ما يؤكد على أن المعول على ما نوت القلوب وإن كان ظاهر العمل الصلاح كبناء مسجد الضرار . فالمعول في ذلك على تقوى القلوب لذا لاءمت هنا لفظة القلب واللفظة ملائمة للسياق كما سبق ، وملائمة لعموم نظم الآية من وجوه :

أولها : إنها قلوب قوم مؤمنين ولثباتها سارت مع الرسول -ﷺ- في ساعة العسرة وتحديد ساعة العسرة أدل على الثبات والتمكن الملائم لحال القلوب .

ثانيها : العطف على الرسول - ﷺ - فيه تشريف وهذا التشريف رقي لها وثبات يلائـــم أيضاً القلوب .

ثالثها : في التصريح من الله بالتوبة عليهم أولاً وآخراً تأكيد على رضاه وفي هـــذا رقـــي وثبات ملائم للقلوب .. هذا بشكل عام.

---

1 - التوبة:117

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي تفصيل نظم الآية ما يؤكد على قرار لفظة القلب في مكانها وملائمتها لنظمها وجاراتها .. حيث بدأ -جل وعلا- بـ(لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ...) مؤكداً هذه التوبة معبراً عنها بالمضي فقد سبقت وتحقق وقوعها وهذا أدعى للثبات وأمكن في المنة والفضل على قلوب المؤمنين ، ثم بدأ بالتوبة على النبي و لم يسبق منه هنا ذنب بل توبة للتوبة وهذا رقي بالرسول- ﷺ - وفي تحديد الساعة بأنها (ساعة العسرة) دلالة على تمكن القلوب وثباتها وهذا أليق بأن تكون اللفظة القلب لا الفؤاد ، وقوله (مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ) ، (كاد) عند بعضهم تفيد المقاربة فقط ، وعند آخرين تفيد المقاربة مع عدم الوقوع . فهذه التوبة المذكورة توبة عند تلك المقاربة[1]. وعلى هذا سار المفسرون وقال صاحب الدلائل في التعليق على بيت شبرمة : (اعلم أن سبب الشبه في ذلك أنه قد جرى في العرف أن يقال (ما كاد يفعل) و (لم يكد يفعل) في فِعل قد ُفعل ، على معنى أنه لم يفعل إلا بعد الجهد ، وبعد أن كان بعيداً في الظن أن يفعله ، كقوله تعالى (فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ) فلما كان مجيء النفي في كاد على هذا السبيل ، توهم ابن شبرمة أنه إذا قال : (لم يكد رسيس الهوى من حب مية يبرح) فقد زعم : أن الهوى قد برح ، ووقع لذي الرمة مثل هذا الظن . وليس الأمر كالذي ظناه ، فإن الذي يقتضيه اللفظ إذا قيل : (لم يكد يفعل) و(ما كاد يفعل) ، أن يكون المراد أن الفعل لم يكن من أصله ولا قارب أن يكون ولا ظن أنه يكون . وكيف بالشك في ذلك ؟ وقد علمنا أن (كاد) موضوع لأن يدل على شدة قرب الفعل من الوقوع ، وعلى أن قد شارف الوجود . وإذا كان كذلك كان محالاً أن يوجب نفيه وجود الفعل لأن يؤدي إلى أنه يوجب نفي مقاربة الفعل الوجود وجوده ، وأن يكون قولك : (ما قارب أن يفعل) مقتضياً على البت أنه قد فعل) [2] . وعلى هذا يكون الزيغ لم يحدث من المؤمنين ولا قارب الوقوع وهذا دليل على الثبات والتمكن الملائم للقلب وقد فسر العلماء ذلك بأنها الوسوسة التي وقعت في قلوبهم[3] . فهي وسوسة فقط ولكن الله تاب عليهم فيها أما قلوبهم فهي ثابتة على

---

1 - التفسير الكبير : 163/6
2 - دلائل الإعجاز : 275
3 - مدارج السالكين : 343

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الحق وإن حصل فيها وسوسة ولكن حالهم من الإيمان يجعل قليلهم يوجب التوبة منه وفي ذلك قال ابن القيم : فإن من كملت عليه نعمة الله . واختصه منها بما لم يختص به غيره في إعطائه منها ما حرمه غيره . فحُبي بالإنعام ، وخص بالإكرام . وخص بمزيد التقريب وجعل في منزلة الولي الحبيب ، اقتضت حالة من حفظ مرتبة الولاية والقرب والاختصاص: بأن يراعى مرتبته من أدنى مشوش وقاطع . فلشدة الاعتناء به ، ومزيد تقريبه , واتخاذه لنفسه ، واصطفائه على غيره تكون حقوق وليه وسيده عليه أتم . ونعمه عليه أكمل . والمطلوب منه فوق المطلوب من غيره فهو إذا غفل وأضل بمقتضى مرتبته نبه بما لم ينبه عليه البعيد البراني ، مع كونه يسامح بما لم يسامح به ذلك أيضاً . فيجتمع في حقة الأمران [1].

ولذا ختم -جل وعلا- بأن خصهم بالرأفة والرحمة (رَؤُوفٌ رَحِيمٌ) وأكد ذلك ورقي عن مجرد المغفرة فلم يقل (إِنَّهُ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ) بل قال (بهم) وفي ذلك تخصيص لهم بالرأفة والرحمة وهذا أدخل في المن .

ونلاحظ ختم السورة بالمقابلة بين حال المؤمنين والذي يظهر فيه المن عليهم ، وحال المنافقين الذي يدل على إبعادهم . فالمؤمنون يزدادون إيماناً بنزول الذكر و(هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) ، والمنافقون يزدادون رجساً إلى رجسهم ، والمؤمنون تقدم أن قلوبهم كادت تزيغ ولكن الله ثبتها أما المنافقون (يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ) و (صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ) فلا ثبات لهم ولا هداية وكلا الحالين لما وقر في قلوب كل منهما : من إخلاص في قلوب المؤمنين ، ونفاق في قلوب المنافقين .

وفي قوله تعالى : ﴿**إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا**﴾ [2] .

---

1 – مدارك السالكين : 334

2 - الأحزاب : 10

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وردت القلب دون الفؤاد مع أن الموقف فيه خوف واضطراب وهذا ملائم للفؤاد لا للقلب . ولكن حين ننظر إلى السياق العام للسورة والسياق القريب وحال المتحدث عنهم نجد قرار (القلب) ــ فكما سبق ــ بينت أن سياق الأحزاب عموماً فيه تشريف للرسول -ﷺ- وتكريم ولذلك صور عديدة منها ــ هنا ــ تثبيت صحبه ونصرهم وصحب رسول الله -ﷺ- وإن اعتراهم خوف فهو خوف طبعي لا يقدح في ثبات قلوبهم . قال المرزوقي في كتابه شرح ديوان الحماسة في التعليق على بيت عمرو بن معد يكرب:

فجاشت إلى النفس أول مرة SS ورُدَّت على مكروهها فاستقرّتِ

اعترض بعضهم فقال : لولا أنه جبن لما جاشت إليه النفس ــ قال الشيخ : وليس الأمر كما توَهَّمَ ، لأن ما ذكره عمرو بيان حال النفس ، ونفس الجبان والشجاع على طريقة واحدة فيما يدهمها عند الوهلة الأولى ثم يختلفان : فالجبان يركب نفرته، والشجاع يدفعها فيثبت[1] فكيف إذا كانت قلوب صحابة الرسول -ﷺ- .

وقد ورد قوله تعالى في السياق البعدي : (وَلَمَّا رَأى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ) ، وهذه الآية تصف ما كان عليه المؤمنون من الصبر والثبات في وجه الباطل ، وفيها إشارة إلى أن هذا القول كان منهم بلا ريث ولا إبطاء ، أي ما إن رأوهم حتى قالوا ، وذلك دليل على فرط اليقين وقوة الثقة ، ومتانة الإيمان ، وهذا لا ينافي أن القوم رعبوا وفزعوا كما صورت الآيات الأولى فالخوف من الهول شيء تابع للفطرة[2] ــ كما سبق ــ . وهذا الحال كله مقر للقلب دون غيره . كما إن نظم الآية بدأ بتصوير هول الحدث(إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ) كناية عن إحاطتهم بهم ، وتمكنهم منهم كل التمكن وهذا أدعى أن يحدث الخوف في القلب .

1 - شرح ديوان الحماسة لأبي تمام : المرزوقي ,بيروت,دار الكتب العلمية ,ط1 ,2003م-1424هـ : 118/1

2 - من أسرار التعبير القرآني دراسة تفصيلية لسورة الأحزاب : 16

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي نظم الآية قال : (وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا) الجمل الثلاث يحيط بها ظرف واحد وفيها تحديد لوقت هذا الخوف الشديد ـ ونلاحظ تدرج القرآن في وصف أحوال المؤمنين فالجملة الأولى تصف شخوص الأبصار وانحرافها وميلها (زاغت الأبصار) قال صاحب البرهان : كل شيء في القرآن من (زاغوا) فإنه من (مالوا) غير واحدة في سورة الأحزاب (وإذ زاغت الأبصار) بمعنى شخصت[1] ، ولا يمنع أن تكون بمعني مالت فالمكروب يرسل بصره ويقلب محاجره ، ويلتفت هنا وهناك وحشاً حائراً . وفي جمع (الأبصار) دليل عموم هذا الخوف على المؤمنين وهذا يوطيء أن يدخل الخوف إلى القلوب ، لذا قال تعالى بعدها مباشرة (وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ) وبلوغ القلوب الحناجر كناية عن شدة الفزع والخوف ، ووجه هذه الكناية أن العرب كانوا يعتقدون أن الخائف يتقلص قلبه ويجتمع ويلتصق بالحنجرة ، وتنتفخ رئته من شدة ما يجد ، وإذا انتفخت الرئة ارتفع القلب بارتفاعها ، ولهذا قالوا : للجبان : انتفخ سحره[2] . والقرآن بلغة العرب وقد راعى استعمالات العرب في الألفاظ في أكثر من استعمال ..

ونلاحظ أن استعمال القرآن للقلب في كثير منه يعبر به المضغة الصنوبرية وحقيقتها كما يراد به لوازمها في الإنسان من معان نفسية كالاطمئنان ، والسكينة والوجل وغيرها من صفات المؤمنين ، والقسوة والطبع والاستكبار واللهو وغيرها ، كما لاحظنا في صفات الكفار والمنافقين . واستعمالها كان في ثباتهم على هذه الأحوال وبيان مدى تمكنها منهم . والظن الذي ورد (وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا) لا يعارض ثبات ويقين هؤلاء المؤمنين ولا تمكن الإيمان من قلوبهم قال ابن عطية : هي عبارة عن خواطر للمؤمنين لا يمكن للبشر دفعها[3] .فكل ما تقدم يؤكد قرار القلب وإن كان القرآن في الخوف والاضطراب لكن تبعاً لاختلاف الأحوال والسياق وردت القلب دون الفؤاد .

---

1 - البرهان في علوم القرآن : 107/1

2 - من أسرار التعبيرالقرآني دراسة تفصيلية لسورة الأحزاب : 99

3 - المحرر الوجيز : 23/12

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويجمع المواضع السابقة في المن أنها في سياق التوفيق وعدم الخذلان في وقت الشدة .

وفي سياق حض المؤمنين على القتال وتحريضهم عليه قال تعالى: ﴿**قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ، وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾ [1] . وردت القلب دون غيرها من الألفاظ وقد أكد قرارها أمور عدة :

أولها: السياق العام لسورة التوبة ففيه تركيز على القلوب وأحوالها حيث تحدثت عن قلوب الكفار الذين اشتد عداؤهم للدين ، وقلوب المنافقين فبالتالي حين يكون الحديث عن المؤمنين فالأولى أن يتركز عن قلوبهم فالحديث عن مؤمنين تمكن الإيمان في قلوبهم .

ثانيها: أن القتال الذي من أسبابه إذهاب غيظ قلوب المؤمنين موجه لـ(أئمة الكفر) ومعناه قاتلوا الكفار بأسرهم ، إلا أنه تعالى خص الأئمة والسادة منهم بالذكر بأنهم هم الذين يحرضون الأتباع على هذه الأعمال الباطلة، وخص هؤلاء بالذكر ملائم لـ(غيظ قلوبهم) فالغيظ يشتد تبعاً لشدة الأذى وأئمة الكفر كانوا أشد إيذاءً للمؤمنين ، لذا تمكن الغيظ من قلوبهم.

ثالثها: نوع النصرة المذكورة في السياق قاتلوهم (يعذبهم الله بأيديكم) و(يخزهم) و(ينصركم) عليهم (ويشف صدور قوم مؤمنين) (ويذهب غيظ قلوبهم) فكل أنواع هذه النصرة تؤكد عظمة المن على المؤمنين بنصرهم نصراً عزيزاً ، فكل ما سبق من نتائج القتال.وهذا يلائم أن يكون المؤمنون ثبت إيمانهم وتمكن وبالتالي يلائم معهم ذكر القلب .

والملاحظ أن الجملة_هنا_"قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم"طلبية وقد اختلف في سبب جزم الجمل الواقعة بعد الطلب فقيل :إنها جزمت بالطلب نفسه لتضمنه معنى الشرط,وقيل: إنها جزمت على تقدير شرط محذوف والتقدير هنا(قاتلوهم إن تقاتلوهم يعذبهم الله)(2),

---

1 - التوبة : 14 ، 15

2 – شرح جمل الزجاج (الشرح الكبير):ابن عصفور الأشبيلي ,ت:صاحب أبو جناح ,بيروت,عالم الكتب,ط1, 1419هـ-1999م :195/2

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويظهر لي أن الملائم لحال المؤمنين في هذا الموضع المذهب الأول فالطلب هو الجازم وذلك لأنه لا يتصور في المؤمنين تأخر عن أمر الله يدعو إلى الشرط وهذا يلائم ثبات قلوب المؤمنين وسرعة استجابتهم لأمر الله.فالظاهر أن لكل من القولين حال يناسبه فإن كان المخاطب ممن يتوقع منه التأخر أو الحاجة إلى زيادة الترغيب كان التقدير بالشرط أولى وإن لم يكن فعدم التقدير أولى كالآية الواردة هنا.

رابعها: الترقي الوارد في القرآن يرشح أن يكون المذكور الثاني القلب لا الفؤاد حيث قال أولاً (يشف صدور قوم مؤمنين) ثم عطف عليه (ويذهب غيظ قلوبهم) سواء كانت الذوات المختلفة فقيل يحتمل أنه يريد جماعة المؤمنين ، لأن كل ما يهد من الكفر هو شفاء من هم صدور المؤمنين ويحتمل أن يريد تخصيص قوم من المؤمنين[1] ، فإن كان المقصود واحد فيكون الترقي في النصر وقيل لما كان الشفاء قد لا يراد به الكمال ، أتبعه تحقيقاً لكماله قوله : (ويذهب غيظ قلوبهم)[2] وظاهر العطف أن إذهاب الغيظ غير شفاء الصدر ، ووجهه بأن الشفاء بقتل الأعداء وخزيهم وإذهاب الغيظ بالنصرة عليهم أجمعين, ولكون النصرة مدار القصد كان أثرها إذهاب الغيظ من القلب الذي هو أخص من المصدر ، وإذهاب الغيظ كالتأكيد لشفاء الصدر وفائدته المبالغة في جعلهم مسرورين بما يمن الله تعالى عليهم ، ولعل إذهاب الغيظ من القلب أبلغ لما عطف عليه فيكون ذكره من باب الترقي[3] .فإن كانت الذوات مختلفة فدليل أن الثاني أقوى إيماناً فبالتالي ملائم معها القلب وإن كانت الذات واحدة فالنصرة الثانية أقوى من الأولى وبالتالي هي ملائمة لما تمكن في القلب .

خامسها: إضافة مادة الغيظ دون غيرها ملائمة للقلب فالغيظ هو أشد الغضب، وهو الحرارة التي يجدها الإنسان من فوران دم قلبه[4].

---

1 - المحرر الوجيز : 430/6
2 - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : 280/3
3 - روح المعاني : 256/4
4 - المفردات في غريب القرآن : 371

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وشدة الغيظ لا تكون إلا لتمكن سببها في القلب وسبق أن ذكرت ملائمتها (لأئمة الكفر) وجمع القلوب دليل على عموم هذا الغيظ على الكفار في قلوب المؤمنين .

وقوله تعالى: (وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) مستأنف وليس معطوفاً على ما قبله بدليل رفع (يتوب) كما إن (ويتوب الله على من يشاء) ليس من نتائج القتال بل هو يحدث بعد ذلك .

ولاءم ختم الآية بقوله (والله عليم حكيم) حال قلوب المؤمنين حيث علم تعالى ما فيها من يقين وإيمان فأيدها بنصره .

ومن مواضع منّ الله على المؤمنين قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ**﴾[2].

وقال تعالى: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ**﴾[3] .

ورد القلب من دون الفؤاد وذلك لأن السورة عموماً تدعو إلى آداب وأخلاق وهي ثوابت تكون في القلب الذي تمكن فيه الإيمان حيث إن ما ذكر في السورة لا يصل إليه حديث إسلام بل متعمق متمكن في الإيمان وهذا يلائم القلب . ثم إن النداء في السورة أتى بـ (يا أيها الذين آمنوا ..) استجابة لقلوبهم بالصفة التي تربطهم به ، وتشعرهم بأنهم له ، وأنهم يحملون شارته[3] . وورد النداء بـ(يا أيها الذين آمنوا) بالفعل دون (المؤمنون) دلالة أن ما سيرد من أوامر ونواهي لتكميل إيمانهم ، فإيمانهم لم يكتمل بعد حتى ينادوا بـ(المؤمنون) بل ما زال في ترق وصعود .. وقد صرح في السورة أن الإيمان يكون في القلب (وَلَمَّا يَدْخُلِ الْأِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ) إذن الإيمان من أعمال القلوب ولا يكون إلا فيها .

1- الحجرات : 3

2 - الحجرات : 7

3 - في ظلال القرآن : 3/6

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كما إن التركيز في السورة كان على التقوى ، والتقوى أيضاً من أعمال القلـــوب فهي هبة عظيمة ودرجة عالية من الإيمان فلا تكون إلا نتيجة تمحيص وثبات للإيمان وهذا أيضاً ملائم للقلب .

لذا حين بين الله منته على المؤمنين وردت لفظة القلب ونظم الآيات ذاتها يؤكـــد على قرار هذه اللفظة في مكانها حيث تقدمها من المعاني والألفاظ ما يوطيء لها وعقبها ما يؤكدها ففي قوله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّـــذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾** .

فالبداية بالتوكيد دلالة على الاهتمام بمضمونه من الثناء عليهم وجـــزاء عملـــهم وحين يؤكد الكلام دون أن يكون هناك تردد أو إنكار دلالة على تمكن ما أكد في قلوب هؤلاء الصفوة -رضي الله عنهم- من التقوى ؛ لذا عبر عنهم باسم الموصول (الذين) ليدل على أن هذه الصفة معروفة ظاهرة فيهم وهذا الظهور إنما هو لتمكنها في قلوبهم على جـــوارحهم وعلى أفعالهم . وفي اختيار فعل الغض دون غيره من الخفض أو الخفت لأن فيه دلالـــة أن هذا الغض من الصوت فيه لين فهو إنقاص للصوت بلين كمـــا يظهـــر لي أن الخفـــض والخفوت إنقاص أو إنزال من شيء مرتفع عالٍ ولكن الغض إنقاص أو إنزال من شـــيء منخفض أصلاً ولكن يزيد من غضه وهذا ملائم لحرص الصحابة على الأدب مع الرسول ﷺ وملائم للتقوى التي سكنت قلوبهم .فالقصد منه الطاعة للرسول صلى الله عليه وسلم ومادة غض لم ترد في القرآن الكريم إلا في التشريف إما وصية لرفع مكـــارم الأخـــلاق كوصية لقمان لابنه وإما أمراً للمؤمنين لزيادة الرقي بهم في إيمانهم وهذا الرقي يدل علـــى تمكن الإيمان وهذا لا يكـــون إلا في القلب .

كما إنه عبر بـــ(عند) و لم يقل لدى وذلك لأن عند أمكن من لدى من وجهين:

أحدهما: أنها تكون ظرفاً للأعيان والمعاني ، وليس ذلك في لدى ، **والثاني:** أن عند تقـــال ولو كان المقصود غائباً ، ولا نقول (لدى) إلا إذا كان حاضراً[1] . وفي هذا دليل علـــى عمق إيمان الصحابة وتمكنهم سواء حضر الرسول -ﷺ- أم غاب- أي عنـــد ذكـــره ، فهيبته موجودة لـــديهم- فـــسواء كـــان بعينـــه موجـــوداً أو بمعـــاني هيبتـــه -ﷺ-

---

1 - معنى اللبيب : 176/1

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فهم يغضون أصواتهم رضوان الله عليهم وهذا لا يكون نابــعاً إلا من رقي في الإيمــان والتقوى . وفي قوله (رسول الله) دون النبي دلالة على ذلك .. وذلك لأن لفظة النبي تدل على التشريف والتكريم وهم لم يهابوه فقط لشرفه وكرمه بل إن غض أصواتهم عنــده - ﷺ- لإيمانهم بأنه رسول الله ومن يعظم واحداً من أبناء جنسه لكونه رسولاً لله فيكــون تعظيمه للمرسِل أعظم وخوفه منه أقوى ، وهذا كما في قوله تعالى: (وَمَنْ يُعَظِّمْ شَــعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ)[1] وفي إضافة الرسول إلى (الله) بلفظ الجلالة بما فيه من معاني المهابة والخوف والتعظيم فهو كما ذكر البلاغيون (تربية المهابة في القلوب) ومن ثم رشح لذكر امتحان القلوب للتقوى ، ولاءم شدة المراقبة قبله والتوكيد الذي ورد به القــرآن ، ولذا أشار لهم بـــ(أولئك) تعظيماً لشأنهم ودلالة على علو مرتبتهم .. فهم الذين مــنّ الله بجلاله عليهم بأن (امتحن الله قلوبهم للتقوى) . وقد ورد النظم بـــ(امتحن) دون غيرهــا من الابتلاء والتمحيص وذلك لملاءمة السياق والنظم فالسياق فيه هدوء فهو عــن آداب وأخلاق والمتحدث عنهم المؤمنون وفي الامتحان معنى العطية[2] كما فيه معنى الاتــساع وهذه المعاني تلائم سياق المن على المؤمنين والتفضل عليهم بأن وسع قلــوبهم وأعطــاهم التقوى كما إن الامتحان لم يرد في سياقات القرآن إلا مع المؤمنين في هذا الموضع ، ومع المؤمنات المهاجرات ﴿**يَا أَيُّهَــا الَّــذِينَ آمَنُــوا إِذَا جَــاءَكُمُ الْمُؤْمِنَــاتُ مُهَــاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ**﴾[3] . وهذا يدل على ألاّ شدة فيه وهذا ليس في الابتلاء والتمحيص ففيهمــا معنى الشدة والتخليص والتنقية من الشوائب كما فيها معنى التنقيص من الذنوب[4] وليس هذا موضعها ولا هي ملائمة للمن بالتقوى . وورود امتحن بالمضي دليل تحقق هذا الفضل والمن .

---

1 - التفسير الكبير : 95/10
2 - لسان العرب : 4150/6
3 - الممتحنة : 10
4 - الكشاف عن غوامض التتريل وعيون الأقاويل : 561/5

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقيل المعنى (امتحن الله قلوبهم للتقوى) جرب له ، وُدرب للنهوض به ، فهو مضطلع به ، والمعنى أنهم صبّر على التقوى أقوياء على احتمال مشاقها.أو وضع الامتحان موضع المعرفة ؛ لأن تحقق الشيء باختياره كما يوضع الخبر موضعها.فكأنه قيل : عـــرف الله قلـــوبهم للتقوى ، أو ضرب الله قلوبهم بأنواع المحن والتكاليف الصعبة لأجل التقـــوى أي تثبـــت وتظهر تقواها ويعلم أنهم متقون وقيل أخلصها للتقوى[1] . والمعاني كلها تدور حول معنى الامتحان للقلوب وتخليصها للتقوى . وقيل اللام في (للتقوى) لتعليل يجري مجرى بيـــان غاية المقصود المتوقع الذي يكون لاحقاً لا سابقاً تحقيقه هو أن الله امتحن قلوبهم بمعرفتهم ومعرفة رسوله بالتقوى ، أي ليرزقهم الله التقوى التي هي حق التقاة[2].

وقيل اللام للاختصاص[3] ويظهر لي أنه أقوى وأدخل في المن حيث إن الله اختص قلوبهم بالتقوى دون غيرهم وفي التقوى ملاءمة للقلوب فهي من أعمالها ,كما إن اختـــصاصهم بالتقوى ملائم لسياق تعظيم وإجلال الرسول-ﷺ- وقد شاعت لفظة التقـــوى في جـــو السورة عموما فهي ملائمة للورود هنا؛فالتقوى أعلى من غيرها من درجـــات العبـــادة فالاختصاص بها ملائم لحال هؤلاء المؤمنين ,وزاد الفضل بأن غفر لهم وآجـــرهم أجـــرا عظيما.

ومضى السياق البعدي في التأكيد على الأخلاق التي تثبت الإيمان في القلب "إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا" موجها الخطاب لهم باسم الإيمان "يأأيها الذين آمنوا",ثم يذكر منا آخرا عليهم فلم يمتحن قلوبهم للتقوى فقط بل أنه حبب إلـــيهم الإيمـــان وزينـــه في قلـــوبهم **﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّـــبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِـــكَ هُـــمُ الرَّاشِدُونَ﴾** وفي العلم يقين يدرك به الحق ليثبتوا عليه ,وحين يكون الرسول" فيكم" فلم يقل (بينكم) يكون في ذلك دلالة أقوى على تمكن الإيمان وثباته فالرسول -ﷺ- فـــيهم معنى وحساً .

---

1 - ينظر التفسير الكبير : 95/10   2 - التفسير الكبير : 100,99/10   3- التحرير والتنوير : 186/26

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

موجود بين ظهرانيهم يحرص عليهم ويصوبهم ، وموجود في دواخلهم بخلقه وبكونه أسوة لهم وهذا أدعى أن يكون الإيمان قد دخل قلوبهم وتمكن منها لذا ورد القلب؛ فالإيمان لا يكون إلا في القلب فكيف إذا رقّى الله -جل وعلا- هذا الإيمان فثبات على ثبات.وحبب (إليكم) أي قربه وأدخله في قلوبكم ثم زينه فيها بحيث لا تفارقونه ولا يخرج من قلوبكم ، وهذا لأن من يحب أشياء ، فقد يمل شيئاً منها إذا حصلت عنده وطال لبثها والإيمان كل يوم يزداد حسناً ، ولكن من كانت عبادته أكثر وتحمله لمشاق التكليف أتم تكون العبادة والتكاليف عنده ألذ وأكمل ، ولهذا قيل أولاً (حَبَّبَ إِلَيْكُمُ) ،وقال ثانياً : (وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ) كأنه قربه إليهم ثم أقامه في قلوبهم[1].

وفي التصريح بلفظ الجلالة (الله) دلالة على هذا التمكن من الإيمان ، كما إنه جعل صيغة الفعلين (حبب ، زين)ّفعل ، بتكرير العين قال ابن جنى : فلما كانت الأفعال دليلة المعاني كرروا أقواها وجعلوه دليلاً على قوة المعنى المحدث به[2] ففي هذه الصيغة دلالة على تكرير الفعل وهذا أدل على المبالغة فيه وأدل على تمكنه تمكناً يلائم ثبات القلوب .

ونلاحظ الترقي فلم يدخله فقط في قلوبهم بل حببه إليهم ثم زينه في قلوبهم وفي معنى حرف الجر (في) دلالة على تغلغل هذا الإيمان ، والإيمان أصلاً أرقى من الإسلام يلائمه أن يرتبط بالقلب الذي يدل على ثبات الاعتقاد والإيمان لا ينطق بل هو اعتقاد يكمن في القلب و لم يقف النظم على إثبات تمكن الإيمان بأن حببه للمؤمنين وزينه في القلوب بل ترقى في تأكيد هذا التمكن بأن نفى ضده كبيراً كان أو صغيراً فكرّه إليهم الكفر وهو أعظم الذنوب ، والفسوق وهو دون الكفر ، والعصيان وهو دون الفسوق . فكره إليهم كل ما ينافي الإيمان أو حتى كماله وهذا دلالة على عمق إيمان قلوبهم .

ولذا ختم بـ(أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ) مشيراً لهم إشارة تدل على شأنهم ومكانتهم مؤكداً (هم الراشدون) رشدهم واستقامتهم في الدين[3] وقيل إن الرَشد بالفتح ، يقال في الأمور الأخروية لا غير[4] .

---

1 - التفسير الكبير : 102/10
2 - الخصائص : 507/10
3 - الفروق اللغوية: 224
4 - المفردات في غريب القرآن : 202

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهذا أدل على خلوصهم في إيمانهم لله -جل وعلا- وعبر باسم الفاعل دلالة على ثبات هذا الخلوص والاستقامة . ولا بد أن نلاحظ وجه ورود حبب إليكم الإيمان وزينة في قلوبكم — هنا — وامتحان القلوب هناك ، وذلك عائد إلى الأدب المذكور في القرآن فهناك غض الصوت عند الرسول صلى الله عليه وسلم وهذه درجة عالية من الحرص لا يصل إليها إلا من أعطي التقوى ووسع قلبه لكل هذه الفضائل وهذه المعاني في الامتحان لا في التحبيب ، أما حبب وزين فقد ورد في سياق طاعة الرسول -ﷺ- (لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ) ولذا أطاعوه وهذه الطاعة تكون نابعة من حب الإيمان وتزيينه في قلوبهم .

فنلاحظ أن لفظة القلب قارة في مكانها في كلا الآيتين حيث إن السياق يتكلم عن درجة في الإيمان لا تكون في فؤاد مضطرب بل في قلوب متمكنة قارة ، كما أن الإيمان الذي يتحدث عنه السياق اعتقاد عميق يكون في القلب ، والذين تحدث عنهم كانوا من أشد الناس إيماناً بل إن منهم — أبو بكر — من لو وزن إيمان الأمة بإيمانه لرجحت كفة إيمانه -رضوان الله عليه -

والأمور التي لزمها هؤلاء المؤمنون دقائق لا يصل إليها إلا من تعمق الإيمان واليقين فيه وكل ذلك ملائم لحال القلوب لا الأفئدة .

ومن المنّ على المؤمنين زيادتهم عوناً وهداية إلى اليقين وفي ذلك قال تعالى: ﴿**مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾[1] .

مورداً القلب لأن المقام هنا مقام فضل وزيادة في الإيمان بل درجة عالية من اليقين لا تكون إلا في القلوب . فقد أورد السياق في السورة صفات للمؤمنين وجزاءً مناسباً لكل منهم فمن وحّد الله ولم يشرك به كفر عنه سيئاته وأدخل الجنة،وفاز فوزاً عظيماً ، ومن وقي شح نفسه كان من المفلحين ، وهنا في الآية ذكر درجة من الإيمان أعلى من توحيد الله فقط بل تصل إلى اليقين التام به ، لذا كان الجزاء والثواب فيها متعلقاً بالقلب فكما ثبتوا ثبتهم الله .

---

1 - التغابن : 11

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال تعالى: "مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ.." مستعملاً – سبحانه- أسلوب القصر وقد قصر (بما وإلا) ولا يكون ذلك إلا للمنكر أو المترل مترلة المنكر وفي ذلك إشارة إلى أن الوضع عزيز فقليل من يوقن عند وقوع المصاب أن كل شيء من الله وبإذنه وعلمه ، فكثير من يفقد العقل ولا يثبت عند المصاب ولكن حال المؤمن ثبات.

وفي تنكير مصيبة دلالة على عمومها سواءً كانت صغيرة أو كبيرة في المال أو النفس أو الأهل فكل ذلك من الله ، وفي ذلك دلالة على القضاء الأزلي والإيمان بذلك يحتاج إلى درجة عالية ويقين عالٍ ، ولا يكون ذلك إلا في القلوب وليست أية قلوب بل قلوب أعالها الله وهداها لذلك .

ثم قال تعالى: (وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ) مشترطاً في الجملة بأنه من يؤمن بالله في حال المصاب والمقصود هنا التسليم ، وقيل هو الاسترجاع عن المصيبة. وعن الضحاك : حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن يخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وعن مجاهد : أنه لو ابتلى صبر ، وإن أعطي شكر وإن ظلم غفر[1] وكل ذلك من التسليم لقضاء الله فالمؤمن مرتاض بالأخلاق الإسلامية متبع لوصايا الله تعالى فهو مُخالف لفاسد الأخلاق من الجزع والهلع يتلقى ما يصيبه من مصيبة بالصبر والتفكر في أن الحياة لا تخلو من عوارض مؤلمة أو مكدره[2] فكلما أصابه مصاب آمن ، وجعل له مع ذلك عوناً من الله جل وعلا لذا قال : (يؤمن) و لم يقل (آمن) فالإيمان ملازم كلما حلت مصيبة ، وعلق الإيمان بالله فقال (يؤمن بالله) وهذا أعظم من أن يقول يؤمن بأن ما أصابه من الله فلم يقصر الإيمان فقط على أنها من عند الله بل قال يؤمن بالله وهذا أعلى وأرقى في التعلق بالله وعام في كل الأحوال ولازم الإيمان الهداية والعون من الله وهذه الملازمة دلالة ثبات وتمكن ورقي في الإيمان تلائم القلب لذا خص بالهداية (يهد قلبه) القلب وهو الموضع الوحيد في القرآن الذي كان المفعول به (القلب) ومصرحاً به ليهد وفي هذا دلالة على ارتقاء هذا الإيمان حيث لم يقل تعالى (يهده) بل خص وقال (يهد قلبه) فكانت المثوبة مركزة على أعز ما فيه وذلك لأنه كان عزيزاً في إيمانه ودرجة يقينه فكان ثوابه أيضاً عزيزاً حيث وجه الهداية إلى القلب مباشرة ..

---

1 - الكشاف : 174/6

2 - التحرير والتنوير : 251/28

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فزاده على إيمانه عوناً بالهداية والسكينة بما يجدد له من التوفيق في كل وقت حتى يرسخ إيمانه فيتراح عنه كل مصيبة[3] ، وحين نقارن هذا الموضع بالموضع الذي سبقه في الإيمان (يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ..) . نجد الفرق في الجزاء حيث اختلف الإيمان فالإيمان في هذه الآية يقصد به التوحيد الذي ينجي من النار ولذا ذكر بعد (والذين كفروا) فكان الجزاء بالتكفير عنهم وإدخالهم الجنة.

أما في قوله تعالى : (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ) فالمقصود هنا التسليم والرضا وهذا أعلى من الإيمان السابق فلا يسلم إلا من وحد الله وأيقن به بل وصل إلى درجة من اليقين كان جزاؤه أن هدى الله قلبه وهذه النجاة وما أخفي لهم من قرة أعين أعظم .. وخص القلب بالهداية هنا لأن الرضا والتسليم عمل من أعمال القلوب بل من أعز أعمال القلوب التي لا يطلع عليها أحد إلا الله فقد يظهر الإنسان رضاه ولكن في قلبه سخط لكن المؤمن راضٍ قلبه سلم أمره لله لذا ختم تعالى :(وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) فهو عليم - سبحانه -بالقلوب التي تستحق الهداية والعون فهداها وأعانها على الصبر والرضى والتسليم.

---

3 - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : 15/8

***

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثالثاً : الآيات الواردة في سياق عتاب المؤمنين :

1- قوله تعالى : ﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ**﴾ الحديد:16 .

2- ﴿**إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ**﴾ . التحريم:4

ورد في كلا الموضعين القلب وذلك لأن الخطاب في الأولى للمؤمنين وفي الثانية لأزواج الرسول -ﷺ-وقد بلغن من الإيمان ما لا يكون إلا في القلب .. وكذلك حين يوجه الخطاب للمؤمنين لا يمكن أن يتلاءم مع حالهم وقرار الإيمان في قلوبهم إلا لفظة القلب .

ففي الآية الأولى القلب دون غيره لأن الخطاب كما سبق موجه للذين آمنوا والإيمان يكون في القلب ، كما إن السياق القبلي ورد فيه الأمر بالإيمان بالله ورسوله (آمنوا بالله ورسوله) كما تقدم الآية ذكر أجر المؤمنين والمؤمنات ، وبالمقابل ذكر عقاب المنافقين والإيمان والنفاق لا يكونان إلا في القلب . كما إن ما ذكر من أحوالهما محركة للقلوب والمقصود بها حياة القلوب فحين ورد العتاب في الآية كان المقصود به القلوب ، كما إنه ما ورد من ثناء على المؤمنين ورد بالثناء عليهم بإيمانهم بالله ورسله وأكد هذا الثناء بأنهم (الصدّيقون) مستعملاً اسم الإشارة للتعريف بالمسند إليه تأكيداً على استحقاقهم لهذا الوصف .. وقد وصفهم بـ (الصدّيقون) بصيغة المبالغة دلالة على تمكن هذا الصدق من قلوبهم في إيمانهم بالله ورسوله وهذا يلائم ثبات القلب ويقينه . وفي آخر السورة وجه النداء أيضاً للذين آمنوا وأمرهم (اتقوا الله وآمنوا برسوله) والتقوى من أعمال القلوب .

كما إن نظم الآية يؤكد على قرار اللفظة في مكانها حيث قال: (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ) فبدأت الآية بالاستفهام وهو استفهام للحض حيث إن المخاطبين الصحابة والمراد الارتقاء بهم إلى أعلى مراتب الإيمان ، ففي الاستفهام حض لهم لتعجيل هذا الارتقاء ولذا لاءم نسبة الفعل للقلب خاصة فهذا الرقي لا يكون إلا في

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

القلب ، وفي الآية عتاب لهم لا لقصورهم بل المراد إيصالهم إلى أعلى الدرجات وفي ذلك قال ابن القيم : (دعاهم من مقام الإيمان إلى مقام الإحسان يعني : أما آن لهم أن يصلوا إلى الإحسان بالإيمان ؟ وتحقيق ذلك بخشوعهم لذكره الذي أنزله إليهم) [1] .

وكون الذي حض عليه هو الخشوع فلا بد أن يكون المقصود القلب حيث إن الخشوع هيئة تظهر في الجوارح متى كانت في القلب ، فلذلك حض تعالى القلب بالذكر[2] .

وذكر الخشوع هنا لأن فيه معنى مطلق التذلل والانقياد ففاعله يرى أن من يخضع له فوقه وأنه أعظم منه[3] ، والخشوع ملائم لما ورد في السياق القبلي حيث ذكر فيه عناد نتج عنه فساد باطن المخالفين **﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾** فكأن الله يحذرهم ويدلهم على ما يجعل قلوبهم مخالفة لقلوب هؤلاء بأن تنقاد لله انقياداً مطلقاً.

وكما لاءم الخشوع ما قبله فقد لاءم ما بعده حيث قال تعالى: **﴿وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾** فكأنه قابل بين الخضوع واللين لذكر الله ، بقسوة قلوب المعارضين ولهذا ورد الخشوع دون غيره .

وقد نيط الخشوع بالقلب (تخشع قلوبهم) ولم يرد (يخشعوا) بالنسبة للذات وذلك لأن الخشوع لا يكون تكلفاً ولهذا يضاف إلى القلب[4] فهو إذن من عمل القلوب ، كما إن الذكر لا يؤتي ثمرته ولا يتعلق به غرض إلا إذا كان بالقلب ، أما إذا كان باللسان فلا ثمرة له ولا أثر ، بل هو إلى النفاق أقرب.

---

1 - مدارج السالكين : 510/2

2 - المحرر الوجيز : 14/ 309

3 - الفروق اللغوية : 278

4 - السابق : 279

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لذا نلاحظ أنه في النظم القرآني حيث يذكر (ذكر الله) يعلق الأثر بالقلوب (الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ) (وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ) ، (ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ) .

ولذا حذر تعالى المؤمنين أن يكون حالهم كحال هؤلاء الذين أوتوا الكتاب والذي كان من المفترض منهم حين يطول مكث الكتاب عندهم أن يزيدهم إيماناً ولكنهم خالفوا (فقست قلوبهم) أي صلبت واعوجت حتى كانت بحيث لا تنفعل للطاعات والخير[1] . والقلوب ليس من صفتها القسوة بل القسوة للحجارة ولكن حين خرجت عن طبعها الذي يقتضي التأثر بالذكر أصبحت كالجماد الذي لا إدراك فيه ولا عقل ، ولبعدهم عن الحق أضاف إليهم ضمير الغائب قلوبهم . ولانقلاب حالهم ومغايرته لطبيعته وصفهم(بالقسوة) حين يعرض ووصفهم بـ(الفاسقون) أي عريقون في وصف الإقدام على الخروج عن دائرة الحق التي وضعها لهم الكتاب ، وكأن في ذلك إشارة إلى أن عدم الخشوع في أول الأمر يفضي إلى الفسق في آخر الأمر[2] .

ويظهر لي في قسوة القلوب والفسق خروج عن الطبيعة وحياد عنها فالأصل أن تخشع القلوب فإن لم يكن فذلك خروج ومخالفة للمتوقع ، وفي الفسق خروج عن الحق مع سابق معرفة به لذا لاءم وصف من قسى قلبه عن ذكر الله بالفسق .

وقد أثبت لهم هذا الوصف حيث ذكر باسم الفاعل الدال على ثبوت الوصف لهم وعدم انفكاكه عنهم ، وهذا الوصف بمعناه ومبناه ملائم للقلب ، كما لاءم الخشوع القلب فكلاهما ناشئان عن أسباب تجعلهما متمكنان في القلب .

---

1 - نظم الدر في تناسب الآيات والسورة : 448/7

2 - التفسير الكبير : 461/10

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي عتاب أزواج الرسول ﷺ قال تعالى: ﴿**إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ**﴾ .

مورداً أيضاً القلب ورشح استعمال القلب وجوه منها :

أولاً: أن السياق في شأن بعض أزواج الرسول -ﷺ- وقد بلغن من الإيمان مبلغاً يؤاخذن على خطرات القلوب وهمساتها رضي الله عنهما .

ثانياً: أن فيها أمراً بالتوبة ، والتوبة لا تكون إلا من ذنب يؤاخذ به ولا يؤاخذ إلا بما تعمد القلب وعلى ذلك نص القرآن (وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ) ، (وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ) .

ثالثاً: النداء والأوامر الواردة في الآية موجة للذين آمنوا والإيمان من أحوال القلوب كما إن الأوامر أولاً كانت بالتقوى (قُوا أَنْفُسَكُمْ) ثم بالتوبة التي ُوصفت بـ(نَصُوحاً) التي لا عودة للإثم بعدها وهذا ملائم لثبات القلب على الحق .

رابعاً: ختم السورة بأمثال تدل على أن المعول على ما كان في القلوب من التقى لا على الظاهر فزوجتا نوح ولوط عليهما السلام لم يغن عنهما زواجهما من نبيين حين لم يكن هناك إيمان في قلبيهما ، وزوجة فرعون الطاغية نجاها إيمانها الذي وقر في قلبها ، ومريم ابنة عمران حين صدقت وصفت بأنها من القانتين وذلك لما وقر في قلبها من الإيمان فالمعول إذن على القلوب .

ونظم الآية يؤكد قرار القلب حيث بدأت الآية بالشرط (إن تتوبا) والشرط هنا على سبيل الفرض والتقدير ، بدلالة ما بعده ، فقد صغت قلوبكما . والملاحظ أن الشرط ورد (بأن) والأصل أنها للأمر النادر واستعمالها هنا على خلاف مقتضى الظاهر ، وذلك لأن المعاتب هنا أزواج الرسول -ﷺ- ولهم من الشأن العالي ما لهم وكلما علا شأن الإنسان علا عتابه وعلا تكريمه لذا علا هنا عتاب أزواج الرسول-ﷺ- فهم خيار النساء وأمهات المؤمنين. وارتفاع العتاب معهم دليل على قوة إيمانهم فيراد الوصول بهم إلى أعلى المراتب وهذا دليل على أن الإيمان الذي وقر في قلوبهم متمكن فيها . ولذا قدم التوبة على المظاهرة لأنها الملائمة لحالهن وإيمانهن .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا) ومعنى الصغو الميل أو النقص[1] . والمناسب مع أزواج الرسول الميل لا النقص فما حدث لا يصل إلى حد نقصان دينهن ولكن لأنه حدث ممن علا شأنهن في الإيمان عد ميلاً ونيط بالقلوب .

وقد عبر بالجمع (قلوبكما) بدلاً من المثنى لما في هذا المثنى من معنى الجمع ، وهذا معروف في كلام العرب ، وإنما عبروا بالجمع والمراد التثنيه من حيث إن التثنية جمع في الحقيقة ولأنه مما لا يلبس ولا يشكل[2] ومعنى أن في المثنى معنى الجمع دليل مراحل الميل في قلبيهما فكأنها قلوب .

وقد اعتمد الخالدي على هذه القاعدة في توجيه الآية فقال : وكأن القلب في عملية صغوه وانحداره ليس قلباً واحداً بل عدة قلوب ، ولو لاحظ أحد الفروق بين القلب في مراحل ودرجات صغوه وانحداره لوقف على ذلك ولو التقطت للقلب عدة صور ، تمثل كل صورة درجة من درجات انحداره لوجدت فروق . لهذا المعنى وردت القلوب في الآية مجموعة (فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا) وكأن كل واحدة منهما ملكت أكثر من قلب ، من خلال أثر الصغو والميل للقلب في مراحل صغوه [3]. والله أعلم .

رابعاً : سياق من لم يصل إلى مرتبة الإيمان :

وقال تعالى:﴿**قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾[4].

الآية واردة في سياق بيان حال الأعراب وأن أقوالهم كانت ظاهرة فقط ولم تنبيء عن باطنهم ولهذه الآية ارتباط بالسياق القبلي الوارد في سورة الفتح والذي كان فيه حديث الأعراب على الظاهر (سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا) ، (يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ) (سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ) فكل ما ورد عن الأعراب إنما هي أقوال ظاهرة لا اعتقاد فيها . وكذلك هنا في الآية إنما حديثهم عن الظاهر .

---

1 - لسان العرب : 2454/4

2 - المفصل : 155/1

3 - لطائف قرآنية : د.صلاح عبد الفتاح الخالدي ,دمشق,دار القلم,ط3, 1425هـ-2004م: 131

4 - الحجرات : 14

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأكد على ذلك نظم الآية (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا) فالإيمان هنا لم يتجاوز كونه ادعاء منهم وقول وليس اعتقادا لهم قالوا ذلك قولاً ظاهراً وحقيقتهم خلاف ذلك لذا قال تعالى (قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا) فنفى عنهم الإيمان أصلاً ، فكيف بتمامه ؟ حيث إنهم عبروا بالماضي (آمنا) وكأنه قد حصل منهم وتم فنفى عنهم الإيمان وزاد تأكيد هذا النفي بقوله (وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا) فالإسلام وهو أقل من الإيمان إنما هو قول أيضاً منهم لذا لم يرد القرآن بـ(ولكن أسلمتم) بل (ولكن قولوا) لأنه لو قال ولكن أسلمتم لكان خروجه في معرض التسليم لهم والاعتداد بقولهم وهو غير معتد به[1] .(وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ) نفى بـ(لما) وفي هذا حسن ظن بهم وزيادة في ترغيبهم في الإيمان حيث إن منفيها متوقع ثبوته [2]، (يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ) وردت لفظة القلوب لأن الإيمان لا يكون إلا فيها وإذا دخل الإيمان لا يدخل في الفؤاد بل في القلب لأنه درجة عالية من اليقين كما إنه أصلاً من أعمال القلوب لذا عدى بـ(في) لدلالة التمكن حيث إنهم لا يحكم عليهم بالإيمان إلا إذا كان وعاءه القلب أما إذا كان باللسان فلا إيمان بل ولا إسلام وإنما مجرد أقوال ظاهرة فقط.

وفي السياق البعدي ما يؤكد على قرار القلب حيث قصر وصف الإيمان (إنما المؤمنون) على فئة كانت أفعالها كلها من أفعال القلوب (آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِه) (لَمْ يَرْتَابُوا) ، (وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ) فلا يدفعها لله إلا من تمكن الإيمان في قلبه . (أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) فقد استحقوا أن يخصهم دون غيرهم بالصدق والإيمان إنما هو تصديق قلبي وفي القصر بإنما دليل على أن ذلك معلوم في صفات المؤمنين ، وفي نسبتها لهؤلاء دليل ثابت على نفيها عن الأعراب والذين لم يتصفوا بأي صفة من هذه الصفات القلبية بدليل شواهد سورة الفتح فهم لم يؤمنوا بالله ورسوله (وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِه) وارتابو وظنوا (أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ) وتخلفوا عن الجهاد وقالوا (شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا) .

كما أكد على ذلك ما ورد في السياق البعدي في السورة ذاتها (يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا) ولا يكون هذا الفعل ممن وقر في قلبه الإيمان البتة .

---

1 - الكشاف عن غوامض التنزيل وعيون الأقاويل : 5/ 587

2 - مغني اللبيب : 294

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المبحث الثالث : سياق أحوال الرسول ﷺ

الآيات الواردة في المبحث :

1- قوله تعالى :﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ أل عمرن 159

2- ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ الشورى:24

3- ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ البقرة :97

4- ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ " الشعراء 192، 193، 194

5- ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ هود :120

6- ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾الفرقان : 32

7- ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ النجم : 11

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي سياق أحوال النبي ﷺ ورد استعمال لفظة القلب في أربعة مواضع كما وردت لفظة الفؤاد في ثلاثة مواضع . والمواضع التي وردت فيها لفظة القلب هي :

1- قوله تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [1] .

2- وقول ﴿أم يقولون أفترى على الله كذباً فإن يشاء الله يختم على قلبك أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [2] .

3- وقوله : ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [3] .

4- وقوله : ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ [4] .

ففي المواضع الأربعة استعملت لفظة القلب وذلك لأن مدلول الكلمة في القرآن الكريم يدل على الثبات والتمكن في الوصف وهذا ما يدل عليه السياق والنظم في هذه المواضع وسنقف أولاً على موضع سورة آل عمران قوله تعالى : ﴿ **فبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ** ﴾ وردت الآية في سياق إخبار الله تعالى عن عفو رسول الله ﷺ عن صحابته بعد أحداث غزوة أحد فجاء التعبير عن اللين لهم بنفي الغلظة عن قلب الرسول ﷺ . وخص القلب هنا لأن في الآية دلالة على أن وصف اللين تقرر وعرف من خلقه ، وأن فطرته على ذلك برحمة من الله إذ خلقه كذلك وخاصة أنه بعث ﷺ في أمه عربية عرفت بالأنفة ، وإباء الضيم وهم المتلقون الأولون للدين فلم تكن تليق بهم الشدة والغلظة "[5] .

---

1 - آل عمران :159

2- البقرة :97

3 - الشورى :24

4- الشعراء 192 ،193،194

5 - ينظر التحرير والتنوير : 3 /266

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد عرف عنه _عليه السلام_ اللين والرحمة في سيرته فليس المراد أنه لان في موقعة أحد خاصة بل لينه دائم وعام وثابت وهذا ملائم للفظة القلب وهذا ملائم للسياق القبلي والبعدي .

فالسياق القبلي يخبر عن تركهم القتال ، ويعاتبهم على ذلك ويذكر عدم التفـــاهم للرسولﷺ حين دعاهم ، فالفرار نفسه موجب للوم ودعوة الرسول الموجبة لتقديمه على النفس أعظم لوما [1]. ومع ذلك لم يعاتبهم الرسولﷺ و لم يغلظ عليهم بل عاملهم بلين وهذا الفعل يتطلب لينا ثابتا مستقرا في النفس لا حادثا طارئـــا وهـــذا لا يكـــون إلا في القلب.

ويتساوق اللفظ في السياق البعدي أيضاً حيث يخبر الله تعالى عن صفات النبيين فلا يمكن أن يغلوا وهذه صفات تنبع من قناعة القلب ولينه ثم ذكر منته علـــى المـــؤمنين " إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم " يعلمهم ويرفق بهم وهذا لا يكون إلا عن خلق ثابت لازم متمكن في القلب ويدل على هذا اللزوم قوله " من أنفسهم " و لم يقل " منكم " وهـــي أشد حساسية وأعمق صله ، وأدل على نوع الوشيجة .

كما إن السياق لا يتلائم مع اللفظة فقط بل مضموماً إليه جملته حيث وردت الآية مقيدة بالشرط فقال " ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك " والتعليق بالشرط لا إشعار فيه بوقوع الشرط ولا عدم وقوعه بل إن حرف الشرط (لو) دلالتـــه الامتنـــاع لامتناع فامتنع انفضاض من حول الرسول عنه لامتناع غلظة قلبه فكأن في النظم دعـــوى الأمر ببينة ودليل وهذا الامتناع ثابت بدلالة السنة ودلالة واقـــع التاريخ فما زال أنـــصار محمدﷺ حوله بعد وفاته ﷺ فدوام الالتفاف حوله دال على ثبات ودوام لينه وهذا أليـــق بالقلب .

---

1 - تيسر الكريم الرحمن : عـــــبـــــد الرحمن السعدي ,ت:عبدالرحمن اللويحق,بيروت ,مؤسسة الرسالة ,ط1 , 1421هـ-2003م :114

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد اطرد النظم في التقيد بلو في السورة كقوله " لو كان لنا من الأمر شيء ما قُتلنا هــا هنا " ، " لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل .... " ، " لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا " وفي كل هذه الآيات امتناع ما قيد بالشرط فلا يمكن أن يحدث وهــذا الثبات في عدم الحدوث في سياق السورة يلائم الثبات في عدم الغلظة في قلــب رســول الله ﷺ وهذا ملائم للفظة القلب ,ولهذا ورد النظم (لنت لهم) ، و لم يقل " آلان الله لــك قلبك " وذلك لأن اللين ليس حادثا بل هو أصل متقرر في خلقه ﷺ فعبر بــــ (لنــت) بالمضي وجعل الفعل منسوباً إليه ﷺ مع مصاحبة رحمة الله تعالى وقدم رحمـــة الله لأنهـــا الأساس فلا يكون الفعل إلا بأمر الله ثم بفعل العبد .

ثم عبر عن قلب الرسول ﷺ دون أن يضيفه إليه فقال " غليظ القلـــب " وجــاءت الكلمة معرفة (بأل) و لم تأت مضافة إلى ضمير يعود على الرسول ﷺ كأن يكون النــظم " غليظ قلبك " وكأن الله لا يريد أن يضيف هذا القلب الغليظ للرسول حتى ولو احتمالاً فهو مفطور على لين لا يمكن أن تدخله غلظة ، وهذا القلب معهود فيه عدم الغلظة وقــد دل على عدم إضافتها لقلب الرسول ولو احتمالاً وورود النظم مقيداً بالشرط (بلو) ولاءم هذا الثبات والتمكن الأفعال التي وردت بعد ذلك حــيث قــال تعــالى : " فاعــــف عنهم واستـــغفر لهم وشاورهم في الأمـــر" وقيل الفاء للتعقيب حيث عفا الله عنـــهم ثم أوجب على رسوله أن يعفو عنهم[1]، وقيل هي للترتيب[2] وقيل الفاء للتفريع[3]، وأرى أنها للتفريع لأنه سبق هذه الأفعال ما يعللها وما بعد الفاء مرتب علـــى مـــضـــمون مـــا قبـــلها [4] حيث كان فضل الله بأن جعل رسولهم لينا معهم سببا في عفـــوه واســـتغفاره ومشاورته لصحبه، وأتت الأفعال مرتبة على الترقي إذ عفوه عنهم مسقط لحقه ، ودليـــل على عدم مؤاخذته ولما سقط حقه بعفوه استغفر لهم الله ليكمل لهم صـــفحه بـــصفح الله عنهم ويحصل لهم رضاه ﷺ.

---

1 - التفسير الكبير: 408/3
2 - أبي السعود :3/ 55
3 - التحرير :3/ 265
4- الفاء في القرآن الكريم : عبد الله غالـــب, رســـالة ماجـــستير,جامعـــة أم القرى:22

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ورضا الله تعالى، ولما زالت عنهم التبعات من الجانبين شاورهم إيذاناً بأنهم أهل للمحبة الصادقة والخلة.

وهذا الترقي يدل على أن اللين في قلب الرسول ثابت وفطرة فيهم . وهذا ملائم للقلب دون غيره .

وقال تعالى في سورة الشورى : **﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾** (1).

وردت الآية في سياق الرد على دعوى المشركين بافتراء الرسول ﷺ الكذب فيما أخبر وتلا من الآيات فجاء الرد عليهم بقوله : " فإن يشأ الله يختم على قلبك " بإيراد القلب ؛ حيث فيها معنى الثبات ، والسياق الذي وردت فيه الآيات يتكلم عن قدرة الله جل وعلا وطلاقة هذه القدرة في خلق السماوات والأرض ، وبسط الرزق ، والقدرة في أنزال الكتاب بالحق ، وإنزال الغيث ، وتسيير الفلك في البحار ، وتحريك الرياح لتحريك الفلك ، وفي الرزق بالذرية والقدرة على منعها ، وإنزال الوحي ، فكيف يمكن أن يرضى هذا القدير بأن يفترى عليه الكذب ، وهو قادر على أن يمنعه بل يهلكه ، كما إن هذه القدرة ثابتة في أشياء أعظم من القلب من سماوات وأرض ومطر وأرزاق ورياح ومع ذلك هي تذل وتخضع لقدرته جل وعلا فهذه القدرة لا يقف أمامها شيء ولو كان ثابتاً لذلك لاءم هذه القدرة القلب الدال على الثبات في وصفه فعلى الرغم من ثباته إلا أن قدرة الله أقدر عليه . ونجد أن النظم جاء بالتقييد بالشرط حيث قال تعالى : " فإن يشأ الله يختم على قلبك " وعلق الشرط بـ (إن) والشرط لا إشعار فيه البتة بوقوع الشرط ولا عدم وقوعه بل المراد استلزام الأول على تقدير وقوع الثاني ، ويؤيد ذلك أن (إن) قد جاءت في النظم المعجز بحيث لا تقتضي التعليق أو استلزام تحتم الوقوع ، ولا إمكان الوقوع بل قد يكون ذلك مستحيلاً عقلاً أو عادة فإن كان الله ذكر أنه لو شاء لختم على قلب الرسول ﷺ لا يستلزم وقوع ذلك بل إن النظم يؤكد على استحالة ذلك فالله القادر على كل شيء لا يرضى أن يفترى عليه الكذب ولأن الوحي الذي أخبر به ﷺ من الله فيستحيل أن يحصل هذا الختم .

---

1 – الشورى:24

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكما لاءمت لفظة القلب السياق لاءمت جاراتها فقد قال تعالى (نختم) والختم على الشيء فيه لزوم هذا الختم للمختوم عليه ففي الختم معنى الثبات وهذا ملائم للقلب كما فيه معنى القوة والثبات ولهذا اطرد الختم على القلب لأن بينهما تلازم فالأول مرشح للثاني وقد لاءم ذلك التصريح بلفظ الجلالة " الله " وتكرارها ثلاث مرات لتربية المهابة وبيان قوة قدرة الله _جل وعلا_ وهذه القوة تلائم قوة القلب وثباته . كما عقب تعالى النظم بقوله " ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته " فبين أن مما قدره الله محوه للباطل وإحقاقه للحق- سبحانه –وهذا ثابت كما إن في حذف الواو في (يمح) دلالة على سرعة هذا المحو وأن علو الله وغلبته لا تأخذ وقتاً أو جهداً في ذلك .

كما إن في الاستعلاء بـ (على) دلالة على القوة في الختم وتثبيت هذا الختم على القلب والمعنى : إن يشأ الله يجعلك من المختوم على قلوبهم ، فإنه لا يجترئ على افتراء الكذب على الله إلا من كان في مثل حالهم ، وهذا الأسلوب مؤداه استبعاد الافتراء من مثله ، وأنه في البعد مثل الشرك بالله والدخول في جملة المختوم على قلوبهم [(1)].

ولذا نجد أن الشرط ورد بإن والتي تدل على أن وقوع الأمر مشكوك فيه بل أنه في هذا السياق مستحيلاً . لدلالة الآيات على صدق محمد ﷺ .

وقد اختلف الرد القرآني بحسب اختلاف الدعوى من المشركين فحين قالوا "افتراه " و لم يحددوا على من افترى هذا القرآن ورد النظم بلهجة هادئة في الرد " أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله " ،" أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ " ، " أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي " ، " وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه ... " ، " بَلْ قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُو شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ " فإما أن يوكل الرسول بالرد عليهم بتحديهم ، وبيان أن منزله هو الله ، وبيان إن كان قولهم حقاً فإجرامه عليه ولا يضرهم وإما أن يرد الله عليهم بما فيه مواساة الرسول

---

1 -الكشاف عن غوامض التتريل وعيون الأقاويل : 407/5

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الكريم ، أو بيان أن القرآن حق وأنزل لإنذار الناس ، ولكن حين صرحوا في دعواهم بأنه افتراه على الله فصرحوا بلفظ الجلالة الدالة على القدرة والإلوهية ولوحدانية "الله " كانت لهجة الرد صادقة قوية فمن يتجرأ على الكذب على الله دون أن يعاقبه ويحول بينه وبـــين ذلك بقدرته سبحانه .

و لم يرد هذا إلا في سورة الشورى وقد كان مناسباً للسياق الذي تحدث في عمومه عـــن قدرة الله على كل مخلوقاته فالله لا يسمح أن يكذب عليه فلذا خولف النظم القـــرآني في هذا الموضع " إن يشأ الله يختم على قلبك " حين خوطب الرسول ـــﷺـــ بمثل هـــذا لأن السياق في سلطان الإلوهية القاهرة الذي يستلزم نوعاً من النظم غير ما سبق من النظم في الرد على دعوى المشركين كقوله "وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُـــمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ " حيث ورد في سياق قدرة الله في إدارة أحداث القيامة وعجز كل أحد أن يمنع عذابه عمن يريد فله سبحانه القدرة المطلقة والمشيئة التي لا يخالفها أحد .

***

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّـهِ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1]

وردت القلب دون غيرها وذلك وإن كانت الآية في سياق الدفاع عن جبريل عليه السلام إلا أن ما ذكره هنا – في دفع دعوى من عاداه بأن جبريل نزل القرآن على قلب الرسول بإذن الله . فإذن ورود القلب هنا لتعلق إنزال القرآن الكريم به .

وكما سبق فالقرآن وأثره متعلق بالقلب لا بغيره ؛ لذا قال" فإنه نزله على قلبك " بالتوكيد لأن السياق فيه معارض حيث تحدث في السياق القبلي عن معارضة أهل الكتاب "نزله " فالذي نزله جبريل عليه السلام – وهو المؤتمن على الوحي فلابد أن ما يترله يكون متمكناً ثابتاً فكيف إذا كان مباشرة " على قلبك " على قلب خير البشرية محمد ﷺ - وعدى بعلى لأن القرآن مستعل على القلب إذ القلب سامع له ومطيع يمتثل ما أمر به ويجتنب ما نهي عنه ، وكانت أبلغ من (إلى) لأن (إلى) تدل على الانتهاء فقط ، وتدل (على) على الاستعلاء ، وما استعلى على الشيء يضمن الانتهاء إليه[2] كما فيه دلالة على أن المترل تمكن في القلب فصارت مجامعة مغمورة به[3] .

كما إن القلب محل العلم اليقيني ومدار الفهم والحفظ فأولى بالقرآن أن يكون فيه خاصة ، والحديث في الآيات عن قلب الرسول - ﷺ - وهو المكلف بالتبليغ فيلزم أن يكون ما يحويه صدره قلباً ولا يتأتى الفؤاد هنا البتة . وفي قوله " بإذن الله " تأكيد على قرار وتمكن الذكر في قلب الرسول- ﷺ - حيث نزل القرآن – بعلم الله وتمكينه وهذا أدعى لتمكنه ، كما وصف بأنه " مصدقاً لما بين يديه ، و " هدى " ، و " بشرى " فكل هذه الصفات لا تكون إلا إذا أثر الذكر في القلب دون غيره وورودها بالمصدر دليل دوام أثرها وتمكنه منوطاً بـ " المؤمنين" باستعمال الاسم الدال على ثبات الإيمان واكتماله .. وفي كل ذلك ملاءمة للقلب .

---

1 - البقرة :97

2 - البحر المحيط :48/1

3 - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور :203/1

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال تعالى : ﴿ **وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ - نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ - عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ**﴾(1)

وردت الآية في سورة الشعراء والتي غلب عليها جو الإنذار والتكذيب والعذاب الذي يتبع التكذيب ووردت الآية في مواجهة تكذيب مشركي قريش للرسول ﷺ واستهزائهم بالنذر ، والتقول على الوحي والقرآن فرد عليهم الله-جل وعلا- بقوله" وإنه لتنزيل رب العالمين ... ": مستعملاً كلمة القلب لما في مدلولها الخاص من الثبات والتمكن وهذا ملائم للنذارة الذي دل عليه السياق وملائم لحال التنزيل الذي كان من رب العالمين وفي السياق ما يؤيد استعمال هذه اللفظة دون غيرها .

فقد اطرد في القصص التي وردت فيها قوة مجادلة الأنبياء لأقوامهم وتحذيرهم من مغبة التكذيب فموسى عليه السلام يقف بقوة أمام فرعون ويخبره من هو رب العالمين ويجادله ثم يحذره من العذاب وكذلك إبراهيم عليه السلام يصرح بعداوته لآلهة قومه ، وكذا رد نوح عليه السلام الصريح بعدم طرده لمن آمن به ، وكذلك هود وصالح _عليهما السلام_ حيث بينا لقومهما عبثهما وتحذيرهما لقومهما من هذا العبث ، وكل ذلك يحتاج إلى قوة وهذه تكمن في القلب ، وحين ورد ذكر التنزيل على الرسول قال تعالى " على قلبك " فالتنزيل كان على قلبه ليمكنه من أن ينذر قومه ويخوفهم من العذاب؛ ولذا استعمل الاسم فقال : " لتكون من المنذرين " ولم يستعمل الفعل وذلك لأن موضوع الاسم على أن يثبت به المعنى للشيء من غير أن يقتضي تجدده شيئاً بعد شيء ، وأما الفعل فموضوعه على أنه يقتضي تجدد المعنى المثبت به شيئاً بعد شيء(2) وهذا كله مؤيد لاستعمال لفظ القلب.

---

1 – الشعراء:192,193,194

2- دلائل الإعجاز : 174

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وليس ذلك فقط الذي دعا إلى استعمال لفظة القلب بل إن اللفظة ملائمة لبناء الآية حيث قال تعالى : " نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ" فترول جبريل بالوحي يدعو إلى تمكن هذا الوحي من المترل إليه وهذا لا يكون إلا إذا وصل لقلبه ولذا ورد النظم " على قلبك " كما إن النظم هنا ركز على صفات القرآن الكريم وأثره والأثر لا يظهر إلا في القلب فذكرت في هذا السياق . ولذا خالف بعد هذا قوله " وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ " وذلك لأن النظم مقيد بالشرط بلو التي تدل على الامتناع فهذا الإنزال لم يحدث ولو حدث ما أثر فيهم فلم يذكر معهم أداة التأثر – القلب-

وقد ورد النظم " على قلبك " لأن في الآيات تكليف بالنذارة ، فلماذا قال (على) وقد صرح بأن الوحي بواسطة جبريل ؟. ذلك لأنه سبق في النظم قوله تعالى " نزل به " بالتعدية بالباء و لم يأت في غير هذا الموضع وذلك لأن النظم فصل في وصف شرف القرآن الكريم وعظمته فكما بين عظمة مْترِله بيّن أيضاً عظمة من أرسل لتوصيله فقال " نزل به " أي في معيته ومصاَحبته (الروح الأمين) وهذه دلالة على زيادة شرفه حيث نزل به أشرف الملائكة فالباء للتعدية تقتضي المصاحبة للقرآن الكريم فصرح بالروح الأمين . والسياق في النذارة والتصريح بذكر الروح الأمين يلائم هذه النذارة فهو من كان يقبض الأمم الظالمة .

وفي ذلك دلالة على أمانته عليه السلام – جبريل – في إنزال الوحي على الرسول ﷺ حتى كأنه يترل عليه مباشرة دون واسطة والاستعلاء هنا حسياً أو معنى فجبريل تترل حقيقة ولكنه لم يترل على قلب الرسول ﷺ حقيقة وإنما ألقى في قلبه الذكر فالاستعلاء هنا مستعار للدلالة على التمكن مما سمي القلب مثل استعارته في قوله تعالى: " أولئك على هدى من ربهم " (1) .

1_ التحرير والتنوير:194،195/9

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولذلك يطرد مع نزول جبريل به سواء باسمه أو بصفته كلمة (القلب) وذلك للدلالة على الاتصال المباشر بالقلب ، وفي هذا الاتصال رد على من شكك أن القرآن وحي من الله واثبات أنه أوحي لمحمد ﷺ خاصة .

فأتى نظم الآية " تنزيل رب العالمين " فالتنزيل مضاف لرب العالمين فهو منه لا من غيره ، ثم ذكر صفة جبريل " الروح الأمين " فالروح أقرب إلى القلب والأمين المعروف المعهود في أمانته في إيصال الوحي لجميع الأنبياء وخاتمهم محمدﷺ " على قلبك " خاصة فجبريل لم يخطئ طريقه ومقصوده كما زعم الكاذبون .

ولذلك قال " نزل " والأصل في النزول هذا انحطاط من علو[1] ، واستعمل كلمة " النزول " والنزول والتنزيل واحد ويكون في الأشياء الشريفة كإنزال الملائكة والقرآن والمطر ، والنزول يكون بمكان معلوم مقصود ولذلك لم يقل " هبط به " لأن الهبوط يكون على غير هدى ويكون قهراً ، والهبوط فيه إقامة و لم يكن ذلك حال جبريل عليه السلام حين نزل بالقرآن وقد نزل وهو يعلم مكان نزوله بل يقصده قصداً و لم يقم في نزوله . فكان ملائماً لهذا القصد المباشر من الروح الأمين أن ترد كلمة القلب وتضاف إلى الرسول ﷺ حيث إن قلبه هو أشرف القلوب وأعلاها وأضبطها وأوعاها ، فلا زيغ فيه ولا عوج حتى صار خلقاً له[2] .

ثم قال تعالى في السياق البعدي "بلسان عربي مبين " قال صاحب الكشاف : (إن تنزيله بالعربية التي هي لسانك ولسان قومك تنزيل على قلبك ، لأنك تفهمه ويفهمه قومك ، ولو كان أعجمياً لكان نازلاً على سمعك دون قلبك ، لأنك تسمع أجراس حروف لا تفهم معانيها ولا تعيها ، وقد يكون الرجل عارفاً بعدة لغات فإذا كلم بلغته

---

1 - المفردات في غريب القرآن : 490

2 - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : 391/5

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التي لقنها أولاً ونشأ عليها وتطبع بها لم يكن قلبه إلا إلى معاني الكلام يتلقاها بقلبـــه ولا يكاد يفطن للألفاظ كيف جرت وإن كلم بغير تلك اللغة وإن كان ماهراً بمعرفتها كـــان نظره أولاً في ألفاظها ثم في معانيها)[1] . فقوله بلسان عربي ملائم للقلب لأنها لغتـــه وزاد على ذلك " مبين " أي واضح معبر، وهذا ملائم أيضاً للقلب حيث إن القلـــب موضـــع التأثر فجعل الله سبب خص القلب أولاً للنذارة " عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ " وأيد خصه بالقلب ثانياً حين قيدها " بلسان عربي مبين " وذلك أدعى للتأثر حيث ذكر عوامل التأثر بالقرآن الكريم وهذا ملائم للقلب .ثم ذكر تعالى " وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْـأَوَّلِينَ " فهـــذه القصص موجودة في زبر الأولين وقد نقلها الرسول ﷺ من غير تفاوت مع أنه لم يشتغل بالتعليم والاستعداد فدل ذلك على أنها من الله وأنها متمكنة في قلبه لـــــــذا أوردهـــا كـــما هي .

---

1 - الكشاف :405/4

أما المواضع التي وردت فيها لفظة الفؤاد فهي :

قوله تعالى : " **وكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءكَ فِي هَـذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ** " [1].

وقوله تعالى : " **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا** "[2] .

وقوله تعالى : " **مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى** " [3].

ففي المواضع الثلاثة استعمل الفؤاد دون غيرها وذلك لأن مدلول الكلمة ومعناها الأخص كما قال الراغب وصاحب اللسان : يطلق على القلب فؤاد حين يتحرق ويتأثر ويتوقد[4] ، وهذا المعنى ملائم لحال فؤاد الرسولﷺ والذي دل عليه سياق المواضع الثلاثة .

وسنقف أولاً على الآيتين الأولى والثانية معاً ثم نقف بعدهما على الآية الثالثة وذلك لوجود التشابه في النظم الذي وردت فيه كلمة الفؤاد ، وإن اختلفت جارات اللفظة في كل من الآيتين وتعقيبهما .

فالسياق القبلي في الموضعين يكاد يكون واحداً ففي هود دعوى الافتراء " أم يقولون افتراه " وفي الفرقان " وقالوا أساطير الأولين اكتتبها " وكذلك السخرية والاستهزاء ففي هود" لولا أنزل عليه كتر أو جاء معه ملك " وفي الفرقان " وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ ... " والصد عن سبيل الله ففي هود" الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ ..." وفي الفرقان " يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا" ثم بيان خسرانهم في هود " لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون"

---

1 - هود :120
2 - الفرقان :32
3 - النجم :11
4 - المفردات في غريب اللغة :372 ، لسان العرب : 3334/5

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي الفرقان " وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا " وهذا السياق القبلي ينبئ عن حالة من الضيق ترشح لإيثار الفؤاد لما سبق أن ذكرت عن أنه فيه تفؤداً وتحرقاً ، ويستلزم هذا أن يكون الغرض الذي سبق له الخبر في الموضعين هو التسلية والتسرية عنه ﷺ .

ولذا فالآيتان في التسلية ، ولكن موارد التسلية مختلفة حيث يمدها في هود عوامل مختلفة عن الفرقان فحين ينظر إلى السياق القبلي في سورة هود نجد ما يدلنا على هذه التسلية والتثبيت الملائم لحال فؤاد الرسول ﷺ في تلك الفترة التي كذبه فيها قومه و لم يؤمنوا به وآذوه ، والتسرية عنه مما يساور قلبه من الوحشة والضيق والغربة في المجتمع الجاهلي [1] فيذكر الله أولاً : حال هؤلاء الكفار حين يثنون صدورهم ويستغشون ثيابهم هرباً من سماع الحق والله يعلم ما في صدورهم ويجازيهم على ذلك وفي هذا تسلية له - ﷺ -

ثم يذكر الله دعواهم بأن الرسول افترى ما يقول من القرآن وأنه من عند نفسه فيسلي رسوله بأن يرد عليهم بالتحدي أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات فإن ثبت عجزهم -وهذا ما حصل- فليعلموا أنه من عند الله وأنزل بعلمه -جل وعلا- ثم يبين الله أن دعواهم ما هي إلا للصد عن سبيل الله والكفر به ولن يفلح سعيهم فهم غير معجزي الله وهم في الآخرة هم الأخسرون ثم يرقى السياق في التسرية عن الرسول ـ ﷺ ـ وذلك باستعمال أسلوب الخطاب حيث يقول تعالى : "لَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ ... " ثم يوجه الخطاب بضمير الجمع " فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا " وفي ذلك إخبار للرسول ﷺ بأنه ليس وحده في الدعوة بل معه صحابة كرام يعاونوه على الدعوة وفي ذلك الجمع تطمين وتثبيت له ﷺ ثم يسوق له قصص الأنبياء من قبله وليزيد تثبيت قلب الرسول والتسرية عنه يذكر الله من قصص الأنبياء الأحداث التي هي أقوى وأقدر على ذلك التثبيت وتلك التسرية فيذكر من قصة نوح عليه السلام تسليمه لله

---

1 - في ظلال القرآن: 1841/4

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حين أعرض قومه : " قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ " ، وإعراض ابنه وهو من أهله خاصة فحال النبي ﷺ أخف من حال نوح عليه السلام حيث آمن أهل بيت النبي جميعاً.

ومن قصة هود عليه السلام صد قومه له مباشرة دون جدال وتكلمهم بالجملة الاسمية التي تدل على ثباتهم على هذه الحال وعدم تحولهم عنه " وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ " وفي قصة لوط عليه السلام يذكر إهلاك زوجه وهي من أهله خاصة " إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم " أما زوجات رسول الله فكن له عوناً على الدعوة ، ومن قصة شعيب عليه السلام عدم عزة شعيب على قومه فالحال مشابهه لحال رسول الله ﷺ مع قومه . ثم يعود الله مرة أخرى لأسلوب الخطاب " ذلك من أنباء القرى نقصه عليك " أي خاصة . " وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ مِن شَيْءٍ لِّمَّا جَاء أَمْرُ رَبِّكَ " ، " وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ " فربك الرحيم بك أقتص لك من المكذبين ووفاهم أعمالهم وظلمهم " وإن كلاً لما ليوفينهم ربك أعمالهم " ، " فاستقم كما أمرت ." أَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ " ، " وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ " وفي خطابه ﷺ قرب وإيناس له وتثبيت له بعده وصايا بالأمر بالاستقامة والثبات على أمر الله ثم يمده بعوامل تمده بأسباب الثبات حيث أمره بالصلاة وخاصة طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ وهي أوقات الخلوة وكلما خلا الإنسان بنفسه زادت همومه فأوصاه الله بما يزيل حزنه وهمه ، ثم أمره بالصبر ووعده أن الله تعالى لا يضيع أجر المحسنين "وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ " ثم بين تعالى أن الأمر له وحده وأن له حكمة في كل ما يحدث لا يعلمها إلا هو سبحانه " وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً "،" وتمت كلمة ربك .. ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي السياق البعدي تكرار التأكيد أن الأمر لله " وإليه يرجع الأمر كله " وتكـــرار التوصية للرسول ﷺ بعبادة الله والتوكل عليه "فاعبده وتوكل عليه " . فالـــسياق كلـــه القبلي والبعدي من خطاب وقصص ووصايا وتأكيد أن الأمر كله لله وحده ملائم لتـــأثر فؤاد الرسول ﷺ من إعراض قومه ودعواهم أنه افترى القرآن.

وكذلك نجد التثبيت والتطمين الملائم لفؤاده ﷺ أيضاً في سورة الفرقان حيث نجد السياق القبلي يذكر أن المعرضين من أمة محمد اتخذوا من دون الله شركاء لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ، فحري بقلب رسول الله أن يكون متأثراً متوقداً من إعراض قومه " فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا " ثم يذكر الكثير من الشبه التي أوردها الكفار والله يتكفل بالرد عليهم ، فتارة يقولون بأن هذا الـــوحي والنبـــوة إفـــك وافتراء أعانه عليه صحبه ، وتارة يتساءلون لم كان هذا الرسول يأكل الطعام ويمـــشي في الأسواق ، وأخرى لَمَ لم يُلق إليه كتر أو تكون له جنة ، ولَمَ لم تترل عليهم الملائكـــة أو يروا ربهم حتى وصلوا في عتوهم إلى السؤال عن كيفية نزول القرآن ولم نزل مفرقـــاً ولم يترل جملة واحدة ، وهذا فضول من القول ومجاراة بما لا طائل تحته لأن أمـــر الإعجـــاز والاحتجاج به لا يختلف بتروله جملة واحدة أو مفرقاً وتحديهم بأن يأتوا بـــبعض تلـــك التفاريق كلما نزل شيء منها أدخل في الإعجاز وأنور للحجة من أن يترل كلـــه جملـــة ويقال لهم جيئوا بمثل هذا الكتاب مع بعد ما بين طرفيه [1].

ثم يرقى في الاطمئنان إلى تأكيد الرد عليهم وتقريره ، " ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً " ففي ذلك وعد مستقبلي ، وحكـــم باق لا ينفـــك يجعل الفؤاد ثابتاً. موجهاً في ذلك الخطاب إلى الرسول ﷺ وفي ذلك تثبيت لفؤاد الرسول ﷺ حـــين يكون الوعد موجهاً له خاصة. ثم يذكر تعـــالى بعاقبة المكـــذبين بتركـــيز ،

1 - الكشاف عن حقائق غوامض التتريل وعيون الأقاويل : 348/4، 349

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وذلك حين ذكر قصة موسى ونوح عليهما السلام ذكر مباشرة العقاب ، ولم يذكر من سياق قصصهم شيئاً غير هلاكهم ، ثم عمم ذلك على الأمم المكذبة بقوله : " وكلاً تبرنا تتبيراً " وفي ذلك تطمين لرسول الله ﷺ حيث إن الأمم السابقة أصابها عذاب الاستئصال أما أمة محمد فلا يصيبها .

وحين ذكر تعالى قصة موسى عليه السلام قال "وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا " وفي معنى الوزارة المعاونة وهذا أدعى للاطمئنان ، ثم ينتقل مرة أخرى إلى خطابه ﷺ " وإذا رأوك " ، " يتخذونك " ، " أرأيت " ، " أفأنت .. " .

والخطاب هنا أدخل في الإيناس والقرب وهذا ما يحتاجه فؤاده ﷺ ثم إن الله أخبر رسوله بأنه ليس وكيلاً على الكافرين فلا تذهب نفسه حسرات عليهم ، ثم قال : " أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ " فنفي الإدراك عنهم ، كما نفى أيضاً السمع والبصر عنهم في سورة هود ، فكيف يطمع الرسول في إيمانهم ، ثم إن الله يرشد رسوله الكريم إلى طريق الاطمئنان فيقول : " وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا " وكل ذلك التطمين والتثبيت ملائم للفظة الفؤاد المتأثر والمتوقد .

ونظم اللفظة ورد متشابها في كلا السورتين باختلاف حرف واحد لمناسبة سياق كل سورة ففي هود " ما نثبت به فؤادك " تقدم نثبت (ما) ويحتمل أن يكون اسم موصول أو نكرة موصوفة وبناء (ما) يوافق استعمالها المتسع فإن مدة الألف المتسعة تشاكل الاتساع في معناها [1]وهذا يلائم في اعتبارها موصولة : دلالة العموم فيها ، ودلالة الاستغراق

---

1 - معاني النحو: 128/1

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فيكون المعنى نقص عليك كل ما يثبت قلبك ،وقد تساوق الإبهام في "ما " الموصولة مع الفعل المضارع " نقص " الدال على أن ذلك كائن في المستقبل وهو مبهم بالنسبة إليه ﷺ ، كما إن هناك تلاؤما بين (ما) النكرة الموصوفة بمعنى "شيء " مع إيثار نون العظمة في " نقص " ، " نثبت " ويلائم هذا البناء في اعتبارها نكرة موصوفة تعظيم هذه الأنباء التي تقص على الرسولﷺ فالنكرة الموصوفة بمعنى " شيء " أي شيء عظيم . قال الشاعر:

إذا ما تقاضى المرء يوم وليلة SS تقاضاه شيء لا يمل التقاضيا[1].

وهذه الدلالة على التعظيم ملائمة أكثر من العموم للسياق الذي ذكر شدة إعراض المشركين وانصرافهم عن الحق فلابد من شيء عظيم يثبت الرسول ويطمئنه أمام هذا الإعراض والتكذيب فكأن اللفظة (ما) وضعت وضعاً وفي سورة الفرقان " لنثبت به فؤادك " تقدم نثبت (اللام) التي تحتمل التعليل والعاقبة فالتعليل موجه إلى الثبات لأنه تعالى ذكر بعد ذلك ما يؤكد أن الترول مفرقاً للرد على الكفار في كل حادثة تحدث وفي هذا ثبات لفؤاد الرسول ﷺ فكلما اضطرب قلبه ﷺ لحادثة أو لتكذيب نزلت الآيات فكان فيها تثبيت لفؤاده ﷺ .ولكن حين نقف على القوة في الخطاب حيث كانت الإجابة رداً على الكافرين نؤيد أن تكون اللام للعاقبة نزلناه عليك مفرقاً " لنثبت به فؤادك " وفي هذا التثبيت عاقبة للكفار حيث يتولى الله الرد عليهم في كل حادثة تحصل فكلما سألوا سؤالاً رد الله عليهم وبيّن ضلالهم ومنه سؤالهم عن نزول القرآن مفرقاً ﴿ **وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا**﴾ ففيه التأكيد للتصدي للكفار في كل افتراء يذكرونه ، كما إن هذا التفرق فيه استمرار على الرد عليهم في كل وقت .

1_ قائل البيت : أبو حية النميري : الأمالي : أبو علي اسماعيل بن القاسم القالي ، بيروت ، المكتبة العصرية ، 1424هـ - 2003م :434

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ووردت كلمة (فؤادك) مضاف إلى ضمير يعود على الرسول دون (أل) التعريف فقال (فؤادك) و لم يقل (الفؤاد) لما في ضمير الخطاب من معنى الحضور وهذا يتلاءم مع سياق الإيناس والاطمئنان ، لما في ذلك من تكريم يلائم الرد على المشركين الذين استهزءوا وسخروا من الرسول ﷺ في الموضعين- سواء في الفرقان- وهذا بين من جهات متعددة " لو أنزل عليه " ، " أهذا الذي بعث الله رسولاً " ، " إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها " حيث ترى المشركين قد آثروا ضمير الغيبة معه ﷺ ، فجاء الخطاب من الله ليقابل الغيبة منهم ، وهذا من الإيناس فإن كان هؤلاء قد أبعدوه في الإخبار عنه بالغيبة فالله أحضره في خطابه زيادة في تثبيته .

و في هود في السياق القريب أو البعيد " يستغشون ثيابهم " ، " أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك " ، " أم يقولون افتراه " . وهذا الصد والاستهزاء والغيبة يحتاج إلى تثبيت ولذلك لاطفه بالخطاب (نقصه عليك) (لما جاء أمر ربك) ,(وكذلك أخذ ربك) (ليوفينهم ربك) فضمير الخطاب في مثل هذا الموطن أكثر تثبيتاً وقرباً وملاطفة ، ولذا نجد النظم قد اطرد في الخطاب .

كما إن النظم قد صرح بالمفعول به ظاهراً و لم يجعله ضميراً يعود إلى الرسول جملة فقال : " لنثبت به فؤادك " " وما نثبت به فؤادك " و لم يقل " لنثبتك " وذلك لأن أمر التثبيت خاص بهذا الجزء منه ، إذ هو موضع التأثر بإعراض المشركين عن الدين وبأراجيفهم ، وعليه المعول في الثبات على الأمر والسير عليه ، وقدم الجار والمجرور عليه (به فؤادك) وذلك للعناية بالضمير -الهاء- لأنه موضع الجدال والاعتراض من الكافرين "لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة " وهو المتصل بدعوى الافتراء منهم وسد الآذان عن سماعه " أم يقولون افتراه " ولأن في الأنباء التي قصها في سورة هود ثبات لفؤاده ﷺ "وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ... " .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فلفظة الفؤاد دقيقة في مدلولها في هذا السياق وفي إفرادها ، وإضافتها فهل لاءمت جاراتها ؟ . نعم لقد لاءمتها أيما ملاءمة كل حسب سياقها ففي سورة هود سبقتها كلمة (نثبت) وتلتها"وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين " والتثبيت تمكين إقامة الشيء والثبات ضد الزوال[1]وفي كلمة (نثبت) إيماء إلى إرادة الاستقبال أي ما سوف يجد في طريق الدعوة من عقبات ومصاعب ويؤيد هذا أن الموضعين -في هود والفرقان -مكيا النزول ، فسيكون هذا التثبيت نبراساً له سواء في القصص أو في تنزيل القرآن منجماً أو غير ذلك مما فيه ثباته ﷺ ، كما إن في التثبيت معنى وجود الوصف ابتداء.بما يليق بحاله ﷺ.بمعنى أن فؤاده لم يتحول ، بل اضطرب فاحتاج إلى التثبيت .

وقد أسند الفعل إليه _سبحانه_ عن طريق العظمة في الموضعين والفعل كان من الثلاثي المضعف العين وهذا أدل قوة هذا الفعل وتكراره واستمراره قال ابن جني في بيان المناسبة بين الصيغ والمعاني : " ومن ذلك أنهم جعلوا تكرار العين في المثال دليلاً على تكرار الفعل ، فقالوا : كسّر ، وقطّع ، وضّح ، وغلّق . وذلك أنهم لما جعلوا الألفاظ دليلة المعاني فأقوى اللفظ ينبغي أن يقابل به قوة الفعل ، والعين أقوى من الفاء واللام ، وذلك لأنها واسطة لهما ،ومحفوفة بهما ... فلما كانت الأفعال دليلة المعاني كرروا أقواها ، وجعلوه دليلاً على قوة المعنى المحدث به..[2]

والمعنى زيادة يقينه وما فيه طمأنينة فؤاده لأن تكاثر الأدلة أثبت للقلب وأرسخ للتعلم [3]وقال " وكلا نقص " فقال (نقص) ولم يقل (نخبر) لما في القصص من تسلية وتثبيت إذ في القصص دلالة على التتابع والتوالي ، وهذا يتساوق مع التسلية والتطمين ، فكأن في ذلك ترابطاً بين المادة : "قصص " البناء على الفعل المضارع الدال على المستقبل، ونون العظمة والمضارعة للدلالة على عظمة هذه التسلية واستمرار تجددها كلما احتاج الرسولﷺ ذلك .

---

1 - المفردات في غريب القرآن : 83،84

2 - الخصائص : 155/2

3 - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : 591/3

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال : " عليك " باستعمال حرف الاستعلاء وذلك للدلالة على تمكن هذه القصص من فؤادهﷺ وهذا آكد لتسليته ، وقال (من أنباء) (من) وقد يكون لذلك دلالتان -والله أعلم - إما أن المقصود أنه تعالى ذكر من القصص ما هو أقوى على تثبيت فؤاد الرسول ويؤيد هذا التنوين في (كلاً) وإما أن يكون المقصود (من أنباء) أي أن ما أخبرناك به البعض وفيه كفاية للتسلية فكيف الحال إذا عرفت كل ما حدث . وقال (أنباء) و لم يقل(أخبار) أو (أحاديث) وذلك لأن النبأ لا يكون إلا لخبر عظيم الشأن جليل ، والنبأ يكون بما لا يعلمه المخبر وهو ملائم لما سبق قصصه " مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا " ولا يدل على ذلك الخبر فالخبر قد يكون معلوماً لدى المخبر وقد لا يشكل أهمية لديه .

أما الأحاديث فهي الحديث عن النفس لا عن الغير وما ورد في القصص في سورة هود كان إخباراً عن أمم سابقة لا عن الرسول . والله هو المخبر بذلك لا النبي ﷺ .فإذا كان النبأ عظيماً له قدر، وغير معروف لدى المخبر كان أقدر على التثبيت .

ثم ترقى في تأكيد التثبيت وقال " وجاءك " والمجيء يقال اعتباراً بالحصول وصيغته بالمضي تأكيد على حصول مجيء الحق في هذه القصص والموعظة والذكرى ، ثم بيّن ما الذي جاء فقال (الحق) معرفاً (بأل) لأن الحق معروف بيّن لا يختلف عليه ولا ينكره إلا جاحد ، وبتنكير موعظة وذكرى دلالة على عظمتها كما إن التذكر والوعظ يكون في الأشياء الخفية التي لا يدركها العامة بل هي لفئة معينة فهي تحتاج إلى استشراف نفس وفهم وأي نفس أشرف من نفسه ﷺ ومن ثم نفوس صحابته وفي هذا تثبيت له ﷺ وهذا ملائم للفؤاد .

وفي سياق سورة الفرقان ذكر (نثبت) مع لفظة (الفؤاد)وقد سبق بيان ملاءمتها للفؤاد في الآية السابقة.

ثم قال تعالى : " ورتلناه ترتيلاً " قال ابن عباس : بيناه بيانا ، والترتيل التبين في ترسل وتثبت .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال السدي : فصلناه تفصيلاً . وقال الحسن وقتاده : فرقناه تفريقاً آية بعد آية[1]وكل هذه المعاني وإن كانت تؤكد تثبيت القرآن في فؤاده ﷺ حيث نزل القرآن مفصلاً مفرقاً على مهل ليتمكن من فؤاده ﷺ لكن القرآن خص لفظة (رتل) دون بيّن أو فصّل وذلك لأن البيان يكون لما فيه لبس والرسول ﷺ لم يكن لديه لبس في القرآن والتفصيل فيه اختيار بين شيئين ولم يمكن حال الرسول ﷺ كذلك مع القرآن ولا يلائم هذين المعنيين السياق الذي على التثبيت والتسلية أما الترتيل ففيه معنى تجويد الصوت وتلحينه لأن جرس الصوت ونغماته لها تأثير كبير في فؤاد الإنسان وهدوئه ، فكيف إذا كان هذا التنغيم في آيات القرآن الكريم ، وترقى بهذا الترتيل حين عقبه المصدر منكراً " ترتيلاً " للتفخيم : أي كذلك أنزلناه ورتلناه ترتيلاً بديعاً لا يقادر قدره . والتثبت والترتيل كلاهما ملائم لحال الفؤاد وقدم التثبت على الترتيل لأن وضع الأساس مقدم على التجميل .كما إن ورود رتل ملائم لمادة قرآن "لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة " لذا اطرد معها الترتيل فالقراءة تكون بالترتيل ، بخلاف الكتاب يتأتى معه البيان والتفصيل لأنه لا يأتي إلا في سياق التعليم والإفادة مما ورد من شرائع في الكتاب ومقام التعليم يحتاج التفصيل والبيان .

أما الموضع الثالث في سورة النجم فهو قوله تعالى : " ما كذب الفؤاد ما رأى " فقد ورد في سياق رد الله على المشركين حين اتهموا رسول الله بالكذب فرد الله هذا الاتهام مورداً الفؤاد دون القلب وذلك أيضاً لما في الفؤاد من دلالة التأثر وكذلك كان حال الرسول ﷺ عند رؤية جبريل عليه السلام في صورته الحقيقية ، أو ما رآه ﷺ في ليلة الإسراء والمعراج من أشياء غريبة وعجيبة فهذه الأحداث ليست سهلة على فؤاده فالسياق يلائمه الفؤاد لأن الحال حال تأثر ولكن هذا التأثر لم يحل دون صدقه ونقل الخبر دون وهم ولذا مضى السياق يؤكد عدم وهمه ﷺ فيما رأى فبدأ بالقسم على عدم ضلالته ﷺ ، ولم يصرح باسمه بل قال (صاحبكم) أي الذي كنتم تعرفونه بصدقه وأمانته في الجاهلية ومن ثم فهو لا ينطق بالباطل بل كلامه وحي من الله، ويزيد تأكيد صدق

---

1 - تفسير البغوي:أبومحمد الحسين بن مسعود البغوي ,بيروت,دار ابن خزيمة ,ط1, 1423هـ -2002م:996.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذا الكلام أن مبلغه ومعلمه " شديد القوى " أي جبريل عليه السلام وقال تعالى " شديد القوى " بالجمع و لم يقل (القوة) مبالغة في قوة المُبلغ وكل ذلك تأكيد على صدق وثبات ما أخبر به الرسول ﷺ ويترقى في التأكيد بأن يذكر أن جبريل كان قريباً من الرسول ﷺ قرباً شديداً وهذا بالإضافة إلى التأكيد على صدقه ﷺ . فهو أيضاً شيء غريب ومشاهدته على حقيقة خلقه وقربه هذا القرب يؤدي إلى التأثر و الاضطراب في الفؤاد .

وفي نظم الآية قال تعالى : " ما كذب الفؤاد ما رأى " قال تعالى " ما رأى" و لم يذكر المفعول وفي حذف المفعول دلالة على عظمة ما رأى ﷺ فما الذي رآه قال جماعة من المفسرين أنه رأى الله عز وجل . وهذا وإن قاله جماعة من المفسرين فالصحيح : أن ذلك هو جبريل عليه الصلاة والسلام لما ذكر في أول السورة " وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى " هكذا فسره النبي ﷺ في الحديث الصحيح . قالت عائشة رضي الله عنها " سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية ؟ فقال : جبريل ، لم أره في صورته التي خلق عليها إلا مرتين " ولفظ القرآن يدل على ذلك من وجوه وصفه لجبريل بالقوة وقد وصفه بها في سورة التكوير " إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ" وهو (ذو مرة) أي حسن الخلق . وهو الكريم المذكور في التكوير . واستواؤه كان بالأفق الأعلى وأما استواء الرب فعلى العرش ، "ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى" والمرئي عند السدرة : هو جبريل قطعاً . وفي ذلك دلالة على رؤيته مرتين والرسول لم ير الله البتة . لحديث أبي ذر " هل رأيت ربك ؟ فقال : نور أنى أراه [1]" كما إن الله ذكر في هذه السورة الرسولين الكريمين : الملكي والبشري ، ونزه البشري عن الضلال والغواية ، ونزه الملكي عن أن يكون شيطاناً قبيحاً ضعيفاً .

---

1 - الحديث : صحيح مسلم :161/1,ح/178.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والضمائر تعود عليه لأنها ذكرت بعد " شديد القوى ذي مرة .... [1] وغير ذلك من الوجوه .

فالمرئي كان جبريل وقد كان خلقه عظيماً مما يجعل الفؤاد يهتز ويضطرب لهذا الخلق . وقد أخبر الله بأن الرسول قد رأى من الآيات ما لم يره أحد " لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى " وقد أخبر عن ذلك الرسول فبالإضافة إلى رؤية جبريل رأى سدرة المنتهى ورأى جنة المأوى ورأى ما يغشى السدرة وكل ذلك عجب مبهم لا يعرفه من قبل و لم ير مثله في الدنيا ولذلك قال " إذ يغشى السدرة ما يغشى " باستعمال (ما) التي تدل على الإبهام واستعمالها كذلك في قوله" ما رأى " و لم يقل " الذي " وذلك لما فيها من الإبهام والاستطالة التي تدل على العظمة .

وهذا الإبهام يلائم هول وعظم ما رآه مما يؤدي إلى اضطراب الفؤاد وتأثره واستعمل لفظة (الفؤاد) معرفة (بأل) وقد تكون للعهد حيث ذكر قبل ذلك ما يدل على هذا الفؤاد في قوله "ما ضل صاحبكم " فهو فؤاد صاحبكم الذي عرفتموه بالأمانة والصدق في الجاهلية فصدقه ﷺ معهود لديكم في الجاهلية والأقوى أن تكون للكمال في الوصف فهذا الفؤاد كامل في وصفه وفي صدقه حتى لو رأى شيئاً عجيباً فلا يقع منه الكذب البته ودل على هذا الكمال في الوصف قوله (ما كذب) فلم يثبت له الصدق بل أتى الأسلوب بنفي ضده لأن في ذلك دلالة على التأبيد واستغراق الزمن المتطاول فالدلالة هنا على صدقه في كل زمن وهذا أعم من إثبات الصدق فقط له فليس في إثبات الصدق نفي مطلق الكذب .

---

1 - مدارج السالكين : 322,321/3

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولذلك ورد النظم بقوله (ما كذب) وعبر (بالفؤاد) بالاسم الصريح بدون إضافة ولم يقل فؤادك ، وذلك لأن الاسم الصريح يقوم مقام ضمير الغيبة وهذا يتلاقى مع الغيبة في النظم كله إذ الغرض الرئيس هو الرد على المشركين دعوى الكذب ، وليس القصد إلى خطابه ﷺ وفي ذلك دلالة على أهمية الفؤاد حيث قدم له بضمائر تهيء النفوس للتلقي .

وقد استعمل الرؤية في الإخبار عما رآه رسول الله فقال (ما رأى) ، (أفتمارونه على ما يرى) إذ الرؤية فيها دلالة على الإحاطة بالمرئي والتمكن منه وهو على عظمته وكنهه الذي دل عليه النظم ينسجم مع الفؤاد " وقيل يعني رآه بعينه وعرفه بقلبه ، ولم يشك في أن ما رآه حق[1] والرؤية إدراك المرئي بعكس النظر الذي لا يحوي معنى إدراك المرئي ، ثم عبر بالفعل الماضي حيث يدل على أن الرؤية ثابتة وحاصلة على الرغم من غرابة ما رأى ، ثم يعقب الله بقوله " أفتمارونه على ما يرى " أي تستخرجون منه بجدالكم له فيما أخبركم به شكا فيه ، ولا شك فيه .

وعبر بالمفاعلة إشارة إلى اجتهادهم في تشكيكه (على ما يرى)على صفة مطابقة القلب والبصر ، وذلك مما لم تجر العادة بدخول الشك فيه ولا قبوله للجدال ، وزاد الأمر وضوحاً بتصوير الحال الماضية بالتعبير المضارع إشارة إلى أنه لم يهم ولم يلبس عليه الأمر كأنه الآن ينظر[2].

وهذا ما دلت عليه السنة حين سألته قريش عن وصف المسجد الأقصى فصوره الله له وأخذ يصفه لهم وهو يراه أمامه .وتعدية الفعل فيها بحرف الاستعلاء لتضمنه معنى الغلبة ، أي هبكم غالبتموه على عبادتكم الآلهة ، وعلى الإعراض عن سماع القرآن ونحو ذلك أتغلبونه على ما رأى ببصره[3] .

---

1 - الكشاف عن غوامض التنزيل وعيون الأقاويل : 639/5

2 - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : 316/7

3 - التحرير والتنوير : 106,105/3

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثم أكد الله رؤيته له بأنه رآه مرة ثانية فقد تكررت الرؤية " ولقد رآه نزلة أخرى " وحدد المكان "عند سدرة المنتهى " ،"عندها جنة المأوى " وذكر الزمان " إذ يغشى السدرة ما يغشى " وكل الأشياء التي ذكرت لا يعرفها أحد من البشر فهي غريبة على الرسول ﷺ ولم يرها إلا في السماء ولكن هذه الغرابة وإن تأثر بها فؤاده ﷺ إلا أن فؤاد نبي الأمة لا يهم ولا يشك ولا يكذب ، والذي يؤكد صدقه أن البصر كان مركزاً ولم يتحرك أو يجاوز ما يرى " ما زاغ البصر وما طغى ".

فغرابة ما رأى ﷺ والتأكيد على صدق ما رأى ملائم للفؤاد وعلى ذلك أتى السياق والنظم .

***

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفصل الثالث

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفصـل الثالث

بلاغة القرآن في التعبير عن القلب وما في معناه

في ســـياق الاستدلال

وفيه مبحثـان :

الأول : **الاستدلال على وحدانية الله وقدرته على البعث**

الثاني : **الاستدلال على ضلال الكفار وبطلان دعواهم وظهور صدق الرسول ﷺ**

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المبحث الأول : **الاستدلال على وحدانية الله وقدرته على البعث** :

استدل القرآن الحكيم في سياق الاستدلال على وحدانية الله - جل وعلا- وقدرته على البعث بالإعجاز في خلق الفلك تارة وأخرى بالإعجاز في خلق النبات وإنزال المطر وثالثة بخلق الإنسان .

أولاً : **المواضع التي كان الاستدلال فيها بالإعجاز في خلق الفلك** .

1- قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾ البقرة:164.

2- وقوله : ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ**﴾ آل عمران 190.

3- وقوله : ﴿ **وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾ (الجاثية 5) .

4- وقوله : ﴿ **وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾ (النحل 12) .

5-وقوله : ﴿ **ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً إن في ذلك لأيةً لقوم يعقلون** ﴾ (النحل 67) .[1]

6- وقوله : ﴿ **وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ** ﴾ (المؤمنون 80) .

1- الآية في خلق النبات ولكن ألحقت بالآية السابقة لاتصال السياق .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والملاحظ في المواضع السابقة ورود لفظة (العقل) عدا في موضع آل عمران فقد وردت فيه الألباب لما تطلبه السياق والنظم _ كما سأذكر بإذن الله_ وهــذه الآيــات المستدل بها وإن كانت لا تحتاج إلى لب كامل ليدركها إلا أنه ليس أي عقل مجرد يتمكن من إدراكها،لذا نلاحظ أنه في جميع المواضع الذي ذكر فيها العقل قال " لقوم يعقلــون " قدم القوم هنا بمعنى أن من مقومات قوميتهم العقل.

فالموضع الأول : ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْــلِ وَالنَّهَــارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَــا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾.[1] ورد في السياق القبلي لهذه الآية قوله تعــالى " وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم " . ذكر ابن المنير في حاشية الكشاف :إن الخطاب للمشركين ومقامهم الإنكار ، وأنزلوا مترلة غير المنكر ، فجاء خطــابهم بــدون توكيد وذكر أيضاً أن المخاطب إذا كان لديه من الدلائل التي لو تأملها لاقتنع بالقضية من عند نفسه هنا يترل المنكر مترلة خالي الذهن ، ويسمى خطاب على غير ظاهر الحال .[2]

فيبدو من كلامه أنه يرى أن الدلائل ظاهرة جداً لمجــرد العقــل ، ولــذا رأى أن الخطاب للمشركين ، ومن خلال نظم السورة يظهر لي أن المخاطب هــم المؤمنــون لا المشركون حيث إن هذا هو الموضع الوحيد في ســـورة البقرة الذي ذكرت فيه الرحمة " الرحمن الرحيم " والرحمة لا تكون إلا للمؤمنين ، هذا أولاً .

كما أنه حين نقارن هذا النظم بنظم الصافات نجد أنه في سورة البقرة لم يؤكــد الوحدانية " وإلهكم إله واحد " وأكد القدرة في الخلق أو الربوبية " إن في خلق السماوات والأرض .... في حين أنه في سورة الصافات أكد الوحدانية " إن إلهكم لواحــد " و لم يؤكد الربوبية " رب السماوات والأرض وما بينهما ورب المــشارق "[3] وذلــك لأن المخاطب بالأول المؤمنون وهم مقرون بوحدانية الله لا شك لديهم في ذلك أما المخاطب في الثانية فهم المشركون الذين لا يقرون بوحدانية الله فأكد لهم الوحدانية .

1- البقرة : 163.
2 _الانتصاف حاشية الكشاف : 352/1
3 _ الصافات : 4 ،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وليس التأكيد في القدرة على الخلق في موضع البقرة دليل على أن المؤمنين لديهم شك في ذلك لا بل الربوبية أولى بالإيمان فهم آمنوا بوحدانيته وبالتالي هم أولى بالإيمان بالربوبية و إنما ورد التوكيد هنا لأن السياق سياق رحمة والتفصيلات التي وردت في نظم الآية اقتضتها رحمة الله ، والتوكيد نوع من أنواع التفصيل ، فبالتفصيل يحصل اهتداء عدد أكبر من الناس وهذه رحمة وقد أشار إلى ذلك صاحب نظم الدر بقوله : " سبب تكثير الأدلة أن عقول الناس متفاوتة فجعل قسم من شأنه أن يدرك بالحواس الظاهرة ، وقسم لا يدرك بالحواس الظاهرة ويسمى الغيب والأمر والملكوت " [1] وهذا التفاوت يقتضي أن تكون الفاصلة بالعقل لا بالألباب لأن الألباب لا تكون إلا لمن كمل إيمانه و عقله . ومما يقتضي أن تكون الفاصلة (العقل) الإطناب في ذكر الدلائل الدالة على قدرة الله فكلما كثرت الدلائل كلما كانت أدعى لإدراك العقل لها في الاستدلال وكلما كانت أوسع للتأمل والتدبر ، وخصت هذه الثمانية بالذكر لأنها جامعة بين كونها للاستدلال وبين كونها نعماً على المكلفين على أوفر حظ ونصيب ومتى كانت الدلائل كذلك كانت أنجع في القلوب وأشد تأثيراً في الخواطر [2] . وحين نلاحظ تدرج نظم الآية في ذكر الدلائل نجد قرار لفظة العقل في مكانها وملاءمتها لأن تكون فاصلة للآية حيث بدأ بالأشرف أو بالأعلى وصولاً إلى الأقل فبدأ أولاً بخلق السماوات والأرض ، ثم ذكر دلالة اختلاف الليل والنهار ثم ذكر الأقرب من ذلك " الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس " ثم " ما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة " ثم " تصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض " وهذا التدرج يزداد ظهوراً حتى يصل إلى العقل ولكن لا تنفع هذه الدلائل إلا عند من كان متمكناً من النظر والاستدلال بالعقل الموهوب من عند الملك الوهاب ، لذا ذكر(لقوم) إشارة إلى لزوم هذا العقل لهم وكونه من مقومات قوميتهم .

---

1 _نظم الدرر في تناسب الآيات والسور في تناسب الآيات والسور : 81/2 2- التفسير الكبير : 174/2

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي جمعه للآيات ملاءمة للعقل فهي ليست آية واحدة بل آيات كثر عظيمة يستدل بها صاحب العقل السليم .

ويدلل على قرار لفظة العقل في مكانها السياق البعدي حيث يوحي ما وقع بعد قوله تعالى " لآيات لقوم يعقلون " بالتعريض بمن سواهم وهم المشركون ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ الناس**﴾فقابل الذين استدلوا على وحدانية الله بقدرته و الذين كان من مقوماتهم العقل بمن ليسوا كذلك ممن فقدوا العقل حتى أحبوا غير الله و أطاعوه من دون الله ، كما اتبعوا خطوات الشيطان وما ألفوا عليه آبائهم وهذا انعدام للعقل وقد صرح القرآن بذلك " فهم لا يعقلون " فقابل من يعقل " لقوم يعقلون " بمن لا يعقل " فهم لا يعقلون " .

أما ورود لفظة الألباب في موضع آل عمران " فيرشحه أمور منها :-

أولاً - إن سياق السورة عموماً في الحديث عن المصطفين الأخيار ، كما إنه حين تكلم عن اليهود تكلم عن أحبارهم وعلمائهم فمن الأولى حين يتحدث في آخر السورة عن المؤمنين أن يورد أكملهم وهذا يلائم اللب .

ثانياً- ذكر صاحب التفسير الكبير حين قارن بين ختم موضع البقرة بـ " يعقلون " وهنا " بأولي الألباب " بأن العقل له ظاهر وله لب ، ففي أول الأمر يكون عقلاً وفي كمال الحال يكون لباً حيث رأى أن التفصيلات في موضع البقرة سببها أن العقل في أول أمره و يحتاج إلى دلائل كثيرة [1] ويظهر لي بعد أن ذكرت أن المخاطب المؤمنون _ فالسياق سياق رحمة _ أن ما ذكره صاحب الإرشاد في بيان سبب التفصيلات أقوي وهو قوله : (إن عدم التعرض لما ذكر في سورة البقرة من الفلك و المطر و تصريف الرياح والسحاب ، لما أن المقصود هنا ـــ أي آل عمران ـــ تفرده تعالى بما ذكر من الملك و القدرة فاكتفى بمعظم الشواهد الدالة على ذلك ، أما هناك ـــ البقرة ـــ فقد قصد في

1- ينظر التفسير الكبير: 459/3

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ضمن بيان اختصاصه تعالى بالألوهية بيان اتصافه بالرحمة الواسعة فنضمت دلائل الفضل و الرحمة في سلك دلائل التوحيد فإن ما فصل هناك هو من آيات رحمته تعالى كما أنه من آيات ألوهيته ووحدته) [1] . وهذا كلام يؤكد فهمي أن المخاطب المؤمنون ولا يكون المؤمنون الذين كانوا أشد حباً لله من غيرهم في أول أمر العقل . و يظهر لي أن ختم الآية بالعقل هناك و بالألباب هنا كون موضع البقرة في مقابلة المؤمنين بالمشركين و المشركون لا علم عندهم و لاتعمق في المعرفة فكان الأنسب مقابلتهم بالعقل لا بما هو أرقى منه ،أما في سورة آل عمران فالسياق المتقدم كان في اليهود الذين كانوا أصحاب علم و كتاب و لهم معرفة و لكنهم لم يستفيدوا منها فناسب أن يقابلهم بمن استفادوا بعلمهم فكملوا به فأصبحوا " أولوا الألباب " في حين لم يصل اليهود إلى ذلك مع توفر أسبابه لهم و دواعيه.

ونظم الآية دال على قرار اللفظة " الألباب " حيث اقتصر القرآن الدلائل على خلق السماوات والأرض و اختلاف الليل و النهار فقط دون تفصيل أو ذكر أدلة أقرب إلى العقل ليدركها ، و ذلك أن الدلائل السماوية أقهر وأبهر ، و العجائب فيها أكثر وانتقال القلب منها إلى عظمة الله وكبريائه أشد وفي ذلك عمق يناسب أولي الألباب .

وفيما حدد في السياق البعدي من الصفات تؤكد ملاءمة اللفظة لسياقها البعدي كما لاءمت السياق القبلي و القرآن، حيث أبدل منهم " الذين يذكرون الله قياماً و قعوداً وعلى جنوبهم " فهم دائمو الذكر وهذا دلالة على قرار الإيمان في قلوبهم و بالتالي اكتمال عقولهم المتدبرة لله لذا ذكروه في كل أحوالهم ، ثم قال" وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ " فهم دائمو التفكير و نظرهم لخلق الله مستمر متجدد و هذا التجدد ترقى بعقولهم حتى أوصلهم إلى الكمال فقالوا : " رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ " " كما أن كمال هذه العقول أرشدهم إلي الحق فأجابوا داعي الإيمان، لذا حصلوا على " حسن الثواب " ووصفوا بالتقوى " الذين اتقوا " وفي التقوى كما سبق كمال يلائم كمال العقول ، وسموا " بالأبرار " وكل ذلك ملائم للألباب .

2- تفسير أبي السعود : 81/2

وفي قوله تعالى : ﴿ **وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾ (1) استدلال على وحدانية الله جل وعلا بقدرته على التحكم في الفلك وإنزال المطر وتصريف الرياح ، وهي أمور دالة دلالة واضحة على وحدانية الله -جل وعلا- ولكن لأنها نعم ألفها الناس فلا بد أن يكون متأملها من مقومات قوميته العقل فهو يعمله في إدراك قدرة الله وبالتالي وحدانيته ، ولذا وردت لفظة " العقل " فهي لا تحتاج إلى عمق تدبر ولكنها أيضاً لا يدركها عقل مجرد إلا أن يكون العقل متأصل في سلوك الفرد ليدرك ذلك ، ويدلنا كون القرآن أتى بـ " لقوم يعقلون " أن المخاطب هم المؤمنون فهم الذين حكموا عقلهم واستخدموه فأصبح سمة لهم ترقوا بعد ذلك فيه على درجات حتى وصلوا الكمال فأصبحوا " أولو الألباب " .

والسياق القبلي يؤكد قرار اللفظة حيث تدرج في أصناف هؤلاء المخاطبين فوردت الآية الأولى " إن في السماوات والأرض لآيات للمؤمنين " ونظم الآية يؤكد على العموم حيث لم يرد النظم بقوله " إن في خلق السماوات " بل ورد " إن في السماوات " وقد ذكر الفخر الرازي أن لا تفاوت في المعنى هنا (2)، ويظهر أن هناك تفاوت فالنظم الأول في البقرة ، وآل عمران حين ذكر الخلق حدد فئة تلائم النظم ويكون هذا الخلق لها آية ــ وقد سبق بيانها ــ أما هنا فاللفظ عام للمؤمنين ، والعموم هنا مقصور لأنه سيرد بعده ذكر فئتين منهم عليا« يوقنون » ، وأقل منها " يعقلون " ويكون ذلك أدخل في ذم المكذبين الذين لم يصلوا إلى أي فئة من الفئات فيلائم عدم استخدامهم لحواسهم في الاستدلال بها للإيمان و بالتالي عقاب الله لهم بحرمانهم إياها " ختم على سمعه وقلبه ..." فالإيمان فطرة في الناس سليمة وقد يكون من المؤمنين - الإيمان الحق - لا يقلبون عقولهم في خلق الله لكنهم يؤمنون بالله ثم تدرج القرآن بعد ذلك بذكر الخواص من هؤلاء المؤمنين " لقوم يوقنون " وذكر خلق النفس ، وما بث في الأرض من الدواب والتفكر فيها أعمق وأدق .

1- الجاثية : 5

2- التفسير الكبير : 671/9

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فأدق الخــلق خـــلق ابن آدم وكثير من ألفه فلا يتفكر فيه إلا صـــاحب الـــيقين لأن دقائقه خفيت على العوام و لم يتفكر فيها إلا الخواص وهم " أصحاب اليقين " ويؤكد رؤيتي للتخصيص بعد العموم أنه قال " لقوم يوقنون " فهم قوم من مقومـــات قوميتـــهم اليقين وهم بالتالي أقل فئة معنية قال صاحب نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ولمـــا كانت آيات الأنفس أدق وأدل على القدرة والاختيار بما لها من التجدد والاختلاف قـــال "لقوم "فيهم أهلية القيام بما يحاولونه "يوقنون " أي يتجدد لهم العروج في درجات الإيمان إلى أن يصلوا إلى شرف الإيقان (1) .

ثم ذكر النظم بعد الإيقان العقل " لقوم يعقلون " فالإيقان أعلى من العقل فلمـــا كانت الآية دقيقة ذكر فيها الإيقان ، ولما كانت الآية ظاهرة الدلالة على القدرة والاختيار للصانع في التصريف والاختلاف ، والماء بما يحدث عنه من الإنبات أوضح دلالة من بقيتها على البعث ولأجل شدة ظهورها ناط الأمر فيها بالعقل (2) . وقال الإمام الــرازي : إن النظم في سورة البقرة جمع الكل وذكر لها مقطعاً واحداً وها هنا رتبها على ثلاثة مقـــاطع والغرض على أنه لابد من إفراد كل واحد منها بنظر تام شاف وأوافقه في ذلك . ويـــرى أن سبب هذا الترتيب أنه قيل إن كنتم من المؤمنين فافهموا هذه الدلائل وإن كنتم لستم من المؤمنين بل أنتم من طلاب الحق واليقين فافهموا هذه الدلائل ، وإن كنتم لستم مـــن المؤمنين ولا من الموقنين فلا أقل من أن تكونوا من زمرة العاقلين في معرفة هذه الدلائل(3). ولا يتعارض هذا مع ما ذكرت من العموم أولاً ثم التدرج في الخصوص . وقال صـــاحب الإرشاد اختلاف الفواصل لاختلاف مراتب الآيات في الدقة والجلاء (4). وهذا التـــدرج رشح لأن تكون الفاصلة بـــ (لقوم يعقلون) فاستعملت لفظة العقل من دون غيرها كما إن نظم الآية ذاتها مرشح لذلك حيث كانت الدلائل هي " اختلاف الليل والنهار ، ومـــا أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها " فهي ظاهرة للعقل الذي يفكـــر فيها وقد ورد القرآن بالاستدلال بها في أكثر من موضع وكان الاستدلال موجهاً للعقل لا للب .

1- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور تناسب الآيات والسور 91/7 2- السابق : 92/7
3- التفسير الكبير : 671/9 4 _ تفسير أبي السعود 57/6

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتدرج النظم في الدلائل من الواضح إلى الأوضح مقر أيضاً لأن تكون الفاصلة " لقوم يعقلون " وقرئت تصريف الرياح بتوحيد الريح[1] وهو أبلغ لأن تصريف الشيء الواحد من الوجوه الكثيرة أعجب [2] وتأخيره عن إنزال المطر مع تقدمه عليه في الوجود ، إما للإيذان بأنه آية مستقلة حيث لو روعي الترتيب الوجودي لربما توهم أن مجموع تصريف الرياح وإنزال المطر آية واحدة وإما لأن كون التصريف آية ليس مجرد كونه مبدأ لإنشاء المطر بل ولسائر المنافع التي من جملتها سوق السفن في البحار[3]ولا تعارض بين الوجهين وكلاهما مؤكد على كثرة وتنوع الدلائل على وحدانية الله ، وهذه الكثرة والتنوع ملائمة لإدراك العقل كما في قوله" آيات" بالجمع والتنكير دلالة على التفخيم كما وكيفاً وهذا ملائم لإدراك العقل أيضاً ، وفي قراءة من قرأ بالرفع [4]ملاءمة للعقل حيث فيه إشارة لعدم حاجتها للتأكيد إن كان الوجه أنها للاستئناف ، وعدم حاجتها للتأكيد دليل ظهورها والتمكن من إدراكها.

وفي السياق البعدي ما يؤكد قرار اللفظة في مكانها حيث فيه مقابلة بين هؤلاء المؤمنين والذين منهم الموقنون ، ومنهم العاقلون بمن يضادهم . " ويل لكل أفاك أثيم . " والإفك هنا يقابل الإيمان فالإيمان تصديق والإفك تكذيب ، " يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها " يقابل الموقن فذلك أيقن بالحق وهذا استكبر وأعرض ، و " إذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزواً " وعلم الشيء دلالة إدراكه فإدراكهم لها ثم اتخاذهم له هزواً دليل انعدام عقولهم وانعكاس أفهامهم فهم إذن لا عقل لهم وبذلك فهم يقابلون " قوم يعقلون " والصفة الجامعة بين الفريق الأول والثاني أن الأولين استدلوا بتدرج أفهامهم على الوحدانية أما من قابلهم فقد عطلوا حواسهم عن الاستدلال بها على الإيمان بوحدانية الله -جل وعلا- وهنا يظهر ملاءمة لفظة العقل في نظمها وسياقها والله أعلم.

1- قرأ بالتوحيد حمزة ، والكسائي ، وخلف والباقون بالجمع : القراءات المتواترة من طريقي الشاطبية والدرة :499

2- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور في تناسب الآيات والسور : 92/7

3- تفسير أبي السعود : 57/6

4- قرأ حمزة والكسائي والحضرمي بالخفض.وقرأ الباقون بالرفع . معاني القراءات:375/2

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي قوله تعالى : ﴿ **وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾ [1] .

وقوله : ﴿**وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾ [2].

نلاحظ أن القرآن الحكيم أورد الموضعين بلفظة " العقل " دون غيرها من الألفاظ للاستدلال على وحدانية الله والسياق العام مرشح لهذه اللفظة لأن سياقها في الإنعام وقد ذكر سبحانه نعماً معروضة للناس ولكن لايستدل على الوحدانيّة إلا من كان من مقومات قوميته العقل فلا يصل للصواب إلا من كان العقل أصلاً وأساساً فيه . والاستدلال في سورة النحل من الأشرف فالأشرف ثم من الدون فالأدنى وهذا التدرج يلائم العقل هنا حين بدأ بالفلك ثم الحيوان ثم النبات وهكذا تدرج الدلائل في الظهور وقربها للإنسان فالبدء بالآثار العلوية أدل على القدرة الباهرة ، وأبين شهادة للكبرياء والعظمة [3] وجمع في الموضع الأول _ آيات _ وأفرد في الثاني_ آية _ لعظم الأمر ، ففي الأول كل واحدة مما ذكر آية في نفسها لا تشترك مع الأخرى وقال في الثاني " لآية " لأن شيئاً واحداً يجمعها وهو النخيل ولظهور الأمر لكل ذي عقل أصيل أكد الكلام بـ " إن " وعدى " بفي " جاعلاً هذه الآيات وعاءً للدلالة على وحدانية الله . وجعلها ظرفاً لهذه الآيات يؤكد أن من لم يدركها فلا عقل له .

وذكر في الموضع الأول يسخر ، ومسخرات ، إيماء إلى ما في المسخرات من صعوبة المأخذ بالنسبة إلى المخاطبين وهذا أدل على القدرة والإعجاز وأظهر للعقل . وقال صاحب الإرشاد : " أن ما ذكر تعالى من صفات الكمال ليس بطريق الاستدلال عليه ، بل من حيث إن ذلك من المقدمات المسلمة جيء به للاستدلال به على ما يقتضيه ضرورة وحدانيته تعالى واستحالة أن يشاركه شيء في الألوهية [4] وجعله هذا الاستدلال من

1- النحل :12

2- النحل : 67

3 -الكشاف عن غوامض التنزيل والأقاويل : 428/1

4- تفسير أبي السعود : 49/4

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المقدمات المسلمة يؤكد ما ذكر فإن ظهورها الملائم للفاصلة " يعقلون " وإدراكها يكون لكل عاقل ولكن الاستدلال بها على الوحدانية لا يوفق له إلا من كان من مقومات قوميته العقل .

ونلاحظ أنه في النظم القبلي وردت الفاصلة " يتفكرون " ثم بعد ذلك قال " يعقلون " قال في ذلك صاحب درة التتريل : إن سبب ختم الأولى بالتفكر ، أن التفكر إعمال النظر لتطلب فائدة ، وهذه المخلوقات التي تنجم من الأرض إذا فكر فيها علم أن معظمها ليس إلا للأكل .. وأن المنعم عليه يحتاج أن يعرف المنعم به ليقصده بشكر إحسانه ، فهذا موضع تفكر يحث الناس عليه ليفضي بهم إلى المطلوب منهم ، وأما تعقيب ذكر الليل والنهار وما سخر في الهواء من الأنواء بقوله " لقوم يعقلون " فلأن متدبر ذلك أعلى رتبة من تدبر ما تقدم إذا كانت المنافع المجعولة له فيها أخفى وأعمق فمن استدرك الآيات فيها استحق الوصف بما هو أعلى من رتبة المتفكر المتدبر، لأن المترلة الثانية التي تؤدي إليها الفكرة ، هو أن يعقل مطلوبة منها (1) .

وفي الموضع الثاني قدم السماع ثم ذكر العقل لأن السماع ورد فاصلة في التوبيخ لمن أنكر البعث فكأنه قيل له إن ذلك قبل التدبر مقرر في أول العقل حتى إن من يسمعه يعترف به . وقال صاحب ملاك التأويل أن المناسبة في " يسمعون " بناء ذلك على المتصل به من قوله " وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه " ثم قال " والله أنزل من السماء ماءً " فاتصل ذكر إنزال الكتاب بإنزال الماء ، وإنما تحصل ثمرة الكتاب المترل بسماعه ، وإنما يستجيب سامعه إذا كان غير معرض ، لهذا الالتحام أعقب الآية المذكورة بقوله " إن في ذلك لآية لقوم يسمعون " وأورد " يعقلون " في الأمر الذي يحتاج إلى تدبر ، وذلك في الحكم الذي لا يمكن الوصول إلى معرفة سببه ولا تعليله بطريق الحواس ، ولا يوصل إلى ذلك بجهة تفكر أو اعتبار عبر بقوله " لقوم يعقلون " إذ العقل يسلم إمكان ما لا تعلم له علة مما ليس بمحال ، فتكون مما ينفرد تعالى بعلمه ، ويعجز البشر عن فهمه والتفكر ورد في أشكال النحل ، وهي أشياء وتقتضي فكراً بعد فكر،

1- درة التتريل وغرة التأويل : 182

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ونظراً بعد نظر ، فلذلك عقبت بـــــقوله " يتفكرون " فهي مجال للتفكر ومتسع للاعتبار مناسبة قوله " لقوم يتفكرون " [1] .

ويظهر لي ــ والله أعلم ــ أن السبب في هذا التــدرج أن الــنظم ذكــر أدوات الإدراك ثم أتى بعدها بمحل الإدراك فمن أدوات الإدراك التفكر والسماع ثم نصل بعــد ذلك إلى العقل .

أما التذكر فلأنه قد جعل قبلها إدراك والتذكر إنما هو عود على بدء لــذا ورد بعــد العقل والله أعلم . وذكر الآلوسي كلاما جميلا في الموضع الثاني حيث ربط بــين العقــل والسكر حيث قال : إذا كان في الآية إشارة إلى الحط من أمر السكر ففي الختم المــذكور تقوية لذلك وله في النفوس موقع وأي موقع حيث إن العقار كما قيل للعقول عقال [2].

وفي موضع (المؤمنون) وردت لفظة العقل في الاستدلال على القدرة على البعــث ﴿**وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَــلَا تَعْقِلُونَ**﴾ [3]والمخـــــاطب هـــنا المشركون المنكرون للبعث ، واستعمال لفظة العقل هنا رشحه السياق القبلي الذي وضح مخالفة هؤلاء لمقتضى ظاهر العقل في تكذيبهم الرسول -ﷺ- بما جاء بــه إلــيهم فالآيات كانت تتلى عليهم ولكنهم " على أعقابكم تنكصون " وبين النظم بآيات كثيرة مخالفتهم لمقتضى العقل في تكذيبهم ما جاء إليهم حين قال " أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آبائهم الأولين " . فما جاءهم ليس بدعاً من القول ولكنـــهم جحدوا الآيات بعد معرفتها " أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون " فلو أن لهم عقولا لما كذبوا الرسول -ﷺ- وهم كانوا يلقبونه بالصادق الأمين " أم يقولون به جنة " وهذا ظاهر فيه انعدام عقولهم ، ثم جاء الإضراب مبيناً حقيقة تكذيبهم " بل جاءهم بالحق وأكثــرهم للحــق كارهون " كما أن في القرآن شرفهم " بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضـــون " ولا ينكر ما ورد فيه شرفه وذكره إلا منعدم العقل .

1- ملاك التأويل 748/2

2- روح المعاني : 420/7

3- المؤمنون: 80

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وعلى ذلك ورد قوله في سورة الأنبياء ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (1) كما إن ظاهر إرادة الرسول - ﷺ- في دعوته صلاحهم فهو لا يسألهم مالاً و لاأجراً وإنما " وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم " ثم بدأ القرآن يذكرهم بأن الله هو خالقهم ومن خلقهم هو قادر على إعادة بعثهم بعد موتهم فهو " الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة " وإنشاء الشيء أصعب من إعادته ، وهو " الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون " ،كما إن الملاحظ أن النظم ورد بالخطاب وكأنه يواجههم بحقائق هم يعرفونها وهذا ملائم لأن تكون الفاصلة " تعقلون " كما في تكرار الضمير " هو " " هو الذي أنشأكم " " وهو الذي ذرأكم " تأكيد في تذكيرهم بأنه وحده سبحانه قادر على الخلق فهو وحده قادر على الإعادة ولا تعجزه شيئاً .

وفي استعمال اسم الموصول " الذي " دلالة على أنه معروف لديهم بأنه هو القادر على ذلك فا لأمر إذن ظاهر لأعينهم ولاشك فإن كان معروفاً لديهم بأنه هو الخالق وهو من أنشأ الأسماع والأبصار والأفئدة ، فكيف يخفى عليهم قدرته على البعث ؟! وفي تقديم الضمير على الموصول أيضاً إنزال لهم منزلة الجاهل ، علماً بأنهم يعلمون أن الله هو الخالق .

ونظم الآية أيضاً دال على قرار لفظة العقل في نظمها كما قرت في سياقها فبالإضافة إلى إعادة الضمير وإيراد اسم الموصول " الذي " عبر عن الإحياء الإماتة بالمضارع وكأنه يدلل بتجدد هذا الفعل إلى أنه ماثل أمامهم دائماً وصورة حية متكررة لا يمكن أن يغفل عنها عاقل والقادر على ذلك لا مانع له من البعث . ولما كانت حقيقة البعث إيجاد الشيء كما هو بعد إعدامه ، ذكرهم بأمر طالما لابسوه ، وعالجوه ومارسوه فقال " وله " أي وحده لا لغيره "اختلاف الليل والنهار " أي التصرف فيهما على هذا الوجه ، يوجد كلاً منهما بعد أن أعدمه كما كان سواء ، فدل تعاقبهما على تغيرهما ، وتغيرهما بذلك وبالزيادة والنقص دليل على أن لهما مغيراً لا يتغير وأنه لا فعل لهما وإنما الفعل له وحده ، وأنه قادر على إعادة المعدوم كما قدر على ابتدائه.بما دل على قدرته وبهذا الدليل الشهودي للجاحدين ، ولذلك ختمه بقوله منكراً تسبيب ذلك لعدم

1-الأنبياء : 10

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عقلهم " أفلا تعقلون " أي يكون لكم عقول لتعرفوا ذلك فتعلموا بما يقتضيه من اعتقاد البعث الذي يوجب سلوك الصراط [1] . قال صاحب التحرير : ولما كان من الإحياء خلق الإيقاظ ومن الإماتة خلق النوم عطف على ذلك أن بقدرته اختلاف الليل والنهار لتلك المناسبة ، ولأن تصريف الليل والنهار دلالة على عظيم القدرة ، والعلم دلالة على الانفراد بصفات الإلهية وعلى وقوع البعث واللام في أوله للملك ، وتقديم المجرور للقصر ، ولما كانت هذه الأدلة تفيد من نظر فيها علماً بأن الإله واحد وأن البعث واقع وكان المقصودون بالخطاب قد أشركوا به و لم يهتدوا بهذه الأدلة جعلوا بمترلة غير العقلاء فأنكر عليهم عدم العقل بالاستفهام الإنكاري المفرع على الأدلة الأربعة بالفاء في قوله " أفلا تعقلون " وهذا تذييل راجع إلى قوله " وإليه تحشرون " وما بعده [2]. ويظهر لي أن الاستشهاد باختلاف بالليل والنهار له وجه آخر إضافة إلى ما ذكر وهو أن الحياة زمن والزمن هو عبارة عن الأيام التي هي الليل والنهار وحين يعبر النظم " وله " دلالة أنها ملك لله فالحياة ملك لله هو يهبها ، وينتزعها ، ويقدر على إعادتها ، فكأن القرآن بذلك يعقب الخبر بالدليل حيث أخبر أنه " يحي ويميت " وتلاه بالدليل بأن له اختلاف الليل والنهار وهذا أبلغ في تأكيد الخبر وبيان ظهوره فهو إذن قريب للعقل لا يشك فيه شاك " أفلا تعقلون " ألا تتفكرون فلا تعقلون بالنظر والتأمل أن الكل صار منا وأن قدرتنا تعم جميع الممكنات التي من جملتها البعث [3] وكما كان معنى الاستفهام الإنكاري النفي حسن بعده كل الحسن قوله " بل " وعدل إلى أسلوب الغيبة للإيذان بالغضب بقوله " قالوا " ولما أنكروا البعث هذا الإنكار المؤكد ، أمره أن يقررهم بأشياء هم مقرون بها ولها عارفون يلزمهم من تسليمها الإقرار بالبعث قطعاً [4] .

1- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : 217،216/5

2-التحرير والتنوير : 86/18 .

3- السابق : 86/18

4- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : 217/5

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهذا ملائم للعقل فتكون اللفظة ملائمة بذلك أيضاً لسياقها البعدي : حيث أورد أولاً : أن قولهم إنما هو تبيعة لا عقل فيها حين تابعوا في قولهم قول الأولين حتى وإن كـــانوا لا يعقلون ، كما إن السياق جعل التوبيخ متدرجاً حسب وضوح الحجة شيئاً فشيئاً ، فوقف على الأرض ومن فيها وجعل ذلك بإزاء التذكير ، ثم وقف على السماوات السبع والعرش وجعل ذلك بإزاء التقية وهي أبلغ من التذكر ثم وقف على ملكوت كـــل شـــيء ، وفي الإقرار بهذا التزام تقع به الغلبة في الاحتجاج ، فوقع التوبيخ بعده في غاية البلاغة " فـــأنى تسحرون " فتلاحظ الملاءمة للعقل فبدأ بـــ« أفلا تعقلون » ، وتدرج للأعلى تتذكرون ثم " تتقون " ثم وبخهم لانعدام الأقل والأعلى عندهم بـــ " أنى تسحرون " والسحر إنمـــا يذهب العقل [1] .

***

1 - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 217/5

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثانياً : المواضع التي استدل فيها على وحدانية الله وقدرته على البعث بالإعجاز في خلق النبات وإنزال المطر .

1-قوله تعالى : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ الرعد : 4 .

وقوله : ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ العنكبوت : 63.

2-وقوله : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ الروم : 24 .

3-وقوله : ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ الروم : 28 [1] .

4-وقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ الزمر : 21 .

5-وقوله : ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ الزمر : 43 [2] .

6- وقوله : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ الحديد : 17 .

ففي قوله تعالى : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [3] .

1- ألحقت الآية بسابقتها لاتصال السياق .

2- ألحقت الآية بسابقتها لاتصال السياق .

3- الرعد : 4 .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الاستدلال على البعث وقدرة الله جل تعالى عليه والتعجب ممن يكذب به والأمر ظاهر عياناً لهم ونلحظ أن السياق القبلي تدرج في بيان أدلة القدرة الدالة على البعث فذكر أولاً رفع الله السماوات بغير عمد ، وتسخير الشمس والقمر وناط الأمر بالإيقان " لعلكم بلقاء ربكم توقنون " ثم نزل بالإدراك حين ظهرت الأدلة أكثر من سابقتها فقال " وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار " وناط الأمر بالتفكر وهو أقل من الإيقان " لقوم يتفكرون " . ثم حين كان الأمر أظهر ناط الأمر بالعقل " لقوم يعقلون " وليس معنى أن الأمر أظهر بأنه لا يحتاج إلا إلى العقل المجرد لا بل يحتاج من كان العقل سجية فيه فالقدرة المناطة بة أظهر بالنسبة لما سبق في النظم ، ولكن لا يصل إلى الاستدلال به أي عاقل بل عاقل كان من مقومات قوميته الفعل لأن القرآن ورد بـ " لقوم يعقلون " .

قال صاحب البحر المحيط : ولما كان الاستدلال في هذه الآية بأشياء في غاية الوضوح ، ومن مشاهد تجاور القطع والجنات وسقيها وتفضيلها جاء ختمها بقوله " لقوم يعقلون " بخلاف الآية التي قبلها ، فإن الاستدلال بها يحتاج إلى تأمل ومزيد نظر جاء وختمها بقوله " لقوم يتفكرون " [1] وجيء في التفكير بالصيغة الدالة على التكلف والصيغة المضارعة للإشارة إلى تفكير شديد ومكرر [2].

ونظم الآية ذاتها مقرر للفظة العقل حيث قال " وفي الأرض " أي التي انتم سكانها ، تشاهدون ما فيها مشاهدة لا تقبل الشك ، " قطع متجاورات " وصفت بمتجاورات لأن اختلاف الألوان والمنابت مع التجاور أشد دلالة على القدرة العظيمة. فمعنى متجاورات بقاع مختلفة مع كونها متجاورة ومتلاصقة . فورود " في الأرض " و " متجاورات " مرشح للعقل لأن فيها ظهور للدلالة ، ثم قدم " جنات " وجمعها لأن أصنافها لا تكاد تحصر حتى أنه في الأصل الواحد يحصل تنوع الثمرة وهذا أظهر ليدركه العقل ويستدل به ، وخص النخل بذكر صفة صنوان لأن العبرة

1- البحر المحيط : 356/5

2- التحرير والتنوير : 142/12

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بها أقوى فالصنوان الغصن الخارج عن أصل الشجرة [1] إذن هو جزء منها ومــع ذلــك يختلف أكله .وسقيها بماء واحد واختلاف طعمها في الأكل أظهر دليل على القدرة علــى البعث فهو أيسر من كل ما سبق . وقال نفضل بنون العظمة وهذا أدل علــى القــدرة والفضل " إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون " وفي الآيات ملاءمة للعقل فكلمــا كثــرت الآيات ظهرت للعقل ، كما إنه قال " في " جاعلاً ما سبق ظرفاً للآيات الــتي يــدركها العقل ووصفت الآيات بأنها من اختصاص الذين يعقلون تعريضاً بأن من لم تقنعهم تلــك الآيات مترلون مترلة من لا يعقل ، وزيد في الدلالة على أن العقل سجية للــذين انتفعــوا بتلك الآيات إجراء وصف العقل على كلمة " قوم " إيماءً إلى أن العقــل مــن مقومــات قوميتهم .

وقد وافق هذا التعريض بعدم عقلهم ما ورد في السياق البعــدي﴿ **وإن تعجــب فعجب قولهم أإذا كنا تراباً أإنا لفي خلق جديد**﴾ حيث إن من العجب أن يقولوا ذلك والأعجب أن ينكروا البعث بعد كل هذه الدلائل و لم يتعجب القرآن إلا لظهور الأمر لمن له عقل سليم الإدراك ولكن من عدمه فــ " أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال في أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون " فلا يكفر " بربه " المنعم عليه إلا منعدم العقل ، ولا يستعجل بالسيئة قبل الحســنة إلا من لا عــقل له ، وخاصة أنها " وقد خلت من قبلهم المثلات " ومع ذلك لم يعتبروا .

وفي قوله تعالى : ﴿**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُــونَ**﴾ [2]ورد العقــل في ســياق الاستدلال على وحدانية الله بقدرته على إنبات النبات وإحيــاء الأرض بعــد موتهــا . والمخاطب هنا المشركون الذين عبدوا مع الله غيره مع اعترافهم بما يؤكــد وحدانيــة الله سبحانه وتعالى وهذا دليل على انعدام العقل لديهم لذا وردت الفاصلة بانعدام عقــولهم . والسياق العام لسورة العنكبوت فيه مخاطبة للعقل من بداية السورة بــ " ألم " الذي فيــه إشارة لأهل الفطنة مروراً بالقصص التي ركز فيها على العبر الظاهرة للعقل " وجعلناها آية للعالمين "

1- المفردات في غريب القرآن:290

2-العنكبوت : 63

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وخطاب العقل في قصة إبراهيم- عليه السلام -، ومخاطبة العقل في الإنكار على من قال أن الكتاب من صنع محمد فإنه كان أمياً لا يقرأ و لا يكتب ثم بين أن إنكارهم جحد والجحود إنكار بعد علم [1] وهذا دليل انعدام العقل ليس إلا . ثم انتهى بالاستدلال بالعقل في بيان قدرة الله تعالى التي تدل على تفرده ووحدانيته حيث عمد القرآن إلى تقريرهم بهذه القدرة وخاصة أنها لديهم من المسلمات فاعترافهم بها ومخالفتهم مقتضاها دليل على انعدام عقولهم " ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر " يؤكد أن إجابتهم " ليقولن الله " مؤكداً إقرارهم بذلك . كما أكد أن الله هو القادر وحده على بسط الرزق ، وأكد علم الله المحيط بكل شيء وكل هذه الصفات تستلزم وحدانيته وتفرده سبحانه وتعالى .

ثم يرد النظم في الآية مقيداً بالشرط الذي يدل على لزوم إجابتهم لهذا السؤال بهذه الإجابة دون غيرها لزوماً يؤكد وحدانية الله " ولئن سألتهم ليقولن الله " وهذا الشرط يدل على أنها حقيقة لديهم فكيف يخالفونها كما أن إعادة السؤال والجواب فيه اتصال لربط الدلالة بعضها مع بعض وتأكيد على إقامة الحجة عليهم كما إن المشركين لا يدعون أن الأصنام تنزل المطر وفي ذلك إقامة للحجة عليهم .وفي تقييد القرآن إنزال الماء من السماء ، ذكر لما يختص به - سبحانه - سالماً عن دعوى المدعين وبذلك تلزمهم الحجة بما أقروا به وتعقيبه بالفاء في " فأحيا به" دلالة على سرعة إحياء الأرض ، وهذه دلالة على قدرة عظيمة لا تكون إلا لله وحده - سبحانه وتعالى - وقال " من بعد موتها "بزيادة من والتي فيها تأكيد على قدرة الله قال صاحب التحرير : " لما كان الكلام هنا في مساق التقرير كان المقام مقتضياً للتأكيد بزيادة "من " في قوله " من بعد موتها " ليقروا بأن فاعل ذلك هو الله دون أصنامهم فلذلك لم يكن مقتضى لزيادة "من " في آية البقرة . وفي الجاثية [2]. وأرى أن التوكيد في زيادة " من " تولد عن دلالة على بعد زمني أطول وفي ذلك دلالة على تمكن الموت منها وانعدام الحياة فيها تماماً ، ومع ذلك قدرة الله تحيها بإنزال المطر فوراً " فأحيا " بدلالة " الفاء " الدالة على التعقيب

1- الفروق اللغوية : 75

2-التحرير والتنوير :201/20

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهذا أكثر وضوحاً في الدلالة على وحدانية الله - جل وعلا -في تفرده بالقدرة من دون سواه " قل الحمد لله " على ذلك وهي الحجج المتقدمة وليس خاصاً بحجة إنزال الماء من السماء وذلك شأن القيود الواردة بعد جمل متعددة أن ترجع إليها جميعاً .

وقيل أمر الرسول بالحمد على أنه ممن أقر بنحو ما أقروا به ، ثم نفعه ذلك في توحيد الله ، و لم يكن إقراراً عاطلاً كإقرار المشركين ، وعلى أنهم أقروا بما هو حجة عليهم حيث نسبوا النعمة إلى الله وقد جعلوا العبادة " للصنم " لذا لاءم بعد مخالفتهم لظاهر مقتضى العقل أن يكون الحكم عليهم بأن " أكثرهم لا يعقلون " وكما سبق أن الأكثرية هم عامتهم والعامة أقل عقلاً من غيرهم حيث هم أقل إدراكاً لظاهر الأمور لانشغالهم بإتباع مرؤوسيهم وهذا غاية الانعدام لإدراك العقل وفي قوله " بل أكثرهم لا يعقلون " إضراب انتقال من حمد الله على وضوح الحجج إلى ذم المشركين بأن أكثرهم لا يتفطنون لنهوض تلك الحجج الواضحة فكأنهم لا عقل لهم لأن وضوح الحجج يقتضي أن يفطن لنتائجها كل ذي قلة من عقل فنزلوا منزلة من لا عقول لهم ، وإنما أسند عدم العقل إلى أكثرهم دون جميعهم لأن من عقلائهم وأهل الفطن منهم من وضحت له تلك الحجج فمنهم من آمنوا ومنهم من أصروا على الكفر عناد [1] .

ويؤكد قرار " العقل " في مكانها السياق البعدي الذي أكد بأن الحياة الدنيا لهو ولعب والتصريح بإضافة اللهو واللعب للحياة الدنيا دال على أن فساده ظاهر وخاصة إذا صرح " بالحياة " وهذا الظهور بالفساد لا يغتر به إلا منعدم العقل فالظاهر يدركه العقل المجرد ولا يحتاج إلى لب متعمق ، كما في وصف حالهم وتذبذبهم في وقت الشدة في إظهارهم الإخلاص لله ثم النكوص عنه في الرخاء دليل على انعدام عقلهم حيث إنه ظاهر لهم أن الله هو القادر على خلاصهم دون شك منهم في ذلك ولكن يغرهم الرخاء ويطغيهم عن توحيد الله ودلل على ذلك القرآن صراحة " ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا فسوف يعلمون" .

1- التحرير والتنوير : 201/20

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأكد على انعدام عقلهم بإنكاره عليهم " أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون " ولا يكفر بالحق ويؤمن بالباطل وهو ظاهر له إلا منعدم العقل . حيث إنهم رأوا قـــدرة الله في تأمينهم عياناً ومع ذلك يكفرون " أو لم يروا " والرؤية كما سبق إدراك للمرئي فهـــم إذن يدركون الحق ويخالفونه وهذا ظاهر في انعدام عقولهم.

كما استدل القرآن الحكيم على البعث مورداً لفظة العقل في قوله في سورة الروم **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْــأَرْضَ بَعْــدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾** (1) .

وبملاحظة السياق القبلي وتدرج الآيات فيه يظهر لنا ملاءمة العقل للسياق حيث ورد في السياق القبلي الاستدلال بآيات كثيرة أولها خلق الأزواج وجعل المــودة بينــهما وناط ذلك بـــ " العالمين " ، ثم ذكر المنام بالليل والنهار وابتغاء الفضل ، وناط ذلك بـــ " لقوم يسمعون " ، ثم رؤية البرق وإنزال الماء من السماء وإحياء الأرض به وناط ذلك بـــ " لقوم يعقلون " قال في ذلك الخطيب الإسكافي : (أما اختصاص الأولى بقوله " يتفكرون " فإن الاختصاص بما ذكر قبله يؤدي الفكر فيه إلى معناه ، فإذا فكر الإنسان في خلقها ـــ أي الزوجة ـــ ونعمة الله على الرجال بها سوى أنهن أوعية الأولاد الذين إذا بروا فمن أكبر نعم الله على العباد فالفكر في ذلك ، وفي المعاني التي لها خلقن يؤدي إلى العلم بقادر عليم ، فحثنا بالتفكر على العلم بهذا كله . وأما قوله : " إن في ذلك لآيات للعالمين " فلأنه جاء بعد قوله : " وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ " . فهـــذه آيات يشترك في معرفتها الناس كلهم وإن استمرت الغفلة بهم ، فلـــذلك قـــال : " إن في ذلك لآيات للعالمين " أي : لجماعات الناس وكل جماعة منهم عالم)(2). وقال الكرماني : (ومن قرأ« للعالمين » بكسر اللام فقد أحسن ، لأن بالعلم يمكن الوصول إلى معرفـــة مـــا سبق ذكره)(3). وذكر الغرناطي قوله : (فلما كان هذا الضرب من الاعتبار يحصل بأوله المقصود لكل أحد قال تعالى " إن في ذلك لآيات للعالمين ")(4).

1- الروم :24
2- درة التنزيل وغرة التأويل : 254
3- أسرار التكرار : 202
4- ملاك التأويل : 2/ 935

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأما قوله : " وَمِنْ آَيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ.." أي لتسكنوا في الليل ، ولتبتغوا من فضله بالنهار كل من سمع هذا علم أن النوم عجيبة من فعل الله تعالى لا يقدر الإنسان اجتلابه إذا امتنع ولا على دفاعه إذا ورد ثم إنه بالنهار لا بد له من تصرف لمعاش وطلب قوت وطعام به قوام الأجساد ، فلذلك قال : " يسمعون " وقيل معنى قوله " يسمعون " يستجيبون لما تدعوهم إليه الآيات ويصرفون أفكارهم إليها وقال الغرناطي : (ولما كان أمر الليل والنهار منصوصاً عليه رحمة الخلائق بها في عدة آيات تحصل من مجموعها وفاء الاعتبار بهما وما فيهما ، ومستند ذلك المحرك للاعتبار به السماع والأخبار الواردة به أعقب بقوله : " لآيات لقوم يسمعون ") [1] .

وقال في الثالثة " لآيات لقوم يعقلون " فقد فضل الآيات التي أقامها في السماء والأرض وناط بها أصناف الخلق ومنهم الذين " يتفكرون " ثم " للعالمين " ثم " يسمعون " وبعد كل ذلك ذكر الذين " يعقلون " فهو إذن علم على وصف أي تقدمه ما يوصل للعقل ، وقال الكرماني : (لأن العقل ملاك أمر في هذه الأبواب ، وهو المؤدي إلى العلم ، فختم بذكره)[2] .

وذكر الغرناطي أن إرادته سبحانه البرق خوفاً وطمعاً ، وإنزال الماء من السماء وإحياء الأرض بعد موتها ، فلا تحصل ثمرة الاعتبار به إلا لمن أطال الاعتبار وأمعن النظر وبالغ في ذلك ، ولما كان حصول الثمرة المطلوبة هنا يتوقف على ما ذكر أعقب بقوله : " لقوم يعقلون " [3].

ويظهر لي من خلال ما تقدم في السياق أنه ذكر أدوات الإدراك والعقل ثم ختم كما قال الكرماني بملاك ذلك كله فالتفكر والسماع إنما هما أدوات تؤدي إلى عقل الشيء وإدراكه ، وأما قوله للعالمين فهي للعموم يدلنا على ذلك عموم اللفظ و لم يقيده بقوله " لقوم " بل أطلقه " للعالمين " و " للعالمين " الذين يعلمون هذا الاختلاف .

1- ملاك التأويل : 2/ 935

2 – أسرار التكرار: 203

3- ملاك التأويل : 936/2.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فنلاحظ مما سبق ترشيح السياق للفظة " العقل " كما إن الاستدلال على البعث ظاهر في السياق حيث تقدم الدليل " الله يبدؤ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون " فالعاقل يقيس على البدء الإعادة كما يستدل بما ذكر من الآيات المختلفة على قدرة الله فالبعث أهون عليه مما سبق ، والقرآن أيضا مرشح للعقل مؤكد لقرارها في نظمها . حيث بدأ "ومن آياته " وقد تكرر في نظم الآيات الجار والمجرور " ومن آياته " وفيه دلالة التبعيض فإن كان هذا البعض فالعاقل يدرك أن قدرة الله لا تحد بحد فهو إذن قادر سبحانه على كل شيء ومن ذلك البعث وقوله " يريكم " وكما سبق الرؤية إدراك للمرئي . والإدراك للمرئي يقتضي علم به وإدراك ولا يكون ذلك إلا من ذي عقل وذكر الفعل المضارع " يريكم " ولم يجعلها مصدراً أو ماضياً وذلك لتجديد الصورة أمام الناظرين باستمرار وهذا أدعى لإدراك القدرة وملائم أن تكون الفاصلة العقل لا اللب وتعريف البرق دلالة أنه معروف لديهم والحكمة منه ظاهرة لمن كان من سجيته العقل فهو " خوفاً وطمعاً " وتضاد ذلك دليل على عظم القدرة التي يدركها العقل بقليل من التفكر ثم في قوله " وينزل من السماء ماء فيحي به الأرض بعد موتها " ذكر إنزال المطر ودوره في إحياء البلد الميت وهذا أيضاً مدرك بالعقل وبالتالي العقل السليم يقيس عليه القدرة على الإحياء ، وقيل : لما كان ما ذكر تمثيلاً لإحياء الناس وإخراج الموتى وكان التمثيل لإدناء المتوهم للعقول وإرادة المتخيل في صورة المحقق ناسب أن تكون الفاصلة " لقوم يعقلون " [1]. ونيط الانتفاع بهذه الآيات بأصحاب صفة العقل لأن العقل المستقيم غير المشوب بعاهة العناد والمكابرة كاف في فهم ما في تلك المذكورات من الدلائل والحكم على نحو ما قرر في نظائره أنفاً [2] .

كما إن التوكيد " إن " دلالة على ظهورها لهم ولكن حدد القرآن بقوله " لقوم يعقلون " أن يكون من سجيتهم العقل ومن مقومات قوميتهم .

وأكد السياق البعدي أيضاً قرار اللفظة ــ العقل ــ حيث أكد على ظهور هذا الاستدلال مرة أخرى بأن الذي يبدأ الخلق يستطيع إعادته وزاد بقوله " وهو أهون عليه "

1- روح المعاني : 34/8 , 35

2- التحرير والتنوير : 39/21

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي هذا تحريك للعقل لكي يقيس ويتوصل إلى الحق من خلال قياس العقل السليم فيظهر بالتالي أن البدء أصعب من الإعادة فلماذا ينكرونها وهم يشهدون بأن الله هو الخالق ؟ ، ثم عمد القرآن إلى ضرب المثل لهم للإقرار بوحدانية الله والإقرار بوحدانية الله ملازم للإقرار بالقدرة على البعث ، وضرب الأمثال تقريب للمعاني وبالتالي تلائم العقل لأنها تكون ظاهرة مدركة له ولذلك أيضاً ختم الآية التي ضرب فيها المثل بقوله " كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون " فلا يمكن أن يتساوى في الحقوق والملكية المالك والمملوك فله المثل الأعلى حيث ذكر القرآن سبب ضلالهم هو الهوى وإتباع الهوى مخالفة صريحة لمقتضى العقل ، ثم ركز القرآن على إثبات قضية البعث وهذا التركيز يلائم العقل لأن في ذلك إيضاح للمعاني فكرر تعالى ذلك بقوله: " فانظر إلى آثار رحمت الله كيف يحي الأرض بعد موتها " وتوجيه النظر لذلك بعد أن قال« يريكم » كأنه يؤكد أن الأمر مدرك حسياً ومعنوياً فهو منظور مرئي بالعين ومرئي ببصيرة العقل . وأورد تعالى التأكيد " إن ذلك لمحي الموتى وهو على كل شيء قدير " بإعادة المؤكدات ، والتأكيد على قدرة الخالق على كل شيء ولا يفوت ذلك إلا من كان بمترلة الموتى والصم والعمي . وفي ذلك انعدام نفع وسائل الإدراك وعدم استغلالهم لموارد إدراكهم في الاهتداء للحق لذا ختم تعالى بقوله " كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون " فالدلائل والحقائق ظاهرة للعقل بينة لمن استعمل ما أمده الله به من أدوات الإدراك ولا يغفل عن ذلك إلا من طبع على قلبه .

أما في موضع الزمر فوردت لفظة الألباب . في الاستدلال على وحدانية الله في قوله تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ**﴾ (1).

وبالنظر إلى السياق العام لسورة الزمر أو عمود السورة نجد أن عمودها الإخلاص ، وكل ما ورد في السورة كان عن أكمل الأشياء فتكلمت عن الإخلاص وأكمل منازل العبادة الإخلاص ، ثم إنها تحدثت عن القانتين والمتقين وعن الذين يعلمون ،

1- الزمر :21

وعمن أناب واستمع القول فاتبع أحسنه وزاده الله عوناً بعد هــدايته وكل ذلك كمــال في الصفات يلائمه كمال العقل الذي صار بكماله لباً فكان الملائم أن يكون الاســتدلال موجهاً لهم ، كما أن الآيات في السياق القبلي ركزت على أولي الألباب " إنما يتذكر أولو الألباب " ، وأولئك هم أولو الألباب فحين ورد الاستدلال على وحدانية الله وبيان حقيقة حال الدنيا كان الخطاب موجهاً لأولي الألباب فهم دون غيرهم من يستنبط هذه الدلالــة ويدرك هذه الحقيقة قال صاحب التحرير و التنوير تتضمن الآية إدمــاج تقريــر البعــث وإمكانه مع الاستدلال على انفراد الله تعالى بالتصرف[1]وفهم هذا الدمج مسنود إدراكــه بأولي الألباب .

وقد تقدم في السياق وصف الآخرة بصفات توجب الرغبة العظيمة لأولي الألباب فيها ووصف الدنيا بصفة توجب اشتداد النفرة عنها ، يعني أن من شــاهد هذه الأحوال في الثبات علم أن أحوال الحيوان والإنسان كذلك وأنه وإن طال عمره فلا بد من الانتهاء إلى أن يصير منحطم الأعضاء والأجزاء [2] ويرى صاحب التفسير الكبير أنه قدم الترغيب في الآخرة على التنفير من الدنيا لأن الترغيب في الآخرة مقصود بالذات ، والتنفير مــــن الدنيا مقصود بالغرض ، والمقصود بالذات مقدم على المقصود بالعرض [3]. و يظهر لي من خلال السياق و كون المخاطب هو أكمل الناس في العبادة أن سبب تقــديم الآخــرة لأن المخاطبين هم أهل الآخرة ــ أولي الألباب ــ فقدم ما هو أليق بهم وهذا التقديم يلائم أن تكون الفاصلة أولي الألباب، لذا أخر التنفير عن الدنيا لأنهم لا يعملون لها فبعد ذكر ثوابهم أكد لهم كمال عقولهم بأن قدم الدائم الثابت من النعيم و أخر عنهم الزائل .. والله أعلم.

و في نظم الآية ما يؤكد قرار الفاصلة " الألباب " في نظمها حيث بــدأ القــرآن بالاستفهام بالهمزة و الذي فيه اشتراك المخاطب في تقرير الأمر و لا يقر المخاطب بــذلك إلا إذا كان من أولي الألباب. كما أن في قوله " وتر " سواء كان المخاطب-ﷺ- أو أن الخطاب عام لكل مؤمن فيه رقي بفهم من يخاطب فالرؤية علم بالمرئي و إحاطة به و هذه

1- التحرير :61/24 2- التفسير الكبير : 9/ 440 3- السابق : 440/9

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الإحاطة في القرآن ليست الإحاطة بظاهر الأمر بل بما خفي في ثناياه من بيان حقيقة الدنيا و هذا لا يدركه إلا أولي الألباب لذا ذكر من الأمور الدقيقة في القدرة في خلق النبات ما لا يدركه إلا أولي الألباب ذكر د. النجار عند عرض هذه الآية قوله :(وهي سورة مصغرة لدورة الحياة و الموت التي يتعرض لها كل مخلوق و لذلك ختمت الآية الكريمة بقول الحق ـ تبارك و تعالى ـ "إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب" وهذه الحقائق لم تبدأ في التكشف للإنسان إلا على مراحل متطاولة في القرون الثلاثة المتأخرة و لم تتم بلورتها إلا في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي ، وورودها في كتاب الله بهذه الدقة العلمية أو الشمول والإحاطة، والكمال يثبت لكل ذي بصيرة أن القرآن كلام الله)(1) كما إن العطف هنا بـ ثم إشارة إلى تراخ يمكن أن يكون رتبي ويمكن أن يكون زمني وفي كل منهما ملاءمة لأولي الألباب فالتراخي الزمني في دلالته على تطاول الزمن في إخراج الزرع وتطاول الزمن في اخضراره وجماله إلا أن التذكرة ماثلة أمام أولي الألباب فلا يغترون بطول مكث جماله لعلمهم أن عاقبته زوال . والتراخي الرتبي فيه ملاءمة أيضاً لأولي الألباب فكلما ترقى الزرع في الخروج ثم في اكتمال الجمال ثم انتكاسه إلى الحطام في ذلك عبرة لهم فكل وصول إلى الكمال وترق له دليل على بدأ النقص بعد ذلك ولا يدرك ذلك إلا أولوا الألباب .

والذي يوضح لنا ملاءمة النظم" لأولي الألباب " أنه قال " لذكرى " و لم يقل " آية " فهي ليست فقط علامة ظاهرة لهم فقط بل هي عامل تذكرة ماثلة أمامهم دائماً عن حقيقة الدنيا ـ في حين غابت عن غيرهم كثير ـ لذا أوردها بالاسم الدال على الثبوت ـ المصدر ـ وعدا بحرف الجر " في " فكأنها أصبحت وعاءً وظرفاً " للذكرى " فالنبات وحياته ظرفاً للتذكرة لهؤلاء الذين كمل الله لهم عقولهم.

وفي السياق البعدي ما يؤكد قرار اللفظة في مكانها حيث قارن بين أولي الألباب ومن خالفهم فأولو الألباب من شرح الله صدورهم للإسلام ووسعها للدين وفي ذلك دلالة كمال يلائم كمال عقولهم كما أن كونهم على نور من ربهم دليل اكتمال المعرفة

1- من آيات الأعجاز العلمي النبات في القرآن الكريم : د. زغلول النجار ، القاهرة ، مكتبة الشروق الدولية ، ط1 ، 1426ـ 2005 م : 105/5

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والعقل ، ولاكتمال إيمانهم المقتضي كمال ألبابهم يقشعر الظاهر منهم والباطن لـذكر الله ويشتاقون للذكر وتلين قلوبهم ليس منه فقط بل أيضاً إليه ذكر الله شوقاً. وفي المقابل ذكر شدة قسوة قلوب من كفروا فهم قاسية قلوبهم ، مشمئزة من ذكر الله - والعياذ بالله - فقابل كمال إيمان أولي الألباب بشدة عتو ونفور قلوب الكافرين فحين يقابلون من بلغ هذا المبلغ من الكفر فهو دليل على عمق إيمانهم لذا حين حاج الكفار في بطلان اتخاذهم من دون الله آلهة وشفعاء نفى عنهم وعما يعبدون العقل قال تعالى ﴿ **أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون** ﴾[1] وهذا ملائم للمقابلة بين حال الكمال في الإيمان الذي وصل أصحابه إلى خالص الفهم " الألباب " وبين من فقدوا بشدة كفرهم أقل الفهم وظاهره " العقل ".

وما تقدم نظم هذه الآية من السياق القبلي دليل على قرار العقل هنا حيث حاج هؤلاء بأمور ظاهرة هم أقروها فكيف يخالفون مقتضى العقل باتخاذ شفعاء من دون الله فقد أقروا بأن خالق السماوات والأرض هو الله " ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله " ثم قررهم هل يملك هؤلاء الشفعاء الضر أو النفع " قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته" ولم يجب على هذا السؤال لظهور الإجابة فالسؤال ليس هنا طلباً للمعرفة بل هو للتقرير بما هو معلوم وهذا مرشح " للعقل " فمن اتخذ شفيعاً بعد كل ما تقدم فقد عدم العقل ومن رضي بأن يتخذ من دون الله فهو فاقد للعقل أيضاً لذا حين تحدث القرآن عن هؤلاء الشفعاء وصفهم بـ " لا يملكون شيئاً ولا يعقلون " .

وحين نلاحظ نظم الآية ذاتها نجده يقرر استعمال العقل كما قرره السياق القبلي حيث إن القصد فيه التأكيد على توبيخ هؤلاء الكفار والإنكار عليهم حيث إن فعلهم ظاهر الخطأ لذا بدأ القرآن " أم اتخذوا " وأم هنا مقطوعة عما قبلها ، وهي مقدرة بالألف وبل وهذا تقرير وتوبيخ [2] والاستفهام الذي تشعر به " أم " في جميع مواقعها هو هنا للإنكار بمعنى أن تأويلهم وعذرهم منكر [3]. حيث دل على ذلك ما سبق من الآيات

1- الزمر : 43

2- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : 455/6 3 - التحرير والتنوير : 102/24

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نحو أن يقال توعداً لهم هل علموا أنه لا يقوم شـــيء مقامـــه ،ولا يكـــون شـــيء إلا بإذنه ، ولا يقرب أحد من القدرة على شيء من فعله فكيف بالقرب من رتبته فضلاً عن مماثلته ، لذا عادله بقوله " أم اتخذوا" أي كلفوا أنفسهم بعد وضوح الدلالة أن أخـــذوا " من دون الله شفعاء " (1) وما هذا التكلف في اتخاذ الشفعاء من دون الله بعـــد وضـــوح الدلالة إلا لفقدان العقل . كما إن في الاستفهام بالهمزة دلالة أخرى على قرار اللفظـــة في مكانها حيث إن الإنكار بالهمزة " أولو كانوا.. " له ميزة أخرى وهي إشراك الـــسامع في التفكير في الحقائق المعروضة فلا يفرض عليه الحكم فرضاً وإنما فيه تنبيه للسامع بأن يراجع نفسه قال عبد القاهر الجرجاني : (واعلم أنا وإن كنا نفسر الاستفهام في مثل هذا الإنكار ، فإن الذي هو محض المعنى أنه لتنبيه السامع حتى يرجع إلى نفسه ، فيخجل ، ويرتـــدع ويعي بالجواب) (2) وفي هذا الإشراك للسامع دلالة على أن الأمر ظاهر وهذا الظهور من مدركات العقل كما إن في قوله " أولو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون " الهمزة داخلة على محـــــذوف والواو للحال والجملة حال من فاعل الفعل المحذوف ، وذهب بعضهم إلى أنها للعطف على شرطية قد حذفت للدلالة " لو كانوا لا يملكون " عليها أي أيشفعون لو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون ، والمعنى على الحالية أيضاً كأنه قيل : أيشفعون على كل حال . ويظهر لي دخول الهمزة على الواو أدل على عجزهم عن الشفاعة سواءً كان التقدير على أنها للعطف على شرطية محذوفة، أو على أن هذا حالهم الدائم لهم. ويظهر لي أن دلالة الحالية أقوى فعدم إمكانية شفاعتهم حالهم المتمكن فيهم لا يتعلق باشتراط شيء وهذا أدل على عجزهم وقوله " لا يملكون شيئاً " في سياق النفي للعموم فكأنه دلل أولاً عدم ملكيتهم لأي شيء معنوياً كان أو حسياً ثم أكد على عدم ملكيتهم للعقل بإعـــادة النفي (ولا)والتنصيص على انعدام العقل " لا يعقلون " وهذا ظاهر فإن الشفعاء إمـــا أصناماً جماداً لا يعقلون أو صالحين قد ماتوا فلا عقل لديهم ، فالكلام تهكـــم إذ كيـــف يشفع من لا يعقل فإنه لعدم عقله لا يتصور خطورة معنى الشفاعة عنده فـــضلاً عـــن أن تتوجه إرادته إلى الاستشفاع فاتخاذهم شفعاء من الحماقة وفي ورود (العقل) قصد إلى بيان مـــدى سفول حالهم حيث لم يختر ما هو أدخل من الـــعقل لأن انعدام العقـــل ظـــاهر

1- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : 455/6   2- دلائل الإعجاز : 120/119

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فيهم ، ومؤكد على عدم أهليتهم للشفاعة فإذا فقدوا أظهر شيء في الفهم فكيف بأدخل من ذلك .

وفي السياق البعدي : تأكيد على حماقة من قبل الشفاعة لغير الله وهو وحده لـه ملك السماوات والأرض وإليه الرجوع " قل لله الشفاعة جميعاً لـه ملـك الـسموات والأرض ثم إليه ترجعون " والله أعلم .

ومن مواضع الاستدلال قوله تعالى﴿ **اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ** بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (1) والمخاطب هنا المؤمنون والاستدلال بقدرة الله على إحياء الأرض بعد موتها بقدرته على إحياء القلوب بالذكر .

ومن الملاحظ ورود لفظة " العقل " هنا في الاستدلال وذلك لأنه استدل بـشيء ظاهر يعلمه المؤمنون على ما هو أعمق منه ، ولكن قدرة الله جل وعلا تجعل هذا العمـق ممكن لذا آثر العقل لظهور التمثيل،كما إن المؤمل من المؤمنين أن يدركوا ذلك بعقولهم .

قال صاحب الكشاف : (هذا تمثيل لأثر الذكر في القلوب ، وأنه يحييها كما **يحي** الغيث الأرض فالآية مخاطبة لهؤلاء المؤمنين الذين ندبوا إلى الخشوع ، وهذا ضرب مثـل واستدعاء إلى الخير برفق وتقريب بليغ أي لا يبعد عـنكم أيهـا التـاركون للخـشوع رجوعكم إليه وتلبسكم به " فإن الله يحي الأرض بعد موتها)(2) وكذلك يفعل بـالقلوب وقصد التقريب يلائم أن تكون الفاصلة برجاء العقل " لعلكم تعقلون " .

وفي السياق القبلي ما يؤيد قرار لفظة العقل في نظمها حيث إن الآية السابقة فيها خطاب مباشر للمؤمنين وعتاب لهم وفيه حض على الخشوع والعودة إلى الله ، وفي ثناياه تحذير صريح من حال من كان قبلهم بأن قلوبهم قست لأنه طال عليهم " فقست قلوبهم " وفسقوا عن الحق . وهذا واقع ظاهر معروف وخاصة لدى المؤمنين لذا لاءم النظم رجاء عقولهم بعد بيان حال من سبقهم وهذا لا يخفاهم .

1- الحديد : 17

2- الكشاف : 49/6

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ونظم الآية ذاتها يؤكد على قرار اللفظة في مكانها فافتتاح الكلام بـــ " اعلموا " هنا يشير إلى أن الكلام الذي بعده له مغزى عظيم غير ظاهر ، وذلك أنه أريد به تمثيـــل حال احتياج القلوب المؤمنة إلى ذكر الله بحال الأرض الميتة في الحاجة إلى المطر ، وحـــال الذكر في تزكية النفوس واستنارتها بحال الغيث في إحياء الأرض الجدبة ، ودال على ذلك قوله بعده : " قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون " وإلا فإن إحياء الله الأرض بعد موتها بما يصيبها من المطر لاخفاء فيه فلا يقتضي أن يفتتح الإخبار عنه بمثل " اعلموا " إلا لأن فيه دلالة غير مألوفة وهي دلالة التمثيل (1) فقول " اعلموا " فيه تنبيه وشد يقتـــضي إدراك العقول لما سيرد ، كما أن في التمثيل بما هو قريب للاستدلال به على ما هو أبعد من ذلك ملائم للعقل وإدراكه . كما أن في تقدم " قد " للتحقيق تأكيد على ظهور الأمر وهـــذا ملائم للعقل وقوله " بينا " والبيان وضوح بعد إبهام كما أنه أورده بالمضي دلالة علـــى تحقق وقوعه وإضافه إلى (نا) الدلة على عظمة الفعل وكل ذلك يؤكد ظهوره الملائـــم لرجاء العقل بعد ذلك وقدم " لكم " الجار والمجرور وهذا دليل لاختصاصهم بهذا البيـــان وكونه لفائدتهم ولهذا لا بد أن يكون الأمر ظاهرا له بل متيقناً . كما في جميـــع الآيـــات وتعريفها بأل دليل على استغراق الآيات وهذا الاستغراق يستلزم وضوحها لهم ؛ لذا قال " لعلكم تعقلون " أي بينا لكم لأن حالكم كحال من يرجى فهمه ، والبيان علة لفهمه .

1- التحرير والتنوير : 350/5

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثالثا : **المواضع التي استدل فيها على وحدانية الله وقدرته على البعث بالإعجاز في خلق الإنسان** :

1ـ قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ النحل : 78

2ـ ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴾ المؤمنون :78

3ـ ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴾ السجدة : 9

4ـ ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴾ الملك : 23

5ـ ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ غافر : 67

6ـ ﴿ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ يس : 68

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن مواضع الاستدلال سواء على الوحدانية ، أو على القدرة على البعث قولـه تعالى ﴿ **وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ " (1).

وقوله﴿" **قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ**﴾ (2)

وقوله ﴿**ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ**﴾ (3).

وقوله ﴿**قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ**﴾ (4).

وقد ورد في هذه المواضع الفؤاد دون غيره من الألفاظ فكل هذه الآيات يجمعها أن مراحل النشأة وأطوار تكوين المعرفة لدى الإنسان يحتاج إلى تعدد وتغير ونمو وارتقاء . وهذا يلائم لفظ الفؤاد ، لأن الفؤاد فيه معنى التغير والتحرك والتبدل ، بخلاف القلب الدال على الثبات ، وهذا يغاير وينافي النمو والارتقاء والتغير والتبدل في النشأة ، وهذا أصل يجمع كل الآيات الموجودة فيها إلا أن بين هذه الآيات اختلاف في طريقة النظم تبعا لاختلاف السياق الدقيق لكل موضع ، كما فيها اتفاق أيضا ولنعرض لمواضع الاتفاق في النظم ثم نعرض للاختلاف في كل موضع ومن الاتفاق ما يلي :

أولاً : تقديم السمع والأبصار على الأفئدة .

ثانياً : تقديم السمع على الأبصار .

ثالثاً : إفراد السمع وجمع الأبصار والأفئدة ، والإتيان به مصدرا و الأبصار والأفئدة أسماء.

رابعاً : تعريفها جميعا .

1- النحل : 78

2- المؤمنون :78

3- السجدة : 9

4-الملك : 23

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أما تقديم السمع والبصر فهذا مرشح للفؤاد وقد قيل فيه أن تقديم السمع والبـــصر علـــى الفؤاد لتقدم الظاهر على الباطن ، أو لأن لهما مدخلا في إدراكه في الجملة **بل هما مـــن** خدمه والخدم تتقدم بين يدي السادة [1] . وأوافق أبا حيان في رأيه الثاني حيث إن السمع والبصر مقدمات للإدراك وأدوات له لكي يحدث بالفؤاد فقدم الأدوات ثم ذكر محل هـــذا الإدراك.

أما تقديم السمع على البصر فذكر صاحب الإرشاد : إن تقديم السمع على البصر لما أنـــه طريق تلقي الوحي ، أو لأن إدراكه أقدم من إدراك البصر [2] . وذكر ابن القيم أن تقديمه لشرفه واحتج من قال ذلك بأن العلوم الحاصلة من السمع أضعاف العلوم الحاصلة من البصر ، وأن فقد السمع تلم القلب واللسان ، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : (وفصل الخطاب أن إدراك السمع أعم وأشمل ، وإدراك البصر أتم وأكمل فهذا له التمام والكمال وذلك له العموم والشمول ، فقد ترجح كل منهما على الآخر بما اختص به) أ_هـــ [3].

وقد ذكر عبد الغني الراجحي خلاصة في ذلك قال فيها : " والقاعدة التي انتهينا إليها بعد طول النظر والبحث أنه بالنسبة للخلق والعباد وفي مقام ذكـــر حواســـهم والاســـتفادة بها ، وفيما يوحي إليهم من الرسالات أو عدم الانتفاع بها في هذه المجالات يتقدم الـــسمع على البصر ، لأن الوليد يكتمل تميزه بسمعه قبل بصره ، ولأن المسموعات من جميـــع الجهات والمرئيات من جهة واحدة . ولأن الانتفاع بالسمع في مقام الهدايات والنبـــوات أكثر ـــ هذا بالنسبة للعبادـــ لا يكاد يتخلف فيأتي البـــصر قبـــل الـــسمع إلا لملحـــظ بلاغي "[4].

1- البحر المحيط : 439/7

2- تفسير أبي السعود : 83/4

3- البدائع في علوم القرآن: 234

4- خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية منقول عن المنهج الحديث في تفسير أحسن الحديث : للراجحي83 – 84 / د . عبـــد العظيم المطعني ، القاهرة ، مــــــكتبه وهبة ، ط 1 ، 1413 هـــ -1992م: 2/ 111

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأرجح في سياق هذه الآيات أن السبب في تقديم السمع ما ذكره صاحب الإرشاد أن إدراكه أقدم من إدراك البصر ، والذي عبر عنه د.الراجحي بقوله أن الوليد يكتمل تميزه بسمعه قبل بصره ، وذلك لأن الآيات تتكلم عن الإنشاء وعن أدوات المعرفة وبداية نشأتها فتقدم السمع ثم يأتي دور البصر وبعد ذلك تصل العلوم إلى الأفئدة ونلاحظ أن هذا الترتيب ملائم للفؤاد حيث فيه تدرج في وصول المدركات إلى محل الإدراك ـــ الفؤاد ـــ .

وأما إفراد السمع وجمع الأبصار والأفئدة فقيل باعتبار كونه مصدرا في الأصل [1] والمصدر لا يجمع والأبصار والأفئدة أسماء ، وأتي بالسمع مصدرا لأنه محل القوة ، ولأن السمع له قوة واحدة وله فعل واحد ولهذا لا يسمع الإنسان في زمان واحد كلامين على وجه يضبطهما ويدرك في زمان واحد صورتين وأكثر ويستبينهما [2] . وقيل العلة في جمعها دون السمع لأن التفاوت فيهما أكثر من التفاوت فيه بما لا يعلمه إلا الله[3] . ويظهر لي أن إفراد السمع لاتفاق المسموع لأنه وإن كثر السامعون إلا أنه لا يمكن أن يتغير المسموع البتة فالكلام هو ذاته سمع لهم كلهم ، ولكن الأبصار وإن كانت وجهة النظر واحدة ، ولكن تختلف المرئيات من شخص لآخر ، وهذا يؤدي إلى اختلاف الإدراك ولذا جمع أيضا الأفئدة فمقدار الإدراك ووجهته تختلف من شخص لآخر ، لذا أفرد السمع وجمع الأبصار والأفئدة - والله أعلم - .

ونلاحظ أن القرآن في جميع الآيات أتى بتعريف السمع والأبصار والأفئدة(بأل التعريف) وأشار صاحب نظم الدرر في تناسب الآيات والسور إلى أنها لكمال الوصف حيث قال السمع الكامل لتسمعوا ما تعقل قلوبكم فتهديكم[4].

ويظهر لي أن المقصود هنا العهد، أي المعهودة لديكم بالاستفادة منها وهذا تذكير لهم بنعمه عليهم أما الكمال فهي لم تكتمل لأنها في طور النشأة - والله أعلم - .

1- تفسير أبي السعود : 83/4 .
2- التفسير لكبير: 142/9.
3- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 296/4 .
4 – السابق : 4/ 296.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذا ما اتفق فيه النظم وله اختلاف تبعاً للسياق الدقيق -كما سبق أن ذكـــرت- ومن هذه الاختلافات أولاً الفاصلة فنلاحظ أن الفاصلة في موضـــع النحـــل " لعلكـــم تشكرون " أما في بقية المواضع فالفاصلة " قليلاً ما تشكرون " والخطـــاب فيهـــا جميعـــاً للمشركين فلم اختلفت الفاصلة؟ .

حين نلاحظ السياق في جميع المواضع نجد أن موضع النحل في سياق فيه ذكـــر النعم . فالسياق في الإنعام وداعي الإنعام هنا الترغيب في الإيمان، فيذكرهم بالنعم ليرغبهم في الإيمان لذا لاءم أن تكون الفاصلة في رجاء شكرهم " لعلكم تشكرون " .

أما بقية المواضع في السجدة ، والمؤمنون ، والملك ، في مذمة الكافرين على كفرهم علـــى الرغم من كثرة النعم لذا ذكر في سورة المؤمنون في قصة نوح وهلاكهم علـــى كفـــرهم وهلاك الأمم السابقة " ثم أرسلنا رسلنا تترا كل ما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضاً وجعلناهم أحاديث فبعداً لقوم لا يؤمنون "

" فكذبوهما فكانوا من المهلكين ".. " بل أتبعناهم بالحق وإنهم لكاذبون " وذكر في سورة السجدة " ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم .. " فذوقوا بما نسيتم لقـــاء يومكم هذا .. " ، " وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار " ، " ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكـــبر لعلهم يرجعون " وفي الملك ﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب الـــسعير ..فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير﴾ ، ﴿ فلما رأوه زلفة سيئت وجـــو الـــذين كفروا وقيل هذا الذي كنتم به تدعون ﴾ ، قل أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم ﴾

فلاءم أن تكون الفاصلة في مذمتهم بقلة شكرهم وفي معنى القلة قولان قيـــل أن الشكر قليل ، وقيل أن القلة هنا العدم ـــ وهو أرجح عندي ـــ قال صاحب الإرشـــاد: (بالتأكيد القلة ، أي شكراً قليلاً أو زماناً قليلاً تشكرون ، وقيل عبارة عن العدم)[1] .

1- تفسير أبي السعود : 281/6

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال صاحب نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : (القلة على ظاهرها بناءً على أن الخطاب للناس بتغليب المؤمنين له)[1] وجوز أن تكون بمعنى النفي بناءً على أن الخطاب للمشركين على سبيل الالتفات [2].

وقال صاحب التحرير : على الوجهين يحصل التوبيخ لأن النعم المستحقة للشكر وافرة دائمة فالتقصير في شكرها وعدم الشكر سواء [3]. قال أبو مسلم وليس المراد أن لهم شكراً وإن قل ، لكنه كما يقال للكفور الجاحد للنعمة ما أقل شكر فلان[4] وأرجح أن تكون القلة للعدم لأنه أدل على المذمة وإلا فشكر الناس كلهم قليل وأدلل بقوله تعالى في شأن إبراهيم - عليه السلام -" شاكرا لأنعمه " باستعمال جمع القلة مع سيدنا إبراهيم لأن النعم لا تحصى فلو شكر القليل لأدى الشكر . ولكن لم أتى بكلمة " قليلاً " و لم يأت بالنفي ابتداءً ذلك لأن الكافرين حدث منهم شكر على طريقتهم وعقيدتهم ، وعلى فكرهم الباطل وهو كالعدم لأنه على منهج فاسد فلا اعتداد به ، وحينما أورد " قليلاً " مع إرادة استغراق النفي أراد معنى أن التسليم بالواقع في حدوث شكر منهم ولكنه كلا وجود ، فصورته على وجود شكر قليل لكن الغرض المراد عدم الاعتداد به . لذلك يجعل القرآن الكريم الأمر الواقع على فساد كعدم الواقع . ونلاحظ أن في نظم موضع (المؤمنون) والملك تقدم الضمير على اسم الصلة الذي (هو الذي) والأظهر أن يكون ضمير الجلالة مسنداً واسم الموصول مسنداً إليه لأنهم علموا أن منشئاً أنشأهم السمع والأبصار ، وصاحب العلة هو الأولى بأن يعتبر مسند إليه وهم لما عبدوا غيره نزلوا منزلة من جهل أنه الذي أنشأهم السمع فأتى لهم بكلام مقيد لقصر القلب أو الإفراد . وهذه الطريقة في القرآن تؤيد استعمال الفؤاد واضطرابه حيث لو كان ثابتاً متمكناً لأدركوا ذلك ولما نزلوا منزلة الجاهل ، ولكن نظراً لاضطرابهم غفلوا عن ذلك وعدوا جاهلين.

1- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : 5/ 216

2- روح المعاني : 257/7

3-التحرير والتنوير : 152/21

4- التفسير الكبير : 289/8

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وحين نلاحظ السياق البعدي نجد أنه ذكر كثيراً من العلوم الموجودة في كل موضع وهي أشياء ترقى بالإنسان وهي معارف تتغير وتترقى لتلائم تغير الفؤاد وتوصله إلى الثبات .

فسياق النحل الإرشاد إلى الانتباه إلى قدرة الله تعالى في إمساك الطير في السماء ، وفضله في تسخير الأنعام للاستفادة منها ومن جلودها وأصوافها وأوبارها وأشعارها وجعلها أثاثاً ومتاعاً وإرشادهم أن من الجبال أكناناً، وإرشادهم إلى اتخاذ السرابيل للبرد والحر ، هذا بالنسبة لمعيشتهم البدنية ، كما أرشدهم لما يرقى بهم معنوياً من الأمر بعدم كفران النعم ، والأمر بالعدل والإحسان ، والوفاء بالعهد ، وعدم نقض الأيمان واليقين بأن ما عند الله خير وأن ما عنده باقٍ وما عند غيره ينفد كل هذه العلوم تلائم ورود الفؤاد قبلها وذلك لأن فيها إرشاد إلى ما يكمل علمه ويرقى به ويبدل حاله إلى الأفضل .

وكذلك في سورة (المؤمنون) أكد على أشياء بإرادكها يتحصل الإيمان بقدرة الله على البعث والتوحيد فنبه على ملكية الله للأرض ، وكونه ــ سبحانه ــ رب السماوات ورب العرش ، وبيده ملكوت كل شيء ، كما أكد وحدانية الله بالدليل والبرهان الذي يرقى بأفئدهم إلى اليقين ، كما علمهم كيفية التعامل " ادفع بالتي هي أحسن السيئة " والتعوذ من الشيطان " وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين " وتعليمهم الفرق بين من ثقل ميزانه من المؤمنين ، وبين من خفت موازينه وهذا إرشاد لهم إلى الطريق الحق .

وفي سورة السجدة : ذكر لهم الإيمان والكفر وعدم الاستواء بينهما ، وتحدث عن قيام الليل وأثره وذكرهم بقدرة الله في إحياء الأرض استدلالاً به على البعث ، وكل هذه الأشياء ترقى بالإنسان وكذلك في سورة الملك : أكد على قدرته على خلقهم فهو قادر على إعادهم وذكرهم بنعمه بأن جعل لهم الأرض ذلولاً أو هذا تعليم لهم لأن يشكروا نعم الله ، وبيان قدرة الله على إهلاكهم وقدرته في إمساك الطير ، ونصرة جنده ، كما ذكرهم بمنته العظمى وهو إخراج الماء وجعله صافياً للناس لشربه وكل ذلك يرقى بالإنسان لمعرفة ربه - سبحانه وتعالى- .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن مواضع الاستدلال قوله تعالى ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾ [1] .

والاستدلال فيها على وحدانية الله وبالتالي قدرته على البعث ــ سبحانه وتعالى ــ وقد وردت لفظة " العقل " وسبقها بلعل وهذا دليل على أن ما تقدمها أمور معللة ظاهرة للعقل ، ونجد أن للنظم في السياق القبلي نهجا بديعا في إظهار الحجة وبالتالي الترجيح بهذا الظهور لاستعمال العقل وذلك أنه استدل على القدرة على بعث الإنسان وخلقه بقدرته على خلق السماوات والأرض ، وهذا شيء ظاهر فكيف لا يؤمنون بوحدانية الله ، فحجوا بخلق السماء والأرض لأنهم كانوا مقرين بأن الله خالقها وبأنها خلق عظيم لا يقادر قدره ، وخلق الناس بالقياس إليه شيء قليل مهين ، فمن قدر على خلقها مع عظمها كان على خلق الإنسان مع مهانته أقدر . وهو أبلغ من الاستشهاد بخلق مثله .

كما سبق في السياق القبلي ذكر السبب في عدم الإيمان وهو " كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون " والجحود نكران مع العلم بالشيء وهذه دلالة على فقدان العقل كما أن القرآن الحكيم عمد إلى تقريرهم بالألوهية من خلال إقرارهم هم بالربوبية فنلاحظ أن القرآن كرر كلمة" رب " ، " ذلكم الله ربكم " ، " فتبارك الله رب العالمين " ، " الحمد لله رب العالمين " وهم كانوا يؤمنون بالربوبية ومقتضى الإيمان بربوبيته أن يؤمنوا بألوهيته ولا يخالف ذلك إلا من لا عقل له فأكد لهم ألوهيته بما يقرون به هو من ربوبيته وهي مستلزمات ألوهيته ووحدانيته – سبحانه-.

لذا وردت الآية بالقصر " هو الذي خلقكم " فتقديم الضمير هنا مراد به القصر ، وقد أنزلو بهذا القصر منزلة المنكر بالرغم أنهم لا ينكرون أنه خلقهم ، ولكن لذلك وجه بليغ حيث إن فيه إيماء إلى أنهم لم يستدلوا بالربوبية على الألوهية فكأنهم جهلوا مقتضيات الربوبية لذا ختم بـ " لعلكم تعقلون " فالعقل يقتضي التوحيد بعد الإيمان بالربوبية لأن هذه الأمور مقطوع بها عند من يعلمها ، وكان التوصل بالتفكر فيها والتدبر إلى معرفة أن الإله واحد في موضع الرجاء " لعلكم تعقلون " أي فتعلموا بالمفاوتة بين الناس فيها براهين

1- غافر :67

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المشاهدة ، وعطف " لعلكم تعقلون " على " لتبلغوا أجلاً مسمى " لأن من جملة ما أراده الله من خلق الإنسان على الحالة المبنية ، أن تكون في تلك الخلقة دلالة على وجود خالق لهذا الخلق البديع ، وعلى انفراده بالألوهية ، وعلى أن ما عداه لا يستحق صفة الإلوهية ، فمن عقل ذلك من الناس فقد اهتدى إلى ما أريد منه ومن لم يفعل ذلك فهو بمنزلة عديم العقل[1] . ولأجل هذه النكتة لم يؤت لفعل " تعقلون " بمفعول ولا بمجرور لأنه نزل منزلة اللازم أي رجاء أن يكون لكم عقول فهو مراد الله من ذلك الخلق فمن حكمته أن جعل ذلك الخلق علة لأمور كثيرة [2] . أو لعل ذلك لإرادة عموم إعمال العقل في جميع الأمور .

ونلاحظ أن الآية بالرغم أنه في مخاطبة المشركين لكنها لم ترد موبخة لهم بل وردت بصيغة الرجاء لعلهم " لعلكم تعقلون " وذلك لأن السياق في حثهم على الإيمان " فادعوه مخلصين له الدين " ،" قل إني نهيت أن اعبد الذين تدعون من دون الله " . وفي الإخبار بهذا النهي حض لهم على اتباع الحق وبيان الخطأ في الاعتقاد بدعاء غير الله .

كما ورد العقل في قوله تعالى ﴿ **وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يعقلون** ﴾[3] في الاستدلال على قدرة الله على البعث ، وعلى صدق رسالة الرسول -ﷺ- .

وفي نظم الآية خطاب للمشركين الذين خالفوا مقتضى العقل في فعالهم فأتت الفاصلة " أفلا تعقلون " وقال الزركشي : هذه الفاصلة لا تقع إلا في سياق إنكار فعل غير مناسب في العقل وحين نلاحظ القرآن القبلي لهذه الآية : نجد أنه أنكر عليهم مخالفتهم لمقتضى العقل بطاعتهم للشيطان وهو عدوهم ، فمن يعقل ذلك فهو جدير بأن يكون موصوفاً بالعقل [4] .

1- التحرير والتنوير : 241/24
2- السابق : 241/24
3 - يس :68.
4 - البرهان في علوم القرآن :84/1

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد فهمت هذه الآية على قولين أولهما : التعمير ، والمقصود به التقدم في الـــسن والانتقال من الشباب إلي الهرم وقال صاحب الكشاف : إن سبب إنكار عدم عقلهم بأهم لم يدركوا أن فاعل ذلك قادر على أن يطمس أعينهم ويمسخهم على مكانتهم [1] وقال صاحب التفسير الكبير : إنه قطع عذرهم . وهو أن الكفار يقولون لم يكثر لبثنا في الدنيا إلا يسيرا ولو عمرتنا لما وجدت منا تقصيراً ، فقال الله " أفلا تعقلون " أنكم كلما دخلتم في السن ضعفتم [2] .

ثانيهما : أن التعمير البقاء وعدم الهلاك فيمن أهلك وتكون الجملة معطوفة علـــى جملـــة شرطية امتناعية " ولو نشاء لطمسنا على أعينهم " وهي شرط تعليقي إن لم نطمس علـــى أعينهم نعمرهم أي نبقيهم ونذلهم في الخلائق و " أفلا تعقلون " فرع على الجملة الشرطية الثلاث استئنافاً إنكارياً لعدم تأملهم في عظيم قدرة الله الدالة على أنه لو شاء لطمس على أعينهم ، وأنه إن لم يفعل ذلك فإهم لا يسلمون من نصرة المسلمين عليهم . لأهـــم لـــو قاسوا مقدورات الله تعالى المشاهدة لهم لعلموا أن قدرته على مسخهم فما دونه من إنزال مكروه هم أيسر من قدرته على إيجاد المخلوقات العظيمة [3] . والثاني عندي أرجـــح لأن ارتباطه بالسياق أوضح وإن كان كلا القولين مرشح لاستعمال العقل حيث إنـــه ظـــاهر فيهما أن فاعلهما مخالف لمقتضى العقل . لذا وردت بالاستفهام الإنكاري بـــالهمزة الـــتي تشركهم في التقرير بخطئهم وإيراد العقل مضارعاً دال على عدم تجدد العقل لهم مع ظهور العبر لهم .

---

1 – الكشاف عن حقائق غوامض التتريل : 188/5 .
2- التفسير الكبير :304/9
3 - التحرير والتنوير :261/22

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المبحث الثاني : الاستدلال على ضلال الكفار وبطلان دعـواهم وظهـور صدق الرسول ﷺ .

الآيات الواردة في المبحث .:

1- ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾. الأنبياء : 10

2- ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾. الزخرف : 3

3- ﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾. يونس : 16

4- ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴾. يونس :42

5- ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ الفرقان : 44

6_ ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ الحج 46

7- ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ . الرعد : 19

8- ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ الأنعام : 32

9- ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.القصص : 60

10- ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون ﴾ . الطور : 34

ورد في الاستدلال على طلاقة القدرة :

11- قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ . الأنفال : 24

12-وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ . الأنفال : 70)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كما أورد القرآن الحكيم لفظة العقل أيضاً في الاستدلال على مشركي مكة بإقامة الحجة عليهم بالكتاب وذلك في قوله تعالى ﴿**لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ** ﴾ (1)

وقوله تعالى : ﴿**إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾ (2) .

وما كان ورود اللفظة إلا لظهور الحجة وبروزها بحيث لا يغفلها إلا منعدم العقل ، وخاصة أن المخاطبين مشركو مكة وهم عرباً أنزل القرآن الكريم بلغتهم ، ولرفع ذكرهم ، فنجد في السياق في كلا الموضعين ما يؤكد قرار اللفظة في نظمها وسياقها حيث إن الاستدلال عليهم في كلا الموضعين كان بما لا يجهلونه ولكنهم يجحدونه وهذا غاية الجهل وعمى البصيرة ..

فنجد في الموضع الأول تقدم وصفهم بالغفلة والغفلة لا تكون إلا من منعدم العقل ، كما أنه ركز في بيان موقفهم من الذكر فهم يستمعونه وهم يلعبون ، على الرغم من أنه " محدث " متكرر عليهم ومع ذلك لا يؤثر فيهم ولا يردهم إلى الحق ، وهو ذكر من " ربهم " أي ممن يرحمهم ويريد لهم الخير ، ووصفهم بـ " لاهية قلوبهم " فإذا كان مناط الفهم لاه فإذن عقولهم أولى بذلك بل هم لا عقول لهم أصلاً ، ومما يدل دلالة ظاهرة على مخالفتهم لمقتضى العقل في عدم إيمانهم بالكتاب على الرغم من معرفتهم بأنه معجز حجتهم بأن محمدا -ﷺ- بشر في حين أن كل من سبقه من الأنبياء بشر فهذه سنة الله في الخلق ، وليست البتة سبباً في عدم الإيمان بما ظهر إعجازه بأنه من الله لا من سواه ، ومما يدل على انعدام عقولهم في إنكار اضطرابهم في الحكم على هذا الذكر قالوا أضغاث أحلام فقالوا (بل افتراه) ، (بل هو شاعر) وهم يعلمون أن محمداً الصادق الأمين وهو ليس بشاعر ولكنهم لانعدام عقولهم انعدم لديهم قياس حاضر الرسول -ﷺ- على ماضيه كما في استهزائهم بالرسول بإشارتهم له بالقريب " هذا "دليل على انعدام عقولهم ، كما يدل على ذلك طلبهم " فليأتينا بآية كما أرسل الأولون " فهم يريدون آيات حسية ولا يطلب ذلك إلا من اقتصر عقله على إدراك الأمور الحسية فقط ،

1- الأنبياء :10

2- الزخرف :3

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فوردت الآية التالية استئناف جواب عن قولهم " فليأتينا بآية " بإيقاظهم إلى أن الآية التي جاءهم هي أعظم من الآيات التي أرسل بها الأولون ، وتجهيلاً لعقولهم التي لم تدرك عظم الآية التي جاءت كما أنبأ عن ذلك موقع هذه الجملة في هذا المكان ولتعمد هذا الإيقاظ صدرت الجملة بما يفيد التحقيق من لام القسم وحرف التحقيق ، وجعل إنزال الكتاب إليهم ، كما اقتضته تعدية فعل " أنزلنا " بحرف " إلى " شأن تعدية فعل الإنزال إليهم كونهم بمنزلة من أنزل إليه نظراً إلى أن الإنزال كان لأجلهم ، وذلك أبلغ من أن يقال : لقد أنزلنا لكم [1] . وذلك لأن المصلحة وطلب الفائدة لهم أظهر في " إليكم " من لكم الذي قد يظهر فيه التكليف أكثر فإن كان الكتاب منزلاً لخيريتهم فكيف يطالبون بغيره؟

كما في تنكير " كتاب " دلالة على عظمته عظمة تستدعي التسليم له والإيمان به ، كما ترى ترقي القرآن في الاستدلال على انعدام عقولهم في إعراضهم عن القرآن حيث قال بعد ذلك " فيه ذكركم " وذكركم بمعنى شرفكم وصيتكم حيث جاء بلغتهم " بلسان عربي مبين " ، وفي قومهم ، وبواسطة واحد منهم ، سمعة عظيمة لهم ، فكيف يكفرون به ويطلبون غيره وهو ظاهر في رفعتهم فلا يستبدل ذلك إلا منعدم العقل ، ونلاحظ البلاغة في التدرج في بيان أهمية القرآن للعرب خاصة فهو أولاً " إليكم " أي لخيرهم وصلاحهم ثم هو " كتاباً " عظيماً عظمته تستلزم اليقين والإيمان به ، ثم هو " فيه ذكركم " فكل هذا الاستدلال ظاهر لكل ذي عقل ، بل ويتعين على كل ذي لب الإقبال عليه والمسارعة إليه ، فحسن جداً قوله منكراً عليهم منبهاً على أن علم ذلك لا يحتاج إلى غير العقل المجرد من الهوى [2] " أفلا تعقلون " وهو تفريع الاستفهام الإنكاري لنفي عقلهم فإن من جاءه ما به هديه فلم يهتد ينكر عليه سوء عقله ، ومن جاءه ما به مجده وسمعته فلم يعبأ به ينكر عليه سوء قدره للأمور حق قدرها ، وأيضاً هو متفرع

1- التحرير والتنوير :18/17

2- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : 71/5

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

على الإقناع بأن إنزال القرآن آية تفوق الآيات التي سألوا مثلها وهو المفاد كما سبق من الاستئناف ومن تأكيد الجملة بالقسم وحرف التحقيق قال تعالى : " أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون " وذلك لإعجازه اللفظي المعنوي. (1)

كما في السياق البعدي الدال على شدة العقوبة لمن لم يؤمن دليل على فداحة الخطأ وظهوره حيث قال " قصمنا " القصم أشد دلالة على الإهلاك وقال " من قرية " بالتنكير دلالة على الكثرة وهذه الكثرة أشهر دلالة في الاتعاظ فمن لم يتعظ فلا عقل له .

وفي الموضع الثاني " إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون" استدل أيضاً بدلائل ظاهرة على إقامة الحجة عليهم بالقرآن الكريم . ودلل القرآن والسياق على قرار لفظة العقل في نظمها ، حيث إن السورة بدأت بالحروف المقطعة والنظم إذا وقع بعدها دليل على الإعجاز ولا يكون الإعجاز إلا بالشيء البين ، كما إنه وصف الكتاب بالمبين وفي ذلك دلالة على ظهور آياته ووضوحها متسهل إدراك العقل لها .

ونظم الآية يدلل على ذلك حيث ورد الكلام على التعظيم" إنا " ، " جعلنا " والعظمة تدل على الإعجاز والإعجاز لا يكون إلا بالظاهر الذي لا خفاء في أنه معجز وفي الإخبار عن الكتاب بأنه " قرآناً " مبالغة في كون هذا الكتاب مقروءاً ، أي ميسراً لأن يقرأ ، فحصل بهذا الوصف أن الكتاب المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم جامع لوصفين كونه كتاباً ، وكونه مقروءاً على ألسنة الأمة (2)، كما في دلالة أنه مقروء عليهم دليل آخر على ظهور الأمر لعقولهم فمن قرأه عليهم أمي لايقرأ ، والقراءة تستدعي أنهم سمعوه فكان الأولى بهم أن يؤمنوا لأنهم ولا بد قد أدركوا إعجازه لأنه بلغتهم " عربياً " وفي ذلك تنويه بالقرآن، ومدحه بأنه منسوج على منوال أفصح لغة ، كما فيه تورك على المعاندين من العرب حين لم يتأثروا بمعانيه بأنهم كمن يسمع كلاماً بلغة غير لغته فحسن بعد ذلك أن تكون الفاصلة " لعلكم تعقلون " برجاء تعقلهم فما سبقها أمور معللة

1- التحرير والتنوير : 18/17   2 – السابق : 25/ 212

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والأمور المعللة لا شك مدركة لظاهر العقل ومن لم يدركها فهو فاقد لأقل درجات الإدراك .

ودلل السياق البعدي على رفعة هذا الكتاب وإعجازه بالتوكيد " إنه في أم الكتاب" وقال " لدينا " وهذا دليل على علو مكانته وظهورها فكيف يعرض المعرضون ثم قال : "لعلي الحكيم "و عمد القرآن إلى مواجهتهم بمنطقهم ومحاجتهم " أفنضرب عنكم الذكر صفحاً إن كنتم قوماً مسرفين " وقد قرئت " إن كنتم قوماً مسرفين " بكسر إن [1]. وفي هذه القراءة دليل على قرار العقل في نظمها حيث فيها تكون (إن) شرطية والغالب أن الشرط فيها لما هو مشكوك فيه فالإتيان بها هنا لقصد تتريل المخاطبين المعلوم إسرافهم مترلة من يشك في إسرافه لأن توفر الأدلة على صدق القرآن من شأنه أن يزيل إسرافهم وفي هذا ثقة بحقّية القرآن وضرب من التوبيخ على إمعانهم في الإعراض عنه [2] وهذا مقر لأن الأمر ظاهر واضح وبالتالي هو ملائم للعقل وحاجهم بفطرقم " ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم " فأليس هذا بقادر على إنزال الكتاب ، وعلى كثير من الأمور التي قررها مستفهماً إياهم بالهمزة ليقررهم بذلك. كما بين حجتهم الواهية في عدم إيمانهم بالقرآن بقولهم " لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم " وما يعنيهم على من نزل وهو معجز في ذاته أصلاً فكيف إذا أنزل على خيرهم ، وعلى رجل أمي لا يقرأ ، لذا وصفهم بعد ذلك بالصمم والعمى فهم انعدمت عقولهم وفقدوا بالإضافة إلى ذلك أدوات الإدراك فإذن العقل قارة في نظمها وسياقها لظهور الدلالات وكون كل صاحب عقل مجرد يدركها ولا تحتاج إلى خلوص لب أو عمقه .

وفي سياق الاستدلال على صدق الرسول -ﷺ- وجدال الكافرين لبيان بطلان دعواهم قال تعالى : ﴿ **قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ** ﴾ [3].

1- معاني القراءات : 3 /361 : قرأ نافع وحمزة والكسائي : " إن كنتم " بسكر الألف وقرأ الباقون بالنصب " أن كنتم "
2- االتحرير والتنوير :215/25
3- يونس : 16

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وردت هنا لفظة العقل دون غيرها في الرد على هؤلاء الكفار فهو هنا يخاطب مشركي قريش الذين ادعوا أن القرآن ليس من الله مع إدراكهم يقيناً أنه ليس إلا من عند الله -سبحانه وتعالى -لإعجازه . فخاطب القرآن الحكيم العقول خاصة لأن الدلائل ظاهرة على ذلك ظهوراً تدركه أول درجات الإدراك لا أعمقها لذا ذكر "العقل " .

وحين ننظر لسورة يونس نجد أن ما تقدم من النظم والسياق وما تعقب يرشح لاستعمال لفظة العقل [1]

كما أنه بين في السياق القبلي السبب في تكذيبهم وهو رضاهم بالحياة الدنيا واطمئنانهم بها وهذا من قلة العقل بل من انعدامه ، كما أنه وصفهم بـ " غافلون " هذا ما ورد في عموم السورة .

وفي السياق القبلي القريب ذكر صراحة إهلاك القرون الأولى التي خلفوها في أرضها ومع ذلك لم يتعظوا على الرغم من ظهور العبرة أمام أعينهم وما منعهم من الإتعاظ إلا انعدام عقولهم ونص على أن الآيات بينة " وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات " فهي إذاً واضحة للعقل ظاهرة .

وفي سخريتهم بقولهم " غير هذا " بالإشارة إلى القرآن بهذه الإشارة دلالة على سفاهة عقولهم .

ثم في نظم الآية ما يدل على قرار لفظة العقل في مكانها حيث بدأ بقوله " قل لو شاء الله ما تلوته عليكم و لا أدراكم به " فقيد الجملة بالشرط بلو وفي ذلك دلالة على ربط تلاوته بمشيئة الله وإحداثه أمراً عجيباً خارجاً عن العادة وهذا ظاهر للعقل حيث يخرج رجل أمي لم يتعلم ، ولم يسمع ، ولم يشاهد العلماء ساعة من عمره ، ولا نشأ في بلد فيه علماء فيقرأ عليهم كتاباً فصيحاً يبهر كل الكلام فصيح [2]. كما أن مقتضى جواب (لو) يدل على قرار العقل حيث إن جواب لو يقتضي استدراكاً مطرداً في المعنى بأن يثبت نقيض الجواب والتقدير " لكنني تلوته عليكم " وتلاوته هو خاصة دليل رسالته

1- ينظر البحث ص : 120

2- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل : 122/3 .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حيث تلى ما هو معجز وهو أمي فهذا يقتضي أن من يشك ومن يكذب في صدق رسالته لا عقل له . كما إن في حذف فعل المشيئة والتقدير لو شاء الله أن لا أتلوه عليكم ما تلوته دليل آخر على قرار لفظة العقل فبالإضافة إلى أنه في فعل المشيئة يكثر حذف مفعولــه في جملة الشرط لدلالة الجزاء عليه [1] . فالعلة هنا أيضاً أن ذلك ظاهر للمخاطب ظهــوراً يقتضي إعمال عقولهم في ذلك وإدراكه بسهولة ولكن لا عقول لهم . كما في تصدير نظم الآية بأمر مستقل مع كونه داخلاً تحت الأمر السابق إظهــار لكمــال الاعتنــاء بــشأنه باستقلاله ، فإنه برهان دال على كونه بأمر الله ومشيئته ، وما سبق مجرد إخبار باستحالة ما اقترحوه وهذا أدعى لإظهار الأمر وإبرازه للعيان الذي يقتضي أن يدركه العقــل . وفي التأكيد على مكث الرسول فيهم زمناً أمياً دليل على ظهور أن أمر رسالته حــق حيــث أنزلهم في هذا الأمر منزلة الجاهل لمكثه معهم وهم لا يجهلون ذلك فالرسول لم يخرج البتة من مكة بل كان سكنه فيها دائماً حتى بعث وهذا ظاهر ولكنه أكده لهم ليقــرب إلى عقولهم وإن كان يخفى عليهم صدقه في رسالته .كما في استعمال أســلوب الاســتفهام كتفريع على جملة الشرط ، وما تفرع عليها تفريع للإنكار والتعجب على نهوض الــدليل عليهم إذ قد ظهر من حالهم ما يجعلهم كمن لا يعقل ولذلك قال " تعقلون " لأن العقل هو أول درجات الإدراك [2] . وهو ما يحتاجونه لمعرفة صدق الرسول -ﷺ- بعد كل ما تقدم من الأدلة ولذا ورد الاستفهام بالهمزة لما فيها من مشاركة المخاطب في تقرير ذلــك وهذا أدعى لإبطال إنكاره لأنه يقر صدق وصحة حجة من يجادله وهذا لا يكون إلا إذا كان الأمر ظاهراً واضحاً له ولذا ورد مع هذا الأسلوب العقل دون سواه . وورد بصيغة " أفلا " بالفصل بالفاء و يقــــدر على رأي الزمخشري ـ وهو عندي أقــوى ـ محــذوفاً تقديره ألا تلاحظون ذلك فلا تعقلون امتناع صدوره عن مثلي ؟ وهذا أدخل في ذمهــم وأدعى لأن يسلموا إن كان لهم عقول تدرك . فقوله " أفلا تعقلون " يعني أن مثل هـــذا الكتاب العظيم إذا جاء على يد من لم يتعلم و لم يتتلمذ و لم يطالع كتاباً و لم يمارس مجادلة ، يعلم بالضرورة أنه لا يكون إلا على سبيل الوحي والتنزيل ، وإنكار العلــوم الــضرورية يقدح في صحة العقل . ولذا ففي " أفلا تعقلون " إشارة إلى أنه يكفي في معرفة أن القرآن

1- التحرير والتنوير : 11/ 43   2- السابق : 11/ 43

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

من الله وأن غيره عاجز عنه كون الناظر في أمره من أهل العقل .

كمـــا في الألفـــاظ المجـــاورة دقـــة ترشـــح لاســـتعمال لفظـــة " العقـــل " فقوله " تلوته " دون غيرها مثل قرأته أو أخبرتكم به أو ... دليل على ظهور الأمر لكـــل عاقل أن ذلك إعجاز يدرك العاقل بأنه من عند الله . فالتلاوة أخص من القراءة فليـــست كل قراءة تلاوة فهي تستعمل فيما إذا قرئ وجب اتباعه [1] وغير العاقل من لا يتبع مـــا ورد في القرآن مع ثبات تأثيره عليهم . كما إن في التلاوة معنى التتابع وهذا يقتضي براعة في القراءة والرسول كان أمياً لا يقرأ كماإن التلاوة : قراءة المكتوب أو استعراض المحفوظ وهذه معجزة مع تحقق أمية الرسول -ﷺ- . فورد لفظة " تلوته " مرشـــحة لاســـتعمال " العقل " وإنكاره عليه حيث إن ذلك ظاهر الإعجاز فكيف لم يلاحظوه وهو مدرك لكل ذي عقل .

وفي قوله " لبثت " دقة في إقامة الحجة عليهم بظهور الأمر لهم ولكنهم يخـــالفون هذا الظاهر . فاللبث : المكث ، اللبث البطيء . ويقال لي على الأمر لبثة أي توقف [1]

وقال جرير :

وقد أكون على الحاجات ذا لبث ss وأحوذياً إذا انضـــــــم الذعاليب " [2]

فكل معاني اللبث تدل على إقامة طويلة وليست أي إقامة وهذا التذكير يطـــول إقامتـــه لديهم وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب ولا يجلس إلى العلماء ثم يأتيهم بكل هذا الإعجاز الذي بهر عقولهم دليل ظاهر كل الظهور على صدق رسالته وأن القرآن من عند الله وأنهم إنمـــا يجادلون بما لا يعلمون لاطمئنان للدنيا ولعتوهم ورغبتهم في الرئاسة . كما إنه دل علـــى طول هذا المكث بتنكير " عمراً " وزيادة " من " قبل الظرف " من قبله " وهذا فيه دلالة

1- المفردات في غريب القرآن : 82 بتصرف يسير

2- لسان العرب : 5/ 3982.

3- ديوان جرير : بيروت ، دار المعرفة ، ط2 ، 1426هـ _ 2005م : 31

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

على مدة زمنية طويلة ـ كما رأينا في سياق القصص ـ من اطراد دلالة زيادة من قبل الظرف على طول الزمن وكل هذه الدلالات على طول الفترة مستلزمة ظهور الأمر وبالتالي إدراكه بالعقل المجرد . ولذا نلاحظ أن القرآن الحكيم استعمل معهم أسلوب الاستدلال بالتحدي على صدق الدعوى ليظهر لهم عجزهم الذي يعلمونه ويكابرون بخلافه عتواً ونفوراً " أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله " .

ونجد بعد ذلك في القرآن تأكيدا على ضلال هؤلاء الكافرين الذين كذبوا بصدق الرسول -ﷺ- وكون القرآن من عند الله لا لشيء إلا لإنكارهم للبعث وإنكارهم لوحدانية الله -عز وجل وعلا- التي ينص عليها القرآن، لذا نفى عنهم العقل بنفيه عنهم أدوات الإدراك الموصلة له .

ومن ذلك قوله تعالى في السورة ذاتها ﴿ **وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ** ﴾"(1) .

حيث نفى عن المكذبين العقل في سياق تأكيد ضلالهم بتكذيبهم ما ورد في الوحي كما فيه إيناس للرسول -ﷺ- في بيان أن سبب تكذيبهم فقدهم للإدراك أصلاً وفقدهم لأدواته فكيف يحزن على عدم استجابتهم واستمرار كفرهم ؟ وقد رشح لاستعمال العقل ما سبق أن ذكرت من السياق العام للسورة من مرشحات العقل في الآية السابقة بالإضافة إلى ذلك ما ورد في السياق القبلي القريب من الاستدلال على ظهور وحدانية الله التي ما دعاهم إلى إنكارها إلا غياب عقولهم ، باستنطاقهم بالاستفهام التقريري الذي يقررهم بحقائق تدل على الوحدانية وبهمزة الاستفهام التي بها يرد المخاطب إلى عقله ويجعله يقر بصحة ما يجادله به حيث قررهم بـ " من يرزقكم من السماء والأرض " ، " أمن يملك السمع والأبصار " ، " ومن يخرج الحي من الميت " ، " ومن يدبر الأمر " وهذه أمور بدهية ظاهرة للعقل لذا ورد بعدها " فسيقولون الله " ثم قررهم بحقيقة عجز شركائهم " قل هل من شركائكم من يبدؤ الخلق ثم يعيده " ، " قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق " ، " أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدى " وكل ما ورد ظاهر للعيان مدرك لا جدال فيه فكفرهم

1- يونس :42

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بعد ذلك ما هو إلا لغياب عقولهم. كما إن في التعبير عن تكذيبهم بالقرآن بقوله " بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه " . إيذان بكمال جهلهم وأنهم لم يعلموه . وإدارة الحكم على الموصول مشعرة بعلية ما في حيز الصلة له ، " ولما يأتهم تأويله " التعبير عن ذلك بإتيان التأويل للإشعار بأن تأويله متوجه إلى الأذهان منساق إليها بنفسه ، ونفي إتيان التأويل بكلمة (لما) الدالة على التوقع بعد نفي الإحاطة بعلمه بكلمة (لم) لتأكيد الذم وتشديد التشنيع فإن الشناعة في تكذيب الشيء قبل علمه المتوقع إتيانه أفحش منها في تكذيبه قبل علمه مطلقا [1]. وهذه الدلالة على شدة الجهل دلالة على غياب العقل لذا ورد العقل في بيان مدى ضلال الكفار .

كما ذكر أقسام هؤلاء الكفار بالنسبة للقرآن فمنهم من يؤمن به في قلبه ولكن يمنعه من إتباع الحق ظاهراً خوفه على الرئاسة ثم القسم الثاني من لا يؤمن به لا ظاهراً ولا باطناً وهم الذين بين وصفهم بعد ذلك بأنهم " لا يعقلون " وذلك لأنهم أغبى من القسم السابق حيث لم يؤثر فيهم القرآن أصلا وهذا ملائم لأن يوصفوا بانعدام العقل وانعدام البصيرة بانعدام أدواتها السمع والبصر لذا ورد العقل في قوله تعالى ﴿ومنهم من يسمعون إليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون ﴾ . ورشح قوله تعالى " ومنهم من يستمعون إليك " لفظة العقل وذلك لأنه أورد الاستماع بصيغة الافتعال وفي ذلك دلالة على تكلف السماع وأخذ وقت طويل فيه وكذلك صيغة المضارعة " يستمعون " فهم مستمرون في هذا السماع بل ويتجدد لهم حالاً بعد حال ومع ذلك لا يحصل منهم إيمان فما ذلك إلا لانعدام عقولهم . وفي جمعهم دليل آخر على عدم عقلهم فعلى كثرتهم إلا أنه لا يوجد منهم أحد رشيد . وفي قوله " إليك " دليل آخر حيث ضمن ـ بتعليق الفعل بالجار والمجرور " إليك " ـ الاستماع بالإصغاء فكأنه قال : مصغين " إليك " . ولا بد أن ينتج عن الإصغاء فهم واستفادة فإن عدمت فإنما هو دليل على انعدام العقل .

1-تفسير أبي السعود : 241/3

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي تقديم الضمير أنت على المسند الفعلي تسمع " أفأنت تسمع الــصم " بعــد الاستفهام تقوية للحكم [1] وليس ذلك دالاً فقط على إيناس الرسول -ﷺ- بعدم إمكانية إسماعهم وأنه لا يملك ذلك البتة بل فيه دلالة على استحالة تغير حال هؤلاء استحالة تؤكد شدة وتناهي فقدهم لأدوات الإدراك وخص منها هنا السماع لأنه أكثر مــا يوصــل إلى الإدراك والتعقل فوصفهم بـــ " الصم " بالتعريف دلالة على كمال الوصف لهم ، ودل على هذا الكمال استعصاء حالهم بأنهم ممن لم يؤمن بالكتاب على الرغم من ظهور الحق وبإخبار الرسول باستحالة إسماعهم وكل ذلك مرشح لأن تكون خاتمة الآية " ولو كانوا لا يعقلون " أي ولو كانوا في أشد حالات الأصم لأن الأصم الذي لا يسمع شيئاً بحال لا يكون في الأغلب إلا مع فساد العقل والدماغ فلا سبيل أن يعقــل حجــة ولا دلــيلاً أبداً[2].

وفي التعبير بــ" ولو كانوا " بفعل الكون دلالة على أن عدم العقل كون فــيهم بمعنى جبلة وطبعاً " لا يعقلون " بالمضارعة أي لا يتجدد لهم عقل أصلاً وحذف مفعــول يعقلون إما لدلالة ما سبق عليه وإما أن يعامل الفعل " يعقلون " معاملة اللازم بمعنى ليسوا عاقلين [3]وأرى بالإضافة إلى ذلك أن في حذفه عموما لما لا يفعلونه وهذا أدخل في ذمهم وأبين لحال انعدام عقولهم .

وفي موضع الفرقان أيضاً ركز على وصف ضلالهم وتماديهم في كفرهم بــأنهم لا يعقلون حيث قال تعالى : ﴿ **أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُــمْ إِلَّــا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا** ﴾ [4] . فتصريح القرآن بوصفهم بعدم العقل والاســتدراك على كفرهم بذلك له مرشحات في السياق القبلي حيث وردفيه قصص الأمم الــسابقة والتي ظهر للعيان ما حل بهم لكفرهم ومع ذلك لم يتعظ مشركو قريش مع إدعائهم بأنهم عقلاء . وصرح في السياق القبلي بظهور هذه العبر.

1- الإيضاح في علوم البلاغة: 67
2- المحرر الوجيز : 156/7
3 – التحرير والتنوير : 91/11
4- الفرقان :44

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن ذلك قوله " وجعلناهم للناس آية " والآية لا تطلق إلا إذا كانت علامة ظاهرة ، كما قال " وكلا ضربنا له الأمثال " ولا تضرب الأمثال إلا للتوضيح فإن غفل عنـــها فـــذلك دلالة ولا شك على انعدام العقل ، وقوله " أتوا على القرية " فالإتيان على الشيء دلالـــة على المرور عليها ورؤيتها فإن لم يتعظ من أتى على العبر فلا عقل له ، وقولـــه " أفلـــم يكونوا يروها " والرؤية تحقق المرئي فإذا تحققوا من رؤية العبر فلم لم يؤمنوا ؟! وفي خطابه للرسول -ﷺ- قال : " أرأيت " ركز أيضاً على الرؤية وذلـــك لوضـــوح حـــالهم . فنلاحظ أن السورة ركزت على التنبيه على أن العبر كان مرئية ظاهرة للمشركين ومـــع ذلك يشركون بالله -جل وعلا- . كما أن في قوله تعالى على لسانهم " إن كاد ليـــضلنا عن آلهتنا " دليل آخر على انعدام عقولهم بل وانتكاسها حيث رأوا أن اتبـــاع الرســـول ضلال وصبرهم على آلهتهم هو الهدى ولا يرى مثل ذلك إلا من فقد القدرة على الإدراك والتمييز ولا يكون ذلك إلا بانعدام العقل واتخاذهم هواهم إله دليل علـــى ذلـــك ، وفي تقديم " إلهه هواه " حصر هو أدخل في ذمهم وأدل على انعدام عقولهم .

كما إن في استهزائهم بالرسول مع علمهم بشأنه دليل علـــى ســـخافة عقـــولهم وضعف إدراكهم ، لذا حين أورد القرآن الحكيم وصفهم أورده بأسلوب السخرية بهـــم وهو أسلوب يناسب سخف عقولهم ؛ لذا ورد نظم الآية بقوله " أم تحسب أن أكثرهم ... " الآية . ووجه السخرية فنصت على العقول والأسماع بمعنى الأفهام ، فالسمع هـــو المرحلة الأولى التي توصل إلى العقل مما يبحثه ويفكر فيه ليحكم عليه [1] ، ولقـــــد بدأ بـــ " أم " وهي منقطعة بمعنى بل أتحسب وكأن هذه المذمة أشد من التي تقدمتـــها حـــتى حقت بالإضراب عنها إليها وهي كونهم مسلوبي الأسماع والعقول [2] . وشدة هذه المذمة تلائم أن ينفي عنهم أقل درجات الإدراك وهي العقل ونفي الأداة الموصـــلة لهـــا وهـــي السماع وفي قوله " تحسب " تأكيد على دقة العقل فالقرآن استفهم منكـــراً وموضـــحاً للرسول حقيقتهم فأنكر مجرد الحسبان بأنه لهم سماع أو عقول فإذا كانوا لا يحسبون لذلك حسباناً فهذا دليل على شدة غبائهم وحمقهم الذي يجعلهم من الغباء بمنزلة حتى لا يحسب

1 - التصوير الساحر في القرآن الكريم: 77 2

2 - الكشاف: 353/4

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فيهم العقل ولا يظن حتى مجرد ظن ، وقال "أكثرهم" موطئ لنفي العقل عنهم وذلك لأن الأكثرية هم في الغالب العامة والعامة هم أقل الناس عادة فهماً وإدراكاً وفي العطف بـ " أو " إشعار بالترقي في ذمهم حيث هم لا يسمعون ليس ذاك مع بل هم أشد حالاً ممن صم صمما مجردا فهم أيضاً لا " يعقلون " وإيرادها بالمضارعة دليل على تجدد هذا الحال معهم على الرغم من تجدد الوحي.

ولذا لم يعبر بالتعقيب عليهم عقولهم وأسماعهم صراحة ليرسم لهم صورة ساخرة [1] هي أقوى في الدلالة على قرار لفظة العقل في نظمها فإذا كانوا كالأنعام فلا عقل لهم حيث ميز الإنسان عن الحيوان بالعقل فإن كانوا أضل فهم أسوأ حالاً حتى من الأنعام " إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً " حيث قصر حالهم بمشابهتهم بالأنعام واستعمال الكاف للتشبيه في صفة معنوية وهي عدم النظر والاعتبار لعدم العقل في المشبه به تحقيقاً وفي المشبه تنزيلاً فالثمرة فيهما معدومة واختلاف الطرفين فيهما واضح [2] ثم أضرب عن ذلك بأن جعلهم " أضل سبيلا " .

وفي السياق البعدي يؤكد أيضاً قرار اللفظة في سياقها كما قرت في نظمها حيث إن ما ورد في النظم من الآيات الدالة على وحدانيته دلالة ظاهرة وخاصة لمشركي العرب الذين كانوا يؤمنون بهذه القدرة ولا يصرفونها لغير الله فاستدل بها على وحدانيته تعالى وبالتالي على انعدام عقولهم حيث إنها مسلمات بالنسبة لهم ولكنهم لم يستدلوا بها على الوحدانية ، ومن هذه الآيات بعض مظاهر الطبيعة كمد الظل ، وجعل الليل لباساً والنهار معاشاً ، وإرسال الرياح وإنزال المطر ، وإحياء الأرض ومرج البحرين وخلق البشر.كما استدل على انعدام عقولهم بتخيرهم في عبادتهم ما يدركون يقيناً أنه لا ينفعهم ولا يضرهم ، وبتكذيبهم للرسول مع أنه محب لهم و لم يسألهم أجراً على دعوتهم . لكنهم لم يدركوا كل هذه الحقائق الظاهرة لا لشيء إلا لأنهم حقاً لا عقول لهم . فكان ورود لفظة العقل ملائم كل الملائمة فلا يمكن أن يذمهم القرآن بفقدانهم للب فهو أدخل من مجرد الإدراك وهم فقدوا أول درجاته فهم لما سواه أفقد .

1- التصوير الساخر في القرآن الكريم : 78

2- أدوات التشبيه ودلالاتها واستعمالاتها في القرآن الكريم :106

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي قوله تعالى : ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** ﴾ [1] .

استدلال على صدق نبوة محمد -ﷺ- وصدق ما جاء به من أمر الوحدانية بأحوال الأمم السابقة ولظهور الدلائل الدالة على هلاكهم استعمل العقل فقال " قلوب يعقلون بها " و لم يقل " قلوب يفقهون بها " لأن آثار الأمم السابقة ماثلة أمامهم لا يغفل عنها إلا فاقد للعقل .

يدلنا على ذلك السياق القبلي القريب الذي مثل لهم بخلو قرى الظالمين وآبارهم المعطلة وقصورهم المشيدة فأين ذهب ساكنوها ؟

وقد ناط العقل بالقلب لأنه به الانتفاع فإن لم يعقلها القلب فلا تفيده في اتعاظ ولا تدبر .

وحين نلاحظ نظم الآية نجد قرار كل لفظة في نظمها كما قرّت في سياقها ، فقوله " يسيروا في الأرض " مقرر للعقل فالسير فيه رؤية ومشاهدة لما حل بالأقوام السابقة وكونه بالمضارعة دليل على تجدد هذا السير في الأرض ، وهذا أدعى لظهور هذه العبر وإدراكها . واستعماله الكون دليل لزوم هذا الإدراك لهم مع تجدد هذا السير في الأرض وهذا اللزوم للإدراك ملائم لثبات القلب وتمكنه ؛ لذا لاءم أن يأتي الفعل بالمضارعة "يعقلون " لكي يتجدد لهم العقل وكلما تجدد ثبت واستقر في القلوب . وفي حذف المفعول دليل عموم ما يمكن أن يدركوه بعقولهم وهو عموم فيه دلالة على كثرة هذه الدلائل فكيف لم تؤثر فيهم ؟ وقد قدمت القلوب على الآذان لأن عليها المعول في الإدراك فقد تسمع الآذان ولكن لا يؤمن السامع بها لأن الأساس – وهو القلب – لم يدرك . فالمهم إدراك القلب لا السماع الظاهري ، وأكد هذه الحقيقة بقوله " فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور " فالعمى عمى البصائر فكم من أعمى أفقه من مبصر .

---

1 - الحج : 46

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد وردت بالتوكيد لأن في السياق منكرين للحق وقد تكون هذه الحقيقة غائبة عنهم لذا نفى العمى المؤثر في عدم الإدراك عن البصر وأثبته للقلوب . وهذا يؤكد علــى تقديم القلب سابقاً وأنه عليه المعول في الإدراك لأن بإدارك القلب يحــصل الانتفــاع وفي التقييد بـــ، " في الصدور " وتصديرها بالموصول " التي " – الذي فيه دلالة على أن الأمر معروف – سوق للأمر بدليله .

ولذا يظهر لي أن العمى هنا للقلوب حقيقة وهو عمى غير معروف لهم لكن النظم دلل على حقيقته ويظهر لي أن هذا أقوى من حمله على المجاز بدليل صدود هؤلاء الكفار على الرغم من ظهور العبر .

ويؤكد عمى قلوبهم وعدم إدراكهم ما ورد بعد ذلك في السياق البعــدي مــن استعجال العذاب والسعي في الأرض بالفساد وغير ذلك من أفعال لا تصدر إلا من قلب عمي تماما عن الحق .

***

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كما ورد قوله تعالى : ﴿ **أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُــوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ** ﴾ [1] . في الاستدلال على ضلال الكفار وعدم إدراكهم الحق ، كما فيها إيناس رسول الله -ﷺ- ، بأن المتذكرين والعارفين للحق هم المؤمنـــون أصحاب الألباب الخالصة أما من سواهم من الكفار فهم عمي لا أمل في هدايتهم ولـــذا وردت لفظة " الألباب " ولورد هذه اللفظة مرشحات في السياق القبلـــي والبعـــدي وفي طريقته وألفاظه .

أما السياق القبلي فقد بدأت السورة ببيان أن الحق لا يدركه إلا المؤمنون " ولكن أكثر الناس لا يؤمنون " إذن المطلوب لمعرفة الحق الإيمان وهو أعمق من أن يتـــصف بـــه أصحاب العقول المجردة بل الإيمان كمال في الاعتقاد يلائم كمال العقول ، كمـــا ورد في السورة " لعلكم بلقاء ربكم توقنون " بعد ذكر آيات دالة على قدرته وهذه وإن كانـــت مسلم بها إلا أن " أولي الألباب " يصلون إلى ما هو أعلى من إدراك وهو هنـــا الإيقـــان ليزدادوا إيماناً ، ثم ذكر بعد ذلك التفكر ، والتعقل وكل درجة تترقى وتصل فيما بعد إلى اللب . ثم ورد في السياق من الأمور الغيبية التي لا يسلم بها تسليماً يقيناً إلا أولو الألباب كعلم الله غيب الأرحام ، والإيمان بالحفظة ، والجمع بين الخوف والطمع حين الـــبرق لا يكون إلا من ذي لب .

ثم في السياق القبلي القريب المثل الذي ذكر بإنزال الماء من السماء وكونه كالإيمان تعمقاً في قلوب المؤمنين ومارًا مرور كرام في قلوب غيرهم لا يدرك هذه الحقيقـــة إلا ذي لب ، كما أنه ذكر بعد ذلك الذين استجابوا ، والذين لم يستجيبوا ، وجعل الحسنى لمن استجاب والاستجابة دليل على خلوص عقولهم لأن فيها دليل على إخلاصـــهم لله جـــل وعلا ، لذا حين وردت المقارنة وردت بين العمي — عمي البصيرة — وبين من كملت لهم البصيرة وهم أولوا الألباب .

ومن مرشحات الألباب دون غيرها ورود الآية بأسلوب المقارنة بين فريقـــــين "من يعلم أنما انزل إليك من ربك الحق " و" كمن هو أعمى ".

2- الرعد : 19

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والفاصلة لا بد أن تكون دالة على الفريقين إما أن تكون نصية وإما أن تكون تعريضًا والفاصلة هنا " أولو الألباب "دلت صراحة على الفريق الأول " أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق " فكان ورودها لها ملائماً لأنه لا يعلم الحق علماً يقيناً إلا أولو الألباب ؛ لذا عبر بالعلم والعلم يقين لا يصل إليه إلا من كمل عقله . قال صاحب التفسير الكبير: " المراد أنه لا ينتفع بهذه الأمثلة إلا أرباب الألباب الذين يطلبون من كل صورة معناها،ويأخذون من كل قشرة لبابها ويعبرون بظاهركل حديث إلى سره ولبابه [1].

ودلل على قرارها في نظمها وورودها صريحة الدلالة على الفريق الأول وملائمتها لما ورد من الصفات الخاصة بأولي الألباب كما سنرى في السياق البعدي بعد ذلك . كما أن القصر (بإنما) دال على قرارها حيث إن موضوع إنما تجيء لخبر لا يجهله المخاطب و لا يدفع صحته ، كما يراد بها التعريض بمن لا يذكر ، كما إنها تفيد في الكلام بعدها إيجاب الفعل لشيء ونفيه عن غيره ، ولها مزية ، وهي أنك تعقل معها إيجاب الفعل لشيء ونفيه عن غيره دفعة واحدة في حال واحدة . وإذا استقريناها وجدناها أقوى ما تكون وأعلق ما ترى بالقلب ، إذا كان لا يراد بالكلام بعدها نفس معناه ، ولكن التعريف بأمر هو مقتضاه ، نحو أنا نعلم أن ليس الغرض من قوله تعالى " إنما يتذكر أولو الألباب " أن يعلم السامعون ظاهر معناه ، ولكن أن يذم الكفار ، وأن يقال إنهم من فرط العناد ومن غلبة الهوى عليهم في حكم من ليس بذي عقل [2] . وهذا يلائم التصريح بوصف من يعلم وهم أولو الألباب ، والتعريض بمن هو أعمى ، وتقوية المقارنة بينهما لذا كانت الفاصلة بأولي الألباب قارة في مكانها .

وفي نظم الآية أيضاً من الألفاظ ما يؤكد قرار الألباب في نظمها كما قرت في سياقها ، ومن هذه الألفاظ التعبير بـ " يعلم " والعلم كما سبق يقين لا يصل إليه إلا من خلص وكمل عقله وورودها بالمضارعة دليل على تجدد ذلك لهم مع الوحي وفي كل تجدد علم لهم ارتقاء واكتمال لعقولهم . وقوله " الحق " بالتعريف دليل أنهم لا يشكون أن ما جاء به محمد -ﷺ-. هو جنس الحق بل وأكمله .

1- التفسير الكبير : 32/7

2 - ينظر دلائل الإعجاز : 330، 354

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقصره " يتذكر " عليهم والتذكر هنا بلا إدغام دال على الاستمرار فيـه وقـت طويل وهذه سمات أولو الألباب والسياق هنا يستدعي أن يطول التذكر بطـول نـزول الوحي .

وحين ننظر للسياق البعدي نرى تأكيده على قرار اللفظة " الألباب " حيث جعل ما ورد من الصفات بدلاً منهم فأولو الألباب (هم الذين يؤمنون بعهد الله ، ولا ينقضون الميثاق ، ويصلون ما أمر الله به أن يوصل ، ويخشون ربهم ، ويخافون سـوء الحـساب ، وصبروا ابتغاء وجه ربهم ، أقاموا الصلاة وأنفقوا في السر والعلن ، ويـدرؤون بالحـسنة السيئة ، ونلاحظ أن هذه الأوصاف لا يفعلها إلا من كمل عقله وكمل إيمانه حيث إنها تستلزم إخلاصاً فالوفاء بعهد" الله " والوصل بسبب أمر " الله " والصبر ابتغاء وجه " الله " والإنفاق في " السر والعلن " على حد سواء فالسرائر خالصة و خلوصها يظهـر علـى علانيتها . والإخلاص لا يكون إلا من " أولي الألباب " . كما إن في تـصريح القـرآن بحسن جزائهم وأن إحسانهم لم يثابوا عليه هم فقط بل شفعوا فيمن يتصل بهم وهو علـى صلاح وهذا حسن جزاء وعظمة ثواب تدل على عظمة مترلتهم .

ثم بعد ذلك صرح القرآن بصفات الفريق الثاني الذي يضادهم . والضد بالـضد يعرف فلما كمل فهم أولو الألباب بالمقابل انعدم فهم الكفار حتى أصـبحوا كـالعمي لانتقاء علمهم .

وفي الاستدلال على ضلال الكافرين في تمسكهم بالدنيا وزينتها بالاسـتدلال على فنائها ودنوها أمام ما وعد الله به من خير قال تعالى : ﴿ **وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ** ﴾ (1) . وقال : ﴿**وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ** ﴾ (2). وفي كلا الموضعين المخاطب مشركوا قريش الذين جعلوا الدنيا همهم وتلبسوا بها وما ذلك إلا لكي لا يؤمنوا بالبعث في الآية الأولى وكي لا يتبعوا الهدى في الآية الثانية لذا أتت الفاصلة بـ " أفلا تعقلون " بالإنكار على المشركين عدم تعقلهم وإدراكهم لحقيقة الدنيا مع ظهـور فسادها وانقطاع مدمًا .

1 - الأنعام : 32

2 - القصص: 60

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولكل موضع من الموضعين مرشحات لهذا اللفظ من السياق القبلي والبعدي وفي نظم الآية ذاتها .

ففي الموضع الأول دلل السياق القبلي على شدة تلبسهم بالدنيا وبالتالي إعراضهم عن الآخرة والتصديق بالمعاد فالآيات ظاهرة أمامهم " وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين " والآية لا تكون إلا واضحة ولكن لانعدام عقولهم هم دائماً " معرضين " وتكذيبهم كان " بالحق " ولا يكذب الحق مع ظهوره إلا من عدم عقله ، كما ورد في السياق ضرب المثل بالتمكين خاصة للقرى السابقة ومع ذلك التمكين لما كذبوا أهلكهم الله وهذا دليل على زوال النعمة والمتاع في الدنيا إن لم يصاحبها إيمان ، وأرشدهم إلى العبرة بأن حضهم على السير في الأرض " ثم انظروا " إذن فالعبر ظاهرة أمامهم يرونها بأعينهم ولكن لا عقول لهم تدرك كما إن ما ورد في السياق من الدلائل الظاهرة على وحدانية الله وهي مسلمات بالنسبة لهم تدل على انعدام عقولهم حيث كفروا بها لا لشيء إلا تلبساً بالدنيا الفانية ، وعدم إيمانهم إهلاك لنفوسهم " وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون " وعدم شعورهم بإهلاك أنفسهم دليل على انعدام عقولهم ، وعدم يقينهم بالبعث وتمسكهم بالحياة الدنيا واعتقادهم ألا حياة بعدها أيضاً انعدام عقول " إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين " ويدل استعمالهم لـ (إن) في النفي على شدة نفيهم للبعث ويقينهم ألا حياة بعد الحياة الدنيا لذا رد عليهم ببيان حقيقة الدنيا الظاهرة لكل ذي عقل بقوله : " وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون " ولاءم أن تكون الفاصلة منكرة لعقول المكذبين ، والمنكرين للبعث والقيامة تعظم رغبتهم في الدنيا وتحصيل لذاتها فذكر الله تعالى هذه الآية تنبيهاً على خستها وركاكتها. ونظم الآية الذي ورد بقصر الحياة الدنيا على اللعب واللهو من باب قصر الموصوف على الصفة دال على انعدام عقولهم فكيف يتمسك بها وما هي إلا لعب ولهو وأصل اللعب اللعاب وهو البزاق ، ولعب فلان إذا كان فعله غير قاصد به مقصداً صحيحاً ، وهو ضد الجد [1] . ويقال لعب بنا الموج سمي اضطراب الموج لعب ، وملاعب الريح مدارجها.

1- المفردات : في غريب القرآن: 454

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فمادة اللعب تدل على سفول الشيء كاللعاب ، أو على انعدام المقصد الحق وكل ذلك يدل على خسة الدنيا ، كما يدل اللهو على انشغال الإنسان عما يعنيه ويهمه [1] والانشغال بذلك دون ما يهم وينفع من انعدام العقل ، وفي الانشغال بذلك دون ما يهم وينفع من انعدام العقل ، وفي إضافة اللهو واللعب إلى الحياة الدنيا دليل آخر على انعدام العقل حيث اطرد في القرآن الكريم إذا أضيفت للحياة الدنيا فهي ظاهرة في الفساد والضلال وعدم العلم بذلك والتمسك بها على الرغم من ذلك ظاهر في انعدام العقل لذا لاءم أن تكون الخاتمة " أفلا تعقلون " . ونرى أن القرآن ذكر حال الدنيا ، وحذف نتيجتها لأهلها لدلالة ثمرة الآخرة عليه وحذف ذكر حال الآخرة لدلالة ذكر حال الدنيا عليه فهو احتباك [2] . وقرأ نافع وابن عامر ، وحفص ، وأبو بكر بالتاء ، وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وأبو عمرو بالياء وقال أبو منصور : من قرأ بالتاء فللمخاطب ، ومن قرأ بالياء فللغيبة [3] وقيل في كونها للمخاطب " تعقلون " أنها للكفار رداً على قولهم " إن هي إلا حياتنا الدنيا " أي لو نظرتم حق النظر لوجدتم الحياة الدنيا لعباً ولهواً ، وليس فيها شيء باق ، فلعلمتم أن وراءها حياة فيها الخيرات فتكون الآية إعادة لدعواهم إلى الإيمان والتقوى ، ويكون الخطاب " أفلا تعقلون " التفاتاً من الحديث عنهم بالغيب إلى خطابهم بالدعوة . وقيل يحتمل أنه اعتراض بالتذييل لحكاية حالهم في الآخرة فذيل ذلك بخطاب المؤمنين تعريفاً بقيمة زخارف الدنيا ، فتكون الواو عطفت جملة البشارة على حكاية النذارة . والمناسبة هي التضاد [4] . ويظهر لي أن الأول أرجح في كون الخطاب للمشركين ويظهر لي أن الخطاب ليس لدعوتهم وإنما ترقٍ لحجة الخطاب فهو أشد مقابلة لهم وتوبيخاً ويدل على ترجيحي وجوه :

أولها : أن صيغة أفلا تعقلون في القرآن وردت بالإنكار والتوبيخ الذي يلائم الكفار لا المؤمنين .

1- لسان العرب : 4039/5

2- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : 626/2

3- التحرير والتنوير : 68/6

4 - معاني القراءات : 151

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثانيها : صيغة القصر بما وإلا للشاك في الأمر المتيقن وهذا يلائم أن يكون الخطاب للكافرين .

ثالثها : أن كون الدنيا لعباً ولهواً ظاهر للمؤمنين ولكنه خافٍ على الكافرين لذا إنكار عدم معرفة ذلك موجه للكافرين . كما إنه قد يكون من باب إنزال المعلوم منزلة المجهول ولهذا وجه في خطاب الكفار يساعد على قرار اللفظة العقل في مكانها حيث فيه استخفاف بهذه العقول التي لا تدرك المعلوم فيصبح مجهولاً لها وهذا أدخل في توبيخهم .

رابعها : أن الآية وردت كختام تعقيبي على ما صدر من الكفار من تلبس بالدنيا وتمسك بها .

ونجد في السياق البعدي قوله تعالى : ﴿ **قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون** ﴾ . فهم يعلمون صدق الرسول -ﷺ- ولكنهم يجحدون والجحد إنكار مع العلم وهذا عين فقدان العقل.والله أعلم .

وفي الموضع الثاني : استدلال على ضلال الكفار لامتناعهم عن إتباع الهدى تمسكاً بالدنيا الفانية وقد ورد العقل قال تعالى : ﴿**وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون** ﴾ حيث إن أمر الدنيا وفسادها ظاهر للعيان ولا يخفى إلا على فاقد العقل ، وقد دلل السياق القبلي على ترشيح لفظة العقل حيث قال على لسان الكفار " إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا " حيث اعترفوا بأنه هدى ومع ذلك لا يتبعونه ، كما أنهم يعلمون منة الله عليهم بالحرم الآمن لذا استفهم بالهمزة التي تدل على مشاركة المخاطب في الإقرار بالمستفهم عنه " أو لم نمكن لهم حرماً آمنا " فقد مكن لهم ذلك وهم على ضلال ويعبدون سواه فكيف لو آمنوا ؟ لكان بقاء هذه الحالة الأولى ، كما إن السياق يبين أن الإصرار على عدم الإيمان سبب في فقدان النعمة في الدنيا ودلل على ذلك بأحوال الأمم السابقة .

كما إن القرآن يبين أن ما عند الله خير وأبقى من الدنيا الفانية حيث صرحوا بأن امتناعهم عن الهدى خوفاً منهم على زينة الدنيا فالكفر يزيلها ليس ذاك فقط بل هي

لا شيء وظاهر فسادها حيث ترى أن القرآن استهان بها حين سماها بشيء ، فهي شيء هين لا قيمة له كما أنه أضاف هذا المتاع إلي الدنيا وصرح بالحياة ونظم القرآن ـ كما

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سبق أن ذكرت ــ إذا أضاف إلى الحياة الدنيا فظاهر فساده ولا يخفى إلا على منعدم العقل ، كما إنه في توجيه الخطاب إليهم " وما أوتيتم "دليل على قرار العقل في نظمها حيث فيه دلالة على توجيه التوبيخ صراحة إليهم وهذا أقوى في التوبيخ وما قوي التوبيخ إلا لظهور الخطأ . لذا تفرع على هذا الخبر استفهام توبيخي وتقريري على عدم عقل المخاطبين لأنهم لما لم يستدلوا بعقولهم على طريق الخير نزلوا منزلة من أفسد عقله (1) . وقرأ الجمهور " تعقلون " بتاء الخطاب وقرأ أبو عمرو " يعقلون " (2) بياء الغيبة على الالتفات عن خطابهم لتعجيب المؤمنين من حالهم ، وقيل لأنهم لما كانوا لا يعقلون نزلوا منزلة الغائب لبعدهم عن مقام الخطاب وهذا الوجه لدي أولى وأليق بالسياق المجادل للكافرين ، ومن الملاحظ أن القرآن ركز هنا على المتاع فكانت المقابلة " ما عند الله خير " لأن احتجاجهم بعدم الإيمان لخوفهم على فقدان متاع الدنيا ، أما في موضع الأنعام فكانت المقارنة" ولدار الآخرة خير " لأن فيه رد على قولهم " إن هي إلا حياتنا الدنيا ومانحن بمبعوثين " فرد النظم على كلٍ بصريح دعواه ليكون ذلك أظهر لعقولهم وإن غاب عنها فلخلل فيها لا في الحجة والبرهان .

وفي السياق البعدي تأكيد على هذه الحجة والبرهان حيث قال تعالى : **﴿أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين﴾** فهي تحقيق لمعنى الآية السابقة حيث زادتها بياناً بأن ما أوتوه زائل زوالاً معوضاً بضد المتاع والزينة وذلك قوله " ثم هو يوم القيامة من المحضرين". فقد أكد ترجيح الآخرة من وجه آخر وهو أنا لو قدرنا أن نعم الله كانت تنتهي إلى الانقطاع والفناء تتصل بالعذاب الدائم لكان صريح العقل يقتضي ترجيح الآخرة على نعم الدنيا فكيف إذا

1- التحرير والتنوير : 86/20 2 - معاني القراءات : 151

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اتصلت نعم الدنيا بعذاب الآخرة فأي عقل يرتاب في أن نعم الآخرة راجحة عليها [1] .

كما ذكر السياق البعدي دليلاً على زوال متاع الدنيا وانقلابه إلى عذاب بضرب المثل بقارون والذي رأى الناس فسقه عياناً و لم تغن عنه أمواله وزينته ﴿ **فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لـــذو حـــظ عظيم** ﴾ ، ﴿ **وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه مـــن دون الله وما كان من المنتصرين** ﴾ فهذا مثل ظاهر للعيان يلائم أن ينكر على من تمسك بالدنيا دون الآخرة ، وبمتاعها دون الإيمان وفضل الآخرة انعدم عقله خاصة لأن الأمر ظـــاهر لا يحتاج إلى عمق إدراك .

***

1 - التفسير الكبير :8/9

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن فرائد القرآن الكريم استعمال كلمة " الأحلام " بمعنى العقل وقد وردت في موضع واحد في قوله تعالى : ﴿ **أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون** ﴾ [1] فما المعنى الدقيق الذي يميز هذه اللفظة وما مرتبها من العقل واللب ، و لم استعملت بالذات في هذا السياق ؟ و بالنظر إلى المعنى اللغوي الدقيق لهذه اللفظة نجد أن معناها : من الحلم والأناة والتثبت في الأمور وذلك من شعار العقلاء [2] ، وما ذكر صاحب الكليات أوضح حيث قال : هو اسم لما يتلذذ به ، ثم استعمل للعقل لكون البلوغ وكمال العقل يلازم حال تلذذ الشخص في نومه [3]و ذكر صاحب التفسير الكبير قوله : وكأن الله من لطيف حكمته قرن الشهوة بالعقل وعن ظهور الشهوة كمل العقل ، فأشار إلى العقل بالإشارة إلى ما يقارنه وهو الحلم ليعلم أنه نذير كمال العقل ، لا العقل الذي به يحترز الإنسان تخطي الشرك ودخول النار [4] . فمن خلال هذه المعاني يتضح لنا أن الأحلام أعلى منزلة من العقل ، وذكر صاحب الفروق : أن الحلم من الحكمة ، والحكمة وجود الفعل على جهة الصواب . وضده السفه [5] . ومن ذلك يتضح أن الأحلام مرحلة عالية من مراحل العقل فلا تكون العقول أحلاماً إلا إذا صاحبها تصرف حسن ، فوقت التفكير هي عقول ، ولكن وقت التصرف في المواقف الصعبة تسمى أحلاماً فالملاحظ أنها أعلى من العقل ولكنها أدنى من الألباب لأن الألباب كمال العقول وخلوصها فما الذي رشح لاستعمالها؟.

أولاً رشح لاستعمالها السياق العام : فهو في التقول على الرسول -ﷺ- بتصرفات لا تليق حتى بالصغار فكلها أشياء لا تقترب من الأحلام بأي حال من الأحوال وهذا استهزاء ومذمة . وهذا الاستهزاء " أم تأمرهم أحلامهم " لا يصلح أن يستخدم فيه العقل

1-الطور :32
2- لسان العرب :980.
3- الكليات : لأبي البقاء :404
4- التفسير الكبير 510/214
5- الفروق اللغوية : 226

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فليس في العقل زيادة مزية ليعرض بهم بفقدانه ، أما الألباب فقد اطرد استعمال القرآن لها في المدح وهي لاتكون إلا لخاصة الخاصة فلا تصلح في هذا السياق الذي فيــه تعــريض بالمشركين وذم لهم لمخالفتهم التصرف السليم وهم من كانوا يــدعون بأهــل الأحــلام والنهى. ولذا وردت الآية بالاستفهام الإنكاري " أم تأمرهم أحلامهم "ومعنى إنكار " أم تأمرهم أحلامهم بهذا " أن الأحلام الراجحة لا تأمرهم بمثله ، وفيه تعريض بأنهم أضاعوا أحلامهم حين قالوا ذلك ، والاستفهام استعمل ، إما في التشكيك ليكون التشكيك باعثاً على التأمل في حالهم فيؤمن بأنهم طاغون ، وإما مستعمل في التقرير لكل سامع إذ يجدهم طاغين [1] والثاني عندي أقوى لأنه استعمل الهمزة في الاستفهام والتي تجعل المخاطب يقر بما يستفهم عنه ،كما إن المقابلة بين الأحلام والطغيان ظاهر أن ما قالوه لا تحكــم بــه الأحلام فبذلك يقر السامع والمخاطب بأنه من الطغيان لا من الأحلام . وحين ننظر إلى طريقة القرآن" أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون " نراه عمد إلى المقابلة وهــذا أبلغ قي بيان معنى الأحلام ، وفي مذمتهم " أم هم قوم طاغون " والطغيان تجاوز الحــد ، والتصرف على غير هدى ، فقابله بحسن التصرف ، أو التصرف على هدى وهذا هو معنى الأحلام وقد ذكر أبو هلال العسكري أن المعاني تعرف بأضدادها [2] فالضد هنا رشــح لاستخدام الأحلام بالذات.وقد يكون ذلك من باب تأكيد الذم بما يشبه المدح ومن قبيل هذه الآية ما ذكر في سورة هود في قصة سيدنا شعيب ﴿ **قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ** ﴾ [3]فأطلقوا الحليم ، والمراد به السفيه ها هنا ، والعلماء سموها استعارة تهكمية مــن بــاب استعمال اللفظ في ضد معناه .

وزيادة لفظة " قوم " فيها دلالة على أن من مقومات قوميتهم الطغيان وهــذا أدخــل في مذمتهم وبعدهم عن كونهم من المنصفين أصحاب الأحلام .

1- التحرير والتنوير :76/27
2- الفروق اللغوية : 37
3- سورة هود : 87

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد وردت لفظة القلب في الاستدلال على طلاقة القدرة في الموضعين اللذين وردا في سورة الأنفال وهي قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ** ﴾ [1] .

وقوله : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾ [2] .

وحين نلاحظ سياق سورة الأنفال نجده مشابهاً لسياق التوبة فالسياق فيها يعتمد على أفعال القلوب - أي الداخل - وأثرها على أفعالهم في الخارج فنجد التركيز فيه على القلب ، فحين مدح المؤمنين قال " وجلت قلوبهم " وحين ذكر المنة على المؤمنين جعل محلها القلب " ولتطمئن قلوبكم " ، وحين عاتب الكفار جعل العقاب والخذلان منصب على قلوبهم " سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب " ، وحين ذم الكافرين ذمهم بفقدان أدوات الإدراك التي تحي القلوب ، فكان ملائماً حين يستدل على مطلق القدرة أن يركز أيضاً على القلب و لم يرشح فقط السياق لاستعمال القلب بل رشح له القرآن والغرض من الاستدلال على طلاق القدرة . حيث قال تعالى: " واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون " فالسياق ينحو بالاستدلال في طلاقة القدرة على أمرين : الحول بين المرء وقلبه ، وثانياً : القدرة على الحشر وهو أعظم من الأول في الدلالة على طلاقة القدرة ونجد أن الألفاظ المجاورة للفظة القلب مرشحة له فحين ورد الاستدلال على قدرة الله قال " يحول بين المرء وقلبه " فأوردمن الألفاظ الدالة على الإنسان لفظة " المرء " دون الإنسان ، أو الناس فكل لها سياق يناسبها أما طلاقة القدرة هنا فلا يلائمها إلا " المرء " وذلك لأنها مستقطعة من معنى المروءة ، والمرء يفيد أنه أدب النفس ، ولهذا يقال : المروءة أدب مخصوص [3] . والمروءة خصال حميدة وميزتها الثبات ومن الخصال الحميدة أن الإنسان إذا عزم على فعل أنفذه ، ومن طلاقة قدرة الله أن يمنع صاحب المروءة القادر على تنفيذ الأفعال مع وجود الأسباب من فعله ولذلك استعمل(المرء) واستعمل(القلب) ولا يصلح

---

1 - الأنفال :24   2 -لأنفال: 70

3 – الفروق اللغوية : 310

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفؤاد ، لأن الفؤاد مضطرب دائم التقلب لا تظهر القدرة في منعه ومما أكد لفظة القلب " دلالة الواو حين قال " بين المرء وقلبه " بالعطف بالواو وفي الكلام حذف حيث حـــذف البين الثانية مع جواز ذكرها في اللغة فلم يرد القرآن بين المرء و بين قلبه بل حذفها ، وفي ذلك دلالة على شدة الاتصـــال بين الـــمرء وقلبه، ومع شدة الاتصال إلا أنه يقدر الحول بينهم ، وهذا يتناسب مع طلاقة القدرة ، ومع دلالة الثبات أيضاً حيث كنى سبحانه بشدة القرب اللازم للحيولة عن شدة الاقتدار على تبديل الغرائز والمروءات وفي ذلك دليل على تملكه على العبد قلبه بحيث ينسخ عزائمه ، ويغير ثباته ، ومقاصده ويحول بنية وبين الكفر إن أراد سعادته [(1)] .

وحين ننظر نظرة عامة للسياق البعدي نجد من العبارات ما يؤكد ملاءمة القلـــب من تكرار الحض على التقوى " واتقوا فتنة ..." ، " إن تتقوا الله يجعل لكـــم فرقانـــاً " والحض على العلم " واعلموا " والعلم اليقين لا يكون إلا في القلب .

والموضع الثاني مع قدرة الله على علم ما تخفي قلوبهم فالسياق سياق مجازاة فـــورد القلب " إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم " لأن القلب عليه أساس القبول ومما رشح لفظة القلب من القرآن ذكر العلم " يعلم " والتصريح بلفظ الجلالة " الله " الدالة على شدة القدرة . والقدرة لا تظهر إلا إذا علم ما يخفى لذا علـــق العلم بالقلب ، كما إن في تقديم الجار والمجرور" في قلوبكم " على معمولها " خيراً " تأكيد على قرار اللفظة في مكانها حيث قدمها لأن المعول عليها والاهتمام بها في المجازاة والتعدية بـــ " في " دليل على الثبات والتمكن الملائم للقلوب لأنه لو لم يكن ثابتاً ومتمكنـــاً لمـــا ترتب عليه الجزاء ..

1-تفسير أبي السعود :91/3

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كما إن التقييد بالشرط مؤكد لقرار " القلب " فقيد إيتائهم خيراً مما أخذ منهم ، والمغفرة لهم ، بما يعلمه الله في قلوبهم ، ولا يكون تقييد المجازاة إلا لما ثبت وكان اعتقاداً ولا يكون ذلك إلا في القلب ، أما ما كان مضطرباً غير ثابت فلا مجازاة عليه ..، كما إن في جمـــع القلوب إشارة إلى تعارفهم وتواطئهم على ما في قلوبهم ولا يكون ذلك إلا لشيء ثبـــت لديهم لذا وردت القلوب .

وفي السياق البعدي تأكيد على قرار لفظة " القلب " حيث جعل مقابل الخير " الخيانة " والخيانة من أعمال القلوب . وفي قوله " فقد خانوا الله من قبل " فلا يخون الله إلا مـــن ثبت كفره في قلبه وتمكن منه .. وكل ذلك مؤكد لقرار القلب في نظمها وسياقها ، كما إن جميع المفسرين حين فسروا الخير فسروه بـــ الخلوص والإيمان وصحة النية والعزم على الطاعة [1] وقيل المقصود شيئاً من تقواه الحاصلة على الإيمان الذي هو رأس الخير وعلـــى كل الخير [2] والإيمان والإخلاص والعزم على الطاعة لا تكون إلا في القلب.

***

1- التفسير الكبير :513/5

2- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور :246/3

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفصل الرابع

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفصل الرابع

بلاغة القرآن في التعبير عن القلب وما في معناه سياق التشريع

وفيه مبحثان :

الأول : في سياق الأوامر .

الثاني : في سياق النواهي .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المبحث الأول : سياق الأوامر:

الآيات الواردة في المبحث :

1- ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ التوبة:60

2- ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ الحج:32

3- ﴿تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَلِيماً﴾ الأحزاب:51

4- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً﴾ الأحزاب:53

5- ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ البقرة:197

6- ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ البقرة:179

7- ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ"﴾ البقرة:269

8- "﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً﴾ الطلاق:10

9- ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ البقرة:242

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

10- ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ النور:61

وفي سياق التشريع وردت لفظة القلب والفؤاد واللب والعقل غير أنّ ورود لفظة اللب والقلب كان أكثر من غيرهما من الألفاظ ، وذلك لأن العبادة والتشريعات لا بد في التزامها من ثبات عليها وإخلاص فيها وهذا يلائم القلب ، كما إن حكمة التشريعات وعظيم نفعها لا يدركه العقل المجرد بل لا بد من إعمال عقل وتفكر للوصول إلى حقائق نفعها ، ولا يفيد النظر لظاهر الأمور في معرفة حكمة هذه التشريعات ، لذا كان استعمال اللب فيها أنسب .

وسأبدأ أولاً بسياق تشريعات الأوامر لأن الآيات الواردة فيها أكثر من الواردة في سياق النواهي ، **وقد ورد القلب فيها في أربعة مواضع هي** :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[1]

وقوله : ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [2]

وقوله : ﴿تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَلِيماً﴾"[3]

---

1 - التوبة : 60

2 - الحج : 32

3 - الأحزاب : 51

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقوله : **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً﴾** (1)

فقد ورد "القلب" في سياق تعداد من تجب له الصدقة من الأصناف حيث قال تعالى : **﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾** (2)

فجعل من الأصناف الثمانية الذين فُرِضْت لهم الصدقة "المؤلفة قلوبهم" ومقتضى الظاهر ــ عند النظر العجلي ــ المؤلفة أفئدهم ؛ لأن هؤلاء لم يثبتوا بعد على الإيمان ، فلمَ أورد القلب ؟ و لمَ وردت هذه الآية في سورة التوبة على أن سياقها ليس سياق تشريع ؟

أما ورود القلب دون الفؤاد على الرغم من عدم ثبات إيمان هؤلاء بعد فلأن المقصود باعتبار المآل وليس الحال ، كما سأفصل عند تعرضي لنظم الآية .

وأما ورودها في سورة التوبة وكيف لاءمت الجو العام للسورة ؛ فلأن الجو العام للسورة فيه حديث عن المنافقين الذين لم تأتلف قلوبهم وتجتمع على الإيمان ، فجعل هؤلاء مصرف من مصارف الزكاة للدلالة على أنّ ذلك العطاء حتى لا يصيروا كهؤلاء فتكون قلوبهم مثل قلوب المنافقين ، فالنظم يدل على أنه يريد إخلاصاً يفصلهم عن المنافقين ، لذا وردت الآية في سورة التوبة.

وحين ننظر إلى نظم الآية ذاها نلاحظ قرار "القلب" في نظمها كما قرَّتْ في سياقها من وجوه :

---

1 - الأحزاب : 53

2 - التوبة : 60

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أولاها : مغايرة "المؤلفة قلوبهم" في النظم عن غيرها من الأصناف حيث نسب في الأصناف السابقة الوصف للذات لا للقلب فقال الفقراء والمساكين وابن السبيل وهكذا ، و لم يقل "المؤلفون" مثلاً ؛ وذلك لأن كلمة "المؤلفون" لا تؤدي الغاية التي أرادها النظم من الإنفاق فالمراد الإيمان الحق لا الإيمان الظاهر ، ولو نسب التأليف للذات لدخل في ذلك تأليف الظاهر وهذا غير مراد فالاعتداد بتأليف الداخل وهو الإيمان المعتد به ولا يكون ذلك إلا إذا أضاف التأليف للقلب .

وثانيها : ورود "مؤلفة" بصيغة اسم المفعول والذي فيه دلالة أولاً على الثبوت ، فالاسمية تدل دائماً على الثبوت والثبوت على الإيمان يلازم القلب ، كما أنّ في اسم المفعول دلالة على مآل أمرهم فالمعنى يعطون حتى يصلوا إلى ذلك ويثبتوا عليه ، فالقلوب إذن هي المقصود الرئيس من العطاء ، ففي استعمال اسم المفعول دلالة على عموم الفاعل عموماً يدل على المبالغة في الإحسان وهذه المبالغة ملائمة للقلب ، فكلما زاد الإنفاق وكان من جميع الأمة لا من فرد واحد من أفرادها كان ذلك أدعى للثبات على الإيمان وأدخل لتعميقه فيها .

وثالثها : في جمع "قلوبهم" دلالة على أن المقصود ليس قلباً واحداً بل قلوباً ، وهذا عموم يلائم عموم الفاعل في اسم المفعول ويلائم الثبات المقصود من التأليف فحين يكثرون يتعاونون على الثبات على الحق .

فلكل ما تقدم نلاحظ قرار القلب في نظمها وسياقها ولا يمكن أن يؤدي "الفؤاد" المضطرب معناها ، فالمطلوب ثبات واطمئنان بالإيمان لا اضطراب فيه .

كما ورد القلب في سياق الحج ، فقال تعالى : "ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ"(1) لغرض يتلاءم مع سياق الآية ونظمها ، فكما تقدم سياق الحج في تعظيم العبادة والتعظيم ينبع من القلب ، ولذا تقدم في السياق ما يؤكد ذلك فحين أمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام بتطهير البيت جعل ذلك لأجل "الطائفين والقائمين والركع السجود" ، فنلاحظ أن النظم ذكر الطائفين والقائمين باسم الفاعل لكنه حين ذكر الركع السجود عبر بصيغة المبالغة ، وفي هذا ملائمة للقلب وترشيح له حيث في المبالغة اهتمام

1- الحج : 32

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

"بالركوع السجود" واهتمام النظم تركز على ما فيه خشوع ، والركوع والسجود يظهر فيها الخشوع أكثر ، والخشوع من أعمال القلب ؛ فإذن في النظم تركيز على الصفات القلبية ، ونلاحظ أن النظم في السورة عموماً ركز في الحج على مستلزمات القلب حيث ترقى بهم في الوصف بدءاً بالطواف والقيام والركوع والسجود ثم وصل بهم إلى تعظيم حرمات الله واجتناب الآثام والأوزار "ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ" ، "فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ ..." ويرقى بهم حتى يصفهم بأنهم "حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ" ، وكل ذلك إنما هو نابع من القلب ، لذا قال تعالى بعد ذلك "ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ" ، فمن فعل ما سبق توصل لمراحل أرقى في الإيمان والاطمئنان القلبي فعظم شعائر الله وهذا لا يكون إلا من رسوخ للإيمان ولا يكون ذلك إلا في القلب .

والملاحظ أن الجملة أتت شرطية مرتبط جوابها بالفاء والنظم بالشرط فيه ترغيب وحث على العمل حيث رغبهم هنا في أمر زائد عن أداء الشعائر وهو تعظيمها ، فالأداء أعمال ظاهرية لكن المراد الأعمال القلبية لذا قال "يعظم شعائر الله" وهذا التعظيم ملائم لأن يذكر بعدها "فإنها من تقوى القلوب" فأورد الجواب مرتبطاً بالفاء للدلالة على أن سبب الأول رسوخ الثاني وهذا ملائم أيضاً للقلب في رسوخه وثباته وفي كون التعظيم لا يمكن أن يصدر إلا من الأعماق ومن قلب رسخ فيه الإيمان . وزاد على تأكيد هذا الثبات والرسوخ أن الجواب كان جملة اسمية ، ودلالة الجملة الاسمية على الثبات أقوى من دلالة الفعلية ، إضافة إلى ذلك أنها جملة مؤكدة "بأن" واسمها ضمير الشأن "فإنها" وهو دال على عظمة هذا الأمر وأهميته لأنه ليس المراد من هذه العبارة ظاهرها فقط ، بل المراد ما توصل إليه من تقوى القلوب وما في ذلك من تعظيم وهذا هو الغرض الرئيس ، ولذا كرر وأعاد "ليذكروا الله ، فاذكروا اسم الله ، لتكبروا الله" ، وأضاف الشعائر إلى "الله" بلفظ الجلالة بما فيه من معاني المهابة والخوف والتعظيم ومن ثم رشح لذكر تقوى القلب بعده ، ولاءم التعظيم قبله ، والنسق العام؛ لذا نرى أن لفظ الألوهية قد اطرد هنا في النسق العام "ويذكروا اسم الله" في موضعين على الرغم من أنه في الرزق "على ما رزقهم من بهيمة الأنعام"، "حرمات الله" ، "حنفاء لله" ، ".. ومن يشرك بالله" ، "شعائر الله" ، "فإلهكم إله واحد" ، إذا ذكر الله" .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والتعظيم للشعائر عموماً أعلى منزلة من فعلها فقط ، فقد يفعل المسلم الطاعة دون الشعور بعظمة شأنها وعظمة موجبها لكن حين يفعلها معظماً لها يكون بذلك محـــسناً لا مؤمناً فحسب ويكون ذلك "من تقوى القلوب" .

والملاحظ أن النظم أضاف التقوى هنا "للقلب" لا للذات ، وفي كـــل مواضـــع القرآن الكريم اطرد إضافة الأفعال الظاهرة التي يشترك فيها الجميع والتي هي عبارة عـــن أداء لها فقط إلى الذات ، ولكن حين يراد الأمور الداخلية التي بها التفاوت الكبير والتي بها التفاضل فتسند إلى القلب ، لذا أسند هنا التقوى إلى القلب لأن المراد أمر داخلي لا يكون إلا في القلب وهو تعظيم الشعائر . ولم يقل كما قال سابقاً في تعظيم الحرمات "فهو خير له عند ربه" لأنها مرحلة أعلى من سابقتها وأرقى منها ، إذ لا يكفي أن يتجنب الإنسان الأوثان وقول الزور ، بل لا بد من فعل أرقى ولذا كان الجزاء أعلى .

وفسر المفسرون "فإنها من تقوى القلوب" أي تعظيمها من أفعـــال ذوي تقـــوى القلوب ، فحذفت هذه المضافات ، ولا يستقيم المعنى إلا بتقديرها لأنه لا بد من راجـــع من الجزاء إلى : "من" يرتبط به[1]. وإنما ذكرت القلوب لأنها مراكز التقوى التي إذا ثبتت فيها وتمكنت ظهر أثرها في سائر الأعضاء ، فجعل المفسرون "الهاء" في "فإنها" عائدة على مقدر تقديره فإن "تعظيمها" فأعادوا على التعظيم .[2]

وهذا أليق بالسياق وبالنظم فالغرض هو التعظيم الموصل إلى التقـــوى ، ولـــذلك كانت البشرى للمخبتين "وبشر المخبتين" وكان وصفهم في تأثرهم داخلياً بأفعالهم دليلاً على أنه لم يرد مجرد الأداء الظاهر من تلك المناسك ، بل أثرهـــا .

---

1 _ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الاقاويل : 195/4

2 _ السابق : 195/4 ، التفسير الكبير : 224/82 ، البحر المحيط : 341/6 ، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : 151 ، التحرير والتنوير : 186/17 .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن ذلك قوله : " الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ" ، لذا أرى أن "من" في "من تقوى القلوب" ليست للتبعيض ولا للتقليل بل هي للتبين والمعنى "تعظيم الشعائر هـي تقـوى القلوب" يدلنا على ذلك قوله تعالى : "إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَـنِ الْفَحْـشَاءِ وَالْمُنْكَـرِ"[1]، فالصلاة شعيرة من شعائر الله كانت هي التقية والحاجز عن الفحشاء والمنكر .

وإنما ذكرت القلوب لأن المنافق قد يظهر التقوى في نفسه ، ولكن لما كان قلبـه خالياً منها لا جرم لا يكون له مجداً في أداء الطاعات ، أما المخلص الذي تكون التقـوى متمكنة في قلبه فإنه يبالغ في أداء الطاعات على سبيل الإخلاص ، لذا عرف القلوب (بأل) لكمال الوصف في هذه القلوب .

ويدلنا السياق البعدي ـــ كما سبق أن ألمحت ـــ على قرار القلـوب في مكانهـا فقلوب هؤلاء قلوب مخبتين ، والمخبت هو المطمئن بالإيمان وقيل الملازم للطاعة والسكون فهو خضوع مستمر على استواء[2]. وهذا الخضوع ملائم للقلب لذا حين بين وصـفهم قال : " الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم" فركز أيضاً على القلب في بيان وصفهم . وكل ذلك مؤكد لقرار القلب في سياقها ونظمها .

وفي سياق الحياة الخاصة بالنبي ـــ ﷺ ـــ مع أزواجه ورد أيضاً "القلـب" فقـال تعالى : ﴿**تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَـلا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَلِيماً**﴾[3] .

فالمخاطب هنا النبي ـــ ﷺ ـــ وأزواجه ـــ رضي الله عنهن وأرضاهن ـــ فاللائق معهم القلب لثباته ، فقلوبهم قلوب لا تزعزع فيها ولا اضطرابا وهو مـا يتلاقـى مـع القلب ؛ إذ فيها من المشاعر والأحاسيس الراقية ما وقر في القلوب من الرضا بمـا آتهـن رسول الله وعدم الحزن على ما لم يؤتهن وقرارها بما يراه الرسول ـــ ﷺ ـــ في شأنهن .

---

1 ـ العنكبوت : 45

2 ـ الفروق اللغوية : 265

3 ـ الأحزاب : 51

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وحين ننظر إلى السياق العام لهذه السورة نجد أن مقصودها الرئيس هو التشريف والتكريم لهذا النبي الكريم ـ ﷺ ـ ومن ثم يختلف مورد التكريم وجـهة التشريف ، ومن التكريم في هذا النظم أنه لم يصف قلبه ـ ﷺ ـ وقلوب أزوجه إلا بهذه اللفظـة و لم يـصفها "بالأفئدة" على الرغم من أن الأفئدة هي ما تستعمل عادة في المشاعر ، ولكـن في شـأن الرسول ـ ﷺ ـ وأزواجه المشاعر والأحاسيس موجهة قارّة لا اضـطراب فيهـا ولا تزعزع ، لذا كان الأليق بها القلب لا الفؤاد ، كيف لا وهي مشاعر سيد البشرية وخيرهم ومشاعر من اختارهن الله ـ جل وعلا ـ ليكن أزواجه .

وفي النظم ما يدلنا على هذا الثبات والقرار على الحال "تقر أعينهن" وقرار العـين كناية عن قناعة القلب وثباته واطمئنانه "لا يحزن" ، فالحزن اضطراب في الفؤاد فإن انتفى عن القلب قر وثبت ، ولذا نفى "بلا" فلا يحزن في الحال ولا في المـستقبل ، "يرضـين" والرضا من أعلى درجات الاطمئنان للقلب . ذكر ابن القيم في منزلة الرضـا[1] : وقـال الجنيد : الرضا هو صحة العلم الواصل إلى القلب ، فإذا باشر القلب حقيقة العلم أداه إلى الرضا .. والنفس إنما تنال الرضا بالطمأنينة والسكينة ، فمن درب نفسه على الطمأنينـة حصل له الرضا من الله تعالى ، ورضي الله عنه ، وذلك في قوله سبحانه : ﴿**يَـا أَيَّتُهَـا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ، ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ، فَادْخُلِي فِي عِبَـادِي ، وَادْخُلِـي جَنَّتِي**﴾[2]. وهذا ملائم للقلب وثباته .

ولا يفوتنا اعتماد النظم القرآني على الترقي في هذا الثبات حيث تدرج من قـرار العين بالكفاية بالصورة الظاهرة عن مشاعر داخلية ، ثم ذكر عدم الحزن "لا تحزن" انتهى بكمال الاطمئنان "يرضين" .

وفي تفويض الأمر في هذا الشأن للنبي- ﷺ- بعث للرضى والطمأنينة في نفوس أزواجه ؛ فهو- ﷺ- أعدل الناس وأرحمهم وأكرمهم وأحلمهم . وفيه بعث على توافق قلوبهن والتصـافي بينهـن والتوافق على طلب رضا رسول الله - ﷺ- وما فيه طيب نفسه[3].

---

1 ـ مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين : 579/2 ، 581

2 ـ الفجـر : 27 ـ 30

3- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل : 85/5

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن وجه آخر فلقوله تعالى : "فلا جناح عليك" مدخل لاستعمال لفظة القلب وذلك لأنه على القلوب المعول في الجناح وعدمه "والله يعلم ما في قلوبكم" ولعلم الله لما في قلوبهم شرع لهم ما لا يشق عليهم .

ثم انتقل السياق من حياة الرسول ـ ﷺ ـ مع أزواجه إلى أدب عام للمؤمنين مع أزواج الرسول ـ ﷺ ـ في خصوص لفظه ، وللرجال مع النساء ما دامت السموات والأرض بعموم المقصد والمعنى فقال تعالى مورداً لفظة القلب : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً**﴾ [1]. فالمخاطب هنا المؤمنون "يا أيها الذين آمنوا" ، والمعني أزواجه ـ ﷺ ـ وهن قارّات على صفة الطهر والعفاف وكونهن قدوة لمن بعدهن أدعى لثباتهن ونقاء قلوبهن وصفائها ، كما إن السياق سياق تشريع ولا بد لما شرع أن يكون ثابتاً غير متغير ، ويكون معتقداً ـ لا فكرة طارئة ـ وهذا يلائم القلب . كما إن القصد في هذه الآية إلى العلاقة السامية بين الرجال والنساء وأدوات سموها ورقيها وهذا لا يتحقق إلا في القلب .

وما تقدم في السياق يثبت الطهر المنصوص عليه في الآية ويقره في قلوبهم حيث نظم الجلوس في بيت الرسول ـ ﷺ ـ وجعل سؤال نسائه من وراء الحجاب .

ثم ما ورد في السياق البعدي : "وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً" مناسبة لـ"أطهر لقلوبكم وقلوبهن" ففي تحريم نكاح زوجات الرسول ـ ﷺ ـ أبداً تطهير وتشريف لهن فهن أمهات المؤمنين ، كما فيه

---

1 - الأحزاب : 53

تطهير لقلوب الصحابة فلا يمكن أن يفكروا في نكاح أزواجه ــ ﷺ ــ فهو محرم عليهم.

لذا ورد النظم على الترقي في الوصف "أطهر" فهم لم ينفكوا عن الطهر لحظة ، و لم يتغيروا عن هذا الوصف ، لذا استعمل أفعل التفضيل "أطهر" و لم يرد النظم "ذلك يطهر قلوبكم" أو خلافه وذلك لأن قلوبهم طاهرة أصلاً ولكن الله يرشدهم إلى ما يرقى طهارة قلوبهم بالسؤال من وراء حجاب وذلك لأن للعين مدخلاً على القلب ، فالله لا يأمرهم بتطهير قلوبهم فقط بل يأمرهم ويدلهم على وسيلة الترقي في الطهر والطهارة تكون في الخلقة والمعاني فهي تقتضي منافاة العيب[1] وفي هذا دلالة على أن هذه الصفة تكون ثابتة وهذا ملائم لحال القلب .

ونجد أن الإشارة إلى "أطهر" كانت بـ "ذلكم" دون ذلك أو هذا لتعظيم شأنه. ثم إنه بدأ بقلوب الصحابة لأنها أحوج من قلوب أزواج الرسول- ﷺ -وذلك لأنهن أقرب إلى الرسول - ﷺ - فهن أطهر .

وكما ورد القلب فيما سبق من المواضع ، فقد ورد اللب في إدراك أسرار الحج ، وكذلك في إدراك حقيقة نفع القصاص ، والإنفاق ، وحقيقة الأمور ، لأنها أمور خفية لا يدركها إلا خاصة الناس وهم أولوا الألباب ، وقد وردت في المواضع التالية :

في قوله تعالى : **﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾**[2].

وقوله : **﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾**[3].

وقوله : **﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾**[4].

---

1 _ الفروق اللغوية : 295

2 _ البقرة : 197

3 _ البقرة : 179

4 _ البقرة: 269

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقوله : ﴿**أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً**﴾ (1).

فالموضع الأول في سياق العبادة وخاصة في فريضة الحج كالآية التي وردت في سورة البقرة ، ولكن نلاحظ أن في موضع البقرة ورد اللب ، في حين ورد القلب في موضع الحج ؛ ويعود ذلك لفرق رئيس بين السياقين والنظمين ، ففي البقرة السياق في إدراك أسرار العبادة والانتفاع بها انتفاعاً صحيحاً مغايراً لما كان مألوفاً ، والحج في تعظيم العبادة ، ومن ثم اختلف النظم تبعاً لاختلاف الغرض ، فإدراك الأسرار والمنافع ثم الانتفاع بها يحتاج إلى لب ، والتعظيم ينبع من القلب .

والنظم العام بدءاً من ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ (2) مبني على قلب اعتقادات وأفعال سائدة لديهم وإرشادهم إلى ما هو خير منها كإرشادهم هنا للبر بأنه التقوى لا الأعمال الظاهرية التي كانوا يفعلونها واستعمل هنا "البر" بالمصدر للمبالغة في هذا البر ، وهذا يحتاج إلى لب لإدراكه لأن مناط الحكمة خفي فلا يدركها إلا صاحب لب .

وفي نظم الآية ما يدل على أن ما استُودِع فيها من أسرار وحكم لا يدرك كنهها إلا ذو لب ، "واتقون يا أولي الألباب" ، والنظم ورد بالأمر الذي وليه النداء وذلك ملائم لسياق البقرة حيث في هذا النظم أمر باتباع التشريعات وسياق البقرة سياق تشريعات وأوامر ولذا لاءمته طريقة النظم . والملاحظ أن نداء المؤمنين بـ "يا أولي الألباب" قد اطرد في القرآن في سياق التقوى أمراً أو حضاً في نظم الخبر ؛ ذلك أنه لا يستجيب لهذا النداء إلا أولوا لب ، ولا يدرك خيرية ما أمر به إلا ذو لب ، ولا يؤدي حقه إلا أولوا لب .. وورود التقوى مع "اللب" في مثل هذا ؛ لأن التقوى خفية وأمرها عظيم ؛ لأنها تتعلق بالخوف من الله ، وهذا يدعوه إلى امتثال الأمر على أكمل وجه ، وأتمه وأبعده عن الرياء

---

1 ـ الفروق اللغوية : 295

2 ـ البقرة " 189

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والاتقاء الاحتراس مما يخاف[1]. ولا يكون ذلك إلا من ذي لب حيث إنه بعد حرصه على فعل الطاعات يحترس ويخاف ممن يعبده ، فلا يقترب مما حرم ، ولكونهم خصوا بلب العقول وخالصها خصهم بالنداء بالأمر بالتقوى فليس كل عاقل يتقي الله فالتقوى مترلة أعلى من مجرد الطاعة ، ولذلك عقل فاعلها أعلى من أي عقل وإدراكه خالص من الشوائب فهو لا يفعل المحرم بل يتقي كل ما يقربه إليه ويفعل كل ما يجعل بينه وبين غضب الله وقاية .

ولذا نجد في السياق البعدي أمراً زائداً على ما هو معهود ومتعارف فأمرهم بالإكثار من الذكر عما هو معهود ومتعارف بينهم ، وألا يكونوا كغيرهم من الناس ينظرون إلى العاجل وهمهم القريب الداني ، بل هم لكونهم أولي الألباب نظرهم أبعد وطلبهم أشمل وأسمى فقال : ﴿**فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾ فنبههم إلى ما هو أفضل من التفاخر بالأنساب وسؤال فضل الآخرة لأنه فضلهم على غيرهم في الطلب " آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار" كما فضلهم باللب . كما أن في قوله تعالى : "واذكروا الله في أيام معدودات" مناسبة لما سبق حيث كرر فيه الأمر بذكر الله وكذلك الأمر بتقوى الله "واتقوا الله" كما نجد في السياق أيضاً المقارنة بين "من يعجبك قوله ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام" وبين "من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله" وهو فرق لا يدركه إلا أولو الألباب من الناس . فقال تعالى :"الحج أشهر معلومات" "فجعل الحج" "أشهر" بجمع القلة فهي وإن كانت أياماً قليلة لكن فضلها عظيم لا يدركه إلا أولو الألباب كما إن قلة أيامها تهيب بصاحب العقل الخالص أن يستغلها ولا يضيعها فيما لا ينفعه "فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج" جعل الجملة شرطية هنا "فمن فرض .." فلا رفث ، فمن ألزم نفسه الحج يلزمه عدم الرفث والفسوق والجدال ، والفاء في الجواب دالة على ارتباط الجواب بالأول ولا

1 _ الفروق اللغوية : 273

يلتزم ذلك دون إخلال به إلا من كان صـــــــــاحب لب يخاف ويتقي الله ولذا قـــال : "فرض" ولم يقل نوى لأن في الفرض إلزام للنفس ولا يلزم نفسه طاعة الله -جل وعلا - إلا من رجح عقله وخلص من الشهوات .

ونلاحظ أن النظم جاء على النفي : "فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج" دون النهي فلم يقل : فلا ترفثوا ولا تفسقوا ولا تجادلوا ؛ ونفى الاسم ليوميء إلى أمرين :

أ- الدلالة على أنهم قد امتثلوا ، فأخبر الله عنهم ذلك بأسلوب النفي ؛ تحسيناً للظن بهم وهذا لا يكون إلا من ذي لب .

ب- الإيحاء إلى أن تلك الأفعال : "الرفث ، والفسوق والجدال" ــ مناقضة للحج ومــن ثم التقوى وهذا يحتاج إلى لبيب ليتنبه له[1] .

ثم ترقى من ترك المثالب إلى التخلق بالمكارم وهذا من وادي اللب خاصة أنــه بــدأ بالحض على التقوى ، ثم مضى السياق في الأمر بالاستغفار وذكر الله ، حيث قال تعالى : "وتزودوا فإن خير الزاد التقوى" والزاد هو المدخر الزائد على ما يحتاج إليه في الوقت[2] . وهذا ــ ابتداء ــ من فعل اللبيب ، فإذا كان الزاد تقوى كان أدعى إلى الوصف بــ"أولي الألباب" فاللبيب من يجعل زاده التقوى ، ولذا قال تعالى : "فإن خــير الــزاد التقــوى" بالتأكيد على أن خير الزاد التقوى ، فهذا الأفضل والأخص ولذلك جعله لأفضل النـــاس وأخصهم وهو أولو الألباب ، فالتفضيل في "خير" يلائم تفضيل "أولو الألباب" بخـــالص العقول وأصفاها فهم أولى من غيرهم بخير الزاد كما إنهم أحرص عليه .

كما إن في التلميح بفضل التقوى وكونها خير الزاد ملاءمة لأولي الألباب حيث إن زادها في الروح ولا يلمس فضل تقويته للمؤمن إلا من كان ذا لب خالص . فلكـــل مـــا تقدم نلاحظ ملاءمة اللب لنظمه وسياقه .

وفي بيان الحكمة من تشريعات الدماء قال تعالى : ﴿**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَـــا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾[3] وردت"اللب"حيث إن ظاهر اللفظ ينبيء عن التناقض ؛ إذ

---

1 ـ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : 377/1 2 ـ المفردات في غريب القرآن : 215

3 ـ البقرة : 179

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

القصاص قتل وفناء والحياة خلاف ذلك ، ولكن عمق التدبر والنظر يهدي إلى خـــلاف الظاهر وهذا لا يدركه إلا "أولي الألباب" ، ثم إن السياق العام في عدم الاغترار بظـــاهر الأمر وإنما الغوص إلى المآلات . وهذا من ذاك فأولو الألباب هم العقلاء الذين يعرفـــون العواقب ويعلمون جهات الخوف فإن أرادوا الإقدام على قتل أعـــدائهم وعلمـــوا أنهـــم يطالبون بالقود صار ذلك رادعاً لهم لأن العاقل لا يريد إتلاف غيره بإتلاف نفسه ، فـــإذا خاف ذلك كان خوفه سبباً للكف والامتناع ، إلا أن هذا الخوف إنما يتولد من الفكر ممن كان له عقل يهديه إلى هذا الفكر فمن لا عقل له يهديه إلى هذا الفكر لا يحصل له هـــذا الخوف ، فلهذا السبب خص الله سبحانه بهذا الخطاب "أولي الألباب"[1] وهو باطن العقل الذي شأنه أن يلحظ أمر الله في المشهودات كما شأن ظاهر العقل أن يلحظ الحقائق مـــن المخلوقات فهم الناظرون إلى ربهم في آياته "[2] .

وفي تقديم "لكم" اختصاص لمن يدرك هذه الحقيقة وهذا الاختصاص يلائم خـــص أولي الألباب بالنداء دون غيرهم ولذلك جيء في التعريف بطريق الإضافة الدالة على أنهم من أهل العقول الكاملة ؛ لأن حكمته لا يدركها إلا أهل النظر الصحيح ، فهو في باديء الرأي كأنه عقوبة بمثل الجناية ، لأن القصاص رزية ثانية لكنه عند المتأمل حياة لا رزيـــة وفي التصريح بالمطلوب الذي هو الحياة بالنص عليها زجر عن القتل بغير حق ؛ كما جعل القصاص كالمنبع والمعدن للحياة ، بإدخال "في" عليه ــ ولا يدرك هذه الدقة في التـــشريع إلا أولوا الألباب ــ وما في تنكير "حياة" من إفادة النوعية والتعظيم[3]عبرة لأولي الألباب فهم الذين يدركون عظمة هذه الحياة التي يكون فيهـــا الأمـــن ونوعيـــة هـــذه الحيـــاة المطمئنة ، وفي ختم الله تعالى الآية بقوله "لعلكم تتقون" ملاءمة للألباب أيضاً حيـــث في لعل إنشاء رجاء كما ذهب صاحب التحرير[4]حيـــث هـــي هنا مستأنفة والرجاء هنا أن يتقى أولو الألباب وفي التقوى حصول لصفات الكمال التي يجمعها التدين ولـــذا فهـــي ملائمة لمن وهبهم الله الكمال في العقول .

---

1 ـ التفسير الكبير : 230/2/2

2 ـ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : 334/1

3 ـ ينظر الإيضاح في علوم البلاغة : 180 ، 181

4 ـ التحرير والتنوير : 143/2

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكما سبق أن ذكرت أن الأمر بالتقوى في سياق القرآن الكريم حين يرد موجهاً لمخاطب معين أو منادى معين فإن القرآن اطرد في نظمه أن يكون هذا الموجه إليه الخطاب ـ حين يذكر ـ أولي الألباب لأنهم هم أهل الكمال في العقل الذي يوصلهم إلى هذه المرتبة من العمل ـ التقوى ـ

فنجد أن أولي الألباب هنا في هذه الآية تقدمها ما رشح لها من تقديم "لكم" وفيه اختصاص لأناس مخصوصين ، ومن ذكر القصاص وجعل الحياة تنبع منه فحكمته خافية إلا على أولي الألباب وفي تنكير "حياة" حيث لا يعلم عظمة هذه الحياة ونوعها إلا أولوا الألباب . وعقبها ـ الألباب ـ ما يؤيدها ويؤكدها حيث كان الرجاء منصرفاً للتقوى دون غيرها والتقوى أمر عزيز لا يصل إليه أي عاقل بل لا بد أن يكون له نظر وتأمل وتفكر .

وفي قوله تعالى : ﴿**يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾[1] في سياق الإنفاق و قد ورد اللب دون غيره من الألفاظ وذلك لأن في السياق العام والخاص والنظم ما يؤيدها ويؤكد على دقتها وقرارها في مكانها حيث سبق في السياق الأمثلة التي ضربها الله لأصناف المنفقين فمنهم من ينفق في سبيل الله ، ومنهم من ينفق رئاء الناس مبيناً عاقبة كل منهما عن طريق التشبيه والتمثيل ، وهذا يحتاج تفكراً وتذكراً وإعمال فكر في نتاج كل عمل وكل إنفاق ومعرفة الفرق في الفصل بينهما ولا يكون ذلك إلا من صاحب لب خالص ، كما إن الالتزام بإنفاق خير المال دون خبيثه إطاعة لأمر الله وابتغاء مرضاته والتغلب على حب المال والحرص عليه لا يكون إلا من "أولوا الألباب" .

وفي السياق القريب تقدمت أشياء ظاهرها يدل على أنها مضادة للحكمة لمن لا يعلم ولا يدرك إدراكاً كاملاً ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ**﴾

1- البقرة : 269

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فإنفاق خير المال دون خبيثه ظاهره خسران ومن ليس له لب خالص يظن أن ذلك مضاد للحكمة ، كما في قوله : "الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً" ، أيضاً أمر مضاد للحكمة لمن لا يدرك حيث لا يدرك إغراء الشيطان وكذبه وأن تزيينه أصله خسران وأن وعد الله هو الحق إلا صاحب اللب ، لذا قال تعالى بعد ذلك "يؤتي الحكمة من يشاء .." فهي ملائمة لما سبقها لأن الحكمة وضع الشيء في موضعه ومن ثم فالحكمة لا تكون إلا لأولي الألباب لأنهم هم الذين يضعون الأمور في مواضعها ، فذكر الحكمة إذن مرشح لأولي الألباب كما رشح النظم قبلها للحكمة ، فالنظم نسيج واحد يؤدي بعضه إلى بعض ، فنظم الآية مؤكد لقرار "الألباب" في نظمها حيث رأينا كيف رشحت الحكمة للألباب ، كما إن دلالة التخير في "من يشاء" دلالة على فضل من تخيرهم الله واختصهم بفضله دون غيرهم وهذا الاختصاص في التخير يلائم من خصهم بأكمل العقول وخالصها .

كما في القصر في قوله "وما يذكر إلا أولوا الألباب" والذي ورد "بما" وأداة الاستثناء "إلا" لأن السياق دل على أن المخاطب منكر لذلك . ويظهر لي أنه حقيقي على معنى الكمال في الوصف ملاءمة لـ "أولوا الألباب" فمعنى الكمال في الوصف ملائم لكمال عقولهم .

أما ورود الذكرى مع غيرهم من غير قصر في مواضع أخرى في الذكر الحكيم فلأن الوصف المراد ليس الكمال في التذكر ولا يفهم في بقية النصوص على ذلك وإنما يوجه المعنى على أن الوصف فيهم قليل أو ضعيف لا يؤثر فيهم كما أثرت هنا وأدلل على هذا الفهم لمعنى التذكر هنا أن التذكر بهذه الصيغة "يذّكر" بالإدغام – أي التاء في الذال – لم يرد إلا في هذا الموضع وفيه دلالة على سرعة التذكر وكماله وهذا لا يكون إلا من أولي الألباب ، لذا وردت الذكرى دون قصر في غير هذا الوضع لأنه ليس فيها ميزة كميزة "يذّكر" بالإدغام والتي تلائم السياق والنظم هنا .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهذا ملائم للسياق البعدي ، فالتمييز بين كثرة مال الربا الظاهرة ومحق بركته الباطنة وبين قلة مال الصدقة مع بركته لا يكون إلا من "أولي الألباب" "يمحق الله الربا ويربي الصدقات" ، كما إن في الفطنة لاحتياج الفقراء للنفقة "للفقراء الذين أحصروا .." مع أن ظاهرهم يدل على غير ذلك "يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف" دليل على عقل كامل ولب خالص .

وفي قوله تعالى : ﴿ **أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً**﴾ (1) .

وردت الألباب والآية في سياق التخويف من الكفر ، ونلاحظ أنه ورد في نظم الآية قوله "فاتقوا الله" فأتى بالفاء هنا والتي رتبت الأمر بالتقوى لأولي الألباب على ماسبق من أخبار من سبق من الأمم فالجانب هنا هو التخويف والترهيب وهو يتلاءم مع التقوى من وجه وهذا لا يتأتى إلا من أولي الألباب هذا جانب ، ومن جانب آخر نلاحظ تكرار منافع التقوى في أكثر من موضع يبرز الصلة بين "التقوى" وبين "أولي الألباب" في النظم فالسياق أيضاً سياق تقوى حتى في بيان الأحكام وهذا جانب ترغيب ، ولذلك فالسياق يجمع بين جانبين جانب ترهيب وجانب ترغيب وكلاهما ملائم لأولي الألباب خاصة لأنهم هم الذين يدركون حقائق الأمور .

وحين ننظر إلى السياق عموماً نجده يؤكد على قرار اللب في سياقه حيث إن السياق هنا مركز على عواقب الأمور فكل تعقيب في السورة يذكر انقلاب الأمور عما هي عليه كقوله تعالى : "لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً"، "وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً" ، "سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً" ، "فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُكْراً ، فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْراً" . ولا يدرك هذه العواقب سواء كان في تغير الحال بين الزوجين ، أو تحول العسر إلى يسر ، أو عذاب من تكبر وتجبر إلا ذوو الألباب ، لذا كان الملائم هنا اللب لا العقل على الرغم من أن السورة تكلمت عن الطلاق ، وحين ورد الطلاق في سياق البقرة ورد العقل و لم يرد اللب ذلك أن سياق البقرة تكلم عن أحكام الطلاق وهذا عام لجميع المكلفين كما إنها أحكام ظاهرة فلاءمها

---

1 ـ الطلاق : 10

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

العقل أما هنا فلم يتحدث عن تفصيل الأحكام ، بل كان التركيز على عواقـــب الأمـــور أكثر لذا لاءم اللب .

وكما لاءم السياق اللب فقد لاءمه أيضاً النظم فنلاحظ أنه تقدم "الألباب" الأمر بالتقوى ـــ وسبق بيان الملاءمة بينهما ـــ كما إن النظم اتبع أولي الألباب بقوله "والذين آمنوا" فجعلهم بدلاً من أولي الألباب ، فلا يكون أولي لب إلا من كان مؤمناً وهذا تأكيد على كماله . وفي قوله "قد أنزل الله إليكم ذكرا" قال "ذكرا" دون غيره وجعله "إليكم" أي خاصاً بهذه الفئة من الناس ، والذكر مرتبة عالية لا تكون إلا لأولي الألباب وقد رأينا أن الذكرى والتذكر لا تكون إلا لأولي الألباب .

فإذن ما سبق اللفظة مهد لها وما عقبها أكد أيضاً على قرارها فهي دقيقـــة إذن في نظمها قارة فيه كما قرت في سياقها .

وإذا كان اللب ورد في المواضع السابقة فقـــد ورد العقـــل في مواضـــع أخـــري لاختلاف السياق والنظم ، كالتشريعات الخاصة بالأسرة وذلك لظهورها أولاً ، ولكونها شئون عامة يتعامل بها الجميع ثانياً ، فهي إذن ليست لفئة معينة ، حتى يعبر باللب .

وقد ورد في موضعين أولهما قوله تعالى : ﴿**كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُـــمْ تَعْقِلُونَ**﴾ [1] . والثاني في قوله : ﴿**لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الْأَعْرَجِ حَـــرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّـــهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ [2] .

---

1 ـ البقـــرة : 242
2 ـ النـــور : 61

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فكلا الموضعين سبقا في السياق بأحكام معللة ، فهي منطقية وهذا مقتضى العقل ، ولذا ذكر كل حكم بعلته التي يتوصل اليها عن طريق العقل ومنها في الموضع الأول عدم جواز كتمان المطلقة حملها لعلة أن زوجها ــ لمصلحة من في بطنها ــ أحق بردها إن أراد إصلاحاً ، وجواز الأخذ من مهر المطلقة إن خيف عدم إقامة حدود الله ، وجواز رجوع المطلقة طلاقاً بائناً لزوجها الأول إن ظنا أن يقيما حدود الله وتحريم إمساك المطلقة دون رغبة خوفاً من الاعتداء عليها ، والنفقة عليها إن كانت مرضعة لولدها لعلة إرضاعها لولده ، وعدم عقد نكاح المعتدة حتى يبلغ كتابها أجله لعلة رجوعها لزوجها ، والأمر بالمتاع للمطلقة وإن لم يمسها لأن ذلك من الإحسان ، ومشروعية عفو المطلقة عن مهرها قبل مسها لأن ذلك من التقوى .

وفي الموضع الثاني : مشروعية الاستئذان وخاصة لمن بلغ الحلم لعلة عدم كشف عورات المسلمين ، وجواز وضع القواعد من النساء الحجاب بدون زينة لعلة أنها لم تعد مظنة الفتنة ، وما ورد في الآية ذاتها من رفع الحرج عن الأكل في بيوت الأقارب لأنها كبيوتنا ، ومشروعية السلام لأن فيه سلام ونفع لذواتنا بالإضافة إلى استئناس الناس بنا .

فكل ما سبق من التشريعات ذكر مع علته وهذا أدخل وأدعى لوضوحه وبالتالي إدراكه بالعقل ؛ لذا كان التعقيب عليها بـ "كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ" .

وكما رشح السياق للعقل أكد النظم على قراره فكل ما جاوره من الألفاظ من تقديم ملائم للعقل مؤكد على دقته في نظمه حيث بدأ النظم بـ "كذلك" التي تقضي أن هناك بيان ووضوح سابق في الأحكام ــ وهو ظاهر كما رأينا ــ ومثله ظهور بيان آيات الله وأحكامه .

كما إن في قوله "يبين" بمعناها وصيغتها ملاءمة أخرى للعقل فالبيان تفصيل ووضوح ، وهذا يلائم إدراك العقل ، كما في ورودها مضارعة دليل على استمراراً الوضوح استمراراً يسهل إدراكه وهذا أيضاً ملائم للعقل ، وكون فاعل هذا البيان "الله" فهو أدل على وضوحه وفي تقديم "لكم" دلالة اختصاص للمخاطبين بالتوضيح وفي ذلك عناية بهم حيث يكون التوضيح موجه لهم بشكل خاص فيكون ذلك أدعى للوضوح وبالتالي للفهم .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي ذكر "آياته ــ الآيات" والآيات العلامات الواضحة زيادة في بيان وضوح هذه الأحكام وكونها مدركة لكل عاقل ؛ لذا كان دقيقاً أن تكون الفاصلة بـ "لعلكم تعقلون" برجاء العقل حيث تقدم ما يساعدهم على التعقل والفهم للشرائع ؛ لذا ورد الخطاب عاماً لم يختص به أحداً دون أحد ، وهذا ملائم للعقل فهو عام في جميع المخاطبين ، وفي حذف مفعول "تعقلون" ملاءمة أخرى للعقل ففيه رجاء أن يكون تنفيذهم لأحكام الله في هذا الجانب موصلاً لهم إلى العقل العام بما في ذلك أموالهم ومعاشهم في حياتهم ، وأن فقدانها تخبط وضرب بغير هدى .

***

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المبحث الثاني : سياق النواهي

الآيات الواردة في المبحث :

1- ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (البقرة:225)

2- ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ الأحزاب:4

3- ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ (الأحزاب:5)

4- ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِباً فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:283)

5- ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ (الاسراء:36)

6- ﴿قُلْ لا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (المائدة:100)

7- ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ الأنعام:151

وفي سياق النواهي ورد القلب في مواضع و اللب في مواضع أخرى وكذلك العقل والفؤاد .

---

1 _ البقـرة : 225

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أما المواضع التي ورد فيها القلب فهي :

قوله تعالى : **﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾** (1)

وقوله : **﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾** (1)

وقوله : **﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِباً فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾** (2)

فالموضعان الأولان نسب فيهما الفعل إلى القلب وعليه ترتب الإثم أو المؤاخذة وإن اختلف السياق والنظم ، فالموضع الأول في سياق الأيمان والمؤاخذة على ما كان من فعل القلب والمخاطب فيها عموم المسلمين ، أما الموضع الثاني ففي سياق تحريم التبني والمخاطب فيه كان النبي ـ ﷺ ـ والصحابة وإن كان الحكم عاماً لمن بعدهم ؛ لذا اختلف النظم تبعاً لاختلاف السياق واختلاف المخاطب .

فالآية الواردة في الأيمان قال تعالى :﴿ **لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ"** . **والآية الواردة في التبني قال تعالى : ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾** . نلاحظ فيها المقابلة بين "اللغو" و "كسبت قلوبكم" ، ثم بين "فيما أخطأتم به" و "لكن ما تعمدت قلوبكم" فلا مؤاخذة ـ والمؤاخذة فيها معنى المجازاة والمقابلة(3)ـ في اللغو واللغو في الأيمان أي مالا عقد عليه وذلك ما يجري وصلاً للكلام بضرب من العادة(4)، والآية تحمل معنيين في "لا يؤاخذكم الله في اللغو في إيمانكم" فقد يكون المعنى النهي عن الإكثار من الحلف ، وقد يكون عدم

---

1 ـ الأحزاب : 5

2 ـ البقـرة : 283

3 ـ المفردات في غريب القرآن : 22

4 ـ السابق : 455

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التحرج في الحلف إن كان للإصلاح والبر بين الناس وفي كلا الجانبين لا يعد من عمل القلب لأنه لا قصد إليه ولا إصرار عليه ، وكذلك الخطأ في سياق التبني لا قصد إليه ، لذا لم يترتب عليهما ــ هنا ــ لا مؤاخذة ولا إثم ، ولكن حين كانت الأيمان من كسب القلب ، والتبني من عمل القلب نسب الفعل إلى القلب لأنه ترتب عليه اعتقاد داخلي ، والكسب إصرار وإكثار من العمل بقصد وفيه سعي سابق لأجل ما يكسب قال الزمخشري : "كسبت قلوبكم" أي اقترفتم من إثم القصد إلى الكذب في اليمين ونوت قلوبكم وقصدت من الأيمان و لم يكن كسب اللسان وحده[1] . وفي التعمد أيضاً إصرار لذا ورد على وزن "تفعّل" والذي فيه دلالة على التكثير والمبالغة والاستمرار على الفعل ، وهذا يدل على أنه لم يصدر إلا عن القلب لا لغواً ولا خطأً فمرجع هذه الأفعال داخلي لذا نسب إلى القلب "كسبت قلوبكم" "تعمدت قلوبكم" كما إن السياق في البقرة عموماً فيه اهتمام بالعقيدة وصلاح القلب لذا لم يرد النظم في الأيمان في المائدة بالنسبة إلى القلب بل إلى الذات "عقدتم الأيمان" لأن سياقها تشريعات. وفي الأحزاب سياق تشريف وتكريم ، وكلاهما مناسبان للقلب . وهذه النسبة من نسبة الفعل إلى الجارحة وهذا أبلغ في الدلالة على المقصود من التعبير بالبعض عن الكل وقيل أن القصد في إسناد التعمد للقلوب هو التنفير من القصد إلى الخطأ والانحراف حتى تظل القلوب مستقيمة نقية ، فإنها هي موطن الإيمان ومعدن الخير في الإنسان ، والقصد إلى الخطأ يحجب القلب عن كل خير ويحبسه في ظلمة الذنب "فلا يهتدي إلى وجه من وجوه الصواب"[2].

ويظهر لي أن الأقوى أن نسب الفعل للقلب اطرد في جميع نظم القرآن حين يكون الفعل داخليا ، ويدل على اعتقاد وإصرار لذا ترتب عليه الجزاء ، ولأن القصد إلى الأعمال الباطنة في الدين لا الأعمال الظاهرة .

ونلاحظ في النظم اختلاف في الموضعين ، وإن كان نسب الفعل في الموضعين للقلب ، فالموضع الأول قال "كسبت قلوبكم" مستعملاً الكسب ، في حين قال في الثاني "تعمدت قلوبكم" مستعملاً التعمد ، وذلك لأن السياق مختلف والمخاطب أيضاً فالسياق

1 ـ الكشاف عن حقائق غوامض التتريل وعيون الاقاويل : 427/1

2 ـ من أسرار التعبير القرآني : دراسة تحليلية لسورة الأحزاب : 70

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

في الكسب عن اليمين الغموس ، فعبر بالكلمة الأقـــــوى في الدلالة عـــــلى تعمد الإثم ، كما إن الســــياق في البقرة سياق مخالفات وتحذير منها وكلمة الكسب أدخل في التحذير عن اليمين الغموس ،والمخاطب عموم المسلمين ومنهم الصالح ومنــهم دون ذلك .

أما الموضع الثاني فالآية في تحريم التبني ، وسياق سورة الأحــزاب كــان في تــشريف الرسول وتكريمه ، ومقتضى هذا التشريف أن يورد النظم لفظة ألــين مــن الكــسب فاستعمل "التعمد" ، كما إن المخاطب ــ كما سبق ــ الرسول والصحابة إضافة إلى أن إثم التبني أقل من التجرؤ بالحلف بالله كذباً . لذا ترتب على الأول المؤاخذة والــتي فيهــا دلالة على الجمع بين الإثم والعقاب لأن الإثم أكبر ، وترتب على الثاني الجناح وهو أقل من المؤاخذة ففيه دلالة على الإثم وليس فيه تصريح بالعقاب ، وهــذا ملائــم للــسياق وللمخاطب . وكما نسب النظم التعمد للقلب ، نسب الخطأ للذات فالخطأ عمل ظاهري واطرد نظم القرآن في الأعمــال الظــاهرة الــتي لا يترتــب عليهــا جــزاء ينــسبها للذات ، بالإضافة إلى أن الخطأ لا يكون البتة من القلب ولكنه يتأتى من الذات .وقد ورد قوله تعالى : ﴿ **مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُــمُ اللَّــائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِــأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّــهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ** ﴾ (1) مقدمة لنفي التبني والنظم فيها يتحدث عن حقــائق ثابتة لا يمكن إنكارها فلاءم هذا الثبات أن يرد معه القلب ؛ لذا بدأ النظم بقوله " ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه بحقيقة ثابتة لا مراء ولا جدال فيها فلا يوجد قلبين في جوف واحد واستدل بذلك على أن الزوجة لا يمكن أن تكون أماً ، ولا الدعي ابناً فكأن النظم أورد الشيء بدليله ، فكما يستحيل أن يكون هناك قلبان في جوف واحد كذلك يستحيل أن تكون امرأة واحدة أما وزوجة في آن واحد ولا الدعي ابناً .

1- الأحزاب :4 . أخرتها عن قوله " ادعوهم لآبائهم " لمناسبة الآية السابقة لآية البقرة .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والقرآن كان دقيقاً في استعمال القلب دون غيره لأن فيه معنى الثبات والاستقرار فلا يمكن أن يستقر الشيء على ضدين أما الفؤاد ففيه اضطراب وتقلب فاستعماله لا يؤدي المعنى الدقيق الذي يريده القرآن .

قال صاحب الكشاف : (المعنى أن الله- سبحانه -كما لم يرد في حكمته أن يجعل للإنسان قلبين ، لأنه لا يخلو إما أن يفعل بأحدهما مثل ما يفعل بالآخر من أفعال القلوب فأحدهما فضله غير محتاج إليه ، وأما أن يفعل بهذا غير ما يفعل بذاك ، فذلك يؤدي إلى اتصاف الجملة بكونه مريداً كارها عالماً ظانا) [1]..

وقال صاحب التفسير الكبير: (أن من دخل في قلبه شيء ينبغي ألا يدخل فيه شيء آخر كمن داخلت تقوى الله وخوفه قلبه لا يدخل خوف غيره منه ، فإن المرء ليس له قلبان يتقي بأحدهما الله وبالآخر غيره فلا يكون ذلك إلا بصرف القلب عن جهة الله إلى غيره)[2]، ويظهر لي أنه لا تعارض بين أقوالهم فقول الفخر الرازي يوافق القول الثاني للزمخشري ، والقول الأول للزمخشري أيضاً وجيه ولا يعارض قوله الثاني لأن المحرك للأفعال قلب واحد لا قلبان لأن بذلك يحدث التضاد والذي نص عليه في القول الثاني ونص عليه الفخر الرازي . وأقوالهم ملائمة للقلب لأنها تنص على الثبات على اعتقاد واحد وهذا ما يكون في القلب .

وقد أكد النظم على هذه الحقيقة بنظم دقيق أكد على نفي حصوله حيث أتى برجل نكرة في سياق النفي وهذا يقتضي العموم ، ووقوع فعل (جعل) في سياق النفي يقتضي العموم ودخول(من) على قلبين للتنصيص على العموم قلبين في جوف رجل واحد فدلت هذه العمومات الثلاثة على انتفاء كل فرد من أفراد الجعل لكل فرد مما يطلق عليه أنه قلبان عن كل رجل من الناس .

وفي التقيد بـ(في جوفه) تحديد للمراد لأن بذلك يحصل للسامع زيادة التصور والتجلي المدلول عليه لأنه إذا سمع به صور لنفسه جوفاً يشتمل على قلبين ، فكان أسرع إلى الإنكار [3] .

---

1 ـ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل : 44/5، 45 .

2 ـ التفسير الكبير 155/9 3 ـ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل : 44/5، 45 .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي قوله " ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ " تأكيد لقرار القلب في نظمها حيث إنه يقابل الاعتقاد المتمكن في القلب ، القول بالأفواه الذي لا صدق له ولا حجة ولا برهان عليه فهو مجرد لغو لا اعتقاد فيه .

والملاحظ أن السورة عموماً فيها تركيز على القلب سواء في التشريعات الواردة فيها لأن المقصود فيها الاعتقاد الثابت والعمل القلبي مع الجوارح ، أو في تشريف النظم لرسول الله ومنه تشريف أزواجه بطهر قلوبهن ، أو بنصرة المؤمنين وخذلان الكفار فمحل ذلك القلب . لذا كان ملائماً أن يبدأ في أول موضع بذكر القلب دون سواه .

والموضع الثالث في قوله تعالى : ﴿**وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِباً فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ**﴾ (1). الآية في سياق التشريع في الأحوال خاصة في كتمان الشهادة وعظمة هذا الذنب وقد أوثر هنا استعمال القلب ، وذلك لأن كتمان الشهادة شيء عظيم لا يكون إلا عن تعمد وإصرار على هذا الذنب ، ولذا فهو يناسب القلب .

وحين ننظر في السياق العام لهذا نجده في جرائم تؤدي إلى انتكاس الطبيعة وفساد الفطرة ، فذكر الربا وبين ما يؤول إليه ثم بين وجه الخلاص من ذلك ، ثم ذكر كتمان الشهادة على الحقوق ــ لا سيما في المعاملات ــ وما يؤول إليه ثم ذكر ــ أيضاً ــ وجه الخلاص من ذلك . وكتمان الشهادة أمر داخلي لذا نسب إلى القلب .

ونظم الآية يلائم استعمال القلب لا الفؤاد، فالفؤاد فيه اضطراب وكتمان الشهادة في الآية ليس صادراً عن اضطراب أو خوف بل هو عن تعمد وإصرار لإخفاء الحق يدلنا على ذلك كثرة الاحتياطات المذكورة في الآية التي تدل على الحرص على حفظ الحقوق "وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِباً فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ" " فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ".كما فصل سابقاً القول في الشاهد، وكذلك الأمر بتقوى الله والنهي عن كتمان الشهادة،يؤكد أنه لا يفعل ذلك الكتمان بعدكل هذا الحرص إلا من تمكن الذنب والإثم منه.

1- البقـرة : 283

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولذا لاءم لفظة القلب الدالة على الثبات في جميع سياقات القرآن الكريم سواءً كان ثباتاً على حق أو سواه ، ولاءم دلالة القلب على كون الفعل نابعاً من إصرار وتعمد .

ونظم الجملة يتلاقى مع الدلالة على الإصرار ، وهذا لا يكون إلا من فساد القلب فقال "ومن يكتمها" والكتمان لا يكون إلا بعد معرفة فهو السكوت عن المعنى[1]. ويكون هذا المعنى معروفاً سابقاً ولكنه يتعمد إخفاءه وستره ، وهذا مؤكد على ثباته على موقفه .

وقال تعالى : "آثم" ولم يقل "مخطيء" ؛ ذلك لأن الإثم لا يكون إلا عن تعمد[2] وليس ذلك في الخطأ لذا نسبه للقلب ، وقيل في هذه النسبة أنه من نسبة الفعل للجارحة التي تكون به وهذا أبلغ في الإسناد والمعنى ، كما إن في ذلك تحذير من كتم الشهادة فإنه إذا أثم القلب أثمت سائر الأعضاء لأن القلب هو رئيس الأعضاء والمضغة التي "إن صلحت صلح الجسد كله وإن فسدت فسد الجسد كله. فكأنه قيل : فقد تمكن الإثم من أصل نفسه وملك أشرف مكان فيه[3]. وقيل هو من التعبير بالبعض عن الكل ؛ لأن الكتم من معاصي القلب ، لأن الشهادة علم قام بالقلب فلذلك علق الإثم به[4]. والراجح لدى الأول لأن دلالة المجاز العقلي أبلغ وأدل على كون الإثم تعمق في كاتم الشهادة حتى دخل إلى القلب وأصبح من فعله. كما إنه قال "آثم" باسم الفاعل الدال على الثبات وهذا ملائم للقلب ، والجملة مقيدة بالشرط فيلزم من كتمان الشهادة كون القلب آثماً ، وفي تأكيد الجواب بإن وتكرار الضمير "فإنه" ، "قلبه" تغليظ إثم كتمان الشهادة تغليظاً يؤكد قرار لفظة القلب؛ فلم يغلظ إلا لأن الكتمان صادر عما يسأل الإنسان عنه ويؤاخذ بفعله وهو القلب .

وقد تعددت الوجوه الإعرابية في "آثم قلبه" فإن شئت رفعت "آثم" على أنه خبراً وقلبه فاعل سد مسد الخبر ، وإن شئت رفعت "آثم" على الابتداء ، و"قلبه" فاعل وهما في موضع خبر إن ، وإن شئت رفعت "آثم" على أنه خبر الابتداء وينوى به التأخير

---

1 ـ الفروق اللغوية : 246

2 ـ السابق : 306

3 ـ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الاقاويل : 517/1

4 ـ البحر المحيط : 373/2

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وإن شئت كان "قلبه" بدلاً من "آثم" كما تقول:هو قلب الآثم، وإن شئت كان بدلاً من المضمر الذي في آثم[1].

ولكل وجه من هذه الوجوه دلالة ؛ ففي كون "آثم" خبراً لإن و"قلبه" فاعل سد مسد الخبر تأكيد للإثم حيث وقع خبراً للتوكيد . وفي جعل "آثم" مبتدأ فاعله "قلبه" والجملة خبر إن فهذا دلالة على كون القلب هو فاعل الإثم ويكون في الجملة إسنادان وهذا أقوى وأدخل في تأكيد الإثم . وفي جعل "آثم" خبراً للابتداء ، وينوى به التأخير تأكيد أيضاً على ثبات الإثم حيث جعل حكماً على القلب والتقدير "قلبه آثم" ويكون في الجملة أيضاً إسنادان . وفي جعل "آثم" بدلاً أيضاً دلالة على الثبات ففي البدل تكرار للعامل وهذا فيه توكيد . فنلاحظ أن لكل وجه من الوجوه الإعرابية دلالة وتجتمع كلها في توكيد الإثم ، وهذا التأكيد يلائم القلب حيث لم يتأكد إلا لقراره وتمكنه .

وفي ختم الآية بقوله تعالى "والله بما تعملون عليم" دلالة على قوة التحذير وشدة لهجته حيث قدم "بما تعملون" على متعلقها ؛ فكأنه حصر علمه فيما تعملون[2]. وفيه دلالة على هول الأمر المذكور في الآية وتجاوز الحد في المخالفة لأمر الله وهذا ملائم لتعمد القلب وإصراره ، ويقال : "ما أوعد على شيء كما أوعد على كتمان الشهادة"[3].

وفيما ورد في السياق البعدي من التأكيد على سعة علم الله وأن لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت فلا يؤاخذ الإنسان إلا بما ثبت عليه من الخطأ ولا يؤاخذ بما أقلع عنه تأكيد على قرار القلب . فلم يحكم على كاتم الشهادة بالإثم إلا لأنه عمده وأصر عليه وهذا من فعل القلب .

إذن فالقلب في المواضع السابقة دقيق في نظمه وفي سياقه كما رأينا ولا يؤدي معناه غيره من الألفاظ .

---

1 - إعراب القرآن : 202/1

2 _ تفسير القرآن الكريم : محمد بن عثيمين ، الدمام : دار ابن الجوزي ، ط 1 ، 1423هـ _ 3/ 427 .427/3

3 -تفسير البغوي: 183

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أما الفؤاد فقد ورد في النواهي في موضع واحد لاءم فيه سياقه ونظمه في قوله تعالى : ﴿**وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً**﴾ (1) . والسياق العام الذي وردت فيه هذه الآية نواه عدة منها النهي في هذه الآية عن عدم القول بدون علم وهذا اضطراب يلائم الفؤاد .

وقد رشح لاستعمال الفؤاد ـ هنا ـ دون غيره ورود أدوات للإدراك وهي متغيرة بحسب المرئي والمسموع وتغيرها واضطرابها ملائم لاضطراب الفؤاد هذا أمر ، والأمر الثاني أن السؤال سيكون في اليوم الآخر ولا قلوب ثابتة في ذلك اليوم بل أفئدة مضطربة ، كما أكد نظم الآية قرار الفؤاد في نظمها حيث بدأت الآية بقوله"وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ" بنهي عن "لاتقفو" والاقتفاء إتباع القفا، كما إن الإرداف إتباع الردف ويكنى بذلك عن الاغتياب وتتبع المعايب ، وفي ورود هذه الكلمة دون غيرها ملاءمة للفؤاد فالقفو فيه عدم مواجهة ، وهذا دلالة على اضطراب وعدم يقين ، كما إن القفو قول بغير علم ، وقوله "ما" دون (الذي) دليل على الإبهام وعدم العلم ، وهذا أيضاً فيه اضطراب وعدم ثبات فيما يقال . وقال تعالى "ليس" و لم يرد النظم فيما لا علم لك به ، وذلك لأن لا تنفي الجنس برجحان ويحتمل أن يكون نفياً للوحدة(2) ، وليس ذلك في " ليس" ، كما إن ليس مركبة كما قال صاحب اللسان من لا أيس ، وقال إن معنى "لا أيس" أي لا وجد(3). وهذا المعنى الدقيق لليس يؤكد على عدم وجود العلم الذي يكون فيه ثبات للقلب والذي يحصل بإنعدامه اضطراب والمعنى "ما ليس لك به علم" الخاطر النفساني الذي لا دليل عليه ولا غلبة ظن به ، وهذا ملائم للفؤاد .

---

1 ـ الإسراء : 36

2 ـ مغني اللبيب : 256/1

3 ـ لسان العرب : 4113/5

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقدم "لك" على "به" لأهميته ، فلا علم لك وبالتالي ففؤادك مضطرب ، ولأن المعني بالآداب المخاطب قدم ، ثم ذكر الأدوات التي تؤدي إلى الإدراك وقدمها على الفؤاد لأنها هي طريقه إلى المعرفة وهي أدوات معارفها متجددة ومتغيرة ــ كما سبق ــ بحسب المرئي والمسموع ، ومن ثم فهو ملائم للفؤاد . وفي التعبير بقوله "كل أولئك" إيماء للتهديد والتخويف فكل مقدمة للعموم ؛ وتقديمها أدل على عمومها حيث قدمت على النفي وفي ذلك دلالة على عموم السلب وكذلك تقديمها في الإثبات فيه دلالة على عموم المثبت دون أن يتخلف منه شيء[1] . فكل السمع وكل البصر وكل الفؤاد مسئول وهذا أدعى لأن يخاف خاصة أن السؤال في اليوم الآخر ، وهذا أدخل في التخويف وأكثر ملاءمة للفؤاد .

وحين ننظر إلى السياق نجد أن هذا التخويف الملائم لحال الفؤاد مطرد في الآيات بعد كل إرشاد وأدب فقال بعد النصح بالتوسط في الانفاق "فتقعد ملوماً محسوراً" ، وقال بعد النهي عن قتل الأولاد "إن قتلهم كان خطأً كبيراً" ، وقال بعد النهي عن الزنى "إنه كان فاحشة وساء سبيلا" ، وقال بعد النهي عن قتل الغير ظلماً مؤكداً نصرة المظلوم "إنه كان منصوراً" ، وقال بعد النهي عن أكل مال اليتيم "إن العهد كان مسئولاً" ، وبعد أن قدم التحذير مما يخل بأدب المرء المسلم قال: "كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها" وهذا أدعى إلى أن يخاف الإنسان ويبتعد عما يمكن أن يورده المهالك وهذا ملائم لاضطراب الفؤاد وخوفه .

وقد ورد في القرآن تارة اللب وأخرى العقل على الرغم من أن كلا السياقين في محرمات نهى الشارع الحكيم عنها ولكن نظراً لاختلاف كل منهما اختلفت اللفظة ففي قوله تعالى : ﴿**قُلْ لا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ [2] .

---

1 ـ ينظر : دلائل الإعجاز : 278

2 ـ المائدة : 100

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وردت اللب لأن نظم الآية والسياق القبلي والبعدي يرشح ذلك حيث إن فيه تشريعات تحتاج إلى تدبر وفهم عميق لإدراكها ، إذ ظاهر هذه الأشياء قد تخدع بمنافعها العاجلة ، وآثارها الظاهرة ، ولكنها في حقيقتها من الخبيث الذي لا يدركه إلا ذو لب ومن ذلك الخمر والميسر والأزلام فظاهرها كسب ورزق وباطنها دمار ومحق.

وفي تشريعات الحج التي ذكرت- هنا- خفاء لا يدركه إلا ذو اللب ، ومن ذلك تحريم صيد البر على قربه وتحليل صيد البحر على بعده لحكمة لا يدركها أي أحد.

وكذلك في السياق البعدي حيث نهى عن السؤال عن أشياء لم يذكرها القرآن لأنه قد يكون في ذكرها مشقة ولا يدرك ذلك إلا ذو لب ، كما نهى عن جعل البحيرة والسائبة والوصيلة والحام في الأنعام دون ورودها في الشرع ولايدرك فائدة هذه النهي إلا ذو لب .

إذن فالسياق عموماً في تشريعات محرمة ومحللة ولكن لا بد من تفكر لإدراك منفعة المحلل ومغبة المحرم ، لذا لائم اللب السياق ، ولائم أيضاً النظم ـــ كما سنرى ـــ حيث قال تعالى : "قُلْ لا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ" .

فصرف الخطاب إلى أشرف الورى ـــ ﷺ ـــ إشارة إلى أنه لا ينهض بمعرفة هذا من الخلق مثله . "قل لا يستوي الخبيث" أي من المطعومات والطاعمين "والطيب" أي كذلك فإن ما يتوهمونه في الكثرة من الفضل لا يوازي النقصان من جهة الخبيث[1] . فلا بد من تمييز الخبيث من الطيب في كل ما يلتبس فيه أحدهما بالآخر، وهذا فتح لبصائر الناقلين كيلا يقعوا في مهواه الالتباس ليعلموا أن ثمة خبيثاً قد التف في لباس الحسن فتموه على الناظرين ، ولذلك قال : "ولو أعجبك كثرة الخبيث" ، وهنا مفتاح إيثار اللب ؛ إذ إن صاحب اللب وحده هو الذي لا يغتر بالظاهر وإن كان كثيراً ، ولا يعجب به وإن كان براقاً ، لذا وجه الأمر منادياً "أولي الألباب" وفي نظم النداء الذي يتقدمه أمر دليل على وجوب هذا الأمر وإلزام لهؤلاء بالتشريع الوارد .. وفي خص "أولي الألباب" بالنداء دليل على أنهم هم المتقدمون في تمييز الطيب والخبيث . قال ابن عطية " وكأن الإشارة إلى لب التجربة الذي يزيد على لب التكليف بالحيلة والفطنة المستنبطة والنظر البعيد"[2] .

1 ـ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : 547/2 — 2- المحرر الوجيز : 5/ 60

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأوافق ابن عطية في قوله فليس المقصود مجرد العقل ـ وإن كان في بعض التشريعات وجه الخطاب للعقل ـ كما سنرى ـ بل المقصود اللب الخالص وخاصة أن الحكمة هنا خفية يتعذر إدراكها لأي عاقل ، ويؤكد هذا الفهم أن الأمر هنا أتى بالتقوى وقد لاحظنا اطراد الأمر بالتقوى مع أولي الألباب في النظم الحكيم وسبق عرض السبب [1] .

وفي ختم الآية بـ"لعلكم تفلحون" ملاءمة ـ أيضاً ـ لأولي الألباب حيث إن الفلاح مرتبة عالية لا يصل إليها إلا الخواص ، لذا ذكرت مع المؤمنين "قد أفلح المؤمنون" بإيراد لفظة "المؤمنون" دون "الذين آمنوا" ، لدلالتها على اكتمال وصف الإيمان فيهم ، وورود الفلاح بالترجي هنا ملائم للنظم حيث إن الله وضح السبيل ، والإنسان مخير في سلوك الخير أو عدم سلوكه ولكن المرجو منه أن يسلك طريق الفلاح خاصة وأنه قد وضعت علاماته ودلائله أمام ناظريه ، كما إن المخاطب أولو الألباب فهم أهل لأن يرجى لهم الفلاح .

فإذن حيث كان هناك خفاء في حكمة التشريع واحتياج للتدبر لإدراكه ورد اللب ، ولكن حيث ظهرت الحكمة وكان الأمر مما يدركه العامة ورد العقل وذلك في قوله تعالى : ﴿**قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ [2] . في سياق بيان بعض ما حرم الله على عباده ، فهذه الأمور المنصوص عليها في الآية أمور ظاهرة الإدراك ، واضحة المعالم ، بينة في صورها ، ولذا ختم الآية بالعقل ؛ لأن من لديه العقل فقط امتنع عنها ثم إن المخاطب بها عام لا يختص به أحد دون أحد ، كما إن العقل عام في جميع المخاطبين فهم جميعاً يدركونها.

1- ينظر البحث : 345

2 - الأنعام : 151

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كما إن هذه الأشياء ــ كما سأعرض في نظم الآية ــ معللة ، فهي منطقية وهذا من مقتضى العقل ، ولذا ذكر كل حكم بعلته التي يتوصل بها عن طريق العقل .

وحين ننظر إلى السياق القبلي نجد أنه يمهد للعقل حيث إن كل ما ورد فيه من أمثال الكفار مخالفة لمقتضى العقل من اغترار بالدنيا الفانية ، وتجرؤ على الله بجعلهم يجعلون له نصيباً مما ذرأ ولشركائهم نصيباً ثم يتعدون على ما يزعمونه نصيب لله ، وكذلك قتلهم أولادهم ، وتقسيم الأنعام حلال وحرام دون حكمة ظاهرة لهذه الأحكام سوى الهوى ، وأكلهم ما حرم الله على الرغم أنه لا جمال فيه ولا ذوق حسن ﴿**قُلْ لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ**﴾ ، وهذا دليل على انعدام العقل عندهم فكيف بما سواه .

لذا حين أورد في الآية ــ موضع البحث ــ أموراً إن التزموا فيها بشرع الله ساروا على مقتضى العقل وهي أمور ظاهرة ، عقب عليها بـ"لعلكم تعقلون" .

ونظم الآية يؤكد على قرار العقل في نظمه كما قر في سياقه حيث بدأ تعالى الآية بقوله "قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم" فنص بداية على التحريم وفي النص على التحريم تصريح ملائم للعقل حيث إن الحكم ظاهر .وفي ذكر "ربكم" دون لفظ الجلالة ملاءمة أخرى للعقل حيث إن الرب الرحيم هو الذي حرم ذلك فهو إذن للمصلحة و رحمة بهم ولا يخالف ما ورد رحمة وترفقاً به إلا من عدم العقل ، وفي "ربكم" دلالة على الإنعام وكيف يشرك مع من ينعم غيره ، ثم في قوله "وبالوالدين إحسانا" وردت كلمة "الوالدين" وكأنه يعلل سبب الإحسان ، لذا ذكر ما يدل على الولادة ولا يضر من كان سبباً في وجوده بعد الله إلا من عدم عقله ، لذا أمرهم بأمر زائد على أداء الواجب فأمر بالإحسان .

ثم حين حرم قتل الأولاد خشية الفقر علل لذلك بأنه سبحانه هو الرازق وأكد على ذلك بأن عبر بضمير العظمة "نحن" وزاد على ذلك بأنه يرزقهم هم وأولادهم ، وحين حرم الشهوات المحرمة عبر عنها "بالفواحش" وهو لفظ يدل على أن الذوق السليم يأباها فكيف به يفعلها !

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وحين حرم قتل النفس علل بأن الله حرمها مورداً لفظ الجلالة هنا ــ دون ربكم كما سبق ــ وذلك مناسباً للتخويف من قتلها بإيراد لفظ الجلالة الذي تربي الهيبة في القلوب وهذا أدعى لتركها وعدم التعرض لها ؛ لذا كان دقيقاً أن يختم الآية بقوله "ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون" برجاء العقل ــ هنا خاصة ــ لأن كل ما سبق منطقي معلل ظاهر يدركه كل عاقل ، وهو وصية من الله والوصية التقدم إلى الغير بما يعمل به مقترناً بوعظ [1] ، والوعظ لا يلزمه إلا عاقل ولا يخالفه إلا جاهل لظهور الصلاح فيه .

وقد قال تعالى هنا : "ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون" ثم قال : "ذلك وصاكم به لعلكم تذكرون" ، وفي الثالثة "ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون" ، والسبب في ذلك ــ والله أعلم ــ أنه لما كانت الخلل الخمس في الآية الأولى وهي : الشرك والعقوق وقتل الأولاد لأجل الفقر وارتكاب الفواحش وقتل النفس التي حرم الله بغير الحق ، خمستها مما يدرك العقل ابتداء قبحها ، ويستقل بدركها . أي إن العقل يستوضح قبحها شرعاً لبيان أمرها في استقباح الشرع إياها ، فلما كانت على ما ذكر اتبعت بترجي التعقل لأن السلامة منها لا تكون مع وضوح أمرها إلا بتوفيق الله ، ولذلك جاءت بأداة الترجي . ولما كانت الخمس التالية لها وهي قوله "ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن" إلى آخرها مما تؤثر فيه الشهوات والأهواء ، وذلك مما يعمي ويصم ، أتبع برجاء التذكر ، فقيل : "لعلكم تذكرون" ومن تذكر أبصر فعقل فامتنع ، قال تعالى : "إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ"[2] . ولما كان مجموع هذه المرتكبات العشر مما اتفقت عليه الشرائع و لم ينسخ منها شيء وهي المحكمة التي من أخذ بها كان سالكاً الصراط المستقيم الذي لا عوج فيه ولا أمتا اتخذ أسنى وقاية من عذاب الله قال تعالى : "وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ" والأمر عام لكافة الخلق ، ثم قال سبحانه وتعالى : "ولا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ" ، أتبعه بقوله "ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ" . وترتب من ضمن الآيات الثلاث أنه من عقل وتذكر أتقى والمتقون هم المفلحون[3] .

---

1 _ المفردات في غريب القرآن : 540

2 _ الأعراف : 201

3 _ ملاك التأويل وغرة التنزيل : 1/ 481

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويظهر لي إضافة إلى ما سبق أن سبب رجاء التذكر في الآية الثانية أن الأمور فيها خفية لا تدرك بمجرد العقل بل لا بد فيه من تذكر ، فأكل مال اليتيم والتطفيف في الميزان ظاهره الكسب والزيادة ، وعدم العدل في القول ظاهره تغليب المصالح وإدراك حقائق هذه الأمور لا يكون إلا بالتذكر ، كما إن الاستقامة على الصراط دون الاغترار بالسبل الأخرى مقتضى التقوى ، والحرص من الوقوع في غضب الله لا يكون ذلك إلا لمن وصل لمرحلة الكمال في العبادة ، وهذا كما سبق أن ذكرت مقتضى التقوى والله أعلم .

***

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكما وردت الألفاظ : القلب ، والفؤاد ، والعقل ، والنهي ، واللب في مواضع متعددة وردت لفظتا (الأحلام ، والحجر) مرة واحدة وتعد من فرائد استعمال القرآن الكريم ، وتقدم ذكر الأحلام في سياق الاستدلال . وأذكر هنا لفظة الحجر وقد وردت في قوله تعالى ﴿ **هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ** ﴾[1] فخص الحجر هنا دون غيرها من الألفاظ وذلك لما لها من زيادة فضل يلائم ما ورد قبلها وما ورد بعدها من سياق حيث إن معناها المنع فقيل للعقل حجر لكون الإنسان في منع منه مما تدعو إليه نفسه [2] . وفسرها الزمخشري بقوله الحجر : العقل ؛ لأنه يحجر عن التهافت فيما لا ينبغي[3] ، وقال البقاعي : أي عقل فيحجره ويمنعه من الهوي في درك الهوى ، فمن بلغ أن يحجره عقله عن المآثم ويحمله على المكارم فهو ذو حجر[4].

وكل من العقل ، والنهى ، والحجر فيها منع لصاحبها عن القبيح سوى أن العقل يتعلق بظاهر الأمور كما ظهر سابقاً والنهى تتعلق بالأمور المعنوية ، والحجر تتعلق بالمنع عن الهوى والفساد خصوصاً وهذا ملائم لما ورد في سورة الفجر . فهي ملائمة للقسم قبلها " وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ " من وجوه :

أولاً : أن عظمة هذا القسم لا يقف عنده وينتهي عن هوى نفسه إلا من كان ذا حجر .

ثانيها : أن ما أقسم به الفجر ، والليالي العشر والليل أوقات يغفل عن خيرها وفضلها وعظمة شأنها أصحاب الأهواء ولكن من منعه حجره عن إتباع الهوى يعلم فضلها ويكون وقّافاً عندها فخصها بالقسم دون غيرها ملائم (للحجر) .

وكما لاءمت الحجر ما قبلها فقد لاءمت ما بعدها حيث إن أصحاب الحجر الذين منعتهم عقولهم عن الفساد وإتباع الهوى النفس ليسوا كمن ذكر في السياق البعدي. " إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ " "وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ " "وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ " وكلهم ما منعهم عن الإيمان إلا هوى نفوسهم وعقولهم التي لم تمنعهم عن فعل القبائح وإتباع

---

1 _ الفجر : 5
2 _ المفردات في غريب القرآن : 116
3 _ الكشاف عن غوامض التتريل وعيون الأقاويل : 368/6
4 _ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : 415/8

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هوى النفس ، أما من كان ذا حجر فهو بعيد عن الهوى والفساد .

كما إن في الحجر مقابلة للنفس التي اتبعت هواها فلم تكرم اليتم ، و لم تحض على طعام المسكين وأكلت التراث " أَكْلًا لَمًّا " وأحبت المال "حُبًّا جَمًّا " فكل هذه الأفعال المذكورة سببها الرئيسي الهوى وصاحب الحجر بعيد كل البعد فلديه من الحجر ما يمنعه عن ذلك .

فنلاحظ دقة اللفظة وملاءمة معناها الدقيق للسياق القبلي والبعدي كما فيها ملاءمة لنظمها حيث بدأ النظم بالاستفهام (هل) وهو استفهام تقريري حيث يقرر أن في كل ما تقدم من قسم يعلم عظمته (ذو الحجر) لملاءمة الحجر لهذا القسم – كما سبق - . وفي قوله (ذو الحجر) بإضافة الحجر (لذي) – والتي معناها صاحب – معنى الملازمة . وهذه الملازمة للمنع عن القبائح تقتضي الامتناع عن الهوى . فاللفظة كانت أولى من غيرها سواء في مناسبتها للسياق أو النظم .

***

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفصل

الخامس

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفصل الخامس :
القلب وما في معناه في لغة من نزل فيهم القرآن

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : القلب والفؤاد

المبحث الثاني : الألباب والأحلام والعقل والنهى .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

القلب وما في معناه في لغة من نزل فيهم القرآن :

العرب قاطبة هم من نزل فيهم القرآن ، ولكن تخيري – للاستدلال علـى دقـة القرآن في استعمال الألفاظ – في هذا الفصل ـ وقع على حقبة زمنية معينـة ، وهـي الفترة التي عاش فيها الرسول -ﷺ -وعاصره فيها شعراء مخضرمون ، فعرضت لنمـاذج من أحاديث الرسول -ﷺ- وأخرى من شعر المخضرمين ، بعد أن استقصيت جميع مـا ورد فيها من الألفاظ السبعة .

ولسائل أن يسأل لم وقع اختياري لهذه الحقبة الزمنية من دون غيرها مـع بـروز وبروع كثير من الشعراء والناثرين في حقب زمنية متقدمة أو متأخرة عن هذه الحـقبة ؟

و الجواب : أن هذه الفترة فترة التأثر بالقرآن فهي الفترة التي نزل فيها القرآن ، فالرسول -ﷺ-هو من نزل عليه القرآن ، لذا كان أكثر تأثراً به فقد تمثل القـرآن تمـثلاً كلياً كيف لا وقد نزل على قلبه ﴿ **نَزَلَ بِهِ الـــرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ** ﴾(1)

فلا ريب أن يتأثر به في أسلوبه أو في تركيب معين ، لذا ذكر البلاغيون أن القرآن بلغ حد الإعجاز والحديث النبوي قارب حد الإعجاز فرأوا أن إعجاز الحديث مرتبة ثانية بعد بلاغة القرآن مباشرة .

والشعراء المخضرمون هم الذين عاصروا فترة نزول القرآن وهم عـرب أقحـاح وصلت اللغة في عصرهم على أيديهم إلى أوج بلاغتها ، لذا تخيرتها فالبلاغة القرآنيـة لا تظهر إلا إذا قورنت بما هو أعلى نماذج البلاغة في أفضل وأرقى عصور اللغة ومع رقيها إلا أنه ظهر أن استعمال البشر للألفاظ في الدلالة على المعاني حتى في تعبير النبي -ﷺ -ومن عاصره من الشعراء النابغين لا نجد فيه دقه واطراد القرآن في استعمالها وقد نص الجـاحظ على ذلك حين قال : (وقد يستخف الناس ألفاظاً يستعملونها وغيرها أحـق بذلك منها.

---

1 ـ الشعراء : 193،194

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقـــاب أو موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر ، والناس لا يذكرون السغب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة . وكذلك ذكر المطر ، لأنك لا تجد القرآن يلفـــظ بـــه إلا في موضـــع الانتقام ، والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر ، وبين ذكر الغيث . ولفـــظ القرآن الذي نزل عليه أنه إذا ذكر الأبصار لم يقل الأسماع وإذا ذكر سبع سموات لم يقـــل الأرضيين ، ألا تراه لا يجمع الأرض أرضين ، ولا السمع أسماعاً ، والجاري علـــى أفـــواه العامة غير ذلك ، لا يتفقدون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر وأولى بالاستعمال) (1) وقد اختلف القرآن الكريم عن نظوم البشر حتى من نزل عليه رسول الله - ﷺ - ومن نزل فيهم بأن له خطاً معيناً في استعمال الألفاظ لا يحيد عنه البتة فلا تبارح معناها في جميع آيـــات وسور القرآن الكريم فاستعمال القرآن للألفاظ مطرد لا يتغير ، في حـــين أن اســـتعمال البشر غير مطرد كما أن طريقة بنية القرآن الكريم للألفاظ مع ما يجاورها يجعل التركيـــب نسجاً واحداً ، ولا نجد هذا في أي كلام إطلاقاً ولا يقاربه وهذا ما سنتبينه في الفصل إن شاء الله .

***

1- البيان والتبين :ابو عثمان عمر بن بحر الجاحظ ، ت : إبراهيم شمس الدين ، بيروت ، مؤسسة الأعلمي ، ط 1 ، 1423هـ ـ 2003م : 42/1

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المبحث الأول : القلب والفؤاد :

من خلال استقراء جميع المواضع التي ورد فيها القلب تبين لي المعاني والتراكيب المطردة في استعمال القرآن للفظة القلب .

ـ سياق الحياة الدنيا :

أ ـ المعاني التي اطرد فيها القلب في سياق الحياة الدنيا :

1- استعمل القرآن القلب في جميع مواضعه للدلالة على ثبات الاعتقاد إن كان حقاً ، أو باطلاً .

2- خص القلب بالعذاب والعقاب سواء في سياق الحكاية عن شخوص القصص أو أحوال المخاطبين من الكفار ، كما خصه بالمنة والنعمة في شأن المؤمنين وهذا ملائم لثبات العقاب أو المنة كما هو دال على تعمد الفعل وكونه نابعاً عن اعتقاد وهذا ملائم للقلب .

3- عبر به في سياق أحوال المخاطبين عن حقيقة النفس .

4- عبر به في سياق أحوال المخاطبين وشخوص القصص في التأكيد على انعدام العلم والإيمان .

5- لم يستعمل في سياق الاستدلال إلا في طلاقة القدرة على تقليب الثابت المتمكن.

6- عبر به في سياق التشريع في بيان المؤاخذة على الفعل لدلالته على صدوره عن اعتقاد .

7- نسب إلى القلب دون غيره كمال العبادة وهذا ملائم لمعنى الثبات والتمكن فيه.

8- خص بالخطاب في سياق التشريع لأن عليه مدار التكليف .

9- ُعلق أثر القرآن به دون غيره .

10- ورد في سياق أحوال الرسول -ﷺ- في السياق الذي خص فيه بإنزال القرآن عليه ، وهذا يحتاج إلى قلب ثابت متمكن لأداء الرسالة ، وفي سياق بيان صفة رحمته -ﷺ -. وهي صفة لازمة له متمكنة من قلبه .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ب- التراكيب التي اطرد فيها القلب في الحياة الدنيا

1- ورد القلب بالاسمية في جميع المواضع وفي هذا ملاءمة لمعنى الثبات فيه فلاءم اللفظ فيه المعنى .

2- اطرد ورود القلب بالجمع . عدا بعض المواضع لخصوصية النظم فيها . لدلالة عموم السمة أو الفعل سواء في شخوص القصص أو أحوال المخاطبين . وفي العموم ملاءمة لمعنى الثبات والتمكن في القلب ، فما عم الشيء وانتشر إلا لتمكنه وثباته .

والجمع في سياق التشريع لعموم التشريع ، ولقلة احتمال من يخالف مقتضى التشريع لأنه تكليف للجميع .

3- الإضافة إلى هاء الغيبة في شخوص القصص وأحوال المخاطبين وفي ذلك ملاءمة لاحتقارهم وإهمالهم أما ما ورد في شأن المؤمنين فيصرف هذا الفهم ما ورد في النظم من صفات المدح .

أما إضافة القلب لهاء الغيبة في شأن أم موسى ، وشأن فتية الكهف ما ذلك إلا لأنه صرح بذكرهم سابقاً . أما الموضع الذي صرح فيه " بقلوب الذين اتبعوه " في قصة عيسى -عليه السلام- فذلك لأن السياق في حواريّ عيسى وهم ليسوا محل احتقار . أما المواضع التي لم يضف فيها القلب لهاء الغيبة كالمواضع التي ترد فيها الحكاية على لسان شخوص القصص" قلوبنا غلف " ففيها اغترارهم بقلوب هي خواء وهذا أدخل في ذمهم .

والمواضع التي صرح فيها بوصفهم في سياق القصص " الكافرين " ، المعتدين " فذلك لأنها واردة في ختام قصصي ، الخطاب متصل فيه على مر الزمن يؤيد ذلك ورود "كذلك " معها التي تدل على أن من فعل فعلهم يُعد منهم .

أما في سياق التشريع فالإضافة كانت لكاف الخطاب ، لأن فيه تكليف والتكليف للمخاطب وهذا ملائم للقلب ، لأن لهجة الخطاب أقوى وأدخل في الدلالة على التمكن وفي سياق أحوال الرسول - صلى الله عليه وسلم - القصد لتشريفه- صلى الله عليه وسلم - .

4- اطرد وروود الفعل في المجازاة مع القلب ماضياً وهذا دليل على حصوله واستقراره وهذا ملائم لثبات القلب .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

5- اطرد إسناد الفعل الواقع على القلوب (ﷲ) إما بالتصريح بلفظ الجلالة أو بالضمير في سياق شخوص القصص وهذا ملائم لثبات القلب وتمكن العقاب فيه سوى في موضعين " قست قلوبكم – أشربوا " وضح السبب فيهما في موضعه .

أما في أحوال المؤمنين والكفار – فنسب الفعل لقلوبهم لدلالة صدوره عن اعتقادهم الراسخ وهذا ملائم للقلب .

ـ سياق الآخرة :

أ- المعاني التي اطرد فيها القلب في سياق الحياة الآخرة :

1- ورد القلب في اليوم الآخر بمعنى التقلب والاضطراب و لم يرد بمعنى الثبات وذلك لأن الحال اختلف فذاك في الدنيا وهذا في الآخرة وكل شيء في الآخرة مختلف عما هو في الدنيا .

2- ورد في معنى إدراك الحقائق على ما هي عليه - أي عين اليقين -.

ب- التراكيب التي اطرد فيها القلب في سياق الحياة الآخرة :

1- ورد القلب بالجمع لعموم الخوف إلا في موضع " قلب منيب" لقلة من يكون كذلك.

2- التعريف (بأل) حيث تقدمته صفات للمؤمنين أو الكافرين (فأل) للعهد فالمؤمنون الذين عهدت صفاتهم الصالحة يخافون لهول ذلك اليوم ، والكفار الذين تجبروا يهد تجبرهم خوف ذلك اليوم .

(الفـؤاد)

سياق الحياة الدنيا :

أ- المعاني التي اطرد ورود الفؤاد فيها في سياق الحياة الدنيا

1- ورد في الاضطراب وعدم الثبات في الاعتقاد أو غيره ، لذا لم ترد البتة مع المنافقين ولا المؤمنين لما لهم من ثبات على اعتقادهم .

2- ورد بمعنى التفؤد والحزن والمواضع التي خص بها الرسول- ﷺ - بهذا المعنى وموضع النجم " ما كذب الفؤاد ما رأى " يصرف لهذا المعنى ولا يكون من قبيل الاضطراب لأن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فؤاد الرسول -ﷺ - لم يضطرب بدلالة " ما كذب " والاضطراب باعتبار حال الموقف لا حال فؤاده- ﷺ -.

3- استعمله القرآن بمعنى أداة من أدوات المعرفة وكثر وروده بهذا المعنى في الاستدلال على أول النشأة . وهذا المعنى الذي لم تستعمله العرب .

ب- التراكيب التي اطرد ورود الفؤاد فيها في سياق الحياة الدنيا :

1- التعريف (بأل) في الفؤاد إذا أريد به أداة المعرفة للتذكير بالنعمة المعهودة لديهم .

2- ورد جمعاً لإرادة العموم كعموم سمة الاضطراب في شأن الكفار ، وعموم من أراد إبراهيم - عليه السلام- قدومهم لمكة وعموم النعمة أيضاً في الاستدلال على النشأة إلا في المواضع التي تكون خاصة بمخاطب دون غيره كالمواضع التي كانت خاصة بالرسول -ﷺ - وموضع أم موسى - عليها السلام- .

3- وروده بالاسمية دليل دوام الاضطراب فيه .

4- وروده دائما مؤخرا عن السمع والبصر لأنه مرحلة من الإدراك أعلى من السمع والبصر .

- سياق اليوم الآخر :

أ- المعاني التي ورد فيها الفؤاد في سياق اليوم الآخر :

1- ورد في موضعين تقدم ذكر الفؤاد فيهما تجبر الكافرين فخصت الأفئدة بالذكر لبيان شدة العذاب وقوته والتي هدّت تجبر هؤلاء وهزت أفئدتهم الكافرة .

ب- التراكيب التي ورد فيها الفؤاد في سياق اليوم الآخر :

1- ورد جمعاً للدلالة على عموم الخوف والرعب .

وقد اطردت هذه المعاني وتلك التراكيب في جميع القرآن و لم يند عنه موضع واحد ، و لم يقف الأمر على ذلك بل نجد المرشحات للقلب أو الفؤاد تسبقهما وتعقب لهما . وهذا ما لا نجده في استعمال البشر حتى في أرقى صوره ، فنجد أن في حديث الرسول -ﷺ - نماذج يختلف استعمالها عن استعمال القرآن للقلب والفؤاد ، ونماذج موافقة لاستعمال القرآن، في المعنى العام ، وإن كان لا يخفى على صاحب العقل تفوق

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

القرآن في تركيبه وبنيته ، وترشيحه للفظة وتعقيبه لها حتى كأن النظم نسج واحد ، واطراد ذلك في جميع القرآن الكريم .

ومن النماذج التي اختلف المعنى فيها عن استعمال القرآن :

قال-ﷺ- : " إنما سمي القلب من تقلبه إنما مثل القلب كمثل ريشة معلقة في أصل شجرة يقلبها الريح ظهر البطن "[1] وفي رواية "القلب مثل الريشة تقلبها الرياح بفلاة "[2] فالرسول -ﷺ - جعل الأصل في تسمية القلب قلباً صفته الدائمة في التقلب فاسمه مشتق من صفة التقلب ، كما عبر عن التقلب بالمضارعة وفي ذلك دلالة على استمرار هذا التقلب بل تجدده في كل حال ، وبدأ- ﷺ -إخباره بذلك بالقصر بإنما ، وكما هو معلوم أن تخير " إنما " لا يكون إلا إذا كان المخاطب عالماً بالأمر موقناً به غير شاك فيه ، فجعل الرسول - ﷺ- أمر تقلب القلب أمراً ظاهراً معروفاً كما جعله أصلاً في تسمية القلب . وزاد إظهار شدة هذا التقلب حين شبهه بما يعد مثلاً في الخفة وشدة الاضطراب فشبهه بالريشة و لم يقف على ذلك بل زاد التشبيه تفصيلاً بأن بيّن أنها معلقة في أصل شجرة فهي ليست جزءاً من طائر بل انتزعت منه وتعلقت بشجرة وهذا آكد في بيان خفتها وتقلبها وعدم ثباتها .

وزاد على ذلك بقوله " يقلبها الريح ظهر البطن " مستعملاً المضارعة أيضاً وجعل فاعل هذا التقليب " الريح " وهو أقوى أثراً في تقليب الريشة من الهواء ، وصور لنا أثر هذا التقلب بأنه تقلب كامل بقوله " ظهر البطن " فكل عبارة في الحديث دلت على أن القلب متقلب شديد الاضطراب وكأن الإنسان لا اختيار له في تصرف قلبه ، في حين أن القرآن جعل تصرف القلب بفعل الإنسان لذا يكون عليه المؤاخذة " ولكن ما تعمدت قلوبكم " فليس الإنسان مسيراً بل هو مخير وله فعل وتصرف يعقد عليه قلبه .

---

1 ـ البخاري : 182/1 /ح417، 741/2/ح1995 ، 863/2/ح2314

2 ـ مسلم : 999/4 /ح2585، 2026/4/ح2627 ، 2027/4/ح2628

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي قوله- ﷺ -" إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلب ويصرفه حيث يشاء ، ثم قال رسول الله- ﷺ -" اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك "[1] وقال : " ما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع رب العالمين إن شاء أن يقيمه أقامه وإن شاء أن يزيفه أزاغه ، وكان يقول يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك[2] ، وفي حديث عائشة رضي الله عنها أنه- ﷺ -كان يكثر أن يقول يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك وطاعتك فقلت يا رسول الله إنك تكثر أن تدعو بهذا فهل تخشى قال : " وما يؤمنني وقلوب العالمين بين إصبعين من أصابع الله إذا أراد أن يقلب قلب عبد قلبه" [3] .

فاستعمله الرسول- ﷺ -في التقلب وجعل ذلك صفة ثابتة له لذا استعمل الاسمية (مقلب ، مصرف) وجعل ذلك عاماً فيها ، سواء في جمعه للقلوب أو في الحديث الذي دلل فيه على قدرة الله على تقليب القلوب بالصرف " ما من قلب .. " وفي القصر دلالة العموم والعموم يستلزم الاستغراق لجميع أفراد القلوب فيكون بذلك التقلب في جنس القلب أصلاً فيه كما نص عليه النموذج الأول ، وفي كلامه - ﷺ - توكيد معنوي أن الأصل التقلب ، والرسول كان كلامه في سياق طلاقة قدرة الله يدل على ذلك إسناده الفعل إلى الله جل وعلا " يا مقلب القلوب "، "يا مصرف القلوب " " بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه كيف يشاء وفي قوله " رب العالمين " تأكيد أنه متصرف فيما ملك وخلق ، ويدلنا على طلاقة القدرة في تقليب القلب قدرته تعالى – على فعل الشيء وضده " إن شاء أن يقيمه أقامه وإن شاء أن يزيغه أزاغه " وقد يقول قائل إنه لطلاقة القدرة جاء التقلب في القلب اعتماداً على قوله تعالى:" واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه"[4] .

---

1 ـ صحيح مسلم : 2045/4 ، ح 2654 2 ـ البخاري في الأدب الفرد :محمد بن إسماعيل البخاري ، ت : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار البشائر الإسلامية ، ط 3 ، 1409هـ 683/237/1ح

3 ـ صحيح البخاري : 237/1، ح 683 4 ـ الأنفال : 23

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فالجواب بأن موطن الاختلاف في دعائه- ﷺ - " ثبت قلوبنا علي دينك " ، " صرف قلوبنا على طاعتك " بل أنه كان يكثر من ذلك[1] فكأنه - ﷺ - جعل بذلك التقلب أصلاً فلذلك دعا الله بالثبات .

والحديث وارد في سياق الدنيا وقد لاحظنا استعمال القرآن للقلب في الحياة الدنيا اطرد بالثبات والتمكن و لم يرد بالتقلب . وحين نقابل الحديث بقوله تعالى : " وإذا زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر "[2] تجد أن القرآن قد عبر عن شدة الخوف بانخلاع القلب من مكانه ولكنه لم يجعل ذلك أصلاً في القلب بل هو عارض لسبب شديد حيث ابتلى المؤمنون ابتلاءً عظيماً في غزوة الأحزاب . كما إن الخوف لم يخرج المؤمنين عن ثباتهم بدليل قوله تعالى " هذا ما وعدنا الله ورسوله "[3] .

وعن عقبة بن عامر قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : " أهل اليمن أرق وألين أفئدة وأسمع طاعة " ورواية أبي هريرة : " أتاكم أهل اليمن هم ألين قلوباً وأرق أفئدة ، الإيمان يمان والحكمة يمانية والجفاء وغلظ القلوب في الفدادين أهل الوبر عند أصول أذناب الإبل من ربيعة ومضر" [4]. وعن أبي هريرة قال قال رسول الله - ﷺ- : " أتاكم أهل اليمن هم أضعف قلوباً وأرق أفئدة الإيمان يمان والحكمة يمانية " [5].

في الأحاديث السابقة نلاحظ استعماله -ﷺ- وصف اللين مع الأفئدة ، وفي رواية أخرى استعمله مع القلوب . فاستعمال الوصف لم يرد مطرداً في كلامه -ﷺ- والفؤاد لم يرد وصفه بالرقة واللين في استعمال القرآن ، لأنه لم يرد البتة في سياق مدح ، ولذا لم يرد في سياق أحوال المؤمنين . أما ما ورد في سياق أحواله -ﷺ- فلم يكن في المدح بل في التسلية كما نلاحظ وصفه -ﷺ- القلوب بالضعف ، وهذا لم يرد في استعمال القرآن فالقرآن استعمل القلوب في دلالة القوة والثبات .

1- حديث عائشة رضي الله عنها في صحيح البخاري : 237/1، ح 683
2- الأحزاب : 10
3- السابق : 22
4- صحيح البخاري : 4/ 1595 ح 4137 ، صحيح مسلم : 1/ 72 ، ح 52
5 - السابق : 4/ 1595 ح 4137 ، صحيح مسلم : 1/ 72 ، ح 52، ج 73/1/ح 9052

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد توافق استعمال الرسول -ﷺ- مع استعمال القرآن في رواية أخرى حين وصفها باللين " هم ألين قلوباً " وفي اختلاف الرواية دفع توهم غير المراد حيث بين أن المقصود بالضعف اللين وهذا موافق لاستعمال القرآن ويؤكد هذه الموافقة مقابلته للين في القلوب بالقسوة " والقسوة وغلظ القلوب " والروايات كلها في الصحيحين .

والملاحظ أن القرآن قيد وصف القلوب باللين بذكر الله فالسبب الذي تلين من أجله عظيم وإلا فالأصل فيها الثبات ولينها لذكر الله خشوع وخضوع دائم فيها فلا يناقض معنى الثبات . ولكن في استعماله- ﷺ - لم يرد التقييد .

هذه بعض النماذج الذي اختلف استعمال الرسول- ﷺ -للفظة الفؤاد والقلب عن استعمال القرآن ونجد مثل هذه النماذج قليلاً في حديثه -ﷺ - وذلك لأن القرآن نزل على مكان التأثر فيه ﷺ حيث نزل على قلبه " نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ " (1) ،" قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ "(2).

أما النماذج الموافقة لاستعمال القرآن لهذين اللفظين فهي كثيرة أسرد بعضاً منها سرداً فلا يخفى على متأمل تفوق القرآن كما ظهر من خلال البحث – وإن شاركته في المعنى العام – سواء من حيث اطراد استعمال اللفظة أومن حيث تقديم النظم وتعقيبه لها بما يرشح لها ويثبتها في نظمها .

ومنها قوله- ﷺ -: " يا معشر من قد أسلم بلسانه و لم يفض الإيمان إلى قلبه لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم ولا تتبعوا عوراتهم .. "(3)يذكرنا بقوله تعالى : " قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ "(4) وقوله -ﷺ- " من ترك الجمعة ثلاث مرات تهاوناً طبع الله على قلبه " (5) تذكرنا بما ورد في الذكر الحكيم من مواضع عدة اختص فيها الطبع بالقلوب.

---

1 _ الشعراء: 193،194 2 _ البقرة : 97

3 _ الترمذي : 378/4، ح 2032 ، الطبراني في معجمه الأوسط : أبو القاسم سليمان الطبراني ، ت : طارق عوض ، 10 عبد المحسن إبراهيم ، دار الحرمين /1415هـ : 125/4، ح 3778

4 _ الحجرات : 14 5 _ المستدرك على الصحيحين محمد عبد الله الحاكم ، ت : مصطفي عطا ، دار الكتب العلمية ، ط 1 ، 1411هـ 415/1ح1034

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقوله- ﷺ -: " البر ما سكنت إليه النفس واطمأن إليه القلب .. "[1]تــذكرنا بقولــه تعالى : " وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ " [2]. ومنها قوله - ﷺ - : " يدخل الجنة أقوام أفئــدهم مثل أفئدة الطير "[3]. فنلاحظ بذلك أن استعمال الرسول - ﷺ - لم يطرد على أصــل واحد فاستعمل القلب للثبات وللاضطراب دون أن يكون هناك تغير في السياق وهذا ما لم يحدث في استعمال القرآن حيث اطرد الاستعمال على أصل واحد لا يــتغير إلا حــين يتغير السياق .

وفي استعمال الشعراء المخضرمين نلحظ أنهم يستعملون اللفظتين – القلب والفؤاد – غالباً بمعنى واحد وأغلب ما يعبرون بهما عن التفؤد والتحرق شوقاً أو حزناً فهم يعبرون بهما عن الاضطراب على حد سواء فنجد أنهم يستعملون لفظة الفؤاد في مواضع الأحــق بها والأولى القلب والعكس بالعكس ، وقد يكرر الشاعر اللفظتين في البيــت الواحــد لا لنكته بلاغية – كما سنرى من خلال النماذج – هذا بالنسبة للمعــنى ، أمــا بالنــسبة للتركيب والنظم عموماً فلا أتجاوز الحقيقة إن قلت إن الترشيح الذي عهدناه في القــرآن للفظة معدوم في قصائد الشعراء فلا يخبرنا النظم باللفظة التي سترد من دون غيرها كمــا كان ظاهراً في استعمال القرآن الكريم فالمسمى بــ " توطئة الأكناف " عند البلاغــيين لا يوجد في القصيد .

كما إن صياغة اللفظة – تنكيرها أو تعريفها ، جمعهــا أو إفرادهــا تقــديمها أو تأخيرها . لا يستشعر منها المتأمل زيادة فضل أو مزية على أن ترد اللفظةُ بصياغة أخــرى غير ما وردت به .

---

1 _ البخاري في الأدب المفرد : 111/1ح 295 ، صحيح مسلم : 1980/4 ، ح 553

2 _ الأنفال : 10

3 _ صحيح مسلم : 2183/4 ، ح 2840

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأردت أن أعرض لنماذج مخالفة لاستعمال القرآن للألفاظ في المعنى ثم أعقبها بنماذج موافقة لاستعماله مع إظهار تفوق نظم القرآن عليها حتى وإن وافقته في المعنى العام ولكن رأيت أن ذلك التقسيم يسبب فجوة لدى القارئ قد لا يدرك من خلالها ما أردت إثباته من عدم دقة الشعراء في استعمال اللفظة وعدم اطراد استعمالهم لها في معنى واحد لا تحيد عنه فرتبت نماذجي على النحو التالي :

أولاً : أوردت مواضعاً ذكرت فيها إحدي اللفظتين وغيرها أولي وأحق بالذكر

ثانيا : برهنت على عدم الدقة في استعمال اللفظة بإيراد نماذج وردت فيها صفة واحدة تارة للقلب وتارة للفؤاد إما بمفهومهما أو بمنطوقها إما لشاعر واحد أو لشعراء مختلفين وهذا لم يرد في استعمال القرآن البتة .

ثالثاً : أوردت نماذج ذكرت فيها اللفظتان دون أن يكون ذلك لنكتة بلاغته كما كان لها حين وردت في القرآن الكريم .

أولاً : النماذج التي ذكرت فيها إحدى اللفظتين وغيرها أولى وأحق بالذكر :

1- قال حسان بن ثابت :

مروعة لو خلفها صر جندب S S رأيت لها من روعة القلب أفكلا[1]

2- وقالت الخنساء

وضيف طارق أو مستجير S S يروع قلبه من كل جرس[2]

3- وقالت أيضاً :

بأن أخي ليس بترعية S S نكس هواء القلب ذي ماشية [3]

1 _ديوان حسان بن ثابت : 206

2 _ديوان الخنساء : 72

3 _ السابق :122

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وصف حسان ﷺ في بيته القلب بشدة الاضطراب والخوف وهذا كما تقـــدم في البحث في استعمال القرآن من خصائص الفؤاد لا القلب . وقد اتبع سنة من سنن العرب في وصف الناقة بذلك كما ورد في شرح ديوانه بأن العرب إذا أرادت وصف نافةأو فرس ومدحها بالنباهة فإنهم يقولون ناقة مروعة أو روعاء بمعنى أنها ذكية فكأن بها فزعـــاً مـــن ذكائها وخفة روحها[1]، ولكنه جعل هذه الصفة للقلب لا للفؤاد وهنا المخالفة لاستعمال القرآن الكريم ونجد أنه أثبت هذه الصفة للقلب بأن بدأ كلامه باسم المفعـــول مروعـــة " وهذا دليل على ثبات الوصف لها فالاسمية فيها دلالة الثبات وثبوت وصفى الاضـــطراب والروع يرشح أن تكون اللفظة المستعملة الفؤاد لا القلب وقوله " لو خلفها صر جنـــدب رأيت لها من روعة القلب أفكلاً " تقييد للجملة بالشرطية بأن أقل صوت – وعبر عنـــه بصر الجندب – يستلزم لها الاضطراب بل ويجعله ظاهراً عليها حيث يرى "رأيت" والرؤية تحقق المرئي " أفكلاً " أي رعدة والرعدة لا تظهر إلا لشدة الخوف فكيف يجعل هـــذه الروعة في القلب ؟! إلا لأنه لم يفرق في الاستعمال بين القلب والفؤاد من هذه الناحيـــة . ومن يتتبع سوابق هذا البيت ولواحقه لا يجد فيها ما يؤيد تخير القلب دون غيره فضلاً عن أن يؤكد قراره وملائمته لنظمه . خاصة وأن الوصف لناقة – أي حيوان – والحيوان لـــه فؤاد لا قلب .

وكذلك نرى الخنساء - رضي الله - عنها تستعمل للروع وشدة الاضطراب القلب أيضاً في حين أن الأولى بالاستعمال الفؤاد :

وضيف طارق أو مستجير S S يروع قلبـــه من كل جـــرس . [2]

فالسياق في الفخر بأخيها ويكون الفخر أتم حين يحول شدة الخوف إلى أمن فعبرت عـــن شدة الخوف والاضطراب بتخير خوف الضيف الطارق ، والمستجير وكلاهما يجمعهمـــا شدة الاضطراب – فالطارق لا يكون إلا بالليل وهو أشد خوفاً من غيره من الـــضيوف والمستجير يكون ملاحقاً من غيره فهو أخوف من سابقه ، وأكدت على ذلـــك بـــالتعبير بالمضارع " يروع " فروعه مستمـــر متجـــدد عليه وقيـــدت ذلك بالجـــار والمـــجرور

1 _ لسان العرب : 1778/3
2 _ ديوان الخنساء : 72

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

" من كل جرس "الذي أكد شدة الخوف والاضطراب فهما من كل صـوت وجـرس يروعان ولكنها جعلت هذا الروع للقلب والدقة أن يكون للفؤاد..

وقد يقول قائل بأن القرآن جعل الروع والخوف في القلب كما في قوله تعالى : "سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ" [1]، " سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ "[2]، " وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ"[3]والجواب أن النظم والسياق يستلزم هنا القلب لا الفؤاد .

فالسياق في نصرة المؤمنين وخذلان عدوهم ولا يظهر عظم المنة إلا في ترويع مصدر الثبات لديهم وهو هنا القلب ولو جعل ذلك في الفؤاد لما ظهرت النعمة والفعل المسند لله جل وعلا يستلزم القلب لا الفؤاد[4]

وقالت الخنساء تفخر بأخيها :

بأن أخي ليس يترعية ss نكس هواء القلب ذي ماشية [5]

فالسياق هنا الفخر بأخيها ووصفه بشدة الشجاعة فعمدت إلى نفي ضدها ونفي ضد الشيء أبلغ من إثباته حيث فيه تأبيد ودوام لهذا الوصف فنفت عنه ملازمة رعي الإبل والماشية لأن في ذلك ضعف ليس في أخيها فموقعه أرض المعركة لا أرض المرعى ، ثم نفت عنه أن يكون ممن يخاف أو يضطرب بقولها " نكس هواء القلب " والنكس الضعيف وقيل أصله السهم الذي يكسر فيضعف ولا يستفاد منه، وأن أصله الطفل الذي يخرج برجليه قبل رأسه ، وذلك لضعفه لأنه لا يقدر أن يتقلب في بطن أمه[6] .

وهذا الضعف يرشح بأن تكون اللفظة المختارة والدقيقة الفؤاد ثم قالت " هواء " أي فارغاً ولا يوصف الفؤاد بذلك إلا عند شدة الحزن ولكنها جعلت هذا الوصف للقلب فقالت " هواء القلب " وهنا تظهر مخالفة استعمال القرآن الكريم حيث ورد هذا الوصف للأفئدة " وأفئدتهم هواء ".

---

1 ـ آل عمران : 151 2 ـ الأنفال : 12
3 ـ الحشر : 2 4 ـ ينظر البحث : ص: 211،212
5 ـ ديوان الخنساء :122 6ـ لسان العرب : 4541/6

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

و لم ترد هذه الصفة إلا في شدة الخوف في الموقف يوم القيامة لذا ذكرها في سياق اليوم الآخر وجعلها مع الفؤاد ، لأن ذلك أدق في الدلالة على المعنى في حين أن الخنساء جعلته مع القلب وهذا مخالف لاستعمال القرآن ومخالف لما أرادت نفيه من شدة الخوف فكل الصفات التي أوردتها تدل على شدة الضعف " بترعيه " " نكس " " ذي ماشية " .

ثانياً : النماذج التي وردت فيها صفة واحدة – إما منطوقة أو مفهومة – تارة للقلب وأخرى للفؤاد من شاعر واحد ، أو من شعراء مختلفين وهذا لم يرد البتة في استعمال القرآن الكريم .

1- وقالت الخنساء

يا لهف نفسي على صخر وقد لهفت ss هل يردن خبل القلب تلهيفي (1)

2- وقال الشماخ بن ضرار:

يا أسم قد خبل الفؤاد والروح ss من سر حبك معلق إعلاقاً (2)

فنلاحظ أن صفة " الخبل " لا تكون إلا نتاج حزن شديد كما إنها صفة اضطراب قد جعلت على لسان الخنساء للقلب ، وجعلت على لسان الشماخ بن ضرار للفؤاد وطريقة نظم الخنساء للبيت تؤكد أن ذلك الوصف قد حل بالقلب وذلك لأنها أوردت الجملة بالاستفهام التقريري الذي فيه تأكيد أكثر من الإخبار بأن " الخبل " قد حل بقلبها ولا يرده شدة التلهف والتحسر على أخيها ..

كما أكد الشماخ بن ضرار حصوله على الفؤاد " بقد " التي دخلت على الماضي (خبل) وهذا أسلوب يدل على تحقق وقوع الفعل وجعل هذا الوصف للفؤاد موافق للمعنى الذي استعمل القرآن الفؤاد فيه .

ومن النماذج قول ابن مقبل :

متغزلاً : وأني ليلحاني أن أحبها ss رجال تعزيهم قلوب صحائح (3)

وواصفاً : وصالحة العهد زجيتها ss لواعي الفؤاد حفيظ الأذن (4)

---

1 _ ديوان الخنساء: 84 2 _ ديوان الشماخ بن ضرار: ت : صلاح الدين الهادي ، القاهرة ، دار المعارف : 261

3 _ ديوان ابن مقبل : ت : عبد الرحمن المصطاوي ، بيروت ، دار المعرفة ، ط 1، 1427هـ _ 2006 م : 24

4 _ السابق : 127 .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فقوله " قلوب صحائح " و " لواعي الفؤاد " جعل الوعي ، والفهم تارة للقلب موافقاً في المعنى استعمال القرآن ، وتارة للفؤاد مخالفاً بذلك استعمال القرآن وقد جعل هذا الــوعي ثابتاً للقلب أو للفؤاد باستعمال الاسمية وتخير اسم الفاعل " صحائح ، واعي " فكيــف يكون الوعي للقلب والفؤاد على حد سواء ؟ ومثل ذلك نجده لدى حسان بــن ثابــت - رضي الله عنه - في قوله :

1- وأنت عبد لقين لا فؤاد له ss من آل شجع هناك اللؤم والخور[1]

2- تحوزهم وتدفعهم علــي ss فقد عاشــوا وليس لهم قلوب [2]

ففي كلا الموضعين السياق للهجاء ، وقد هجا مهجوه بعدم الشجاعة والعزم فعبر عن ذلك الضعف والخور تارة بقوله " لا فؤاد له " وأخرى " ليس لهم قلوب " مخالفــاً في الموضع الأول فالأفئدة من صفتها الاضطراب فانعدامها لدى مهجوه ليس مجالاً للمذمة.في حين وافق استعمال القرآن للمعنى في الموضع الثاني حيث ذم بانعدام القلوب لديهم ، وفي هذا دليل على انعدام ثباتهم وشجاعتهم . فلم تخير الفــؤاد في الأول والقلــــــــــب في الثاني ؟ بالرغم أنه ليس هناك مرشحات في النظم لأي من اللفظتين فما سبق الأولى كان ذماً في نسب من هجا الحارث بن المغيرة .

فلا مرشح للفؤاد فيها من ذكر اضطراب أو غيره ، وكــذلك الثانيــة لم يكــن قبلــها مرشحات للثبات تقر استعمال القلب وإن كان في معناه العام موافق . لكن مقــصدي أن الدقة في اختيار اللفظة في الموضع الثاني غير مقصود لدى حسان يدلنا على ذلك الموضــع الأول .

---

1 _ ديوان حسان : 128

2 _ السابق : 33

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثالثاً : نماذج ذكرت اللفظتان فيها من دون أن يكون ذلك لنكته بلاغية كما كان لهـــا في القرآن الكريم .

قول ابن مقبل :

يا ليت لي سواه يشفي الفؤاد بها SS من بعض ما يعتري قلبي من الذكر (1)

الحديث في بيت ابن مقبل عن حالة واحدة ، ومخاطب واحد فكأن الأولى أن يكون الحديث على نسق واحد فما النكتة في المغايرة " يشفي الفؤاد " ، " يعتري قلبي " .

فهو وإن كانت هناك ملاءمة في الشطر الثاني بين القلب والذكر إلا أن الشطر الثاني لا يوافق الشطر الأول فالحالة أصلاً لم تتغير كي يغير اللفظة .

فليس هناك نكتة بلاغية ظاهرة لتنويع الشاعر للألفاظ ، ولكن حين ننظر إلى القرآن حين نوع يكاد يتجسد لنا الموقف بهذا التنوع " وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا " (2) . فحين حزنت أم موسى - عليها السلام - الحـــزن الـــشديد وخافت خوفاً عظيماً بعد إلقاء ابنها في اليم " أصبح فؤاد أم موسى " فهو فؤاد فيه أعظم الاضطراب والخوف فهو قلب الأم ، ولكن حين ثبتها الله وألهمها الصبر بأن " ربطنا على قلبها " ترقى الفؤاد المضطرب إلى الثبات كيف وقد ربطه رب العزة والجـــلال فأصـــبح قلب(3). فتغاير اللفظة لم يكن تلوين في اللفظ فقط بل لأن المعنى اختلف فورد كل لفـــظ في موضعه المناسب لمعناه المطرد في جميع القرآن الكريم .

أما ورود اللفظتين في قول الخنساء :

لعمري لقد أوهيت قلبي عن العزا SS وطأطأت رأسي والفؤاد كئيب (4)

ففيه نكته بلاغية وموافقة لاستعمال القرآن فالبيت ورد في سياق المبالغة في إظهـــار حزنها وتفجعها على أخيها فجاء التعبير بالقلب ملائماً لأنه دل أن الحزن نفذ إلى مـــوطن القوة والثبات فوفاة صخر غيرت حاله لذلك عبرت بأوهيت .

1 _ ديوان ابن مقبل : 42
2 _ القصص : 10
3 _ ينظر البحث : 49 ، 50
4 _ ديوان الخنساء :19

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد ورد في استعمال القرآن التعبير بوصف القلوب باللين والخشوع حين يكـــون السبب عظيماً كـــــــــذكر الله " الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُـــمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُـــــوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ " (1) وقوله " أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِيـــــنَ آَمَنُوا أَنْ تَخْشَــــــعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّـــهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ." (2) .

****

1 _ الزمر : 23
2 _ الحديد : 16

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المبحث الثاني : الألباب ، والأحلام ، والعقول ، والنهى والحجر:

(الألبـــــــــــاب)

سياق الحياة الدنيا :

أ- المعاني التي اطرد ورود الألباب فيها في سياق الحياة الدنيا:

1- **اطرد ورود الألباب** في القرآن مدحا لخواص الخواص الذين كملت عقولهم وكمل إيمانهم ، لذا لم ترد في حكاية شخوص القصص ، وذلك لأنه اطـــرد التعـــريض بانعـــدام عقولهم فكيف يكونون أولي ألباب ؟

2- **اطرد ورود الألباب** فيما خفي ودق من حكمة في تشريع ، أو عبرة في قصص ، أو برهان في استدلال وقد بين كل في موضعه .

ب- التراكيب التي اطرد ورود الألباب فيها في سياق الحياة الدنيا :

1- الجمع : وردت الألباب في جميع مواضعها بالجمع . وقيل أن ذلك لخفة لفظ المفرد . والأسباب اللفظية معتبرة في استعمال القرآن لكنها ليست الأساس بل الأسباب المعنويـــة هي المقدمة ، لذا يظهر لي أن السبب في جمعها :

أولاً : أن الإنسان لا يصل إلى كمال العقل (اللب) برأيه منفرداً بل بالأخذ بـــآراء مـــن عرف عنهم الفهم وهذا يلائم الجمع .

ثانياً : **في** الجمع إشارة إلى تنوع الأفهام وتعدد موارد الإدراك وهذا يلائـــم الكمـــال في الألباب .

2- **التعريف** (بأل) : اطرد في جميع مواضعها تعريفها (بأل) الدالة على كمال الوصف وهذا ملائم لمعنى الكمال في الألباب .

3- الإضافة : اطرد إضافتها لأولي وفي هذه الإضافة دليل مصاحبة لا تنفك وملازمة هذه الألباب لأصحابها دليل على عملها دوماً لصالحهم وهذا يلائم الكمال في الألباب .

4- تلازم : ورود التقوى مع الألباب في أكثر المواضع وذلك لأن كليهما كمال فالتقوى كمال عبادة والألباب كمال فهم وإدراك .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

5- تلازم ورود التذكر مع الألباب فالتذكر للشيء الدقيق واللب لإدراك الشيء الدقيق كما في التذكر دليل ملازمة يلائم ملازمة اللب لصاحبه .

كما إنه لم يرد " يّذكر " بالإدغام إلا مع "الألباب " وهذا دليل على سرعة بداهة وفهم يلائم كمال الألباب .

المعاني والتراكيب في سياق اليوم الآخر :

لم ترد إلا في موضع واحد يعد تعقيباً للإخبار بأحداث اليوم الآخر وقد رشح له أن الآية في سورة" إبراهيم " ذكرت أصناف الناس الوارد ذكرهم في السورة فختمت بأفضلهم وهم " أولو الألباب " واطرد مجيئه في سياق الدنيا دون الآخرة لتعلقه بأمور الدنيا.

(الأحـــــــــلام)

سياق الحياة الدنيا :

أ - المعاني التي اطرد ورود الأحلام فيها في سياق الحياة الدنيا :

1- تعد الأحلام أقل درجة من الألباب ولكنها أعلى من الحجر والنهى والعقل ، لأن الألباب فيها كمال ليس في الأحلام . أما الحجر والنهى والعقل ففي كل منها معنى المنع وكل منها يدل على معنى خاص : فالحجر معناه المنع من اتباع الهوى ، والنهي : الامتناع عن القبائح بإدراك الأمور المعنوية . والعقل الامتناع عن القبائح بإدراك الأمور الظاهرة. أما الأحلام فمعناها الدقيق يجمع بين الفعل والترك . فهو من الحلم وهو من الحكمة بمعنى التصرف الحسن ووجود الفعل على جهة الصواب . والفعل على جهة الصواب قد يكون بالإقدام أو الإحجام فهي أعم من الحجر والنهى والعقل .

ب- التراكيب التي اطرد ورود الأحلام فيها في سياق الحياة الدنيا :

تعد من فرائد القرآن الكريم .

1- وردت بالجمع : وفي ذلك ملاءمة لعموم حسن التصرف فيها .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

2- الإضافة : أضيفت إلى هاء الغائب فهي وإن كانت صفة مـــدح إلا أنهـــا وردت في سياق تعريض بالمشركين ، ففي إضافتها للهاء إهمال وتحقير لهم .

3- ورد في مقابلها الطغيان وفي ذلك بيان لدقة معناها فالطغيان تجاوز للحد في التصرف على غير الهدى ، والأحلام بلوغ الغاية في التصرف بهدى .

- المعاني والتراكيب في سياق اليوم الآخر : لم ترد في سياق اليوم الآخر

(الحجـــــــــــــــر)

سياق الحياة الدنيا :

أ- المعاني التي اطرد ورود الحجر فيها في سياق الحياة الدنيا :

1- تعد من فرائد استعمال القرآن ومعناها الدقيق الذي وردت فيه هو منع صاحبها مـــن اتباع الهوى .

ب- التراكيب التي اطرد ورود الحجر فيها في سياق الحياة الدنيا :

1- وردت مفردة و لم ترد جمعاً كالألباب ، وذلك لأن الجمع في الألباب فيه إشـــارة إلى الإفادة من ذوي الأفهام للوصول للكمال في الإدراك ، أما الحجر فمعناه الدقيق المنع مـــن اتباع الهوى وهذا لا يكون إلا من داخل الفرد ومن وازعه الداخلي .

2- أضيفت إلى (ذي) من دون (أولي) لكون مصاحبة الحجر أقل لزوماً مـــن مـــصاحبة الألباب أو الألباب أو النهى ، لأن الامتناع عن الهوى دوماً صعب عزيز ، وقد يقع فيـــه الإنسان ولو بخطرات النفس .

3- لم تعرف(بأل) بل وردت نكرة لندرة من يملك الكمـــــــــال في عـــدم اتبـــاع الهوى ، وفي وروده مفرداً تأكيد على ذلك .

المعاني والتراكيب في سياق اليوم الآخر : لم ترد في سياق اليوم الآخر .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(النهـــــــــــــــــــى)

سياق الحياة الدنيا :

أ- المعاني التي اطرد ورود النهى فيها في سياق الحياة الدنيا :

1- ورد في موضعين في سياق القصص ومعناها الدقيق الانتهاء عن فعل القبائح بـــإدراك الأمور المعنوية ، ولذا لم ترد إلا في سورة طه فكل ما في السورة أمور معنويـــة تؤكـــد ضرورة الانتهاء عن القبائح .

ب-التراكيب التي اطرد ورود النهى فيها في سياق الحياة الدنيا :

1- الجمع : وردت بالجمع وإن لم تكن بكمال الألباب ولكن لأن المـــدركات مـــن المعنويات كثر ، فكأن الجمع هنا إشارة إلى كثرة ما يتقلب فيه النهى لينتـــهي عـــن القبائح .

2- الإضافة إلى (أولي) والتعريف (بأل) : وفي الإضافة دليل قوة المـــصاحبة وشـــدة الملازمة يؤيدها التعريف (بأل) الدال على كمال الوصف . وقد ورد هنا و لم يرد في الحجر على الرغم من أن الحجر أخص والامتناع عن الهوى أقوى من الامتناع العام عن القبائح إلا أن للجمع هنا مدخل في الكمال فكثرة دواعي " النـــهى "تـــؤدي إلى الكمال .

- لم ترد في سياق اليوم الآخر .

(العقـــــــــــــــــل)

سياق الحياة الدنيا :

أ -المعاني التي اطرد ورود العقل فيها في سياق الحياة الدنيا :

1- المعنى الدقيق للعقل هو إدراك الأمور الظاهرة ، لذا ورد في شخوص القـــصص مـــع اليهود الذين عرف عنهم طلبهم للأمور الحسية الملموسة ، ومع قوم إبراهيم لأن عدم نفع أصنامهم كان ظاهراً لا يختلف فيه اثنان .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

2- كثرة وروده في سياق الاستدلال لأن الاستدلال أو التحدي لا يكون إلا بأمر ظاهر وهذا ملائم لإدراك العقل للأمور الظاهر . وقد اطرد ذلك في القرآن عدا مواضع آل عمران لأن السياق عموماً كان في المصطفين الأخبار وموضع الزمر لملاءمة السياق – كما سبق ذكره- ولأن إدراك ما هو أدخل في دورة حياة النبات والاستدلال به على نهاية الإنسان أمر أعمق من أن يدركه العقل المجرد ، وموضع الرعد ، لأن السياق كان في الذكر وهو منوط بأولي الألباب .

3- ورد في التشريع في الأمور البديهة الظاهرة .

4- في سياق أحوال المخاطبين لم يرد البتة مع المؤمنين لأنهم وصلوا إلى الألباب.

كما لم يرد مع المنافقين ، لأنهم لا عقول لهم ترجى لتخاطب ولكنه ورد مع الكافرين واليهود ، لأنهم لا زالت لهم عقول تخاطب ، لذا عرف من أسلم من الكفار واليهود و لم يعرف أن منافقاً عاد للحق .

5- لم يرد العقل في سياق مدح البتة .

ب- التراكيب التي اطرد ورود العقل فيها في سياق الحياة الدنيا :

1- لم يرد بالاسمية مطلقاً بل ورد بالفعلية ، لأن معنى التجدد في العقل بتجدد مدركاته يتنافى مع الثبوت في الاسمية .

2- اطرد ورودها فاصلة لإفادة الحث والحض أو الإنكار وقل الإخبار بها لأن المخاطب بها مخالف لمقتضى العقل فإما أن يحض وإما أن ينكر عليه عدم إعمال عقله .

3- اطرد عند الاستفهام عن عدم إعمال العقل الاستفهام بالهمز لدلالتها على إقرار المخاطب بالمستفهم عنه ، وهذا يلائم ظهور الأمر الملائم لإدراك العقل .

4- اطرد فيها خطاب الجمع ، لعموم الأمور المدركة التي يذكر معها العقل ولعموم المخاطبين بهذه الأمور .

5- اطرد ورودها بالمضارعة لملاءمة التجدد و لم ترد بالمضي إلا في شأن اليهود وذلك لأن الحكاية عن سابق فعلهم .

6- اطرد عند ورود العقل أن يتقدمه نعم وعبر ظاهرة للعيان تلائم إدراك العقل للأمور الظاهرة .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المعاني والتراكيب التي ورد فيها العقل في سياق اليوم الآخر :

ورد في موضع (يس) حين كانت المعاتبة بين أهل النار على شيء ظاهر وهو الانخداع بإتباع الشيطان ، وقد ظهرت عداوته لابن آدم .

وكل المعاني السابقة مطردة في القرآن الكريم ولكن في استعمال البشر لم يطرد استعمالها لا في المعاني ولا في التراكيب .

ولنعرض بعض النماذج ليتجلى لنا ذلك . ومن الملاحظ أن استعمال الرسول ﷺ لهذه الألفاظ أكثر موافقة لاستعمال القرآن في المعنى من استعماله -ﷺ- للقلب والفؤاد .

قال ﷺ " يا معشر النساء تصدقن وأكثرن الاستغفار فإني رأيتكن أكثر أهل النار ، فقالت امرأة منهن جزلة وما لنا يا رسول الله أكثر أهل النار قال : تكثرن اللعن وتكفرن العشير وما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذي لب منكن قالت : يا رسول الله وما ناقصان العقل والدين ؟ قال : أما نقصان العقل فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل فهذا نقصان العقل وتمكث الليالي ما تصلي وتفطر في رمضان فهذا نقصان الدين" (1) .

وقال : " يا معشر النساء تصدقن فإنكن أكثر أهل النار فقالت امرأة منهن و لم ذاك يا رسول الله قال : لكثرة لعنكن وكفركن العشير قال : وما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذوي الألباب وذوي الرأي منكن قالت امرأة منهن : وما نقصان دينها وعقلها ؟ قال : شهادة امرأتين منكن بشهادة رجل و نقصان دينكن الحيضة تمكث إحداكن الثلاث والأربع لا تصلي " (2).

وقال : " ما رأيت من نواقص عقول قط ودين أذهب بقلوب ذوي الألباب منكن أما نقصان دينكن فالحيضة التي تصيبكن تمكث إحداكن ما شاء الله أن تمكث لا تصلي ولا تصوم فذلك نقصان دينكن وأما نقصان عقولكم فشهادتكن إنما شهادة المرأة نصف شهادة "(3) .

---

1 _ صحيح البخاري : 532/2 – مسلم 87/1

2 _ السابق : 532/2- 87/1

3 _ البخاري : 690/2، ح 185

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال ﷺ : "يا معشر النساء تصدقن فإني رأيتكن أكثر أهل النار. فقلن وبم يا رسول الله؟ قال : تكثرن من اللعن وتكفرن العشير وما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن قلن : وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله قال ألـيس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل؟ قلن :بلى قال :فذلك نقصان من عقلها ألـيس إذا حاضت لم تصلِ ولم تصم ؟ قلن : بلى . قال : فذلك من نقصان دينها "[1].

نلاحظ أن في هذا الحديث على اختلاف رواياته استعمل الرسول - ﷺ - العقل حين عبر عن نقصانه في النساء والألباب في شأن الرجال ذوي الرأي والحزم ، وقد وافق في ذلك استعمال القرآن الكريم فالنقصان لا يكون في الألباب ولكن يكون في العقول كما في استعمال الرسول للعقل إشارة إلى معرفة النساء لظواهر الأمور دون بواطنها وهذا واقع في النساء . وتظهر لنا بلاغة الرسول-ﷺ -في التحذير من فتنة النساء أن جعل النقص الظاهر يغلب الكمال فعقل النساء يغلب ألباب الرجال ففي المعنى هناك موافقة ولكن الاختلاف في بنية الألباب حيث عبر عنها بالجمع في رواية وعبر عنها بالإفراد في رواية أخرى في حين اطرد النظم في القرآن على الجمع دون الإفراد ، لأن القرآن يخاطب الجمع للتذكر والتدبر فالجمع أفضل والرسول - ﷺ - أفرد وفي الإفراد خصوصية المخاطب ، ولكن الجمع يلائم خطاب التشريع لأن فيه يراعى العموم وليس ذلك في الإفراد .. ونلاحظ أن الألباب أضيفت لـ " ذوي " ففي استعمال الناس عموماً في الحديث وفي الشعر اطرد إضافتها لـ " ذوي " ولم تضف لأولي في حين اختص القرآن بإضافتها لأولي وفي ذلك ميزة لأن أولي أدل على التشريف من "ذوي" والتي ترد في مواضع ليس فيها تشريف كقوله تعالى : " أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ "[2] أو " أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ "[3].

---

1 _ البخاري : 116/1 ، ح 298

2 _ البلد : 14

3 _ السابق : 16

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ونلاحظ دقة الرسول ﷺ في الجمع في " ناقصات " فجمعها على ناقصات وعلى " نواقص " فالروايات التي وردت بـ ناقصات قال فيها " أغلب لذوي الألباب " أو " أذهب للب الرجل الحازم " ولكن في الرواية التي جمعها على فواعل " نواقص " جمع كثرة جعل أثرها أقوى وأدل على الغلبة حيث قال " أذهب بقلوب ذوي الألباب " فذكر أهمن أذهب لأساس الثبات والكمال والإدراك لديهم فذكر " القلوب " هنا ولم يذكرها فيما عداها من الروايات ..لذا زاد في الرواية " قط " أي أبداً وهذا أقوى في بيان غلبة النساء على نقص عقولهم – للرجال ، لذا عبر أيضاً بأذهب لا أغلب .

وفي حديث آخر قال -ﷺ- " كرم المؤمن تقواه ومروءته عقله وحسبه دينه والجبن والجرأة غرائز يضعها الله - عز وجل -حيث شاء فالجبان يفر من أبيه وأمه والجريء يقاتل عما لا يبالي أن لا يؤوب به إلى أهله " (1)، استعمل ﷺ هنا العقل ، وقد جعل المروءة هي العقل وفي هذا الاستعمال جانب يختلف عن استعمال القرآن الحكيم وآخر موافق ، فالرسول ﷺهنا يتكلم عن صفات المؤمن والإيمان قلبي ومرتبته أعلى من مرتبة العمل الظاهر كما في الإسلام ، والعقل يستعمل في القرآن للأمور الظاهرة كما إن في الإيمان كمال يتطلب مرتبة أعلى من العقل المجرد ، ويؤكد ذلك قوله ﷺ " كرم المؤمن تقواه " فجعل التقوى هي كرم المؤمن ولاحظنا في استعمال القرآن أن التقوى ترد مع اللب لا مع العقل.

كما إن المروءة أمور نفسية داخلية راقية لا يصل إليها إلا من كمل عقله فكانت الألباب هنا أولى من هذا الوجه .

أما من وجه آخر فهناك موافقة لاستعمال القرآن ، ذلك لأن الشعراء كانوا يستعملون المروءة مع الصفات الحسنة التي تجعل الإنسان امرءاً -أي الصفات التي يكون حسنها ظاهر للناس -

---

1 ـ المستدرك على الصحيحين : 212/1ح 425 ، 212/1ح 426 ، 177/2 ، ح 2691

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كقول الشاعر في القصيدة التي مطلعها :

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه　　S S　　فكل رداء يرتديه جميل[(1)]

حيث أورد كلمة المرء أولاً وعرض بعد ذلك صفات ظاهرة الحسن تجعل من الإنسان امرءاً ومنها قوله :

وإنا لقوم ما نرى القتل سبة　　S S　　إذا ما رأته عامر وسلول

فنحن كماء المزن ما في نصابنا　　S S　　كهام ولا فينا يعد بخيل

وما أخمدت نار لنا دون طارق　　S S　　ولا ذمنا في النازلين نزيل[(2)]

فربما لهذا الظهور في الصفات للناس ، استعمل الرسول -ﷺ- المروءة مع العقل حيث هي مدركة للناس بأنها حسنة وأن المتحلي بها صاحب مروءة فمن هنا الموافقة ، أما كون الصفات في ذاتها لا يصل إليها صاحب العقل المجرد بل من حباه الله باللب هو من يصلها فهنا الاختلاف .

ومن النماذج الموافقة لاستعمال القرآن ما يلي :

عن ابن عباس قال دعا رسول الله - ﷺ- بكتف فقال ائتوني بكتف أكتب لكم كتاباً لا تختلفوا بعدي أبداً وأخذ من عنده من الناس في لغط فقالت امرأة ممن حضر ويحكم عهد - ﷺ- إليكم فقال : بعض القوم اسكني فإنه لا عقل لك فقال النبي -ﷺ- أنتم لا أحلام لكم " [(3)].

نلاحظ دقة الرسول ﷺ في تخيره لفظة الأحلام حين رد على الصحابة فلم يرد عليهم بما قالوه للمرأة بأن لا عقول لكم بل قال : أنتم لا أحلام لكم ..وفي تخير هذا اللفظ إشارة إلى عدم تأنيهم وحلمهم على المرأة فسارعوا بالرد عليها فكأنه ﷺ يذكرهم بلزوم التأني والتصرف الحكيم في المواقف فهي وإن أخطأت بالرد في حضرة الرسول ﷺ فقد أخطأوا بأنهم لم يتأنوا ويحلموا عليها .

---

1 _ شرح ديوان الحماسة لأبي تمام : 1 /82 .　　2 _ السابق : 86/1، 90، 91 .

3 _ صحيح مسلم : 1259/3، ح1637 ، 3//1260ح 1637 . البخاري 54/1 ح 84

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن النماذج الموافقة أيضاً قوله ﷺ " ليلني منكم أولو الأحلام والنهى ثم الـــذين يلونهم ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم وإياكم وهيشات الأسواق "[1].

الحديث وارد في شأن الصلاة والصلاة يلزمها سكينة ووقـــار وعـــدم اخـــتلاف والرسول ﷺ كان دقيقاً في تخيره الأحلام والنهى حيث لم يذكر الألباب لأن فيها كمال وتستعمل حيت يحتاج الموطن طول تأمل وتدبر ، ولم يذكر العقل لأن العقل أقــل مــن الأحلام والنهي ، ولكنه - ﷺ- تخير الأحلام والنهى لأن الصلاة تحتاج أناة وحلم وعدم طيش ونزق لكي لا تختلف الصفوف فتخير الأحلام بالذات لأن ذلــك يــضمن عــدم اختلاف الصفوف كما تخير النهى لأن الصلاة تنهى عن المحظورات عمومـــاً وأصـــحاب النهى تنهاهم صلاتهم عن المحظور كما إن أصحاب النهي ينهون أنفسهم عن ارتكاب أي محظور في الصلاة كالانشغال بالفكر أو الحركة أو غير ذلك من محظورات الصلاة فنلاحظ هنا دقته ﷺ في تخير ألفاظه .

أما الحـــــــــجر فلم ترد في حديث الرسول - ﷺ- بمعنى العقل [2].

وأما استعمال الشعراء لهذه الألفاظ فالملاحظ فيه عدم التفريق الدقيق لمعـــنى كـــل لفظة من الألفاظ فلم تستعمل الألباب لخواص الخواص لديهم بل ترد في الأمور الظـــاهرة وقد ترد أيضاً فيما لا يليق بكـــمال دلالتـــها ولننظـــر إلى هذه النـــماذج:

قال حسان : أخوات أمك قد علمت مكانها ss والحق يفهمه ذوو الألباب [3]

وقال لبيد : قوم لهم عرفت معد فضلها ss والحـــق يعرفه ذوو الألباب [4]

وقال ابن مقبل:نرمي النوابح كلما ظهرت لنا ss و الحق يعرفه ذوو الألباب [5]

فأبيات حسان كانت في الهجاء ، وكان مركزاً فيها على النـــسب والعـــرب لا يخفاهم النسب بل برعوا في ذلك فإذن معرفة شرف النسب أو نزوله لا يحتاج إلى لب .

1- البخاري في صحيحه : 1054/3 ح 2717 . مسلم في صحيحه 323/1 ، ح 432

2– ينظر المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي مادة حجر : مجموعة مستشرقين ، لندن مطبعـــة بـــرليين 1955م : 247/1

3- ديوان حسان : 42

4- ديوان لبيد بن ربيعه : بيروت ،دار المعرفة ، ط 2004هـــ 2005م :14

5 - ابن مقبل :9

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأبيات لبيد كانت في المدح وبيان شجاعة ممدوحيه ، وقد صـــور في القـــصيدة فعالهم في المعارك فهي أيضاً أمور ظاهرة لا تحتاج إلى لب ليدركها .

وكذلك أبيات ابن مقبل في الفخر بقومه وبيان إبائهم وتــصديهم لمــن تعــرض لأنسابهم وأعراضهم واستعمل لمعرفة ذلك الألباب وليس كرم قومه ومعرفتــهم لمكايــد عدوهم بالأمر الخفي أو الأمر الدقيق الذي يحتاج إلى دقة إدراك .

فالملاحظ في الأبيات الثلاثة اتفاق الشطر الثاني فيها سوى أن حسان تخير الفهــم دون المعرفة وإن كان الأمر في جميع هذه الأبيات لا يحتاج لباً بل لو ذكر العقل لكان أدق في الاستعمال ونجد في بيت ابن مقبل تصريحاً بظهور الأمر ومع ذلك يجعل إدراكه لذوي الألباب .

هذا بالنسبة لمخالفتهم استعمال القرآن في المعنى .. ونلاحظ أهم وافقوا اســتعمال القرآن حيث وردت بالجمع ولكنهم خالفوا بما أضافوا إليه الألباب فقد اطرد في القــرآن إضافتها " لأولي " .

وفي ذلك ميزة لأن أولي تكون للأمر الشريف والميزة الحسنة وهذا مــا ورد فيــه استعمال " الألباب " في القرآن في حين أن " ذو " قد ترد في ذلك وقد ترد في سواه .

كما ورد قول حسان :

إنما الشعر لب المرء يعرضه S S على المجالس إن كيساً وإن حمقاً (1)

مخالفاً لاستعمال القرآن للفظة " اللب " في التركيب وفي المعنى فالتركيب ظــاهرة مخالفته فقد سبق أن ذكرت طريقة القرآن في تركيب اللب ونجد أن حسان ﷺ هنــا لم يكن دقيقاً في اللب وعدم الدقة على درجتين ، الأولى : أن الشاعر ردد معنى اللب بــين معنيين وهذه عدم دقة كما أن المعنيين غير متقاربين بل بالعكس متضادين .

والدرجة الثانية : أنه لم يكتف بترديده بل انتكس باللب من الكمال في الإدراك إلى جعله حمقاً. فالتقدير في كلامه . " إنما الشعر لب المرء يعرضه على المجالس إن كان لبــه كيساً وإن كان لبه حمقاً "

1- ديوان حسان : 174

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فهنا حذف في البيت ، حيث حذف كان واسمها والمعروف أن اللب خلاصـــةُ الـــشيء وكماله فهو يكون كيساً ولا يكون اللب حمقاً البتة وهنا موطن المخالفة لاستعمال القرآن الكريم .

وفي استعمال الشعراء للفظة الأحلام مخالفة جلية لاستعمال القرآن تظهر لنا عـــدم دقتهم في تخير المكان الأخص والأنسب لكل لفظة فكأن الألفـــاظ في الإدراك لم تتـــدرج لديهم فالألباب للكمال ثم بعدها الأحلام ثم النهى ثم العقل[1]. بل كانت بدرجة واحـــدة لديهم كما يتضح من استعمالهم لها ويدلنا على ذلك قول حسان :

لا بأس بالقوم من طول ومن عظم   S S   جسم البغال وأحلام العصافير[2]

وقوله : وقريش تلوذ منا لواذاً   S S   لم يقيموا ، وخف منها الحلوم [3]

وقول ابن مقبل : فإما ترينا ألحمتنا رماحنا S S وخفة أحلام ضباعاً وأنسرا [4]

فبيتا حسان ﷺ قالهما هاجياً بقلة العقول فعبر عن ذلك بقـــوله في البيت الأول (أحلام العصافير) وفي الثاني ، " وخف منها الحلوم " فهل للعصافير أحلام ؟ وإن كـــان يقصد هنا قلة العقول ونقصها وعدم تصريفها الصحيح للأمور فهي ليست أحلاماً بـــل هي عقول مجردة لأن العقل لا يقال له "حلم" إلا إذا تصرف بحلم وحكمة في المواقف فإن لم يكن فلم يرق إذن العقل ليكون حلماً كما إن في إضافتها للعصافير خطأ آخر فالعصافير طيور لا حكمة لها وإنما تصرفها تبعاً لما فطرها الله عليه من تسيير أمور عيشها ، والحلـــم للإنسان لا للحيوان . ونلاحظ أن الشاعر ذاته في القصيدة ذاتها يناقض هذا الاســـتعمال حيث قال في بيت قبل هذا البيت :

1_ لم تذكر الحجر لعدم ورودها في شعر من استشهدت بشعره.

2_ ديوان حسان : 129   3 - السابق : 129

4 _ ديوان ابن مقبل 62

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حار بن كعب ألا الأحلام تزجركم SS عنا وأنتم الجوف الجماخير[1]

فذكر أن الأحلام مسؤولة عن رد الإنسان عن جهله وزجره عن الخطأ ، وهذا فيه مقاربة لاستعمال القرآن الذي عرض فيه بأفعال قريش " أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون " ثم يناقض ذلك بإضافتها للعصافير .

كما في تعبير ابن مقبل " خف منها الحلوم " في سياق الهجاء ، والقصد إلى بيان قصور التصرف انعدام للدقة فكان الأولى أن يعبر بالعقل لا الحلم فوصف الخفة لا يلائم الحلوم وإذا كان استعمال ابن مقبل للتحسر على ما وصل إليه قومه من سوء التصرف بعدما كانوا عليه من رجاحة عقل وحسن تصرف فالدقة أن ينزل من اللفظة الخاصة برجاحة العقل وحسن التصرف إلى العقل الظاهر فيكون هناك دقة في التعبير وتكون بذلك الكلمة السابقة للفظة مرشحة لها مخبرة عنها لا مضادة لها وتوحي بضدها . فالبيت يدل على الجهل في التصرف حيث أوردتهم رماحهم وخفة عقولهم المهالك لعدم حسن تصرفهم فأصبحوا طعاماً للنسور والضباع ولا يكون ذلك إلا لكثرة قتلاهم وهذا دليل على تسرعهم وعدم حكمتهم .

وصورة أخرى لعدم الدقة قول الحطيئة :

هم آل سيار بن عمرو بن جابر SS رجال وفت أحلامهم ولهم جد [2]

وإن كانت عدم الدقة هنا أقل درجة من خطأ استعمال حسان وابن مقبل حيث إن خطأهم في وضعها في ضد معناها ولكن هنا لم يضعها في ضد معناها بل كان غيرها أولى وأدق في الدلالة منها حيث مدح هنا آل سيار بكمال عقولهم حيث قال إنها " وفت " وبما أنها كملت فكان الأولى أن يقول " ألبابهم" لأن الدقة تقتضي أن العقول إذا كملت فهي ألباب لا أحلام .

---

1 – ديوان حسان : 152

2 – ديوان الحطيئة : بيروت ، دار المعرفة ، ط1 ، 1423هـ _ 2003م : 42

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكونه عبر عن ذلك بالمضي فكأن هذا الكمال قد حصل وحدث لها وهذا يؤيد أن تكون ألباباً .. والتنكير في " رجال " تعظيم يرشح استعمال الألباب والجمع كذلك فبما أنهم تكاملت عقولهم فكل يكمل الآخر فقد وصلوا " للألباب " و لم يقفوا على "الأحلام " .

ولهؤلاء الشعراء نماذج وافقوا فيها استعمال القرآن بالمعنى العام ولا يخفى على متدبر فضل القرآن عليها في النسج العام والتركيب ومنها قول حسان :

لا يجهلون وإن حاولت جهلهم ss في فضل أحلامهم عن ذاك متسع (1)

وقول ابن مقبل :

هم التابعون الحق من عند أهله ss بأحلامهم حتى تصاب مفاصله (2)

وقول الخنساء :

ليبك الخير صخراً من معد ss ذوو أحلامها وذوو نهاها (3)

وقد استعملت الخنساء هنا أيضاً مع الأحلام النهى وكان المعنى العام موافق لاستعمال القرآن وإن كان هناك مخالفة في التركيب والسياق العام أيضاً حيث إن ذوو الأحلام والنهى لهم رزانة وحسن تصرف تمنع من الطيش وقد يظن البعض أن البكاء يكون طيشاً ولكن الخنساء خصت بالبكاء صخرا فيستحق أن يبكيه ذوو الأحلام وذوو النهى لأنهم يعلمون يقيناً أن بفقده فقدوا خيراً عظيماً فليس البكاء عليه من الجهل والطيش في شيء وكذلك الحطيئة ذكر لفظة النهى في قوله :

أنت الأمين الذي من بعد صاحبه ss ألقت إليك مقاليد النهى البشر (4)

وقد وافق الحطيئة في المعنى استعمال القرآن الكريم حيث إن النهى العقل الذي ينهى عن المحظور ومدح عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - باستحقاق الخلافة يلائم النهى ، لأنه انتهت إليه الولاية وهو يملك أن ينهاهم بعد ولايته عن كل محظور كما إن من معاني النهى من ينتهي إليه الأمر في الحكمة والعقل ، وهذا ملائم لاستعمال الحطيئة لها في هذا السياق حيث يمدح فيه عمر بتمام حكمته .

1- ديوان حسان : 152
2- ديوان ابن مقبل: 104
3 - ديوان الخنساء: 116
4- ديوان الحطيئة: 66

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الخاتمة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الخاتمة

****

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه وعلـــى آله وصحبه .. **وبعد** ..

فإن النظر إلى إعجاز القرآن الكريم في دقة تخير ألفاظه ليهدي إلى نتائج في البحث ترقى برقي الغاية والهدف. ومما توصلت إليه من خلال البحث ما يلي :

أولاً : **ما فارق به النظم القرآني نظوم البشر في استعمال الألفاظ** :

1 - اطراد استعمال القرآن اللفظ في جميع نظمه بمعنى دقيق واحد لا يغيره إلا لـــتغير السياق بخلاف ما عليه استعمال البشر[1].

2- ظهور النظم القرآني كلحمة واحدة ونسيج واحد ويظهر ذلك في :

أ - تمهيد النظم القبلي في القرآن للكلام بعده تمهيدا يؤكد على قرار اللفظ بل إنـــه يرشح له حتى كأنك تنطقه قبل أن تصل إليه وأمثلة ذلك ظاهرة في كل آية حللت في البحث.

ب - تتميم السور الجزئية المتفرقة في المواضع المختلفة بحيث إذا جمعـــت ظهـــرت صورة كاملة , وأضرب لذلك مثالا بيان القرآن لصفة مرض القلب حيث تـــدرج في بيان الوصف تدرجا يلائم الدعوة فذكر الوصف لذاته في أول موضـــع[2]في ســـورة البقرة "في قلوبهم مرض" ثم تدرج في ذكر آثاره بإسرارهم في معارضتهم للمـــسلمين بمسارعتهم في الكفار في موضع المائدة "يسارعون فيهم" ثم بعد ذلك ذكر تـــصريحهم بالقول أولا في الأنفال "غر هؤلاء دينهم " ثم بالفعل ثانيا متدرجا في ذلك أيضا فذكر

---

1 – ينظر الفصل الخامس

2 – هذا على اعتبار الترتيب المصحفي المعتمد عند أهل العلم وقد اعتمد عليه السيوطي , ينظر تناسق الدرر في تناسب الـــسور للسيوطي : ت: عبد القادر عطا ,بيروت ,دار الكتب العلمية, 1406 هـــ-1986م : 61

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أولا إعراضهم بانصرافهم عن آيات القرآن في التوبة "ثم انصرفوا"وترقى بذكر تجرؤهم على معارضة التشريع في النور" وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فـــــريق مـــنهم معرضون" ثم ذكر في الأحزاب في الموضع الأول امتناعهم عن الجهاد ثم ترقى في الموضع الثاني فذكر منعهم لغيرهم بإرجافهـــم في القول ,ثم بــين لنـــا في محمـــد موقفهم العام من الجهاد وختم في الموضع الثاني بتهديدهم وكأن القرآن استكمل آثار المرض ثم ختم بالتهديد من مغبته ,وموضع المدثر كان آخر موضع ذكر فيه آثار المرض لذا اختص بذكر كفرهم بأمر غيبي والغيب آخر ما ينتهي إليه الأمر في الإيمان. فهـــذه صورة من صور تكامل القرآن وكونه لحمة واحدة وأمثلة ذلك في القرآن كثيرة.

3 -استعماله للفظة الفؤاد كأداة من أدوات المعرفة وهذا ما لم يستعمله العرب .

ثانيًا : **ما اطرد فيه التعبير القرآني في ألفاظ البحث** :

13- استعماله القلب للدلالة على التمكن والثبات في جميع ســياقات الـــدنيا ، وتغير الاستعمال إلى التقلب في سياق الآخرة وكان ذلك في ثلاثة مواضع جمع بينـــها سبب التقلب وهو الخوف الشديد من شيء مجهول غيبي وأثر الغيب يكون متعلقـــا بالقلب .

14- استعمال الفؤاد للدلالة على الاضطراب أوالتفؤد والحزن في جميع نظـــم القرآن ، واستعماله كأداة من أدوات المعرفة لمراعاة الواقـــع في اكتـــساب المعرفـــة وخاصة في الاستدلال على بداية النشأة.

15- الدقة في استعمال درجات العقل واختصاص كل فئة من المخاطبين بدرجة معينـــة لا تتجاوزهـــا إلى غيرهـــا ، فالألبـــاب : للخـــواص لـــذا لم تـــرد إلا مدحاً ، والعقول : للعامة لذا لم ترد كصفة مدح ، وكـــان ورودهـــا في الأمـــور الظاهرة سواء في الاستدلال أو في الإنكار على عدم إدراك الأمور الظاهرة في سياق شخوص القصص .

والأحلام : وردت فريدة من فرائد القرآن في التعريض بتهور المشركين لأن الحلم التصرف بروية وحكمة وهـــذا مـــا افتقـــده المـــشركون في تكذيبـــهم للرســـول ﷺ،والحجر : أيضاً فريدة من فرائد القرآن لم ترد إلا في سياق النهي عـــن الهـــوى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

خاصة ،والنهى : وردت في موضعين كان السياق فيهما عن عناد وإعراض ، وعـــدم انتهاء عن القبيح بما يملكونه من نهى .

ثالثاً : **دقة موقع هذه الألفاظ وبنيتها الدالة على إعجاز القرآن ومن ذلك** :

1-استعمال القرآن للقلب بالاسمية دون غيرها وفي ذلك ملاءمة للثبـــات الـــذي اطـــرد استعمال القرآن عليه وكان ذلك في جميع مواضع ذكره في القرآن .

2- استعمال القرآن العقل بالفعلية لأن العقل ليس كاملاً كالألباب بل هـــو في تجـــدد للترقي وكان ذلك في جميع مواضع ذكره في القرآن.

3- استعمال الألباب معرفة بأل الدالة على كمال الوصف ، وبالجمع الذي يؤكد هـــذا الكمال من وجهين : تعدد الأفهام ، وتنوعها وكان ذلك في جميع مواضـــع ذكرهـــا في القرآن.

4- وقوع الأفئدة متأخرة في كل المواضع التي كـــان الاســـتدلال فيهـــا علـــى بدايـــة النشأة ، لمراعاة الواقع في اكتساب المعرفة إذ إن اكتسابها في حالتين:

أ- في بدء الحياة ففي بدء الحياة السمع يعمل أولاً ثم البصر ثم تصل المعرفة إلى الفؤاد .

ب- في أثناء الحياة اكتساب المعرفة يبدأ بالخارج ثم بالداخل أي يبدأ بإدراك الحـــسيات ليصل إلى المعنويات .

رابعاً : **ما رددت من آراء اعتماداً على السياق والنظم ومن ذلك** :

1- الحمل على المجاز في مواضع من البحث في حين إن الأولى الحمل على الحقيقة:

أ- كحمل مرض القلوب على المجاز لأن المرض غير معروف ، والأولى أن يحمل على الحقيقة لأن المرض في جميع المواضع ورد منكراً ، والتنكير يقوم بذلك . فلم يحمل علـــى المجاز ؟

ب- حمل تحرك القلوب يوم القيامة على المجاز والحقيقة أولى ، لأن السياق في اليـــوم الآخر ، وهو غيب غير مدرك . والقرآن قد صرح بأهوال عظام لذلك اليوم أفلا يكـــون منها تحرك القلوب من مكانها ؟

2- حمل اختلاف بنية اللفظة في موضع من المواضع عنها في موضع آخر علـــى المـــشابهة اللفظية - وهي وإن كانت معتمدة - إلا أنها مرتبة ثانية في القرآن، فـــلابد من وجـــود سبب معنوي يكون هو الرئيس في ورود اللفظة على تلك البنية .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

3- حمل علماء اللغة قاطبة جمع الألباب على الخفة اللفظية - فهي وإن كانت سبباً- لكن الدقة في المعنى هي السبب الرئيس الذي دعا إلى جمعها كما سبق أن ظهر في البحث .

خامساً : **بعض ما توصلت إليه من جديد في التحليل أعرض نقاطاً على سبيل المثال لا الحصر فقد سبق بيانها في البحث والتنبيه على جلها في الفصل الخامس** :

1- أن مدار حذف (من) – فيما يتعلق بالظروف - في نظم القرآن دال على المسارعة إلى الفعل أو الكف عن ذلك على حسب الغرض الدقيق من مدح أو ذم ومواضع الحذف في البحث خمسة مواضع ,في حين أن ذكرها يدل على الاستغراق في الفعل لقصد المدح أو الذم ومواضع الذكر في البحث تسعة مواضع .

2- نسب الفعل الداخلي الذي عليه الاعتقاد إلى القلب في حين تنسب الأفعال الظاهرة إلى الجوارح وقد ورد نسب الفعل إلى القلب في ثمانية وخمسين موضعا انقسمت فيها الأفعال إلى :

أ- أفعال لم تنسب إلى الجوارح البتة بل وردت منسوبة فقط إلى القلب كالوجل والتقوى وغيرها وذلك لأنها لا تكون إلا أفعالا قلبية.

ب- أفعال نسبت للجوارح تارة وللقلب تارة أخرى وتميزت المواضع التي نسب فيها الفعل إلى القلب بالمؤاخذة على هذه الأفعال وذلك يؤيد كونها نابعة عن اعتقاد كـ"كسبت قلوبكم ,آثم قلبه " .

3- تلازم ورود التقوى مع الألباب ؛ لأن في كل منهما دلالة الكمال: في التقوى كمال العبادة وفي الألباب كمال العقول والأفهام .

4- أن للقلب أصلين أحدهما دال على الشرف ، والآخر دال على التقلب وقد استعمله القرآن بأصل واحد لا يتغير إلا بتغير السياق ، أما استعمال العرب فقد ورد بالأصلين دون تفرقة بينهما في السياقات .

هذا وغير ذلك كثير يظهر في ثنايا البحث ، وتحرزاً من الإطالة أو التكرار في الخاتمة .اكتفيت بما سبق ..

أهم التوصيات :

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

1- التوصية باستكمال حلقات هذا البحث إذ إنها تمثل حلقة من حلقات إعجاز القـــرآن في الألفاظ والتي يظن أنها مترادفة , والباحثة تحث الدارسين والدارسات إلى خوض هـــذا المعترك حتى تكون النتيجة مكتملة على وجه اليقين .

2- التوصية بوضع ضوابط حول الفرق بين نظم القرآن ونظم البشر فيا يتـــصل بهـــذا الجانب من الوجوه المختلفة التي تتبعها البحث في سياق دراسته .

3- تنبيه الغافلين من أبناء جلدتنا _ ممن ضلوا عن الطريق _ أو من غيرنا بوضع لمـــسات ظاهرية تكاد تكون مما اتفق عليها في جميع الأمم بأنها أساس في بلاغـــة الكـــــــــــلام وجماله ,وبيان بروزها في القرآن كأبسط صورة من صور بلاغته فكيف بمـــن تعمـــق في دراسته ؟

وآخرا الحمد لله على توفيقه ومنه.

الباحثة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفهارس

وتشتمـــــل :

1) الآيـــات القرآنية .

2) الأحاديث النبوية .

3) الأشعـــــــــار .

4) المصادر والمراجــع .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

﴿ فهرس الآيات القرآنية ﴾

سورة البقرة

16:6 -7: 204،168- 10: 170،167 –44: 54،20- 68: 22- 19 : 22 - 70
22: - 73: 20 ، 22 ، 54 ، 60 - 74: 19 ، 21- 75: 20 ، 26 ، 54 ، 64- 76
20، : 33 ، 54 ، 57- 79 :33- 88 : 19 ، 37 - 93: 19، 21 ، 34-97: 393
، 394 ، 400 ، 532 - 118 : 244 ، 269 – 163 : 420 – 164 : 419 –
171 : 245 ، 307 – 172 : 245 ، 307 - 179: 486 ، 495 ، 498-189:
204-496 : 229،228- 225: 506- 242: 486 ، 503 – 260 : 97 ، 80-
269 : 12 ، 486 ، 500- 283 : 506 ، 507 ، 511.

سورة آل عمران

7: 238،228- 8: 228،238- 65: 92- 103: 352 ، 362- 126: 352،353-
151: 169، 211 ، 536- 154: 296 – 156 : 244 ، 273 – 159 : 393 –
190 : 419 .

سورة النساء

63 : 228 ، 229 ، 231 ، 371 – 153 : 26 – 155 : 19 ، 37 – 162 : 40 .

سورة المائدة

12: 34- 13 : 19 ، 21 ، 24 ، 29 – 41 : 33 ، 169 ، 221 ، 225 – 50 :
296 – 52 : 168 ، 171 ، 184 – 58 : 318 – 69 : 141 – 82 : 32 ، 109 –
83 : 32 ، 109- 100 : 506 ، 515 – 103 : 245 ، 311 – 113 : 95 ، 105
– 115 : 26 .

سورة الأنعام

25 : 244 ، 246 – 32 : 458 ، 475 – 43 : 24 ، 244 ، 259 – 46 : 168 ،
204 – 68 : 26 – 103 : 67 – 110 : 137 ، 245 ، 300 - 112 : 137 –
113 : 137 ، 245 – 245 – 125 : 338 – 151 : 506 ، 517 – 54 : 97 –
157 : 97 .

سورة الأعراف

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

100: 113، 114، 117 -101: 113، 114 -169: 20، 54، 59-179 : 244 ،
276 – 201 : 519 .

سورة الأنفال

2: 319 ، 320 – 10 : 352 ، 353 ، 533 – 11 : 352 ، 353 – 12 : 169 ،
151 ، 536 – 22 : 245 ، 314 – 23 : 207 ، 530 – 24 : 458 ، 483- 49 :
168 ، 171 ، 188 – 63 : 352 ، 362 – 70 : 458 ، 483 .

سورة التوبة

8: 170، 221- 14: 352، 377 - 15: 352 ،377 - 45: 228، 233 - 60:
486 ، 487 ، 488 – 64 : 228 ، 241 – 77 : 235 – 87 : 168 ، 194 – 93
: 168 ، 195 – 110 : 228 ، 233 – 117 : 352 ، 372 – 125 : 167 ، 170 ،
180 – 127 : 232 .

سورة يونس

16 : 458 ، 462 – 42 : 458 ، 466 – 74 : 113 ، 114 – 88 : 19 ، 47 –
100 : 113 ، 120 .

سورة هود

51: 95، 101- 87 : 482- 120 : 393، 405 .

سورة يوسف

2: 95، 96- 35 : 26 - 109: 95 ، 96- 111: 95 .

سورة الرعد

4 : 433 – 19 : 458 ، 473-28 : 319، 320 .

سورة إبراهيم

25 : 128 – 37 : 79 ، 87 – 43 : 50 ، 132 ، 133 ، 150 – 48 : 134 – 52
: 142 ، 153 ، 156 .

سورة الحجر

12 : 244 ، 266 – 97 : 83 .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سورة النحل

12 : 419 ، 427 – 22 : 245 ، 278 – 67 : 419 ، 427 – 78 : 448 ، 449 – 106 : 319 ، 337 – 108 : 168 ، 202 .

سورة الإسراء

36: 506 ، 514 – 46 : 244 ، 246

سورة الكهف

14: 20، 52- 28: 245 ، 284 – 57 : 244 ، 246 ، 257 .

سورة مريم

86: 15 .

سورة طه

25: 338- 31 : 48 – 54 : 20 ، 70 – 128 : 20 ، 70 ، 117 .

سورة الأنبياء

3: 245، 288- 10: 430، 458 ، 459 – 67 : 79 ، 90 .

سورة الحج

2 : 51 – 32 : 486 ، 487 ، 489 – 35 : 319 ، 320 – 46 : 56 ، 458 ، 471 –53 : 24 ، 168 ، 171 ، 190 ، 244 ، 259 – 54 : 319 ، 320 ، 330 .

سورة المؤمنون

60 : 319 ، 338 -63: 245، 292- 78: 448 ، 449 – 80 : 419 ، 429 .

سورة النور

2: 107- 37: 132، 133 - 50: 167،170 ، 183 – 61: 487 ، 503 .

سورة الفرقان

32: 405 – 44 : 458 ، 468.

سورة الشعراء

28: 54،20، 67 - 89 : 79 ، 80 ، 83 – 192 : 393 ، 394 ، 401 – 193 : 393 ، 394 ، 401 ، 523 ، 532 – 194 : 393 ، 394 ، 401 ، 523 ، 532 – 200 : 244 ، 266 .

سورة النمل

8: 2- 14: 26.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سورة القصص

10: 18، 19 ، 49 ، 539 – 60 : 458 ، 475.

ـ 563 ـ

سورة العنكبوت

35: 122 -43: 113 ، 45 : 492 – 63 : 433 ، 435 .

سورة الروم

24: 433، 438 -28: 433 -59: 168 ، 202 .

سورة لقمان

25: 102 .

سورة السجدة

6: 158 -7: 132 ، 156 .

سورة الأحزاب

4 : 506 ، 507 ، 509 – 5 : 506 ، 507 – 10 : 136 ، 352 ، 374 ، 531 – 12 : 167 : 170 ، 176 – 18 : 42 – 22 : 531 – 26 : 169 ، 211 – 32 : 168 ، 171 ، 186 – 33 : 296 – 51: 486 ، 487 ، 488 ، 492 – 53 : 486 ،494 –60 : 168 ، 171 ، 187 .

سورة سبأ

2: 132، 133 ،146.

سورة يس

62: 132 ، 156 ، 162 - 68: 448 ، 456 .

سورة الصافات

84: 79 ، 80 ، 85 ، 420- 137: 113 ، 129 – 138 : 113 ، 123 .

سورة ص

29 : 130 – 43 : 95 .

سورة الزمر

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

9 : 319 ، 342 – 18 : 319 ، 320 ، 334 – 21 : 24 ، 441 – 22 : 24 ، 244 ، 259 ، 263 – 23 : 319 ، 330 ،332 ، 540 – 28 : 97- 43 : 433 – 45 : 245 ، 278 –لا 71 : 15 – 73 : 15 .

سورة غافر

18: 132 ، 133 -35: 43 – 53 : 20 – 54 : 20 ، 76 – 67 : 448 ، 455.

سورة فصلت

5 :254 .

سورة الشورى

24: 393 ، 394 ، 397.

سورة الزخرف

3: 458 ، 459 .

سورة الجاثية

5: 419 ، 424 – 23 : 169 ، 205 .

سورة الأحقاف

26: 95، 103 .

سورة محمد

16 : 118 ، 168 ، 198 – 19 : 83 – 20 : 167 ، 170 ، 178 – 29 : 168 ، 178 .

سورة الفتح

4 : 352 ، 368 – 11 : 169 ، 221 – 18 : 352 ، 368 – 26 : 245 ، 294 .

سورة الحجرات

3: 263 ، 379 -7: 353، 379 -14: 391.

سورة ق

33: 132 ، 133، 148 -37: 132، 156 .

سورة الذاريات

21: 68 .

سورة الطور

32: 481 -34: 458.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سورة النجم

11: 393 ،405 .

سورة الحديد

16: 24، 108، 387 ، 540 -17: 433، 446 – 27 : 95 : 107 .

سورة المجادلة

22: 319، 346 .

سورة الحشر

2: 169، 211 ، 536 -10: 320، 350 – 14 : 242 – 21 : 128 .

سورة الممتحنه

10: 353، 384 .

سورة الصف

5: 16، 41 .

سورة المنافقون

3: 118، 168، 200.

سورة التغابن

11: 353، 384.

سورة الطلاق

10: 486 ، 502

سورة التحريم

9: 107 -4: 387 .

سورة الملك

10: 156، 162 ، 164 -23: 449 .

سورة المعارج

40: 69 – 41 : 69.

سورة المدثر

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

31: 167 ، 170، 181 .

سورة النازعات

8: 132، 133 ، 141 .

سورة الانفطار

13: 16

سورة المطففين

14: 245، 297.

سورة الفجر

5: 521 –27: 493 – 30 : 493 .

سورة البلد

14: 547 – 16 : 547.

سورة الهمزة

6: 158 – 7 : 132 ، 156 .

سورة الشرح

1: 338.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

﴿ فهرس الأحاديث النبوية ﴾

الأحاديث	رقم الصفحة
ائتوني بكتف أكتب لكم كتاباً	549
أتاكم أهل اليمن هم أضعف قلوباً	531
أتاكم أهل اليمن هم ألين قلوباً	531
أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار	51
إنما سمي القلب من تقلبه	529
أن لا يا ابنة الصديق	340
أهل اليمن أرق وألين أفئدة	531
البر ما سكنت إليه النفس وأطمأن إليه القلب	533
سبعة يظلهم الله في ظله	141
القلب مثل الريشة	529
كرم المؤمن تقواه	548
كل مولود يولد بالفطرة	329-62-25
لا تقوم الساعة	15
اللهم مصرف القلوب	530
ليلني منكم ألوا الأحلام	550
ما رأيت من نواقص عقول قط	546
ما من قلب إلا وهو بين إصبعين	530
ما من مولود إلا يولد على الفطرة	46
من ترك الجمعة ثلاث مرات	532
نور أنى أراه	415
يا معشر من قد أسلم بلسانه	532
يا معشر النساء تصدقن فأنكن أكثر	547
يا معشر النساء تصدقن فأني رأيتكن	546

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأحاديث	رقم الصفحة
يا معشر النساء تصدقن وأكثرن الاستغفار	546
يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك	530
يدخل الجنة أقوام أفئدهم	533

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

﴿ فهرس الأشعار ﴾

البيت	رقم الصفحة
قافية الهمزة	
فأنت مجوف نخب هواء	50
قافية الباء	
فقد عاشوا وليس لهم قلوبُ	538
وطأطأت رأسي والفؤاد كئيبُ	539
وأحوذيا إذا انضم الذعاليبُ	465
والحق يعرفه ذووا الألباب	550
والحق يعرفه ذووا الألباب	550
والحق يعرفه ذووا الألباب	550
قافية الحاء	
رجال تعزيهم قلوب صحائح	537
قافية الدال	
رجال وفت أحلامهم ولهم جد	553
قافية الراء	
فإنما هي إقبال وإدبار	39
عن آل شجع هناك اللؤم والخور	538
ولا حزن و لم يبلغ سرور	36
وأنتم الجوف الجماخير	553
بل كان قلبك في جناحي طائر	136
ألقت إليك مقاليد النهى البشر	554

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

البيـــــــــــــــــــــــــــــــــــت	رقم الصفحة
من بعض ما يعتري قلبي من الذكر	539
جسم البغال وأحلام العصافير	552
وخفة أحلام ضباعاً أنسراً	552
قافية السين	
يروع قلبه من كل جرس	534، 535
قافية العين	
في فضل أحلامهم عن ذلك متسع	554
قافية الفاء	537
وهل يردن خبل القلب تلهيفي	
قافية القاف	
من سر حبك معلق إعلاقا	537
على المجالس إن كيساً وإن حمقاً	551
قافية اللام	
بأحلامهم حتى تصاب مفاصله	554
إذا ما رأته عامر وسلول	549
كهام ولا فينا يعد بخيل	549
ولا ذمنا في النازلين نزيل	549
فكل رداء يرتديه جميل	549
فإن المسك بعض دم الغزال	63
رأيت لها من روعة الطلب أفكلا	534
قافية الميم	
لم يقيموا ، وخف منها الحلوم	552

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

البيت	رقم الصفحة
قافية النون لواعي الفؤاد حفيظ الأذن	537
قافية الهاء ذوو أحلامها وذوو نهاها	554
قافية الياء نكس هواء القلب ذي ماشية تقاضاه شيء لا يمل التقاضيا	534 ، 536 410

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فهرس المصادر والمراجع :

فهرس المصادر والمراجع

§ القرآن الكريم .

§ أدوات التشبيه دلالتها واستعمالها في القرآن : د. محمود موسى حمدان ، مصر ، مطبعة الأمانة ، ط 1 ، 1413 هـ 1992م .

§ إعجاز القرآن : أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني ، ت : عماد الدين حيدر ، بيروت ، مؤسسة الكتب الثقافية ، ط 4 .

§ إعراب القرآن : أبو جعفر أحمد بن إسماعيل النحاس ،ت : د. زهير غازي ، بغداد ، مطبعة العاني .

§ أساس البلاغة : جار الله أبو القاسم محمود الزمخشري ، مكتبه لبنان ناشرون ، ط1 ، 1996م.

§ أسرار البلاغة : عبد القاهر الجرجاني ، ت : محمود شاكر ، القاهرة ، مطبعة المدني ، ط 1 ، 1412هـ -1991م-

§ أسرار التكرار القران الكريم : محمود الكرماني ، ت : عبد القادر عطا ، القاهرة ، دار الفضيلة .

§ الانتصاف : حاشية على الكشاف ، أحمد بن المنير : الرياض مكتبه العبيكان ، ط 1 ، 1428هـ - 1998م.

§ الأمالي : أبو علي القالي ، بيروت ، المكتبة العصرية ، 1424هـ - 2003م .

§ الإيضاح في علوم البلاغة : الخطيب القزويني ، ت : محمد الفاضلي ، صيدا ، المكتبة العصرية ، ط 1 ، 1422هـ - 2001م .

§ البحر المحيط : محمد بن يوسف أبي حيان الأندلسي ، ت: عادل عبد الجواد ، علي معوض ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ط1 ، 1422هـ - 2001م .

§ البخاري في الأدب المفرد : محمد بن إسماعيل البخار ي، ت: محمد فؤاد عبد الباقي ، دار البشائر الإسلامية ، ط3 ، 1409هـ .

§ بدائع الفوائد : ابن قيم الجوزية ، بيروت ، دار الكتاب العربي .

§ البرهان في علوم القرآن : بدر الدين الزركشي،ت : محمد إبراهيم ، دار الفكر .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

§ بلاغة الكلمة في التعبير القرآني : د . فاضل السامرائي ، عمان ، دار عمار ، ط 3 ، 1426هـ - 2005م .

§ ـ بيان إعجاز القرآن ضمن ثلاثة رسـائل في إعجاز القرآن: الخطابي ،ت: محمد خـلف ، القاهرة ، دار المعارف ، ط 4.

§ البيان والتبيين : أبو عثمان عمرو الجاحظ ، ت: إبراهيم شمس الدين ، بيروت ، مؤسسة الأعلمي ، ط1 ، 1423هـ - 2003م .

§ التبيان في إعراب القرآن : أبو البقاء العكبري ، الأردن ، بيت الأفكار الدولية .

§ التحرير والتنوير: محمد الطاهربن عاشور ، بيروت ، مؤسسة التاريخ ، ط1 ، 1420هـ-2000 م

§ التعبير القرآني : فاضل السامرائي ، عمان ، دار عمار، ط 1، 1425هـ 2004م.

§ التصوير الساخر في القرآن الكريم : د.عبد الحليم حفني ، الهيئة المصرية العلمية للكتاب.

§ تفسير أبي السعود : أبو السعود محمد الحنفي ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ط1 ، 1419 هـ - 1999م .

§ تفسير البغوي : أبو محمد الحسين البغوي ، بيروت ، دار ابن خزيمة ، ط 1 ، 1423هـ - 2002م .

§ التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم : د . عبد العظيم المطعني ، القاهرة ، مكتبه وهبة ، ط 1 ، 1420 هـ- 1999م .

§ تفسير الطبري : محمد بن جرير الطبري ، بيروت ، دار الفكر ، 1405 هـ .

§ التفسير العظيم : ابن كثير ، بيروت ، دار الجيل ، ط 2 ، 1410 هـ - 1990.

§ تفسير القرآن الكريم : محمد بن عثيمين ، الدمام ، دار ابن الجوزي ، ط1 ، 1423هـ

§ التفسير الكامل : ابن تيمية ، ت : أبي سعيد العمروي ، ط 1 ، 1423هـ - 2002م

§ التفسير الكبير : الفخر الرازي ، بيروت ، دار الإحياء .

§ تناسق الدرر في تناسب السور:السيوطي ،ت:عبد القادر عطا,بيروت ,دار الكتب العلمية ط1, 1406هـ- 1986م.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

§ تيسير الكريم الرحمن : عبد الرحمن السعدي ، ت: عبد الرحمن اللويحق ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ط 1 ، 1421هـــ - 2000م .
§ الجامع الصحيح المختصر : محمد بن إسماعيل البخاري ، ت: مصطفي ديب ، اليمامة ، دار ابن كثير ، ط3 ، 1407هـــ .
§ حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي : تركيا ، المكتبة الإسلامية .
§ الحماسة البصرية : صدر الدين البصري ، ت : مختار الدين أحمد ، بيروت عالم الكتب ، 1403هـــ - 1983م.
§ الخصائص : ابن جني ، ت : د. عبد الحميد الهنداوي ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ط2 ، 2003م – 1424هـــ .
§ خصائص التراكيب : د. محمد أبو موسى ، القاهرة ، مكتبه وهبة، ط 5 ، 1421هـــ - 2000م
§ درة التتريل وغرة التأويل : أبو عبد الله محمد الخطيب الاسكافي ، بيروت ، دار المعرفة ، ط 2 ، 1422هـــ - 2002م .
§ دراسات جديدة في إعجاز القرآن : د. عبد العظيم المطعني ، القاهرة ، مكتبة وهبة ، ط 1 ، 1407هـــ - 1996م .
§ دلائل الإعجاز : عبد القاهر الجرجاني ، ت : محمود شاكر ، القاهرة ، مطبعة المدني ، ط 3 ، 1413هـــ - 1992م .
§ دلالات التراكيب : د. محمد أبو موسى، القاهرة ، مكتبه وهبة ، ط2 ، 1421هـــ - 2000م
§ ديوان جرير : بيروت ، دار المعرفة، ط2 ، 1426هـــ 2005 م .
§ ديوان حسان بن ثابت : بيروت ، دار الأنصار .
§ ديوان الحطيئة : بيروت ، دار المعرفة ، ط1 ، 1423 هـــ _ 2003م .
§ ديوان الخنساء : بيروت دار المعرفة ، ط 2 ، 1425هـــ _ 2004 م.
§ ديوان الشماخ بن ضرار : ت: صلاح الدين الهادي : دار المعارف .
§ ديوان لبيد بن ربيعة : بيروت ، دار المعرفة ، ط1 ،2004م _ 1423هـــ .
§ ديوان المتنبي : بيروت ، دار الكتب العلمية ، ط1 ، 1418هـــ _ 1997م .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

§ ديوان ابن مقبل : ت : عبد الرحمن المصطاوي ، بيروت ، دار المعرفة 1427هـ ـ 2006م

§ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني : أبو الفضل شهاب الدين الآلوسي ، بيروت دار الكتب العلمية ، ط1 ، 1422هـ ـ 2001 م .

§ رصف المباني في شرح حروف المعاني : أحمد المالقي ، ت : أحمد محمد الخراط ، دمشق ، مجمع اللغة العربية .

§ سر صناعة الإعراب : أبو الفتح ابن جني : ت ، د.حسن هنداوي ، ط2 ، 1413هـ ـ 1993م

§ الشخصية اليهودية من خلال القرآن : د. صلاح الخالدي ، دمشق ، دار القلم ، ط 1 ، 1419هـ 1998م .

§ شرح جمل الزجاج (الشرح الكبير) : ابن عصفور الأشبيلي ، ت : صاحب أبو جناح ، بيروت ، عالم الكتب ، ط 1 ، 1419هـ ـ 1999م .

§ شرح ديوان الحماسة لأبي تمام : أبو علي أحمد بن محمد المرزوقي ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ط 1 ، 2003م ـ 1424هـ .

§ شرح المفصل : موفق الدين بن يعيش ، بيروت ، عالم الكتب .

§ الصحاح : الجوهري ، ت: د. إميل يعقوب ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ط1، 1420هـ 1999م .

§ صحيح مسلم : مسلم بن الحجاج النيسابوري ، ت : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث

§ صفاء الكلمة : عبد الفتاح الأشين ، الرياض ، دار المريخ ، 1403هـ 1983م.

§ الضوء المنير على التفسير : ابن قيم الجوزية ، الرياض ، مكتبة دار السلام .

§ عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح : بهاء الدين السبكي ، دار الإرشاد الإسلامي

§ الفروق اللغوية : أبو هلال العسكري ، بيروت ، دار الكتب العملية ، ط3 ،2005م_1426هـ.

§ فقه اللغة وسر العربية : أبو منصور إسماعيل الثعالبي .

§ في ظلال القرآن : سيد قطب ، القاهرة ، دار الشروق ، ط 1 ، 1425هـ ـ 2004م

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

§ القراءات العشر المتواترة من طريقي الشاطبية والدرة : علوي محمد بلفقيه .

§ الكليات : أبو البقاء الكفوي ، بيروت ، مؤســـــسة الرسالة ، ط1 ، 1412هـــ ـ 1992م

§ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل : جار الله الزمخشري ، ت: عادل عبد الموجود ، علي معوض ، الرياض ، مكتبه العبيكان ، ط1 ، 1418هـــ ـ 1998م .

§ لسان العرب : ابن منطور، ت : عبد الله علي الكبير ، محمد الشاذلي ، دار المعارف .

§ لطائف قرآنية : د . صلاح الخالدي ، دمشق ، دار القلم ، ط 3 ، 1425هـــ 2004م

§ لمسات بيانيه في نصوص التنزيل : د.فاضل السامرائي ، عمان ، دار عمار .

§ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز : أبو محمد عبد الحق بن عطية ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، ط2 .

§ محمد والفتح قراءة في جماليات البيان القرآني : د. طارق شلبي ،القاهرة ، دار الفردوس .

§ مختصر العلامة : سعد الدين التفتازاني ، بيروت ، دار الإرشاد الإسلامي .

§ المخصص : أبو الحسين علي بن إسماعيل النحوي اللغوي ـ ابن سيده ـ القاهرة ، دار الكتاب الإسلامي .

§ مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين : ابن قيم الجوزية ، ت : محمد الفقي ، دار الفكر .

§ المستدرك علي الصحيحين : محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري ، ت: مصطفي عبد القادر عطا ، دار الكتب ط1 ,1411هـــ .

§ معاني القراءات : أبو منصور الأزهري ، ت : عوض القوزي ط 1، 1412هـــ - 1999م.

§ معاني القرآن وإعرابه : أبو إسحاق إبراهيم بن السري : د – عبد الجليل شلبى ، بيروت ، عالم الكتب ، ط ا، 1408هـــ .

§ معاني النحو : د. فاضل صالح الســــــــامرائى ، دار الفكر ط 2 ، 2003م ـ1424هـــ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

§ معجم حرف المعاني : محمد حسن الشريف ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ط 1 ، 1417هـ 1996م .

§ المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي : مجموعة مستشرقين ، لندن ، مطبعة برلين ، 1955م.

§ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : محمد فؤاد عبد الباقي ، القاهرة ، دار الحديث ، ط 3 ، 1411هـ - 1991م.

§ معجم مقاييس اللغة : أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا الرازي ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ط 1 1420هـ 1999م.

§ المعجم الوسيط : أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبري ، ت : طارق عوض الله ، عبد المحسن إبراهيم ، دار الحرمين ،1415هـ .

§ مغني اللبيب عن كتب الأعاريب : أبو محمد عبد الله بن هشام ، ت : محمد محي الدين ، القاهرة ، دار الطلائع .

§ المطول : سعد الدين التفتازاني ، ت : عبد الحميد الهنداوي ، بيروت ، دار الكتب العلمية ط 1 ، 1422هـ - 2001م .

§ مفتاح العلوم : أبو يعقوب يوسف السكاكي ، بيروت ، دار الكتب العلمية

§ المفردات في غريب القرآن : الراغب الأصفهاني ، بيروت ، دار المعرفة ، ط 3 ، 1422هـ - 2001م .

§ من آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم : د. زغلول النجار ، القاهرة ، مكتبة الشروق الدولية ، ط 2 ، 1426هـ _ 2005 م .

§ من بلاغة القرآن : د . إبراهيم الجعلي ، عمان ، دار عمار.

§ من أسرار التعبير القرآني دراسة تحليلية لسورة الأحزاب : د. محمد أبو موسى ، القاهرة ، مكتبة وهبة ، ط2 ، 1416هـ 1996م .

§ ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل : أحمد بن إبراهيم الغرناطي ، ت : سعيد الفلاح ، بيروت ، دار الغرب الإسلامي ، ط1 ، 1983م .

§ مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص : ابن يعقوب المغربي ، بيروت ، دار الإرشاد الإسلامي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

§ نظرات لغوية في القرآن الكريم : د. صالح العايد ، الرياض ، كنوز اشبيليا ط3 ، 1425هـ _ 2004 .

§ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : برهان الدين أبي الحسن إبراهيم البقاعي ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ط1 ، 1415هـ _ 1995م .

§ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان : ابن خلكان ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، ط 1 ، 1417هـ _ 1997م .

الرسائل الجامعية :

1- خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية : د . عبد العظيم المطعني ، القاهرة ، مكتبة وهبة ، ط1 ، 1413هـ _ 1992م . ﴿ رسالة دكتوراة ﴾

2- اعتراضات الشيخ محمد الطاهر بن عاشور البلاغية في التحرير والتنوير عرض وتأصيل ودراسة : د . علي عبد الحميد عيسي .﴿ رسالة دكتوراة ﴾

3- الفاء في القرآن الكريم : عبد الله حميد غالب ، جامعة أم القري ﴿ رسالة ماجستير ﴾

ملحقات :

1- وضع النفي موضع النهي صوره وسياقاته في الذكر الحكيم : د. علي عبد الحميد عيسى ، بحث منشور في مجلة كلية اللغة العربية ، العدد 19 ، 1420 هـ _ 2000م

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com